مواعظ القرآن

مواعظ الآيات وصداها الروحي



أنور غني الموسوي

الجزء الأول

دار أقواس للنشر
العراق 2026

مواعظ القرآن

مواعظ الآيات وصداها الروحي

أنور غني الموسوي

مواعظ القرآن

مواعظ الآيات وصداها الروحي

أنور غني الموسوي

دار أقواس للنشر

العراق 2026

المحتويات

المحتويات 5

المقدمة 8

سورة الفاتحة 12

مَوَاعِظُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ (١-٧) 12

سورة البقرة 20

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (1-10) 20

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (11-20) 30

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢١-٣٠) 40

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ(31-40) 51

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (41-50) 60

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٥١-٦٠) 71

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٦١-٧٠) 81

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٧١-٨٠) 92

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٨١-٩٠) 102

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٠١-١١٠) 113

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١١١-١٢٠) 124

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٢١-١٣٠) 135

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٣١-١٤٠) 146

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٤١-١٥٠) 156

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٥١-١٦٠) 168

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٦١-١٧٠) 178

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (١٧١-١٨٠) 189
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (١٨١-١٩٠) 200
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (191-200)..... 211
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (201-210)..... 222
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (211-220)..... 232
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (2221-230)..... 243
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٣١-٢٤٠) 254
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٤١-٢٥٠) 265
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٥١-٢٦٠) 276
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٦١-٢٧٠) 288
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٧١-٢٨٠) 299
مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة (٢٨١-٢٨٦) 310
سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ 317
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١-١٠) 317
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١١-٢٠)..... 328
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٢١-٣٠)..... 339
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٣١-٤٠)..... 350
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٤١-٥٠)..... 360
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٥١-٦٠)..... 371
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٦١-٧٠)..... 381
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٧١-٨٠)..... 392
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٨١-٩٠)..... 403
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٩١-١٠٠)..... 414
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٠١-١١٠)..... 425
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١١١-١٢٠)..... 436

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٢١-١٣٠).....446
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٣١-١٤٠).....456
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٤١-١٥٠).....466
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٥١-١٦٠).....477
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٦١-١٧٠).....488
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٨١-١٩٠).....509
مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٩١-٢٠٠).....520

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ نُوراً يَهْدِي البَصَائِرَ فِي ظُلُمَاتِ التِّيهِ، وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ وَحْشَةِ الغَفْلَةِ وَبَرْدِ القَسْوَةِ، وَجَعَلَ كَلَامَهُ سِرَاجاً لَا يَنْطَفِئُ ضِيَاؤُهُ، وَبَحْراً لَا تَنْفَدُ عَجَائِبُهُ، وَنَبْعاً لَا يَنْضَبُ مَعِينُهُ. نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ أَصْغَى بِسَمْعِ عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ إِلَى جَلَالِ الوَحْيِ فَارْتَوَى، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ تَأَمَّلَ فِي مَقَاصِدِ الآيَاتِ وَمَلَكُوتِهَا فَاهْتَدَى، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى المَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، الَّذِي كَانَ القُرْآنُ خُلُقَهُ وَنَبْضَ حَيَاتِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَمَنْ تَبِعَهُ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛

فَإِنَّ كَلَامَ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ عَلَى الأَرْضِ اليَبَابِ أَحْيَاهَا، وَإِذَا لَامَسَ العَقْلَ الحَائِرَ هَدَاهُ، وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي أَرْجَاءِ الرُّوحِ أَحْدَثَ فِيهَا صَدًى لَا يَخْبُو أَثَرُهُ. وَمِنْ رَحِمِ هٰذَا الإِصْغَاءِ الخَاشِعِ وَالتَّدَبُّرِ البَصِيرِ، وُلِدَتْ فِكْرَةُ هٰذَا السِّفْرِ: «مَوَاعِظُ القُرْآنِ: مَوَاعِظُ الآيَاتِ وَالصَّدَى الرُّوحِيُّ»؛ لِيَكُونَ مِشْكَاةً مَقَاصِدِيَّةً وَنَافِذَةً وِجْدَانِيَّةً تَتَلَقَّى شُعَاعَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ، فَتُجَلِّي حِكْمَتَهَا الرُّشْدِيَّةَ لِلْعَقْلِ أَوَّلاً، ثُمَّ تَعْكِسُ إِشْرَاقَهَا عَلَى مِرْآةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ ثَانِياً بِلُغَةٍ تَنْبِضُ بِالمَجَازِ وَالرَّمْزِ، وَتُحَلِّقُ فِي آفَاقِ التَّأَمُّلِ الشُّعُورِيِّ البَعِيدِ عَنْ جَفَافِ التَّقْرِيرِ وَرَتَابَةِ السَّرْدِ التَّقْلِيدِيِّ.

لَقَدْ بُنِيَتْ صَفَحَاتُ هٰذَا الكِتَابِ عَلَى ثُنَائِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ تَصُوغُ مِنْ كُلِّ آيَةٍ عَالَماً مُتَنَاغِماً يَجْمَعُ بَيْنَ العَقْلِ وَالرُّوحِ؛ فَتُطِلُّ «المَوْعِظَةُ» أَوَّلاً كَقَبَسٍ حِكَمِيٍّ رَصِينٍ يَكْشِفُ عَنْ مَقْصِدِ الآيَةِ وَغَايَتِهَا التَّشْرِيعِيَّةِ، وَيُحَرِّرُ الفِكْرَ مِنْ أَغْلَالِ الوَسْوَسَةِ وَالجُمُودِ إِلَى رَحَابَةِ التَّيْسِيرِ وَالرُّشْدِ، ثُمَّ يَعْقُبُهَا «الصَّدَى الرُّوحِيُّ» كَتَدَفُّقٍ شُعُورِيٍّ يَبْدَأُ بِالحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ، ثُمَّ يَرْتَدُّ إِلَى أَعْمَاقِ الذَّاتِ لِيُفَكِّكَ أَوْهَامَهَا، وَيَسْتَحْضِرَ مَشَاهِدَ الطَّبِيعَةِ وَتَنَاقُضَاتِ المَادَّةِ، حَتَّى يَصِلَ بِالقَارِئِ إِلَى لَحْظَةِ التَّحَوُّلِ الرُّوحِيِّ وَالحُكْمِ القَطْعِيِّ الَّذِي يُعْلِنُ زَوَالَ الظِّلَالِ وَبَقَاءَ الحَقِّ الأَبَدِيِّ. فَهُوَ لَيْسَ شَرْحاً جَافّاً يُحْصِي الأَلْفَاظَ، بَلْ هُوَ تَجْرِبَةُ تَبَصُّرٍ وَمُعَايَشَةٍ تُحَوِّلُ المَقَاصِدَ العَقْلِيَّةَ إِلَى صُوَرٍ حَيَّةٍ تَسْرِي فِي العُرُوقِ.

بَوَّابَةُ النُّورِ وَمِيثَاقُ الدُّخُولِ

مَفَاتِيحُ الفَهْمِ فِي مَلَكُوتِ التَّدَبُّرِ لَا تُفْتَحُ بِمَعَاوِلِ الجَدَلِ الجَافِّ، بَلْ بِعُقُولٍ تَبْحَثُ عَنِ الحِكْمَةِ، وَأَنَامِلَ رُوحِيَّةٍ تَرْتَجِفُ شَوْقاً أَمَامَ جَلَالِ الكَلِمَةِ الإِلٰهِيَّةِ. هٰذَا الكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، «مَوَاعِظُ القُرْآنِ»، لَيْسَ مُجَرَّدَ حُرُوفٍ مَصْفُوفَةٍ عَلَى وَرَقٍ أَبْيَضَ، بَلْ هُوَ مِحْرَابٌ نَثْرِيٌّ يَجْمَعُ بَيْنَ بَصِيرَةِ الفِقْهِ المَقَاصِدِيِّ وَالإِصْغَاءِ الخَاشِعِ إِلَى الصَّدَى العَمِيقِ الَّذِي تَتْرُكُهُ آيَاتُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ فِي مَرَايَا النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ. فَفِي زَمَنٍ تَزْدَحِمُ فِيهِ الأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةُ وَتَتَشَتَّتُ فِيهِ البَصَائِرُ بَيْنَ ظِلَالِ المَادَّةِ الفَانِيَةِ وَتَكَلُّفِ الأَوْهَامِ، يَأْتِي هٰذَا العَمَلُ لِيَكُونَ مَلَاذاً هَادِئاً يُعِيدُ تَرْتِيبَ الكَوْنِ الدَّاخِلِيِّ لِلْإِنْسَانِ، وَيَصِلُ مَا انْقَطَعَ بَيْنَ الفِكْرِ وَمَقْصِدِهِ، وَبَيْنَ القَلْبِ وَنَبْعِهِ الأَوَّلِ.

لَقَدْ وُلِدَتْ فِكْرَةُ هٰذِهِ المَوَاعِظِ وَالأَصْدَاءِ مِنْ رَحِمِ التَّأَمُّلِ العَمِيقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، حَيْثُ تَتَجَلَّى الآيَةُ القُرْآنِيَّةُ كَشَمْسٍ مُشْرِقَةٍ تَهْدِي العَقْلَ بِبُرْهَانِهَا، وَتُدَاوِي جِرَاحَ الفِطْرَةِ بِنُورِهَا، وَتُقِيمُ مَوَازِينَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ فِي أَرْضِ الوِجْدَانِ. إِنَّنَا هُنَا لَا نُقَدِّمُ تَفْسِيراً تَقْلِيدِيّاً يَقِفُ عِنْدَ ظَاهِرِ العِبَارَةِ المَعْهُودَةِ، بَلْ نُقَدِّمُ تَجْرِبَةَ «اسْتِبْصَارٍ مَقَاصِدِيٍّ وَانْعِكَاسٍ رُوحِيٍّ»؛ حَيْثُ تَكْشِفُ «المَوْعِظَةُ» عَنْ غَايَةِ التَّشْرِيعِ وَحِكْمَةِ التَّيْسِيرِ بِلُغَةٍ أَدَبِيَّةٍ رَصِينَةٍ، ثُمَّ تَسْقُطُ الآيَةُ فِي «الصَّدَى» عَلَى مِرْآةِ الرُّوحِ، فَتُحَرِّكُ سَوَاكِنَهَا، وَتُفَكِّكُ أَوْهَامَهَا، وَتُعِيدُ صِيَاغَتَهَا فِي قَالَبٍ بَلَاغِيٍّ مَشْحُونٍ بِالمَجَازِ وَالرَّمْزِ، لِيَشْعُرَ القَارِئُ أَنَّ الخِطَابَ القُرْآنِيَّ يَتَنَزَّلُ عَلَى عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ هُوَ فِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ.

هَنْدَسَةُ المِعْمَارِ النَّثْرِيِّ وَفَلْسَفَةُ البِنَاءِ

بِنَاءُ هٰذَا السِّفْرِ يَقُومُ عَلَى تَعَانُقِ الحِكْمَةِ مَعَ الجَمَالِ؛ فَفِي جَنَاحِ «المَوْعِظَةِ» تَتَجَلَّى صَرَامَةُ الفِكْرِ الرُّشْدِيِّ وَالمَقْصِدِ التَّشْرِيعِيِّ فِي ثَوْبٍ أَدَبِيٍّ مَسْجُوعٍ يَنْأَى عَنِ المُبَاشَرَةِ الجَافَّةِ، لِيُحَرِّرَ العَقْلَ مِنَ التَّدْقِيقِ المُتَكَلَّفِ وَيَضَعَهُ أَمَامَ جَوْهَرِ الهِدَايَةِ مُبَاشَرَةً. وَفِي جَنَاحِ «الصَّدَى» يَنْبِضُ النَّثْرُ الفَنِّيُّ حَيْثُ تَتَلَاحَمُ رَهَافَةُ المَجَازِ مَعَ عُمْقِ الرَّمْزِ وَإِشْرَاقِ الِاسْتِعَارَةِ، لِتَنْسَابَ الكَلِمَاتُ فِي تَدَفُّقٍ شُعُورِيٍّ يُمَانِعُ رَتَابَةَ الحِكَايَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ. فَكُلُّ مَقْطُوعَةٍ هُنَا كُتْلَةٌ نَصِّيَّةٌ مُتَمَاسِكَةٌ تَتَنَفَّسُ بِنَفَسٍ طَوِيلٍ وَتُوَلِّدُ وِلَادَةً بِكْراً لَا تَتَكَرَّرُ مَطَالِعُهَا؛ تَصْهَرُ المَعَانِيَ القُرْآنِيَّةَ المُجَرَّدَةَ فِي بُوتَقَةِ التَّجْرِبَةِ الحَيَّةِ، فَتُحَوِّلُ العَدْلَ إِلَى مِيزَانٍ، وَالغَفْلَةَ إِلَى ظِلٍّ زَائِلٍ، وَالطُّمَأْنِينَةَ إِلَى مَاءٍ يَسْرِي فِي عُرُوقِ الأَرْضِ

اليَبَابِ، لِيَخْرُجَ القَارِئُ مِنْ كُلِّ آيَةٍ وَقَدِ اسْتَنَارَ عَقْلُهُ بِحِكْمَةِ المَوْعِظَةِ، وَلَامَسَتْ رُوحُهُ رَجْعَ الصَّدَى الحَقِيقِيَّ فِي وَاقِعِهِ وَسُلُوكِهِ.

جَدْوَى المَوْعِظَةِ وَالصَّدَى الرُّوحِيّ

مِرْآةُ الرُّوحِ الصَّقِيلَةُ وَالعَقْلِ البَصِيرِ لَا تَعْكِسُ نُورَ الوَحْيِ كَخَيَالٍ عَابِرٍ، بَلْ تُحَوِّلُهُ إِلَى حَيَاةٍ تَنْبِضُ فِي مَفَاصِلِ الإِنْسَانِ. إِنَّ القِرَاءَةَ المَقَاصِدِيَّةَ وَالفَنِّيَّةَ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ لَيْسَتْ تَرَفاً بَلَاغِيّاً وَلَا تَزْيِيناً لَفْظِيّاً، بَلْ هِيَ تَجْرِبَةٌ عَقْلِيَّةٌ وَوِجْدَانِيَّةٌ تَنْقُلُ المُتَلَقِّي مِنْ حُدُودِ الفَهْمِ الحَرْفِيِّ الجَافِّ إِلَى رَحَابَةِ المعَايَشَةِ الشُّعُورِيَّةِ الحَيَّةِ. وَتَتَجَلَّى الثَّمَرَةُ العَمَلِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ لِهٰذَا المَنْهَجِ المَزْدَوَجِ فِي أَرْبَعِ غَايَاتٍ جَوْهَرِيَّةٍ:

- كَسْرُ الأُلْفَةِ وَإِيقَاظُ الدَّهْشَةِ الأُولَى: حَاجِزُ الاعْتِيَادِ يُطْفِئُ بَرِيقَ المعَانِي فِي القُلُوبِ الغَافِلَةِ، فَيَأْتِي التَّنَاوُلُ الأَدَبِيُّ المَسْجُوعُ لِيُعِيدَ صِيَاغَةَ المَعْنَى فِي صُوَرٍ اسْتِعَارِيَّةٍ طَازِجَةٍ، تُحَوِّلُ المجَرَّدَاتِ إِلَى مَشَاهِدَ حِسِّيَّةٍ تُرَى بِالعَيْنِ وَتُلْمَسُ بِاليَدِ، فَتَسْتَعِيدَ الرُّوحُ دَهْشَتَهَا الأُولَى أَمَامَ جَلَالِ الخِطَابِ الإِلٰهِيّ.
- تَفْعِيلُ البُعْدِ الإِنْسَانِيّ وَمُخَاطَبَةُ الفِطْرَةِ: غَيْبُوبَةُ النَّظَرِ الجَافِّ تَفْصِلُ النَّصَّ عَنْ وَاقِعِ الإِنْسَانِ وَأَشْوَاقِهِ، فَيَأْتِي المَنْهَجُ لِيُخَاطِبَ الفِطْرَةَ السَّوِيَّةَ، وَيُفَكِّكَ مَخَاوِفَهَا وَانْكِسَارَاتِهَا، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الوَحْيَ نَزَلَ لِإِحْيَاءِ الإِنْسَانِ وَتَكْرِيمِهِ لَا لِإِرْهَاقِهِ وَتَعْنِيتِهِ.
- تَحْرِيرُ العَقْلِ بِالرُّؤْيَةِ المَقَاصِدِيَّةِ: رُكَامُ الوَسْوَسَةِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى يُقَيِّدُ البَصِيرَةَ، فَتَأْتِي «المَوْعِظَةُ» لِتَكْشِفَ عَنْ حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ وَغَايَاتِ التَّيْسِيرِ وَرَفْعِ الحَرَجِ، فَيَسْتَقِيمَ المِيزَانُ العَقْلِيُّ وَيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ مِنْ أَوْهَامِ التَّشْدِيدِ وَالجُمُودِ.
- تَحْوِيلُ التَّدَبُّرِ إِلَى سُلُوكٍ وَيَقِينٍ: انْفِصَالُ المعْرِفَةِ عَنِ الوِجْدَانِ يُورِثُ قَسْوَةَ القَلْبِ، فَيَأْتِي «الصَّدَى الرُّوحِيُّ» لِيَصْهَرَ الحَقِيقَةَ الكَوْنِيَّةَ فِي نَبْضِ الذَّاتِ، فَيَتَحَوَّلَ التَّأَمُّلُ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ رَاسِخَةٍ وَسُلُوكٍ يَصِلُ العَبْدَ بِخَالِقِهِ فِي كُلِّ حِينٍ.

مِيثَاقُ القِرَاءَةِ وَدَعْوَةُ الإِبْحَارِ

فِي ظِلِّ هٰذِهِ الصَّفَحَاتِ، يَتَحَوَّلُ القَارِئُ مِنْ مُتَلَقٍّ عَابِرٍ إِلَى شَرِيكٍ فِي رِحْلَةِ البَحْثِ عَنِ الحِكْمَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. فَكُلُّ آيَةٍ هُنَا تَفْتَحُ لَكَ نَافِذَتَيْنِ: نَافِذَةَ «المَوْعِظَةِ» لِتُبْصِرَ بِعَقْلِكَ مَقْصِدَ السَّمَاءِ وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ، وَنَافِذَةَ «الصَّدَى» لِتَرَى فِي مِرْآتِهَا نَفْسَكَ بِلَا أَقْنِعَةٍ، وَتَقِيسَ مَسَافَةَ القُرْبِ وَالبُعْدِ بَيْنَ خُطُوَاتِكَ وَبَيْنَ صِرَاطِ الحَقِّ. لَا تَقْرَأْ هٰذَا الكِتَابَ بِعَجَلَةِ العَابِرِينَ الَّذِينَ يَلْتَهِمُونَ السُّطُورَ دُونَ تَوَقُّفٍ، بَلِ اقْرَأْهُ بِأَنَاةِ الغَوَّاصِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ اللُّؤْلُؤِ فِي أَعْمَاقِ البِحَارِ، لِتُدْرِكَ بِبَصِيرَتِكَ نُورَ المَوْعِظَةِ، وَتَسْمَعَ فِي سُكُونِ قَلْبِكَ رَجْعَ الصَّدَى الَّذِي تُحْدِثُهُ الآيَاتُ.

تَوَقَّفْ عِنْدَ كُلِّ حِكْمَةٍ وَاسْتِعَارَةٍ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ المَعَانِي الذِّهْنِيَّةُ المُجَرَّدَةُ إِلَى أَشْجَارٍ وَمِيَاهٍ وَمَوَازِينَ وَأَنْوَارٍ تَنْبِضُ بِالحَيَاةِ. وَاجْعَلْ مِنْ هٰذِهِ النُّصُوصِ جِسْراً يَعْبُرُ بِكَ مِنَ التَّشَتُّتِ إِلَى السَّكِينَةِ، وَمِنْ ضَجِيجِ الأَرْضِ إِلَى رَحَابَةِ السَّمَاءِ.

فَيَا أَيُّهَا القَارِئُ الكَرِيمُ، ادْخُلْ هٰذَا المِحْرَابَ بِعَقْلٍ يَقِظٍ وَقَلْبٍ حَاضِرٍ، وَتَمَهَّلْ عِنْدَ عَتَبَاتِ كُلِّ آيَةٍ؛ لِتَجْمَعَ بَيْنَ رُشْدِ الفِكْرِ وَنَبْضِ الوِجْدَانِ. نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ هٰذَا العَمَلَ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَأَنْ يَكُونَ مِشْكَاةً هَادِيَةً وَصَدًى طَيِّباً يَتَرَدَّدُ أَثَرُهُ فِي القُلُوبِ الحَيَّةِ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ لَا تَصِلُ العَقْلَ وَالقَلْبَ بِخَالِقِهِمَا هِيَ غُبَارٌ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِنُورٍ يُشْرِقُ مِنْ مِشْكَاةِ الوَحْيِ وَيَبْقَى بِبَقَاءِ اللَّهِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ (١-٧)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 1 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِفْتَاحُ النُّورِ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الوُجُودِ، وَبَرَكَةُ الِاسْمِ الأَعْظَمِ تَغْمُرُ الخُطُوَاتِ فِي مَطْلَعِ كُلِّ مَسِيرٍ وَوُرُودٍ؛ فَلَا تَسْتَقِيمُ رِحْلَةٌ فِي مَفَازَةِ الحَيَاةِ بِلَا اسْتِفْتَاحٍ بِمَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، وَلَا يَطْمَئِنُّ جَنَانٌ إِلَّا حِينَ يَسْتَظِلُّ بِرَحْمَةٍ شَامِلَةٍ تَسَعُ الخَلْقَ أَجْمَعِينَ، وَرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ تَحُفُّ الصَّادِقِينَ فِي كُلِّ حِينٍ. فَحِينَ يَتَّكِئُ السَّائِرُ عَلَى بَرَكَةِ الِاسْمِ الرَّحِيمِ، تَتَذَلَّلُ أَمَامَهُ العَقَبَاتُ وَتَصْفُو لَهُ المَقَاصِدُ وَتُبَارَكُ لَهُ الأَعْمَالُ. فَمَنِ اسْتَفْتَحَ أَمْرَهُ بِاسْمِ رَبِّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ نَالَ التَّوْفِيقَ وَالأَمَانَ، بَيْنَمَا يَتَعَثَّرُ الغَافِلُ فِي تِيهِ الأَسْبَابِ حِينَ يَبْدَأُ سَعْيَهُ مَقْطُوعاً عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

مِفْتَاحُ البَرَكَةِ وَظِلُّ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

صَدَى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

نُورٌ سَمَاوِيٌّ يَسْتَفْتِحُ بِهِ القَلْبُ كُلَّ خُطْوَةٍ، فَيَسْتَمِدُّ العَوْنَ وَالبَرَكَةَ مِنَ الخَالِقِ الجَلِيلِ وَيَسْتَظِلُّ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ الشَّامِلَةِ وَلُطْفِهِ الخَاصِّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِقْلَالِ بِالقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ عِنْدَ بِدَايَةِ الأَعْمَالِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ يَبْدَأُ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ مَحْفُوظٌ وَمُبَارَكٌ. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ خُطًى قَدِيماً حِينَ انْطَلَقَتْ بِاسْمِ الهَوَى وَالأَنَانِيَّةِ دُونَ أَنْ تَعْقِدَ صِلَتَهَا بِالسَّمَاءِ، حَتَّى أَرْشَدَنَا الوَحْيُ إِلَى هٰذَا المِفْتَاحِ النُّورَانِيِّ فِي مَطْلَعِ الكِتَابِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي تَرْفَعُ مِرْسَاتَهَا عِنْدَ الفَجْرِ لِتُبْحِرَ فِي المحِيطِ الفَسِيحِ، كَيْفَ يَرْفَعُ رُبَّانُهَا الشِّرَاعَ الأَبْيَضَ المَكْتُوبَ عَلَيْهِ اسْمُ المَلِكِ الكَرِيمِ لِتَتَلَقَّاهُ رِيَاحُ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ فَتَسُوقَهُ بِأَمَانٍ وَسَلَامٍ نَحْوَ المِينَاءِ المَنْشُودِ دُونَ أَنْ تُغْرِقَهُ

الأَمْوَاجُ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَجْعَلُ اسْمَهُ مِفْتَاحاً لِكُلِّ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ وَتَوْفِيقٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ بِدَايَاتِي كُلُّهَا إِلَى اسْتِعَانَةٍ خَاشِعَةٍ تَبْدَأُ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. فَكُلُّ أَمْرٍ يَخْلُو مِنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ مَآلُهُ النَّقْصُ وَالانْقِطَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 2 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَشِيدُ الثَّنَاءِ المطْلَقِ يَرْتَفِعُ مِنْ أَرْجَاءِ الكَوْنِ كُلِّهِ لِيَصُبَّ فِي مِحْرَابِ المَلِكِ الَّذِي أَبْدَعَ العَوَالِمَ وَرَبَّاهَا بِنِعَمِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ فَلَا جَمَالَ فِي الوُجُودِ إِلَّا وَهُوَ أَثَرٌ مِنْ كَمَالِهِ، وَلَا عَطَاءَ يَتَدَفَّقُ إِلَّا وَهُوَ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ جُودِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ. فَحِينَ يَتَحَرَّرُ الجَنَانُ مِنْ رِقِّ المخْلُوقِينَ وَيُرْجِعُ الفَضْلَ كُلَّهُ إِلَى مُرَبِّي العَالَمِينَ، يَمْتَلِئُ الصَّدْرُ بِالرِّضَا وَالسَّكِينَةِ وَيَرَى اللُّطْفَ الخَفِيَّ فِي كُلِّ تَدْبِيرٍ وَقَضَاءٍ. فَمَنْ عَمَرَ قَلْبَهُ بِحَمْدِ رَبِّ العَالَمِينَ أَفَاضَ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ المزِيدَ وَالأَمَانَ، بَيْنَمَا يَغْرَقُ الجَاحِدُ المنْكِرُ لِلنِّعَمِ فِي ظُلُمَاتِ السَّخَطِ وَالوَحْشَةِ وَالحِرْمَانِ.

الصَّدَى

نَشِيدُ الكَوْنِ وَتَرْبِيَةُ رَبِّ العَالَمِينَ

صَدَى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

تَسْبِيحَةُ عِرْفَانٍ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَتُثْنِي عَلَى الخَالِقِ بِكَمَالِهِ وَتُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ الَّتِي تَرْعَى كُلَّ العَوَالِمِ وَتُدَبِّرُ شُؤُونَهَا بِحِكْمَةٍ وَرَحْمَةٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ السَّخَطِ عَلَى الأَقْدَارِ أَوِ التَّعَلُّقِ بِمَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الرِّضَا بِتَرْبِيَةِ رَبِّ العَالَمِينَ لِي فِي كُلِّ حَالٍ. وَكَمْ شَقِيَتِ القُلُوبُ قَدِيماً حِينَ غَفَلَتْ عَنْ حَمْدِ المنْعِمِ فَرَأَتِ النِّعَمَ عَادَةً وَالبَلَاءَ قَسْوَةً، حَتَّى أَنَارَتْ هٰذِهِ الآيَةُ البَصَائِرَ بِحَقِيقَةِ الحَمْدِ لِرَبِّ العَالَمِينَ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانَ الفَسِيحَ الَّذِي يَضُمُّ آلَافَ الأَشْجَارِ وَالأَزْهَارِ وَالطُّيُورِ المخْتَلِفَةِ، كَيْفَ يَتَعَاهَدُهُ البُسْتَانِيُّ الحَكِيمُ بِالسُّقْيَا وَالتَّقْلِيمِ وَالحِمَايَةِ فِي كُلِّ فَصْلٍ، فَتَرْفَعُ الأَغْصَانُ أَوْرَاقَهَا وَتُغَرِّدُ الطُّيُورُ بِأَعْذَبِ الأَلْحَانِ حَمْداً وَشُكْراً لِمَنْ رَبَّاهَا وَأَحْسَنَ

تَدْبِيرَهَا. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ كُلَّهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى حَمْدٍ دَائِمٍ يَرَى رُبُوبِيَّةَ الخَالِقِ وَحِكْمَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَكُلُّ ثَنَاءٍ يُصْرَفُ لِغَيْرِ السَّمَاءِ قَاصِرٌ فَانٍ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 3 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

سَحَائِبُ الجُودِ الإِلٰهِيِّ تَظِلُّ الوُجُودَ بِجَنَاحَيْنِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَا يَنْقَطِعُ مَدَدُهُمَا وَلَا يَجِفُّ نَبْعُهُمَا؛ رَحْمَةٌ عَامَّةٌ تَفِيضُ بِالأَرْزَاقِ وَالنَّسَمَاتِ عَلَى كُلِّ كَائِنٍ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَرَحْمَةٌ خَاصَّةٌ تَحْتَضِنُ أَرْوَاحَ المؤْمِنِينَ بِالهِدَايَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالِاصْطِفَاءِ. فَرُبُوبِيَّةُ المَلِكِ الحَقِّ لَيْسَتْ قَهْراً يَسْحَقُ العِبَادَ، بَلْ هِيَ رَحْمَةٌ تَسْبِقُ الغَضَبَ وَتَفْتَحُ أَبْوَابَ الرَّجَاءِ أَمَامَ كُلِّ مُنْكَسِرٍ يَلُوذُ بِحِمَاهَا. فَمَنْ أَوَى إِلَى ظِلِّ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ سَكَنَ قَلْبُهُ وَأَمِنَ خَوْفَهُ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ القَانِطُ المسْتَكْبِرُ نَفْسَهُ مِنْ غَيْثِ الرَّحْمَةِ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الرَّحْمَةِ وَأَمَانُ الرَّجَاءِ

صَدَى ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

نَسَائِمُ اللُّطْفِ الإِلٰهِيِّ تَهَبُّ عَلَى الأَرْوَاحِ لِتُؤَكِّدَ أَنَّ تَرْبِيَةَ الخَالِقِ لِلْعَالَمِينَ قَائِمَةٌ عَلَى الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ وَالرَّأْفَةِ الدَّائِمَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخَوْفِ المرْعِبِ الَّذِي يُقَنِّطُ النَّفْسَ مِنْ رَوْحِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّنِي فِي رِعَايَةِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِي تَسَعُ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَمْ أَثْقَلَتِ الهُمُومُ قَدِيماً قُلُوباً غَفَلَتْ عَنْ سَعَةِ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ، حَتَّى غَمَرَهَا تَكْرَارُ هٰذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الجَلِيلَيْنِ بِالطُّمَأْنِينَةِ وَاليَقِينِ! أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ الدَّافِئَةَ الَّتِي تُرْسِلُ ضِيَاءَهَا العَامَّ لِتُدْفِئَ الأَرْضَ كُلَّهَا وَتُحْيِيَ الكَائِنَاتِ جَمِيعاً، ثُمَّ تَنْعَكِسُ أَشِعَّتُهَا الصَّافِيَةُ فِي مِرْآةِ البُحَيْرَةِ الهَادِئَةِ لِتَمْنَحَهَا بَرِيقاً خَاصّاً وَجَمَالاً فَرِيداً لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَغْمُرُ العَالَمِينَ بِرَحْمَتِهِ وَيَخُصُّ أَوْلِيَاءَهُ بِلُطْفِهِ

وَهِدَايَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى رَجَاءٍ مُشْرِقٍ يَسْتَمْطِرُ رَحْمَةَ الخَالِقِ وَيَرْحَمُ الخَلْقَ. فَكُلُّ قَسْوَةٍ فِي الحَيَاةِ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 4 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ العَدْلِ الأَعْظَمُ يَنْتَصِبُ فِي سَاحَةِ الحَشْرِ الكُبْرَى حِينَ تَتَلَاشَى مَمَالِكُ الطِّينِ وَتَسْقُطُ تِيجَانُ المُتَجَبِّرِينَ، فَلَا يَبْقَى فِي ذٰلِكَ اليَوْمِ المَهِيبِ مُتَصَرِّفٌ وَلَا حَاكِمٌ وَلَا مَالِكٌ إِلَّا الدَّيَّانُ الوَاحِدُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الخَلَائِقِ بِالقِسْطِ المُبِينِ. فَتِلْكَ المَهَابَةُ تُقِيمُ التَّوَازُنَ فِي الوِجْدَانِ بَيْنَ سَعَةِ الرَّجَاءِ فِي الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وَبَيْنَ الرَّهْبَةِ مِنْ سَاعَةِ العَرْضِ وَالجَزَاءِ؛ إِذْ تُرَدُّ الحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا وَتُكْشَفُ السَّرَائِرُ المَكْتُومَةُ أَمَامَ العَالَمِينَ. فَمَنْ أَعَدَّ لِيَوْمِ الدِّينِ صَحِيفَةً نَقِيَّةً وَعَدْلاً مَعَ الخَلْقِ أَمِنَ هَوْلَ المَوْقِفِ، بَيْنَمَا يَقِفُ الظَّالِمُ المُغْتَرُّ عَارِياً مِنَ السُّلْطَانِ أَمَامَ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

الصَّدَى

سُلْطَانُ المَعَادِ وَمِيزَانُ الدَّيَّانِ

صَدَى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

صَيْحَةُ يَقَظَةٍ تَهُزُّ الضَّمَائِرَ الغَافِلَةَ، فَتُذَكِّرُ بِاليَوْمِ الَّذِي يَنْفَرِدُ فِيهِ الخَالِقُ بِالمُلْكِ وَالحُكْمِ وَالجَزَاءِ، حِينَ تَتَلَاشَى كُلُّ الأَسْبَابِ وَالشُّفَعَاءِ إِلَّا بِإِذْنِهِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاغْتِرَارِ بِسُلْطَانِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ أَوِ الإِفْلَاتِ مِنَ الحِسَابِ عَلَى المَظَالِمِ، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ الِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي لَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ. وَكَمْ طَغَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً حِينَ نَسِيَتْ أَنَّ لِلْوُجُودِ مَوْعِداً يَنْتَصِبُ فِيهِ مِيزَانُ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ! أَتَأَمَّلُ المَلِكَ العَادِلَ الَّذِي يَتْرُكُ عُمَّالَهُ يَعْمَلُونَ فِي الحَقْلِ طِيلَةَ النَّهَارِ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ الغُرُوبِ عَلَى عَرْشِهِ العَظِيمِ فِي سَاحَةِ القَصْرِ لِيُحَاسِبَ كُلَّ عَامِلٍ عَلَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ فَيُكْرِمَ المُحْسِنَ الأَمِينَ وَيُعَاقِبَ الخَائِنَ المُفْسِدَ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ أَحَدٌ رَدَّ حُكْمِهِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي يُقِيمُ العَدْلَ المُطْلَقَ يَوْمَ اللِّقَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَعْمَالِي فِي الدُّنْيَا إِلَى مَرَاقَبَةٍ صَادِقَةٍ

تُحْسَبُ حِسَابَ يَوْمِ الدِّينِ. فَكُلُّ مُلْكٍ فِي الأَرْضِ عَارِيَةٌ تَنْتَهِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 5 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ الحُرِّيَّةِ الكُبْرَى يَتَجَلَّى فِي تَجْرِيدِ العُبُودِيَّةِ وَالِاسْتِعَانَةِ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ؛ فَيَنْحَنِي الجَبِينُ فِي مِحْرَابِ التَّذَلُّلِ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ لِتَرْتَفِعَ الهَامَةُ شَامِخَةً فَوْقَ كُلِّ أَصْنَامِ الطِّينِ وَأَهْوَاءِ البَشَرِ. فَبَيْنَ غَايَةِ العِبَادَةِ الخَالِصَةِ مِنَ الرِّيَاءِ وَبَيْنَ وَسِيلَةِ الِاسْتِعَانَةِ المُتَبَرِّئَةِ مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، تَتَحَقَّقُ طُمَأْنِينَةُ الرُّوحِ الَّتِي تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ القِيَامَ بِحَقِّ الطَّاعَةِ إِلَّا بِمَدَدٍ مِنَ المَعْبُودِ نَفْسِهِ. فَمَنْ أَفْرَدَ رَبَّهُ بِالعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ نَالَ عِزَّةَ التَّوْحِيدِ وَتَوْفِيقَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَتَمَزَّقُ المُشْرِكُ المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ عُبُودِيَّةِ المَخْلُوقِينَ وَخِذْلَانِ الأَسْبَابِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ التَّوْحِيدِ وَعِزَّةُ الِاسْتِعَانَةِ

صَدَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

مُحْوَرُ الدِّينِ وَسِرُّ النَّجَاةِ، حَيْثُ يَتَجَرَّدُ القَلْبُ مِنْ عُبُودِيَّةِ مَا سِوَى الخَالِقِ وَيَتَبَرَّأُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ لِيَسْتَمِدَّ العَوْنَ كُلَّهُ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ وَحْدَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الرِّيَاءِ أَوِ الِاعْتِمَادِ عَلَى النَّفْسِ وَالمَخْلُوقِينَ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي عَبْدٌ لِلهِ وَحْدَهُ وَلَا مُعِينَ لِي إِلَّا هُوَ. وَكَمْ تَاهَتِ الأَرْوَاحُ قَدِيماً بَيْنَ التَّعَلُّقِ بِالخَلْقِ وَالغُرُورِ بِالذَّاتِ، حَتَّى جَمَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بَيْنَ إِخْلَاصِ العِبَادَةِ وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ فِي أَبْلَغِ عِبَارَةٍ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَقِفُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ فَلَا يَتَّجِهُ بِفَتِيلِهِ إِلَّا نَحْوَ المِشْكَاةِ الكُبْرَى لِيَقْتَبِسَ مِنْهَا شُعْلَةَ النُّورِ، وَلَا يَسْتَمِدُّ الزَّيْتَ الَّذِي يُبْقِيهِ مُتَّقِداً إِلَّا مِنْ خَزِينَةِ صَاحِبِ المِشْكَاةِ وَحْدَهُ فَيُضِيءُ بِنَقَاءٍ وَثَبَاتٍ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ العَبْدِ حِينَ يُنَاجِي رَبَّهُ بِقَوْلِهِ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فَيُحَقِّقُ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى عِبَادَةٍ نَقِيَّةٍ وَاسْتِعَانَةٍ دَائِمَةٍ بِالخَالِقِ الجَلِيلِ. فَكُلُّ عِبَادَةٍ لِغَيْرِ السَّمَاءِ ضَلَالٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ المَعْبُودِ المسْتَعَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 6 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْضُ الِافْتِقَارِ الأَعْظَمِ يَرْتَفِعُ مِنْ أَعْمَاقِ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ لِيَسْأَلَ دَلِيلَ الحَائِرِينَ أَنْ يُنِيرَ لَهَا الطَّرِيقَ الأَقْوَمَ وَيُثَبِّتَ خُطَاهَا عَلَى الجَادَّةِ السَّوِيَّةِ. فَلَيْسَ طَلَبُ الهِدَايَةِ مُجَرَّدَ سُؤَالٍ عَابِرٍ فِي مَطْلَعِ السَّيْرِ، بَلْ هُوَ حَاجَةٌ دَائِمَةٌ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَنَفَسٍ لِمَعْرِفَةِ الحَقِّ وَإِرَادَتِهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ وَسْطَ تَشَعُّبِ السُّبُلِ وَظُلُمَاتِ الفِتَنِ. فَمَنْ أَلَحَّ عَلَى مَوْلَاهُ فِي طَلَبِ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ أَشْرَقَتْ لَهُ مَعَالِمُ الطَّرِيقِ وَسَلِمَ مِنَ الزَّيْغِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المسْتَغْنِي بِرَأْيِهِ فِي أَوْدِيَةِ الحَيْرَةِ وَالتَّخَبُّطِ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الِافْتِقَارِ وَنُورُ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ

صَدَى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

أَعْظَمُ دُعَاءٍ يَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ، حِينَ يَعْتَرِفُ العَبْدُ بِحَاجَتِهِ الدَّائِمَةِ إِلَى نُورِ السَّمَاءِ لِيَعْرِفَ الطَّرِيقَ الوَاضِحَ المؤَدِّيَ إِلَى رِضَا الخَالِقِ وَيَثْبُتَ عَلَيْهِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِمَا عِنْدِي مِنَ العِلْمِ أَوِ الفَهْمِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّنِي مُفْتَقِرٌ إِلَى هِدَايَةِ رَبِّي فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ لِكَيْ لَا أَزِلَّ عَنِ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ. وَكَمْ تَاهَتْ عُقُولٌ ذَكِيَّةٌ قَدِيماً حِينَ ظَنَّتْ أَنَّهَا تَمْلِكُ بُوصَلَةَ الطَّرِيقِ بِنَفْسِهَا فَلَمْ تَسْأَلِ السَّمَاءَ الهِدَايَةَ، فَانْحَرَفَتْ بِهَا السُّبُلُ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَقْطَعُ صَحْرَاءَ وَاسِعَةً تَتَقَاطَعُ فِيهَا الرِّيَاحُ وَالرِّمَالُ المتَحَرِّكَةُ، كَيْفَ يَظَلُّ مُتَّصِلاً بِدَلِيلِ الطَّرِيقِ العَلِيمِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ لِيُرْشِدَهُ إِلَى الجِسْرِ المسْتَقِيمِ الوَحِيدِ الَّذِي يَعْبُرُ بِهِ فَوْقَ الهَاوِيَةِ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُعَلِّمُنَا فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ نَسْأَلَهُ الهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ دَعَوَاتِي إِلَى تَضَرُّعٍ مُسْتَمِرٍّ يَطْلُبُ

الهِدَايَةَ وَالثَّبَاتَ فِي كُلِّ أَمْرٍ. فَكُلُّ طَرِيقٍ غَيْرُ صِرَاطِ السَّمَاءِ مَآلُهُ التِّيهُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ الهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 7 مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَعَالِمُ الطَّرِيقِ الأَمِينِ تَتَّضِحُ بِالاقْتِدَاءِ بِمَوْكِبِ السَّعَادَةِ الَّذِي شَمِلَتْهُ مِنَّةُ التَّوْفِيقِ فَجَمَعَ بَيْنَ نُورِ العِلْمِ وَصِدْقِ العَمَلِ؛ وَفِي المُقَابِلِ تَتَجَلَّى حُفَرُ الهَلَاكِ فِي مَسْلَكَيْنِ مُنْحَرِفَيْنِ: مَسْلَكٌ عَرَفَ الحَقَّ ثُمَّ جَحَدَهُ كِبْراً وَعِنَاداً فَبَاءَ بِالغَضَبِ، وَمَسْلَكٌ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالهَوَى فَعَمِلَ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ فَوَقَعَ فِي الضَّلَالِ. فَسَلَامَةُ المسِيرِ تَكْمُنُ فِي العُبُورِ بَيْنَ هٰذَيْنِ الوَادِيَيْنِ المظْلِمَيْنِ عَلَى جِسْرِ العِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ. فَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ نَالَ الفَوْزَ وَالسَّلَامَةَ، بَيْنَمَا يَهْوِي مَنْ عَطَّلَ عِلْمَهُ أَوْ عَمِلَ بِجَهْلِهِ إِلَى دَائِرَةِ الغَضَبِ أَوِ الضَّلَالِ.

الصَّدَى

مَوْكِبُ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَالبَرَاءَةُ مِنَ الِانْحِرَافِ

صَدَى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

خَارِطَةُ النَّجَاةِ الكَامِلَةِ تَرْسُمُ مَوْكِبَ الصَّادِقِينَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَتُحَذِّرُ القُلُوبَ مِنْ طَرِيقِ المغْضُوبِ عَلَيْهِمُ الَّذِينَ عَرَفُوا الحَقَّ وَتَرَكُوهُ، وَمِنْ طَرِيقِ الضَّالِّينَ الَّذِينَ عَبَدُوا اللهَ عَلَى جَهْلٍ وَهَوًى. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِعِلْمٍ لَا يُثْمِرُ عَمَلاً أَوْ عَمَلٍ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ، وَتَسْتَقِرُّ بُوصَلَةُ الِاعْتِدَالِ الَّتِي تَقْتَدِي بِأَهْلِ النِّعْمَةِ وَالهُدَى. وَكَمْ انْزَلَقَتْ أَقْدَامٌ قَدِيماً نَحْوَ جُحُودِ العَالِمِينَ أَوْ تَخَبُّطِ الجَاهِلِينَ، حَتَّى عَصَمَنَا الوَحْيُ بِهٰذِهِ الخَاتِمَةِ الجَامِعَةِ لِسُورَةِ الفَاتِحَةِ! أَتَأَمَّلُ الجِسْرَ النُّورَانِيَّ المُمْتَدَّ بَيْنَ وَادِيَيْنِ سَحِيقَيْنِ؛ وَادٍ مُظْلِمٌ مَلِيءٌ بِالنَّارِ يَقَعُ فِيهِ مَنْ يَرَى الطَّرِيقَ بِعَيْنَيْهِ ثُمَّ يُلْقِي بِنَفْسِهِ فِيهِ عِنَاداً وَكِبْراً، وَوَادٍ آخَرُ مَلِيءٌ بِالضَّبَابِ وَالأَشْوَاكِ يَتِيهُ فِيهِ مَنْ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَيَمْشِي بِغَيْرِ دَلِيلٍ، بَيْنَمَا يَعْبُرُ أَهْلُ البَصِيرَةِ فَوْقَ الجِسْرِ المسْتَقِيمِ فِي نُورٍ

العِلْمِ وَأَمَانِ العَمَلِ الصَّالِحِ حَتَّى يَبْلُغُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ. فَمَا أَعْظَمَ هِدَايَةَ اللهِ الَّذِي يَجْمَعُ لَنَا فِي الفَاتِحَةِ دُسْتُورَ الحَيَاةِ وَمَعَالِمَ الطَّرِيقِ إِلَى رِضْوَانِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ خُطُوَاتِي إِلَى اقْتِدَاءٍ صَادِقٍ بِالمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ يَجْمَعُ بَيْنَ نُورِ العِلْمِ وَصِدْقِ العَمَلِ. فَكُلُّ انْحِرَافٍ عَنْ صِرَاطِ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ مَآلُهُ الغَضَبُ أَوِ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَهْدِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (1–10)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الم﴾

المَوْعِظَةُ

قِلَاعُ البَيَانِ الإِلٰهِيِّ تَشْمَخُ بِثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ مِنَ الهِجَاءِ المَأْلُوفِ، لِتُعْلِنَ أَنَّ مَعْدِنَ الوَحْيِ مُرَكَّبٌ مِنْ جِنْسِ مَا تَنْطِقُ بِهِ الشِّفَاهُ، وَلٰكِنَّ سَبْكَهُ يَعْلُو عَلَى مَدَارِكِ الفُصَحَاءِ وَالبُلَغَاءِ؛ فَتَنْكَسِرُ عَلَى عَتَبَتِهِ أَقْلَامُ المُتَحَدِّينَ، وَتَتَحَرَّرُ العُقُولُ مِنْ سَرَابِ التَّأْوِيلَاتِ البَاطِنِيَّةِ وَطَلَاسِمِ المُتَكَلِّفِينَ، لِيُبْصِرَ الضَّمِيرُ الحَيُّ أَنَّ إِعْجَازَ السَّمَاءِ يَسْطَعُ فِي وُضُوحِ الهِدَايَةِ لَا فِي غُمُوضِ الأَلْغَازِ، فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ نُورِ العَقْلِ وَالتَّدَبُّرِ أَدْرَكَ عَظَمَةَ التَّنْزِيلِ، وَمَنْ غَاصَ فِي أَوْهَامِ التَّكَلُّفِ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ التَّأْوِيلِ.

الصَّدَى

أَبْجَدِيَّةُ النُّورِ وَانْكِسَارُ الأَقْلَامِ

صَدَى ﴿الم﴾

أَبْرَاجُ الإِعْجَازِ السَّامِقَةُ تَنْبُتُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ بَسِيطَةٍ يَتَدَاوَلُهَا اللِّسَانُ كُلَّ حِينٍ لِتُخْرِسَ غُرُورَ الفُصَحَاءِ وَأَرْبَابِ البَيَانِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا السِّرِّ السَّاطِعِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الكِبْرِ الفِكْرِيِّ لِيُدْرِكَ أَنَّ قُدْرَةَ الخَالِقِ تَصْنَعُ مِنْ أَدَوَاتِ كَلَامِنَا اليَوْمِيِّ مُعْجِزَةً لَا تُدْرَكُ، وَكَمْ شَرَدَتْ بِيَ الظُّنُونُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ فِي مَتَاهَاتِ الرُّمُوزِ المُغْلَقَةِ الَّتِي تَحْجُبُ نُورَ الهِدَايَةِ عَنِ القُلُوبِ، أَرَى قَطَرَاتِ النَّدَى الصَّغِيرَةَ تَتَجَمَّعُ فَتَصْنَعُ بَحْراً لَا يُدْرَكُ قَعْرُهُ كَمَا تَتَأَلَّفُ حُرُوفُ الهِجَاءِ البَسِيطَةُ فَتُشَيِّدُ صَرْحَ القُرْآنِ العَظِيمِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَى الخَلْقِ مِنْ جِنْسِ لُغَتِهِمْ لِيَقْطَعَ أَعْذَارَ الجَاحِدِينَ وَيُطَمْئِنَ أَفْئِدَةَ المُؤْمِنِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحُرُوفُ فِي صَدْرِي إِلَى

مِحْرَابِ تَسْلِيمٍ يُطَهِّرُ فِكْرِي مِنْ وَسَاوِسِ التَّكَلُّفِ وَيَرُدُّنِي إِلَى رَحَابَةِ التَّدَبُّرِ العَمَلِيّ، فَكُلُّ بَيَانٍ بَشَرِيٍّ إِلَى انْقِطَاعٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِعْجَازَ إِلَّا لِكَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِشْكَاةُ اليَقِينِ المُطْلَقِ تَنْتَصِبُ فِي أُفُقِ الوُجُودِ لِتَقْشَعَ غُيُومَ الشَّكِّ وَتُبَدِّدَ ضَبَابَ الارْتِيَابِ؛ إِذْ يَشْهَدُ الوَحْيُ لِنَفْسِهِ بِالصِّدْقِ الصَّرِيحِ وَالبَيَانِ الصَّحِيحِ، وَلٰكِنَّ أَنْوَارَهُ لَا تَسْكُبُ رَحِيقَ الهِدَايَةِ إِلَّا فِي الأَوْعِيَةِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي تَهَيَّأَتْ بِالتَّقْوَى وَصَفَاءِ القَصْدِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ مِنْ تَلَبُّسِ الشُّبُهَاتِ وَأَوْهَامِ الجَدَلِ العَقِيمِ، وَيُدْرِكَ السَّائِرُ أَنَّ مَنَابِعَ النُّورِ تَفِيضُ بِالعَطَاءِ، وَلٰكِنَّ الحِرْمَانَ يَنْبُعُ مِنْ إِغْلَاقِ القُلُوبِ وَجَفَاءِ الأَهْوَاءِ، فَمَنْ أَقْبَلَ بِسَرِيرَةٍ نَقِيَّةٍ وَجَدَ فِي السُّطُورِ مَعَارِجَ الأَمَانِ، وَمَنْ أَدْبَرَ بِكِبْرٍ وَعِنَادٍ حُجِبَ عَنْ لَطَائِفِ التِّبْيَانِ.

الصَّدَى

مِشْكَاةُ اليَقِينِ وَالأَوْعِيَةُ المُغْلَقَةُ
صَدَى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

شَمْسُ اليَقِينِ السَّاطِعَةُ تُشْرِقُ مِنْ بَيْنِ دَفَّتَيِ الوَحْيِ بِلَا غَبَشٍ وَلَا التِبَاسٍ لِتَكُونَ دَلِيلَ الحَائِرِينَ فِي ظُلُمَاتِ الحَيَاةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا النُّورِ الصَّافِي يَغْسِلُ مَرَايَاهُ مِنْ غُبَارِ الغَفْلَةِ لِيُصْبِحَ أَهْلاً لِتَلَقِّي هِدَايَةِ السَّمَاءِ، وَكَمْ تَشَتَّتَتْ خُطَايَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ حِينَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الطُّمَأْنِينَةِ فِي مَصَادِرَ مُتَنَاقِضَةٍ تُورِثُ الشَّكَّ وَتَزِيدُ الرُّوحَ عَطَشاً، أَرَى الغَيْثَ الغَزِيرَ يَنْهَمِرُ عَلَى التُّرْبَةِ الخِصْبَةِ فَيُنْبِتُ الرَّيَاحِينَ بَيْنَمَا يَنْزَلِقُ عَنِ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ دُونَ أَثَرٍ كَمَا تَسْكُنُ هِدَايَةُ اللهِ فِي قُلُوبِ المُتَّقِينَ وَتَنْبُو عَنْهَا نُفُوسُ المُتَكَبِّرِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ التَّقْوَى مِفْتَاحاً لِفَهْمِ كِتَابِهِ لِيَكُونَ الِانْتِفَاعُ بِهِ ثَمَرَةً لِصِدْقِ الطَّلَبِ وَسَلَامَةِ الفِطْرَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ

تَزْكِيَةٍ يُطَهِّرُ بَاطِنِي قَبْلَ أَنْ أَمُدَّ يَدِي إِلَى صَفَحَاتِ التَّنْزِيلِ، فَكُلُّ مَنْهَجٍ بَشَرِيٍّ عُرْضَةٌ لِلرَّيْبِ وَالنَّقْصِ وَالزَّوَالِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا يَقِينَ إِلَّا فِي كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَسَوَاءِ المآلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَرْكَانُ الفَلَاحِ تَتَكَامَلُ فِي هَنْدَسَةٍ رُوحِيَّةٍ تَصِلُ جَنَاحَ البَصِيرَةِ بِجَنَاحِ العَمَلِ؛ فَيَسْمُو العَقْلُ عَنْ سِجْنِ المَحْسُوسَاتِ الضَّيِّقَةِ لِيُدْرِكَ حَقَائِقَ الغَيْبِ البَاقِيَةِ، وَتَسْتَقِيمُ الجَوَارِحُ فِي مِحْرَابِ الصَّلَاةِ لِتَشُدَّ أَوْصَالَ الرُّوحِ بِخَالِقِهَا، ثُمَّ تَفِيضُ اليَدُ بِالعَطَاءِ مِمَّا أَفَاءَهُ اللهُ عَلَيْهَا لِتُطَهِّرَ النَّفْسَ مِنْ شُحِّ المَادَّةِ وَأَغْلَالِ الأَنَانِيَّةِ، لِيَتَحَقَّقَ التَّوَازُنُ الرُّشْدِيُّ بَيْنَ إِيمَانٍ يُنِيرُ الضَّمِيرَ، وَعِبَادَةٍ تُزَكِّي السِّرَّ، وَبَذْلٍ يُعَمِّرُ الحَيَاةَ، فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ نُورِ الغَيْبِ وَصِلَةِ المِحْرَابِ وَسَخَاءِ اليَدِ اكْتَمَلَ بِنَاؤُهُ الإِيمَانِيُّ، وَمَنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى الطِّينِ الفَانِي انْقَطَعَ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الغَيْبِ وَفَيْضُ اليَدِ
صَدَى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

ثَلَاثُ مَنَارَاتٍ مُتَلَاحِمَةٌ تَرْفَعُ الإِنْسَانَ مِنْ طِينِ الأَرْضِ إِلَى مَلَكُوتِ القُرْبِ بِتَصْدِيقِ الغَيْبِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبَذْلِ العَطَاءِ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا التَّنَاغُمِ تَخْلَعُ قيودَ المادَّةِ الصَّمَّاءِ لِتُدْرِكَ أَنَّ الحَيَاةَ الحَقِيقِيَّةَ تَبْدَأُ حِينَ يَتَّصِلُ القَلْبُ بِمَا وَرَاءَ الحَوَاسِّ وَتَتَحَرَّرُ اليَدُ مِنْ أَسْرِ الِاكْتِنَازِ، وَكَمْ انْحَبَسَتْ بَصِيرَتِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ فِي قَفَصِ المَحْسُوسَاتِ العَابِرَةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ مَا تُدْرِكُهُ العَيْنُ هُوَ كُلُّ الوُجُودِ وَأَنَّ الإِمْسَاكَ هُوَ سِرُّ البَقَاءِ، أَرَى الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ تَمُدُّ جُذُورَهَا فِي غَيْبِ الثَّرَى لِتَسْتَمِدَّ الحَيَاةَ ثُمَّ تَرْفَعُ أَغْصَانَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ لِتُعْطِيَ ثِمَارَهَا لِلْعَابِرِينَ كَمَا يَصِلُ المؤْمِنُ قَلْبَهُ بِالغَيْبِ وَالصَّلَاةِ فَيَفِيضُ خَيْرُهُ عَلَى النَّاسِ بِإِذْنِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ صِدْقَ الإِيمَانِ بِصِلَةِ الرُّوحِ فِي الصَّلَاةِ وَسَخَاءِ النَّفْسِ فِي الإِنْفَاقِ لِيَظْهَرَ أَثَرُ اليَقِينِ فِي سُلُوكِ الإِنْسَانِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الصِّفَاتُ فِي

دَاخِلِي إِلَى مِيزَانِ حَيَاةٍ يُحَرِّرُ عَقْلِي مِنَ المادِّيَّةِ وَيُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ البُخْلِ وَالجَفَاءِ، فَكُلُّ مَالٍ يُحْبَسُ عَنْ سَبِيلِ الخَيْرِ سَرَابٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَمَاءَ إِلَّا لِمَا أُنْفِقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ تَتَجَلَّى فِي قَلْبٍ وَاسِعٍ يَحْتَضِنُ نُورَ الوَحْيِ الخَاتِمِ وَيُصَدِّقُ بِمَا سَبَقَهُ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّاتِ دُونَ تَعَصُّبٍ أَوْ جُحُودٍ؛ فَتَتَّصِلُ حَلَقَاتُ الهِدَايَةِ مِنْ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى تَمَامِ التَّنْزِيلِ، وَيَرْسُو مَرْكَبُ الوَعْيِ عَلَى شَاطِئِ اليَقِينِ بِالدَّارِ الآخِرَةِ الَّتِي تَمْنَحُ السَّعْيَ مَعْنَاهُ وَتُقِيمُ العَدْلَ فِي مَآلِهِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ مِنْ ضِيقِ التَّجْزِئَةِ وَأَوْهَامِ القَطِيعَةِ مَعَ مَوَاكِبِ الحَقِّ القَدِيمَةِ، فَمَنْ وَحَّدَ إِيمَانَهُ بِمَصْدَرِ الوَحْيِ وَأَيْقَنَ بِلِقَاءِ رَبِّهِ اسْتَقَامَتْ بُوصَلَةُ مَسِيرِهِ، وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ أَوْ غَفَلَ عَنْ يَوْمِ الجَزَاءِ تَاهَ فِي مَتَاهَاتِ الهَوَى وَالِانْقِسَامِ.

الصَّدَى

نَهْرُ النُّبُوَّاتِ وَمَرْسَى اليَقِينِ
صَدَى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

سِلْسِلَةُ النُّورِ الإِلٰهِيِّ تَمْتَدُّ عَبْرَ العُصُورِ كَنَهْرٍ وَاحِدٍ تَصُبُّ جَدَاوِلُ النُّبُوَّاتِ السَّابِقَةِ فِي بَحْرِ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ لِتَقُودَ البَشَرِيَّةَ نَحْوَ يَقِينِ الآخِرَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الِاتِّصَالِ المهِيبِ يَخْلَعُ ضِيقَ الأُفُقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ فِي جَوْهَرِهِ وَأَنَّ مَصِيرَ الخَلْقِ إِلَى دَارِ البَقَاءِ حَقِيقَةٌ لَا تَتَزَعْزَعُ، وَكَمْ تَاهَتْ بِيَ النَّظْرَةُ القَاصِرَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الشُّمُولِ حِينَ كُنْتُ أَرَى الزَّمَانَ قِطَعاً مُتَنَاثِرَةً وَأَحْسَبُ أَنَّ الدُّنْيَا هِيَ نِهَايَةُ المطَافِ، أَرَى قَافِلَةَ السُّفُنِ فِي البَحْرِ الكَبِيرِ تَتْبَعُ مَنَارَةً وَاحِدَةً تَهْدِيهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ إِلَى مِينَاءِ السَّلَامَةِ كَمَا تَتَلَاقَى قُلُوبُ المؤْمِنِينَ عَلَى الإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ وَاليَقِينِ بِيَوْمِ اللِّقَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ لِلْمُؤْمِنِ بَيْنَ الإِيمَانِ بِتَارِيخِ الوَحْيِ كُلِّهِ وَاليَقِينِ بِمُسْتَقْبَلِ

الآخِرَةِ كُلِّهِ لِيَطْمَئِنَّ عَقْلُهُ إِلَى وَحْدَةِ المَبْدَأِ وَالمعَادِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ طُمَأْنِينَةٍ يُوَحِّدُ نَظْرَتِي لِلْوُجُودِ وَيُحَرِّرُنِي مِنْ قَلَقِ الفَنَاءِ، فَكُلُّ مَرْحَلَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ عُبُورٌ سَرِيعٌ إِلَى انْقِضَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا اسْتِقْرَارَ إِلَّا فِي الدَّارِ الآخِرَةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِأَهْلِ اليَقِينِ وَالوَفَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَمَرَةُ الِاسْتِقَامَةِ تَتَوَّجُ أَهْلَ البَصِيرَةِ بِتَاجِ الهِدَايَةِ المُرْتَفِعَةِ الَّتِي تَحْمِلُ السَّائِرَ كَالمَرْكَبِ الأَمِينِ فَوْقَ أَمْوَاجِ الحَيْرَةِ وَالتِّيهِ؛ إِذْ يَجْمَعُ اللهُ لَهُمْ بَيْنَ نُورِ الطَّرِيقِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَفَوْزِ المَآلِ فِي آجِلِ العُقْبَى، لِيَتَأَكَّدَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الفَلَاحَ الحَقِيقِيَّ لَيْسَ ضَرْبَةَ حَظٍّ عَابِرَةٍ وَلَا مَكْسَباً مَادِّيّاً زَائِلاً، بَلْ هُوَ حَصَادٌ طَبِيعِيٌّ لِصِدْقِ الإِيمَانِ وَصَلَاحِ العَمَلِ، فَمَنْ رَكِبَ سَفِينَةَ الهُدَى الرَّبَّانِيِّ بَلَغَ شَاطِئَ النَّجَاةِ وَالظَّفَرِ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَكْبِ المُتَّقِينَ غَرِقَ فِي لُجَجِ الخُسْرَانِ وَالكَدَرِ.

الصَّدَى

مَرْكَبُ الهُدَى وَشَاطِئُ الفَلَاحِ
صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

مَنَازِلُ الفَلَاحِ العُلْيَا تَتَفَتَّحُ أَبْوَابُهَا لِلسَّائِرِينَ عَلَى جَادَّةِ الهِدَايَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا وَحْيَ السَّمَاءِ مَرْكَباً يَحْمِلُهُمْ فَوْقَ عَقَبَاتِ الطَّرِيقِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الصَّادِقِ تَخْلَعُ رِدَاءَ التَّرَدُّدِ لِتُدْرِكَ أَنَّ النَّجَاحَ الأَبَدِيَّ مَرْهُونٌ بِالِاسْتِعْلَاءِ بِالإِيمَانِ فَوْقَ جَاذِبِيَّةِ الطِّينِ، وَكَمْ بَحَثْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ عَنِ الفَلَاحِ فِي مَكَاسِبِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ فَكُنْتُ كَمَنْ يَقْبِضُ عَلَى السَّرَابِ وَيَزْدَادُ ظَمَأً، أَرَى النَّسْرَ المحَلِّقَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ يَعْلُو بِجَنَاحَيْهِ فَوْقَ الغُيُومِ وَالعَوَاصِفِ لِيُبْصِرَ الأُفُقَ الوَاسِعَ كَمَا يَعْلُو المؤْمِنُونَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ فَيَبْلُغُونَ قِمَمَ الفَلَاحِ بِإِذْنِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ الهُدَى مَرْكَباً يَعْلُوهُ المؤْمِنُ لِيُشْعِرَهُ بِالعِزَّةِ وَالثَّبَاتِ وَأَنَّهُ مَحْمُولٌ بِعِنَايَةِ خَالِقِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ البِشَارَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ أَمَلٍ تُجَدِّدُ عَزْمِي وَتُحَرِّرُنِي مِنْ وَهْمِ الخَسَارَةِ عِنْدَ فَوَاتِ حُظُوظِ الدُّنْيَا،

فَكُلُّ فَوْزٍ يَنْقَطِعُ عَنْ هُدَى السَّمَاءِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَبَلَّغَهُ حُسْنَ المآلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَسْوَةُ الجُحُودِ المسْتَحْكِمِ تُحَوِّلُ القَلْبَ إِلَى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ يَسْتَوِي عِنْدَهَا نِدَاءُ النَّذِيرِ وَصَمْتُ السُّكُوتِ؛ لَا لِقُصُورٍ فِي حُجَّةِ البَيَانِ، بَلْ لِأَنَّ صَاحِبَهَا أَغْلَقَ نَوَافِذَ الفِطْرَةِ بِاخْتِيَارِهِ وَعَانَدَ الحَقَّ بَعْدَ ظُهُورِ بُرْهَانِهِ، لِيَتَحَرَّرَ الدَّاعِي إِلَى اللهِ مِنْ حَسْرَةِ النَّفْسِ عَلَى المعْرِضِينَ وَأَوْهَامِ الإِكْرَاهِ عَلَى الهِدَايَةِ، وَيُدْرِكَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ مَسْؤُولِيَّةَ البَلَاغِ تَنْتَهِي عِنْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ، أَمَّا خَلْقُ الإِيمَانِ فِي القُلُوبِ فَمَنُوطٌ بِمَشِيئَةِ الخَالِقِ وَصِدْقِ اسْتِعْدَادِ العَبْدِ، فَمَنْ فَتَحَ مَسَامِعَ رُوحِهِ لِلنَّذِيرِ انْتَفَعَ بِالذِّكْرَى وَنَجَا، وَمَنْ صَمَّ أُذُنَيْهِ بِالكِبْرِ تَسَاوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلُمَاتُ.

الصَّدَى

صَخْرَةُ العِنَادِ وَنِدَاءُ النَّذِيرِ
صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

صَلَابَةُ القُلُوبِ المغْلَقَةِ بِالكِبْرِ تَرُدُّ سِهَامَ المَوْعِظَةِ وَتُحِيلُ صَوْتَ النَّذِيرِ إِلَى هَمْسٍ يَتَلَاشَى عَلَى جُدْرَانِ الجُحُودِ الصَّمَّاءِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا المشْهَدِ القَاسِي تَرْتَجِفُ خَوْفاً مِنْ دَاءِ العِنَادِ الَّذِي يُطْفِئُ نُورَ البَصِيرَةِ وَيَجْعَلُ التَّذْكِيرَ وَعَدَمَهُ سَوَاءً، وَكَمْ حَزِنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السُّنَّةِ حِينَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ تَكْرَارَ الحُجَجِ وَحْدَهُ كَفِيلٌ بِإِذَابَةِ جَلِيدِ القُلُوبِ المتَكَبِّرَةِ الَّتِي أَبَتْ أَنْ تَرَى الشَّمْسَ، أَرَى المِرْآةَ المكْسُورَةَ المغَطَّاةَ بِالطِّينِ تَعْجِزُ عَنْ عَكْسِ ضِيَاءِ النَّهَارِ مَهْمَا اشْتَدَّ سُطُوعُ الشَّمْسِ كَمَا يَعْجِزُ الإِنْذَارُ عَنِ اخْتِرَاقِ نُفُوسٍ أَصَرَّتْ عَلَى الكُفْرِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ لِنَبِيِّهِ حَقِيقَةَ هٰذَا العِنَادِ لِيُخَفِّفَ عَنْ قَلْبِهِ أَلَمَ الحَسْرَةِ وَيُرْشِدَهُ إِلَى أَنَّ الهِدَايَةَ تَحْتَاجُ إِلَى قَلْبٍ حَيٍّ يَسْتَجِيبُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ خَشْيَةٍ يَدْفَعُنِي لِتَلْيِينِ قَلْبِي عِنْدَ سَمَاعِ

المَوْعِظَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَجَّرَ، فَكُلُّ جُحُودٍ يَسْتَعْلِي عَلَى الحَقِّ سِجْنٌ مُظْلِمٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ إِلَّا لِقَلْبٍ خَاشِعٍ أَصْغَى لِنِدَاءِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سُنَّةُ الجَزَاءِ العَادِلِ تَطْبَعُ بِخَاتَمِ الإِغْلَاقِ عَلَى مَدَارِكِ المعَانِدِينَ بَعْدَ أَنْ أَسْرَفُوا فِي إِطْفَاءِ مَصَابِيحِ الفِطْرَةِ بِأَيْدِيهِمْ؛ فَيَنْسَدُّ بَابُ القَلْبِ عَنْ تَذَوُّقِ الحَقِّ، وَيَنْقَطِعُ السَّمْعُ عَنِ الِانْتِفَاعِ بِالوَحْيِ، وَتُسْدَلُ عَلَى الأَبْصَارِ غِشَاوَةٌ تَحْجُبُ دَلَائِلَ الكَوْنِ، لِيَكُونَ العَمَى البَاطِنِيُّ عُقُوبَةً مُعَجَّلَةً تَسْبِقُ العَذَابَ الأُخْرَوِيَّ العَظِيمَ، فَيُدْرِكَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ أَدَوَاتِ المعْرِفَةِ أَمَانَةٌ إِنْ لَمْ تُسْتَعْمَلْ فِي طَلَبِ الحَقِّ انْقَلَبَتْ حُجُباً تُظْلِمُ بِهَا الرُّوحُ، فَمَنْ صَانَ قَلْبَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ بِالصِّدْقِ أَبْصَرَ آيَاتِ اللهِ فِي الآفَاقِ، وَمَنْ عَطَّلَهَا بِالهَوَى خُتِمَ عَلَى بَصِيرَتِهِ بِعَدْلِ الخَلَّاقِ.

الصَّدَى

خَاتَمُ الإِغْلَاقِ وَغِشَاوَةُ العُيُونِ
صَدَى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

أَقْفَالُ الغَفْلَةِ المحْكَمَةُ تُطْبِقُ عَلَى نَوَافِذِ الإِدْرَاكِ حِينَ يُصِرُّ الإِنْسَانُ عَلَى تَعْطِيلِ فِطْرَتِهِ فَيُصْبِحُ أَعْمَى البَصِيرَةِ وَإِنْ كَانَ حَادَّ البَصَرِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الوَعِيدِ الرَّهِيبِ يَسْتَجِيرُ بِخَالِقِهِ مِنْ مَكْرِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَسُدُّ مَسَامِعَ الرُّوحِ وَتُسْدِلُ السِّتَارَ عَلَى العُيُونِ، وَكَمْ غَفَلْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ عَنْ خُطُورَةِ تَرَاكُمِ الإِعْرَاضِ وَظَنَنْتُ أَنَّ القَلْبَ يَمْلِكُ دَائِماً رَفَاهِيَةَ العَوْدَةِ مَتَى شَاءَ دُونَ أَنْ يَطْبَعَ الرَّانُ عَلَى أَبْوَابِهِ، أَرَى البَيْتَ المهْجُورَ الَّذِي أُغْلِقَتْ أَبْوَابُهُ وَنَوَافِذُهُ بِأَقْفَالٍ صَدِئَةٍ فَلَا يَدْخُلُهُ نَسِيمٌ وَلَا يَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ شُعَاعٌ كَمَا تَصِيرُ القُلُوبُ الَّتِي خَتَمَ اللهُ عَلَيْهَا بِسَبَبِ كُفْرِهَا وَعِنَادِهَا، فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الخَتْمَ وَالغِشَاوَةَ جَزَاءً وِفَاقاً لِمَنْ آثَرَ العَمَى عَلَى الهُدَى وَاسْتَحَبَّ الظُّلْمَةَ عَلَى الضِّيَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَتَفَقَّدُ سَلَامَةَ قَلْبِي وَسَمْعِي

وَبَصَرِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ تَخْلُو مِنْ نُورِ الإِيمَانِ غِشَاوَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ فَتَحَ اللهُ بَصِيرَتَهُ فَأَبْصَرَ طَرِيقَ المَآلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قِنَاعُ النِّفَاقِ الزَّائِفُ يَتَسَلَّلُ فِي الظِّلَالِ لِيَصْنَعَ فَجْوَةً سَحِيقَةً بَيْنَ بَرِيقِ اللِّسَانِ وَظُلْمَةِ الجَنَانِ؛ إِذْ يَتَدَثَّرُ المُرَاؤُونَ بِدَعْوَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ طَمَعاً فِي مَغْنَمٍ عَاجِلٍ أَوْ اتِّقَاءً لِخَوْفٍ زَائِلٍ، بَيْنَمَا تَخْلُو قُلُوبُهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ التَّصْدِيقِ وَاليَقِينِ، لِيَتَعَلَّمَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ شِعَارَاتٍ تُرْفَعُ عَلَى الشِّفَاهِ، بَلْ هُوَ طَابَقَةٌ صَادِقَةٌ بَيْنَ السَّرِيرَةِ وَالعَلَانِيَةِ، فَمَنْ وَحَّدَ بَاطِنَهُ وَظَاهِرَهُ فِي الإِخْلَاصِ نَالَ شَرَفَ الصِّدْقِ وَالأَمَانِ، وَمَنِ اتَّخَذَ الإِيمَانَ ثَوْباً لِلْخِدَاعِ انْكَشَفَ زَيْفُهُ فِي مِيزَانِ الدَّيَّانِ.

الصَّدَى

قِنَاعُ اللِّسَانِ وَفَرَاغُ الجَنَانِ
صَدَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

أَقْنِعَةُ الادِّعَاءِ البَرَّاقَةُ تُخْفِي وَرَاءَهَا خَرَابَ الضَّمَائِرِ حِينَ يَنْطِقُ اللِّسَانُ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ بَيْنَمَا يَعْبُدُ القَلْبُ أَصْنَامَ المَصَالِحِ وَالأَهْوَاءِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّنَاقُضِ المُخِيفِ تُفَتِّشُ فِي خَبَايَاهَا عَنْ كُلِّ أَثَرٍ لِلرِّيَاءِ أَوِ التَّصَنُّعِ لِتُطَهِّرَ سَرِيرَتَهَا قَبْلَ ظَاهِرِهَا، وَكَمْ انْخَدَعْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ بِبَرِيقِ الشِّعَارَاتِ الرَّنَّانَةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الكَلِمَاتِ المُزَخْرَفَةَ تَكْفِي لِبِنَاءِ صَرْحِ الإِيمَانِ، أَرَى الشَّجَرَةَ الجَوْفَاءَ الَّتِي تَكْتَسِي بِأَوْرَاقٍ خَضْرَاءَ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَمَا يَنْخَرُ السُّوسُ فِي جِذْعِهَا مِنَ الدَّاخِلِ فَتَسْقُطُ عِنْدَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ كَمَا يَتَهَاوَى بِنَاءُ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ بِاللهِ وَقُلُوبُهُمْ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ فَضَحَ حَقِيقَةَ النِّفَاقِ لِيُعَلِّمَ الأُمَّةَ أَنَّ العِبْرَةَ بِصِدْقِ السَّرَائِرِ لَا بِضَجِيجِ الحَنَاجِرِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِرْآةِ مُحَاسَبَةٍ تَزِنُ أَقْوَالِي بِأَفْعَالِي وَتُحَرِّرُنِي مِنْ آفَةِ التَّصَنُّعِ

لِلْبَشَرِ، فَكُلُّ إِيمَانٍ لَا يَسْكُنُ شَغَافَ القَلْبِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قَبُولَ إِلَّا لِعَمَلٍ خَالِصٍ صَدَّقَتْهُ السَّرِيرَةُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَكْرُ الخِدَاعِ يَرْتَدُّ سَهْماً مَسْمُوماً إِلَى نَحْرِ صَاحِبِهِ حِينَ يَتَوَهَّمُ المُنَافِقُ أَنَّهُ يُمَرِّرُ حِيَلَهُ عَلَى الخَالِقِ العَلِيمِ وَعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ؛ إِذْ تَنْقَلِبُ مَكِيدَتُهُ وَبَالاً يَحْرِمُهُ نُورَ الهِدَايَةِ وَيُغْرِقُهُ فِي غَفْلَةٍ تُعْمِيهِ عَنْ رُؤْيَةِ هَلَاكِهِ القَرِيبِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ البَصِيرِ أَنَّ النِّفَاقَ غَبَاءٌ وُجُودِيٌّ يَشْتَرِي بِهِ الإِنْسَانُ مَكْسَباً وَهْمِيّاً فِي الدُّنْيَا بِخَسَارَةٍ أَبَدِيَّةٍ فِي الآخِرَةِ، فَمَنْ صَدَقَ مَعَ رَبِّهِ نَجَا بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ وَفَازَ بِالرِّضْوَانِ، وَمَنْ مَكَرَ وَخَادَعَ لَمْ يَخْدَعْ إِلَّا نَفْسَهُ وَهُوَ فِي سُكْرِ الغَفْلَةِ لَا يَشْعُرُ.

الصَّدَى

سَهْمُ الخِدَاعِ وَغَفْلَةُ المَاكِرِ
صَدَى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

حِبَالُ المَكْرِ المَنْسُوجَةُ فِي الظَّلَامِ تَلْتَفُّ حَوْلَ عُنُقِ نَاسِجِهَا حِينَ يَظُنُّ أَنَّ ذَكَاءَهُ القَاصِرَ يَخْفَى عَلَى عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المَآلِ المُؤْلِمِ يَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ حِيلَةٍ وَمُدَاهَنَةٍ لِيُدْرِكَ أَنَّ الصِّدْقَ هُوَ أَقْصَرُ الطُّرُقِ إِلَى النَّجَاةِ وَأَنَّ الخِدَاعَ هُوَ عَيْنُ الانْتِحَارِ الرُّوحِيِّ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا القَانُونِ أَنَّ الدَّهَاءَ فِي إِخْفَاءِ الحَقَائِقِ قَدْ يَمْنَحُ صَاحِبَهُ مَأْمَناً مِنَ العَاقِبَةِ بَيْنَمَا هُوَ يَحْفِرُ قَبْرَ سَعَادَتِهِ بِيَدِهِ، أَرَى الفَرَاشَةَ المَخْدُوعَةَ تَدُورُ حَوْلَ لَهَبِ النَّارِ ظَانَّةً أَنَّهَا تَقْتَرِبُ مِنَ الدِّفْءِ وَالنُّورِ حَتَّى تَحْتَرِقَ أَجْنِحَتُهَا وَهِيَ لَا تَشْعُرُ كَمَا يَحْتَرِقُ المُنَافِقُونَ بِنَارِ خِدَاعِهِمْ لِلَّهِ وَالمُؤْمِنِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ لَنَا أَنَّ عُقُوبَةَ الخِدَاعِ كَامِنَةٌ فِي نَفْسِ الفِعْلِ وَأَنَّ أَشَدَّ أَنْوَاعِ العَمَى أَنْ يَهْلِكَ الإِنْسَانُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي

دَاخِلِي إِلَى مِشْكَاةِ صِدْقٍ تُطَهِّرُ نِيَّتِي وَتُحَرِّرُنِي مِنْ وَهْمِ المرَاوَغَةِ، فَكُلُّ حِيلَةٍ تُبْنَى عَلَى البَاطِلِ سَرَابٌ إِلَى انْهِيَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

عِلَّةُ النِّفَاقِ الكَامِنَةُ فِي أَعْمَاقِ الصُّدُورِ تَتَفَاقَمُ وَتَسْتَفْحِلُ كُلَّمَا سَقَاهَا صَاحِبُهَا بِمَاءِ الكَذِبِ وَالمكَابَرَةِ عَلَى الحَقِّ؛ إِذْ تَجْرِي سُنَّةُ اللهِ فِي الأَنْفُسِ بِأَنَّ إِهْمَالَ أَمْرَاضِ القُلُوبِ مِنَ الشَّكِّ وَالحَسَدِ وَالرِّيَاءِ يُضَاعِفُ وَطْأَتَهَا حَتَّى تَأْتِيَ عَلَى بَقِيَّةِ الحَيَاةِ فِي الرُّوحِ، فَيُصْبِحَ العَذَابُ الأَلِيمُ ثَمَرَةً حَتْمِيَّةً لِكَذِبٍ اسْتَمْرَأَهُ اللِّسَانُ وَأَلِفَهُ الجَنَانُ، لِيُبْصِرَ العَاقِلُ أَنَّ صِحَّةَ القَلْبِ بِالصِّدْقِ وَالإِخْلَاصِ هِيَ أَصْلُ كُلِّ عَافِيَةٍ، فَمَنْ بَادَرَ إِلَى مَدَاوَاةِ سَرِيرَتِهِ بِنُورِ الوَحْيِ بَرِئَ مِنْ عِلَلِ الشُّبُهَاتِ، وَمَنْ غَذَّى قَلْبَهُ بِالكَذِبِ تَضَاعَفَ دَاؤُهُ حَتَّى أَرْدَاهُ فِي الهَلَاكِ.

الصَّدَى

عِلَّةُ الصُّدُورِ وَسُمُّ الكَذِبِ
صَدَى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

جُرْثُومَةُ الشَّكِّ وَالنِّفَاقِ تَسْرِي فِي عُرُوقِ القَلْبِ الغَافِلِ فَتُفْسِدُ فِطْرَتَهُ السَّلِيمَةَ وَتُضَاعِفُ سَقَمَهُ كُلَّمَا أَصَرَّ عَلَى الكَذِبِ وَالخِدَاعِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الدَّاءِ العُضَالِ تَخْلَعُ رِدَاءَ التَّهَاوُنِ بِخَوَاطِرِ السُّوءِ لِتُدْرِكَ أَنَّ أَمْرَاضَ القُلُوبِ أَشَدُّ فَتْكاً مِنْ أَسْقَامِ الأَبْدَانِ، وَكَمْ غَفَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَنْ أَثَرِ الكَذِبِ الصَّغِيرِ وَالتَّرَدُّدِ الخَفِيِّ وَظَنَنْتُ أَنَّهَا عَوَارِضُ تَزُولُ بِلَا دَوَاءٍ بَيْنَمَا هِيَ تَتَكَاثَرُ فِي الظَّلَامِ، أَرَى الجُرْحَ المهْمَلَ الَّذِي يَتَلَوَّثُ بِالتُّرَابِ كُلَّ يَوْمٍ فَيَسْرِي فِيهِ الفَسَادُ حَتَّى يَعْجِزَ عَنْهُ الطَّبِيبُ كَمَا تَتَفَاقَمُ أَمْرَاضُ قُلُوبِ المنَافِقِينَ بِسَبَبِ كَذِبِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ دَوَاءِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ زِيَادَةَ المرَضِ وَأَلَمَ العَذَابِ بِآفَةِ الكَذِبِ لِيُحَذِّرَنَا أَنَّ تَزْيِيفَ الحَقَائِقِ هُوَ السُّمُّ الَّذِي يَقْتُلُ الرُّوحَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ طَبَابَةٍ رُوحِيَّةٍ يُطَهِّرُ قَلْبِي

بِالصِّدْقِ وَاليَقِينِ، فَكُلُّ قَلْبٍ يَغْتَاشُ عَلَى الكَذِبِ جَسَدٌ مَرِيضٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عَافِيَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ سَلِيمٍ اسْتَشْفَى بِنُورِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (11–20)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

زَيْفُ العَنَاوِينِ البَرَّاقَةِ يَتَخَفَّى وَرَاءَ شِعَارَاتِ الإِصْلَاحِ لِيُبَرِّرَ مَعَاوِلَ الهَدْمِ وَالتَّخْرِيبِ فِي أَرْضِ اللهِ؛ إِذْ تَنْقَلِبُ المَوَازِينُ فِي عُقُولِ المُنَافِقِينَ فَيَرَوْنَ التَّفْرِيقَ وَالإِفْسَادَ تَدْبِيراً حَكِيماً وَبِنَاءً قَوِيماً، لِيَسْتَيْقِظَ العَقْلُ البَصِيرُ مِنْ سُبَاتِ الِانْخِدَاعِ بِاللَّافِتَاتِ الزَّائِفَةِ، وَيَزِنَ الأَعْمَالَ بِحَقَائِقِهَا وَآثَارِهَا لَا بِأَسْمَائِهَا وَدَعَاوِيهَا، فَمَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ وَسَعْيَهُ بِنُورِ الوَحْيِ عَمَّرَ الأَرْضَ بِالخَيْرِ وَالأَمَانِ، وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبَ الإِصْلَاحِ لِيُخْفِيَ مَكْرَ الإِفْسَادِ فَضَحَتْهُ سُنَنُ الدَّيَّانِ.

الصَّدَى

شِعَارَاتُ الإِصْلَاحِ وَمَعَاوِلُ الهَدْمِ

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾

بَرِيقُ الأَسْمَاءِ المُسْتَعَارَةِ يَخْدَعُ الأَبْصَارَ الغَافِلَةَ حِينَ يُرْفَعُ لِوَاءُ الإِصْلَاحِ فَوْقَ أَنْقَاضِ الحَقِّ وَمَعَاوِلِ التَّخْرِيبِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّزْيِيفِ الخَطِيرِ تَخْلَعُ ثَوْبَ السَّذَاجَةِ لِتُدْرِكَ أَنَّ قِيمَةَ الفِعْلِ تَكْمُنُ فِي ثَمَرَتِهِ لَا فِي الشِّعَارِ الَّذِي يُغَلِّفُهُ، وَكَمْ انْخَدَعْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ بِأَصْوَاتٍ تَدَّعِي البِنَاءَ وَالتَّطْوِيرَ بَيْنَمَا هِيَ تَسْقِي جُذُورَ الفِتْنَةِ وَالتَّدْمِيرِ، أَرَى السُّمَّ القَاتِلَ يُقَدَّمُ فِي كَأْسٍ مِنَ الذَّهَبِ المَنْقُوشِ فَلَا يُغَيِّرُ جَمَالُ الإِنَاءِ مِنْ حَقِيقَةِ الهَلَاكِ الَّذِي يَسْكُنُهُ كَمَا لَا تُغَيِّرُ دَعْوَى المُنَافِقِينَ مِنْ قُبْحِ إِفْسَادِهِمْ فِي أَرْضِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ لَنَا أَنَّ الفَسَادَ إِذَا لَبِسَ قِنَاعَ الإِصْلَاحِ كَانَ أَشَدَّ فَتْكاً بِالعُقُولِ وَالمُجْتَمَعَاتِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَمْيِيزٍ يَكْشِفُ زَيْفَ الدَّعَاوَى وَيَحْرُسُ بَصِيرَتِي مِنَ التَّضْلِيلِ، فَكُلُّ بِنَاءٍ يَقُومُ عَلَى الغِشِّ سَرَابٌ إِلَى انْهِيَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عُمْرَانَ إِلَّا لِإِصْلَاحٍ اسْتَقَامَ عَلَى مَنْهَجِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَضَاءُ الحَقِّ المبِينُ يَهْتِكُ سِتَارَ التَّزْيِيفِ لِيُعْلِنَ أَنَّ أَحْطَرَ أَنْوَاعِ الإِفْسَادِ هُوَ مَا يَقَعُ تَحْتَ غِشَاوَةِ الغَفْلَةِ وَانْتِكَاسِ البَصِيرَةِ؛ حَيْثُ يَفْقِدُ المَرْءُ مِقْيَاسَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ فَيَمْضِي فِي التَّخْرِيبِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ مِنْ غُرُورِ العِصْمَةِ الذَّاتِيَّةِ وَيَعْرِضَ خُطُوَاتِهِ دَوْماً عَلَى مِيزَانِ الوَحْيِ الصَّادِقِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحْكِمَ العَمَى، فَمَنْ رَاجَعَ نَفْسَهُ بِنُورِ الهِدَايَةِ أَبْصَرَ عُيُوبَ سَعْيِهِ وَتَدَارَكَ الزَّلَلَ، وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِغُرُورِ هَوَاهُ أَفْسَدَ حَيَاتَهُ وَهُوَ فِي سُكْرِ الغَفْلَةِ لَا يَشْعُرُ.

الصَّدَى

غِشَاوَةُ الغَفْلَةِ وَانْتِكَاسُ المِيزَانِ
صَدَى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾

صَرْخَةُ الحَقِيقَةِ السَّاطِعَةُ تُبَدِّدُ أَوْهَامَ المخَادِعِينَ وَتَكْشِفُ عَنْ مَأْسَاةِ العُقُولِ الَّتِي فَقَدَتْ حِسَّ التَّمْيِيزِ فَأَصْبَحَتْ تُدَمِّرُ ذَاتَهَا بِلَا شُعُورٍ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحُكْمِ القَاطِعِ يَرْتَجِفُ حَذَراً مِنْ مَرَضِ تَبْرِيرِ الأَخْطَاءِ الَّذِي يُحَوِّلُ الإِفْسَادَ فِي عَيْنِ صَاحِبِهِ إِلَى فَضِيلَةٍ وَإِنْجَازٍ، وَكَمْ خَشِيتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ مِنْ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي فِي دُرُوبِ الهَوَى بَيْنَمَا يُزَيِّنُ لِيَ الوَهْمُ أَنَّنِي أَسِيرُ فِي طَرِيقِ النَّجَاةِ، أَرَى النَّائِمَ فِي قَارِبٍ يَنْجَرِفُ نَحْوَ شَلَّالٍ سَحِيقٍ يَحْلُمُ بِالنَّسِيمِ العَلِيلِ وَلَا يَشْعُرُ بِالخَطَرِ المحْدِقِ بِهِ كَمَا يَنْدَفِعُ المنَافِقُونَ فِي مَهَاوِي الإِفْسَادِ وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ مَصِيرِهِمْ عِنْدَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ نَبَّهَنَا إِلَى أَنَّ انْعِدَامَ الشُّعُورِ بِالخَطَأِ هُوَ أَقْسَى مَرَاحِلِ السُّقُوطِ الرُّوحِيِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِصْبَاحِ تَفْتِيشٍ دَائِمٍ يُسَائِلُ نِيَّاتِي وَأَفْعَالِي قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، فَكُلُّ سَعْيٍ يَفْقِدُ بُوصَلَةَ الوَحْيِ تِيهٌ إِلَى خُسْرَانٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَصِيرَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ يَقِظٍ اسْتَنَارَ بِهُدَى الرَّحْمٰنِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

غُرُورُ الكِبْرِ الفِكْرِيّ يَقْلِبُ الحَقَائِقَ فِي أَعْيُنِ المُتَعَالِينَ فَيَرَوْنَ التَّسْلِيمَ الصَّادِقَ لِلْحَقِّ سَفَاهَةً وَسَذَاجَةً، وَيَرَوْنَ العِنَادَ وَالمُكَايَدَةَ ذَكَاءً وَكِيَاسَةً؛ فَيَأْتِي الرَّدُّ الإِلٰهِيُّ لِيَضَعَ السَّفَهَ الحَقِيقِيَّ فِي نِصَابِهِ، فَمَنْ بَاعَ يَقِينَ الآخِرَةِ بِسَرَابِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ فَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الخُسْرَانِ وَالجَهَالَةِ، لِيَتَحَرَّرَ عَقْلُ المُؤْمِنِ مِنْ رَهْبَةِ اسْتِهْزَاءِ المُتَكَبِّرِينَ، وَيُدْرِكَ أَنَّ قِمَّةَ الرُّشْدِ هِيَ الِانْحِنَاءُ لِنُورِ الوَحْيِ، فَمَنْ سَارَ مَعَ قَافِلَةِ الصَّادِقِينَ نَالَ شَرَفَ العَقْلِ وَالهِدَايَةِ، وَمَنْ تَعَالَى عَلَى الإِيمَانِ تَرَدَّى فِي هَاوِيَةِ السَّفَهِ وَالغَوَايَةِ.

الصَّدَى

تِيجَانُ الكِبْرِ وَمِيزَانُ السَّفَاهَةِ
صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾

سِهَامُ السُّخْرِيَةِ الَّتِي يُطْلِقُهَا المَغْرُورُونَ نَحْوَ أَهْلِ الإِيمَانِ تَرْتَدُّ إِلَى صُدُورِهِمْ لِتَكْشِفَ عَنْ خِفَّةِ عُقُولِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِقِيمَةِ البَقَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيزَانِ العَادِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاكْتِرَاثِ بِتَعْيِيرِ الجَاهِلِينَ لِيُدْرِكَ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ هُوَ ذُرْوَةُ الحِكْمَةِ وَالتَّعَقُّلِ، وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَمَامَ ضَجِيجِ المُتَعَالِينَ الَّذِينَ يَصِفُونَ التَّوَاضُعَ لِلْحَقِّ بِالضَّعْفِ وَالسَّذَاجَةِ، أَرَى المِحْمُورَ الَّذِي أَذْهَبَ السُّكْرُ عَقْلَهُ يَضْحَكُ مِنَ العُقَلَاءِ المُتَّزِنِينَ وَيَرْمِيهِمْ بِالجُنُونِ وَهُوَ غَارِقٌ فِي هَذَيَانِهِ كَمَا يَرْمِي المُنَافِقُونَ أَهْلَ الإِيمَانِ بِالسَّفَهِ وَهُمْ أَسْفَهُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ حَسَمَ هٰذِهِ المُفَارَقَةَ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ الصَّادِقِينَ وَيُعْلِنَ أَنَّ العَقْلَ الحَقَّ هُوَ مَا هَدَى صَاحِبَهُ إِلَى النَّجَاةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى عِزَّةٍ رُوحِيَّةٍ تَسْتَعْلِي عَلَى سُخْرِيَةِ الأَغْيَارِ وَتَعْتَزُّ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى رَكْبِ الصَّالِحِينَ، فَكُلُّ ذَكَاءٍ يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى النَّارِ سَفَهٌ وَخُسْرَانٌ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رُشْدَ إِلَّا فِي التَّسْلِيمِ الكَامِلِ لِوَحْيِ الدَّيَّانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

ازْدِوَاجُ الوُجُوهِ يَمْزِقُ كِيَانَ الإِنْسَانِ بَيْنَ مَلَقٍ يُظْهِرُهُ فِي مَجَالِسِ النُّورِ وَغَدْرٍ يُبْطِنُهُ فِي خَلَوَاتِ الظَّلَامِ؛ إِذْ يَتَلَوَّنُ المُنَافِقُ كَالحِرْبَاءِ فَيَبِيعُ كَرَامَتَهُ وَصِدْقَهُ لِيَكْسِبَ رِضَا كُلِّ فَرِيقٍ فَيَخْسَرَ نَفْسَهُ وَرَبَّهُ، لِيَتَرَسَّخَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ قُوَّةَ الشَّخْصِيَّةِ الإِيمَانِيَّةِ تَنْبُعُ مِنْ وَحْدَةِ الوَجْهِ وَالسَّرِيرَةِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، فَمَنْ اسْتَقَامَ مَبْدَؤُهُ فِي الخَلْوَةِ وَالجَلْوَةِ نَالَ الثَّبَاتَ وَالكَرَامَةَ، وَمَنْ تَلَوَّنَ بَيْنَ الصُّفُوفِ سَقَطَ فِي هَاوِيَةِ الذُّلِّ وَالمَهَانَةِ.

الصَّدَى

تَلَوُّنُ الوُجُوهِ وَعُرْيُ الخَلَوَاتِ
صَدَى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾

شَتَاتُ النُّفُوسِ المُتَلَوِّنَةِ يَكْشِفُ عَنْ هَشَاشَةِ البَاطِنِ حِينَ يَلْبَسُ المَرْءُ لِكُلِّ مَجْلِسٍ قِنَاعاً وَيُبَدِّلُ وَلَاءَهُ كُلَّمَا تَبَدَّلَتِ الظُّرُوفُ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّمَزُّقِ البَشَرِيِّ تَلُوذُ بِالصِّدْقِ الوَاحِدِ لِتَكُونَ سَرِيرَتُهَا فِي الخَلَوَاتِ صُورَةً طِبْقَ الأَصْلِ عَنْ عَلَانِيَتِهَا فِي المَحَافِلِ، وَكَمْ حَذِرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ مِنْ آفَةِ المُجَامَلَةِ عَلَى حِسَابِ المَبْدَأِ وَمِنْ ضَعْفِ النَّفْسِ الَّتِي تَسْتَحِي مِنَ الخَلْقِ وَلَا تَسْتَحِي مِنَ الخَالِقِ، أَرَى المَاءَ العَكِرَ فِي الإِنَاءِ المَكْسُورِ يَأْخُذُ لَوْنَ كُلِّ تُرْبَةٍ يَمُرُّ بِهَا بَيْنَمَا يَظَلُّ اليَاقُوتُ الصَّافِي مُحْتَفِظاً بِبَرِيقِهِ فِي النُّورِ وَالظَّلَامِ كَمَا يَثْبُتُ المُؤْمِنُ عَلَى مَبْدَئِهِ بَيْنَمَا يَتَقَلَّبُ المُنَافِقُونَ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالشَّيَاطِينِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ عَرَّى لَنَا مَجَالِسَ خَلَوَاتِهِمْ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ حَقِيقَةَ الإِنْسَانِ تَظْهَرُ حِينَ يَخْلُو بِقَرَنَائِهِ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ ثَبَاتٍ يُوَحِّدُ ظَاهِرِي وَبَاطِنِي تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمَاءِ، فَكُلُّ قِنَاعٍ يُلْبَسُ لِخِدَاعِ النَّاسِ

سَاقِطٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِصَادِقٍ اسْتَوَى سِرُّهُ وَعَلَنُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَبْضَةُ الجَزَاءِ العَادِلِ تُقَابِلُ سُخْرِيَةَ المُسْتَهْزِئِينَ بِاسْتِدْرَاجٍ خَفِيٍّ يُرْخِي لَهُمْ حِبَالَ الطُّغْيَانِ حَتَّى يَتَخَبَّطُوا فِي عَمَى الضَّلَالِ بِلَا بَصِيرَةٍ؛ إِذْ تَقْتَضِي حِكْمَةُ القَضَاءِ أَنْ يُعَاقَبَ المَاكِرُ مِنْ جِنْسِ مَكْرِهِ فَيَظُنَّ الإِمْهَالَ إِكْرَاماً وَالِاسْتِدْرَاجَ تَمْكِيناً، لِيَسْتَيْقِظَ العَقْلُ البَصِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الاغْتِرَارِ بِتَأَخُّرِ العُقُوبَةِ، وَيُدْرِكَ أَنَّ انْفِتَاحَ أَبْوَابِ الدُّنْيَا مَعَ الإِصْرَارِ عَلَى المَعْصِيَةِ هُوَ أَخْطَرُ صُوَرِ الخِذْلَانِ، فَمَنْ بَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ عِنْدَ أَوَّلِ تَنْبِيهٍ نَجَا مِنْ مَكْرِ الِاسْتِدْرَاجِ، وَمَنْ تَمَادَى فِي الطُّغْيَانِ عَمِهَ فِي ظُلُمَاتِ الهَلَاكِ.

الصَّدَى

حِبَالُ الِاسْتِدْرَاجِ وَعَمَى الطُّغْيَانِ
صَدَى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

مِيزَانُ المجَازَاةِ الإِلٰهِيَّةِ يَرُدُّ سُخْرِيَةَ المُنَافِقِينَ بِإِرْخَاءِ الزِّمَامِ لَهُمْ فِي مَيَادِينِ الطُّغْيَانِ حَتَّى يَتِيهُوا فِي حَيْرَةٍ لَا مَخْرَجَ مِنْهَا، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّدْبِيرِ الرَّهِيبِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الاغْتِرَارِ بِالنِّعَمِ وَالسَّلَامَةِ لِيَسْأَلَ رَبَّهُ العَافِيَةَ مِنَ الِاسْتِدْرَاجِ الخَفِيِّ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السُّنَّةِ أَنَّ سَعَةَ العَيْشِ وَتَيَسُّرَ السُّبُلِ مَعَ الغَفْلَةِ دَلِيلُ رِضاً بَيْنَمَا هُمَا إِمْهَالٌ يَسْبِقُ السُّقُوطَ الكَبِيرَ، أَرَى الطَّائِرَ الجَائِعَ يَلْتَقِطُ الحَبَّ المَنْثُورَ حَوْلَ الفَخِّ فَيَظُنُّهُ رِزْقاً وَاسِعاً حَتَّى تُطْبِقَ عَلَيْهِ الشِّبَاكُ فَجْأَةً كَمَا يَمُدُّ اللهُ لِلْمُسْتَهْزِئِينَ فِي طُغْيَانِهِمْ حَتَّى يَبْلُغُوا نِهَايَةَ العَمَى، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ جَزَاءَ الِاسْتِهْزَاءِ بِالمؤْمِنِينَ تَيْسِيرَ أَسْبَابِ الضَّلَالِ لِلْمُسْتَهْزِئِينَ لِيَكُونَ سُقُوطُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُلُوِّهِمُ الزَّائِفِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ خَشْيَةٍ يَدْفَعُنِي لِمُرَاجَعَةِ نَفْسِي عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ وَإِمْهَالٍ، فَكُلُّ طُغْيَانٍ

يَتَمَدَّدُ بَعِيداً عَنِ الحَقِّ فَقَّاعَةٌ إِلَى انْفِجَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِمَنِ انْكَسَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ المُبِينِ تَنْعَقِدُ حِينَ يَبِيعُ الإِنْسَانُ رَأْسَ مَالِهِ الفِطْرِيَّ مِنَ الهِدَايَةِ لِيَشْتَرِيَ بِهِ سِلْعَةَ الضَّلَالَةِ الفَانِيَةِ؛ فَيَخْرُجُ مِنْ سُوقِ الحَيَاةِ بِصَفْقَةٍ خَاسِرَةٍ لَا رِبْحَ فِيهَا وَلَا رُشْدَ فِي تَدْبِيرِهَا، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا تَاجِرٌ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي بِعُمُرِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَمَنْ بَذَلَ الدُّنْيَا الفَانِيَةَ لِيَشْتَرِيَ رِضْوَانَ اللهِ وَالهُدَى رَبِحَتْ تِجَارَتُهُ وَفَازَ بِالبَقَاءِ، وَمَنِ اسْتَبْدَلَ الظُّلْمَةَ بِالنُّورِ فَقَدْ أَفْلَسَ فِي الدَّارَيْنِ وَبَاءَ بِالشَّقَاءِ.

الصَّدَى

صَفْقَةُ الإِفْلَاسِ وَرَأْسُ مَالِ الفِطْرَةِ
صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

مِيزَانُ التِّجَارَةِ الوُجُودِيَّةِ يَكْشِفُ عَنْ أَفْدَحِ خَسَارَةٍ يَمُرُّ بِهَا العَاقِلُ حِينَ يُفَرِّطُ فِي جَوْهَرَةِ الهُدَى لِيَقْبِضَ ثَمَنَهَا زُجَاجَ الضَّلَالِ المَكْسُورَ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذِهِ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ تُرَاجِعُ حِسَابَاتِهَا اليَوْمِيَّةَ لِتَعْلَمَ مَاذَا تَبِيعُ وَمَاذَا تَشْتَرِي فِي سُوقِ الأَيَّامِ العَابِرَةِ، وَكَمْ غَفَلْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ عَنْ أَنَّ التَّنَازُلَ عَنِ المَبْدَأِ لِأَجْلِ مَكْسَبٍ عَاجِلٍ هُوَ تِجَارَةٌ خَاسِرَةٌ تُبَدِّدُ رَأْسَ المَالِ وَتُورِثُ النَّدَمَ، أَرَى التَّاجِرَ الجَاهِلَ الَّذِي يَبِيعُ اللُّؤْلُؤَ النَّفِيسَ بِحَفْنَةٍ مِنَ التُّرَابِ ثُمَّ يَفْرَحُ بِثِقَلِ حِمْلِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ أَفْلَسَ كَمَا يَبِيعُ المُنَافِقُونَ هُدَى اللهِ بِضَلَالَةِ الأَهْوَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ الإِيمَانَ وَالكُفْرَ فِي صُورَةِ تِجَارَةٍ لِيُخَاطِبَ فِينَا عَقْلَ الحِسَابِ وَالمُوَازَنَةِ بَيْنَ الرِّبْحِ البَاقِي وَالخُسْرَانِ المُقِيمِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ رُشْدٍ يَحْمِي قَلْبِي مِنْ بَيْعِ اليَقِينِ بِأَوْهَامِ الدُّنْيَا،

فَكُلُّ مَكْسَبٍ يُشْتَرَى بِضَيَاعِ الدِّينِ إِفْلَاسٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِبْحَ إِلَّا فِي تِجَارَةٍ أَبْرَمَهَا العَبْدُ مَعَ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَشْهَدُ الضِّيَاءِ المخْطُوفِ يُجَسِّدُ مَأْسَاةَ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْ مَصَادِرِ النُّورِ لِيَنْتَفِعَ بِدِفْئِهَا العَاجِلِ دُونَ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ لِلثَّبَاتِ عَلَيْهَا؛ فَمَا إِنْ تَسْطَعُ الحَقِيقَةُ حَوْلَهُ حَتَّى يَسْلُبَهُ النِّفَاقُ بَرَكَةَ الإِبْصَارِ، فَيَبْقَى فِي دَيَاجِيرِ الحَيْرَةِ أَشَدَّ عَمًى مِمَّنْ لَمْ يَرَ النُّورَ قَطُّ، لِيُدْرِكَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ نُورَ الوَحْيِ لَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي القُلُوبِ الصَّادِقَةِ، فَمَنْ أَخْلَصَ قَصْدَهُ أَدَامَ اللهُ لَهُ الضِّيَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ اسْتَضَاءَ بِالدِّينِ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ انْطَفَأَ سِرَاجُهُ وَبَقِيَ فِي الظُّلُمَاتِ حَائِراً.

الصَّدَى

نَارُ النِّفَاقِ وَظُلُمَاتُ الِانْطِفَاءِ
صَدَى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾

شُعْلَةُ الضِّيَاءِ العَابِرَةِ تَنْطَفِئُ فَجْأَةً فِي أَيْدِي المَرَائِينَ لِتَتْرُكَهُمْ فِي وَحْشَةِ الظَّلَامِ الدَّامِسِ بَعْدَ أَنْ لَامَسَتْ أَعْيُنُهُمْ بَرِيقَ النَّهَارِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المَثَلِ القُرْآنِيِّ البَدِيعِ يَرْتَجِفُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُهُ مِنَ الوَحْيِ مُجَرَّدَ إِضَاءَةٍ خَارِجِيَّةٍ لَا تَسْكُنُ أَعْمَاقَ الرُّوحِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذَا المَشْهَدِ أُنَاساً يَقْتَرِبُونَ مِنْ مَوَائِدِ الحَقِّ طَمَعاً فِي مَنْفَعَةٍ عَاجِلَةٍ فَلَمَّا انْقَضَتْ مَصَالِحُهُمْ عَادُوا إِلَى عَتَمَةِ الجَهْلِ وَالحَيْرَةِ، أَرَى المسَافِرَ فِي الصَّحْرَاءِ المظْلِمَةِ يُوقِدُ نَاراً فَتُضِيءُ لَهُ مَا حَوْلَهُ لَحْظَةً ثُمَّ تَهُبُّ رِيحٌ عَاصِفَةٌ فَتُطْفِئُهَا وَتُبْقِيهِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ لَا يُبْصِرُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ كَمَا يَذْهَبُ اللهُ بِنُورِ المنَافِقِينَ وَيَتْرُكُهُمْ فِي ظُلُمَاتِ النِّفَاقِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ انْتِفَاعَهُمُ المؤَقَّتَ بِالإِسْلَامِ كَنَارٍ

مُسْتَوْقَدَةٍ ذَهَبَ نُورُهَا وَبَقِيَ دُخَانُهَا وَإِحْرَاقُهَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الصُّورَةُ فِي صَدْرِي إِلَى دُعَاءٍ دَائِمٍ بِالثَّبَاتِ وَصِدْقِ الإِخْلَاصِ كَيْ لَا يَنْطَفِئَ نُورِي فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ ضِيَاءٍ يُسْتَمَدُّ لِغَيْرِ اللهِ شَرَرٌ إِلَى خُمُودٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِشْرَاقَ إِلَّا لِنُورٍ أَوْقَدَهُ اليَقِينُ الصَّادِقُ فِي قَلْبٍ خَاشِعٍ وَدُودٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَعْطِيلُ الحَوَاسِّ الرُّوحِيَّةِ يُسْقِطُ الإِنْسَانَ فِي عُزْلَةٍ وُجُودِيَّةٍ تَقْطَعُ صِلَتَهُ بِمَعَالِمِ الهِدَايَةِ وَسُبُلِ الرُّجُوعِ؛ فَهُوَ أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ نِدَاءِ الحَقِّ، أَبْكَمُ عَنِ النُّطْقِ بِالصِّدْقِ، أَعْمَى عَنْ إِبْصَارِ آيَاتِ الكَوْنِ وَالوَحْيِ، لِيَتَأَكَّدَ فِي العَقْلِ البَصِيرِ أَنَّ سَلَامَةَ الجَوَارِحِ الجَسَدِيَّةِ لَا تُغْنِي شَيْئاً إِذَا مَاتَتْ مَدَارِكُ القَلْبِ، فَمَنْ أَحْيَا سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ بِطَاعَةِ اللهِ اهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ الأَوْبَةِ وَالرَّشَادِ، وَمَنْ أَغْلَقَهَا بِالهَوَى انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ فَلَمْ يَجِدْ إِلَى الحَقِّ سَبِيلاً لِلرُّجُوعِ.

الصَّدَى

عُزْلَةُ الحَوَاسِّ وَانْسِدَادُ الطَّرِيقِ
صَدَى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

صَمْتُ القُبُورِ المُوحِشُ يَلُفُّ أَرْوَاحَ المُعْرِضِينَ حِينَ يُعَطِّلُونَ نَوَافِذَ الفِطْرَةِ فَيَعِيشُونَ فِي الدُّنْيَا كَالأَصْنَامِ لَا يَسْمَعُونَ نُصْحاً وَلَا يَنْطِقُونَ حَقّاً وَلَا يُبْصِرُونَ دَلِيلاً، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الوَصْفِ البَلِيغِ تَتَفَقَّدُ جَوَارِحَهَا البَاطِنَةَ خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَهَا خَدَرُ الغَفْلَةِ فَتَفْقِدَ القُدْرَةَ عَلَى الأَوْبَةِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالنُّطْقَ مَلَكَاتٌ جَسَدِيَّةٌ فَحَسْبُ بَيْنَمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ أَبْوَابُ الرُّوحِ الَّتِي تَتَلَقَّى بِهَا رَسَائِلَ السَّمَاءِ، أَرَى التِّمْثَالَ الحَجَرِيَّ المَنْصُوبَ فِي وَسَطِ الحَدِيقَةِ الغَنَّاءِ تَمُرُّ بِهِ النَّسَمَاتُ وَتُغَرِّدُ حَوْلَهُ الطُّيُورُ وَهُوَ جَامِدٌ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَرَى وَلَا يَتَحَرَّكُ كَمَا يَبْقَى المُنَافِقُونَ فِي غَيِّهِمْ صُمّاً بُكْماً عُمْياً لَا يَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ

الإِعْرَاضَ عَنِ الوَحْيِ كَفَقْدٍ شَامِلٍ لِكُلِّ أَدَوَاتِ التَّوَاصُلِ مَعَ الحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى يَقَظَةٍ دَائِمَةٍ تَفْتَحُ مَسَامِعَ قَلْبِي لِكُلِّ تَذْكِيرٍ وَتُحَرِّرُنِي مِنْ جُمُودِ الطِّينِ، فَكُلُّ جَسَدٍ تَخْلُو رُوحُهُ مِنْ نُورِ الإِيمَانِ تِمْثَالٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ إِلَّا لِمَنْ أَصْغَى وَأَبْصَرَ وَنَطَقَ بِصِدْقٍ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَاصِفَةُ الحَيْرَةِ وَالهَلَعِ تَعْصِفُ بِأَهْلِ التَّرَدُّدِ حِينَ يَنْزِلُ الوَحْيُ كَالمَطَرِ المُحْيِي فَلَا يَرَوْنَ مِنْهُ إِلَّا صَوَاعِقَ التَّكَالِيفِ وَظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ؛ فَيَسُدُّونَ آذَانَهُمْ هَرَباً مِنَ الحَقِيقَةِ، وَيَتَخَبَّطُونَ فِي خَوْفٍ مُقِيمٍ دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَلَا مَفَرَّ مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، لِيَتَحَرَّرَ عَقْلُ المُؤْمِنِ مِنْ رُؤْيَةِ الدِّينِ كَعَاصِفَةٍ مُخِيفَةٍ، وَيُبْصِرَ فِيهِ غَيْثَ الرَّحْمَةِ الَّذِي يُحْيِي القُلُوبَ، فَمَنِ اسْتَقْبَلَ غَيْثَ السَّمَاءِ بِصَدْرٍ رَحْبٍ ارْتَوَتْ رُوحُهُ وَأَمِنَ، وَمَنْ هَرَبَ مِنْ قَوَارِعِ الحَقِّ أَحَاطَتْ بِهِ المَخَاوِفُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

الصَّدَى

صَوَاعِقُ الخَوْفِ وَإِحَاطَةُ القُدْرَةِ

صَدَى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

رُعْبُ المِجْهُولِ يَسْكُنُ قُلُوبَ المُرْتَابِينَ حِينَ يَتَنَزَّلُ غَيْثُ السَّمَاءِ بِالهِدَايَةِ فَيَرَوْنَهُ عَاصِفَةً تَصُكُّ مَسَامِعَهُمْ وَتُهَدِّدُ أَوْهَامَهُمْ بِالزَّوَالِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المَشْهَدِ المَهِيبِ يَفْتَحُ نَوَافِذَهُ لِلْمَطَرِ الإِلٰهِيِّ لِيَرْتَوِيَ بِنُورِهِ بَدَلَ أَنْ يَسُدَّ أُذُنَيْهِ هَرَباً مِنْ حَقَائِقِهِ، وَكَمْ فَرَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ مِنْ مُوَاجَهَةِ الحَقَائِقِ الصَّعْبَةِ الَّتِي تُوقِظُ الضَّمِيرَ وَظَنَنْتُ أَنَّ الهُرُوبَ مِنَ السَّمَاعِ يُنْجِي مِنَ المَصِيرِ،

أَرَى الهَارِبَ فِي لَيْلَةٍ عَاصِفَةٍ يُغْلِقُ أُذُنَيْهِ بِأَصَابِعِهِ خَوْفاً مِنْ دَوِيِّ الرَّعْدِ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ السَّمَاءَ تُطْبِقُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ كَمَا تُحِيطُ قُدْرَةُ اللهِ بِالكَافِرِينَ فَلَا يَمْلِكُونَ مَهْرَباً، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ الوَحْيَ غَيْثاً يَحْمِلُ الحَيَاةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَحْمِلُ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ لِقُلُوبِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَبَوُا التَّسْلِيمَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الصُّورَةُ فِي صَدْرِي إِلَى شَجَاعَةٍ إِيمَانِيَّةٍ تَسْتَقْبِلُ مَوَاعِظَ القُرْآنِ بِالرِّضَا وَالإِقْبَالِ، فَكُلُّ هُرُوبٍ مِنْ حَقَائِقِ السَّمَاءِ وَهْمٌ إِلَى انْكِشَافٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِي الالْتِجَاءِ إِلَى اللهِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَقُدْرَةً.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَذَبْذُبُ السَّيْرِ بَيْنَ الإِقْدَامِ وَالتَّوَقُّفِ يَكْشِفُ عَنْ إِيمَانٍ مَشْرُوطٍ بِالمَصَالِحِ لَا يَثْبُتُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالابْتِلَاءَاتِ؛ إِذْ يَمْشِي المُرْتَابُ حِينَ تَلْمَعُ لَهُ بُرُوقُ الرَّخَاءِ وَالنَّصْرِ، وَيَتَجَمَّدُ فِي مَكَانِهِ حِينَ تَغْشَاهُ ظُلُمَاتُ العُسْرِ وَالتَّكْلِيفِ، لِيَتَعَلَّمَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ الثَّبَاتَ عَلَى الحَقِّ يَقْتَضِي السَّيْرَ بِنُورِ اليَقِينِ الدَّائِمِ لَا بِوَمِيضِ الظُّرُوفِ المُتَقَلِّبَةِ، فَمَنْ وَصَلَ قَلْبَهُ بِقُدْرَةِ اللهِ اسْتَمَرَّ مَسِيرُهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَمَنْ رَبَطَ دِينَهُ بِبَرِيقِ الدُّنْيَا تَوَقَّفَ عِنْدَ أَوَّلِ عَتَمَةٍ وَانْقَطَعَ عَنِ الطَّرِيقِ.

الصَّدَى

وَمِيضُ البَرْقِ وَتَجَمُّدُ الخُطَى

صَدَى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

خُطُوَاتُ المُتَرَدِّدِينَ تَتَعَثَّرُ فِي دُرُوبِ الحَيَاةِ لِأَنَّهُمْ يَسْتَضِيئُونَ بِبَرْقِ المَصَالِحِ الخَاطِفِ بَدَلَ أَنْ يَحْمِلُوا فِي صُدُورِهِمْ مِشْكَاةَ اليَقِينِ الثَّابِتِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْوِيرِ الدَّقِيقِ تَعْقِدُ العَزْمَ عَلَى الثَّبَاتِ فِي مَحَطَّاتِ الابْتِلَاءِ كَمَا تَثْبُتُ فِي مَيَادِينِ الرَّخَاءِ، وَكَمْ ضَعُفَتْ هِمَّتِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ حِينَ

كُنْتُ أَنْشَطُ لِلطَّاعَةِ إِذَا أَشْرَقَتِ الدُّنْيَا وَأَتَوَقَّفُ حَائِراً إِذَا ادْلَهَمَّتِ الخُطُوبُ، أَرَى التَّائِهَ فِي اللَّيْلِ البَهِيمِ يَخْطُو خُطْوَتَيْنِ كُلَّمَا لَمَعَ البَرْقُ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ يَتَسَمَّرُ فِي مَكَانِهِ حِينَ يَعُودُ الظَّلَامُ فَلَا يَبْلُغُ مَقْصِداً كَمَا يَتَذَبْذَبُ المُنَافِقُونَ بَيْنَ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ تَحْتَ قُدْرَةِ اللهِ القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَرَانَا هَشَاشَةَ الإِيمَانِ القَائِمِ عَلَى المَنْفَعَةِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ الصِّدْقَ مَعَ اللهِ يَظْهَرُ حِينَ تَغِيبُ البُرُوقُ وَتَشْتَدُّ الظُّلُمَاتُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي دَاخِلِي إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يُحَرِّرُ عِبَادَتِي مِنْ تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ، فَكُلُّ ضَوْءٍ يَأْتِي مِنْ خَارِجِ اليَقِينِ وَمِيضٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا وُصُولَ إِلَّا لِسَالِكٍ اسْتَنَارَ قَلْبُهُ بِنُورِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢١–٣٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نِدَاءُ الفِطْرَةِ الجَامِعُ يَشْمَلُ البَشَرِيَّةَ جَمْعَاءَ لِيَرُدَّ الفَرْعَ إِلَى أَصْلِهِ، وَالمَخْلُوقَ إِلَى خَالِقِهِ الَّذِي أَبْدَعَ وُجُودَهُ وَوُجُودَ الآبَاءِ الأَوَّلِينَ؛ إِذْ تَسْتَقِيمُ بُوصَلَةُ العَقْلِ حِينَ تَرْبِطُ بَيْنَ نِعْمَةِ الإِيجَادِ وَاسْتِحْقَاقِ العِبَادَةِ، وَتُجَلِّي الغَايَةَ التَّرْبَوِيَّةَ مِنَ التَّكْلِيفِ؛ فَمَا العُبُودِيَّةُ لِلَّهِ قَيْداً يُثْقِلُ الكَاهِلَ، بَلْ هِيَ دِرْعُ التَّقْوَى الَّذِي يَقِي الإِنْسَانَ مَهَالِكَ الهَوَى وَالتَّبَعِيَّةِ لِلْأَغْيَارِ، فَمَنْ أَقَامَ مِحْرَابَ العِبَادَةِ لِخَالِقِهِ تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ المَخْلُوقِينَ، وَمَنِ انْقَطَعَ عَنْ رَبِّهِ تَاهَ فِي عُبُودِيَّةِ الطِّينِ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الخَالِقِ وَدِرْعُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

صَوْتُ السَّمَاءِ المَفْتُوحُ لِلْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ يَسْتَنْهِضُ ذَاكِرَةَ التَّكْوِينِ الأُولَى لِيَصِلَ الحَاضِرِينَ بِالغَابِرِينَ فِي مِحْرَابِ العُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا النِّدَاءِ الجَامِعِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاسْتِغْنَاءِ لِيُدْرِكَ أَنَّ وُجُودِي مَدِينٌ لِمَنْ أَنْشَأَنِي مِنَ العَدَمِ وَأَنَّ التَّقْوَى هِيَ الثَّمَرَةُ النَّاضِجَةُ لِهٰذِهِ الصِّلَةِ، وَكَمْ تَاهَتْ بِيَ السُّبُلُ

قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ حِينَ كُنْتُ أَتَوَهَّمُ أَنَّ التَّكْلِيفَ عِبْءٌ يُقَيِّدُ انْطِلَاقِي بَيْنَمَا هُوَ الحِصْنُ الَّذِي يَحْمِي فِطْرَتِي مِنَ التَّبَدُّدِ، أَرَى النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ تَتَّجِهُ بِأَوْرَاقِهَا نَحْوَ الشَّمْسِ الَّتِي تَمْنَحُهَا الدِّفْءَ وَالحَيَاةَ كَمَا تَتَّجِهُ الأَرْوَاحُ الصَّادِقَةُ بِالعِبَادَةِ نَحْوَ اللهِ الَّذِي خَلَقَهَا وَرَعَاهَا، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ الأَمْرَ بِالعِبَادَةِ بِحَقِيقَةِ الخَلْقِ لِيُقِيمَ البُرْهَانَ الفِطْرِيَّ عَلَى كُلِّ عَقْلٍ سَلِيمٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ فِي صَدْرِي إِلَى سِيَاجٍ أَمَانٍ يُطَهِّرُ سُلُوكِي وَيُحَرِّرُنِي مِنْ عُبُودِيَّةِ الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَى الخَالِقِ وَهْمٌ إِلَى انْكِسَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا وِقَايَةَ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِهَادُ الأَرْضِ المَبْسُوطُ وَسَقْفُ السَّمَاءِ المَرْفُوعُ يَشْهَدَانِ بِهَنْدَسَةِ الرِّعَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي سَخَّرَتِ الكَوْنَ لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ وَإِمْدَادِهِ بِأَسْبَابِ الحَيَاةِ؛ إِذْ يَنْزِلُ الغَيْثُ مِنَ العُلَا لِيُفَجِّرَ فِي الثَّرَى كُنُوزَ الثَّمَرَاتِ وَالأَرْزَاقِ، فَتَقُومُ الحُجَّةُ البُرْهَانِيَّةُ عَلَى العَقْلِ أَنْ لَا يُسَوِّيَ بَيْنَ الخَالِقِ المُنْعِمِ وَبَيْنَ مَخْلُوقَاتٍ عَاجِزَةٍ لَا تَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً، لِيَتَحَرَّرَ الضَّمِيرُ مِنْ شِرْكِ التَّعَلُّقِ بِالأَنْدَادِ وَالأَسْبَابِ، فَمَنْ أَبْصَرَ آيَاتِ التَّسْخِيرِ فِي الآفَاقِ أَفْرَدَ رَبَّهُ بِالشُّكْرِ وَالتَّوْحِيدِ، وَمَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَنْدَاداً نَاقَضَ بَدِيهَةَ عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ.

الصَّدَى

مِهَادُ الأَرْضِ وَوَقَاحَةُ الأَنْدَادِ

صَدَى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

بِسَاطُ الأَرْضِ المُذَلَّلُ وَقُبَّةُ السَّمَاءِ المُحْكَمَةُ يَنْسُجَانِ مَلْحَمَةَ الكَرَمِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي يُنْزِلُ المَاءَ الطَّهُورَ لِيُخْرِجَ مِنْ بَطْنِ الطِّينِ أَلْوَانَ الرِّزْقِ وَالعَطَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المَائِدَةِ الكَوْنِيَّةِ يَسْتَحْيِي مِنْ كُلِّ تَعَلُّقٍ

بِغَيْرِ المِنْعِمِ لِيُدْرِكَ أَنَّ جَعْلَ الأَنْدَادِ لِلَّهِ جُحُودٌ تَأْبَاهُ العُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَكَمْ غَفَلَتْ عَيْنِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ عَنْ تَدْبِيرِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَكُنْتُ أَنْسُبُ الفَضْلَ لِلْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ وَأَنْسَى مُسَبِّبَهَا الأَعْظَمَ، أَرَى المَطَرَ يَهْطِلُ عَلَى البَسَاتِينِ فَيُحَوِّلُ الأَغْصَانَ الجَافَّةَ إِلَى ثِمَارٍ يَانِعَةٍ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ مَخْلُوقٌ إِنْزَالَ قَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ كَمَا يَتَفَرَّدُ اللهُ بِالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ دُونَ شَرِيكٍ أَوْ نِدٍّ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ اسْتَنَارَ عِلْمَ الإِنْسَانِ وَبَدِيهَتَهُ لِيَهْدِمَ أَصْنَامَ الشِّرْكِ الخَفِيِّ وَالجَلِيِّ بِدَلِيلِ النِّعْمَةِ المَشْهُودَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عِرْفَانٍ يَرُدُّ كُلَّ نِعْمَةٍ إِلَى مَصْدَرِهَا الأَوَّلِ وَيُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ التَّعَلُّقِ بِالْوَسَائِطِ، فَكُلُّ نِدٍّ يُرْفَعُ فِي مُقَابِلِ الخَالِقِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِنْعَامَ إِلَّا لِلَّهِ مُبْدِعِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَيْدَانُ التَّحَدِّي المَفْتُوحُ يَقُومُ بُرْهَاناً عَقْلِيّاً قَاطِعاً يَحْسِمُ دَعَاوَى المشَكِّكِينَ وَيُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى المكَابِرِينَ؛ إِذْ يَدْعُو الوَحْيُ أَرْبَابَ البَيَانِ إِلَى مُعَارَضَتِهِ وَلَوْ بِأَقْصَرِ سُورَةٍ، مُسْتَعِينِينَ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَنْصَارٍ وَشُهَدَاءَ، لِيَتَبَيَّنَ لِلْعَقْلِ المُنْصِفِ أَنَّ عَجْزَ الفُصَحَاءِ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ هُوَ الشَّاهِدُ الأَبَدِيُّ عَلَى رَبَّانِيَّةِ مَصْدَرِهِ، فَمَنْ أَصْغَى لِهٰذَا التَّحَدِّي بِتَجَرُّدٍ أَذْعَنَ لِسُلْطَانِ الحَقِّ وَاهْتَدَى، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى الرَّيْبِ مَعَ عَجْزِهِ انْكَشَفَ زَيْفُ ادِّعَائِهِ وَبَطَلَ بُهْتَانُهُ.

الصَّدَى

مَيْدَانُ التَّحَدِّي وَخَرَسُ البُلَغَاءِ

صَدَى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

صَرْحُ الإِعْجَازِ القُرْآنِيّ يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْمُتَحَدّينَ عَبْرَ العُصُورِ لِيَكْشِفَ عَجْزَ البَشَرِ عَنْ مُحَاكَاةِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نَظْمِ السَّمَاءِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا البُرْهَانِ السَّاطِعِ يَزْدَادُ رُسُوخاً وَيَقِيناً لِيُدْرِكَ أَنَّ دِينَ اللهِ لَا يَخْشَى النَّقْدَ بَلْ يُقِيمُ الحُجَّةَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالعَقْلِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الحُجَّةِ مِنْ ضَحِيجِ المشَكّكِينَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الشُّبُهَاتِ فِي الهَوَاءِ ثُمَّ يَنْكَمِشُونَ عِنْدَ سَاعَةِ الِامْتِحَانِ، أَرَى نُجُومَ السَّمَاءِ تَتَلَأْلَأُ فِي العَلْيَاءِ بَيْنَمَا تَعْجِزُ مَصَابِيحُ الأَرْضِ كُلُّهَا عَنْ بُلُوغِ ضِيَائِهَا كَمَا يَعْجِزُ أَهْلُ الفَصَاحَةِ وَشُهَدَاؤُهُمْ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ التَّحَدّيَ مَفْتُوحاً لِلْجَمِيعِ لِيُثْبِتَ أَنَّ الصِّدْقَ يَمْلِكُ شَجَاعَةَ المواجهةِ وَأَنَّ البَاطِلَ يَنْهَارُ عِنْدَ أَوَّلِ بُرْهَانٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ يَقِينٍ تَطْرُدُ وَسَاوِسَ الشَّكِّ وَتُثَبِّتُ قَدَمِي عَلَى صِرَاطِ الوَحْيِ، فَكُلُّ كَلَامٍ يُنْسَجُ بِأَيْدِي البَشَرِ مَحْدُودٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سُلْطَانَ إِلَّا لِبَيَانِ اللهِ الَّذِي أَعْجَزَ العُقُولَ وَالأَفْهَامَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُكْمُ العَجْزِ الأَبَدِيّ يَقْطَعُ أَمَلَ المعَانِدِينَ فِي مُجَارَاةِ الوَحْيِ، وَيَنْقُلُ العَقْلَ مِنْ مَقَامِ الجَدَلِ النَّظَرِيّ إِلَى مَقَامِ النَّجَاةِ العَمَلِيَّةِ؛ إِذْ يُحَذّرُ الوَحْيُ مِنْ عَاقِبَةِ المكَابَرَةِ الَّتِي تَقُودُ صَاحِبَهَا إِلَى نَارٍ مُوقَدَةٍ تَلْتَهِمُ الأَجْسَادَ الجَاحِدَةَ وَالحِجَارَةَ الصَّمَّاءَ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللهِ، لِيُدْرِكَ الإِنْسَانُ أَنَّ الإِذْعَانَ لِلْحَقّ بَعْدَ قِيَامِ البُرْهَانِ هُوَ طَوْقُ النَّجَاةِ الوَحِيدُ، فَمَنِ اتَّقَى العَذَابَ بِالتَّصْدِيقِ وَالإِخْلَاصِ أَمِنَ هَوْلَ المصِيرِ، وَمَنْ عَانَدَ البُرْهَانَ بَعْدَ ثُبُوتِ عَجْزِهِ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الهَلَاكِ.

الصَّدَى

سُقُوطُ الرّهَانِ وَوَقُودُ الحِجَارَةِ

صَدَى ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

قَضَاءُ العَجْزِ المُرّمِ يَطْوِي صَفْحَةَ الجَدَلِ العَقِيمِ لِيُوقِظَ الغَافِلِينَ مِنْ سُكْرِ المكَابَرَةِ قَبْلَ أَنْ تَلْتَهِمَهُمْ نَارٌ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالأَصْنَامُ الحَجَرِيَّةُ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا النَّذِيرِ الصَّادِقِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ صَلَابَةِ القَلْبِ الَّتِي تَجْعَلُ الإِنْسَانَ حَطَباً لِلنَّارِ مَعَ الحِجَارَةِ الصَّمَّاءِ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذَا الوَعِيدِ أَنَّ العِنَادَ الفِكْرِيَّ مُجَرَّدُ وِجْهَةِ نَظَرٍ عَابِرَةٍ دُونَ أَنْ أُبْصِرَ مَآلَهَا المحْرِقَ فِي عَالَمِ الجَزَاءِ، أَرَى الهَشِيمَ اليَابِسَ يَتَلَاشَى فِي لَحْظَةٍ أَمَامَ أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ المسْتَعِرَةِ كَمَا تَتَلَاشَى دَعَاوَى الجَاحِدِينَ وَأَوْثَانُهُمْ فِي نَارٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْكَافِرِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ العَابِدِ المعَانِدِ وَالمعْبُودِ الحَجَرِيِّ فِي مَصِيرٍ وَاحِدٍ لِيَكْشِفَ هَوَانَ الشِّرْكِ وَفَسَادَ التَّعَلُّقِ بِالمادَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى جَرَسِ إِنْذَارٍ يَكْسِرُ غُرُورَ نَفْسِي وَيَدْفَعُنِي لِلِاحْتِمَاءِ بِتَقْوَى اللهِ، فَكُلُّ عِنَادٍ يَقِفُ فِي وَجْهِ الحَقِّ شَرَرٌ إِلَى احْتِرَاقٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِمَنِ اتَّقَى سَخَطَ اللهِ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِيمَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بِشَارَةُ النَّعِيمِ المقِيمِ تُشْرِقُ فِي مُقَابِلِ النَّذِيرِ لِتُؤَكِّدَ تَوَازُنَ الخِطَابِ القُرْآنِيِّ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ؛ إِذْ يَجْزِي الخَالِقُ أَهْلَ الإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، يَتَجَدَّدُ فِيهَا العَطَاءُ بِثِمَارٍ تَتَشَابَهُ فِي المنْظَرِ الجَمِيلِ وَتَتَفَاوَتُ فِي اللَّذَّةِ وَالمذَاقِ، مَعَ أُنْسِ الأَزْوَاجِ المطَهَّرَةِ وَنِعْمَةِ الخُلُودِ الَّتِي تَنْفِي كَدَرَ الزَّوَالِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ أَنَّ الجَزَاءَ الأُخْرَوِيَّ هُوَ الكَمَالُ المطْلَقُ الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ مَلَلٌ وَلَا انْقِطَاعٌ، فَمَنْ زَرَعَ الإِيمَانَ وَالصَّلَاحَ فِي دَارِ الفَنَاءِ حَصَدَ البَهْجَةَ وَالخُلُودَ فِي دَارِ البَقَاءِ.

الصَّدَى

جَنَّاتُ الخُلُودِ وَتَجَدُّدُ الثِّمَارِ

صَدَى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أَنْهَارُ النَّعِيمِ العَذْبَةُ تَنْسَابُ تَحْتَ ظِلَالِ الجِنَانِ لِتُبَشِّرَ قُلُوبَ الصَّالِحِينَ بِعَطَاءٍ يَتَشَابَهُ فِي البَهَاءِ وَيَتَجَدَّدُ فِي المَذَاقِ بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الكَرِيمِ تَخْلَعُ ثِيَابَ التَّعَبِ مِنْ مَشَقَّةِ الطَّاعَةِ لِتُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْبُتُ شَجَرَةً وَارِفَةً فِي دَارِ الخُلُودِ، وَكَمْ ظَمِئَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البِشَارَةِ إِلَى فَرَحٍ لَا يُكَدِّرُهُ الفِرَاقُ وَنَعِيمٍ لَا يُفْسِدُهُ التَّكْرَارُ وَالمَلَلُ فِي دُنْيَا الفَنَاءِ، أَرَى السَّحَابَةَ المُثْقَلَةَ بِالخَيْرِ تَسْقِي الرِّيَاضَ فَتُزْهِرُ فِي كُلِّ رَبِيعٍ بِحُلَّةٍ أَبْهَى مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا كَمَا يُكْرِمُ اللهُ أَهْلَ الجَنَّةِ بِرِزْقٍ مُتَجَدِّدٍ وَطَهَارَةٍ دَائِمَةٍ وَخُلُودٍ لَا يَزُولُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ الإِيمَانِ القَلْبِيِّ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ كَشَرْطٍ لِدُخُولِ الجَنَّةِ لِيَرْبِطَ المَصِيرَ الأَبَدِيَّ بِصِدْقِ السَّعْيِ وَطَهَارَةِ السُّلُوكِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ البِشَارَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَادٍ يَحْدُو خُطَايَ نَحْوَ الإِحْسَانِ وَيُهَوِّنُ عَلَيَّ كُلَّ مَشَقَّةٍ عَابِرَةٍ، فَكُلُّ نَعِيمٍ دُنْيَوِيٍّ مَشُوبٌ بِالكَدَرِ وَالزَّوَالِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَمَالَ إِلَّا فِي جَنَّاتِ اللهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ الأَبْرَارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الحِكْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَزِنُ الأَشْيَاءَ بِدَلَالَتِهَا وَإِتْقَانِهَا لَا بِحَجْمِهَا وَضَخَامَتِهَا؛ إِذْ يَضْرِبُ الخَالِقُ المَثَلَ بِالبَعُوضَةِ الصَّغِيرَةِ لِيُجَلِّيَ دَقَائِقَ القُدْرَةِ وَعَجَائِبَ الصَّنْعَةِ، فَيَكُونُ المَثَلُ القُرْآنِيُّ مِحَكّاً يَفْرِزُ النُّفُوسَ: قُلُوبٌ مُؤْمِنَةٌ تَزْدَادُ بِهِ بَصِيرَةً وَيَقِيناً، وَعُقُولٌ مَرِيضَةٌ تَتَعَثَّرُ فِي ظَاهِرِ اللُّغَةِ فَتَزْدَادُ شَكّاً

وَضَلَالاً بِسَبَبِ فِسْقِهَا وَخُرُوجِهَا عَنِ الفِطْرَةِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنَ الانْبِهَارِ بِالمظَاهِرِ الضَّخْمَةِ، وَيُدْرِكَ أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مَرَايَا لِلْحَقِيقَةِ، فَمَنْ صَفَتْ نِيَّتُهُ اهْتَدَى بِأَصْغَرِ الإِشَارَاتِ، وَمَنْ فَسَقَ قَلْبُهُ ضَلَّ أَمَامَ أَوْضَحِ البَيِّنَاتِ.

الصَّدَى

مِجْهَرُ الحِكْمَةِ وَعَثْرَةُ المظَاهِرِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾

عَجَائِبُ الخَلْقِ المكْنُونَةُ فِي جَنَاحِ بَعُوضَةٍ صَغِيرَةٍ تَفْضَحُ غُرُورَ العُقُولِ السَّطْحِيَّةِ الَّتِي لَا تَرَى العَظَمَةَ إِلَّا فِي الأَحْجَامِ الضَّخْمَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيزَانِ الدَّقِيقِ يَتَوَاضَعُ لِكُلِّ إِشَارَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الحِكْمَةَ تَسْكُنُ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِ الوُجُودِ، وَكَمْ انْخَدَعْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ بِبَرِيقِ العَنَاوِينِ الكَبِيرَةِ وَأَهْمَلْتُ الدُّرُوسَ الخَفِيَّةَ المَنْثُوثَةَ فِي صِغَارِ الكَائِنَاتِ، أَرَى القَطْرَةَ الوَاحِدَةَ مِنَ المَاءِ تَعْكِسُ صُورَةَ السَّمَاءِ كُلِّهَا لِلْعَيْنِ البَصِيرَةِ بَيْنَمَا تَرَاهَا العَيْنُ الغَافِلَةُ مُجَرَّدَ بَلَلٍ عَابِرٍ كَمَا تَتَفَاوَتُ القُلُوبُ أَمَامَ أَمْثَالِ اللهِ بَيْنَ هِدَايَةِ المؤْمِنِينَ وَضَلَالِ الفَاسِقِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الأَمْثَالَ القُرْآنِيَّةَ اخْتِبَاراً لِصَفَاءِ السَّرَائِرِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الضَّلَالَ لَا يَأْتِي مِنَ النَّصِّ بَلْ مِنْ فِسْقِ القَلْبِ وَانْحِرَافِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِجْهَرٍ تَدَبُّرٍ يَسْتَنْطِقُ الحِكْمَةَ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَيُطَهِّرُ بَاطِنِي مِنَ الفِسْقِ وَالِاعْتِرَاضِ، فَكُلُّ كِبْرٍ يَسْتَصْغِرُ آيَاتِ السَّمَاءِ غِشَاوَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَصِيرَةَ إِلَّا لِعَقْلٍ مُؤْمِنٍ أَبْصَرَ نُورَ اللهِ فِي الكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

المؤْعِظَةُ

مِعْوَلُ الهَدْمِ يَضْرِبُ فِي أُسُسِ العُمْرَانِ البَشَرِيّ حِينَ يَتَجَرَّأُ الفَاسِقُونَ عَلَى نَقْضِ مِيثَاقِ الفِطْرَةِ وَالوَحْيِ، وَتَمْزِيقِ أَوَاصِرِ الرَّحِمِ وَالأُخُوَّةِ وَالمَوَدَّةِ الَّتِي أَمَرَ الشَّرْعُ بِوَصْلِهَا؛ فَيَتَحَوَّلُ السُّلُوكُ المُنْحَرِفُ إِلَى إِفْسَادٍ شَامِلٍ يُخَرِّبُ الأَرْضَ وَيُفْسِدُ الحَيَاةَ، لِيُقَرِّرَ المِيزَانُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ صَلَاحَ العَالَمِ مَرْهُونٌ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ السَّمَاءِ وَصِلَةِ الرَّحْمَةِ بَيْنَ الخَلْقِ، فَمَنْ صَانَ المِيثَاقَ وَوَصَلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عَمَّرَ الأَرْضَ وَفَازَ، وَمَنْ نَقَضَ وَقَطَعَ وَأَفْسَدَ بَاءَ بِالخُسْرَانِ المُبِينِ.

الصَّدَى

مِعْوَلُ النَّقْضِ وَوَحْشَةُ القَطِيعَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

خُيُوطُ النَّسِيجِ الإِنْسَانِيّ تَتَمَزَّقُ حِينَ تَمْتَدُّ أَيْدِي الفَسَادِ لِنَقْضِ عَهْدِ اللهِ المُبْرَمِ فِي الفِطْرَةِ وَقَطْعِ رَوَابِطِ الرَّحْمَةِ وَالأَرْحَامِ فِي الأَرْضِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الخَرَابِ المُحْزِنِ تَسْتَجِيرُ بِخَالِقِهَا مِنْ قَسْوَةِ القَطِيعَةِ وَغَدْرِ النَّقْضِ لِتُدْرِكَ أَنَّ الوَفَاءَ وَالوَصْلَ هُمَا عِمَادُ السَّلَامِ فِي الوُجُودِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ صُرُوحٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ تَنْهَارُ لِأَنَّ أَصْحَابَهَا خَانُوا مِيثَاقَ الصِّدْقِ وَقَطَعُوا حِبَالَ الوُدِّ وَالتَّرَاحُمِ، أَرَى الشَّجَرَةَ الَّتِي تُقْطَعُ أَغْصَانُهَا عَنْ جِذْعِهَا تَذْبُلُ وَتَصِيرُ حَطَباً يَابِساً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ كَمَا يَهْلِكُ الفَاسِقُونَ الَّذِينَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ بَيْنَ نَقْضِ العَهْدِ الإِلٰهِيّ وَقَطْعِ الرَّوَابِطِ الإِنْسَانِيَّةِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ مَنْ خَانَ خَالِقَهُ لَا يَفِي لِمَخْلُوقٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ وَفَاءٍ يَصُونُ عَهْدِي مَعَ رَبِّي وَيَصِلُ جُسُورَ الرَّحْمَةِ مَعَ الخَلْقِ، فَكُلُّ إِفْسَادٍ يَقُومُ عَلَى النَّقْضِ وَالقَطِيعَةِ خَسَارَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَوْزَ إِلَّا لِوَفِيٍّ وَصَلَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِفْهَامُ الدَّهْشَةِ العَقْلِيَّةِ يَقْرَعُ بَابَ الضَّمِيرِ لِيُوَاجِهَ الإِنْسَانَ بِقِصَّةِ وُجُودِهِ البَدِيهِيَّةِ؛ إِذْ كَانَ عَدَماً مَحْضاً فَأَفَاضَ عَلَيْهِ الخَالِقُ نِعْمَةَ الحَيَاةِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ بِالمَوْتِ لِيَبْعَثَهُ حَيّاً يَوْمَ النُّشُورِ وَيَرُدَّهُ إِلَى عَدْلِهِ وَحِسَابِهِ، فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ فِي مِيزَانِ العَقْلِ أَنْ يَجْحَدَ الكَائِنُ مَنْ أَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ مِنْ غَفْلَةِ الِاعْتِيَادِ عَلَى نِعْمَةِ الحَيَاةِ، وَيُدْرِكَ أَنَّ المَوْتَ لَيْسَ فَنَاءً أَبَدِيّاً بَلْ مَعْبَرٌ إِلَى اللِّقَاءِ الأَكْبَرِ، فَمَنْ تَأَمَّلَ مَرَاحِلَ وُجُودِهِ خَضَعَ لِخَالِقِهِ بِالشُّكْرِ وَالإِيمَانِ، وَمَنْ كَفَرَ بِمَنْ أَحْيَاهُ جَحَدَ أَوْضَحَ حَقَائِقِ الكِيَانِ.

الصَّدَى

رِحْلَةُ العَدَمِ وَمَعْبَرُ الحَيَاةِ

صَدَى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

نَبْضُ الحَيَاةِ السَّارِي فِي عُرُوقِ الإِنْسَانِ يَحْمِلُ فِي كُلِّ خَفْقَةٍ بُرْهَانَ الأُلُوهِيَّةِ الَّتِي أَخْرَجَتْهُ مِنْ ظُلْمَةِ العَدَمِ وَتَسُوقُهُ عَبْرَ بَوَّابَةِ المَوْتِ إِلَى البَعْثِ وَاللِّقَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السُّؤَالِ المُذْهِلِ يَخْلَعُ غَفْلَةَ الأُلْفَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ وُجُودِي نَفْسَهُ هُوَ أَعْظَمُ مُعْجِزَةٍ تَنْطِقُ بِفَضْلِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَمْ مَرَرْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَلَى نِعْمَةِ الحَيَاةِ كَأَنَّهَا حَقٌّ مَكْتَسَبٌ لِي دُونَ أَنْ أَتَأَمَّلَ كَيْفَ كُنْتُ لَا شَيْءَ ثُمَّ صِرْتُ حَيّاً نَاطِقاً، أَرَى البَذْرَةَ الهَامِدَةَ تَخْرُجُ مِنَ التُّرَابِ نَبْتَةً خَضْرَاءَ ثُمَّ تَذْبُلُ لِتَعُودَ فَتُنْبِتَ مِنْ جَدِيدٍ بِقُدْرَةِ الخَالِقِ كَمَا يَتَقَلَّبُ الإِنْسَانُ بَيْنَ الإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَضَعَ تَارِيخَ الإِنْسَانِ كُلَّهُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ لِيَكْسِرَ كِبْرَهُ وَيُذَكِّرَهُ بِأَنَّ البِدَايَةَ وَالنِّهَايَةَ بِيَدِ خَالِقِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ شُكْرٍ وَاسْتِعْدَادٍ لِيَوْمِ الرُّجُوعِ الأَكْبَرِ، فَكُلُّ حَيَاةٍ دُنْيَوِيَّةٍ عَارِيَةٌ مَحْدُودَةٌ إِلَى انْقِضَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا فِي الدَّارِ الَّتِي نَرْجِعُ فِيهَا إِلَى اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٢٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مَمْلَكَةُ الأَرْضِ المسَخَّرَةُ وَقُبَّةُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ المُتْقَنَةُ تَكْشِفَانِ عَنْ كَمَالِ العِلْمِ الإِلٰهِيِّ وَشُمُولِ التَّكْرِيمِ لِلْإِنْسَانِ؛ إِذْ أَبْدَعَ الخَالِقُ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً لِيَكُونَ مَادَّةً لِلتَّفَكُّرِ وَالِانْتِفَاعِ وَالعِمَارَةِ، ثُمَّ أَحْكَمَ بِنَاءَ السَّمَاوَاتِ العُلَا بِعِلْمٍ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الوُجُودِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الأَصْلَ فِي أَشْيَاءِ الأَرْضِ هُوَ الإِبَاحَةُ وَالتَّسْخِيرُ مَا لَمْ يَرِدْ حَظْرٌ شَرْعِيٌّ يَصُونُ المصْلَحَةَ، فَيَتَحَرَّرُ العَقْلُ مِنْ وَسَاوِسِ التَّحْرِيمِ المتَكَلَّفِ وَالخَوْفِ مِنَ الكَوْنِ، فَمَنْ تَعَامَلَ مَعَ الكَوْنِ بِعِلْمٍ وَشُكْرٍ أَدَّى أَمَانَةَ الِاسْتِخْلَافِ، وَمَنْ أَفْسَدَ أَوْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللهُ تَعَدَّى حُدُودَ العَلِيمِ الخَبِيرِ.

الصَّدَى

خَزَائِنُ الأَرْضِ وَقُبَّةُ السَّبْعِ الطِّبَاقِ

صَدَى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

كُنُوزُ الأَرْضِ المفْتُوحَةُ وَسَقْفُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ المَرْفُوعُ يَشْهَدَانِ بِمَكَانَةِ الإِنْسَانِ المكَرَّمِ فِي هَنْدَسَةِ الكَوْنِ المبْنِيَّةِ عَلَى العِلْمِ المحِيطِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السَّخَاءِ الوُجُودِيِّ يَخْلَعُ وَحْشَةَ الغُرْبَةِ فِي العَالَمِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الأَرْضَ كُلَّهَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ وَأَنَّ السَّمَاءَ تَرْعَاهُ بِحِكْمَةِ العَلِيمِ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ الكَوْنَ مَادَّةٌ صَمَّاءُ مُعَادِيَةٌ أَوْ أَنَّ الأَصْلَ فِي الأَشْيَاءِ هُوَ المنْعُ وَالتَّضْيِيقُ، أَرَى القَصْرَ الفَخْمَ المجَهَّزَ بِكُلِّ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ وَالمعْرِفَةِ قَبْلَ قُدُومِ ضَيْفِهِ الكَرِيمِ كَمَا هَيَّأَ اللهُ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ لِلْإِنْسَانِ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ آيَةَ الخَلْقِ وَالتَّسْخِيرِ بِصِفَةِ العِلْمِ المطْلَقِ لِيُطَمْئِنَنَا أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ فِي الكَوْنِ وُضِعَ بِقَدَرٍ وَحِكْمَةٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ عِمَارَةٍ وَشُكْرٍ تُحَرِّرُ عَقْلِي مِنَ التَّشْدِيدِ وَتَدْفَعُنِي لِلِاسْتِخْلَافِ الرَّشِيدِ، فَكُلُّ مَتَاعٍ أَرْضِيٍّ وُجِدَ لِتَسْخِيرِ الإِنْسَانِ إِلَى حِينٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِلْمَ مُحِيطاً إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ فِي العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ الِاسْتِخْلَافِ الأَعْظَمُ يَتَجَلَّى فِي حِوَارِ السَّمَاءِ لِيَكْشِفَ عَنْ سِرِّ اصْطِفَاءِ الإِنْسَانِ لِعِمَارَةِ الأَرْضِ رَغْمَ مَا يَحْمِلُهُ مِنْ قَابِلِيَّةِ الخَطَأِ وَالِانْحِرَافِ؛ إِذْ تَخُوضُ البَشَرِيَّةُ تَجْرِبَةَ الحُرِّيَّةِ وَالِاخْتِيَارِ لِتُحَقِّقَ عُبُودِيَّةَ العَقْلِ وَالإِرَادَةِ الَّتِي تَفُوقُ تَسْبِيحَ الجِبِلَّةِ، فَيُحْسَمُ التَّسَاؤُلُ بِالعِلْمِ الإِلٰهِيِّ المحِيطِ الَّذِي يَرَى فِي هٰذَا الكَائِنِ المخْتَارِ طَاقَةَ التَّوْبَةِ وَالإِبْدَاعِ وَالتَّزْكِيَةِ، لِيُدْرِكَ المؤْمِنُ عِظَمَ أَمَانَتِهِ فِي الوُجُودِ، فَمَنْ حَقَّقَ مَقْصِدَ الخِلَافَةِ بِالعَدْلِ وَالإِصْلَاحِ سَمَا فَوْقَ المَلَائِكَةِ، وَمَنْ انْحَدَرَ إِلَى الإِفْسَادِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ خَانَ مِيثَاقَ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

تَاجُ الخِلَافَةِ وَحِكْمَةُ الِاخْتِيَارِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

تَاجُ الِاسْتِخْلَافِ المَرْفُوعُ فَوْقَ جَبِينِ الإِنْسَانِ يَحْمِلُ سِرَّ الحُرِّيَّةِ وَالِابْتِلَاءِ الَّذِي أَدْهَشَ المَلَائِكَةَ وَطَوَاهُ عِلْمُ الخَالِقِ المحِيطُ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّشْرِيفِ المهِيبِ تَرْتَجِفُ مِنْ ثِقَلِ الأَمَانَةِ لِتُدْرِكَ أَنَّ وُجُودِي عَلَى هٰذِهِ الأَرْضِ لَيْسَ عَبَثاً بَلْ هُوَ رِسَالَةُ عِمَارَةٍ وَتَسْبِيحٍ بِالِاخْتِيَارِ، وَكَمْ تَحَيَّرْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذَا الحِوَارِ العُلْوِيِّ مِنْ وُجُودِ الشَّرِّ وَالإِفْسَادِ فِي عَالَمِ البَشَرِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ قِيمَةَ الطَّاعَةِ تَنْتَفِي لَوْلَا القُدْرَةُ عَلَى المعْصِيَةِ، أَرَى الجَوْهَرَةَ النَّفِيسَةَ تُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ وَالتُّرَابِ بَعْدَ الصَّقْلِ وَالمعَانَاةِ فَتَزْدَادُ بَرِيقاً وَقِيمَةً كَمَا يَسْمُو الإِنْسَانُ الصَّالِحُ بِجِهَادِ نَفْسِهِ وَتَوْبَتِهِ فِي عِلْمِ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا لَا نَعْلَمُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَاهَنَ عَلَى هٰذَا المخْلُوقِ الضَّعِيفِ وَمَنَحَهُ العَقْلَ وَالإِرَادَةَ لِيُثْبِتَ أَنَّ عُبُودِيَّةَ الحُرِّ المخْتَارِ هِيَ أَجْمَلُ تَسْبِيحٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ كَرَامَةٍ يَمْنَعُنِي مِنَ الإِفْسَادِ وَيَدْفَعُنِي لِتَحْقِيقِ رِسَالَةِ الخِلَافَةِ الرَّشِيدَةِ، فَكُلُّ تَسْبِيحٍ بِلَا اخْتِيَارٍ مَحْصُورٌ فِي حُدُودِ الجِبِلَّةِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِفْعَةَ إِلَّا لِإِنْسَانٍ صَانَ أَمَانَةَ اللهِ وَأَصْلَحَ فِي الأَرْضِ قَبْلَ المآلِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَة(31-40)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَة

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِفْتَاحُ العِلْمِ الإِلٰهِيّ يَسْتَقِرُّ فِي يَدِ الإِنْسَانِ الأَوَّلِ لِيُعْلِنَ أَنَّ شَرَفَ الخِلَافَةِ مَنُوطٌ بِالمَعْرِفَةِ البَصِيرَةِ وَإِدْرَاكِ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ وَمُسَمَّيَاتِهَا؛ إِذْ تَظْهَرُ حِكْمَةُ الِاصْطِفَاءِ حِينَ يَعْجِزُ عَالَمُ المَلَكُوتِ عَنْ مُجَارَاةِ القُدْرَةِ البَشَرِيَّةِ عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّسْمِيَةِ وَالتَّحْلِيلِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيّ أَنَّ العَقْلَ البَاحِثَ عَنِ الحَقِيقَةِ هُوَ أَدَاةُ العِمَارَةِ الكُبْرَى، فَمَنْ سَخَّرَ عِلْمَهُ لِفَهْمِ سُنَنِ الوُجُودِ اسْتَحَقَّ تَاجَ التَّكْرِيمِ، وَمَنْ عَطَّلَ مَلَكَةَ الفِكْرِ فَقَدَ أَهْلِيَّةَ الِاسْتِخْلَافِ.

الصَّدَى

نُورُ الأَسْمَاءِ وَحَيْرَةُ المَلَكُوتِ

صَدَى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

مِشْكَاةُ المَعْرِفَةِ المُوْدَعَةُ فِي فِطْرَةِ الإِنْسَانِ تَكْشِفُ أَسْرَارَ الأَكْوَانِ وَتُقِيمُ بُرْهَانَ الكَرَامَةِ أَمَامَ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الفَضْلِ الغَامِرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الدُّونِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ قِيمَتِي فِي مَلَكُوتِ الوُجُودِ نَابِعَةٌ مِنْ عِلْمٍ أَفَاضَهُ اللهُ عَلَيَّ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ العَقْلَ قَيْدٌ يُزَاحِمُ التَّسْلِيمَ بَيْنَمَا هُوَ آيَةُ اللهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا آدَمَ عَلَى المَلَأِ الأَعْلَى، أَرَى المِرْآةَ الصَّقِيلَةَ تَسْتَوْعِبُ صُوَرَ الجِبَالِ وَالبِحَارِ فِي مِسَاحَتِهَا الصَّغِيرَةِ كَمَا اسْتَوْعَبَ عَقْلُ الإِنْسَانِ أَسْمَاءَ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا بِتَعْلِيمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ العِلْمَ هُوَ الفَيْصَلَ فِي إِثْبَاتِ جَدَارَةِ الخَلِيفَةِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ عِبَادَةَ العَالِمِ البَصِيرِ تَفُوقُ تَسْبِيحَ الجَاهِلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى شُعْلَةِ بَحْثٍ وَتَأَمُّلٍ تَدْفَعُنِي لِاسْتِكْشَافِ آيَاتِ الكَوْنِ بِنُورِ الوَحْيِ، فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ تَعْلِيمِ السَّمَاءِ غُرُورٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِفْعَةَ إِلَّا لِعِلْمٍ يَصِلُ العَبْدَ بِخَالِقِهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

أَدَبُ التَّسْبِيحِ وَالِاعْتِرَافِ بِمَحْدُودِيَّةِ الإِدْرَاكِ يَتَجَلَّى فِي إِقْرَارِ المَلَائِكَةِ بِالعَجْزِ أَمَامَ العِلْمِ المطْلَقِ لِلْخَالِقِ؛ إِذْ تَضَعُ هٰذِهِ القَاعِدَةُ حَدّاً فَاصِلاً بَيْنَ نُورِ التَّوَاضُعِ العِلْمِيّ وَظُلْمَةِ الكِبْرِ الفِكْرِيّ، لِيُدْرِكَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَعْرِفَةٍ يَبْلُغُهَا المخْلُوقُ إِنَّمَا هِيَ قَطْرَةٌ مِنْ بَحْرِ التَّعْلِيمِ الإِلٰهِيّ، فَمَنْ رَدَّ الفَضْلَ لِمُعَلِّمِهِ الأَوَّلِ بُورِكَ لَهُ فِي فَهْمِهِ، وَمَنِ ادَّعَى الِاسْتِقْلَالَ بِالمعْرِفَةِ انْحَجَبَ عَنْ أَسْرَارِ الحِكْمَةِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ التَّوَاضُعِ وَقَطَرَاتُ العِلْمِ

صَدَى ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَاۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

صَوْتُ التَّنْزِيهِ الصَّادِقِ يَرْتَفِعُ فِي أَرْجَاءِ المَلَكُوتِ لِيُعْلِنَ بَرَاءَةَ العُقُولِ الصَّافِيَةِ مِنْ دَعْوَى الإِحَاطَةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الأَدَبِ العُلْوِيّ يُلْقِي عَنْ كَاهِلِهِ غُرُورَ المعْرِفَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ فِكْرَةٍ تُشْرِقُ فِي ذِهْنِي هِيَ هِبَةٌ مِنَ العَلِيمِ الحَكِيمِ، وَكَمْ انْتَفَشَتْ نَفْسِي قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذَا المقَامِ بِبَعْضِ مَا تَعَلَّمْتُهُ وَظَنَنْتُ أَنَّ ذَكَائِي المحْدُودَ قَادِرٌ عَلَى كَشْفِ كُلِّ المغَالِيقِ، أَرَى القَمَرَ المنِيرَ فِي كَبِدِ اللَّيْلِ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ ضِيَاءً وَإِنَّمَا يَعْكِسُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ كَمَا تَعْكِسُ عُقُولُ الخَلْقِ قَبَساً مِنْ عِلْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَنْطَقَ المَلَائِكَةَ بِهٰذَا التَّسْبِيحِ لِيَرْسُمَ لِلْعُلَمَاءِ وَالمفَكِّرِينَ مَنْهَجَ التَّوَاضُعِ وَرَدِّ الفَضْلِ لِأَهْلِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الكَلِمَاتُ فِي صَدْرِي إِلَى دِرْعٍ يَحْمِينِي مِنْ كِبْرِ العِلْمِ وَيَفْتَحُ لِي أَبْوَابَ الفَهْمِ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَتَغَذَّى عَلَى الغُرُورِ سَرَابٌ إِلَى انْطِفَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُورَ إِلَّا لِمَعْرِفَةٍ اسْتَمَدَّتْ ضِيَاءَهَا مِنَ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُرْهَانُ التَّجْرِبَةِ العَمَلِيَّةِ يَحْسِمُ الجَدَلَ وَيُظْهِرُ مَكْنُونَ الحِكْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ فِي اسْتِخْلَافِ الإِنْسَانِ؛ إِذْ يَنْطِقُ آدَمُ بِالحَقَائِقِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا لِيُثْبِتَ جَدَارَتَهُ، فَيَتَجَلَّى عِلْمُ الخَالِقِ المحِيطُ بِغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَبِخَفَايَا الصُّدُورِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ مِنْ أَحْكَامِ العَجَلَةِ وَالظَّاهِرِ، وَيُدْرِكَ أَنَّ تَدْبِيرَ السَّمَاءِ يَقُومُ عَلَى إِحَاطَةٍ شَامِلَةٍ تَرَى المآلَاتِ قَبْلَ البِدَايَاتِ، فَمَنْ سَلَّمَ لِحِكْمَةِ الغَيْبِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وَمَنْ حَاكَمَ الأَقْدَارَ بِعَقْلِهِ القَاصِرِ تَعَثَّرَ فِي شُكُوكِهِ.

الصَّدَى

شَهَادَةُ البَيَانِ وَإِحَاطَةُ الغَيْبِ
صَدَى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

بُرْهَانُ الكَفَاءَةِ السَّاطِعُ يَتَفَجَّرُ عَلَى لِسَانِ آدَمَ لِيُبَدِّدَ غَبَشَ التَّسَاؤُلِ وَيَكْشِفَ عَنْ إِحَاطَةِ الخَالِقِ بِكُلِّ سِرٍّ وَعَلَانِيَةٍ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المشْهَدِ الكَاشِفِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّسَرُّعِ فِي الحُكْمِ عَلَى الأَشْيَاءِ لِيُدْرِكَ أَنَّ للهِ فِي خَلْقِهِ شُؤُوناً تَخْفَى عَلَى أَقْرَبِ المقَرَّبِينَ، وَكَمْ تَعَجَّلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ فِي تَفْسِيرِ الأَحْدَاثِ بِظَوَاهِرِهَا القَرِيبَةِ وَنَسِيتُ أَنَّ مَقَالِيدَ الغَيْبِ بِيَدِ مَنْ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُورُ، أَرَى البَذْرَةَ المدْفُونَةَ فِي ظُلْمَةِ التُّرَابِ يَعْلَمُ الفَلَّاحُ الخَبِيرُ ثَمَرَتَهَا قَبْلَ أَنْ تَشُقَّ الأَرْضَ كَمَا يَعْلَمُ اللهُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُبْدِيهِ النُّفُوسُ وَمَا تَكْتُمُهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَقَامَ الحُجَّةَ بِالبَيَانِ العَمَلِيِّ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ أَقْدَارَهُ تَجْرِي وِفْقَ عِلْمٍ مُطْلَقٍ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مَرْسَى سَكِينَةٍ يُطَهِّرُ سَرِيرَتِي وَيُحَرِّرُنِي مِنْ قَلَقِ المجْهُولِ، فَكُلُّ تَقْدِيرٍ بَشَرِيٍّ قَاصِرٌ إِلَى انْكِسَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِحَاطَةَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ المهَيْمِنِ عَلَى كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِحَكُّ الطَّاعَةِ وَالتَّسْلِيمِ يَفْصِلُ بَيْنَ نُورِ الِامْتِثَالِ المَلَائِكِيِّ وَظُلْمَةِ الكِبْرِ الإِبْلِيسِيِّ؛ إِذْ تَسْجُدُ المَلَائِكَةُ تَعْظِيماً لِأَمْرِ الخَالِقِ وَتَكْرِيماً لِلْعِلْمِ الَّذِي أَوْدَعَهُ فِي الإِنْسَانِ، بَيْنَمَا يَتَمَرَّدُ إِبْلِيسُ بِقِيَاسٍ فَاسِدٍ يُقَدِّمُ فِيهِ عُنْصُرَ الطِّينِ وَالنَّارِ عَلَى صَرِيحِ الأَمْرِ الإِلٰهِيِّ، لِيَتَبَيَّنَ لِلْعَقْلِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الكِبْرَ هُوَ أُمُّ المَعَاصِي وَأَصْلُ الكُفْرِ، فَمَنْ خَضَعَ لِأَمْرِ رَبِّهِ ارْتَفَعَ بِالتَّوَاضُعِ، وَمَنِ اسْتَكْبَرَ بِرَأْيِهِ سَقَطَ فِي هَاوِيَةِ الجُحُودِ.

الصَّدَى

سُجُودُ النُّورِ وَصَنَمُ الكِبْرِ
صَدَى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

جِبَاهُ المَلَائِكَةِ الأَطْهَارِ تَنْحَنِي طَاعَةً لِأَمْرِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا يَنْتَصِبُ إِبْلِيسُ كَرُمْحٍ مَكْسُورٍ يَعْبُدُ صَنَمَ ذَاتِهِ وَيَأْبَى السُّجُودَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الانْقِسَامِ الأَوَّلِ يَرْتَجِفُ مِنْ خُطُورَةِ الكِبْرِ الَّذِي يُحَوِّلُ العَابِدَ المجْتَهِدَ إِلَى رَمْزٍ لِلْكُفْرِ وَالطَّرْدِ، وَكَمْ تَسَلَّلَ إِلَى نَفْسِي قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الفَاجِعَةِ شُعُورُ التَّفَوُّقِ وَالمقَارَنَةِ دُونَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي طَرِيقِ إِبْلِيسَ، أَرَى السُّنْبُلَةَ المُمْتَلِئَةَ بِالخَيْرِ تَنْحَنِي بِتَوَاضُعٍ نَحْوَ الأَرْضِ بَيْنَمَا تَشْمَخُ السُّنْبُلَةُ الفَارِغَةُ فِي الهَوَاءِ حَتَّى تَكْسِرَهَا الرِّيحُ كَمَا سَجَدَتِ المَلَائِكَةُ لِأَمْرِ اللهِ وَتَحَطَّمَ إِبْلِيسُ عَلَى صَخْرَةِ اسْتِكْبَارِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ السُّجُودَ لِآدَمَ اخْتِبَاراً لِلطَّاعَةِ المطْلَقَةِ لِيَكْشِفَ أَنَّ المعْصِيَةَ النَّاتِجَةَ عَنِ الكِبْرِ لَا تُبْقِي لِلْعَبْدِ حَظّاً فِي القُرْبِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَوَاضُعٍ يَكْسِرُ غُرُورَ الأَنَا وَيُخْضِعُ عَقْلِي لِأَمْرِ الخَالِقِ، فَكُلُّ كِبْرٍ يَتَعَالَى عَلَى الوَحْيِ نَارٌ مُحْرِقَةٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا فِي الانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

الموْعِظَةُ

قَانُونُ التَّشْرِيعِ الإِلٰهِيِّ يَتَجَلَّى فِي أَوَّلِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ يُوَجَّهُ لِلْإِنْسَانِ؛ حَيْثُ تَتَّسِعُ دَائِرَةُ المَبَاحِ لِتَشْمَلَ الجَنَّةَ كُلَّهَا بِرَغَدِهَا وَنَعِيمِهَا، وَتَنْحَصِرُ دَائِرَةُ المَحْظُورِ فِي شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ مِيزَاناً لِلْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ، لِيَتَقَرَّرَ فِي الفِكْرِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الأَصْلَ فِي الشَّرِيعَةِ هُوَ السَّعَةُ وَالإِبَاحَةُ، وَأَنَّ الحَظْرَ اسْتِثْنَاءٌ يَحْمِي الإِنْسَانَ مِنْ ظُلْمِ نَفْسِهِ، فَمَنِ اكْتَفَى بِالحَلَالِ الوَاسِعِ عَاشَ فِي رَغَدٍ وَأَمَانٍ، وَمَنْ تَطَلَّعَ إِلَى الشَّجَرَةِ المَمْنُوعَةِ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي الظُّلْمِ وَالحِرْمَانِ.

الصَّدَى

فَضَاءُ الرَّغَدِ وَفِتْنَةُ الشَّجَرَةِ
صَدَى ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

بَسَاتِينُ الجَنَّةِ المَفْتُوحَةُ عَلَى مَدَى البَصَرِ تَمْنَحُ الإِنْسَانَ حُرِّيَّةَ التَّنَعُّمِ الرَّغِيدِ وَلَا تَضَعُ أَمَامَهُ سِوَى حَدٍّ وَاحِدٍ يَصُونُ كَرَامَتَهُ وَيَخْتَبِرُ وَفَاءَهُ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيزَانِ العَادِلِ يَخْلَعُ وَهْمَ التَّضْيِيقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَا أَبَاحَهُ اللهُ أَوْسَعُ بِكَثِيرٍ مِمَّا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَكَمْ تَاهَتْ بِيَ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ عَنْ مَلَايِينِ النِّعَمِ المَبَاحَةِ لِتُحَدِّقَ فِي شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ مَمْنُوعَةٍ بِفُضُولِ قَاتِلٍ، أَرَى الطَّائِرَ الحُرَّ يَمْلِكُ فَضَاءَ السَّمَاءِ الوَاسِعَ وَأَشْجَارَ الغَابَةِ كُلَّهَا ثُمَّ يَتْرُكُهَا لِيَقَعَ فِي فَخٍّ صَغِيرٍ وُضِعَتْ فِيهِ حَبَّةٌ مُحَرَّمَةٌ كَمَا يَظْلِمُ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ حِينَ يَقْتَرِبُ مِمَّا نَهَاهُ اللهُ عَنْهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَ بِعَدَمِ الِاقْتِرَابِ مِنَ الشَّجَرَةِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ السَّلَامَةَ فِي البُعْدِ عَنْ مَوَاطِنِ الفِتْنَةِ قَبْلَ السُّقُوطِ فِيهَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَانُونِ قَنَاعَةٍ يُغْنِينِي بِالحَلَالِ الطَّيِّبِ وَيُبْعِدُنِي عَنْ حِمَى المَحْظُورَاتِ، فَكُلُّ تَجَاوُزٍ لِحُدُودِ السَّمَاءِ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَغَدَ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللهِ الوَاحِدِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

المَوْعِظَةُ

عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ القَدِيمَةُ تُحَوِّلُ غَفْلَةَ اللَّحْظَةِ إِلَى هُبُوطٍ مِنْ مَنَازِلِ القُرْبِ وَالنَّعِيمِ إِلَى دَارِ الكَدْحِ وَالِابْتِلَاءِ؛ إِذْ تَبْدَأُ مَلْحَمَةُ الصِّرَاعِ البَشَرِيِّ عَلَى الأَرْضِ بَيْنَ نِدَاءِ الفِطْرَةِ وَوَسْوَسَةِ العَدُوِّ، فِي مَرْحَلَةٍ زَمَنِيَّةٍ مَحْدُودَةٍ تُقَدِّمُ المَتَاعَ المؤَقَّتَ وَلَا تَمْنَحُ الخُلُودَ، لِيُدْرِكَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ وَامْتِحَانٍ لَا مَقَرَّ اسْتِقْرَارٍ دَائِمٍ، فَمَنْ حَذِرَ مَكَايِدَ العَدُوِّ وَتَزَوَّدَ فِي مَتَاعِ الأَرْضِ بِالتَّقْوَى عَادَ إِلَى وَطَنِهِ الأَوَّلِ فِي الجَنَّةِ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِلْوَسْوَسَةِ بَقِيَ أَسِيرَ الهُبُوطِ وَالشَّقَاءِ.

الصَّدَى

زَلَّةُ اللحْظَةِ وَهُبُوطُ الِابْتِلَاءِ
صَدَى ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

وَسْوَسَةُ العَدُوِّ الخَفِيِّ تَسْرِقُ طُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ فِي لَحْظَةِ غَفْلَةٍ فَتُخْرِجُ الإِنْسَانَ مِنْ فِرْدَوْسِ السَّكِينَةِ إِلَى صَخَبِ الأَرْضِ وَعَنَاءِ الصِّرَاعِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الهُبُوطِ المهِيبِ يَسْتَيْقِظُ مِنْ سُبَاتِ الأَمَانِ الكَاذِبِ لِيُدْرِكَ أَنَّ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ حَقِيقَةٌ لَا تَنَامُ وَأَنَّ الدُّنْيَا مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، وَكَمْ اغْتَرَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِزِينَةِ الأَرْضِ وَظَنَنْتُهَا وَطَنِي الأَبَدِيَّ بَيْنَمَا أَنَا فِيهَا غَرِيبٌ يَنْتَظِرُ العَوْدَةَ إِلَى جَنَّةِ أَبِيهِ، أَرَى المِلَكَ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْ قَصْرِهِ المنِيفِ إِلَى صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ يَظَلُّ يَحِنُّ إِلَى دَارِهِ الأُولَى وَيُحَاذِرُ اللُّصُوصَ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ مِنْهَا كَمَا يَحِنُّ المؤْمِنُ إِلَى الجَنَّةِ وَيُجَاهِدُ الشَّيْطَانَ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَقَّتَ مَتَاعَ الأَرْضِ بِقَوْلِهِ «إِلَى حِينٍ» لِيَكْسِرَ وَهْمَ الخُلُودِ الدُّنْيَوِيِّ وَيُبْقِيَ القَلْبَ مُعَلَّقاً بِالدَّارِ الآخِرَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى يَقَظَةٍ دَائِمَةٍ تَحْرُسُنِي مِنْ مَصَائِدِ الوَسْوَاسِ وَتُذَكِّرُنِي بِغُرْبَةِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ مَتَاعٍ أَرْضِيٍّ ظِلٌّ عَابِرٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا وَطَنَ حَقِيقِيّاً إِلَّا فِي جِوَارِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

نُورُ التَّوْبَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَنْتَشِلُ الإِنْسَانَ مِنْ قَاعِ الزَّلَّةِ لِيُؤَسِّسَ قَانُونَ الرَّجَاءِ الأَبَدِيِّ فِي مَسِيرَةِ البَشَرِيَّةِ؛ إِذْ لَا يَتْرُكُ الخَالِقُ عَبْدَهُ المُنْكَسِرَ فِي حَيْرَةِ الذَّنْبِ، بَلْ يُلْهِمُهُ كَلِمَاتِ الِاعْتِرَافِ وَالِاسْتِغْفَارِ ثُمَّ يَتُوبُ عَلَيْهِ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ مِنْ يَأْسِ الإِبْلِيسِيِّ الَّذِي يُصِرُّ عَلَى الخَطِيئَةِ، وَيُدْرِكَ أَنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الآدَمِيِّ وَالإِبْلِيسِيِّ هُوَ التَّوْبَةُ وَالأَوْبَةُ، فَمَنِ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَلَقَّى كَلِمَاتِ الوَحْيِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَرَفَعَهُ، وَمَنْ أَصَرَّ وَعَانَدَ بَقِيَ فِي ظُلْمَةِ الطَّرْدِ.

الصَّدَى

كَلِمَاتُ السَّمَاءِ وَفَجْرُ التَّوْبَةِ

صَدَى ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

جِسْرُ الرَّحْمَةِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ يَنْتَشِلُ العَبْدَ المُنْكَسِرَ مِنْ وِهَادِ الخَطِيئَةِ لِيُعِيدَ إِلَيْهِ طَهَارَةَ الفِطْرَةِ وَبَهْجَةَ القُرْبِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا اللُّطْفِ الغَامِرِ يَذُوبُ حَيَاءً وَشُكْراً لِيُدْرِكَ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُلْهِمُ العَبْدَ التَّوْبَةَ ثُمَّ يَقْبَلُهَا مِنْهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَكَمْ أَثْقَلَتْنِي الذُّنُوبُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ حِينَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ السَّقْطَةَ الأُولَى تَقْطَعُ حَبْلَ الوِصَالِ مَعَ الخَالِقِ إِلَى الأَبَدِ، أَرَى الطِّفْلَ الصَّغِيرَ يَتَعَثَّرُ فِي مَشْيِهِ فَتَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُ أَبِيهِ الحَانِيَةِ لِتُقِيلَ عَثْرَتَهُ وَتَمْسَحَ دَمْعَتَهُ كَمَا تَمْتَدُّ كَلِمَاتُ اللهِ لِتُقِيلَ عَثْرَةَ آدَمَ وَتَغْمُرُهُ بِرَحْمَةِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ عَلَّمَ آدَمَ كَيْفَ يَتُوبُ لِيَفْتَحَ لِذُرِّيَّتِهِ بَابَ الأَمَلِ كُلَّمَا زَلَّتْ بِهِمُ الأَقْدَامُ فِي طَرِيقِ الحَيَاةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي جِرَاحَ اليَأْسِ وَيُجَدِّدُ عَهْدِي مَعَ رَبِّي فِي كُلِّ حِينٍ، فَكُلُّ ذَنْبٍ يَنْكَسِرُ أَمَامَ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ إِلَى مَحْوٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِي اللُّجُوءِ إِلَى اللهِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ الأَمَانِ الأَبَدِيّ يُعْلَنُ لِلْبَشَرِيَّةِ عِنْدَ بَدْءِ رِحْلَتِهَا عَلَى الأَرْضِ؛ إِذْ يَتَكَفَّلُ الخَالِقُ بِإِرْسَالِ الهُدَى المُتَجَدِّدِ لِيَكُونَ مَنَارَةً تَحْمِي السَّائِرِينَ مِنْ تِيهِ الطَّرِيقِ، وَيَضْمَنُ لِكُلِّ مَنِ اتَّبَعَ نُورَ الوَحْيِ السَّلَامَةَ المُطْلَقَةَ مِنْ خَوْفِ المُسْتَقْبَلِ المَجْهُولِ وَحُزْنِ الماضِي المَفْقُودِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ الرُّشْدِيّ أَنَّ الطُّمَأْنِينَةَ النَّفْسِيَّةَ ثَمَرَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِلِاهْتِدَاءِ بِشَرْعِ السَّمَاءِ، فَمَنْ جَعَلَ الهُدَى دَلِيلَهُ عَاشَ فِي أَمَانٍ وَسَكِينَةٍ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ تَخَطَّفَتْهُ المَخَاوِفُ وَالأَحْزَانُ.

الصَّدَى

مَنَارَةُ الهُدَى وَسَكِينَةُ الشَّاطِئِ
صَدَى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وَعْدُ السَّلَامِ الأَبَدِيّ يَتَنَزَّلُ مَعَ الإِنْسَانِ إِلَى الأَرْضِ لِيَكُونَ مِظَلَّةَ أَمَانٍ تَقِيهِ لَفَحَاتِ الخَوْفِ مِنَ الآتِي وَغُيُومَ الحُزْنِ عَلَى الفَائِتِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الضَّمَانِ الإِلٰهِيّ تَخْلَعُ رِدَاءَ القَلَقِ الوُجُودِيّ لِتُدْرِكَ أَنَّ اتِّبَاعَ الهُدَى هُوَ الشِّفَاءُ الكَامِلُ لِأَوْجَاعِ الرُّوحِ، وَكَمْ تَمَزَّقَ قَلْبِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ بَيْنَ نَدَمٍ عَلَى أَمْسٍ وَلَّى وَرُعْبٍ مِنْ غَدٍ لَا أَعْلَمُ مَا يَحْمِلُهُ فِي طَيَّاتِهِ، أَرَى المُسَافِرَ فِي اللَّيْلِ المُظْلِمِ يَسِيرُ مُطْمَئِنّاً خَلْفَ حَامِلِ المِشْعَلِ الَّذِي يَعْرِفُ مَسَالِكَ الطَّرِيقِ كَمَا يَسِيرُ المُؤْمِنُونَ فِي أَمَانٍ تَامٍّ خَلْفَ هُدَى اللهِ الَّذِي يُبَدِّدُ الخَوْفَ وَالحُزْنَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ لَمْ يُنْزِلِ الإِنْسَانَ إِلَى الأَرْضِ تَائِهاً بِلَا دَلِيلٍ بَلْ رَبَطَ نَجَاتَهُ النَّفْسِيَّةَ وَالأُخْرَوِيَّةَ بِاتِّبَاعِ نُورِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حِصْنٍ مِنَ السَّكِينَةِ يَحْمِينِي مِنْ عَوَاصِفِ القَلَقِ وَيُثَبِّتُ فُؤَادِي عَلَى اليَقِينِ، فَكُلُّ أَمَانٍ يُطْلَبُ بَعِيداً عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا طُمَأْنِينَةَ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ هُدَى اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٣٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ العَدْلِ المُقَابِلِ يَحْسِمُ مَصِيرَ المُعْرِضِينَ الَّذِينَ قَابَلُوا نُورَ الهِدَايَةِ بِالجُحُودِ وَالتَّكْذِيبِ؛ إِذْ تَتَحَوَّلُ مُلَازَمَتُهُمْ لِلْبَاطِلِ فِي الدُّنْيَا إِلَى مُصَاحَبَةٍ أَبَدِيَّةٍ لِلنَّارِ فِي الآخِرَةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ البَصِيرِ أَنَّ الكُفْرَ لَيْسَ مُجَرَّدَ رَأْيٍ عَابِرٍ، بَلْ هُوَ قَطِيعَةٌ وُجُودِيَّةٌ مَعَ مَصْدَرِ الحَيَاةِ وَالنُّورِ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الهَلَاكِ المُقِيمِ، فَمَنْ صَدَّقَ بِآيَاتِ رَبِّهِ نَجَا مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ، وَمَنْ كَذَّبَ وَاسْتَكْبَرَ صَارَ قَرِيناً لِلْجَحِيمِ.

الصَّدَى

قَطِيعَةُ النُّورِ وَصُحْبَةُ الجَحِيمِ
صَدَى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

ظُلْمَةُ التَّكْذِيبِ الَّتِي تَسْتَحْكِمُ فِي القُلُوبِ الجَاحِدَةِ تَسُوقُ أَصْحَابَهَا إِلَى مُلَازَمَةِ النَّارِ مُلَازَمَةَ الصَّاحِبِ لِصَاحِبِهِ بِلَا فِكَاكٍ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المَصِيرِ القَاطِعِ يَزْدَادُ تَمَسُّكاً بِنُورِ الإِيمَانِ لِيُدْرِكَ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِآيَاتِ السَّمَاءِ هُوَ اخْتِيَارٌ طَوْعِيٌّ لِلْعَذَابِ الأَبَدِيِّ، وَكَمْ غَفَلَ النَّاسُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَنْ خُطُورَةِ التَّهَاوُنِ بِآيَاتِ الكَوْنِ وَالوَحْيِ وَظَنُّوا أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنْهَا يَمُرُّ بِلَا حِسَابٍ، أَرَى المَاءَ البَارِدَ إِذَا انْقَطَعَ عَنِ الحَدِيدِ المُحْمَى تَرَكَهُ يَتَوَهَّجُ فِي النَّارِ بِلَا انْطِفَاءٍ كَمَا تَتْرُكُ قَطِيعَةُ الكُفْرِ أَصْحَابَهَا خَالِدِينَ فِي عَذَابِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ صُحْبَةِ الوَحْيِ فِي الدُّنْيَا أُلْزِمَ صُحْبَةَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ رَهْبَةٍ يَرْدَعُ نَفْسِي عَنِ الجُحُودِ وَيُثَبِّتُنِي عَلَى التَّصْدِيقِ، فَكُلُّ جُحُودٍ يَسْتَهْزِئُ بِالبَيِّنَاتِ شَرَرٌ إِلَى عَذَابٍ مُقِيمٍ، وَلَا خُلُودَ فِي النَّعِيمِ إِلَّا لِقَلْبٍ صَدَّقَ بِآيَاتِ اللهِ الكَبِيرِ العَلِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

المَوْعِظَةُ

ذَاكِرَةُ النِّعَمِ الإِلٰهِيَّةِ تَسْتَنْهِضُ وَفَاءَ العُقُولِ وَتُقِيمُ مِيثَاقَ العَدْلِ بَيْنَ الخَالِقِ وَعِبَادِهِ؛ إِذْ يُذَكِّرُ الوَحْيُ أَهْلَ الكِتَابِ بِسَوَابِقِ الفَضْلِ وَالرِّعَايَةِ لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الوَفَاءِ بِعَهْدِ الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، مُقَابِلَ وَفَاءِ السَّمَاءِ لَهُمْ بِالنَّصْرِ وَالهِدَايَةِ وَالثَّوَابِ، مَعَ تَوْجِيهِ الرَّهْبَةِ وَالخَشْيَةِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، لِيَتَحَرَّرَ الإِنْسَانُ مِنَ الخَوْفِ مِنَ المَخْلُوقِينَ وَمِنْ جُحُودِ الفَضْلِ، فَمَنْ شَكَرَ النِّعْمَةَ وَأَوْفَى بِالمِيثَاقِ نَالَ وَفَاءَ الرَّبِّ، وَمَنْ نَسِيَ الفَضْلَ وَخَافَ غَيْرَ اللهِ خَسِرَ العَهْدَ وَالأَمَانَ.

الصَّدَى

ذَاكِرَةُ الفَضْلِ وَمِيثَاقُ الوَفَاءِ
صَدَى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

سِجِلُّ النِّعَمِ السَّابِغَةِ يَفْتَحُ صَفَحَاتِهِ أَمَامَ الضَّمِيرِ الإِنْسَانِيِّ لِيُوقِظَ حِسَّ العِرْفَانِ وَيَدْعُوَ إِلَى الوَفَاءِ بِمِيثَاقِ السَّمَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا النِّدَاءِ الرَّحِيمِ يَتَفَقَّدُ أَيَادِيَ الفَضْلِ المحِيطَةِ بِحَيَاتِي لِيُدْرِكَ أَنَّ الوَفَاءَ لِلَّهِ هُوَ مِفْتَاحُ اسْتِمْرَارِ العَطَاءِ، وَكَمْ نَسِيتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ سَوَابِقَ اللُّطْفِ الَّتِي أَنْقَذَتْنِي فِي الشَّدَائِدِ وَخَضَعْتُ لِمَخَاوِفِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ بَدَلَ أَنْ أَرْهَبَ الخَالِقَ وَحْدَهُ، أَرَى الأَرْضَ الكَرِيمَةَ تَرُدُّ عَلَى الفَلَّاحِ الَّذِي يَرْعَاهَا بِثِمَارٍ مُضَاعَفَةٍ وَخَيْرٍ وَفِيرٍ كَمَا يَفِي اللهُ بِعَهْدِهِ لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَقَصَرَ رَهْبَتَهُ عَلَيْهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ بَيْنَ تَذَكُّرِ النِّعَمِ وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ وَإِفْرَادِهِ بِالرَّهْبَةِ لِيُطَهِّرَ النَّفْسَ مِنَ الجُحُودِ وَالجُبْنِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ شُكْرٍ وَشَجَاعَةٍ يُحَرِّرُنِي مِنَ الخَوْفِ مِنَ البَشَرِ وَيُثَبِّتُنِي عَلَى عَهْدِ اللهِ، فَكُلُّ عَهْدٍ يُبْرَمُ مَعَ المادَّةِ وَالأَهْوَاءِ سَرَابٌ إِلَى نَقْضٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا وَفَاءَ أَصْدَقَ مِنْ وَفَاءِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ التَّجَرُّدِ لِلْحَقِّ يَدْعُو أَهْلَ العِلْمِ وَالكِتَابِ إِلَى تَصْدِيقِ الوَحْيِ الجَدِيدِ الَّذِي يُوَافِقُ أُصُولَ الحَقِّ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ أَنْ يَكُونُوا طَلِيعَةَ الجَاحِدِينَ أَوْ أَنْ يَبِيعُوا آيَاتِ السَّمَاءِ بِعَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ زَائِلٍ مِنَ الرِّيَاسَةِ أَوِ المالِ؛ إِذْ يَكْشِفُ البَيَانُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ كُلَّ مَكْسَبٍ دُنْيَوِيٍّ يُشْتَرَى بِتَحْرِيفِ الحَقِيقَةِ هُوَ ثَمَنٌ بَخْسٌ لَا يُسَاوِي ذَرَّةً مِنْ رِضْوَانِ الخَالِقِ، فَمَنْ صَدَّقَ بِالحَقِّ وَصَانَ العِلْمَ عَنْ مَطَامِعِ الدُّنْيَا نَجَا بِالتَّقْوَى، وَمَنْ بَاعَ دِينَهُ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ خَسِرَ الدَّارَيْنِ.

الصَّدَى

نُورُ التَّصْدِيقِ وَصَفْقَةُ الخُسْرَانِ
صَدَى ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾

شُعَاعُ الحَقِّ المُتَجَدِّدِ يُعَانِقُ أَنْوَارَ الوَحْيِ القَدِيمِ لِيَدْعُوَ أَهْلَ المَعْرِفَةِ إِلَى شَرَفِ السَّبْقِ فِي الإِيمَانِ وَيُحَذِّرَهُمْ مِنْ دَنَاءَةِ المُهَاجَرَةِ بِالدِّينِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْذِيرِ الصَّارِمِ يَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ هَوًى أَوْ مَصْلَحَةٍ تَحْجُبُنِي عَنِ الِاعْتِرَافِ بِالحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الآيَةِ مِنْ عُقُولٍ تَعْرِفُ الصَّوَابَ ثُمَّ تَجْحَدُهُ حِفَاظاً عَلَى مَكَانَةٍ وَهْمِيَّةٍ أَوْ مَكْسَبٍ تَافِهٍ تَظُنُّهُ كَبِيراً، أَرَى التَّاجِرَ المُغْبُونَ يَبِيعُ الجَوْهَرَةَ الفَرِيدَةَ الَّتِي تَضْمَنُ لَهُ الغِنَى الأَبَدِيَّ بِحَفْنَةٍ مِنَ التُّرَابِ تَذْرُوهَا الرِّيحُ كَمَا يَبِيعُ المُعْرِضُونَ آيَاتِ اللهِ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ سَمَّى الدُّنْيَا كُلَّهَا ثَمَناً قَلِيلاً فِي مُقَابِلِ آيَاتِهِ لِيُوقِظَ العُقُولَ مِنْ سُكْرِ الطَّمَعِ وَيَرُدَّهَا إِلَى التَّقْوَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ نَزَاهَةٍ يَحْمِي فِكْرِي مِنَ التَّعَصُّبِ وَيُطَهِّرُ قَلْبِي مِنْ مَطَامِعِ الفَنَاءِ، فَكُلُّ مَكْسَبٍ يُنَالُ بِكِتْمَانِ الحَقِّ غُبَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا غِنًى إِلَّا فِي التَّمَسُّكِ بِآيَاتِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

صَفَاءُ الحَقِيقَةِ يَأْبَى الخَلْطَ وَالتَّلْبِيسَ الَّذِي يُزَيِّفُ الوَعْيَ وَيُضِلُّ السَّائِرِينَ؛ إِذْ يَنْهَى الوَحْيُ أَهْلَ العِلْمِ عَنْ جَرِيمَتَيْنِ تَهْدِمَانِ صَرْحَ المَعْرِفَةِ: إِلْبَاسُ الحَقِّ ثَوْبَ البَاطِلِ لِيَلْتَبِسَ الأَمْرُ عَلَى النَّاسِ، وَكِتْمَانُ الحَقِيقَةِ المَعْلُومَةِ إِرْضَاءً لِلْأَهْوَاءِ وَالمَصَالِحِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المَنْهَجِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ البَيَانَ الصَّرِيحَ وَالأَمَانَةَ العِلْمِيَّةَ هُمَا فَرِيضَةُ العُلَمَاءِ، فَمَنْ جَلَّى الحَقَّ نَقِيّاً خَالِصاً هَدَى الخَلْقَ وَبَرِئَتْ ذِمَّتُهُ، وَمَنْ خَلَطَ أَوْ كَتَمَ عَلَى عِلْمٍ تَحَمَّلَ وِزْرَ إِضْلَالِ العُقُولِ.

الصَّدَى

صَفَاءُ الحَقِّ وَغَبَشُ التَّلْبِيسِ
صَدَى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

شُعَاعُ الحَقِيقَةِ النَّاصِعُ يَتَأَبَّى عَلَى غُيُومِ التَّمْوِيهِ الَّتِي تَمْزِجُ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ لِتُفْسِدَ بَصِيرَةَ البَاحِثِينَ عَنِ الهِدَايَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا النَّهْيِ الصَّارِمِ يَتَعَاهَدُ مَعَ خَالِقِهِ عَلَى الوُضُوحِ التَّامِّ وَالبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ تَدْلِيسٍ أَوْ كِتْمَانٍ لِحَقِيقَةٍ أَعْلَمُهَا، وَكَمْ حَزِنْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ الوَصِيَّةِ حِينَ كُنْتُ أَرَى الحَقَائِقَ تُغَلَّفُ بِشُبُهَاتِ اللُّغَةِ أَوْ تُدْفَنُ فِي صَمْتِ المجَامَلَةِ خَوْفاً مِنْ سَخَطِ النَّاسِ، أَرَى المَاءَ الزُّلَالَ إِذَا خُلِطَ بِالكَدَرِ أَوْ حُبِسَ فِي الآبَارِ المظْلِمَةِ حُرِمَ مِنْهُ العِطَاشُ وَفَسَدَ طَعْمُهُ كَمَا تَفْسُدُ العُقُولُ حِينَ يُلْبَسُ الحَقُّ بِالبَاطِلِ وَيُكْتَمُ نُورُ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ بَيْنَ النَّهْيِ عَنِ الخَلْطِ وَالنَّهْيِ عَنِ الكِتْمَانِ لِيَحْمِيَ مَعْرِفَةَ الإِنْسَانِ مِنَ التَّزْيِيفِ وَالإِخْفَاءِ مَعاً، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ صِدْقٍ عِلْمِيٍّ يَجْعَلُ لِسَانِي مِرْآةً نَقِيَّةً لِلْحَقِّ بِلَا مُدَاهَنَةٍ، فَكُلُّ بَاطِلٍ يُزَيَّنُ بِثَوْبِ الحَقِّ سَرَابٌ إِلَى انْكِشَافٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُورَ إِلَّا لِحَقٍّ خَالِصٍ أَشْرَقَ مِنْ مِشْكَاةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عِمَادُ الدِّينِ وَرُوحُ الجَمَاعَةِ يَتَلَاحَمَانِ فِي ثَلَاثِ شَعَائِرَ تَبْنِي الإِنْسَانَ وَالمجْتَمَعَ عَلَى التَّقْوَى وَالتَّكَافُلِ؛ فَتَسْتَقِيمُ الصَّلَاةُ صِلَةً دَائِمَةً تَشُدُّ القَلْبَ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَفِيضُ الزَّكَاةُ طُهْراً يُحَرِّرُ المالَ مِنَ الشُّحِّ وَيُسْعِفُ الفُقَرَاءَ، ثُمَّ يَأْتِي الرُّكُوعُ مَعَ الرَّاكِعِينَ لِيُذِيبَ عُزْلَةَ الفَرْدِيَّةِ فِي صَفِّ الجَمَاعَةِ المؤْمِنَةِ، لِيَتَأَكَّدَ فِي المنْهَجِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّدَيُّنَ الصَّحِيحَ يَجْمَعُ بَيْنَ صَفَاءِ الرُّوحِ وَنَفْعِ الخَلْقِ وَوَحْدَةِ الصَّفِّ، فَمَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَانْدَمَجَ فِي جَمَاعَةِ المسْلِمِينَ اكْتَمَلَ دِينُهُ، وَمَنِ انْعَزَلَ أَوْ بَخِلَ اخْتَلَّ تَوَازُنُهُ.

الصَّدَى

صِلَةُ المِحْرَابِ وَدِفْءُ الجَمَاعَةِ

صَدَى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

مِحْرَابُ الصَّلَاةِ وَنَهْرُ الزَّكَاةِ وَصُفُوفُ الرَّاكِعِينَ تَرْسُمُ مَعَالِمَ الحَيَاةِ المؤْمِنَةِ الَّتِي تَصِلُ العَبْدَ بِرَبِّهِ وَتَشُدُّ أَزْرَهُ بِإِخْوَانِهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا النِّظَامِ المتَكَامِلِ يَخْلَعُ ثَوْبَ العُزْلَةِ وَالأَنَانِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ قُوَّةَ الرُّوحِ تَتَضَاعَفُ حِينَ تَرْكَعُ مَعَ الرَّاكِعِينَ وَتُعْطِي مِمَّا رَزَقَهَا اللهُ، وَكَمْ شَعَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ بِبَرْدِ الوَحْدَةِ حِينَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ التَّدَيُّنَ عِلَاقَةٌ فَرْدِيَّةٌ مَعْزُولَةٌ عَنْ حَاجَاتِ النَّاسِ وَصُفُوفِهِمْ، أَرَى الجَمْرَةَ الوَاحِدَةَ إِذَا انْعَزَلَتْ عَنِ المؤْقِدِ انْطَفَأَ وَهَجُهَا سَرِيعاً بَيْنَمَا تَتَّقِدُ وَتُضِيءُ حِينَ تَجْتَمِعُ مَعَ أَخَوَاتِهَا كَمَا تَحْيَا القُلُوبُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالرُّكُوعِ مَعَ جَمَاعَةِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ حَقِّهِ فِي الصَّلَاةِ وَحَقِّ الفُقَرَاءِ فِي الزَّكَاةِ وَرُوحِ الِاجْتِمَاعِ فِي الرُّكُوعِ لِيَبْنِيَ أُمَّةً مُتَرَاحِمَةً، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الأَوَامِرُ فِي صَدْرِي إِلَى نَبْضِ حَيَاةٍ يَصِلُنِي بِالسَّمَاءِ وَيُذِيبُ نَفْسِي فِي خِدْمَةِ الخَلْقِ، فَكُلُّ عِبَادَةٍ تَنْقَطِعُ عَنِ العَطَاءِ وَالجَمَاعَةِ نَاقِصَةٌ إِلَى فُتُورٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا لِعَمَلٍ جَمَعَ بَيْنَ إِخْلَاصِ المِحْرَابِ وَالإِحْسَانِ لِعِبَادِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِرْآةُ العَقْلِ السَّلِيمِ تَكْشِفُ عَوْرَةَ الِازْدِوَاجِيَّةِ حِينَ يَتَحَوَّلُ الوَعْظُ إِلَى سِلْعَةٍ تُبَاعُ لِلنَّاسِ بَيْنَمَا يُحْرَمُ مِنْهَا القَائِلُ؛ إِذْ تَسْتَنْكِرُ الفِطْرَةُ الرَّشِيدَةُ أَنْ يُضِيءَ الحَامِلُ لِلْكِتَابِ طَرِيقَ الخَيْرِ لِلْعَابِرِينَ وَيَتْرُكَ نَفْسَهُ تَتَعَثَّرُ فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى وَالتَّقْصِيرِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ التَّرْبَوِيِّ أَنَّ صِدْقَ الدَّعْوَةِ يَبْدَأُ مِنْ إِصْلَاحِ الدَّاخِلِ قَبْلَ تَقْوِيمِ الخَارِجِ، فَمَنْ طَابَقَ عَمَلُهُ قَوْلَهُ أَثْمَرَتْ مَوْعِظَتُهُ هِدَايَةً وَنُوراً، وَمَنْ نَسِيَ نَفْسَهُ وَهُوَ يَتْلُو الوَحْيَ نَاقَضَ بَدِيهَةَ عَقْلِهِ وَخَسِرَ مِصْدَاقِيَّةَ رِسَالَتِهِ.

الصَّدَى

مِصْبَاحُ الطَّرِيقِ وَعَتَمَةُ الدَّاخِلِ
صَدَى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

صَوْتُ العَتَابِ العَقْلِيِّ يَقْرَعُ أَبْوَابَ الضَّمِيرِ لِيَفْضَحَ الفَجْوَةَ الموحِشَةَ بَيْنَ بَرِيقِ المَوَاعِظِ المَسْمُوعَةِ وَقَفْرِ السُّلُوكِ المَهْجُورِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذِهِ المِرْآةِ الصَّادِقَةِ تَرْتَجِفُ خَجَلاً مِنْ كُلِّ كَلِمَةِ خَيْرٍ نَطَقَ بِهَا لِسَانِي وَلَمْ يَسْبِقْهَا قَلْبِي إِلَى التَّطْبِيقِ، وَكَمْ انْشَغَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ بِإِصْلَاحِ أَخْطَاءِ الآخَرِينَ وَتَوْجِيهِهِمْ نَحْوَ البِرِّ بَيْنَمَا كَانَتْ جَوَانِحِي تَئِنُّ مِنْ ثِقَلِ الغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ، أَرَى الشَّمْعَةَ المُنِيرَةَ تَحْتَرِقُ لِتَمْنَحَ الضَّوْءَ لِلْجَالِسِينَ حَوْلَهَا بَيْنَمَا تَذُوبُ هِيَ وَتَتَلَاشَى فِي صَمْتٍ كَمَا يَضِيعُ الوَاعِظُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذَا التَّوْبِيخَ بِاسْتِنْكَارِ غِيَابِ العَقْلِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الفِصَامَ بَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ هُوَ أَقْبَحُ صُوَرِ الجَهْلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسٍ يَقِظٍ يَبْدَأُ بِمُحَاسَبَةِ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ يَمْتَدَّ لِسَانِي بِالنُّصْحِ لِلْخَلْقِ، فَكُلُّ مَوْعِظَةٍ تَخْلُو مِنْ قُدْوَةِ الفِعْلِ صَدَىً فَارِغٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِعَاقِلٍ جَعَلَ مِنْ سُلُوكِهِ تَرْجَمَةً حَيَّةً لِكِتَابِ اللهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

زَادُ العُبُورِ فِي مَشَاقِّ الحَيَاةِ يَرْتَكِزُ عَلَى دِعَامَتَيْنِ تَشُدَّانِ أَزْرَ الرُّوحِ وَتُثَبِّتَانِ القَدَمَ عِنْدَ اشْتِدَادِ العَوَاصِفِ؛ صَبْرٌ يَحْبِسُ النَّفْسَ عَنِ الجَزَعِ وَالتَّرَاجُعِ، وَصَلَاةٌ تَصِلُ القَلْبَ بِمَنْبَعِ القُوَّةِ المطْلَقَةِ، وَلٰكِنَّ ثِقَلَ هٰذِهِ الصِّلَةِ لَا يَخِفُّ إِلَّا عَلَى قُلُوبِ الخَاشِعِينَ الَّذِينَ لَانَتْ جَوَانِحُهُمْ لِعَظَمَةِ الخَالِقِ وَأَنِسَتْ أَرْوَاحُهُمْ بِمُنَاجَاتِهِ، لِيَتَحَرَّرَ المؤْمِنُ مِنْ وَهْمِ الِانْتِصَارِ بِالموَازِينِ المادِّيَّةِ المعْزُولَةِ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ، فَمَنِ اتَّخَذَ الصَّبْرَ وَالصَّلَاةَ مِفْتَاحاً لِحَلِّ المعضِلَاتِ هَانَتْ عَلَيْهِ الشَّدَائِدُ، وَمَنْ قَسَا قَلْبُهُ عَنِ الخُشُوعِ اسْتَثْقَلَ الطَّاعَةَ وَضَاقَتْ بِهِ المسَالِكُ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الصَّبْرِ وَمِحْرَابُ الخَاشِعِينَ

صَدَى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

قَنْطَرَةُ النَّجَاةِ فَوْقَ أَمْوَاجِ الِابْتِلَاءِ تَقُومُ عَلَى ثَبَاتِ الصَّبْرِ الَّذِي يَحْرُسُ الإِرَادَةَ وَنُورِ الصَّلَاةِ الَّذِي يَسْكُبُ السَّكِينَةَ فِي الفُؤَادِ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا التَّوْجِيهِ الرَّحِيمِ تَخْلَعُ رِدَاءَ العَجَلَةِ وَالِاضْطِرَابِ لِتُدْرِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ عِبْئاً يُؤَدَّى بَلْ هِيَ مَلَاذٌ يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى أَثْقَالِ الوُجُودِ، وَكَمْ اسْتَثْقَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ سِرِّ الخُشُوعِ وُقُوفِي فِي المِحْرَابِ حِينَ كَانَ قَلْبِي مُثْقَلاً بِهُمُومِ الأَرْضِ وَغَافِلاً عَنْ لَذَّةِ القُرْبِ مِنَ السَّمَاءِ، أَرَى الطَّائِرَ المسَافِرَ يَشُقُّ عَبَابَ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ بِجَنَاحَيْنِ مُتَوَازِنَيْنِ يَحْمِلَانِهِ نَحْوَ الأُفُقِ كَمَا يَعْبُرُ المؤْمِنُ عَقَبَاتِ الدُّنْيَا بِجَنَاحَيِ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ حِينَ يَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بِالخُشُوعِ لِلَّهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ خِفَّةَ الصَّلَاةِ بِرِقَّةِ الخُشُوعِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ ثِقَلَ الطَّاعَةِ نَابِعٌ مِنْ قَسْوَةِ البَاطِنِ لَا مِنْ صُعُوبَةِ التَّكْلِيفِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الوَصِيَّةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِفْتَاحٍ فَرَجٍ يُهَوِّنُ عَلَيَّ النَّوَائِبَ وَيَجْعَلُ سُجُودِي مَرْسَى الطُّمَأْنِينَةِ، فَكُلُّ سَنَدٍ بَشَرِيٍّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ رِيشَةٌ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا لِخَاشِعٍ اسْتَعَانَ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ فِي كَنَفِ اللهِ الفَسِيحِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَصِيرَةُ اللِّقَاءِ الأَكْبَرِ تَصْنَعُ رِقَّةَ الخُشُوعِ فِي القُلُوبِ؛ إِذْ يَسْتَحْضِرُ الخَاشِعُونَ بِيَقِينٍ جَازِمٍ سَاعَةَ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ وَالرُّجُوعَ الحَتْمِيَّ إِلَى مَلَكُوتِهِ، فَتَخِفُّ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةُ التَّكْلِيفِ وَتَهُونُ فِي أَعْيُنِهِمْ زَخَارِفُ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ، لِيَتَأَكَّدَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الخُشُوعَ لَيْسَ حَرَكَةً جَسَدِيَّةً مُتَكَلَّفَةً، بَلْ هُوَ ثَمَرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِاسْتِحْضَارِ المآلِ وَيَقِينِ الحِسَابِ، فَمَنْ عَاشَ وَعَيْنُ قَلْبِهِ تَرْقُبُ يَوْمَ اللِّقَاءِ اسْتَقَامَ سَعْيُهُ وَرَقَّ فُؤَادُهُ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْ رُجُوعِهِ إِلَى رَبِّهِ قَسَا قَلْبُهُ وَثَقُلَتْ عَلَيْهِ العِبَادَةُ.

الصَّدَى

شَوْقُ اللِّقَاءِ وَرِحْلَةُ الرُّجُوعِ
صَدَى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

يَقِينُ العَوْدَةِ إِلَى الوَطَنِ الأَوَّلِ يَسْكُبُ فِي أَعْمَاقِ الخَاشِعِينَ سَكِينَةً تُذِيبُ ثِقَلَ الطَّاعَةِ وَتُحَوِّلُ مَشَقَّةَ الطَّرِيقِ إِلَى أُنْسِ المسِيرِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الأُفُقِ المفْتُوحِ يَخْلَعُ وَحْشَةَ الغُرْبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ فِي هٰذِهِ الحَيَاةِ تُقَرِّبُنِي مِنْ لِقَاءِ رَبِّي وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَكَمْ تَثَاقَلَتْ جَوَارِحِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَنِ القِيَامِ بِالحُقُوقِ لِأَنَّنِي كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا كَأَنَّهَا مَقَرٌّ لَا مَمَرٌّ، أَرَى المسَافِرَ المشْتَاقَ يَقْطَعُ المفَاوِزَ وَالصَّحَارِيَ بِخِفَّةٍ وَفَرَحٍ كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مَعَالِمُ دِيَارِهِ وَأَحِبَّتِهِ كَمَا تَخِفُّ الصَّلَاةُ وَالصَّبْرُ عَلَى قُلُوبِ الخَاشِعِينَ الَّذِينَ يُوقِنُونَ بِلِقَاءِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ يَقِينَ اللِّقَاءِ وَالرُّجُوعِ هُوَ السِّرَّ الخَفِيَّ الَّذِي يَبْعَثُ الخُشُوعَ فِي الصُّدُورِ وَيُحَرِّرُهَا مِنْ كَسَلِ الجَسَدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى زَادِ شَوْقٍ يُنَعِّمُ قَلْبِي فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَيَجْعَلُ المَوْتَ بَوَّابَةَ قُرْبٍ لَا شَبَحَ فَنَاءٍ، فَكُلُّ إِقَامَةٍ عَلَى الأَرْضِ سَفَرٌ قَصِيرٌ إِلَى انْتِهَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قَرَارَ إِلَّا عِنْدَ اللِّقَاءِ الأَكْبَرِ بِاللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

ذَاكِرَةُ النِّعَمِ السَّالِفَةِ تُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى الأَجْيَالِ المُتَعَاقِبَةِ كَيْ لَا يَتَحَوَّلَ التَّفْضِيلُ الإِلٰهِيُّ إِلَى غُرُورٍ عِرْقِيٍّ أَوْ تَوَاكُلٍ يُبَرِّرُ العِصْيَانَ؛ إِذْ يُذَكِّرُ الخَالِقُ أُمَّةً اصْطَفَاهَا فِي زَمَانِهَا بِالوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ أَنَّ هٰذَا الفَضْلَ أَمَانَةُ تَكْلِيفٍ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ وَالِاسْتِجَابَةَ، لَا امْتِيَازاً مُطْلَقاً يُغْنِي عَنِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ وَهْمِ الِاصْطِفَاءِ المجَّانِيِّ، فَمَنْ قَابَلَ نِعْمَةَ التَّفْضِيلِ بِالتَّوَاضُعِ وَالطَّاعَةِ دَامَ لَهُ الفَضْلُ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِمَاضِي آبَائِهِ وَنَسِيَ شُكْرَ المُنْعِمِ سُلِبَ مَا أُعْطِيَ وَبَاءَ بِالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

ذَاكِرَةُ الفَضْلِ وَغُرُورُ الِاصْطِفَاءِ
صَدَى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

سِجِلُّ العَطَايَا الإِلٰهِيَّةِ المَفْتُوحُ فِي التَّارِيخِ يُنَادِي أَصْحَابَ النِّعَمِ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ تَفْضِيلِ السَّمَاءِ سُلَّماً لِلشُّكْرِ لَا مَطِيَّةً لِلْكِبْرِ وَالتَّعَالِي، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّذْكِيرِ الجَلِيلِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ نِعَمُ اللهِ عَلَيَّ إِلَى حُجَّةٍ ضِدِّي حِينَ أَنْسَى المُنْعِمَ وَأَغْتَرُّ بِالنِّعْمَةِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ السُّنَّةِ مِنْ نُفُوسٍ تَتَبَاهَى بِشَرَفِ الانْتِسَابِ أَوْ سَبْقِ العَطَاءِ وَتَظُنُّ أَنَّ مَاضِيهَا يَحْمِيهَا مِنْ تَبِعَاتِ تَقْصِيرِهَا الحَاضِرِ، أَرَى الأَرْضَ الَّتِي أُكْرِمَتْ بِالغَيْثِ الغَزِيرِ وَتُرْبَتَهَا الخِصْبَةَ تَصِيرُ أَشَدَّ قُبْحاً إِنْ أَنْبَتَتِ الشَّوْكَ بَدَلَ الزَّهْرِ كَمَا يَعْظُمُ جُرْمُ مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ بِالعِلْمِ وَالهِدَايَةِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْ أَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ ذَكَّرَهُمْ بِالتَّفْضِيلِ لِيُوقِظَ فِيهِمْ شُعُورَ المسْؤُولِيَّةِ وَيَكْسِرَ جُمُودَ القُلُوبِ أَمَامَ الحَقِّ الجَدِيدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَوَاضُعٍ يَجْعَلُنِي أَرَى كُلَّ نِعْمَةٍ تَكْلِيفاً يُلْزِمُنِي بِالشُّكْرِ لَا امْتِيَازاً يُعْفِينِي مِنَ العَمَلِ، فَكُلُّ فَضْلٍ دُنْيَوِيٍّ عَارِيَةٌ تَزُولُ عِنْدَ الجُحُودِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِشَاكِرٍ صَانَ نِعْمَةَ اللهِ بِالطَّاعَةِ وَالسُّجُودِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الفَرْدِيَّةِ المطْلَقَةِ يَحْكُمُ مَوْقِفَ الحِسَابِ الأَخِيرِ حِينَ تَتَقَطَّعُ الأَسْبَابُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَتَسْقُطُ كُلُّ الوَسَائِطِ البَشَرِيَّةِ؛ فَلَا نَفْسٌ تَحْمِلُ وِزْرَ أُخْرَى، وَلَا شَفَاعَةٌ تُقْبَلُ لِغَيْرِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِذْنِ، وَلَا فِدْيَةٌ مَالِيَّةٌ تَفْتَدِي العَاصِيَ مِنَ العَذَابِ، وَلَا نَاصِرَ يَمْنَعُ قَضَاءَ الجَبَّارِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ أَوْهَامِ الِاتِّكَالِ عَلَى الأَنْسَابِ أَوِ الأَمْوَالِ أَوْ شَفَاعَةِ المخْلُوقِينَ دُونَ عَمَلٍ صَالِحٍ، فَمَنِ اتَّقَى ذٰلِكَ اليَوْمَ بِتَزْكِيَةِ نَفْسِهِ وَإِخْلَاصِ سَعْيِهِ نَجَا بِفَرْدِيَّةِ صِدْقِهِ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى مَوَازِينِ الدُّنْيَا الزَّائِفَةِ وَقَفَ وَحِيداً بِلَا مُعِينٍ وَلَا نَصِيرٍ.

الصَّدَى

وَحْدَةُ المَوْقِفِ وَسُقُوطُ الوَسَائِطِ
صَدَى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

صَمْتُ المحْشَرِ المهِيبُ يُسْقِطُ كُلَّ عُكَّازَاتِ الدُّنْيَا وَيُوقِفُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَارِياً إِلَّا مِنْ عَمَلِهِ فِي يَوْمٍ لَا تُغْنِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ وَلَا تُقْبَلُ فِيهِ فِدْيَةٌ وَلَا نَصِيرٌ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الحَصْرِ القَاطِعِ يَخْلَعُ أَوْهَامَ الِاتِّكَالِ عَلَى الجَاهِ وَالمَالِ وَالقَرَابَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ نَجَاتِي مَرْهُونَةٌ بِمَا قَدَّمَتْهُ يَدَايَ وَخَلَصَ فِيهِ قَلْبِي، وَكَمْ رَكَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ إِلَى رَوَابِطِ الأَرْضِ وَمَوَازِينِهَا وَظَنَنْتُ أَنَّ الكَثْرَةَ أَوِ النَّسَبَ قَدْ يَدْفَعَانِ عَنِّي تَبِعَاتِ التَّقْصِيرِ، أَرَى الوَرَقَةَ الوَحِيدَةَ تَسْقُطُ مِنَ الشَّجَرَةِ فِي الخَرِيفِ فَتُوَاجِهُ الرِّيحَ مُنْفَرِدَةً بِلَا غُصْنٍ يَحْمِيهَا وَلَا شَجَرَةٍ تَسْنُدُهَا كَمَا يَقِفُ كُلُّ عَبْدٍ مُنْفَرِداً أَمَامَ عَدْلِ اللهِ يَوْمَ الحِسَابِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ هَدَمَ كُلَّ الأَبْوَابِ الخَلْفِيَّةِ لِلنَّجَاةِ المؤْهُومَةِ لِيَدْفَعَ الإِنْسَانَ إِلَى صِنَاعَةِ نَجَاتِهِ بِيَدِهِ فِي دَارِ العَمَلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ جِدٍّ وَاجْتِهَادٍ يُحَرِّرُنِي مِنَ التَّوَاكُلِ وَيُوقِظُ مَسْؤُولِيَّتِي الفَرْدِيَّةَ، فَكُلُّ وَسَاطَةٍ تَخْرُجُ عَنْ إِذْنِ السَّمَاءِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِنَفْسٍ زَكَّتْ نَفْسَهَا بِطَاعَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٤٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

فَجْرُ الخَلَاصِ الإِلٰهِيّ يَشُقُّ حَالِكَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ لِيُحَرِّرَ المُسْتَضْعَفِينَ مِنْ قَبْضَةِ الجَبَابِرَةِ الَّذِينَ اسْتَبَاحُوا الدِّمَاءَ وَامْتَهَنُوا الكَرَامَةَ؛ إِذْ يُذَكِّرُ الوَحْيُ أَنَّ اشْتِدَادَ البَلَاءِ لَيْسَ دَلِيلاً عَلَى غِيَابِ الرِّعَايَةِ، بَلْ هُوَ مَخَاضٌ عَظِيمٌ يَسْبِقُ وِلَادَةَ النَّصْرِ وَيُظْهِرُ كَمَالَ القُدْرَةِ حِينَ يَنْكَسِرُ الطَّاغُوتُ فِي ذُرْوَةِ جَبَرُوتِهِ، لِيَتَحَرَّرَ عَقْلُ المُؤْمِنِ مِنْ يَأْسِ الِاسْتِضْعَافِ وَوَسَاوِسِ القُنُوطِ أَمَامَ سَطْوَةِ الظَّالِمِينَ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى مِحْنَةِ الِابْتِلَاءِ وَشَكَرَ نِعْمَةَ النَّجَاةِ أَبْصَرَ لُطْفَ الخَالِقِ فِي طَيَّاتِ المِحَنِ، وَمَنْ نَسِيَ أَيَّامَ اللهِ وَعَادَ إِلَى الجُحُودِ بَعْدَ الخَلَاصِ اسْتَوْجَبَ مَقْتَ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

مَخَاضُ الطُّغْيَانِ وَفَجْرُ الخَلَاصِ
صَدَى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

يَدُ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ تَمْتَدُّ فِي أَحْلَكِ سَاعَاتِ القَهْرِ لِتَكْسِرَ قُيُودَ الفَرَاعِنَةِ وَتُحَرِّرَ الأَرْوَاحَ المَسْحُوقَةَ مِنْ سِيَاطِ العَذَابِ وَالِاسْتِذْلَالِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ المَلْحَمَةِ التَّارِيخِيَّةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ اليَأْسِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الكُرُوبِ لِيُدْرِكَ أَنَّ ذُرْوَةَ الظَّلَامِ هِيَ البِشَارَةُ القَرِيبَةُ بِانْبِلَاجِ الفَجْرِ، وَكَمْ انْقَبَضَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السُّنَّةِ أَمَامَ تَجَبُّرِ الطُّغَاةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ لَيْلَ الِابْتِلَاءِ لَنْ يَنْجَلِيَ عَنْ صُبْحٍ قَرِيبٍ، أَرَى الحَبَّةَ المَدْفُونَةَ تَحْتَ ثِقَلِ التُّرَابِ وَظُلْمَتِهِ تَتَفَتَّقُ عَنْ سُنْبُلَةٍ خَضْرَاءَ تُعَانِقُ الشَّمْسَ بَعْدَ أَنْ كَادَ اليَأْسُ يُطْبِقُ عَلَيْهَا كَمَا نَجَّى اللهُ المُسْتَضْعَفِينَ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وَجَعَلَ مِحْنَتَهُمْ بَلَاءً عَظِيماً يَكْشِفُ الصَّادِقِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ سَمَّى ذٰلِكَ العَذَابَ وَتِلْكَ النَّجَاةَ بَلَاءً عَظِيماً لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ الشِّدَّةَ وَالرَّخَاءَ كِلَاهُمَا اخْتِبَارٌ لِصِدْقِ العُبُودِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ القِصَّةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ

أَمَلٍ تُثَبِّتُنِي عِنْدَ البَلَاءِ وَتُذَكِّرُنِي بِشُكْرِ النَّجَاةِ، فَكُلُّ طُغْيَانٍ يَتَجَبَّرُ فِي الأَرْضِ فُقَّاعَةٌ إِلَى انْفِجَارٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا غَلَبَةَ إِلَّا لِقُدْرَةِ اللهِ الَّتِي تَنْصُرُ المَظْلُومِينَ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُعْجِزَةُ انْفِلَاقِ البَحْرِ تَكْشِفُ عَنْ سُلْطَانِ الخَالِقِ المُطْلَقِ عَلَى نَوَامِيسِ الطَّبِيعَةِ لِتَحْقِيقِ العَدْلِ وَنُصْرَةِ المَظْلُومِينَ؛ إِذْ تَنْشَقُّ الأَمْوَاجُ المُتَلَاطِمَةُ طَرِيقاً يَبَساً يَعْبُرُ عَلَيْهِ أَهْلُ الإِيمَانِ نَحْوَ الحُرِّيَّةِ، ثُمَّ تَطْبِقُ اللُّجَّةُ نَفْسُهَا عَلَى الطُّغَاةِ لِتُغْرِقَهُمْ عَلَى مَرْأًى مِنْ أَعْيُنِ مَنْ كَانُوا يَسْتَذِلُّونَهُمْ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ البَصِيرِ أَنَّ السَّبَبَ الوَاحِدَ قَدْ يَكُونُ طَرِيقاً لِلنَّجَاةِ وَأَدَاةً لِلْهَلَاكِ بِأَمْرِ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى مَالِكِ الكَوْنِ انْشَقَّتْ لَهُ البِحَارُ عَنْ مَخْرَجٍ، وَمَنْ طَغَى وَتَجَبَّرَ أَغْرَقَتْهُ مَوَازِينُ قُوَّتِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ.

الصَّدَى

مَمَرُّ الأَمْوَاجِ وَمَقْبَرَةُ الطُّغَاةِ
صَدَى ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

سَيْفُ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَشُقُّ قَلْبَ البَحْرِ المُتَلَاطِمِ لِيَصْنَعَ مِنْ أَمْوَاجِهِ جُدْرَانَ أَمَانٍ تَحْمِي المُؤْمِنِينَ ثُمَّ يُحِيلُهَا قَبْراً يَبْتَلِعُ الطُّغَاةَ تَحْتَ أَنْظَارِ المَظْلُومِينَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المَشْهَدِ الكَوْنِيِّ المَهِيبِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الخَوْفِ مِنْ عَقَبَاتِ الطَّرِيقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الأَسْبَابَ كُلَّهَا جُنُودٌ مُسَخَّرَةٌ بِيَدِ خَالِقِهَا، وَكَمْ وَقَفْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ حَائِراً أَمَامَ بِحَارِ الأَزَمَاتِ المُغْلَقَةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ لَا مَخْرَجَ لِي بَيْنَ بَحْرٍ يَتَلَاطَمُ أَمَامِي وَعَدُوٍّ يُطَارِدُنِي مِنْ خَلْفِي، أَرَى النَّارَ المُحْرِقَةَ تَصِيرُ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى الخَلِيلِ وَالبَحْرَ المُغْرِقَ يَصِيرُ طَرِيقاً يَبَساً لِلْكَلِيمِ بَيْنَمَا يَهْلِكُ فِيهِ آلُ فِرْعَوْنَ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ هَلَاكَ الطُّغَاةِ مَشْهَداً عِيَانِيّاً يَرَاهُ المَظْلُومُونَ بِأَعْيُنِهِمْ لِيَشْفِيَ صُدُورَهُمْ وَيُثَبِّتَ يَقِينَهُمْ بِعَدْلِ السَّمَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ المُعْجِزَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ تَوَكُّلٍ تَكْسِرُ رَهْبَةَ المُسْتَحِيلِ وَتُؤَكِّدُ أَنَّ

مَعَ العُسْرِ يُسْراً، فَكُلُّ قُوَّةٍ تَتَحَدَّى سُلْطَانَ السَّمَاءِ غَرَقٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ عَبَرَ بِحَارَ الحَيَاةِ بِمَعِيَّةِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٥١-٦٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سُرْعَةُ الِانْتِكَاسِ البَشَرِيِّ تَكْشِفُ عَنْ هَشَاشَةِ الإِيمَانِ حِينَ يَرْتَبِطُ بِالشُّخُوصِ وَالمَحْسُوسَاتِ لَا بِالمَعْنَى الرَّبَّانِيِّ البَاقِي؛ إِذْ مَا كَادَ الكَلِيمُ يَغِيبُ لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً حَتَّى انْقَلَبَتِ القُلُوبُ الغَافِلَةُ تَعْبُدُ عِجْلاً مَصْنُوعاً مِنْ حُلِيٍّ وَذَهَبٍ، لِيَتَأَكَّدَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ يَأْبَى التَّجْسِيدَ المَادِّيَّ وَالِارْتِهَانَ لِلْأَوْثَانِ، فَمَنْ عَبَدَ الخَالِقَ بِبَصِيرَةٍ ثَابِتَةٍ لَمْ يُزَعْزِعْهُ غِيَابُ القَادَةِ وَلَا بَرِيقُ المَادَّةِ، وَمَنِ ارْتَبَطَ دِينُهُ بِالصُّوَرِ المَحْسُوسَةِ انْحَدَرَ إِلَى ظُلْمِ الشِّرْكِ عِنْدَ أَوَّلِ اخْتِبَارٍ.

الصَّدَى

غِيَابُ الكَلِيمِ وَخُوَارُ العِجْلِ

صَدَى ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾

مِيقَاتُ المُنَاجَاةِ العُلْوِيِّ يَخْتَبِرُ ثَبَاتَ القُلُوبِ فِي الأَرْضِ فَيَكْشِفُ زَيْفَ الأَرْوَاحِ الَّتِي تَعْجِزُ عَنِ التَّحْلِيقِ بِلَا تِمْثَالٍ مَحْسُوسٍ أَوْ صَنَمٍ ذَهَبِيٍّ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السُّقُوطِ السَّرِيعِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً مِنْ دَاءِ الِاسْتِعْجَالِ وَالتَّعَلُّقِ بِالصُّوَرِ الفَانِيَةِ بَدَلَ الحَقِيقَةِ الغَائِبَةِ عَنِ الأَبْصَارِ، وَكَمْ تَاهَتْ بِيَ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ عِنْدَمَا كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَعْنًى مَلْمُوسٍ أَرْكَنُ إِلَيْهِ كُلَّمَا طَالَ انْتِظَارُ الفَرَجِ أَوْ غَابَتِ الأَسْبَابُ الظَّاهِرَةُ، أَرَى الصَّائِغَ يَصْهَرُ الذَّهَبَ فِي النَّارِ فَيُشَكِّلُهُ هَيْكَلاً أَجْوَفَ لَا يَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً كَمَا صَنَعَ الغَافِلُونَ عِجْلاً يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ فِي غَيْبَةِ نَبِيِّهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الأَرْبَعِينَ لَيْلَةً مِحَكّاً يَفْرِزُ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ رَبَّ مُوسَى الحَيَّ وَمَنْ يَعْبُدُ حُضُورَ الشَّخْصِ وَبَرِيقَ المِعْدِنِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَجْرِيدٍ يُطَهِّرُ عَقِيدَتِي مِنَ الأَوْثَانِ

الحَنِيفِيَّةِ وَيُثَبِّتُنِي عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ يُصَاغُ مِنَ المادَّةِ وَهْمٌ إِلَى انْكِسَارٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أُلُوهِيَّةَ إِلَّا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَسِيمُ العَفْوِ الرَّبَّانِيّ يَهُبُّ عَلَى جُرْمِ الشِّرْكِ العَظِيمِ لِيُطْفِئَ نَارَ العُقُوبَةِ العَاجِلَةِ وَيَفْتَحَ بَابَ الأَمَلِ وَالمَغْفِرَةِ مِنْ جَدِيدٍ؛ إِذْ تَسْبِقُ رَحْمَةُ الخَالِقِ غَضَبَهُ حِينَ يَمْحُو أَثَرَ الزَّلَّةِ الكُبْرَى لِيَسْتَثِيرَ فِي القُلُوبِ مَشَاعِرَ الحَيَاءِ وَالشُّكْرِ وَالعَوْدَةِ الصَّادِقَةِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ كَابُوسِ القُنُوطِ الَّذِي يُصَوِّرُ الذَّنْبَ نِهَايَةً مُغْلَقَةً لَا رَجْعَةَ بَعْدَهَا، فَمَنْ قَابَلَ سَعَةَ العَفْوِ بِالشُّكْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ رَبِحَ القُرْبَ وَالأَمَانَ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِحِلْمِ السَّمَاءِ وَتَمَادَى فِي الجُحُودِ اسْتَوْجَبَ الهَوَانَ.

الصَّدَى

سَحَابَةُ العَفْوِ وَبَذْرَةُ الشُّكْرِ

صَدَى ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

مِمْحَاةُ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ تَمْتَدُّ لِتُزِيلَ سَوَادَ الخَطِيئَةِ العُظْمَى وَتَمْنَحَ الأَرْوَاحَ السَّاقِطَةَ وِلَادَةً جَدِيدَةً تَنْبِضُ بِالِاعْتِرَافِ وَالشُّكْرِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحِلْمِ الوَاسِعِ يَذُوبُ حَيَاءً مِنْ كَرَمِ خَالِقٍ يَقْبَلُ التَّائِبِينَ بَعْدَ أَقْبَحِ الجُحُودِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الشُّكْرِ بَدَلَ انْتِقَامِ العَدْلِ، وَكَمْ أَطْبَقَ عَلَيَّ اليَأْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السَّعَةِ حِينَ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ عِظَمَ الذَّنْبِ يَقْطَعُ حِبَالَ الرَّجَاءِ وَيُغْلِقُ أَبْوَابَ القَبُولِ، أَرَى الأَرْضَ المحْتَرِقَةَ الَّتِي أَتَتْ عَلَيْهَا النَّارُ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الغَيْثُ العَذْبُ فَيُعِيدُ إِلَيْهَا الخُضْرَةَ وَالحَيَاةَ مِنْ جَدِيدٍ كَمَا يُحْيِي عَفْوُ اللهِ القُلُوبَ التَّائِبَةَ بَعْدَ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ وَالعِصْيَانِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الغَايَةَ مِنَ العَفْوِ إِيقَاظَ الشُّكْرِ فِي النُّفُوسِ لِيَكُونَ اللُّطْفُ الإِلٰهِيُّ دَافِعاً لِلْإِحْسَانِ لَا ذَرِيعَةً لِلِاسْتِهَانَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ رَجَاءٍ يُبَدِّدُ قُنُوطِي وَيُحَفِّزُنِي لِشُكْرٍ

المُنْعِمِ بِالطَّاعَةِ، فَكُلُّ عَفْوٍ بَشَرِيٍّ مَحْدُودٌ مَشُوبٌ بِالمِنِّ وَالأَذَى، وَلَا خُلُودَ وَلَا سَعَةَ إِلَّا لِمَغْفِرَةِ اللهِ الَّتِي تَسَعُ العِبَادَ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الفُرْقَانِ السَّمَاوِيُّ يَتَنَزَّلُ مَعَ الكِتَابِ لِيَشُقَّ ضَبَابَ الِالْتِبَاسِ وَيَفْصِلَ بِوُضُوحٍ قَاطِعٍ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَالهُدَى وَالضَّلَالِ؛ إِذْ تَقُومُ حُجَّةُ الوَحْيِ عَلَى إِنَارَةِ العَقْلِ بِالمَعَايِيرِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَعْصِمُ السَّائِرَ مِنَ التَّخَبُّطِ فِي مَتَاهَاتِ الهَوَى وَالأَوْهَامِ، لِيُدْرِكَ الإِنْسَانُ أَنَّ السَّعَادَةَ مَنُوطَةٌ بِالِاهْتِدَاءِ بِنُورِ السَّمَاءِ لَا بِالِارْتِجَالِ وَالتَّقْلِيدِ، فَمَنْ جَعَلَ الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ حَكَماً عَلَى فِكْرِهِ وَسُلُوكِهِ اهْتَدَى إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ نُورِ الفُرْقَانِ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ.

الصَّدَى

نُورُ الكِتَابِ وَسَيْفُ الفُرْقَانِ
صَدَى ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

مِشْكَاةُ الوَحْيِ المُتَنَزِّلَةُ مِنَ السَّمَاءِ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا سَيْفَ الفُرْقَانِ الَّذِي يَفْصِلُ الحَقَّ عَنِ البَاطِلِ كَمَا يَفْصِلُ الصُّبْحُ بَيْنَ الخَيْطِ الأَبْيَضِ وَالأَسْوَدِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ المِنَّةِ الكُبْرَى يَخْلَعُ رِدَاءَ الحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ لِيُدْرِكَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتْرُكِ البَشَرَ فِي عَتَمَةِ الظُّنُونِ بَلْ أَنْزَلَ لَهُمْ مِيزَاناً يَهْتَدُونَ بِهِ، وَكَمْ تَخَبَّطَتْ خُطَايَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ فِي دُرُوبٍ مُشْتَبِهَةٍ تَخْتَلِطُ فِيهَا الأَلْوَانُ وَتَتَشَابَهُ فِيهَا المَسَالِكُ بِلَا دَلِيلٍ، أَرَى المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ المُظْلِمِ تُرْسِلُ شُعَاعَهَا الثَّابِتَ لِتُمَيِّزَ السُّفُنُ بَيْنَ مِينَاءِ السَّلَامَةِ وَصُخُورِ الهَلَاكِ كَمَا يَهْدِي الكِتَابُ وَالفُرْقَانُ عِبَادَ اللهِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ الكِتَابَ بِالفُرْقَانِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الوَحْيَ لَيْسَ مُجَرَّدَ قِرَاءَةٍ تُتْلَى بَلْ هُوَ مِعْيَارُ تَمْيِيزٍ يَحْكُمُ الحَيَاةَ وَيُصَحِّحُ المَوَازِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بُوصَلَةِ يَقِينٍ تَحْمِينِي مِنَ

التَّلْبِيسِ وَتَقُودُنِي إِلَى الهِدَايَةِ، فَكُلُّ مِعْيَارٍ بَشَرِيٍّ يَنْحَرِفُ عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا فِي نُورِ الكِتَابِ وَالفُرْقَانِ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

مِشْرَطُ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ يَسْتَأْصِلُ وَرَمَ الشِّرْكِ وَالِانْحِرَافِ وَلَوْ كَانَ الثَّمَنُ بَذْلَ النَّفْسِ وَقَهْرَ الهَوَى؛ إِذْ يُقَرِّرُ المَنْهَجُ الإِلٰهِيُّ أَنَّ الظُّلْمَ الأَكْبَرَ هُوَ ظُلْمُ الإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ حِينَ يُدَنِّسُ فِطْرَتَهُ بِعِبَادَةِ غَيْرِ بَارِئِهِ، وَأَنَّ طَرِيقَ التَّطَهُّرِ يَبْدَأُ بِالِاعْتِرَافِ الصَّرِيحِ وَالخُضُوعِ التَّامِّ لِأَمْرِ الخَالِقِ الَّذِي أَنْشَأَ النُّفُوسَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُهَا، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ البَصِيرِ أَنَّ قَسْوَةَ الدَّوَاءِ قَدْ تَكُونُ عَيْنَ الرَّحْمَةِ حِينَ تُنْقِذُ الرُّوحَ مِنَ الهَلَاكِ الأَبَدِيِّ، فَمَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ طَاعَةً لِبَارِئِهِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَحْيَاهُ بِرَحْمَتِهِ، وَمَنْ بَخِلَ بِالتَّوْبَةِ وَأَصَرَّ عَلَى الذَّنْبِ هَلَكَ بِظُلْمِهِ.

الصَّدَى

مِشْرَطُ التَّطْهِيرِ وَحَنَانُ البَارِئِ
صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

صَرْخَةُ الحَقِيقَةِ الصَّادِمَةُ تُوقِظُ القُلُوبَ المَخْدُوعَةَ لِتُدْرِكَ أَنَّ الخَطِيئَةَ خِنْجَرٌ يَغْرِسُهُ الإِنْسَانُ فِي صَدْرِهِ وَأَنَّ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ هِيَ البَوَّابَةُ الوَحِيدَةُ لِلْخَلَاصِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الِابْتِلَاءِ العَظِيمِ تَخْلَعُ رِدَاءَ المُكَابَرَةِ وَتَعْتَرِفُ بِتَقْصِيرِهَا لِتُدْرِكَ أَنَّ قَتْلَ الهَوَى وَالكِبْرِ فِي الدَّاخِلِ هُوَ الخَيْرُ الأَعْظَمُ عِنْدَ البَارِئِ، وَكَمْ دَاهَنْتُ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ وَبَرَّرْتُ لَهَا زَلَّاتِهَا حَتَّى تَرَاكَمَ السَّمُّ فِي عُرُوقِهَا وَكِدْتُ أُهْلِكُ بِسَبَبِ الرَّأْفَةِ الكَاذِبَةِ بِهَوَاهَا، أَرَى الجَرَّاحَ الحَكِيمَ يَبْتُرُ العُضْوَ الفَاسِدَ بِمِشْرَطِهِ الحَادِّ لِيُنْقِذَ الجَسَدَ كُلَّهُ مِنَ المَوْتِ كَمَا أَمَرَ اللهُ التَّائِبِينَ بِذٰلِكَ الِابْتِلَاءِ لِيُطَهِّرَ أَزْوَاجَهُمْ وَيَتُوبَ

عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَرَّرَ صِفَةَ البَارِئِ فِي مَقَامِ التَّوْبَةِ لِيُذَكِّرَنَا أَنَّ الَّذِي خَلَقَنَا مِنَ العَدَمِ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَنَّ تَشْرِيعَهُ هُوَ عَيْنُ الخَيْرِ لَنَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَوْبَةٍ جَذْرِيَّةٍ تَسْتَأْصِلُ أَهْوَائِي وَتَرُدُّنِي إِلَى حِضْنِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ، فَكُلُّ تَسَاهُلٍ مَعَ الذَّنْبِ هَلَاكٌ مُؤَجَّلٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِتَائِبٍ صَدَقَ مَعَ اللهِ فَغَمَرَهُ بِالعَفْوِ وَالعَطَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَجَاوُزُ العَقْلِ لِحُدُودِهِ الطَّبِيعِيَّةِ يَقُودُ إِلَى الصَّعْقِ وَالهَلَاكِ حِينَ يَشْتَرِطُ المَخْلُوقُ المَحْدُودُ رُؤْيَةَ الخَالِقِ جَهْرَةً فِي دَارِ الفَنَاءِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ؛ إِذْ تَأْبَى سُنَّةُ الِابْتِلَاءِ وَطَبِيعَةُ التَّكْوِينِ البَشَرِيِّ الضَّعِيفِ أَنْ تُطِيقَ العُيُونُ الفَانِيَةُ تَجَلِّيَ الجَلَالِ الإِلٰهِيِّ المُطْلَقِ، لِيَتَأَدَّبَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ بِمَعْرِفَةِ قَدْرِهِ وَحُدُودِ إِدْرَاكِهِ، وَيَكْتَفِيَ بِالبَرَاهِينِ العَقْلِيَّةِ وَالآيَاتِ البَيِّنَاتِ دُونَ تَعَنُّتٍ أَوِ اقْتِرَاحٍ عَلَى السَّمَاءِ، فَمَنْ آمَنَ بِالغَيْبِ عَنْ بَصِيرَةٍ وَتَوَاضُعٍ نَجَا وَاهْتَدَى، وَمَنْ تَعَنَّتَ وَطَلَبَ مَا لَا يُطِيقُ أَخَذَتْهُ صَاعِقَةُ الجَهْلِ وَالعِنَادِ.

الصَّدَى

غُرُورُ البَصَرِ وَصَاعِقَةُ الجَلَالِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

تَعَنُّتُ الفِكْرِ المَادِّيِّ يَتَحَطَّمُ عَلَى صَخْرَةِ الجَلَالِ الإِلٰهِيِّ حِينَ يَشْتَرِطُ الإِنْسَانُ إِخْضَاعَ الغَيْبِ المُطْلَقِ لِحَوَاسِّهِ القَاصِرَةِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ لِلْحَقِّ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الصَّاعِقَةِ المَهِيبَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الفُضُولِ المُتَكَبِّرِ لِيُدْرِكَ أَنَّ ضَعْفَ بَصَرِي فِي الدُّنْيَا عَنْ رُؤْيَةِ الخَالِقِ هُوَ رَحْمَةٌ تَحْمِينِي مِنَ الِاحْتِرَاقِ، وَكَمْ جَادَلْتُنِي نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِشُرُوطِ المَادَّةِ وَطَالَبَتْ بِمَا وَرَاءَ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ لِتُبَرِّرَ تَرَدُّدَهَا عَنِ التَّسْلِيمِ، أَرَى الفَرَاشَةَ الضَّعِيفَةَ إِنِ اقْتَرَبَتْ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ المُتَّقِدِ تَلَاشَتْ وَصَارَتْ رَمَاداً فِي لَحْظَةٍ كَمَا صُعِقَ المُتَعَنِّتُونَ الَّذِينَ طَلَبُوا رُؤْيَةَ اللهِ جَهْرَةً وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ

حِينَ جَعَلَ الإِيمَانَ بِالغَيْبِ مَنَاطَ التَّكْلِيفِ فِي الدُّنْيَا وَادَّخَرَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ لِأَهْلِ الجَنَّةِ بَعْدَ أَنْ يُنْشِئَهُمْ نَشْأَةً تُطِيقُ ذٰلِكَ الجَمَالَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ أَدَبٍ مَعَ السَّمَاءِ يُحَرِّرُنِي مِنَ التَّعَنُّتِ وَيُقْنِعُنِي بِآيَاتِ الوَحْيِ وَالكَوْنِ، فَكُلُّ حَاسَّةٍ بَشَرِيَّةٍ مَحْدُودَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ عَنْ بَصِيرَةٍ وَتَوَاضَعَ لِجَلَالِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قُدْرَةُ البَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ تَتَجَلَّى عِيَاناً فِي دَارِ الدُّنْيَا لِتُقِيمَ الدَّلِيلَ الحِسِّيَّ عَلَى إِمْكَانِ النُّشُورِ الأَكْبَرِ وَتُجَدِّدَ مِيثَاقَ الشُّكْرِ فِي القُلُوبِ؛ إِذْ يُحْيِي الخَالِقُ مَنْ صُعِقُوا بِذُنُوبِهِمْ لِيَمْنَحَهُمْ فُرْصَةً ثَانِيَةً لِتَدَارُكِ العُمُرِ وَإِصْلَاحِ المَسِيرِ، فَيُدْرِكَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَعُودُ بَعْدَ غَفْلَةٍ أَوْ مِحْنَةٍ هُوَ بَعْثٌ جَدِيدٌ يَسْتَوْجِبُ العِرْفَانَ، فَمَنِ اغْتَنَمَ فُرْصَةَ الحَيَاةِ المُتَجَدِّدَةِ فِي طَاعَةِ المُنْعِمِ فَازَ بِرِضْوَانِهِ، وَمَنْ عَادَ إِلَى الجُحُودِ بَعْدَ البَعْثِ فَقَدْ أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَى نَفْسِهِ.

الصَّدَى

وِلَادَةٌ بَعْدَ الصَّعْقِ وَفُرْصَةُ العُمُرِ
صَدَى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

نَفْخَةُ الحَيَاةِ الإِلٰهِيَّةِ تَسْرِي فِي الأَجْسَادِ الهَامِدَةِ بَعْدَ صَعْقَةِ المَوْتِ لِتُعْلِنَ أَنَّ بَابَ الفَضْلِ مَفْتُوحٌ وَأَنَّ الشُّكْرَ هُوَ الثَّمَنُ الأَوْحَدُ لِهٰذِهِ العَوْدَةِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الإِحْيَاءِ المُعْجِزِ يَسْتَيْقِظُ مِنْ سُبَاتِ الغَفْلَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ صَبَاحٍ أَسْتَيْقِظُ فِيهِ مِنَ النَّوْمِ هُوَ بَعْثٌ صَغِيرٌ يَمْنَحُنِي اللهُ إِيَّاهُ لِأَشْكُرَ وَأُصْلِحَ، وَكَمْ أَضَعْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أَيَّامٍ وَفُرَصٍ كُنْتُ أَظُنُّهَا مَضْمُونَةً لِي بِلَا حِسَابٍ وَلَا مَسْؤُولِيَّةٍ عَنْ سِرِّ الإِحْيَاءِ، أَرَى الأَرْضَ الجَرْدَاءَ فِي الشِّتَاءِ تَبْدُو مَيِّتَةً لَا حَرَاكَ فِيهَا ثُمَّ يَبْعَثُهَا الرَّبِيعُ فَتَنْفَجِرُ بِالْأَزْهَارِ وَالثِّمَارِ شُكْراً لِخَالِقِهَا كَمَا بَعَثَ اللهُ أُولٰئِكَ القَوْمَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَرَاهُمُ المَوْتَ وَالبَعْثَ تَجْرِبَةً حَيَّةً لِيَقْطَعَ دَابِرَ الشَّكِّ فِي

اليَوْمِ الآخِرِ وَيَغْرِسَ الشُّكْرَ فِي أَعْمَاقِ الوِجْدَانِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ اغْتِنَامٍ تَجْعَلُنِي أَرَى عُمُرِي هَدِيَّةً مُسْتَرَدَّةً يَجِبُ أَنْ تُعْمَرَ بِالْعِرْفَانِ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تَمُرُّ بِلَا شُكْرٍ مَوْتٌ مُقَنَّعٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَيَاةٍ أَشْرَقَتْ بِطَاعَةِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَائِدَةُ السَّمَاءِ المَبْسُوطَةُ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ تَكْشِفُ عَنْ كَمَالِ الرِّعَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تَقِي العِبَادَ حَرَّ الهَجِيرِ بِالغَمَامِ، وَتُغْنِيهِمْ عَنْ عَنَاءِ الكَدْحِ بِطَيِّبَاتِ المَنِّ وَالسَّلْوَى؛ لِتُقَرِّرَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الطَّيِّبَاتِ حَلَالٌ مَبْذُولٌ لِإِكْرَامِ الإِنْسَانِ، وَأَنَّ جُحُودَ النِّعَمِ وَالتَّعَدِّيَ عَلَى الحُدُودِ لَا يَضُرُّ الخَالِقَ الغَنِيَّ شَيْئاً، بَلْ يَرْتَدُّ ظُلْماً وَحِرْمَاناً عَلَى نَفْسِ الجَاحِدِ، فَمَنْ تَنَعَّمَ بِالطَّيِّبَاتِ شَاكِراً دَامَتْ لَهُ الكَرَامَةُ، وَمَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ظَلَمَ نَفْسَهُ وَحُرِمَ السَّعَادَةَ.

الصَّدَى

خَيْمَةُ الغَمَامِ وَمَائِدَةُ الصَّحْرَاءِ
صَدَى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

سَحَائِبُ اللُّطْفِ الرَّقِيقَةُ تَنْسُجُ خَيْمَةَ ظِلٍّ فِي لَهِيبِ التِّيهِ وَتُنْزِلُ مَائِدَةَ الطَّيِّبَاتِ بِلَا عَنَاءٍ لِتُعَلِّمَ البَشَرَ أَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ السَّمَاءِ وَأَنَّ الجُحُودَ هُوَ انْتِحَارُ النَّفْسِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الكَرَمِ الغَامِرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ القَلَقِ عَلَى المَعِيشَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ أَطْعَمَ الخَلْقَ فِي قَفْرِ الصَّحْرَاءِ قَادِرٌ عَلَى كِفَايَتِي فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَمْ أَرْهَقْتُ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِالخَوْفِ مِنَ الفَقْرِ أَوِ التَّذَمُّرِ مِنْ قِلَّةِ الأَسْبَابِ بَيْنَمَا كَانَتْ غَمَامَةُ الرِّعَايَةِ تُظِلُّنِي مِنْ حَيْثُ لَا أَشْعُرُ، أَرَى الطَّيْرَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ يَغْدُو خِمَاصاً بِلَا مَخَازِنَ وَلَا حُقُولٍ فَيَعُودُ بِطَاناً بِفَضْلِ الرَّزَّاقِ كَمَا تَنَعَّمَ المُسَافِرُونَ فِي التِّيهِ بِظِلِّ الغَمَامِ

وَطَيِّبَاتِ المنِّ وَالسَّلْوَى مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَبَاحَ لَنَا الطَّيِّبَاتِ وَبَيَّنَ أَنَّ ظُلْمَ الجَاحِدِينَ لَا يَمَسُّ جَلَالَهُ بَلْ يَهْدِمُ ذَوَاتَهُمْ وَيَحْرِمُهُمُ البَرَكَةَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ قَنَاعَةٍ وَشُكْرٍ يَجْعَلُنِي أَرَى الرِّزْقَ مَدَداً إِلٰهِيّاً لَا مَكْسَباً مَعْزُولاً، فَكُلُّ نِعْمَةٍ تُقَابَلُ بِالجُحُودِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا فِي الطَّيِّبَاتِ الَّتِي شُكِرَ عَلَيْهَا اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

آدَابُ التَّمَكُّنِ وَالنَّصْرِ تَقْتَضِي أَنْ يَدْخُلَ المؤْمِنُ مَنَازِلَ العِزِّ وَالرَّغَدِ بِجَبِينٍ سَاجِدٍ لِلَّهِ وَلِسَانٍ يَسْتَغْفِرُ مِنَ الذُّنُوبِ، لَا بِرَأْسٍ مَرْفُوعٍ بِالكِبْرِ وَالِاحْتِيَالِ؛ إِذْ يَجْمَعُ التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ بَيْنَ سَعَةِ الِانْتِفَاعِ بِالطَّيِّبَاتِ رَغَداً وَبَيْنَ التَّوَاضُعِ الخَاشِعِ عِنْدَ البَوَّابَاتِ، لِيَكُونَ الِانْكِسَارُ لِلْخَالِقِ سَبَباً لِمَغْفِرَةِ الخَطَايَا وَزِيَادَةِ الفَضْلِ لِلْمُحْسِنِينَ، فَمَنْ دَخَلَ أَبْوَابَ النِّعْمَةِ سَاجِداً مُسْتَغْفِراً تَضَاعَفَ عَطَاؤُهُ وَطَهُرَتْ صَحِيفَتُهُ، وَمَنْ دَخَلَهَا مُتَكَبِّراً حُرِمَ البَرَكَةَ وَالمغْفِرَةَ.

الصَّدَى

بَوَّابَةُ الرَّغَدِ وَجَبِينُ السَّاجِدِينَ
صَدَى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

عَتَبَاتُ النِّعْمَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلسَّائِرِينَ بِشَرْطِ أَنْ يَنْحَنِيَ الجَبِينُ خُشُوعاً وَيَلْهَجَ اللِّسَانُ بِالِاسْتِغْفَارِ عِنْدَ لَحْظَةِ الوُصُولِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الأَدَبِ الرَّفِيعِ تَخْلَعُ رِدَاءَ الزَّهْوِ عِنْدَ النَّجَاحِ لِتُدْرِكَ أَنَّ التَّوَاضُعَ عِنْدَ بَابِ العَطَاءِ هُوَ مِفْتَاحُ المغْفِرَةِ وَالزِّيَادَةِ، وَكَمْ زَلَّتْ بِيَ القَدَمُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ حِينَ كُنْتُ أَدْخُلُ مَنَازِلَ الفَرَحِ وَالتَّيْسِيرِ بِرَأْسٍ مَرْفُوعٍ بِالِاعْتِدَادِ وَأَنْسَى أَنْ أُطَأْطِئَ رَأْسِي شُكْراً وَاسْتِغْفَاراً، أَرَى السُّنْبُلَةَ المِمْتَلِئَةَ بِالحَبِّ وَالخَيْرِ تَنْحَنِي بِتَوَاضُعٍ نَحْوَ الأَرْضِ بَيْنَمَا

تَشْمَخُ السُّنْبُلَةُ الفَارِغَةُ فِي الهَوَاءِ كَمَا يَنْحَنِي المُؤْمِنُونَ سُجَّداً عِنْدَ دُخُولِ نِعَمِ اللهِ فَيَنَالُونَ المَغْفِرَةَ وَالزِّيَادَةَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ سَعَةِ الأَكْلِ الرَّغَدِ وَبَيْنَ السُّجُودِ وَطَلَبِ الحِطَّةِ لِيَحْمِيَ القُلُوبَ مِنْ سُكْرِ النِّعْمَةِ وَطُغْيَانِ الغِنَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الوَصِيَّةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَوَاضُعٍ يَجْعَلُنِي أَسْجُدُ عِنْدَ كُلِّ بَابٍ يُفْتَحُ لِي وَأَسْتَغْفِرُ عِنْدَ كُلِّ عَطَاءٍ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ تُدْخَلُ بِالكِبْرِ اسْتِدْرَاجٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا زِيَادَةَ إِلَّا لِمُحْسِنٍ دَخَلَ أَبْوَابَ الحَيَاةِ سَاجِداً لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٥٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خِيَانَةُ التَّحْرِيفِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِأَوَامِرِ السَّمَاءِ تَسْتَجْلِبُ سِهَامَ العَذَابِ العَاجِلِ؛ إِذْ تَجَرَّأَ الظَّالِمُونَ عَلَى تَبْدِيلِ كَلِمَةِ الِاسْتِغْفَارِ وَالخُشُوعِ بِأَلْفَاظِ السُّخْرِيَةِ وَالتَّلَاعُبِ، فَانْقَلَبَتِ المَغْفِرَةُ المَوْعُودَةُ رِجْزاً وَعُقُوبَةً نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ حُدُودِ الأَدَبِ مَعَ الخَالِقِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّحَايُلَ عَلَى النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ وَتَبْدِيلَ مَقَاصِدِهَا هُوَ أَقْبَحُ صُوَرِ الفِسْقِ، فَمَنْ الْتَزَمَ أَمْرَ رَبِّهِ بِصِدْقٍ وَوَقَارٍ نَالَ البُشْرَى وَالرَّحْمَةَ، وَمَنْ بَدَّلَ وَحَرَّفَ اسْتَهْزَاءً نَزَلَ بِهِ الرِّجْزُ وَالعَذَابُ.

الصَّدَى

عَبَثُ التَّحْرِيفِ وَصَاعِقَةُ الرِّجْزِ
صَدَى ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

جُرْأَةُ التَّلَاعُبِ بِكَلِمَاتِ الوَحْيِ تَخْرِقُ جُسُورَ الرَّحْمَةِ وَتَسْتَدْعِي سِيَاطَ العُقُوبَةِ مِنَ العُلَا حِينَ يَسْتَبْدِلُ الظَّالِمُونَ بِأَدَبِ الطَّاعَةِ سُخْرِيَةَ التَّحْرِيفِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِصِيرِ القَاسِي يَرْتَجِفُ خَشْيَةً مِنْ كُلِّ تَأْوِيلٍ فَاسِدٍ أَوْ تَحَايُلٍ عَلَى أَوَامِرِ السَّمَاءِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ تَدَبُّرِ هٰذِهِ السُّنَّةِ مِنْ نُفُوسٍ

تَتَلَاعَبُ بِالأَلْفَاظِ لِتَتَهَرَّبَ مِنْ جَوْهَرِ التَّكْلِيفِ وَتَظُنُّ أَنَّ ذَكَاءَهَا اللُّغَوِيَّ يُنْجِيهَا مِنْ رَقَابَةِ العَلِيمِ، أَرَى المرِيضَ المسْتَهْتِرَ يَسْتَبْدِلُ بِالدَّوَاءِ الشَّافِي سُمّاً زُعَافاً سُخْرِيَةً بِالنَّاصِحِ فَيَهْلِكُ فِي الحَالِ كَمَا هَلَكَ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ بَدَّلُوا قَوْلَ اللهِ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَصَفَهُمْ بِالظُّلْمِ مَرَّتَيْنِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ تَبْدِيلَ أَمْرِ السَّمَاءِ ظُلْمٌ لِلْحَقِيقَةِ وَظُلْمٌ لِلنَّفْسِ يُورِثُ الهَلَاكَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسٍ أَمَانَةٍ يَصُونُ النُّصُوصَ وَالمَقَاصِدَ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالِاسْتِهَانَةِ، فَكُلُّ تَلَاعُبٍ بِأَوَامِرِ الخَالِقِ فِسْقٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِصَادِقٍ وَقَّرَ شَرْعَ اللهِ وَالْتَزَمَ حُدُودَهُ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

يَنَابِيعُ الحَيَاةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ صُمِّ الحِجَارَةِ بِأَمْرِ القُدْرَةِ المطْلَقَةِ لِتُثْبِتَ أَنَّ الأَسْبَابَ المادِّيَّةَ لَا تَقِفُ عَائِقاً أَمَامَ إِرَادَةِ الخَالِقِ؛ إِذْ يَضْرِبُ الكَلِيمُ الصَّخْرَ بِعَصَاهُ فَتَنْبَثِقُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً عَذْبَةً مَقْسُومَةً بِالعَدْلِ وَالنِّظَامِ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ مَشْرَبُهَا دُونَ تَنَازُعٍ أَوِ ازْدِحَامٍ، وَيُقْرَنُ الرِّزْقُ الهَنِيءُ بِالنَّهْيِ الصَّارِمِ عَنِ الإِفْسَادِ فِي الأَرْضِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي العَقْلِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ النِّعْمَةَ تَدُومُ بِالعَدْلِ وَالإِصْلَاحِ وَتَزُولُ بِالبَغْيِ وَالفَسَادِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْ رِزْقِ رَبِّهِ شَاكِراً مُصْلِحاً بُورِكَ لَهُ فِي عَيْشِهِ، وَمَنْ عَثَا فِي الأَرْضِ مُفْسِداً حُرِمَ البَرَكَةَ وَالأَمَانَ.

الصَّدَى

انْفِجَارُ الصَّخْرَةِ وَنِظَامُ المشَارِبِ

صَدَى ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

قَلْبُ الحَجَرِ الأَصَمّ يَتَفَتَّقُ عَنِ اثْنَيْ عَشْرَةَ عَيْناً زُلَالاً بِضَرْبَةِ عَصاً مَأْمُورَةٍ لِيُعْلِنَ أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاءِ تَنْفَجِرُ مِنْ أَصْلَبِ الصُّخُورِ عِنْدَ صِدْقِ الِاسْتِسْقَاءِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذِهِ المُعْجِزَةِ الرَّقِيقَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ اليَأْسِ مِنْ قَسْوَةِ الظُّرُوفِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ أَخْرَجَ المَاءَ مِنَ الجَمَادِ قَادِرٌ عَلَى تَفْجِيرِ الفَرَجِ مِنْ أَضْيَقِ الأَبْوَابِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ صَلَابَةَ الأَسْبَابِ تَمْنَعُ وُصُولَ المَدَدِ وَأَنَّ تَزَاحُمَ الخَلْقِ عَلَى الرِّزْقِ يَقْطَعُ النَّصِيبَ، أَرَى الجَبَلَ الصَّلْدَ يَحْبِسُ فِي بَاطِنِهِ الأَنْهَارَ العَذْبَةَ حَتَّى يَأْذَنَ الخَالِقُ فَتَسِيلَ بِالعَدْلِ وَالنِّظَامِ لِكُلِّ ذِي حَقٍّ مَشْرَبُهُ كَمَا فَجَّرَ اللهُ الحَجَرَ لِمُوسَى وَقَوْمِهِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الإِفْسَادِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَسَمَ المَشَارِبَ بِالتَّسَاوِي وَقَرَنَ التَّمَتُّعَ بِالرِّزْقِ بِتَحْرِيمِ الفَسَادِ لِيُؤَسِّسَ لِفِقْهِ التَّعَايُشِ وَحِفْظِ النِّعَمِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ رَاسِخَةٍ بِأَنَّ مَشْرَبِي مَعْلُومٌ مَحْفُوظٌ وَلَنْ يَنَالَهُ غَيْرِي مَا دُمْتُ مُصْلِحاً، فَكُلُّ رِزْقٍ يُقَابَلُ بِالإِفْسَادِ مَمْحُوقٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا لِعَبْدٍ شَكَرَ رِزْقَ اللهِ وَعَمَّرَ الأَرْضَ بِالصَّلَاحِ وَالإِحْسَانِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٦١–٧٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَطَرُ النِّعْمَةِ وَضَجَرُ النُّفُوسِ القَاصِرَةِ يَقْلِبَانِ مَوَازِينَ التَّقْدِيرِ حِينَ يَسْتَبْدِلُ الإِنْسَانُ الأَدْنَى الفَانِيَ بِالأَعْلَى البَاقِي، وَيُؤْثِرُ شَهَوَاتِ الطِّينِ عَلَى مَوَائِدِ السَّمَاءِ؛ إِذْ تَضِيقُ صُدُورُ الجَاحِدِينَ بِطَيِّبَاتِ المَنِّ وَالسَّلْوَى لِتَطْلُبَ بُقُولَ الأَرْضِ وَبَصَلَهَا، فَيُعَاقَبُونَ بِالهُبُوطِ مِنْ مَنَازِلِ الكَرَامَةِ إِلَى دَرَكَاتِ الذِّلَّةِ وَالمِسْكَنَةِ وَغَضَبِ الدَّيَّانِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ رُقِيَّ الهِمَّةِ مَنُوطٌ بِالقَنَاعَةِ بِعَطَاءِ الخَالِقِ وَالتَّرَفُّعِ عَنْ سَفَاسِفِ المَطَالِبِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى خَيْرِ السَّمَاءِ عَزَّتْ نَفْسُهُ وَسَمَتْ مَكَانَتُهُ، وَمَنْ هَبَطَ بِهِمَّتِهِ إِلَى شَهَوَاتِ الأَرْضِ وَتَمَرَّدَ عَلَى الحَقِّ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ الذِّلَّةُ وَالخُسْرَانُ.

الصَّدَى

مَائِدَةُ السَّمَاءِ وَشَهْوَةُ الطِّينِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

هَوَانُ الهِمَمِ السَّاقِطَةِ يَدْفَعُ النُّفُوسَ المرِيضَةَ إِلَى تَرْكِ مَوَائِدِ المَلَكُوتِ وَالتَّمَرُّغِ فِي تُرَابِ الشَّهَوَاتِ الرَّخِيصَةِ بَدَلَ الصَّبْرِ عَلَى كَرَامَةِ السَّمَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ يَسْتَجِيرُ بِخَالِقِهِ مِنْ دَاءِ المَلَلِ وَاسْتِبْدَالِ الأَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَكَمْ رَاوَدَتْنِي نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الميزَانِ عَنْ مَعَالِي الأُمُورِ لِتُغْرِيَنِي بِزُخْرُفٍ عَاجِلٍ يَسْلُبُ مِنِّي شَرَفَ القُرْبِ وَعِزَّةَ الطَّاعَةِ، أَرَى الطَّائِرَ الحُرَّ يَتْرُكُ قِمَمَ الجِبَالِ الشَّامِخَةِ وَنَسِيمَ العَلْيَاءِ لِيَهْبِطَ إِلَى شِبَاكِ الصَّيَّادِ طَمَعاً فِي حَبَّاتٍ مَنْثُورَةٍ عَلَى التُّرَابِ فَيَقَعَ فِي الأَسْرِ وَالذُّلِّ كَمَا هَبَطَ أُولٰئِكَ القَوْمُ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ إِلَى الذِّلَّةِ وَالمسْكَنَةِ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَاعْتِدَائِهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ أَنَّ طَلَبَ الأَدْنَى لَمْ يَكُنْ سِوَى ثَمَرَةٍ لِكُفْرِهِمْ بِالآيَاتِ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى الأَنْبِيَاءِ وَالحُدُودِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسِ عِزَّةٍ يَرْفَعُ هِمَّتِي فَوْقَ سَفَاسِفِ الدُّنْيَا وَيُقْنِعُنِي بِمَا اخْتَارَهُ اللهُ لِي، فَكُلُّ مَكْسَبٍ يُشْتَرَى بِالتَّنَازُلِ عَنِ المَبَادِئِ ذِلَّةٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِعَزِيزٍ صَبَرَ عَلَى خَيْرِ السَّمَاءِ وَاتَّقَى سَخَطَ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قِسْطَاسُ النَّجَاةِ العَادِلُ يَتَجَاوَزُ لَافِتَاتِ الِانْتِمَاءِ الشَّكْلِيِّ لِيَزِنَ القُلُوبَ بِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ العَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ كَرَامَةَ القَبُولِ عِنْدَ الخَالِقِ لَيْسَتْ حِكْراً عَلَى أَسْمَاءٍ تُرْفَعُ أَوْ أَنْسَابٍ تُدَّعَى، بَلْ هِيَ مَنُوطَةٌ بِإِيمَانٍ صَادِقٍ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَاسْتِقَامَةٍ فِي السُّلُوكِ تُثْمِرُ

الصَّلَاحَ وَالإِحْسَانَ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ مِنْ غُرُورِ العَصَبِيَّةِ الطَّائِفِيَّةِ وَادِّعَاءِ الأَفْضَلِيَّةِ بِلَا بُرْهَانٍ، فَمَنْ حَقَّقَ شَرْطَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ أَمِنَ مِنَ الخَوْفِ وَالحَزَنِ وَنَالَ أَجْرَهُ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالِاسْمِ وَالعُنْوَانِ دُونَ حَقِيقَةٍ خَابَ رَجَاؤُهُ وَبَطَلَ ادِّعَاؤُهُ.

الصَّدَى

جَوْهَرُ الإِيمَانِ وَسُقُوطُ اللَّافِتَاتِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

مِيزَانُ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ يَخْتَرِقُ قُشُورَ الأَسْمَاءِ وَالمُسَمَّيَاتِ لِيُقِيمَ النَّجَاةَ عَلَى أَسَاسِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ وَاليَقِينِ بِالآخِرَةِ وَصَلَاحِ الأَعْمَالِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الشُّمُولِ العَادِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاتِّكَالِ عَلَى مُجَرَّدِ الانْتِسَابِ لِيُدْرِكَ أَنَّ العِبْرَةَ عِنْدَ الخَالِقِ بِحَقَائِقِ القُلُوبِ لَا بِعَنَاوِينِ الهُوِيَّاتِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ الانْتِمَاءَ الظَّاهِرِيَّ وَحْدَهُ جَوَازُ مُرُورٍ إِلَى الجَنَّةِ دُونَ أَنْ أَزِنَ نَفْسِي بِمِيزَانِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، أَرَى الجَوْهَرَ النَّفِيسَ يَحْتَفِظُ بِقِيمَتِهِ وَبَرِيقِهِ أَيْنَمَا وُجِدَ بَيْنَمَا لَا يُغْنِي الصُّنْدُوقُ المُزَخْرَفُ إِنْ كَانَ خَاوِياً مِنَ الدَّاخِلِ كَمَا لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنَ الخَلْقِ إِلَّا صِدْقَ الإِيمَانِ وَصَلَاحَ العَمَلِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الأَمْنَ مِنَ الخَوْفِ وَالحَزَنِ مَرْهُوناً بِالِاجْتِمَاعِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لِيَهْدِمَ أَوْهَامَ التَّفْضِيلِ المِجَّانِيِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ صِدْقٍ يَجْعَلُنِي أُفَتِّشُ عَنْ جَوْهَرِ إِيمَانِي وَأَعْمَالِي بَدَلَ التَّبَاهِي بِالأَسْمَاءِ، فَكُلُّ عُنْوَانٍ يَخْلُو مِنَ الصَّلَاحِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِمَنْ صَدَقَ مَعَ اللهِ وَأَحْسَنَ العَمَلَ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ العَزِيمَةِ الجَادَّةِ يَقْتَضِي أَنْ يُؤْخَذَ الوَحْيُ بِقُوَّةِ الإِرَادَةِ وَيَقَظَةِ الذَّاكِرَةِ، لَا بِتَرَاخِي الكُسَالَى وَغَفْلَةِ المسْتَهِينِينَ؛ إِذْ يُقِيمُ الخَالِقُ مَشْهَدَ الجَبَلِ المَرْفُوعِ فَوْقَ الرُّؤُوسِ تَذْكِيراً بِهَيْبَةِ التَّكْلِيفِ وَخُطُورَةِ التَّفْرِيطِ فِي أَمَانَةِ الدِّينِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّدَيُّنَ الصَّحِيحَ يَقُومُ عَلَى الجِدِّيَّةِ وَالتَّدَبُّرِ الدَّائِمِ لِمَا فِي الكِتَابِ كَيْ تُثْمِرَ الطَّاعَةُ وِقَايَةً وَتَقْوَى، فَمَنْ أَخَذَ أَمْرَ رَبِّهِ بِعَزْمٍ وَذِكْرٍ صَانَ نَفْسَهُ مِنَ الانْحِرَافِ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالمِيثَاقِ وَنَسِيَ مَا فِيهِ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ وَالِاخْتِلَالِ.

الصَّدَى

ظِلُّ الجَبَلِ وَعَزِيمَةُ الميثَاقِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

هَيْبَةُ الطُّورِ المعَلَّقِ فَوْقَ الرُّؤُوسِ تُوقِظُ النُّفُوسَ المتَرَاخِيَةَ لِتُدْرِكَ أَنَّ عَهْدَ السَّمَاءِ يُؤْخَذُ بِقُوَّةِ العَزْمِ وَدَوَامِ التَّذَكُّرِ لَا بِفُتُورِ الهِمَمِ وَغَفْلَةِ القُلُوبِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المشْهَدِ المهِيبِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّسْوِيفِ وَالتَّهَاوُنِ لِيُدْرِكَ أَنَّ التَّقْوَى تَحْتَاجُ إِلَى إِرَادَةٍ صُلْبَةٍ تَتَمَسَّكُ بِالوَحْيِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَكَمْ تَعَامَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مَعَ أَوَامِرِ السَّمَاءِ بِتَرَاخٍ وَبُرُودٍ كَأَنَّهَا نَوَافِلُ عَابِرَةٌ لَا مِيثَاقٌ غَلِيظٌ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مَصِيرِي، أَرَى القَابِضَ عَلَى الحَبْلِ المتِينِ فَوْقَ الهَاوِيَةِ يَشُدُّ يَدَيْهِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ لِيَنْجُوَ مِنَ السُّقُوطِ كَمَا أَمَرَ اللهُ عِبَادَهُ أَنْ يَأْخُذُوا كِتَابَهُ بِقُوَّةٍ وَيَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ القُوَّةِ فِي التَّنْفِيذِ وَالذِّكْرِ فِي العَقْلِ لِيَكُونَ العَمَلُ مَبْنِيّاً عَلَى الوَعْيِ وَالفَهْمِ لَا عَلَى الحَمَاسَةِ الأَعْمَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ جِدٍّ وَيَقَظَةٍ يُحَرِّرُنِي مِنَ التَّرَاخِي وَيُثَبِّتُنِي عَلَى التَّقْوَى، فَكُلُّ عَهْدٍ يُؤْخَذُ بِضَعْفٍ وَغَفْلَةٍ سَرَابٌ إِلَى انْقِطَاعٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ تَمَسَّكَ بِوَحْيِ اللهِ بِقُوَّةٍ وَصِدْقٍ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَسْوَةُ الإِعْرَاضِ بَعْدَ غَلِيظِ المَوَاثِيقِ تَكْشِفُ عَنْ جُحُودِ الفِطْرَةِ المُتَكِسَةِ الَّتِي تَنْقُضُ عَهْدَهَا فَوْرَ زَوَالِ الرَّهْبَةِ؛ وَلَكِنَّ طَوْقَ النَّجَاةِ الإِلٰهِيَّ يَمْتَدُّ بِالفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ لِيُنقِذَ البَشَرِيَّةَ مِنْ هَاوِيَةِ الخُسْرَانِ المُحَقَّقِ الَّذِي اسْتَحَقَّتْهُ بِأَعْمَالِهَا، لِيُدْرِكَ العَقْلُ المُؤْمِنُ أَنَّ نَجَاتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَدِينَةٌ لِفَضْلِ الخَالِقِ وَرَحْمَتِهِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ ثَمَراً لِجَهْدِهِ القَاصِرِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ بِتَدَارُكِ زَلَّاتِهِ انْكَسَرَ كِبْرُهُ وَعَظُمَ شُكْرُهُ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى التَّوَلِّي بَعْدَ تَوَالِي النِّعَمِ أَحَاطَتْ بِهِ الخَسَارَةُ.

الصَّدَى

غَدْرُ التَّوَلِّي وَطَوْقُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

سُرْعَةُ الإِدْبَارِ بَعْدَ تَوْكِيدِ العُهُودِ تَفْضَحُ ضَعْفَ الإِنْسَانِ وَتَقَلُّبَ قَلْبِهِ لَوْلَا سِتْرُ الفَضْلِ الإِلٰهِيِّ وَمَدَدُ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَنْتَشِلُهُ مِنْ قَاعِ الخُسْرَانِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الكَاشِفَةِ تَذُوبُ خَجَلاً وَاعْتِرَافاً بِأَنَّنِي لَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي وَفَضْلُهُ لَهَلَكْتُ بِسَبَبِ تَقْصِيرِي وَنَقْضِي لِلْعُهُودِ، وَكَمْ عَاهَدْتُ رَبِّي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ثُمَّ تَوَلَّيْتُ وَنَسِيتُ عِنْدَ الرَّخَاءِ فَتَدَارَكَنِي لُطْفُهُ قَبْلَ أَنْ أَسْقُطَ فِي الهَاوِيَةِ، أَرَى الطِّفْلَ العَنِيدَ يُفْلِتُ يَدَ أَبِيهِ فِي الزِّحَامِ فَتَمْتَدُّ يَدُ الأَبِ الرَّحِيمِ لِتُمْسِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَدُوسَهُ الأَقْدَامُ كَمَا يَتَدَارَكُ اللهُ عِبَادَهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بَعْدَ تَوَلِّيهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ الفَضْلَ بِالرَّحْمَةِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ النَّجَاةَ مِنَ الخُسْرَانِ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ تَسْتَوْجِبُ الحَيَاءَ وَالِانْكِسَارَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ افْتِقَارٍ يَكْسِرُ غُرُورِي بِعَمَلِي وَيُرْجِعُ الفَضْلَ كُلَّهُ لِخَالِقِي، فَكُلُّ قُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ خَسَارَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِي كَنَفِ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِيَلُ التَّحَايُلِ عَلَى حُدُودِ الشَّرِيعَةِ تَنْحَدِرُ بِالإِنْسَانِ مِنْ مَقَامِ التَّكْرِيمِ العَقْلِيِّ إِلَى دَرْكِ المِسْخِ وَالهَوَانِ؛ إِذْ ظَنَّ المُعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ أَنَّ الْتِفَافَهُمْ عَلَى ظَاهِرِ الأَمْرِ بِحِيَلٍ مَاكِرَةٍ يَخْفَى عَلَى العَلِيمِ الخَبِيرِ، فَعُوقِبُوا بِمَسْخِ الصُّورَةِ وَالطَّرْدِ الذَّلِيلِ جَزَاءَ تَلَاعُبِهِمْ بِالمَقَاصِدِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الشَّرَائِعَ وُضِعَتْ لِتَهْذِيبِ النُّفُوسِ وَاخْتِبَارِ الصِّدْقِ لَا لِلتَّحَايُلِ الفِقْهِيِّ، فَمَنْ عَظَّمَ حُرُمَاتِ اللهِ وَالْتَزَمَ مَقَاصِدَ شَرْعِهِ صَانَ كَرَامَتَهُ الإِنْسَانِيَّةَ، وَمَنِ احْتَالَ عَلَى أَوَامِرِ السَّمَاءِ انْحَطَّ قَدْرُهُ وَبَاءَ بِالصَّغَارِ.

الصَّدَى

مَكْرُ الحِيَلِ وَمَسْخُ الكَرَامَةِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

أَشْبَاكُ التَّحَايُلِ المَنْصُوبَةُ لِلالْتِفَافِ عَلَى أَوَامِرِ السَّمَاءِ تَرْتَدُّ قُيُوداً تَمْسَخُ إِنْسَانِيَّةَ الماكِرِ وَتُهْوِي بِهِ إِلَى حَضِيضِ الذُّلِّ وَالطَّرْدِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِسْخِ المَخِيفِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً مِنْ كُلِّ حِيلَةٍ تُحَلِّلُ مَا حَرَّمَ اللهُ بِتَغْيِيرِ الأَسْمَاءِ وَتَزْيِيفِ الصُّوَرِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ مِنْ عُقُولٍ تَتَفَنَّنُ فِي إِيجَادِ المَخَارِجِ الشَّكْلِيَّةِ لِتُشْبِعَ شَهَوَاتِهَا وَتَظُنُّ أَنَّهَا تُخَادِعُ الخَالِقَ بِبَرَاعَةِ الحِيلَةِ، أَرَى الثَّعْلَبَ الماكِرَ يَظُنُّ أَنَّ حِيَلَهُ تُحْمِيهِ مِنَ الهَلَاكِ حَتَّى يَقَعَ فِي الفَخِّ الَّذِي نَصَبَهُ بِيَدِهِ فَيُصْبِحَ طَرِيداً ذَلِيلاً كَمَا مُسِخَ المُعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ قِرَدَةً خَاسِئِينَ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ العُقُوبَةَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ فَمَسَخَ صُوَرَهُمُ الظَّاهِرَةَ بَعْدَ أَنْ مَسَخُوا عُقُولَهُمْ وَضَمَائِرَهُمْ بِالتَّلَاعُبِ بِالشَّرْعِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسِ صِدْقٍ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَايُلِ عَلَى الحُدُودِ وَيُعَلِّمُنِي أَنَّ اللهَ يَنْظُرُ إِلَى المَقَاصِدِ لَا إِلَى الشَّكْلِيَّاتِ، فَكُلُّ حِيلَةٍ تَصْطَدِمُ بِمَقْصِدِ الوَحْيِ مَسْخٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِصَادِقٍ وَقَّرَ حُدُودَ اللهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عِبَرُ التَّارِيخِ الرَّبَّانِيُّ تَنْتَصِبُ مَنَارَاتِ تَحْذِيرٍ لِلْأَجْيَالِ المعَاصِرَةِ وَالآتِيَةِ، لِتَكُونَ عُقُوبَةُ السَّابِقِينَ دَرْساً حَيّاً يَرْدَعُ الغَافِلِينَ وَيُوقِظُ قُلُوبَ المتَّقِينَ؛ إِذْ تَتَجَاوَزُ الحَادِثَةُ زَمَانَهَا المحْدُودَ لِتُصْبِحَ قَانُوناً أَخْلَاقِيّاً دَائِماً يُبَيِّنُ أَنَّ سُنَنَ اللهِ فِي الخَلْقِ لَا تُحَابِي أَحَداً، لِيَتَعَلَّمَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ السَّعِيدَ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ هُوَ عِبْرَةً لِلنَّاظِرِينَ، فَمَنْ أَصْغَى لِمَوَاعِظِ التَّارِيخِ بِقَلْبٍ تَقِيٍّ سَلِمَ مِنْ مَصَارِعِ الهَالِكِينَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ العِبْرَةِ وَكَرَّرَ الخَطَأَ نَزَلَتْ بِهِ سُنَّةُ العَدْلِ وَالنَّكَالِ.

الصَّدَى

مِرْآةُ التَّارِيخِ وَبَصِيرَةُ المتَّقِينَ

صَدَى ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

أَنْقَاضُ العُقُوبَاتِ الغَابِرَةِ تَبْقَى شَاهِدَةً فِي ذَاكِرَةِ الزَّمَانِ لِتَكُونَ سَوْطاً يَرْدَعُ المتَجَاوِزِينَ وَمِشْكَاةَ هِدَايَةٍ تَسْتَنِيرُ بِهَا قُلُوبُ المتَّقِينَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ السُّنَّةِ الممْتَدَّةِ يَقْرَأُ حَوَادِثَ المَاضِي كَأَنَّهَا تُخَاطِبُنِي اليَوْمَ لِأَتَّعِظَ بِمَصَارِعِ الغَافِلِينَ قَبْلَ أَنْ تَزِلَّ قَدَمِي، وَكَمْ مَرَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عَلَى أَخْبَارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ كَأَنَّهَا قِصَصٌ مَضَتْ وَانْقَضَتْ دُونَ أَنْ أَرَى فِيهَا قَانُوناً يَحْكُمُ حَاضِرِي وَمُسْتَقْبَلِي، أَرَى المَنَارَةَ المنْصُوبَةَ فَوْقَ الصُّخُورِ الَّتِي تَحَطَّمَتْ عَلَيْهَا السُّفُنُ القَدِيمَةُ تُحَذِّرُ الرَّبَابِنَةَ الجُدُدَ لِيَسْلُكُوا طَرِيقَ السَّلَامَةِ كَمَا جَعَلَ اللهُ عُقُوبَةَ المعْتَدِينَ نَكَالاً لِلْخَلْقِ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَصَّ المتَّقِينَ بِالِانْتِفَاعِ بِالمَوْعِظَةِ لِأَنَّ القُلُوبَ الحَيَّةَ هِيَ الَّتِي تَلْتَقِطُ إِشَارَاتِ التَّحْذِيرِ وَتَخْشَى العَوَاقِبَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بَصِيرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ تَجْعَلُنِي أَتَعَلَّمُ مِنْ أَخْطَاءِ السَّابِقِينَ وَلَا أُعِيدُ تَجْرِبَةَ العِصْيَانِ، فَكُلُّ غَفْلَةٍ عَنْ سُنَنِ الكَوْنِ مَصْرَعٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِتَقِيٍّ اتَّعَظَ بِآيَاتِ اللهِ وَسَلَكَ سَبِيلَ الأَمَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

سَلَامَةُ التَّسْلِيمِ لِأَوَامِرِ الوَحْيِ تَقْتَضِي الِامْتِثَالَ الفَوْرِيَّ لِلْأَمْرِ الصَّرِيحِ دُونَ اعْتِرَاضٍ أَوِ اسْتِغْرَابٍ؛ إِذْ يَكْشِفُ الوَحْيُ عَنْ مَرَضِ التَّنَطُّعِ الَّذِي يَجْعَلُ العُقُولَ المَرِيضَةَ تَرَى فِي التَّكْلِيفِ السَّهْلِ سُخْرِيَةً وَاسْتِهْزَاءً، بَيْنَمَا يُعْلِنُ مَنْطِقُ النُّبُوَّةِ أَنَّ السُّخْرِيَةَ بِأَمْرِ اللهِ هِيَ قِمَّةُ الجَهْلِ الَّذِي يَسْتَعِيذُ مِنْهُ العُقَلَاءُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الفِقْهِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّسْلِيمَ المُطْلَقَ لِحِكْمَةِ الشَّارِعِ هُوَ أَسَاسُ العُبُودِيَّةِ وَتَحَرُّرٌ مِنْ فُضُولِ الجَدَلِ، فَمَنْ بَادَرَ إِلَى امْتِثَالِ الأَمْرِ البَسِيطِ أَدْرَكَ حِكْمَتَهُ وَنَجَا، وَمَنْ تَلَكَّأَ وَاعْتَرَضَ وَقَعَ فِي الجَهْلِ وَضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ.

الصَّدَى

بَسَاطَةُ الأَمْرِ وَمَرَضُ الِاسْتِهْزَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

وُضُوحُ التَّكْلِيفِ الإِلٰهِيِّ يَصْطَدِمُ بِعُقْدَةِ التَّعْقِيدِ البَشَرِيِّ حِينَ يَسْتَغْرِبُ الغَافِلُونَ سُهُولَةَ الأَمْرِ فَيَتَّهِمُونَ النَّاصِحَ بِالهُزْءِ بَدَلَ المُبَادَرَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا المَوْقِفِ العَجِيبِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاعْتِرَاضِ الفُضُولِيِّ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ يَصْدُرُ عَنِ السَّمَاءِ مَحْفُوفٌ بِالحِكْمَةِ وَإِنْ خَفِيَتْ عَلَيَّ عِلَّتُهُ فِي البِدَايَةِ، وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأَدَبِ أَمَامَ بَعْضِ التَّكْلِيفَاتِ البَسِيطَةِ وَتَسَاءَلْتُ عَنْ جَدْوَاهَا بَدَلَ أَنْ أُسَارِعَ إِلَى تَنْفِيذِهَا بِثِقَةٍ وَتَسْلِيمٍ، أَرَى الجُنْدِيَّ المُنْضَبِطَ يُنَفِّذُ إِشَارَةَ قَائِدِهِ الحَكِيمِ فَوْراً دُونَ جَدَلٍ فَيَنْتَصِرُ فِي المَعْرَكَةِ بَيْنَمَا يَهْلِكُ المُتَرَدِّدُ الَّذِي يَسْخَرُ مِنَ الأَمْرِ كَمَا تَلَكَّأَ قَوْمُ مُوسَى عَنْ ذَبْحِ بَقَرَةٍ وَاتَّهَمُوهُ بِالهُزْءِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَجْرَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الِاسْتِعَاذَةَ مِنَ الجَهْلِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِالتَّكْلِيفِ جَهَالَةٌ تَأْبَاهَا العُقُولُ الرَّشِيدَةُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ أَدَبٍ وَسُرْعَةِ اسْتِجَابَةٍ يُطَهِّرُ فِكْرِي مِنَ التَّنَطُّعِ وَيُعَلِّمُنِي حُسْنَ التَّسْلِيمِ، فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى أَمْرِ السَّمَاءِ جَهْلٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِعَبْدٍ بَادَرَ إِلَى طَاعَةِ اللهِ بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا جِدَالٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

آفَةُ التَّشْدِيدِ المُتَكَلَّفِ تَبْدَأُ حِينَ يَتْرُكُ الإِنْسَانُ سَعَةَ التَّيْسِيرِ وَيَبْحَثُ عَنِ القُيُودِ وَالتَّفَاصِيلِ الَّتِي لَمْ يُكَلِّفْهُ الشَّارِعُ بِهَا؛ إِذْ كَانَ يَكْفِيهِمْ ذَبْحُ أَيِّ بَقَرَةٍ تَقَعُ عَلَيْهَا أَعْيُنُهُمْ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا السُّؤَالَ تَعَنُّتاً ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَحَصَرَهُمْ فِي سِنٍّ مُعَيَّنَةٍ لَا هِيَ كَبِيرَةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ بِكْرٌ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الأُصُولِ الرُّشْدِيَّةِ أَنَّ سُكُوتَ الشَّرْعِ عَنِ التَّفَاصِيلِ رَحْمَةٌ وَتَوْسِعَةٌ، فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ سَعَةِ النَّصِّ وَبَادَرَ إِلَى الفِعْلِ نَعِمَ بِاليُسْرِ، وَمَنْ تَنَطَّعَ وَأَكْثَرَ التَّدْقِيقَ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِ بِنَفْسِ سُؤَالِهِ.

الصَّدَى

نِعْمَةُ السَّعَةِ وَفَخُّ التَّنَطُّعِ
صَدَى ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾

بَابُ التَّيْسِيرِ المَفْتُوحُ يَضِيقُ عَلَى صَاحِبِهِ كُلَّمَا أَمْسَكَ بِمِعْوَلِ التَّنَطُّعِ وَأَخَذَ يَحْفِرُ عَنْ قُيُودٍ لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهَا سُلْطَاناً بَدَلَ المُبَادَرَةِ إِلَى التَّنْفِيذِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الدَّرْسِ المَقَاصِدِيِّ العَظِيمِ يَخْلَعُ أَغْلَالَ الوَسْوَسَةِ وَالتَّكَلُّفِ لِيُدْرِكَ أَنَّ السَّعَةَ فِي التَّكْلِيفِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ يَجِبُ شُكْرُهُ لَا تَضْيِيقُهُ، وَكَمْ أَرْهَقْتُ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ بِكَثْرَةِ التَّدْقِيقِ فِي التَّفَاصِيلِ الهَامِشِيَّةِ حَتَّى تَحَوَّلَتِ العِبَادَةُ السَّهْلَةُ إِلَى عِبْءٍ ثَقِيلٍ يَشُلُّ حَرَكَتِي، أَرَى المُسَافِرَ فِي السَّهْلِ الفَسِيحِ يَتْرُكُ الطَّرِيقَ المُمَهَّدَ الوَاسِعَ لِيَتَسَلَّقَ الصُّخُورَ الوَعْرَةَ بِاخْتِيَارِهِ فَيُصِيبَهُ التَّعَبُ وَالجِرَاحُ كَمَا ضَيَّقَ قَوْمُ مُوسَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ عَنْ صِفَةِ البَقَرَةِ بَدَلَ أَنْ يَفْعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الجَوَابَ بِالأَمْرِ الحَاسِمِ بِالفِعْلِ لِيُوقِفَ نَزِيفَ الجَدَلِ وَيُرْشِدَ العُقُولَ إِلَى أَنَّ العَمَلَ هُوَ الغَايَةُ لَا التَّشَقُّقُ اللُّغَوِيُّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِفْتَاحٍ يُسْرٍ يُحَرِّرُ عَقْلِي مِنَ الوَسْوَسَةِ وَيُعَلِّمُنِي اغْتِنَامَ سَعَةِ الشَّرِيعَةِ، فَكُلُّ تَكَلُّفٍ يُضَيِّقُ مَا وَسَّعَهُ الوَحْيُ قَيْدٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَاحَةَ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ دِينَ اللهِ بِسَمَاحَةٍ وَبَادَرَ إِلَى الامْتِثَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٦٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَمَادِي اللَّجَاجِ فِي السُّؤَالِ يُضَاعِفُ دَائِرَةَ التَّضْيِيقِ حَتَّى يَصِيرَ المَتَاحُ نَادِراً وَالبَسِيطُ عَسِيراً؛ إِذْ لَمْ يَكْتَفُوا بِتَحْدِيدِ السِّنِّ فَعَادُوا يَسْأَلُونَ عَنِ اللَّوْنِ، فَقُيِّدُوا بِبَقَرَةٍ صَفْرَاءَ خَالِصَةِ الصُّفْرَةِ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ بِجَمَالِهَا وَنُدْرَتِهَا، لِيَتَأَكَّدَ فِي المَنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ أَنَّ مَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِتَيْسِيرِ اللهِ عُوقِبَ بِتَعْسِيرِ اخْتِيَارِهِ، وَأَنَّ البَحْثَ عَنِ القُيُودِ الشَّكْلِيَّةِ يَصْرِفُ النَّفْسَ عَنْ جَوْهَرِ الطَّاعَةِ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا يَسَّرَ الخَالِقُ كُفِيَ العَنَاءَ وَالمَشَقَّةَ، وَمَنْ لَجَّ فِي التَّنْقِيبِ وَالتَّعَنُّتِ تَكَلَّفَ مَا لَا يُطِيقُ.

الصَّدَى

تَمَادِي اللَّجَاجِ وَنُدْرَةُ اللَّوْنِ
صَدَى ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

إِصْرَارُ العُقُولِ المُتَلَكِّئَةِ عَلَى طَلَبِ المَزِيدِ مِنَ الأَوْصَافِ يُغْلِقُ أَبْوَابَ السُّهُولَةِ وَيُحَوِّلُ التَّكْلِيفَ اليَسِيرَ إِلَى بَحْثٍ شَاقٍّ عَنْ شَيْءٍ نَادِرٍ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّصَاعُدِ فِي التَّضْيِيقِ تَتَعَلَّمُ أَنَّ كَثْرَةَ التَّسَاؤُلَاتِ المُلْتَوِيَةِ إِنَّمَا هِيَ حِيلَةٌ يَخْتَبِئُ وَرَاءَهَا الكَسَلُ عَنِ التَّنْفِيذِ، وَكَمْ أَخَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ أَعْمَالَ الخَيْرِ بِحُجَّةِ البَحْثِ عَنِ الكَمَالِ الشَّكْلِيِّ وَالأَوْصَافِ الدَّقِيقَةِ حَتَّى فَاتَتْنِي الفُرْصَةُ وَتَعَقَّدَ الأَمْرُ، أَرَى الصَّيَّادَ الَّذِي يَرْفُضُ الصَّيْدَ الوَفِيرَ أَمَامَهُ لِيَبْحَثَ عَنْ طَائِرٍ ذِي لَوْنٍ نَادِرٍ فِي أَعَالِي الجِبَالِ فَيَعُودَ خَائِباً مُنْهَكَ القُوَى كَمَا شَقَّ قَوْمُ مُوسَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَلَبِ لَوْنِ البَقَرَةِ فَحُصِرُوا فِي صَفْرَاءَ فَاقِعٍ لَوْنُهَا، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَارَاهُمْ فِي سُؤَالِهِمْ لِيَكُونَ تَعَبُهُمْ فِي البَحْثِ عَنْهَا تَأْدِيباً لَهُمْ عَلَى تَلَكُّئِهِمْ وَمُرَاوَغَتِهِمْ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عَمَلٍ يُقَدِّمُ الإِنْجَازَ الصَّادِقَ عَلَى الجَدَلِ الفَارِغِ وَيَحْمِينِي مِنْ فِتْنَةِ التَّعْقِيدِ، فَكُلُّ تَعَنُّتٍ

يَطْلُبُ قَيْداً جَدِيداً عَنَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِمُبَادِرٍ أَطَاعَ اللهَ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَيْرَةُ الِاشْتِبَاهِ وَالِالْتِبَاسِ هِيَ الثَّمَرَةُ المُرَّةُ لِكَثْرَةِ الجَدَلِ وَالِابْتِعَادِ عَنْ بَسَاطَةِ الفِطْرَةِ؛ إِذْ كُلَّمَا زَادَتِ العُقُولُ فِي التَّفْرِيعِ وَالتَّشْقِيقِ تَشَابَهَتْ عَلَيْهَا الأُمُورُ وَانْغَلَقَتْ أَمَامَهَا السُّبُلُ، وَلٰكِنَّ مِفْتَاحَ الخُرُوجِ مِنَ الحَيْرَةِ لَا يَكْمُنُ فِي ذَكَاءِ السُّؤَالِ بَلْ فِي الِافْتِقَارِ إِلَى مَشِيئَةِ الخَالِقِ وَتَعْلِيقِ الهِدَايَةِ بِتَوْفِيقِهِ، لِيُدْرِكَ المؤْمِنُ أَنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ يَتِيهُ عِنْدَ تَشَابُهِ المسَالِكِ مَا لَمْ يَسْتَنِدْ إِلَى هِدَايَةِ السَّمَاءِ، فَمَنْ رَدَّ أَمْرَهُ إِلَى مَشِيئَةِ رَبِّهِ وَتَواضَعَ لِعِلْمِهِ انْكَشَفَتْ عَنْهُ الحَيْرَةُ وَاهْتَدَى، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى جَدَلِهِ تَشَابَهَتْ عَلَيْهِ الأَشْيَاءُ وَتَاهَ.

الصَّدَى

ضَبَابُ التَّشَابُهِ وَمِفْتَاحُ المشِيئَةِ
صَدَى ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

غُيُومُ الحَيْرَةِ وَالِاشْتِبَاهِ تَتَكَاثَفُ فِي أُفُقِ العَقْلِ كُلَّمَا أَسْرَفَ الإِنْسَانُ فِي التَّدْقِيقِ المتَكَلَّفِ حَتَّى تَتَسَاوَى أَمَامَهُ الصُّوَرُ وَلَا يَهْتَدِي إِلَّا بِتَعْلِيقِ الأَمْرِ بِمَشِيئَةِ اللهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الِاعْتِرَافِ المتَأَخِّرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاعْتِدَادِ بِالرَّأْيِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الهِدَايَةَ نُورٌ يَقْذِفُهُ الخَالِقُ فِي البَصِيرَةِ عِنْدَ صِدْقِ الِافْتِقَارِ، وَكَمْ تَشَابَهَتْ عَلَيَّ المسَالِكُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ حِينَ كُنْتُ أَغْرَقُ فِي التَّحْلِيلِ العَقْلِيِّ المعْزُولِ عَنِ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِمَشِيئَةِ السَّمَاءِ، أَرَى السَّائِرَ فِي الضَّبَابِ الكَثِيفِ يَتَخَبَّطُ بَيْنَ الأَشْجَارِ المتَشَابِهَةِ حَتَّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ فَتُبَدِّدَ الغَبَشَ وَتُظْهِرَ الطَّرِيقَ كَمَا انْكَشَفَتِ الحَيْرَةُ عَنْ قَوْمِ مُوسَى حِينَ قَالُوا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ بِمَشِيئَتِهِ هُوَ المِفْتَاحَ الَّذِي فَتَحَ لَهُمْ بَابَ الهِدَايَةِ بَعْدَ طُولِ التَّخَبُّطِ وَاللَّجَاجِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي

صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ افْتِقَارٍ يَجْعَلُنِي أَرُدُّ كُلَّ حَيْرَةٍ إِلَى مَشِيئَةِ رَبِّي وَأَطْلُبُ مِنْهُ النُّورَ، فَكُلُّ عَقْلٍ يَسْتَقِلُّ عَنْ تَوْفِيقِ الخَالِقِ تَائِهٌ فِي الضَّبَابِ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِعَبْدٍ عَلَّقَ رَجَاءَهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٧١–٨٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَوَاقِبُ التَّنَطُّعِ وَاللَّجَاجِ تَنْتَهِي بِتَضْيِيقِ الدَّائِرَةِ حَتَّى يَنْحَصِرَ المَاحُ الوَاسِعُ فِي مَطْلَبٍ نَادِرٍ يَسْتَنْفِدُ الجُهْدَ وَالمالَ؛ إِذْ أَغْلَقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ التَّيْسِيرِ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ حَتَّى أُلْزِمُوا بِبَقَرَةٍ كَرِيمَةٍ لَمْ تُذَلَّلْ لِلْحَرْثِ وَالسَّقْيِ وَخَلَتْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَلَوْنٍ دَخِيلٍ، ثُمَّ تَجَلَّى عِنَادُهُمْ فِي قَوْلِهِمُ الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ وَكَأَنَّ البَيَانَ الأَوَّلَ كَانَ نَاقِصاً، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّلَكُّؤَ عَنِ الطَّاعَةِ يَقْتُلُ رُوحَ الِامْتِثَالِ وَيَجْعَلُ العِبَادَةَ ثَقِيلَةً عَلَى النُّفُوسِ، فَمَنْ سَارَعَ إِلَى أَمْرِ السَّمَاءِ نَعِمَ بِالسَّعَةِ وَالرِّضَا، وَمَنْ تَلَكَّأَ وَتَعَنَّتَ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ بَعْدَ عَنَاءٍ وَكَمَدٍ.

الصَّدَى

قَيْدُ النُّدْرَةِ وَثِقَلُ التَّلَكُّؤِ

صَدَى ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾

أَغْلَالُ التَّعْقِيدِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الإِنْسَانُ بِيَدِهِ تَظَلُّ تَلْتَفُّ حَوْلَ عُنُقِهِ حَتَّى يَصِيرَ اليَسِيرُ مُسْتَحِيلاً وَتَخْرُجَ الطَّاعَةُ مِنْ رُوحٍ مُثْقَلَةٍ بَعْدَ أَنْ كَادَتْ أَنْ تَنْقَطِعَ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا المآلِ المجْهِدِ تَتَبَرَّأُ مِنْ مَرَضِ التَّأْجِيلِ وَالجَدَلِ لِتُدْرِكَ أَنَّ حَقَّ السَّمَاءِ وَاضِحٌ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى وَإِنَّمَا الغَبَشُ فِي عُيُونِ المتَرَدِّدِينَ، وَكَمْ أَخَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ بَعْضَ الوَاجِبَاتِ السَّهْلَةِ بِحُجَّةِ اسْتِكْمَالِ الشُّرُوطِ حَتَّى تَعَقَّدَتِ الظُّرُوفُ وَفَعَلْتُهَا بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ، أَرَى المَاءَ العَذْبَ يَجْرِي أَمَامَ الظَّمْآنِ فَيَتْرُكُهُ

لِيَحْفِرَ بِئْراً فِي الصَّخْرِ الأَصَمّ حَتَّى يَشْرَبَ بَعْدَ أَنْ يَكَادَ يَهْلِكُ مِنَ العَطَشِ كَمَا ذَبَحَ قَوْمُ مُوسَى البَقَرَةَ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ بَعْدَ طُولِ التَّعَنُّتِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ سَجَّلَ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمُ الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ لِيَفْضَحَ كِبْرَ النُّفُوسِ الَّتِي تَنْسُبُ تَقْصِيرَهَا إِلَى عَدَمِ وُضُوحِ البَيَانِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِفْتَاحِ مُبَادَرَةٍ يَجْعَلُنِي أُسَارِعُ إِلَى الطَّاعَةِ فَوْراً دُونَ تَسْوِيفٍ، فَكُلُّ تَرَدُّدٍ أَمَامَ أَمْرِ السَّمَاءِ عِبْءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَاحَةَ إِلَّا لِمُسَارِعٍ أَطَاعَ اللهَ بِخِفَّةٍ وَرِضاً فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سُلْطَانُ الحَقِيقَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَخْتَرِقُ أَسْتَارَ الكِتْمَانِ وَيَهْدِمُ جُدْرَانَ التَّبْرِيرِ الَّتِي يَبْنِيهَا المُجْرِمُونَ لِإِخْفَاءِ جَرَائِمِهِمْ؛ إِذْ تَتَدَافَعُ الأَلْسِنَةُ فِي إِنْكَارِ الدَّمِ الحَرَامِ وَإِلْقَاءِ التُّهْمَةِ عَلَى الأَبْرِيَاءِ، بَيْنَمَا تَتَكَفَّلُ عَدَالَةُ السَّمَاءِ بِإِخْرَاجِ المَسْتُورِ وَفَضْحِ الخَفِيِّ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الجَرِيمَةَ مَهْمَا أُحْكِمَ سِتْرُهَا فِي الظَّلَامِ فَإِنَّ قَانُونَ الكَشْفِ الإِلٰهِيِّ لَهُ بِالمِرْصَادِ، فَمَنْ رَاقَبَ عِلْمَ الخَالِقِ صَانَ يَدَهُ وَلِسَانَهُ عَنِ البَاطِلِ، وَمَنْ كَتَمَ الإِثْمَ وَرَاوَغَ أَخْرَجَ اللهُ مَا كَانَ يَكْتُمُ.

الصَّدَى

سِتَارُ الكِتْمَانِ وَمِصْبَاحُ الفَضِيحَةِ
صَدَى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

أَقْنِعَةُ البَرَاءَةِ المُزَيَّفَةُ تَتَسَاقَطُ أَمَامَ سُنَّةِ الكَشْفِ الرَّبَّانِيِّ الَّتِي تَنْبُشُ خَبَايَا الظَّلَامِ وَتُخْرِجُ الحَقِيقَةَ المَدْفُونَةَ إِلَى ضَوْءِ النَّهَارِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا القَانُونِ النَّافِذِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّخَفِّي وَالمُرَاوَغَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ سِرٍّ يُبْنَى عَلَى الظُّلْمِ مَكْشُوفٌ فِي مَحْكَمَةِ السَّمَاءِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ إِغْلَاقَ الأَبْوَابِ وَتَبَادُلَ التُّهَمِ قَادِرٌ عَلَى طَمْسِ مَعَالِمِ الخَطِيئَةِ عَنْ عُيُونِ الخَلْقِ، أَرَى البَذْرَةَ المَدْفُونَةَ تَحْتَ رُكَامِ الحِجَارَةِ تَشُقُّ التُّرَابَ بِقُوَّةِ الحَيَاةِ لِتَظْهَرَ فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ أَمَامَ النَّاظِرِينَ كَمَا يُخْرِجُ اللهُ

مَا كَتَمَهُ المجْرِمُونَ مِنْ قَتْلٍ وَتَدْلِيسٍ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ إِخْرَاجَ المَكْتُومِ سُنَّةً كَوْنِيَّةً لِيُرْدَعَ كُلُّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ ارْتِكَابَ السُّوءِ فِي الخَفَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسِ نَزَاهَةٍ يُوَحِّدُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي وَيَمْنَعُنِي مِنَ التَّسَتُّرِ عَلَى البَاطِلِ، فَكُلُّ سِتْرٍ يُنْسَجُ عَلَى الجَرِيمَةِ خَيْطُ عَنْكَبُوتٍ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ طَهَّرَ سَرِيرَتَهُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْضُ الحَيَاةِ يَعُودُ إِلَى الجَسَدِ الهَامِدِ بِسَبَبٍ بَسِيطٍ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، لِيَشْهَدَ العَقْلُ البَشَرِيُّ أَنَّ المَوْتَ وَالحَيَاةَ مَحْكُومَانِ بِإِرَادَةِ الخَالِقِ لَا بِقَوَانِينِ المَادَّةِ الصَّمَّاءِ؛ إِذْ يُحْيِي اللهُ القَتِيلَ بِضَرْبِهِ بِجُزْءٍ مِنَ البَقَرَةِ المَذْبُوحَةِ لِيَنْطِقَ بِاسْمِ قَاتِلِهِ، فَتَجْتَمِعُ فِي المُعْجِزَةِ إِقَامَةُ العَدْلِ الدُّنْيَوِيِّ وَإِثْبَاتُ البَعْثِ الأُخْرَوِيِّ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ مِنْ قَيْدِ الِاسْتِبْعَادِ المَادِّيِّ لِلنُّشُورِ، فَمَنْ أَعْمَلَ عَقْلَهُ فِي آيَاتِ الإِحْيَاءِ أَيْقَنَ بِقُدْرَةِ البَارِئِ وَاهْتَدَى، وَمَنْ عَطَّلَ فِكْرَهُ عَنِ التَّدَبُّرِ حُرِمَ نُورَ البَصِيرَةِ.

الصَّدَى

لَمْسَةُ المَوْتِ وَبُرْهَانُ البَعْثِ
صَدَى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

شَرَرَةُ الحَيَاةِ تَسْرِي فِي عُرُوقِ الجَسَدِ البَارِدِ عِنْدَ مَلَامَسَةِ جُزْءٍ مِنْ بَقَرَةٍ مَذْبُوحَةٍ لِيَنْطِقَ المَيِّتُ بِالحَقِيقَةِ وَيُقِيمَ الدَّلِيلَ القَاطِعَ عَلَى قُدْرَةِ البَعْثِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ المُعْجِزَةِ البَاهِرَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاسْتِبْعَادِ المَادِّيِّ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ يَجْعَلُ المَيِّتَ سَبَباً لِحَيَاةِ المَيِّتِ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِ الخَلَائِقِ جَمِيعاً، وَكَمْ قَيَّدَتْنِي المَقَايِيسُ الحِسِّيَّةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ حِينَ كُنْتُ أَرْبِطُ النَّتَائِجَ بِالأَسْبَابِ المَأْلُوفَةِ وَأَعْجَبُ كَيْفَ تَعُودُ الرُّوحُ إِلَى الرُّفَاتِ البَالِي، أَرَى الشَّرَارَةَ الخَفِيَّةَ تَنْبَعِثُ مِنِ احْتِكَاكِ حَجَرَيْنِ صَامِتَيْنِ فَتُشْعِلُ النُّورَ وَالدِّفْءَ كَمَا أَحْيَا اللهُ القَتِيلَ بِبَعْضِ البَقَرَةِ لِيُرِيَ العِبَادَ آيَاتِهِ لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ المُعْجِزَةَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّعَقُّلِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ آيَاتِ الوَحْيِ وَالكَوْنِ لَا

تُنَاقِضُ العَقْلَ بَلْ تَسْتَنْهِضُهُ لِيُبْصِرَ الحَقِيقَةَ الكُبْرَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ يَقِينٍ تَهْدِمُ شُكُوكَ المادَّةِ وَتُثَبِّتُ إِيمَانِي بِاليَوْمِ الآخِرِ، فَكُلُّ قَانُونٍ مَادِّيٍّ مَحْكُومٌ بِإِرَادَةِ الخَالِقِ إِلَى حِينٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِحْيَاءَ إِلَّا بِيَدِ اللهِ الَّذِي يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَأْسَاةُ القُلُوبِ المَتَحَجِّرَةِ تَبْلُغُ ذُرْوَتَهَا حِينَ تَشْهَدُ المُعْجِزَاتِ البَاهِرَةَ ثُمَّ تَزْدَادُ صَلَابَةً وَجَفَاءً حَتَّى تَفُوقَ الصُّخُورَ الصَّمَّاءَ فِي القَسْوَةِ؛ إِذْ تَلِينُ الحِجَارَةُ الجَامِدَةُ فَتَتَفَجَّرُ مِنْهَا الأَنْهَارُ وَيَنْبَعُ مِنْهَا المَاءُ وَتَخِرُّ هَابِطَةً مِنْ خَشْيَةِ خَالِقِهَا، بَيْنَمَا يَقِفُ القَلْبُ الغَافِلُ جَافّاً لَا تَهْتَزُّ فِيهِ خَشْيَةٌ وَلَا تَسِيلُ مِنْهُ دَمْعَةُ تَوْبَةٍ، لِيُدْرِكَ العَقْلُ البَصِيرُ أَنَّ أَخْطَرَ أَمْرَاضِ الرُّوحِ هُوَ تَبَلُّدُ الشُّعُورِ أَمَامَ الآيَاتِ، فَمَنْ رَقَّ قَلْبُهُ لِذِكْرِ اللهِ فَاضَتْ فِيهِ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَمَنْ أَهْمَلَ سَقْيَ فُؤَادِهِ بِالخَشْيَةِ صَارَ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الجَلْمُودِ.

الصَّدَى

قَسْوَةُ الصُّدُورِ وَخَشْيَةُ الصُّخُورِ
صَدَى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

صَلَابَةُ القَلْبِ الجَاحِدِ بَعْدَ رُؤْيَةِ البَيِّنَاتِ تَتَجَاوَزُ جُمُودَ الصَّخْرِ الأَصَمِّ الَّذِي يَنْشَقُّ بِالمَاءِ وَيَهْوِي مِنْ قِمَمِ الجِبَالِ خَشْيَةً وَإِجْلَالاً لِخَالِقِهِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذِهِ المُقَارَنَةِ المُبْكِيَةِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً مِنْ دَاءِ القَسْوَةِ الَّذِي يُحَوِّلُ مَضْغَةَ اللَّحْمِ إِلَى جَلْمُودٍ لَا يَتَأَثَّرُ بِمَوْعِظَةٍ وَلَا يَرِقُّ لِذِكْرٍ، وَكَمْ مَرَرْتُ قَبْلَ

انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَلَى آيَاتِ الكَوْنِ وَالتَّنْزِيلِ بِعَيْنٍ جَامِدَةٍ وَقَلْبٍ غَافِلٍ دُونَ أَنْ تَتَفَجَّرَ فِي دَاخِلِي عُيُونُ الخَشْيَةِ وَالإِنَابَةِ، أَرَى الجَبَلَ الشَّامِخَ يَتَشَقَّقُ صَخْرُهُ الصَّلْبُ فَتَنْسَابُ مِنْهُ الجَدَاوِلُ العَذْبَةُ لِتَسْقِيَ الوِدْيَانَ بَيْنَمَا تَبْقَى بَعْضُ الصُّدُورِ قَاحِلَةً مَعَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَنْطَقَ الحِجَارَةَ بِالخَشْيَةِ وَالعَطَاءِ لِيُخْجِلَ القُلُوبَ البَشَرِيَّةَ الَّتِي قَسَتْ بَعْدَ المَعْرِفَةِ وَالمُشَاهَدَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ رِقَّةٍ وَبُكَاءٍ يُذِيبُ جَلِيدَ الغَفْلَةِ وَيُفَجِّرُ يَنَابِيعَ الخَشْيَةِ فِي رُوحِي، فَكُلُّ قَلْبٍ يَخْلُو مِنْ خَشْيَةِ الخَالِقِ صَخْرَةٌ مَيِّتَةٌ إِلَى فَنَاءٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ إِلَّا لِقَلْبٍ خَاشِعٍ لَانَ لِذِكْرِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سَذَاجَةُ الطَّمَعِ فِي اسْتِجَابَةِ المُحَرِّفِينَ تَنْكَشِفُ أَمَامَ سِجِلِّهِمُ المَاضِي الَّذِي شَهِدَ جُرْأَتَهُمْ عَلَى تَبْدِيلِ كَلَامِ اللهِ عَنْ عَمْدٍ وَبَصِيرَةٍ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ انْحِرَافُهُمْ نَاتِجاً عَنْ جَهْلٍ يُعْذَرُونَ بِهِ، بَلْ كَانَ تَحْرِيفاً مَقْصُوداً بَعْدَ أَنْ عَقَلُوا الحَقَّ وَعَلِمُوا مَعْنَاهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مَنْ خَانَ أَمَانَةَ الوَحْيِ وَهُوَ يَعْلَمُ لَا يُرْجَى مِنْهُ الإِذْعَانُ السَّرِيعُ لِدَعْوَةِ الحَقِّ، فَمَنْ صَانَ عَقْلَهُ عَنْ تَحْرِيفِ النُّصُوصِ لِأَجْلِ الهَوَى بَقِيَتْ فِطْرَتُهُ حَيَّةً، وَمَنْ لَوَى أَعْنَاقَ الكَلِمَاتِ عَمْداً فَسَدَ مِيزَانُ عَقْلِهِ وَبَعُدَ عَنِ الهِدَايَةِ.

الصَّدَى

وَهُمُ الطَّمَعِ وَجَرِيمَةُ التَّحْرِيفِ
صَدَى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

غَفْلَةُ التَّفَاؤُلِ السَّاذَجِ تَتَبَدَّدُ حِينَ يُكْشَفُ السِّتَارُ عَنْ نُفُوسٍ تَجَرَّأَتْ عَلَى تَزْيِيفِ كَلَامِ السَّمَاءِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَتْ حَقِيقَتَهُ بِالعَقْلِ وَالعِلْمِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ الخِيَانَةِ العِلْمِيَّةِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً مِنْ فِتْنَةِ الهَوَى الَّتِي تَدْفَعُ الإِنْسَانَ إِلَى تَحْرِيفِ الحَقِّ لِيُوَافِقَ مَصَالِحَهُ وَأَغْرَاضَهُ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفُضُ الحَقَّ إِنَّمَا يَرْفُضُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْهُ بَعْدُ دُونَ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ الكِبْرَ وَالهَوَى قَدْ يَدْفَعَانِ العَالِمَ إِلَى التَّحْرِيفِ، أَرَى المِيزَانَ الذَّهَبِيَّ الدَّقِيقَ يَتَلَاعَبُ بِهِ التَّاجِرُ الخَائِنُ عَمْداً لِيَبْخَسَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الوَزْنِ كَمَا حَرَّفَ أُولٰئِكَ كَلَامَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَيْقَظَ وَعْيَ المُؤْمِنِينَ بِهٰذَا الِاسْتِفْهَامِ لِيُعَلِّمَهُمْ قِرَاءَةَ التَّارِيخِ وَالنُّفُوسِ بِبَصِيرَةٍ وَاقِعِيَّةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ السَّذَاجَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسٍ أَمَانَةٍ عِلْمِيَّةٍ يَمْنَعُنِي مِنْ تَأْوِيلِ النُّصُوصِ عَلَى مَقَاسِ هَوَايَ، فَكُلُّ تَحْرِيفٍ لِلْحَقِيقَةِ خِيَانَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِأَمِينٍ صَانَ كَلِمَةَ اللهِ كَمَا أَنْزَلَهَا الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

ازْدِوَاجِيَّةُ النِّفَاقِ وَالمُؤَامَرَةِ تَنْفَضِحُ بَيْنَ بَسْمَةِ اللِّقَاءِ الظَّاهِرِ وَظُلْمَةِ الخَلَوَاتِ المُغْلَقَةِ؛ إِذْ يُظْهِرُ المُرَاؤُونَ الإِيمَانَ أَمَامَ الصَّادِقِينَ، فَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ تَلَاوَمُوا عَلَى كَشْفِ البِشَارَاتِ وَالحَقَائِقِ الَّتِي فَتَحَهَا اللهُ عَلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ تَكُونَ حُجَّةً دَامِغَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الحِسَابِ، لِيَتَعَلَّمَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ كِتْمَانَ الحَقِّ خَوْفاً مِنِ انْكِشَافِ البَاطِلِ هُوَ غَبَاءٌ مُرَكَّبٌ لِأَنَّ الخَالِقَ يَعْلَمُ السِّرَّ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ البَشَرُ، فَمَنْ وَحَّدَ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ بِالصِّدْقِ سَلِمَ مِنْ عَارِ التَّلَوُّنِ، وَمَنْ كَتَمَ الحُجَّةَ فِي الخَلَوَاتِ نَاقَضَ العَقْلَ وَخَسِرَ المَوْقِفَ.

الصَّدَى

بَسْمَةُ اللِّقَاءِ وَظُلْمَةُ الخَلَوَاتِ

صَدَى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وُجُوهُ التَّلَوُّنِ الحَرْبَائِيِّ تَتَبَدَّلُ بَيْنَ نُورِ العَلَانِيَةِ وَسَوَادِ الخَلْوَةِ حِينَ يُجَامِلُ المُنَافِقُونَ أَهْلَ الإِيمَانِ بِاللِّسَانِ ثُمَّ يَتَوَاصَوْنَ فِي الظَّلَامِ بِكِتْمَانِ الحَقِّ خَوْفاً مِنْ حُجَّةِ السَّمَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المُكْرِ القَصِيرِ النَّظَرِ يَتَطَهَّرُ مِنْ كُلِّ مُدَاهَنَةٍ وَنِفَاقٍ لِيُدْرِكَ أَنَّ الحَقِيقَةَ لَا تُحْجَبُ بِإِغْلَاقِ الأَبْوَابِ وَلَا بِكَتْمِ الشَّهَادَةِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الفَضِيحَةِ مِنْ نُفُوسٍ تَظُنُّ أَنَّ إِخْفَاءَ الدَّلِيلِ عَنْ خُصُومِهَا فِي الدُّنْيَا يُسْقِطُ عَنْهَا التَّبِعَةَ أَمَامَ قَاضِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، أَرَى الخُفَّاشَ يَخْتَبِئُ فِي كَهْفٍ مُظْلِمٍ ظَانّاً أَنَّ انْغِلَاقَ الكَهْفِ يُطْفِئُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ فِي الأُفُقِ كَمَا ظَنَّ المُنَافِقُونَ أَنَّ كِتْمَانَ مَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ يَمْنَعُ المِحَاجَّةَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ فَضَحَ حِوَارَ خَلَوَاتِهِمْ وَخَتَمَهُ بِتَوْبِيخِ غِيَابِ العَقْلِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْفَاءِ الحَقِّ عَنِ الخَالِقِ سَفَاهَةٌ لَا تَلِيقُ بِعَاقِلٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِرْآةٍ شَفَافِيَّةٍ تَجْعَلُنِي أُعْلِنُ الحَقَّ وَلَوْ كَانَ عَلَى نَفْسِي وَأَتَبَرَّأُ مِنْ لُغَةِ الخَلَوَاتِ المُظْلِمَةِ، فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِشَهَادَةِ الحَقِّ خُسْرَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِصَادِقٍ اسْتَوَى سِرُّهُ وَعَلَنُهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

إِحَاطَةُ العِلْمِ الإِلٰهِيِّ المُطْلَقِ تَنْسِفُ أَوْهَامَ التَّخَفِّي وَتُذِيبُ الفَوَاصِلَ بَيْنَ السِّرِّ المَكْتُومِ وَالجَهْرِ المُعْلَنِ؛ إِذْ يَسْتَوِي فِي مِيزَانِ العَلِيمِ الخَبِيرِ هَمْسُ الخَلَوَاتِ وَخَفَقَاتُ الصُّدُورِ مَعَ صَخَبِ المَحَافِلِ وَظَوَاهِرِ الأَعْمَالِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المُؤْمِنُ مِنْ نِفَاقِ المُرَاقَبَةِ البَشَرِيَّةِ وَيَسْتَقِيمَ عَلَى رَقَابَةِ السَّمَاءِ الدَّائِمَةِ، فَمَنِ اسْتَحْضَرَ إِحَاطَةَ رَبِّهِ بِسِرِّهِ وَعَلَنِهِ طَهَّرَ بَاطِنَهُ قَبْلَ ظَاهِرِهِ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْ عِلْمِ الخَالِقِ خَدَعَ نَفْسَهُ بِأَسْتَارِ الظَّلَامِ.

عَيْنُ الرَّقِيبِ وَوَهْمُ الأَسْتَارِ
صَدَى ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

نُورُ العِلْمِ الإِلٰهِيِّ المحِيطِ يَخْتَرِقُ حُجُبَ الأَسْرَارِ وَجُدْرَانَ الكِتْمَانِ لِيَكْشِفَ أَنَّ مَا يَظُنُّهُ الإِنْسَانُ خَفِيّاً هُوَ مَكْشُوفٌ تَماماً أَمَامَ بَصَرِ الخَالِقِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الإِحَاطَةِ الشَّامِلَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّصَنُّعِ لِلنَّاسِ لِيُدْرِكَ أَنَّ القِيمَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِعَمَلِي تَكْمُنُ فِيمَا أُسِرُّهُ فِي خَلْوَتِي لَا فِيمَا أُظْهِرُهُ فِي مَلَئِي، وَكَمْ رَاقَبْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا اليَقِينِ عُيُونَ البَشَرِ العَابِرِينَ وَغَفَلْتُ عَنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّذِي لَا تَغْفُلُ وَلَا تَنَامُ، أَرَى الزُّجَاجَ الشَّفَّافَ الصَّافِيَ تَظْهَرُ مِنْ خَلْفِهِ الأَشْيَاءُ بِوُضُوحٍ تَامٍّ دُونَ حَاجِزٍ كَمَا تَنْكَشِفُ السَّرَائِرُ وَالعَلَانِيَةُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ أَمَامَ عِلْمِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَدَّ عَلَى تَآمُرِهِمْ فِي الخَلَوَاتِ بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ البَدِيهِيَّةِ لِيُوقِظَ ضَمَائِرَهُمْ مِنْ سُبَاتِ الغَفْلَةِ عَنِ الرَّقَابَةِ الإِلٰهِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ إِخْلَاصٍ يُطَهِّرُ خَوَاطِرِي وَيَجْعَلُنِي أَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ فِي سِرِّي أَكْثَرَ مِمَّا أَسْتَحْيِي مِنَ الخَلْقِ فِي عَلَنِي، فَكُلُّ سِرٍّ يُبْنَى عَلَى البَاطِلِ فَضِيحَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ طَابَ سِرُّهُ وَعَلَنُهُ عِنْدَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

المَوْعِظَةُ

آفَةُ التَّدَيُّنِ القَائِمِ عَلَى الأَمَانِيِّ وَالظُّنُونِ تَنْتَشِرُ حِينَ يَهْجُرُ النَّاسُ تَدَبُّرَ الكِتَابِ وَيَكْتَفُونَ بِالتِّلَاوَةِ الأَجْوَفَةِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى لِلْأَحْبَارِ؛ إِذْ تَتَحَوَّلُ الحَقَائِقُ الدِّينِيَّةُ فِي عُقُولِهِمْ إِلَى أَوْهَامٍ وَتَمَنِّيَاتٍ بَاطِلَةٍ تَعِدُهُمْ بِالنَّجَاةِ دُونَ عِلْمٍ صَحِيحٍ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، لِيُؤَسِّسَ المَنْهَجُ الرُّشْدِيُّ أَنَّ الإِيمَانَ الحَقَّ يَقُومُ عَلَى البُرْهَانِ وَالفَهْمِ الوَاعِي لِلْوَحْيِ لَا عَلَى الظُّنُونِ المَوْرُوثَةِ، فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى الكِتَابِ بِعَقْلٍ يَتَدَبَّرُ وَيَفْهَمُ نَجَا مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالأَمَانِيِّ وَالظُّنُونِ تَاهَ فِي سَرَابِ الأَوْهَامِ.

الصَّدَى

سَرَابُ الأَمَانِيّ وَغُرْبَةُ الكِتَابِ

صَدَى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

ضَبَابُ الجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ يَحْجُبُ نُورَ الوَحْيِ عَنْ أُمَّةٍ هَجَرَتْ فَهْمَ الكِتَابِ وَاسْتَبْدَلَتْ بِبَرَاهِينِهِ السَّاطِعَةِ أَحْلَامَ الأَمَانِيّ وَتَخْمِينَاتِ الظُّنُونِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْذِيرِ البَلِيغِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّلَقِّي السَّلْبِيّ لِيُدْرِكَ أَنَّ العَلَاقَةَ الصَّحِيحَةَ مَعَ كِتَابِ اللهِ تَقُومُ عَلَى التَّدَبُّرِ وَالوَعْيِ لَا عَلَى مُجَرَّدِ التَّرْدِيدِ بِلَا فَهْمٍ، وَكَمْ اكْتَفَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ بِظَاهِرِ الأَلْفَاظِ وَالأَمَانِيّ العَامَّةِ دُونَ أَنْ أَغُوصَ فِي مَقَاصِدِ الآيَاتِ لِأَبْنِيَ إِيمَانِي عَلَى اليَقِينِ لَا عَلَى الظَّنِّ، أَرَى العَطْشَانَ يَحْمِلُ كَأْساً مَمْلُوءَةً بِالمَاءِ العَذْبِ وَلٰكِنَّهُ يُغْلِقُ فَمَهُ وَيَكْتَفِي بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا وَتَمَنِّي الرِّيِّ فَيَمُوتُ ظَمَأً كَمَا ضَاعَ الأُمِّيُّونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَظُنُوناً، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ ذَمَّ التَّدَيُّنَ القَائِمَ عَلَى الظَّنِّ وَالتَّمَنِّي لِيُحَرِّرَ العُقُولَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ العَمْيَاءِ وَيَدْفَعَهَا نَحْوَ الفَهْمِ المَبَاشِرِ لِوَحْيِ السَّمَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ وَعْيٍ تَجْعَلُنِي أَتَدَبَّرُ كُلَّ آيَةٍ بِعَقْلٍ يَقِظٍ وَأَبْنِي دِينِي عَلَى البُرْهَانِ، فَكُلُّ إِيمَانٍ يُبْنَى عَلَى الظُّنُونِ وَالأَمَانِيّ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِبَصِيرٍ عَقَلَ كِتَابَ اللهِ وَعَمِلَ بِهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٧٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَرِيمَةُ الِافْتِرَاءِ عَلَى السَّمَاءِ تَبْلُغُ أَقْبَحَ صُوَرِهَا حِينَ تَخُطُّ الأَيْدِي الآثِمَةُ أَهْوَاءَهَا وَتَنْسُبُهَا زُوراً إِلَى شَرْعِ اللهِ لِتَجْنِيَ بِهَا حُطَامَ الدُّنْيَا الفَانِيَ؛ إِذْ يَتَوَعَّدُ الوَحْيُ هٰؤُلَاءِ المُزَوِّرِينَ بِالوَيْلِ المُضَاعَفِ: وَيْلٌ عَلَى تَزْيِيفِ الحَقِيقَةِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى الخَالِقِ، وَوَيْلٌ عَلَى السُّحْتِ الحَرَامِ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ ثَمَناً لِخِيَانَةِ الدِّينِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيّ أَنَّ حِمَايَةَ النَّصِّ الشَّرْعِيّ مِنْ دَخِيلِ الأَقْوَالِ وَالمَصَالِحِ الضَّيِّقَةِ

هِيَ أَعْظَمُ أَمَانَاتِ العِلْمِ، فَمَنْ نَزَّهَ شَرْعَ رَبِّهِ عَنْ تَحْرِيفِ الأَهْوَاءِ وَالمطَامِعِ نَالَ شَرَفَ الصِّدْقِ، وَمَنْ بَاعَ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا بَاءَ بِالوَيْلِ وَالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

تَزْوِيرُ الأَقْلَامِ وَثَمَنُ الخِيَانَةِ
صَدَى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾

خِيَانَةُ القَلَمِ المأْجُورِ تَحْرِقُ قَدَاسَةَ الحَقِيقَةِ حِينَ يَصُوغُ البَشَرُ أَهْوَاءَهُمْ فِي سُطُورٍ مَكْذُوبَةٍ ثُمَّ يَلْبِسُونَهَا ثَوْبَ الوَحْيِ لِيَشْتَرُوا بِهَا مَتَاعاً رَخِيصاً مِنَ الدُّنْيَا، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الوَيْلِ المتَكَرِّرِ يَرْتَجِفُ هَيْبَةً وَإِجْلَالاً لِكَلِمَةِ اللهِ أَنْ أَنْسُبَ إِلَيْهَا ظَنّاً بَشَرِيّاً أَوْ هَوًى نَفْسِيّاً، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الوَعِيدِ مِنْ أَقْوَالٍ تُرَوَّجُ بِاسْمِ الدِّينِ وَهِيَ مِنْ صُنْعِ أَيْدِي البَشَرِ وَمَصَالِحِهِمُ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تَسْتَغِلُّ سَذَاجَةَ الغَافِلِينَ، أَرَى المزَوِّرَ الَّذِي يَطْبَعُ نُقُوداً زَائِفَةً وَيَخْتِمُهَا بِخَتْمِ المِلكِ لِيَخْدَعَ النَّاسَ وَيَسْرِقَ أَمْوَالَهُمْ فَيَسْتَحِقَّ أَشَدَّ العُقُوبَةِ كَمَا اسْتَحَقَّ المفْتَرُونَ الوَيْلَ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَمِمَّا يَكْسِبُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَصَفَ كُلَّ مَا يُشْتَرَى بِتَحْرِيفِ الدِّينِ بِأَنَّهُ ثَمَنٌ قَلِيلٌ وَلَوْ كَانَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لِهَوَانِهِ أَمَامَ عَظَمَةِ الحَقِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَمْحِيصٍ يَفْصِلُ بَيْنَ نُورِ الوَحْيِ المعْصُومِ وَبَيْنَ كِتَابَاتِ البَشَرِ القَاصِرَةِ، فَكُلُّ كَلِمَةٍ تُنْسَبُ لِلسَّمَاءِ بِالزُّورِ وَبَالٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ صَانَ كِتَابَ اللهِ عَنْ أَهْوَاءِ المخْلُوقِينَ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

غُرُورُ الأَمَانِيِّ الكَاذِبَةِ يَجْعَلُ العُصَاةَ يُهَوِّنُونَ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ وَيَدَّعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَجَاةً قَرِيبَةً بِلَا عَمَلٍ وَلَا بُرْهَانٍ؛ إِذْ يَقْرَعُ الوَحْيُ عُقُولَهُمْ بِبُرْهَانٍ مَنْطِقِيٍّ حَاسِمٍ يَحْصُرُ دَعْوَاهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَا ثَالِثَ

لَهُمَا: إِمَّا عَهْدٌ مَوْثُوقٌ مِنَ الخَالِقِ لَا يُخْلَفُ، وَإِمَّا افْتِرَاءٌ وَقَوْلٌ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنْ وَهْمِ الحَصَانَةِ المَوْهُومَةِ وَتَهْوِينِ الذُّنُوبِ، فَمَنْ بَنَى رَجَاءَهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ وَعَهْدِهِ الصَّادِقِ نَجَا وَفَازَ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِأَمَانِيِّ نَفْسِهِ وَقَالَ عَلَى اللهِ مَا لَا يَعْلَمُ انْكَشَفَ زَيْفُهُ يَوْمَ الوَعِيدِ.

الصَّدَى

سَرَابُ الأَيَّامِ المَعْدُودَةِ وَمِيزَانُ البُرْهَانِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

أَوْهَامُ التَّسْوِيفِ وَالمُجَازَفَةِ بِالمَصِيرِ الأَبَدِيِّ تَتَحَطَّمُ عَلَى صَخْرَةِ السُّؤَالِ البُرْهَانِيِّ الَّذِي يُطَالِبُ المُدَّعِينَ بِعَهْدٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ يَفْضَحُ جُرْأَتَهُمْ عَلَى القَوْلِ بِلَا عِلْمٍ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ المُحَاكَمَةِ العَقْلِيَّةِ الدَّقِيقَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاتِّكَالِ عَلَى الأَمَانِيِّ الفَارِغَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ النَّجَاةَ لَا تُنَالُ بِالتَّمَنِّي بَلْ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِ الطَّاعَةِ، وَكَمْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحُجَّةِ أَنْ أُهَوِّنَ مِنْ شَأْنِ التَّقْصِيرِ وَأُعَلِّلَ ذَاتِي بِأَمَانِيَّ عَامَّةٍ لَا تَسْتَنِدُ إِلَى دَلِيلٍ مِنَ الوَحْيِ، أَرَى المُسَافِرَ الَّذِي يَقْطَعُ تَذْكِرَةً مُزَوَّرَةً بِيَدِهِ وَيَظُنُّ أَنَّهَا سَتُدْخِلُهُ قَصْرَ المَلِكِ فَيُطْرَدُ عِنْدَ البَوَّابَةِ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ عَهْداً صَحِيحاً كَمَا ادَّعَى المُغْتَرُّونَ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَمَسَّهُمْ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً بِغَيْرِ عَهْدٍ مِنَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ حَاصَرَ ادِّعَاءَهُمْ بِقِسْمَةٍ عَقْلِيَّةٍ حَاسِمَةٍ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ فِي الدِّينِ يَخْلُو مِنْ بُرْهَانِ الوَحْيِ هُوَ افْتِرَاءٌ وَجَهْلٌ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ انْضِبَاطٍ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّهَاوُنِ بِالذُّنُوبِ وَيُحَرِّمُ عَلَيَّ القَوْلَ عَلَى رَبِّي بِلَا عِلْمٍ، فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ تَخْلُو مِنْ عَهْدِ السَّمَاءِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللهِ وَاتَّقَى عَذَابَهُ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٨١–٩٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الجَزَاءِ العَادِلِ يَنْسِفُ أَوْهَامَ الحَصَانَةِ المَوْهُومَةِ لِيُقَرِّرَ أَنَّ العَاقِبَةَ مَنُوطَةٌ بِمَا تَكْسِبُهُ الأَيْدِي وَتُحِيطُ بِهِ القُلُوبُ؛ إِذْ تَسْتَحْكِمُ الخَطِيئَةُ عَلَى العَبْدِ حِينَ يَسْتَمْرِئُ الذَّنْبَ وَيُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهِ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ حَتَّى تُطْبِقَ عَلَيْهِ الشُّرُورُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَيَصِيرَ مَأْوَاهُ النَّارَ خَالِداً فِيهَا بِعَدْلِ الدَّيَّانِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنْ غُرُورِ الاتِّكَالِ عَلَى الأَمَانِيِّ الفَارِغَةِ وَتَّهْوِينِ السَّيِّئَاتِ، فَمَنْ بَادَرَ إِلَى كَسْرِ طَوْقِ الخَطِيئَةِ بِالتَّوْبَةِ وَالإِحْسَانِ نَجَا مِنْ أَسْرِهَا، وَمَنْ تَرَكَ ذُنُوبَهُ تُحِيطُ بِهِ حَتَّى تَطْمِسَ فِطْرَتَهُ هَلَكَ فِي نَارِ الخُسْرَانِ.

الصَّدَى

سِجْنُ الخَطِيئَةِ وَسَرَابُ الحَصَانَةِ

صَدَى ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أَسْوَارُ الذُّنُوبِ المُتَرَاكِمَةِ تَلْتَفُّ حَوْلَ القَلْبِ الغَافِلِ حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهِ مَنَافِذَ النُّورِ وَتُحِيلَهُ أَسِيراً فِي سِجْنِ الخَطِيئَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الحُكْمِ القَاطِعِ تَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ تَهْوِينِ السَّيِّئَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَتَنَاسَلُ فِي الظَّلَامِ حَتَّى تُطْبِقَ عَلَى الرُّوحِ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ الزَّلَّةَ العَابِرَةَ لَا تَتْرُكُ أَثَراً وَأَنَّ بَابَ الخُرُوجِ مَفْتُوحٌ دَائِماً دُونَ أَنْ أُبْصِرَ كَيْفَ تَبْنِي الخَطِيئَةُ جُدْرَانَهَا حَوْلَ العَاصِي، أَرَى دُودَةَ القَزِّ تَنْسِجُ خُيُوطَ الشَّرْنَقَةِ حَوْلَ نَفْسِهَا خَيْطاً بَعْدَ خَيْطٍ حَتَّى تَخْتَنِقَ دَاخِلَهَا وَتَمُوتَ كَمَا تُحِيطُ الخَطِيئَةُ بِصَاحِبِهَا فَتُسْلِمُهُ إِلَى النَّارِ خَالِداً فِيهَا بِعَدْلِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ الخَطِيئَةَ كَالجَيْشِ المُحَاصِرِ لِيُحَذِّرَنَا مِنْ تَرْكِ الذُّنُوبِ تَتَجَمَّعُ دُونَ اسْتِغْفَارٍ يَكْسِرُ حِصَارَهَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسٍ يَقَظَةٍ يَبْدَأُ بِمَحْوِ السَّيِّئَةِ فَوْرَ وُقُوعِهَا قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى سِجْنٍ مُغْلَقٍ، فَكُلُّ ذَنْبٍ يُهْمَلُ عِلَاجُهُ قَيْدٌ إِلَى هَلَاكٍ وَزَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِتَائِبٍ كَسَرَ طَوْقَ الخَطِيئَةِ بِنُورِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ العَدْلِ المُتَوَازِنُ يَفْتَحُ أَبْوَابَ النَّعِيمِ الأَبَدِيِّ فِي مُقَابِلِ الوَعِيدِ لِيَشُدَّ أَزْرَ السَّائِرِينَ بِجَنَاحَيِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِذْ يَجْمَعُ الوَحْيُ بَيْنَ صَفَاءِ العَقِيدَةِ فِي القَلْبِ وَاسْتِقَامَةِ السُّلُوكِ فِي الوَاقِعِ لِيَكُونَا مِفْتَاحَ الخُلُودِ فِي جَنَّاتِ الرِّضْوَانِ، فَيَتَأَكَّدُ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الجَنَّةَ لَيْسَتْ دَعْوَى تُنَالُ بِالأَمَانِيِّ، بَلْ هِيَ حَصَادٌ طَبِيعِيٌّ لِتَوْحِيدٍ صَادِقٍ وَإِحْسَانٍ مُتَّصِلٍ، فَمَنْ وَصَلَ إِيمَانَهُ بِصَلَاحِ عَمَلِهِ ظَفِرَ بِصُحْبَةِ الجِنَانِ وَبَقَائِهَا، وَمَنْ فَصَلَ بَيْنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ فَقَدَ شَرْطَ الفَلَاحِ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الفَلَاحِ وَصُحْبَةُ الجِنَانِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

رِيَاضُ الخُلُودِ الوَارِفَةُ تَفْتَحُ ذِرَاعَيْهَا لِأَهْلِ الصِّدْقِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ نُورِ الإِيمَانِ فِي السَّرَائِرِ وَثَمَرَاتِ الصَّلَاحِ فِي الجَوَارِحِ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الجَلِيلِ تَخْلَعُ رِدَاءَ الفُتُورِ وَالتَّرَاخِي لِتُدْرِكَ أَنَّ الإِيمَانَ شَجَرَةٌ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِثِمَارِ العَمَلِ الصَّالِحِ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا التَّلَازُمِ أَنَّ مُجَرَّدَ التَّصْدِيقِ القَلْبِيِّ يَكْفِي لِلْوُصُولِ دُونَ أَنْ أُتَرْجِمَ يَقِينِي إِلَى إِحْسَانٍ يَنْفَعُ الخَلْقَ وَيُزَكِّي النَّفْسَ، أَرَى الطَّائِرَ المحَلِّقَ فِي الفَضَاءِ يَرْتَفِعُ بِجَنَاحَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ يَشُقَّانِ الهَوَاءَ نَحْوَ القِمَمِ الشَّامِخَةِ كَمَا يَرْتَقِي المؤْمِنُونَ بِالإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لِيَكُونُوا أَصْحَابَ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا بِفَضْلِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ الإِيمَانَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَارَةٍ لِيُؤَسِّسَ لِدِينٍ يَجْمَعُ بَيْنَ طَهَارَةِ البَاطِنِ وَعِمَارَةِ الظَّاهِرِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ عَمَلٍ دَائِمٍ تَجْعَلُ إِيمَانِي يَنْبِضُ بِالخَيْرِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ، فَكُلُّ دَعْوَى إِيمَانٍ لَا يُصَدِّقُهَا العَمَلُ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَعِيمَ إِلَّا لِصَادِقٍ عَمَرَ حَيَاتَهُ بِطَاعَةِ اللهِ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

دُسْتُورُ الإِنْسَانِيَّةِ الكَامِلُ يَجْمَعُ بَيْنَ حَقِّ الخَالِقِ المطْلَقِ في التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ، وَبَيْنَ حُقُوقِ الخَلْقِ في الإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالضُّعَفَاءِ وَطِيبِ الكَلَامِ مَعَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ إِذْ يَشْهَدُ هٰذَا المِيثَاقُ الغَلِيظُ أَنَّ التَّدَيُّنَ الصَّحِيحَ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الرَّحْمَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَجَمَالِ الخُلُقِ وَعَدَالَةِ الزَّكَاةِ، وَلٰكِنَّ آفَةَ الإِعْرَاضِ تَجْعَلُ الأَكْثَرِينَ يَنْقُضُونَ العَهْدَ وَلَا يَثْبُتُ عَلَيْهِ إِلَّا القَلِيلُ الصَّادِقُ، لِيَتَأَسَّسَ في الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ صَلَاحَ العِبَادَةِ مَرْهُونٌ بِصَلَاحِ المعَامَلَةِ، فَمَنْ وَفَّى بِمِيثَاقِ التَّوْحِيدِ وَالإِحْسَانِ كَانَ مِنَ القَلِيلِ النَّاجِينَ، وَمَنْ تَوَلَّى وَأَعْرَضَ خَسِرَ شَرَفَ الوَفَاءِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ الجَمَالِ وَغُرْبَةُ القَلِيلِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾

لَوْحَةُ الكَمَالِ الرَّبَّانِيِّ تَصِلُ مِحْرَابَ التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ بِجُسُورِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ وَاليَتَامَى وَطِيبِ القَوْلِ لِلْبَشَرِ كَافَّةً لِتَبْنِيَ مُجْتَمَعَ الرَّحْمَةِ وَالعَدْلِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيثَاقِ الشَّامِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّدَيُّنِ المَنْقُوصِ لِيُدْرِكَ أَنَّ عِبَادَةَ الخَالِقِ تَكْتَمِلُ بِالإِحْسَانِ إِلَى الخَلْقِ وَعُذُوبَةِ اللِّسَانِ، وَكَمْ غَفَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا التَّكَامُلِ عَنْ أَثَرِ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَجَبْرِ خَوَاطِرِ المسَاكِينِ وَظَنَنْتُ أَنَّ إِقَامَةَ الشَّعَائِرِ وَحْدَهَا تُغْنِي عَنْ رِقَّةِ المعَامَلَةِ، أَرَى الشَّجَرَةَ المبَارَكَةَ تَضْرِبُ جُذُورَهَا في أَرْضِ التَّوْحِيدِ وَتُظِلُّ بِأَغْصَانِهَا الوَارِفَةِ كُلَّ عَابِرٍ وَمُحْتَاجٍ بِالثَّمَرِ وَالطِّيبِ بَيْنَمَا يَنْصَرِفُ الغَافِلُونَ عَنْ هٰذَا المِيثَاقِ وَلَا يَثْبُتُ عَلَيْهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالإِحْسَانِ وَالقَوْلِ الحَسَنِ في عَقْدٍ وَاحِدٍ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الدِّينَ كُلٌّ لَا يَتَجَزَّأُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ في صَدْرِي إِلَى مَنْهَجِ حَيَاةٍ يُوَحِّدُ عِبَادَتِي وَخُلُقِي وَيَجْعَلُنِي مِنَ القَلِيلِ الصَّادِقِينَ، فَكُلُّ تَدَيُّنٍ يَخْلُو مِنَ الإِحْسَانِ وَحُسْنِ القَوْلِ جَسَدٌ بِلَا رُوحٍ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِوَفِيٍّ أَقَامَ مِيثَاقَ اللهِ بِالصِّدْقِ وَالجَمَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُرْمَةُ الدِّمَاءِ وَالأَوْطَانِ تَقُومُ عَلَى مِيثَاقٍ فِطْرِيٍّ وَشَرْعِيٍّ يَجْعَلُ أَبْنَاءَ الأُمَّةِ نَفْساً وَاحِدَةً يَحْرُمُ عَلَيْهَا أَنْ تَقْتُلَ نَفْسَهَا أَوْ تُشَرِّدَ أَهْلَهَا؛ إِذْ عَبَّرَ الوَحْيُ عَنْ قَتْلِ الأَخِ وَإِخْرَاجِهِ بِقَتْلِ النَّفْسِ وَإِخْرَاجِهَا لِيَغْرِسَ أَعْمَقَ مَعَانِي التَّكَافُلِ وَالوَحْدَةِ، بَعْدَ أَنْ أَقَرَّتِ العُقُولُ بِهٰذَا الحَقِّ وَشَهِدَتْ عَلَيْهِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ صِيَانَةَ الأَرْوَاحِ وَالاسْتِقْرَارَ فِي الدِّيَارِ هُمَا أَعْظَمُ مَقَاصِدِ الشَّرَائِعِ، فَمَنْ حَفِظَ الدِّمَاءَ وَالأَوْطَانَ وَفَّى بِمِيثَاقِ رَبِّهِ وَشَهَادَةِ عَقْلِهِ، وَمَنِ اسْتَبَاحَ القَتْلَ وَالتَّهْجِيرَ نَقَضَ أَقْدَسَ العُهُودِ.

الصَّدَى

قَدَاسَةُ الدَّمِ وَحُرْمَةُ الدِّيَارِ
صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

سِيَاجُ السَّلَامِ الإِلٰهِيِّ يَحْمِي حُرْمَةَ الدَّمِ المَعْصُومِ وَأَمْنَ البُيُوتِ الآمِنَةِ لِيَجْعَلَ مِنَ الأُمَّةِ جَسَداً وَاحِداً لَا يَطْعَنُ نَفْسَهُ وَلَا يَهْدِمُ مَأْوَاهُ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيثَاقِ المُقَدَّسِ يَرْتَعِدُ إِجْلَالاً لِحُرْمَةِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الاعتِدَاءَ عَلَى الآخَرِ هُوَ طَعْنَةٌ فِي صَدْرِي وَتَهْجِيرٌ لِذَاتِي، وَكَمْ غَفَلَتِ العُقُولُ القَاصِرَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الوَعْيِ عَنْ وَحْدَةِ المَصِيرِ الإِنْسَانِيِّ فَتَوَهَّمَتْ أَنَّ إِقْصَاءَ الأَخِ وَسَفْكَ دَمِهِ يَبْنِي مَجْداً أَوْ يُحَقِّقُ أَمْناً، أَرَى الجَسَدَ الحَيَّ إِذَا أَعْمَلَتْ فِيهِ اليَدُ اليُمْنَى سِكِّيناً تَقْطَعُ بِهَا اليَدَ اليُسْرَى نَزَفَ كُلُّهُ وَسَقَطَ صَرِيعاً كَمَا تَهْلِكُ الأُمَمُ حِينَ تَسْفِكُ دِمَاءَهَا وَتُخْرِجُ أَنْفُسَهَا مِنْ دِيَارِهَا بَعْدَ الإِقْرَارِ بِعَهْدِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ نَسَبَ الدِّمَاءَ وَالأَنْفُسَ إِلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ لِيُوقِظَ ضَمَائِرَهُمْ بِأَنَّ البَاغِيَ عَلَى أَخِيهِ إِنَّمَا يَقْتُلُ نَفْسَهُ وَيُخَرِّبُ بَيْتَهُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ سِلْمٍ وَأَمَانٍ يُحَرِّمُ عَلَيَّ الأَذَى وَالإِقْصَاءَ وَيَجْعَلُنِي حَارِساً لِلْحَيَاةِ، فَكُلُّ بِنَاءٍ يُشَيَّدُ عَلَى

الدِّمَاءِ وَالتَّشْرِيدِ خَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِوَفِيٍّ صَانَ حُرُمَاتِ اللهِ وَأَمَّنَ النَّاسَ فِي دِيَارِهِمْ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

فَضِيحَةُ التَّدَيُّنِ الِانْتِقَائِيِّ تَتَجَلَّى فِي أَقْبَحِ صُوَرِهَا حِينَ يُجَزِّئُ البَشَرُ شَرِيعَةَ اللهِ عَلَى مَقَاسِ أَهْوَائِهِمْ؛ فَيَقْتُلُونَ إِخْوَتَهُمْ وَيُشَرِّدُونَهُمْ بِالْعُدْوَانِ مُنْتَهِكِينَ أَصْلَ الحُرْمَةِ، ثُمَّ يَتَظَاهَرُونَ بِالتَّقْوَى حِينَ يَفْدُونَ الأَسْرَى مِنْهُمْ وَكَأَنَّهُمْ يُطِيعُونَ الوَحْيَ، فَيَسْتَنْكِرُ المِنْطِقُ القُرْآنِيُّ هٰذَا الفِصَامَ العَقْلِيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَيَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُقَرِّرُ جَزَاءَهُ الحَتْمِيَّ خِزْياً عَاجِلاً فِي الدُّنْيَا وَعَذَاباً شَدِيداً فِي الآخِرَةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الشَّرِيعَةَ مَنْظُومَةٌ مُتَكَامِلَةٌ لَا تَقْبَلُ التَّبْعِيضَ، فَمَنْ أَخَذَ الكِتَابَ كُلَّهُ بِصِدْقٍ نَالَ العِزَّ وَالنَّجَاةَ، وَمَنِ انْتَقَى مِنْهُ مَا يُوَافِقُ هَوَاهُ بَاءَ بِالخِزْيِ وَالعَذَابِ.

الصَّدَى

تَجْزِئَةُ الوَحْيِ وَفَضِيحَةُ الِانْتِقَاءِ

صَدَى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

مِقَصُّ الأَهْوَاءِ المَرِيضَةِ يُمَزِّقُ ثَوْبَ الشَّرِيعَةِ الوَاحِدَ لِيَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُوَافِقُ المَصْلَحَةَ وَيُظْهِرُ التَّدَيُّنَ بَيْنَمَا يَدُوسُ عَلَى أَعْظَمِ الحُرُمَاتِ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّنَاقُضِ الصَّارِخِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً

مِنْ دَاءِ التَّجْزِئَةِ الَّذِي يَجْعَلُ الإِنْسَانَ يَتَوَرَّعُ عَنِ الصَّغَائِرِ وَيَسْتَبِيحُ الكَبَائِرَ بِتَأْوِيلٍ فَاسِدٍ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ نُفُوسٍ تَشْتَرِي مَظْهَرَ الصَّلَاحِ بِفِعْلٍ جُزْئِيٍّ بَعْدَ أَنْ هَدَمَتْ أُصُولَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَظَنَّتْ أَنَّ ذٰلِكَ يَنْفَعُهَا عِنْدَ الرَّقِيبِ، أَرَى البَانِيَ الَّذِي يَهْدِمُ أَسَاسَ البَيْتِ وَجُدْرَانَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ يَجْتَهِدُ فِي تَزْيِينِ النَّافِذَةِ لِيُقْنِعَ النَّاسَ بِإِتْقَانِهِ فَيَنْهَارَ السَّقْفُ عَلَى رَأْسِهِ كَمَا يَنْهَارُ المُنْتَقُونَ لِلْكِتَابِ فِي خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ فَضَحَ عَبَثَ فِدَاءِ الأَسْرَى مَعَ تَحْرِيمِ إِخْرَاجِهِمْ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ تَرْكِيبَ الطَّاعَةِ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الظُّلْمِ هُوَ كُفْرٌ بِجَوْهَرِ الدِّينِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ شُمُولٍ يَمْنَعُنِي مِنَ الانْتِقَاءِ فِي شَرْعِ رَبِّي وَيُحَرِّرُنِي مِنَ النِّفَاقِ، فَكُلُّ تَدَيُّنٍ يَقُومُ عَلَى التَّبْعِيضِ خِزْيٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِكِتَابِ اللهِ كُلِّهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ الأَبَدِيِّ تَنْعَقِدُ فِي سُوقِ الغَفْلَةِ حِينَ يَبِيعُ الإِنْسَانُ نَعِيمَ الآخِرَةِ البَاقِيَ بِمَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ؛ إِذْ يُؤْثِرُ المَغْنَمَ العَاجِلَ وَالجَاهَ الفَانِيَ عَلَى رِضْوَانِ الخَالِقِ وَدَارِ القَرَارِ، فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ الحَتْمِيَّةُ عَذَاباً دَائِماً لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَانْقِطَاعاً تَامّاً عَنْ كُلِّ مُغِيثٍ وَنَصِيرٍ، لِيَتَقَرَّرَ فِي مِيزَانِ العَقْلِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ أَغْبَى التِّجَارَاتِ مَا بَاعَ فِيهِ المَرْءُ الخُلُودَ بِالفَنَاءِ، فَمَنْ آثَرَ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا رَبِحَ الدَّارَيْنِ وَفَازَ بِالأَمَانِ، وَمَنِ اشْتَرَى الدُّنْيَا بِدِينِهِ خَسِرَ نَفْسَهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ نَصِيراً.

الصَّدَى

تِجَارَةُ السَّرَابِ وَانْقِطَاعُ النَّصِيرِ

صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

مِيزَانُ السُّوقِ الخَاسِرَةِ يَكْشِفُ سَفَاهَةَ مَنْ دَفَعَ جَوْهَرَةَ الخُلُودِ ثَمَناً لِخَزَفِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ فَبَقِيَ بِلَا عَوْنٍ وَلَا تَخْفِيفٍ عِنْدَ سَاعَةِ الحِسَابِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ الصَّفْقَةِ المَغْبُونَةِ يُعِيدُ تَقْيِيمَ كُلِّ مَكَاسِبِ

الأَرْضِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَا تَسَاوِي ذَرَّةً مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ أَوْ نَعِيمِهَا، وَكَمْ أَغْرَتْنِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ بَرِيقُ المَنَافِعِ العَاجِلَةِ حَتَّى كِدْتُ أُسَاوِمُ عَلَى مَبَادِئِي لِأَنَالَ حَظّاً سَرِيعَ الزَّوَالِ، أَرَى التَّاجِرَ المَغْرُورَ يَبِيعُ قَصْرَهُ المَنِيعَ وَأَرْضَهُ الخِصْبَةَ بِقَبْضَةٍ مِنْ ثَلْجٍ تَذُوبُ فِي كَفِّهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى بَيْتِهِ فَيَبْقَى فِي العَرَاءِ بِلَا مَأْوَى كَمَا يَهْلِكُ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ بَعْدْلِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ سَمَّى إِيثَارَ الدُّنْيَا شِرَاءً لَهَا بِالآخِرَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُمَا ضَرَّتَانِ لَا تَجْتَمِعَانِ عِنْدَ التَّعَارُضِ فَمَنْ رَجَّحَ الفَانِيَ فَقَدْ بَاعَ البَاقِيَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بُوصَلَةِ تِجَارَةٍ رَابِحَةٍ تَجْعَلُنِي أَشْتَرِي الآخِرَةَ بِالدُّنْيَا وَلَا أَبِيعُ يَقِينِي بِسَرَابٍ، فَكُلُّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ يُشْتَرَى بِالدِّينِ نَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُصْرَةَ إِلَّا لِمَنْ آثَرَ رِضْوَانَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَوْكِبُ النُّبُوَّاتِ المُتَتَابِعُ يَكْشِفُ عَنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ الَّتِي تَتَعَهَّدُ البَشَرِيَّةَ بِالهِدَايَةِ وَالبَيِّنَاتِ، وَيَفْضَحُ فِي المُقَابِلِ عُقْدَةَ الكِبْرِ البَشَرِيِّ الَّذِي يَجْعَلُ الهَوَى حَكَماً عَلَى الوَحْيِ؛ إِذْ كُلَّمَا جَاءَ رَسُولٌ بِحَقٍّ يُخَالِفُ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ وَمَصَالِحَهَا قَابَلَهُ المُسْتَكْبِرُونَ بِالتَّكْذِيبِ أَوِ القَتْلِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مِعْيَارَ الحَقِّ هُوَ البُرْهَانُ الإِلٰهِيُّ لَا مَا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ، فَمَنْ أَخْضَعَ هَوَاهُ لِوَحْيِ السَّمَاءِ اهْتَدَى بِرَكْبِ الأَنْبِيَاءِ، وَمَنْ جَعَلَ هَوَاهُ إِلٰهاً اسْتَكْبَرَ عَلَى الحَقِّ وَبَاءَ بِالشَّقَاءِ.

الصَّدَى

مَوْكِبُ الرُّسُلِ وَصَنَمُ الهَوَى

صَدَى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

قَافِلَةُ المُرْسَلِينَ المُنِيرَةُ تَتَوَالَى عَبْرَ الزَّمَانِ بِالبَيِّنَاتِ السَّاطِعَةِ لِتُنْقِذَ الخَلْقَ فَتَصْطَدِمَ بِجِدَارِ الكِبْرِ كُلَّمَا خَالَفَ نُورُ الوَحْيِ مَا تَهْوَاهُ النُّفُوسُ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السُّؤَالِ الكَاشِفِ يُفَتِّشُ فِي خَبَايَاهُ عَنْ كُلِّ أَثَرٍ لِلْهَوَى يَجْعَلُنِي أَقْبَلُ مِنَ الحَقِّ مَا يُوَافِقُ طَبْعِي وَأَرُدُّ مَا يُخَالِفُ رَغْبَتِي، وَكَمْ نَفَرَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ بَعْضِ المَوَاعِظِ الصَّادِقَةِ لَا لِضَعْفِ دَلِيلِهَا بَلْ لِأَنَّهَا تَكْسِرُ شَهْوَتِي وَتُقَيِّدُ انْفِلَاتِي، أَرَى المَرِيضَ الجَاهِلَ يَرْفُضُ كُلَّ طَبِيبٍ حَاذِقٍ يَصِفُ لَهُ الدَّوَاءَ المُرَّ الَّذِي يَشْفِيهِ وَيُكَذِّبُهُ لِأَنَّهُ يَشْتَهِي السُّمَّ الحُلْوَ كَمَا اسْتَكْبَرَ الجَاحِدُونَ عَلَى رُسُلِ اللهِ كُلَّمَا جَاءُوهُمْ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ أَنَّ السَّبَبَ الحَقِيقِيَّ لِلتَّكْذِيبِ وَالعُدْوَانِ هُوَ مُخَالَفَةُ الحَقِّ لِلْهَوَى لَا غُمُوضُ البَيِّنَاتِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ تَجَرُّدٍ يَجْعَلُنِي أُخْضِعُ هَوَايَ لِأَمْرِ رَبِّي وَأُقَابِلُ الحَقَّ بِالتَّسْلِيمِ وَالإِجْلَالِ، فَكُلُّ كِبْرٍ يَقِيسُ الحَقَائِقَ بِمِقْيَاسِ الهَوَى ظُلْمَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِعَبْدٍ انْقَادَ لِوَحْيِ اللهِ وَرُسُلِهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُجَّةُ العَجْزِ المَوْهُومِ تَتَخِذُ مِنْ إِغْلَاقِ القُلُوبِ عُذْراً لِتَبْرِيرِ الإِعْرَاضِ عَنِ الهِدَايَةِ؛ إِذْ يَدَّعِي المُكَابِرُونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ مُمْتَلِئَةٌ بِالعِلْمِ أَوْ مُغَلَّفَةٌ لَا تَفْقَهُ الخِطَابَ، فَيَكْشِفُ الوَحْيُ أَنَّ هٰذَا الِانْسِدَادَ لَيْسَ خِلْقَةً جِبِلِّيَّةً بَلْ هُوَ طَرْدٌ وَحِرْمَانٌ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، لِيَتَأَكَّدَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الخَالِقَ فَطَرَ القُلُوبَ عَلَى قَبُولِ الحَقِّ، وَإِنَّمَا يَأْتِي الطَّبْعُ وَالحِرْمَانُ عُقُوبَةً عَلَى الإِصْرَارِ، فَمَنْ فَتَحَ قَلْبَهُ لِلْحَقِّ بِتَوَاضُعٍ أَفَاضَ اللهُ عَلَيْهِ نُورَ الفَهْمِ، وَمَنِ ادَّعَى الِاكْتِفَاءَ وَأَغْلَقَ فُؤَادَهُ حُرِمَ نِعْمَةَ الإِيمَانِ.

الصَّدَى

أَغْلِفَةُ الكِبْرِ وَحِرْمَانُ الطَّرْدِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

دَعْوَى القُلُوبِ المغَلَّفَةِ تَتَسَاقَطُ أَمَامَ عَدْلِ السَّمَاءِ الَّذِي يَكْشِفُ أَنَّ انْغِلَاقَ البَصِيرَةِ هُوَ ثَمَرَةُ الجُحُودِ وَالطَّرْدِ لَا عَيْبٌ فِي أَصْلِ الفِطْرَةِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الكَاشِفَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاكْتِفَاءِ المغْرُورِ لِيُدْرِكَ أَنَّ إِغْلَاقَ القَلْبِ أَمَامَ الموْعِظَةِ هُوَ بِدَايَةُ الحِرْمَانِ وَالبُعْدِ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَكَمْ تَعَلَّلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ بِعَدَمِ القُدْرَةِ عَلَى الفَهْمِ أَوِ الِاكْتِفَاءِ بِمَا عِنْدِي لِأُبَرِّرَ لِنَفْسِي عَدَمَ الإِصْغَاءِ لِلْحَقِّ الجَدِيدِ، أَرَى الإِنَاءَ المقْلُوبَ الَّذِي يَمْنَعُ وُصُولَ المطَرِ إِلَى جَوْفِهِ ثُمَّ يَشْكُو الجَفَافَ وَالعَطَشَ كَمَا ادَّعَى المعَانِدُونَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ غُلْفٌ فَحُرِمُوا نُورَ الإِيمَانِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَبْطَلَ عُذْرَهُمُ الموْهُومَ وَبَيَّنَ أَنَّ الحِرْمَانَ جَزَاءٌ عَادِلٌ عَلَى كُفْرِهِمْ لِيَقْطَعَ طَرِيقَ التَّبْرِيرِ عَلَى كُلِّ مُعْرِضٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَفَتُّحٍ وَتَوَاضُعٍ يَجْعَلُ قَلْبِي مِضْيَافاً لِكُلِّ حَقٍّ وَيَحْمِينِي مِنْ لَعْنَةِ الطَّرْدِ، فَكُلُّ قَلْبٍ يَتَحَصَّنُ بِالكِبْرِ ضِدَّ الوَحْيِ فَقْرٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ إِلَّا لِفُؤَادٍ مُنْشَرِحٍ أَقْبَلَ عَلَى نُورِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٨٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

الموْعِظَةُ

مُفَارَقَةُ العِلْمِ وَالعِنَادِ تَبْلُغُ ذُرْوَتَهَا حِينَ يَجْحَدُ العَالِمُ الحَقَّ الَّذِي كَانَ يَنْتَظِرُهُ وَيَسْتَنْصِرُ بِهِ قَبْلَ ظُهُورِهِ؛ إِذْ أَقْبَلَ الوَحْيُ الخَاتِمُ مُصَدِّقاً لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ البِشَارَاتِ، فَلَمَّا تَجَلَّى الحَقُّ وَعَرَفُوهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ دَفَعَهُمُ الحَسَدُ وَالكِبْرُ إِلَى الكُفْرِ بِهِ، فَنَالُوا الطَّرْدَ وَاللَّعْنَةَ جَزَاءَ جُحُودِهِمْ بَعْدَ المعْرِفَةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الخَطَرَ الأَكْبَرَ عَلَى الإِنْسَانِ لَيْسَ قِلَّةَ العِلْمِ بَلْ فَسَادُ النِّيَّةِ عِنْدَ ظُهُورِ الحَقِيقَةِ، فَمَنْ صَدَقَ فِي طَلَبِ الحَقِّ تَبِعَهُ حَيْثُ كَانَ، وَمَنْ أَسْلَمَ عِلْمَهُ لِلْحَسَدِ وَالهَوَى كَفَرَ بِمَا عَرَفَ وَخَسِرَ الدَّارَيْنِ.

الصَّدَى

بِشَارَةُ الِانْتِظَارِ وَجُحُودُ المعْرِفَةِ

صَدَى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

سُقُوطُ القِنَاعِ عِنْدَ سَاعَةِ التَّحَقُّقِ يَفْضَحُ النُّفُوسَ الَّتِي تَتَغَنَّى بِالحَقِّ مَا دَامَ فِكْرَةً فِي الخَيَالِ ثُمَّ تُحَارِبُهُ حِينَ يُشْرِقُ وَاقِعاً يَهْدِمُ امْتِيَازَاتِهَا، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الانْقِلَابِ المخِيفِ يَرْتَعِدُ خَوْفاً مِنْ دَاءِ الحَسَدِ وَالكِبْرِ الَّذِي يَجْعَلُ العَارِفَ يَكْفُرُ بِمَا عَرَفَهُ بِيَقِينٍ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أُنَاسٍ يَنْتَظِرُونَ الإِصْلَاحَ وَالحَقِيقَةَ فَإِذَا جَاءَتْ عَلَى غَيْرِ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ كَانُوا أَوَّلَ المحَارِبِينَ لَهَا، أَرَى الحَارِسَ الَّذِي يَنْتَظِرُ قُدُومَ المِلكِ طُولَ اللَّيْلِ وَيَتَبَاهَى بِاسْمِهِ فَإِذَا أَقْبَلَ المِلكُ وَعَرَفَهُ بِوَجْهِهِ أَغْلَقَ البَابَ فِي وَجْهِهِ حَسَداً وَكِبْراً فَيَسْتَحِقَّ الطَّرْدَ كَمَا كَفَرَ أُولٰئِكَ بِمَا عَرَفُوا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ بَيَّنَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ المعْرِفَةِ لِيَكْشِفَ أَنَّ الجُحُودَ لَمْ يَكُنْ شُبْهَةً عَقْلِيَّةً بَلْ مَرَضاً أَخْلَاقِيّاً نَابِعاً مِنَ الحَسَدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ إِخْلَاصٍ يَجْعَلُنِي أَتْبَعُ الحَقَّ مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهُ وَأُطَهِّرُ قَلْبِي مِنَ الحَسَدِ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَقُودُ إِلَى الكِبْرِ وَالجُحُودِ لَعْنَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِصَادِقٍ آمنَ بِمَا عَرَفَ وَانْقَادَ لِأَمْرِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ٩٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

المؤْعِظَةُ

نَارُ الحَسَدِ وَالبَغْيِ تَأْكُلُ صَاحِبَهَا حِينَ يَعْتَرِضُ عَلَى تَقْسِيمِ الفَضْلِ الإِلٰهِيِّ وَيَكْفُرُ بِالوَحْيِ لِمُجَرَّدِ أَنَّ النُّبُوَّةَ أَشْرَقَتْ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ؛ إِذْ يَبِيعُ الحَاسِدُ نَفْسَهُ بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ حِينَ يَجْعَلُ سَخَطَهُ عَلَى عَطَاءِ الخَالِقِ لِعِبَادِهِ سَبَباً لِلْكُفْرِ، فَيَرْجِعُ مُثْقَلاً بِغَضَبٍ مُضَاعَفٍ وَعَذَابٍ مُهِينٍ يَكْسِرُ كِبْرِيَاءَهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ المطْلَقَةِ، فَمَنْ رَضِيَ

بِقِسْمَةِ رَبِّهِ وَفَرِحَ بِفَضْلِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ طَابَتْ نَفْسُهُ وَنَالَ الكَرَامَةَ، وَمَنِ اعْتَرَضَ بَغْياً وَحَسَداً أَهْلَكَ نَفْسَهُ وَبَاءَ بِالغَضَبِ وَالهَوَانِ.

الصَّدَى

نَارُ البَغْيِ وَصَفْقَةُ الهَوَانِ

صَدَى ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

جَمْرَةُ الحَسَدِ المُشْتَعِلَةُ فِي الصُّدُورِ الضَّيِّقَةِ تَدْفَعُ الإِنْسَانَ إِلَى مُحَارَبَةِ نُورِ السَّمَاءِ لِمُجَرَّدِ أَنَّ الفَضْلَ نَزَلَ عَلَى غَيْرِهِ فَيَشْتَرِي الهَلَاكَ بِنَفْسِهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السُّقُوطِ المُهِينِ يَتَطَهَّرُ مِنْ كُلِّ ذَرَّةِ حَسَدٍ أَوِ اعْتِرَاضٍ عَلَى تَوْزِيعِ العَطَايَا الإِلٰهِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ فَضْلَ اللهِ وَاسِعٌ لَا يَحْجُرُهُ مَخْلُوقٌ، وَكَمْ ضَاقَ صَدْرِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ حِينَ كُنْتُ أَقِيسُ عَطَاءَ اللهِ لِلنَّاسِ بِمِيزَانِ المُقَارَنَةِ البَشَرِيَّةِ فَأَنْسَى أَنَّ الخَزَائِنَ بِيَدِ الحَكِيمِ العَلِيمِ، أَرَى الحَاسِدَ الأَعْمَى الَّذِي يُغْلِقُ نَوَافِذَ بَيْتِهِ وَيَخْتَنِقُ فِي الظَّلَامِ غَيْظاً مِنْ أَنَّ الشَّمْسَ أَشْرَقَتْ عَلَى بَيْتِ جَارِهِ فَيَهْلِكُ بِغَيْظِهِ كَمَا بَاءَ الجَاحِدُونَ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ العَذَابَ المُهِينَ جَزَاءً لِكِبْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ لِيُذِلَّ كُلَّ نَفْسٍ تَتَطَاوَلُ عَلَى إِرَادَةِ السَّمَاءِ وَتُحَاسِبُ الخَالِقَ عَلَى فَضْلِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ رِضاً وَسَلَامَةٍ يُحِبُّ الخَيْرَ لِكُلِّ عِبَادِ اللهِ وَيُسَلِّمُ لِحِكْمَةِ الوَهَّابِ، فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى قِسْمَةِ الخَالِقِ بَغْيٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ سَلِيمٍ رَضِيَ بِفَضْلِ اللهِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٠١–١١٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَرِيمَةُ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الوَحْيِ تَبْلُغُ ذُرْوَتَهَا حِينَ يَطْرَحُ أَهْلُ العِلْمِ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ بِاسْتِهَانَةٍ وَتَجَاهُلٍ، لِمُجَرَّدِ أَنَّ الرَّسُولَ المصَدِّقَ لِمَا مَعَهُمْ جَاءَ عَلَى خِلَافِ مَطَامِعِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؛ إِذْ يَتَظَاهَرُونَ بِالجَهْلِ وَالغَفْلَةِ عَنْ حَقَائِقَ يَعْرِفُونَهَا يَقِيناً، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ هَجْرَ النُّصُوصِ القَاطِعَةِ تَهَرُّباً مِنَ اسْتِحْقَاقَاتِهَا هُوَ خِيَانَةٌ لِلْعِلْمِ وَالعَقْلِ، فَمَنْ عَظَّمَ كِتَابَ رَبِّهِ وَتَبِعَ بُرْهَانَهُ اهْتَدَى وَفَازَ، وَمَنْ أَلْقَى الوَحْيَ خَلْفَ ظَهْرِهِ تَظَاهُراً بِالجَهْلِ خَسِرَ نُورَ البَصِيرَةِ.

الصَّدَى

إِعْرَاضُ العَارِفِينَ وَتَجَاهُلُ البُرْهَانِ

صَدَى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أَسْتَارُ التَّجَاهُلِ المصْطَنَعِ تُسْدَلُ عَلَى العُقُولِ المرِيضَةِ حِينَ تَرْمِي كِتَابَ اللهِ خَلْفَ ظُهُورِهَا لِتَتَهَرَّبَ مِنْ نُورِ الحَقِيقَةِ الَّتِي تُصَدِّقُ مَا فِي أَيْدِيهَا، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الهَجْرِ المتَعَمَّدِ يَسْتَجِيرُ بِخَالِقِهِ مِنْ قَسْوَةِ الإِعْرَاضِ الَّذِي يَجْعَلُ العَالِمَ يَتَصَرَّفُ كَالجَاهِلِ الأَعْمَى، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ نُفُوسٍ تَطْوِي صَفَحَاتِ النُّصْحِ وَتَدِيرُ ظَهْرَهَا لِلدَّلِيلِ الصَّرِيحِ لِأَنَّ الِاعْتِرَافَ بِهِ يُلْزِمُهَا بِتَغْيِيرِ مَسَارِهَا، أَرَى السَّائِرَ فِي الظَّلَامِ الَّذِي يَحْمِلُ مِصْبَاحاً مُنِيراً ثُمَّ يُلْقِيهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ عَمْداً لِئَلَّا يَرَى عُيُوبَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ كَمَا نَبَذَ أُولٰئِكَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ إِعْرَاضَهُمْ بِالنَّبْذِ خَلْفَ الظَّهْرِ لِيُجَسِّدَ قُبْحَ الِاسْتِهَانَةِ بِالوَحْيِ وَتَعَمُّدَ الهُرُوبِ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ العِلْمِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَوْقِيرٍ يَجْعَلُنِي أَضَعُ كِتَابَ رَبِّي أَمَامَ عَيْنَيَّ قَائِداً وَإِمَاماً لَا مَتَاعاً مَهْجُوراً، فَكُلُّ عِلْمٍ يُلْقَى خَلْفَ الظَّهْرِ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِبَصِيرٍ أَقْبَلَ عَلَى وَحْيِ اللهِ وَاتَّبَعَ نُورَهُ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خُرَافَةُ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ تَنْتَشِرُ حِينَ تَهْجُرُ العُقُولُ مِشْكَاةَ الوَحْيِ وَتَلْهَثُ خَلْفَ أَوْهَامِ الشَّيَاطِينِ؛ إِذْ يُبَرِّئُ القُرْآنُ سَاحَةَ النُّبُوَّةِ مِنْ دَنَسِ الكُفْرِ، وَيَكْشِفُ أَنَّ السِّحْرَ فِتْنَةٌ وَابْتِلَاءٌ لَا يَمْلِكُ تَأْثِيراً مُسْتَقِلّاً فِي الكَوْنِ إِلَّا بِإِذْنِ الخَالِقِ وَمَشِيئَتِهِ، وَأَنَّهُ عِلْمٌ خَبِيثٌ يَهْدِمُ الأُسَرَ وَيُفَرِّقُ الأَحِبَّةَ وَيُورِثُ صَاحِبَهُ الضَّرَرَ فِي الدُّنْيَا وَالحِرْمَانَ الأَبَدِيَّ فِي الآخِرَةِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنْ رُعْبِ السَّحَرَةِ وَخُرَافَاتِ الدَّجَّالِينَ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَاعْتَصَمَ بِوَحْيِهِ كُفِيَ شَرَّ الوَسَاوِسِ وَالأَوْهَامِ، وَمَنِ اسْتَبْدَلَ السِّحْرَ بِالعِلْمِ النَّافِعِ بَاعَ آخِرَتَهُ بِسَرَابٍ يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ.

الصَّدَى

سَرَابُ السِّحْرِ وَسُلْطَانُ الإِذْنِ

صَدَى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

خُيُوطُ الشَّعْوَذَةِ المَنْسُوجَةُ فِي دَيَاجِيرِ الشَّيَاطِينِ تَنْقَطِعُ عِنْدَ عَتَبَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي تُقَرِّرُ أَنَّ الضَّرَّ وَالنَّفْعَ بِيَدِ الخَالِقِ وَحْدَهُ لَا بِأَوْهَامِ السَّحَرَةِ وَالمَشْعُوذِينَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْرِيرِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الخَوْفِ مِنَ الخُرَافَاتِ الخَفِيَّةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ يَتَعَلَّمُ السِّحْرَ إِنَّمَا يَشْتَرِي سُمّاً يَقْتُلُ بِهِ آخِرَتَهُ وَيُفَرِّقُ بِهِ شَمْلَ الحَيَاةِ، وَكَمْ أَرْهَقَتِ الأَوْهَامُ نُفُوساً ضَعِيفَةً قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ فَتَوَهَّمْتُ أَنَّ لِلْمَشْعُوذِينَ قُدْرَةً تَخْرِقُ نَوَامِيسَ اللهِ وَتَغْلِبُ تَدْبِيرَهُ، أَرَى الخَفَّاشَ المِذْعُورَ يَخَافُ مِنْ ظِلِّهِ المُمْتَدِّ عَلَى الجِدَارِ فَيَظُنُّهُ وَحْشاً يَفْتَرِسُهُ بَيْنَمَا هُوَ وَهْمٌ يَتَلَاشَى عِنْدَ أَوَّلِ شُعَاعٍ كَمَا تَتَبَدَّدُ حِيَلُ السَّحَرَةِ أَمَامَ قَوْلِهِ تَعَالَى وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ قِصَّةَ

بَابِلَ وَالمَلَكَيْنِ دَرْساً يُفَرِّقُ بَيْنَ العِلْمِ الَّذِي يُعَمِّرُ وَيَجْمَعُ وَبَيْنَ الدَّجَلِ الَّذِي يَهْدِمُ وَيُفَرِّقُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ أَمَانٍ تَحْمِي عَقْلِي مِنَ الخُرَافَةِ وَتَرْبِطُ تَوَكُّلِي بِإِذْنِ اللهِ وَحْدَهُ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَقُومُ عَلَى الإِضْرَارِ وَالتَّفْرِيقِ خُسْرَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَصِيبَ فِي الآخِرَةِ إِلَّا لِمُؤْمِنٍ اعْتَصَمَ بِوَحْيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ المُقَارَنَةِ العَادِلُ يَكْشِفُ عَنْ سَعَةِ الخَيْرِ المُدَّخَرِ عِنْدَ الخَالِقِ لِمَنْ آثَرَ الإِيمَانَ وَالتَّقْوَى عَلَى مَكَاسِبِ السِّحْرِ وَالهَوَى؛ إِذْ يُقَابِلُ الوَحْيُ بَيْنَ الثَّمَنِ البَخْسِ الَّذِي يَجْنِيهِ المُنْحَرِفُونَ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ المَثُوبَةِ العُظْمَى الَّتِي تَفُوقُ كُلَّ تَصَوُّرٍ فِي الآخِرَةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ القَاصِرَةُ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى التَّقْوَى نَالَ الثَّوَابَ الأَعْظَمَ وَالعَاقِبَةَ الحَمِيدَةَ، وَمَنْ جَهِلَ قَدْرَ مَا عِنْدَ رَبِّهِ بَاعَ الكَنْزَ البَاقِيَ بِالتُّرَابِ الفَانِي.

الصَّدَى

خَزَائِنُ المَثُوبَةِ وَعَمَى الجَاهِلِينَ
صَدَى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

نَسِيمُ البِشَارَةِ الرَّحِيمَةِ يَهُبُّ عَلَى أَرْضِ الحَسْرَةِ لِيُعْلِنَ أَنَّ بَابَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى مَفْتُوحٌ لِمَنْ أَرَادَ الثَّوَابَ الأَعْظَمَ وَالخَيْرَ البَاقِيَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ المُقَارَنَةِ الرَّقِيقَةِ يَزْدَادُ يَقِيناً بِأَنَّ كُلَّ مَا أَتْرُكُهُ مِنَ البَاطِلِ خَوْفاً مِنَ اللهِ يُعَوِّضُنِي عَنْهُ بِمَثُوبَةٍ لَا تَنْفَدُ، وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَمَامَ إِغْرَاءِ المَكَاسِبِ السَّرِيعَةِ الَّتِي تَلُوحُ فِي الأُفُقِ دُونَ أَنْ أَزِنَهَا بِمِيزَانِ مَا عِنْدَ الخَالِقِ مِنَ العَطَاءِ، أَرَى الغَوَّاصَ الحَكِيمَ يَتْرُكُ الحَصَى المُلَوَّنَ عَلَى الشَّاطِئِ لِيَغُوصَ فِي الأَعْمَاقِ فَيَظْفَرَ بِاللُّؤْلُؤِ النَّفِيسِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ الأَثْمَانِ كَمَا يَظْفَرُ أَهْلُ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى بِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هِيَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَكَّدَ جَزَاءَ المُتَّقِينَ بِاللَّامِ وَالنُّونِ لِيُوقِظَ العُقُولَ الغَافِلَةَ إِلَى أَنَّ الخَيْرَ

الحَقِيقِيَّ مَحْفُوظٌ فِي خَزَائِنِ السَّمَاءِ لَا فِي حِيَلِ الأَرْضِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى زَادِ صَبْرٍ وَيَقِينٍ يُهَوِّنُ عَلَيَّ تَرْكَ الشُّبُهَاتِ طَمَعاً فِي مَثُوبَةِ رَبِّي، فَكُلُّ مَكْسَبٍ يُنَالُ بِالمَعْصِيَةِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا خَيْرَ إِلَّا فِي مَثُوبَةِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سَدُّ ذَرَائِعِ التَّلْبِيسِ يَقْتَضِي أَنْ يَنْتَقِيَ المُؤْمِنُ أَلْفَاظَهُ بِعِنَايَةٍ وَأَدَبٍ حَتَّى لَا يَتَّخِذَ المُتَرَبِّصُونَ مِنَ الكَلِمَاتِ المُشْتَبِهَةِ مَطِيَّةً لِلسُّخْرِيَةِ وَالإِسَاءَةِ؛ إِذْ نَهَى الشَّرْعُ عَنْ لَفْظَةٍ تَحْتَمِلُ مَعْنًى قَبِيحاً فِي لُغَةِ الخُصُومِ وَأَرْشَدَ إِلَى كَلِمَةٍ صَافِيَةٍ تَحْفَظُ مَقَامَ النُّبُوَّةِ وَتَقْطَعُ أَلْسِنَةَ المُسْتَهْزِئِينَ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الفِقْهِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ وَعْيَ المُؤْمِنِ يَشْمَلُ حُسْنَ التَّعْبِيرِ وَإِغْلَاقَ ثَغَرَاتِ الفِتْنَةِ، فَمَنْ هَذَّبَ لِسَانَهُ وَأَحْسَنَ الإِصْغَاءَ صَانَ دِينَهُ وَوَقَارَ نَبِيِّهِ، وَمَنِ اتَّخَذَ الأَلْفَاظَ ذَرِيعَةً لِلِاسْتِهْزَاءِ اسْتَحَقَّ العَذَابَ الأَلِيمَ.

الصَّدَى

طَهَارَةُ اللَّفْظِ وَسَدُّ الثَّغَرَاتِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

مِصْفَاةُ الأَدَبِ القُرْآنِيِّ تُنَقِّي أَلْسِنَةَ المُؤْمِنِينَ مِنَ الأَلْفَاظِ المُشْتَبِهَةِ لِتُغْلِقَ أَبْوَابَ السُّخْرِيَةِ أَمَامَ المُتَرَبِّصِينَ وَتَصُونَ مَقَامَ الرِّسَالَةِ بِالْوَقَارِ وَالإِصْغَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّهْذِيبِ الدَّقِيقِ يَتَعَلَّمُ أَنَّ الكَلِمَةَ أَمَانَةٌ يَجِبُ أَنْ تُوزَنَ بِمِيزَانِ الصَّفَاءِ وَالحِكْمَةِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الشِّفَاهِ، وَكَمْ أَطْلَقْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأَدَبِ عِبَارَاتٍ تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ الفَاسِدَ دُونَ أَنْ أَنْتَبِهَ إِلَى كَيْفَ يَسْتَغِلُّهَا أَهْلُ السُّوءِ لِلْإِسَاءَةِ إِلَى الحَقِّ، أَرَى الحَارِسَ اليَقِظَ يَسُدُّ الثَّغْرَةَ الصَّغِيرَةَ فِي سُورِ المَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَسَلَّلَ مِنْهَا الأَعْدَاءُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ كَمَا أَرْشَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ إِلَى اسْتِبْدَالِ كَلِمَةِ انْظُرْنَا بِكَلِمَةِ رَاعِنَا لِقَطْعِ طَرِيقِ المُسْتَهْزِئِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ بَيْنَ اخْتِيَارِ اللَّفْظِ النَّقِيِّ وَحُسْنِ السَّمَاعِ لِيُؤَسِّسَ لِثَقَافَةِ الانْضِبَاطِ اللُّغَوِيِّ وَالأَخْلَاقِيِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ بَيَانٍ يَجْعَلُنِي

أَنْتَقِي أَجْمَلَ الأَلْفَاظِ وَأَبْعَدَهَا عَنِ الشُّبُهَاتِ، فَكُلُّ لَفْظٍ يَفْتَحُ بَاباً لِلِاسْتِهْزَاءِ ثَغْرَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا وَقَارَ إِلَّا لِصَادِقٍ هَذَّبَ لِسَانَهُ وَسَمِعَ أَمْرَ اللهِ الكَبِيرِ المَتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

حَقِيقَةُ الحَسَدِ العَقَدِيِّ تَكْشِفُ أَنَّ أَعْدَاءَ الوَحْيِ يَضِيقُونَ ذَرْعاً بِأَيِّ خَيْرٍ يَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أُمَّةِ الإِيمَانِ؛ وَلٰكِنَّ إِرَادَةَ الخَالِقِ المُطْلَقَةَ تَتَجَاوَزُ أَمَانِيَّ الحَاسِدِينَ لِتَخْتَصَّ بِرَحْمَتِهَا وَنُبُوَّتِهَا مَنْ تَشَاءُ بِحِكْمَتِهَا وَفَضْلِهَا العَظِيمِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المُؤْمِنُ مِنْ وَهْمِ انْتِظَارِ الرِّضَا مِنَ المُعَانِدِينَ، وَيَطْمَئِنَّ إِلَى أَنَّ خَزَائِنَ الفَضْلِ بِيَدِ اللهِ لَا تَمْنَعُهَا أَحْقَادُ البَشَرِ، فَمَنْ تَعَلَّقَ بِفَضْلِ رَبِّهِ وَرَحْمَتِهِ نَالَ الكَرَامَةَ وَالعَطَاءَ، وَمَنِ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالحَسَدِ عَلَى خَيْرِ السَّمَاءِ احْتَرَقَ بِغَيْظِهِ وَلَمْ يَرُدَّ قَضَاءَ اللهِ.

الصَّدَى

غَيْظُ الحَاسِدِينَ وَسَعَةُ الفَضْلِ
صَدَى ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أَمَانِيُّ الحَاقِدِينَ المَسْمُومَةُ تَتَكَسَّرُ عَلَى صَخْرَةِ المَشِيئَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهَا وَفَضْلِهَا العَظِيمِ مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِهَا رَغْمَ كَرَاهِيَةِ المُعَانِدِينَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الكَشْفِ البَصِيرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ السَّذَاجَةِ وَالِانْخِدَاعِ بِبَرِيقِ المُجَامَلَاتِ لِيُدْرِكَ أَنَّ عَطَاءَ السَّمَاءِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى رِضَا الحَاسِدِينَ، وَكَمْ حَزِنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ نُفُوسٍ تَتَمَنَّى زَوَالَ الخَيْرِ وَالنُّورِ عَنْ أَهْلِ الإِيمَانِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ فَضْلَ اللهِ أَوْسَعُ مِنْ ضِيقِ صُدُورِهِمْ، أَرَى السَّحَابَةَ الغَزِيرَةَ تَسْكُبُ مَاءَهَا العَذْبَ عَلَى الوَادِي الخَصِيبِ فَتُحْيِيهِ بَيْنَمَا يَشْتَعِلُ الغَيْظُ فِي صُدُورِ الحَاسِدِينَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ حَبْسَ قَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ كَمَا يَخْتَصُّ اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ

بَوَاطِنَ المَعَانِدِينَ لِيُحَصِّنَ وَعْيَ المؤْمِنِينَ وَيُذَكِّرَهُمْ أَنَّ مَصْدَرَ الخَيْرِ كُلِّهِ هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ رَاسِخَةٍ بِأَنَّ مَا يَخْتَصُّنِي اللهُ بِهِ مِنْ رَحْمَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ مَخْلُوقٌ مَنْعَهُ عَنِّي، فَكُلُّ حَسَدٍ يَعْتَرِضُ عَلَى عَطَاءِ السَّمَاءِ دُخَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَضْلَ إِلَّا مَا أَفَاضَهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المؤْعِظَةُ

حِكْمَةُ التَّدَرُّجِ التَّشْرِيعِيِّ تَكْشِفُ عَنْ كَمَالِ الرِّعَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تُرَبِّي الأُمَمَ وِفْقَ مَصَالِحِهَا المتَجَدِّدَةِ وَطَاقَاتِهَا المتَنَامِيَةِ؛ إِذْ لَا يَرْفَعُ الشَّارِعُ حُكْماً أَوْ يَمْحُوهُ مِنَ الصُّدُورِ إِلَّا لِيُعَوِّضَ العِبَادَ بِمَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ أَوْ مُمَاثِلٌ لَهُ فِي الأَجْرِ وَالتَّيْسِيرِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ النَّسْخَ فِي الشَّرَائِعِ لَيْسَ تَرَاجُعاً عَنْ خَطَأٍ حَاشَا لِلَّهِ، بَلْ هُوَ كَالدَّوَاءِ الَّذِي يُبَدِّلُهُ الطَّبِيبُ الحَكِيمُ بِحَسَبِ تَطَوُّرِ حَالِ المرِيضِ، فَمَنْ سَلَّمَ لِقُدْرَةِ الخَالِقِ وَحِكْمَتِهِ أَبْصَرَ اللُّطْفَ فِي كُلِّ تَشْرِيعٍ، وَمَنِ اعْتَرَضَ بِشُبْهَةِ النَّسْخِ جَهِلَ قُدْرَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ بِالعِبَادِ.

الصَّدَى

تَدَرُّجُ التَّشْرِيعِ وَعِوَضُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

مِيزَانُ الحِكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ يَقُودُ مَسِيرَةَ الوَحْيِ بِرِفْقٍ وَإِتْقَانٍ فَلَا يَطْوِي حُكْماً إِلَّا لِيَفْتَحَ باباً أَوْسَعَ وَأَنْفَعَ لِخَلْقِهِ بِقُدْرَةٍ لَا يَعْجِزُهَا شَيْءٌ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا القَانُونِ الرَّحِيمِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الجُمُودِ وَالِارْتِيَابِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ تَبْدِيلٍ يَصْدُرُ عَنِ السَّمَاءِ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ خَيْراً أَعْظَمَ وَتَيْسِيراً أَتَمَّ، وَكَمْ تَحَيَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ أَمَامَ تَحَوُّلِ الأَحْوَالِ وَتَبَدُّلِ المرَاحِلِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ الخَالِقَ لَا يَأْخُذُ شَيْئاً إِلَّا لِيُعْطِيَ مَا هُوَ أَجْمَلُ وَأَنْفَعُ، أَرَى المزَارِعَ الخَبِيرَ يَسْقِي النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ بِقَطَرَاتٍ خَفِيفَةٍ فِي البِدَايَةِ

ثُمَّ يُبَدِّلُ الرَّيَّ بِجَدَاوِلَ غَزِيرَةٍ حِينَ يَشْتَدُّ عُودُهَا وَتَكْبُرُ جُذُورُهَا كَمَا يُدَبِّرُ اللهُ شَرَائِعَهُ لِلْعِبَادِ فَيَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا بِقُدْرَتِهِ المطْلَقَةِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ قَانُونَ النَّسْخِ بِالتَّذْكِيرِ بِقُدْرَتِهِ الشَّامِلَةِ لِيَطْمَئِنَّ القَلْبُ أَنَّ التَّشْرِيعَ وَالتَّقْدِيرَ يَصْدُرَانِ عَنْ قَادِرٍ رَحِيمٍ لَا يُرِيدُ لِخَلْقِهِ إِلَّا الفَلَاحَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ عَمِيقَةٍ بِأَنَّ كُلَّ مَا يُنْسَخُ مِنْ حَيَاتِي بِأَمْرِ رَبِّي سَيُعَوِّضُنِي عَنْهُ بِخَيْرٍ مِنْهُ، فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى تَدْبِيرِ الخَالِقِ جَهْلٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَمَالَ إِلَّا لِحِكْمَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

المَوْعِظَةُ

قَبْضَةُ المُلْكِ المطْلَقِ تُحِيطُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِتُعْلِنَ أَنَّ التَّصَرُّفَ فِي الكَوْنِ وَالتَّشْرِيعِ حَقٌّ خَالِصٌ لِلْمَالِكِ الحَقِيقِيِّ وَحْدَهُ؛ إِذْ لَا يَمْلِكُ الخَلْقُ مَلْجَأً يَتَوَلَّاهُمْ بِالرِّعَايَةِ أَوْ نَصِيراً يَدْفَعُ عَنْهُمُ السُّوءَ مِنْ دُونِ خَالِقِهِمْ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ وَهْمِ الاعْتِمَادِ عَلَى الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ أَوِ الِاحْتِمَاءِ بِقُوَى الأَرْضِ الزَّائِلَةِ، فَمَنْ أَسْلَمَ قِيَادَهُ لِمَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ظَفِرَ بِالوَلَايَةِ الحَقَّةِ وَالنُّصْرَةِ الدَّائِمَةِ، وَمَنِ ابْتَغَى وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ انْقَطَعَ بِهِ السَّبَبُ وَخُذِلَ فِي المآلِ.

الصَّدَى

صَوْلَجَانُ المُلْكِ وَعُزْلَةُ المخْلُوقِينَ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

سُلْطَانُ المُلْكِ الأَبَدِيِّ يَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ عَلَى السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِينَ لِيُسْقِطَ كُلَّ دَعَاوَى التَّمَلُّكِ البَشَرِيِّ وَيُثْبِتَ أَنَّ الإِنْسَانَ عَارٍ عَنْ كُلِّ وَلِيٍّ أَوْ نَصِيرٍ سِوَى خَالِقِهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الكَوْنِيَّةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِارْتِهَانِ لِوُجُوهِ الخَلْقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَفَاتِيحَ الأَمَانِ وَالنُّصْرَةِ بِيَدِ مَالِكِ الكَوْنِ وَحْدَهُ، وَكَمْ تَعَلَّقَتْ آمَالِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا اليَقِينِ بِأَبْوَابِ البَشَرِ وَوُعُودِهِمُ الفَانِيَةِ فَكُنْتُ كَمَنْ يَبْنِي بَيْتَهُ عَلَى مَوْجِ البَحْرِ المتَقَلِّبِ، أَرَى القَطْرَةَ التَّائِهَةَ فِي الفَضَاءِ لَا مَلْجَأَ لَهَا وَلَا قَرَارَ إِلَّا

حِينَ تَعُودُ إِلَى البَحْرِ الكَبِيرِ الَّذِي يَحْتَضِنُهَا كَمَا لَا وَلِيَّ وَلَا نَصِيرَ لِلْخَلْقِ إِلَّا اللهُ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ تَفَرُّدَهُ بِالمُلْكِ بِنَفْيِ أَيِّ وَلِيٍّ أَوْ نَصِيرٍ سِوَاهُ لِيَقْطَعَ أَطْمَاعَ القُلُوبِ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالأَغْيَارِ وَيَجْمَعَهَا عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حِصْنِ تَوْحِيدٍ يُغْنِينِي عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ وَيُثَبِّتُ تَوَكُّلِي عَلَى مَالِكِ المُلْكِ، فَكُلُّ سُلْطَانٍ فِي الأَرْضِ ظِلٌّ عَابِرٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُصْرَةَ إِلَّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

المَوْعِظَةُ

حِمَايَةُ المَنْهَجِ الرُّشْدِيِّ تَقْتَضِي الكَفَّ عَنِ الأَسْئِلَةِ التَّعَنُّتِيَّةِ وَالِاقْتِرَاحَاتِ الفُضُولِيَّةِ الَّتِي أَهْلَكَتِ الأُمَمَ السَّابِقَةَ وَأَوْقَعَتْهَا فِي التَّشْدِيدِ وَالعِنَادِ؛ إِذْ يُحَذِّرُ الوَحْيُ أَهْلَ الإِيمَانِ مِنْ تَكْرَارِ تَجْرِبَةِ قَوْمِ مُوسَى الَّذِينَ أَرْهَقُوا نَبِيَّهُمْ بِكَثْرَةِ الجَدَلِ حَتَّى انْزَلَقُوا مِنْ نُورِ الإِيمَانِ إِلَى ظُلْمَةِ الكُفْرِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الفِقْهِيِّ أَنَّ التَّسْلِيمَ لِسَعَةِ الشَّرِيعَةِ وَتَرْكَ التَّنْقِيبِ المُتَكَلَّفِ هُوَ صِمَامُ الأَمَانِ، فَمَنْ رَضِيَ بِبَيَانِ الرَّسُولِ وَسَمَاحَةِ الدِّينِ اسْتَقَامَ عَلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَمَنْ تَعَنَّتَ وَتَبَدَّلَ الشَّكَّ بِاليَقِينِ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَخَسِرَ الهِدَايَةَ.

الصَّدَى

فَخُّ التَّعَنُّتِ وَانْحِرَافُ السَّبِيلِ
صَدَى ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

سِهَامُ التَّسَاؤُلَاتِ العَبَثِيَّةِ تُصِيبُ قَلْبَ السَّائِلِ قَبْلَ غَيْرِهِ حِينَ تَتَحَوَّلُ الرَّغْبَةُ فِي المَعْرِفَةِ إِلَى تَعَنُّتٍ يُحَاكِي لَجَاجَ الأُمَمِ الغَابِرَةِ وَيُفْضِي إِلَى اسْتِبْدَالِ الكُفْرِ بِالإِيمَانِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْذِيرِ النَّبَوِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الفُضُولِ المُتَكَلَّفِ لِيُدْرِكَ أَنَّ السُّؤَالَ النَّافِعَ هُوَ مَا يَقُودُ إِلَى العَمَلِ لَا مَا يَفْتَحُ أَبْوَابَ

الجَدَلِ وَالتَّعْقِيدِ، وَكَمْ أَشْغَلْتُ فِكْرِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ بِمَسَائِلَ افْتِرَاضِيَّةٍ تَزِيدُ القَلْبَ قَلَقاً وَلَا تَبْنِي فِي الوَاقِعِ خَيْراً وَلَا طَاعَةً، أَرَى السَّائِرَ عَلَى الجِسْرِ الآمِنِ الَّذِي يَتْرُكُ مَمَرَّهُ الوَاضِحَ لِيَبْحَثَ عَنْ مَسَالِكَ وَعْرَةٍ تَحْتَ الجِسْرِ فَيَزِلَّ وَيَسْقُطَ فِي الهَاوِيَةِ كَمَا يَضِلُّ سَوَاءَ السَّبِيلِ مَنْ يَتَبَدَّلُ الكُفْرَ بِالإِيمَانِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ بَيْنَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ التَّعَنُّتِيِّ وَبَيْنَ الانْحِرَافِ عَنِ الإِيمَانِ لِيُحَذِّرَنَا أَنَّ الجَدَلَ العَقِيمَ هُوَ البَوَّابَةُ الخَفِيَّةُ لِلشَّكِّ وَالضَّلَالِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ أَدَبٍ عَقْلِيٍّ يَجْعَلُنِي أَسْأَلُ لِأَعْمَلَ وَأَطِيعَ بِلَا تَنَطُّعٍ، فَكُلُّ جَدَلٍ يَهْدِمُ التَّسْلِيمَ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا اسْتِقَامَةَ إِلَّا لِعَاقِلٍ لَزِمَ سَوَاءَ السَّبِيلِ بِوَحْيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٠٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سُمُوُّ الأَخْلَاقِ القُرْآنِيَّةِ يَرْتَقِي بِالمُؤْمِنِ فَوْقَ أَحْقَادِ الحَاسِدِينَ لِيُقَابِلَ مَكْرَهُمْ بِالعَفْوِ وَالصَّفْحِ الجَمِيلِ مَعَ كَمَالِ الوَعْيِ بِدَوَافِعِهِمْ؛ إِذْ يَكْشِفُ الوَحْيُ أَنَّ رَغْبَةَ الكَثِيرِينَ فِي رَدِّ المُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ لَيْسَتْ نَابِعَةً عَنْ جَهْلٍ بِالحَقِّ بَلْ عَنْ حَسَدٍ مُسْتَحْكِمٍ فِي نُفُوسِهِمْ بَعْدَ وُضُوحِ البُرْهَانِ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّبْرِ وَالتَّجَاوُزِ حَتَّى يَحْكُمَ الخَالِقُ بِقُدْرَتِهِ المُطْلَقَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المَنْهَجِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ القُوَّةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ ضَبْطُ النَّفْسِ عِنْدَ الاسْتِفْزَازِ وَالثِّقَةُ بِتَدْبِيرِ السَّمَاءِ، فَمَنْ عَفَا وَصَفَحَ مُتَوَكِّلاً عَلَى قُدْرَةِ رَبِّهِ حَفِظَ طَاقَتَهُ لِلْبِنَاءِ، وَمَنِ انْجَرَّ خَلْفَ أَحْقَادِ الحَاسِدِينَ ضَيَّعَ سَكِينَةَ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

سِهَامُ الحَسَدِ وَجَنَاحُ الصَّفْحِ
صَدَى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

نِيرَانُ الحَسَدِ الكَامِنَةُ فِي الصُّدُورِ تَتَمَنَّى إِطْفَاءَ نُورِ الإِيمَانِ فِي قُلُوبِ الصَّادِقِينَ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهَا الحَقُّ، فَتُقَابِلُهَا السَّمَاءُ بِدَرْسٍ عَظِيمٍ فِي العَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالثِّقَةِ بِقُدْرَةِ الخَالِقِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا السُّمُوِّ الأَخْلَاقِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِانْفِعَالِ وَالمُقَابَلَةِ بِالمِثْلِ لِيُدْرِكَ أَنَّ التَّجَاوُزَ عَنْ أَذَى الحَاسِدِينَ هُوَ قِمَّةُ العِزَّةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَكَمْ اسْتَنْزَفْتُ طَاقَتِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ فِي مُجَارَاةِ المُسْتَفِزِّينَ وَالِانْشِغَالِ بِأَحْقَادِهِمْ بَدَلَ أَنْ أَمْضِيَ فِي طَرِيقِي بِسَكِينَةٍ وَصَفْحٍ، أَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ تَضْرِبُهُ الرِّيَاحُ العَاتِيَةُ فَلَا يَتَزَحْزَحُ وَلَا يَضِيقُ صَدْرُهُ بَلْ يَظَلُّ ثَابِتاً بِأَمْرِ خَالِقِهِ حَتَّى تَهْدَأَ العَاصِفَةُ كَمَا يَثْبُتُ المُؤْمِنُونَ بِالعَفْوِ وَالصَّفْحِ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ كَشْفِ حَسَدِ الخُصُومِ وَالأَمْرِ بِالصَّفْحِ عَنْهُمْ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ الوَعْيَ بِمَكْرِ العَدُوِّ لَا يَعْنِي فُقْدَانَ المَبَادِئِ وَالأَخْلَاقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَسَامُحٍ وَقُوَّةٍ يَحْمِي قَلْبِي مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَيُفَوِّضُ الأَمْرَ لِلْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكُلُّ حَسَدٍ يَتَمَنَّى زَوَالَ النُّورِ دُخَانٌ إِلَى تَلَاشٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا غَلَبَةَ إِلَّا لِأَمْرِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

بِنَاءُ الذَّاتِ الإِيمَانِيَّةِ يَقُومُ عَلَى العَمَلِ الإِيجَابِيِّ المُثْمِرِ بَدَلَ الِانْشِغَالِ بِأَحْقَادِ المُعَانِدِينَ؛ إِذْ يُوَجِّهُ الوَحْيُ طَاقَةَ المُؤْمِنِينَ نَحْوَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ الَّتِي تَصِلُ الرُّوحَ بِرَبِّهَا، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ الَّتِي تُطَهِّرُ المَالَ وَتَجْبُرُ كَسْرَ الفُقَرَاءِ، مَعَ التَّأْكِيدِ عَلَى قَانُونِ الِادِّخَارِ الأَبَدِيِّ الَّذِي يَحْفَظُ كُلَّ ذَرَّةِ خَيْرٍ يُقَدِّمُهَا الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الإِحْسَانَ إِلَى الخَلْقِ وَالطَّاعَةَ لِلْخَالِقِ هُمَا العَطَاءُ الحَقِيقِيُّ لِلذَّاتِ، فَمَنْ قَدَّمَ الخَيْرَ وَجَدَهُ مَحْفُوظاً مُضَاعَفاً عِنْدَ رَبِّهِ، وَمَنْ بَخِلَ وَقَصَّرَ حَرَمَ نَفْسَهُ مِنْ زَادِ المَآلِ.

الصَّدَى

خَزَائِنُ الخَيْرِ وَبَصَرُ الرَّقِيبِ

صَدَى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

مِحْرَابُ الصَّلَاةِ المَرْفُوعُ وَيَدُ الزَّكَاةِ المَبْسُوطَةُ يَنْسُجَانِ رَصِيدَ البَقَاءِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ فَيَجِدُهُ مَحْفُوظاً بِالكَمَالِ عِنْدَ البَصِيرِ بِكُلِّ عَمَلٍ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الصَّادِقِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الشُّحِّ وَالتَّرَدُّدِ فِي البَذْلِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مَعْرُوفٍ أُقَدِّمُهُ لِغَيْرِي إِنَّمَا أُودِعُهُ فِي خَزِينَتِي الأَبَدِيَّةِ لِأَجِدَهُ يَوْمَ الفَقْرِ الأَكْبَرِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ العَطَاءَ يَنْقُصُ مِنَ المَالِ وَأَنَّ الإِحْسَانَ يَذْهَبُ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ إِنْ لَمْ يَشْكُرْهُ البَشَرُ، أَرَى الفَلَّاحَ الذَّكِيَّ يَبْذُرُ الحَبَّ النَّفِيسَ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ مُوقِناً أَنَّهُ لَا يُضِيعُهُ بَلْ يَدَّخِرُهُ لِيَحْصُدَهُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ كَمَا يَجِدُ المُؤْمِنُونَ كُلَّ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَالَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ الخَيْرَ يَعُودُ إِلَى صَاحِبِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى غَيْرِهِ وَأَنَّ عَيْنَ البَصِيرِ لَا تُضِيعُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ سَخَاءٍ وَإِقْبَالٍ تَجْعَلُنِي أُسَارِعُ إِلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالإِحْسَانِ، فَكُلُّ مَالٍ يُكْنَزُ لِلدُّنْيَا تُرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا ذُخْرَ إِلَّا مَا قُدِّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١١١–١٢٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قِلَاعُ الأَوْهَامِ الطَّائِفِيَّةِ تَتَهَاوَى أَمَامَ سَيْفِ البُرْهَانِ القَاطِعِ الَّذِي يَنْسِفُ دَعَاوَى الِاحْتِكَارِ وَيُبَدِّدُ سَرَابَ الأَمَانِيِّ الفَارِغَةِ؛ إِذْ يَزْعُمُ أَهْلُ التَّعَصُّبِ أَنَّ مَفَاتِيحَ الجِنَانِ حِكْرٌ عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَأَلْقَابِهِمْ، فَيَقْرَعُ الوَحْيُ عُقُولَهُمْ بِقَانُونٍ رُشْدِيٍّ صَارِمٍ يُطَالِبُ كُلَّ مُدَّعٍ بِالدَّلِيلِ الصَّرِيحِ وَالحُجَّةِ البَالِغَةِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الإِنْسَانِيُّ مِنْ عُبُودِيَّةِ الخُرَافَةِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى المَوْرُوثِ بِلَا دَلِيلٍ، فَمَنْ بَنَى عَقِيدَتَهُ

عَلَى نُورِ البُرْهَانِ سَلِمَ مِنَ الزَّلَلِ وَالخُسْرَانِ، وَمَنْ رَكَنَ إِلَى الأَمَانِيِّ الكَاذِبَةِ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى وَالبُهْتَانِ.

الصَّدَى

أَسْوَارُ الِاحْتِكَارِ وَسَيْفُ البُرْهَانِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

صُرُوحُ الدَّعَاوَى العَرِيضَةِ تَتَصَدَّعُ عِنْدَ أَوَّلِ صَيْحَةٍ تُطَالِبُ بِالبُرْهَانِ الصَّادِقِ لِتَفْضَحَ زَيْفَ القُلُوبِ الَّتِي تَحْتَكِرُ الجَنَّةَ بِالأَلْقَابِ وَالأَمَانِيِّ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا المِعْيَارِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّقْلِيدِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى العَنَاوِينِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَمْلَكَةَ الحَقِّ لَا تُدْخَلُ بِالتَّمَنِّي بَلْ بِالحُجَّةِ وَالعَمَلِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ القَاعِدَةِ مِنْ نُفُوسٍ تَبْنِي قُصُوراً مِنَ الوَهْمِ وَتُغْلِقُ بَوَّابَاتِ الرَّحْمَةِ عَلَى الخَلْقِ بِلَا سُلْطَانٍ مِنَ السَّمَاءِ، أَرَى السَّرَابَ اللَّامِعَ فِي كَبِدِ الصَّحْرَاءِ يَخْدَعُ العَطْشَانَ مِنْ بَعِيدٍ فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنْهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً كَمَا تَتَبَدَّدُ أَمَانِيُّ المُدَّعِينَ أَمَامَ قَوْلِهِ تَعَالَى هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ البُرْهَانَ مِيزَاناً لِلصِّدْقِ لِيُؤَسِّسَ لِعَقْلٍ عِلْمِيٍّ يَرْفُضُ الدَّعَاوَى المُرْسَلَةَ وَيُطَالِبُ بِالدَّلِيلِ فِي كُلِّ مَقَامٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ تَمْحِيصٍ تَحْمِي فِكْرِي مِنَ الخُرَافَةِ وَتَجْعَلُ البُرْهَانَ قَائِدِي إِلَى اليَقِينِ، فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ تَخْلُو مِنْ دَلِيلِ الوَحْيِ غُبَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَقَامَ حُجَّتَهُ بِنُورِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَوَّابَةُ النَّجَاةِ الحَقِيقِيَّةُ تَنْفَتِحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا لِكُلِّ قَلْبٍ أَخْلَصَ قَصْدَهُ لِخَالِقِهِ وَجَمَّلَ سَعْيَهُ بِالإِحْسَانِ وَالإِتْقَانِ؛ إِذْ يَجْمَعُ المِيزَانُ الإِلٰهِيُّ بَيْنَ إِسْلَامِ الوَجْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالانْقِيَادِ، وَبَيْنَ الإِحْسَانِ فِي العَمَلِ وَالمُعَامَلَةِ، فَيُثْمِرُ هٰذَا الِاقْتِرَانُ أَجْراً مَحْفُوظاً عِنْدَ الرَّبِّ وَأَمْناً مُطْلَقاً يَنْفِي خَوْفَ المُسْتَقْبَلِ

وَحُزْنَ المَاضِي، لِيَتَقَرَّرَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ مَفْتُوحٌ بِالإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ لَا بِالأَنْسَابِ وَالأَلْقَابِ، فَمَنْ وَحَّدَ وِجْهَتَهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ نَالَ السَّكِينَةَ وَالرِّضْوَانَ، وَمَنْ أَشْرَكَ فِي قَصْدِهِ أَوْ أَسَاءَ فِي فِعْلِهِ حُرِمَ الأَجْرَ وَالأَمَانَ.

الصَّدَى

إِسْلَامُ الوَجْهِ وَشَمْسُ الإِحْسَانِ

صَدَى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

طَرِيقُ السَّلَامِ الأَبَدِيِّ يَسْتَقِيمُ أَمَامَ السَّائِرِينَ حِينَ تَتَوَحَّدُ وِجْهَةُ القَلْبِ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ وَتَفِيضُ الجَوَارِحُ بِالإِحْسَانِ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذِهِ القَاعِدَةِ الجَامِعَةِ تَخْلَعُ ثِيَابَ التَّشَتُّتِ وَالقَلَقِ لِتُدْرِكَ أَنَّ الإِخْلَاصَ وَالإِحْسَانَ هُمَا جَنَاحَا الأَمَانِ مِنَ الخَوْفِ وَالحَزَنِ، وَكَمْ بَحَثْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ عَنِ الطُّمَأْنِينَةِ فِي تَأْمِينِ أَسْبَابِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ فَكُنْتُ كَمَنْ يُطَارِدُ ظِلَّهُ فِي الظَّهِيرَةِ وَيَزْدَادُ تَعَباً، أَرَى الشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي اسْتَقَامَ جِذْعُهَا نَحْوَ السَّمَاءِ وَتَدَلَّتْ أَغْصَانُهَا بِالثِّمَارِ النَّافِعَةِ تَنْعَمُ بِثَبَاتِ الجُذُورِ وَبَهَاءِ العَطَاءِ كَمَا يَنْعَمُ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ بِالأَجْرِ وَالأَمَانِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ إِسْلَامَ الوَجْهِ شَرْطاً لِصِحَّةِ الإِحْسَانِ وَالإِحْسَانَ دَلِيلاً عَلَى صِدْقِ الإِسْلَامِ لِيَكْتَمِلَ بِنَاءُ الإِنْسَانِ الصَّالِحِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ سَكِينَةٍ يُوَحِّدُ قَصْدِي لِرَبِّي وَيُجَوِّدُ عَمَلِي لِخَلْقِهِ، فَكُلُّ عَمَلٍ يَخْلُو مِنَ الإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ هَبَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِمُحْسِنٍ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَهْزَلَةُ التَّكْفِيرِ المتَبَادَلِ تَكْشِفُ عَنْ سُقُوطِ أَهْلِ الكِتَابِ فِي مَنْطِقِ الجَهَلَةِ الأُمِّيِّينَ حِينَ يُلْغِي كُلُّ فَرِيقٍ الآخَرَ بِالكُلِّيَّةِ رَغْمَ تِلَاوَتِهِمْ لِلْوَحْيِ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِالحَقَائِقِ؛ إِذْ تَعْمَى البَصَائِرُ بِسَبَبِ التَّعَصُّبِ وَالهَوَى فَيَتَشَابَهُ قَوْلُ المتَعَلِّمِ المتَعَصِّبِ مَعَ قَوْلِ الجَاهِلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ شَيْئاً، وَيُحَالُ الفَصْلُ النِّهَائِيُّ فِي خِصَامِهِمْ إِلَى مَحْكَمَةِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ يَوْمَ القِيَامَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الإِنْصَافَ العِلْمِيَّ يَأْبَى الإِقْصَاءَ الأَعْمَى، فَمَنْ وَزَنَ النَّاسَ وَالأَفْكَارَ بِقِسْطَاسِ العَدْلِ سَلِمَ مِنْ مَنْطِقِ الجَاهِلِينَ، وَمَنِ انْسَاقَ وراءَ التَّعَصُّبِ وَالإِلْغَاءِ سَاوَى بَيْنَ عِلْمِهِ وَالجَهْلِ المبِينِ.

الصَّدَى

ضَجِيجُ التَّعَصُّبِ وَمَحْكَمَةُ القِيَامَةِ

صَدَى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

سِهَامُ الإِقْصَاءِ المتَبَادَلَةِ تَتَطَايَرُ بَيْنَ الفِرَقِ المتَنَاحِرَةِ حِينَ يُجَرِّدُ كُلُّ طَرَفٍ خَصْمَهُ مِنْ كُلِّ حَقٍّ رَغْمَ تِلَاوَتِهِمْ لِلْكِتَابِ فَيَنْحَدِرُونَ إِلَى مَنْطِقِ الجَاهِلِينَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الصَّخَبِ المتَكَرِّرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الخُصُومَةِ العَمْيَاءِ لِيُدْرِكَ أَنَّ العِلْمَ الَّذِي لَا يُثْمِرُ إِنْصَافاً وَحِكْمَةً يَتَسَاوَى مَعَ الجَهْلِ فِي المِيزَانِ، وَكَمْ شَهِدْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ جَدَلٍ عَقِيمٍ يَلْغِي فِيهِ المتَنَازِعُونَ كُلَّ فَضْلٍ لِغَيْرِهِمْ بِاسْمِ الدِّينِ وَالعِلْمِ وَهُمْ يَتْلُونَ كِتَابَ السَّمَاءِ، أَرَى الأَعْمَيَيْنِ يَتَشَاجَرَانِ فِي الظَّلَامِ وَيُنْكِرُ كُلٌّ مِنْهُمَا وُجُودَ الآخَرِ بَيْنَمَا يَنْتَظِرُ الجَمِيعُ شُرُوقَ الصُّبْحِ لِيَنْكَشِفَ الوَاقِعُ كَمَا يَحْكُمُ اللهُ بَيْنَ المخْتَلِفِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِعَدْلِهِ المطْلَقِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ سَاوَى بَيْنَ قَوْلِ أَهْلِ الكِتَابِ المتَعَصِّبِينَ وَقَوْلِ الجَاهِلِينَ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ التَّعَصُّبَ يَمْحُو أَثَرَ العِلْمِ وَيُرْجِعُ صَاحِبَهُ إِلَى الأُمِّيَّةِ العَقْلِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ يَحْمِي لِسَانِي مِنَ الإِقْصَاءِ الجَائِرِ وَيُفَوِّضُ الفَصْلَ الأَخِيرَ لِلْحَكَمِ العَدْلِ، فَكُلُّ جَدَلٍ يَقُومُ عَلَى الإِلْغَاءِ وَالهَوَى ضَجِيجٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حُكْمَ فَاصِلَ إِلَّا لِلَّهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

ذُرْوَةُ الطُّغْيَانِ وَالظُّلْمِ تَتَجَلَّى حِينَ تَمْتَدُّ يَدُ العُدْوَانِ لِتُغْلِقَ بُيُوتَ اللهِ فِي وُجُوهِ الذَّاكِرِينَ وَتَسْعَى فِي تَخْرِيبِهَا مَادِّيّاً بِالهَدْمِ أَوْ مَعْنَوِيّاً بِالتَّعْطِيلِ؛ إِذْ يُعْلِنُ الوَحْيُ أَنَّ هٰؤُلَاءِ المجْرِمِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ دُخُولَ المحَارِيبِ الآمِنَةِ إِلَّا وَقُلُوبُهُمْ تَرْتَعِدُ خَوْفاً وَذُلّاً، وَأَنَّ مَصِيرَهُمُ الحَتْمِيَّ خِزْيٌ يُلَاحِقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعَذَابٌ عَظِيمٌ يَنْتَظِرُهُمْ فِي الآخِرَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ حُرِّيَّةَ العِبَادَةِ وَإِعْمَارَ المسَاجِدِ بِالذِّكْرِ وَالعِلْمِ هُمَا أَقْدَسُ الحُقُوقِ، فَمَنْ عَمَرَ بُيُوتَ اللهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالهِدَايَةِ نَالَ الأَمْنَ وَالكَرَامَةَ، وَمَنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَخَرَّبَ المسَاجِدَ بَاءَ بِالخِزْيِ وَالهَوَانِ.

الصَّدَى

إِغْلَاقُ المحَارِيبِ وَخِزْيُ المخَرِّبِينَ
صَدَى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

جَرِيمَةُ إِطْفَاءِ السُّرُجِ فِي بُيُوتِ السَّمَاءِ تَبْلُغُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الظُّلْمِ حِينَ يُحَالُ بَيْنَ القُلُوبِ العَطْشَى وَبَيْنَ مَنَابِعِ الذِّكْرِ وَالسُّجُودِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الوَعِيدِ الجَلِيلِ يَمْتَلِئُ غَيْرَةً وَتَعْظِيماً لِحُرْمَةِ المسَاجِدِ لِيُدْرِكَ أَنَّ عِمَارَتَهَا بِالحَقِّ وَالهِدَايَةِ هِيَ حَيَاةُ الأَرْضِ وَأَمَانُهَا، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السُّنَّةِ مِنْ طُغَاةٍ يَظُنُّونَ أَنَّ إِغْلَاقَ أَبْوَابِ المحَارِيبِ أَوْ تَفْرِيغَهَا مِنْ رُوحِ الذِّكْرِ يُثَبِّتُ عُرُوشَهُمْ بَيْنَمَا هُمْ يَحْفِرُونَ قُبُورَ خِزْيِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، أَرَى الخَفَّاشَ الَّذِي يَكْسِرُ مَصَابِيحَ المنَارَةِ لِيُغْرِقَ المِينَاءَ فِي الظَّلَامِ فَتَرْتَدُّ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ وَيَعِيشُ مُطَارَداً خَائِفاً كَمَا يُحْكَمُ عَلَى مَانِعِي مَسَاجِدِ اللهِ بِالخَوْفِ وَالخِزْيِ فِي الدُّنْيَا وَالعَذَابِ العَظِيمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ الخَوْفَ جَزَاءً لِمَنْ أَخَافَ الذَّاكِرِينَ وَخَرَّبَ بُيُوتَ الأَمَانِ لِيَكُونَ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ رِعَايَةٍ لِبُيُوتِ اللهِ وَتَنْزِيهِهَا عَنِ الخُرَافَةِ وَالتَّعْطِيلِ، فَكُلُّ يَدٍ تَمْتَدُّ بِالخَرَابِ إِلَى مَحَارِيبِ الذِّكْرِ مَبْتُورَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا لِعَامِرٍ أَحْيَا مَسَاجِدَ اللهِ بِاسْمِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سَعَةُ الكَوْنِ كُلِّهِ تَتَحَوَّلُ إِلَى مِحْرَابٍ مَفْتُوحٍ لِلْمُؤْمِنِ حِينَ يَضِيقُ عَلَيْهِ المَكَانُ أَوْ يُمْنَعُ مِنْ قَصْدِ بَيْتِ اللهِ؛ إِذْ يَمْلِكُ الخَالِقُ المَشْرِقَ وَالمَغْرِبَ وَسَائِرَ الجِهَاتِ، فَلَا يَحْجُبُهُ جِدَارٌ وَلَا يُقَيِّدُهُ حَيِّزٌ، بَلْ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ العَبْدُ بِقَلْبِهِ وَجَسَدِهِ عِنْدَ العَجْزِ أَوِ السَّفَرِ وَجَدَ رَحْمَةَ اللهِ وَقَبُولَهُ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنْ ضِيقِ الحَيِّزِ المَكَانِيِّ وَوَسْوَسَةِ الجِهَاتِ، وَيَسْتَشْعِرَ سَعَةَ الخَالِقِ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ نِيَّةٍ، فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ بِصِدْقٍ كَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لَهُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَمَنْ حَصَرَ اللهَ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ جَهِلَ سَعَةَ العَلِيمِ الوَاسِعِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ الأُفُقِ وَسَعَةُ الوُجُودِ
صَدَى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

فَضَاءُ الأَرْضِ الفَسِيحُ يَتَفَتَّحُ مِحْرَاباً لِلسَّاجِدِينَ فَلَا تَمْلِكُ قُوَّةٌ فِي الوُجُودِ أَنْ تَحْجُبَ الرُّوحَ عَنْ خَالِقِهَا مَا دَامَ لَهُ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ وَكُلُّ الآفَاقِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ السَّعَةِ المُطْلَقَةِ يَخْلَعُ قُيُودَ الخَوْفِ مِنَ المَنْعِ وَالتَّضْيِيقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ وِجْهَةَ القَلْبِ الصَّادِقِ تَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْ أَيِّ بُقْعَةٍ فِي الأَرْضِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ القُرْبَ الإِلٰهِيَّ مَرْهُونٌ بِجُدْرَانٍ مَحْدُودَةٍ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ مَمْلَكَةٌ لِلْوَاسِعِ العَلِيمِ، أَرَى الشَّمْسَ المُنِيرَةَ تَعْمُرُ بِضِيَائِهَا المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ فَأَيْنَمَا اتَّجَهَ النَّاظِرُ فِي الفَضَاءِ الطَّلْقِ وَجَدَ نُورَهَا وَدِفْأَهَا كَمَا يَجِدُ المُؤْمِنُ قَبُولَ اللهِ وَرِضْوَانَهُ أَيْنَمَا وَلَّى وَجْهَهُ عِنْدَ العَجْزِ وَالِاجْتِهَادِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذِهِ البِشَارَةَ بِاسْمَيْهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ لِيُطَمْئِنَ العِبَادَ أَنَّ رَحْمَتَهُ تَسَعُ تَقْصِيرَهُمْ وَعِلْمَهُ يُحِيطُ بِصِدْقِ تَوَجُّهِهِمْ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طُمَأْنِينَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَجْعَلُ الأَرْضَ كُلَّهَا بَيْتاً لِلْعِبَادَةِ وَتُحَرِّرُنِي مِنَ الوَسْوَسَةِ، فَكُلُّ جِدَارٍ يَبْنِيهِ الطُّغَاةُ لِمَنْعِ الذِّكْرِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سَعَةَ إِلَّا لِوَجْهِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَنْزِيهُ الأُلُوهِيَّةِ المطْلَقِ يَهْدِمُ أَسَاطِيرَ التَّشْبِيهِ البَشَرِيِّ الَّتِي تَنْسُبُ الوَلَدَ إِلَى الخَالِقِ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ؛ إِذْ تَقُومُ الحُجَّةُ العَقْلِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ يَمْلِكُ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِلْكاً تَامّاً وَيَخْضَعُ لَهُ الكَوْنُ كُلُّهُ بِالقُنُوتِ وَالطَّاعَةِ، يَسْتَحِيلُ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى وَلَدٍ يُعِينُهُ أَوْ يَرِثُهُ أَوْ يُشَارِكُهُ فِي الرُّبُوبِيَّةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ يُنَزِّهُ الخَالِقَ عَنْ سِمَاتِ المخْلُوقِينَ وَنَقَائِصِ الحَاجَةِ، فَمَنْ قَدَّسَ رَبَّهُ وَنَزَّهَهُ عَنِ الشَّرِيكِ وَالوَلَدِ اسْتَقَامَتْ عَقِيدَتُهُ وَنَجَا، وَمَنْ قَاسَ الخَالِقَ عَلَى البَشَرِ سَقَطَ فِي ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالِافْتِرَاءِ.

الصَّدَى

تَنْزِيهُ الغَنِيِّ وَقُنُوتُ الأَكْوَانِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

سَحَابَةُ التَّسْبِيحِ وَالتَّنْزِيهِ تَمْحُو عَنْ سَاحَةِ الجَلَالِ الإِلٰهِيِّ أَوْهَامَ البَشَرِ الَّذِينَ قَاسُوا الخَالِقَ عَلَى ضَعْفِهِمْ فَنَسَبُوا إِلَيْهِ الوَلَدَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا البُرْهَانِ القَاطِعِ يَخِرُّ سَاجِداً لِعَظَمَةِ الغَنِيِّ المطْلَقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَمْلُوكٌ لَهُ وَخَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ، وَكَمْ عَجِبْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ مِنْ ضِيقِ العُقُولِ الوَثَنِيَّةِ الَّتِي تَتَصَوَّرُ أَنَّ مَالِكَ الكَوْنِ يَحْتَاجُ إِلَى ذُرِّيَّةٍ تَسْنُدُ مُلْكَهُ كَمَا يَحْتَاجُ المَلِكُ الفَانُونَ فِي الأَرْضِ، أَرَى الشَّمْسَ المتَفَرِّدَةَ فِي كَبِدِ الفَلَكِ تَعْمُرُ الكَوَاكِبَ كُلَّهَا بِالنُّورِ وَالجَاذِبِيَّةِ فَتَدُورُ فِي أَفْلَاكِهَا خَاضِعَةً لِسُلْطَانِهَا دُونَ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى شَرِيكٍ أَوْ وَلَدٍ كَمَا يَقْنُتُ الكَوْنُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَدَّ فِرْيَةَ الوَلَدِ بِإِثْبَاتِ المُلْكِ الشَّامِلِ وَالقُنُوتِ الكَوْنِيِّ لِيُبَيِّنَ التَّنَاقُضَ العَقْلِيَّ بَيْنَ العُبُودِيَّةِ المَمْلُوكَةِ وَالبُنُوَّةِ المشَارِكَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَسْبِيحٍ يُنَزِّهُ رَبِّي عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَيُثَبِّتُنِي عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، فَكُلُّ نِسْبَةٍ لِلْوَلَدِ أَوِ الشَّرِيكِ إِلَى الخَالِقِ هُتَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أُلُوهِيَّةَ إِلَّا لِلَّهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

المَوْعِظَةُ

قُدْرَةُ الإِبْدَاعِ المطْلَقِ تَنْسِفُ كُلَّ قِيَاسٍ مَادِّيٍّ حِينَ تُنْشِئُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَلَا مَادَّةٍ أُولَى؛ إِذْ تَخْضَعُ الكَائِنَاتُ كُلُّهَا لِكَلِمَةِ التَّكْوِينِ النَّافِذَةِ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى عَنَاءٍ أَوْ مُعَالَجَةٍ أَوْ زَمَنٍ طَوِيلٍ، فَمَا إِنْ يَتَعَلَّقُ القَضَاءُ الإِلٰهِيُّ بِأَمْرٍ حَتَّى يَتَحَقَّقَ فَوْراً بِأَمْرِ كُنْ فَيَكُونُ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ سِجْنِ الأَسْبَابِ المادِّيَّةِ وَيَأْسِ المسْتَحِيلَاتِ البَشَرِيَّةِ، فَمَنْ رَبَطَ رَجَاءَهُ بِبَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ هَانَتْ عَلَيْهِ الصِّعَابُ وَانْفَتَحَتْ لَهُ الأَبْوَابُ، وَمَنْ قَاسَ قُدْرَةَ الخَالِقِ بِعَجْزِ المخْلُوقِ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ القُنُوطِ وَالِارْتِيَابِ.

الصَّدَى

إِبْدَاعُ العَدَمِ وَكَلِمَةُ التَّكْوِينِ
صَدَى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

نُورُ الإِبْدَاعِ الأَوَّلِ يَتَفَجَّرُ فِي فَضَاءِ العَدَمِ لِيَنْسِجَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَيُخْضِعَ الوُجُودَ كُلَّهُ لِسُلْطَانِ كَلِمَةِ كُنْ فَيَكُونُ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذِهِ القُدْرَةِ المذْهِلَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ اليَأْسِ مِنَ العَقَبَاتِ المسْتَعْصِيَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مُسْتَحِيلٍ فِي مَوَازِينِ الأَرْضِ هَيِّنٌ عَلَى مَنْ يَخْلُقُ بِالكَلِمَةِ، وَكَمْ ضَاقَتْ بِيَ السُّبُلُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا اليَقِينِ حِينَ كُنْتُ أَحْسِبُ حِسَابَ الأَسْبَابِ وَالعَوَائِقِ وَأَنْسَى أَنَّ قَضَاءَ اللهِ يَخْتَرِقُ الحَوَاجِزَ فِي لَمْحِ البَصَرِ، أَرَى الشَّرَارَةَ الخَاطِفَةَ تُضِيءُ الأُفُقَ المظْلِمَ كُلَّهُ فِي جُزْءٍ مِنَ اللَّحْظَةِ بِلَا تَمْهِيدٍ وَلَا عَنَاءٍ كَمَا تَنْفُذُ إِرَادَةُ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حِينَ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ صِفَةِ البَدِيعِ وَسُرْعَةِ التَّكْوِينِ لِيُثْبِتَ أَنَّ خَالِقَ الكَوْنِ مِنَ العَدَمِ لَا يَعْجِزُهُ إِحْيَاءُ المَوْتَى وَلَا تَفْرِيجُ الكُرُوبِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ رَجَاءٍ وَتَوَكُّلٍ تَكْسِرُ قُيُودَ اليَأْسِ وَتُعَلِّقُ قَلْبِي بِكَلِمَةِ القُدْرَةِ، فَكُلُّ عَائِقٍ مَادِّيٍّ يَقِفُ أَمَامَ قَضَاءِ السَّمَاءِ هَبَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سُلْطَانَ إِلَّا لِأَمْرِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَشَابُهُ القُلُوبِ الجَاحِدَةِ يَتَجَلَّى عَبْرَ العُصُورِ فِي تَكْرَارِ الشُّبُهَاتِ التَّعَنُّتِيَّةِ نَفْسِهَا رَغْمَ تَبَاعُدِ الأَزْمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ؛ إِذْ يَشْتَرِطُ الجَاهِلُونَ أَنْ يُكَلِّمَهُمُ الخَالِقُ مُبَاشَرَةً أَوْ تَأْتِيَهُمْ مُعْجِزَةٌ خَارِقَةٌ مِنْ اقْتِرَاحِهِمْ، مُتَجَاهِلِينَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ المَبْثُوثَةَ فِي الوَحْيِ وَالكَوْنِ الَّتِي تَكْفِي أَهْلَ اليَقِينِ وَالعَقْلِ السَّلِيمِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مَنَاطَ الهِدَايَةِ هُوَ صَفَاءُ القَلْبِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِلْيَقِينِ لَا كَثْرَةُ الخَوَارِقِ، فَمَنْ طَلَبَ الحَقَّ بِبَصِيرَةٍ وَجَدَ الآيَاتِ سَاطِعَةً أَمَامَهُ، وَمَنْ تَشَابَهَ قَلْبُهُ مَعَ قُلُوبِ المعَانِدِينَ عَمِيَ عَنِ الضِّيَاءِ وَلَوْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ كُلُّ آيَةٍ.

الصَّدَى

تَشَابُهُ القُلُوبِ وَعَمَى الجَاهِلِينَ

صَدَى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

صَدَى الجُحُودِ القَدِيمِ يَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَةِ الجَاهِلِينَ الجُدُدِ كَأَنَّ القُلُوبَ المرِيضَةَ تَرِثُ شُبُهَاتِهَا عَبْرَ الأَجْيَالِ فَتُطَالِبُ بِخَوَارِقَ مُقْتَرَحَةٍ وَتُغْمِضُ عَيْنَيْهَا عَنْ آيَاتِ اليَقِينِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّطَابُقِ العَجِيبِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّعَنُّتِ وَالِاقْتِرَاحِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ قَدِ اكْتَمَلَتْ وَلٰكِنَّهَا لَا تُنِيرُ إِلَّا قَلْباً يَبْحَثُ عَنِ اليَقِينِ، وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ إِقْنَاعَ المعَانِدِ يَحْتَاجُ إِلَى مُعْجِزَةٍ جَدِيدَةٍ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ الأَزْمَةَ فِي القَلْبِ الَّذِي تَشَابَهَ مَعَ قُلُوبِ الغَابِرِينَ فِي الكِبْرِ وَالْعِنَادِ، أَرَى الأَعْمَى الَّذِي يَقِفُ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ ثُمَّ يَصْرُخُ طَالِباً إِشْعَالَ شَمْعَةٍ صَغِيرَةٍ لِيَرَى الطَّرِيقَ كَمَا يَطْلُبُ الجَاهِلُونَ آيَةً مُقْتَرَحَةً وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ كَشَفَ تَشَابُهَ قُلُوبِهِمْ لِيُثْبِتَ أَنَّ الكُفْرَ مَنْهَجٌ وَاحِدٌ فِي الجُحُودِ

وَأَنَّ اليَقِينَ مِفْتَاحٌ لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا الصَّادِقُونَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ يَقِينٍ تَجْعَلُنِي أَرَى آيَاتِ اللهِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ وَحَرْفٍ وَلَا أَطْلُبُ بَعْدَ البَيَانِ مَزِيداً، فَكُلُّ تَعَنُّتٍ يَقِفُ أَمَامَ الوَحْيِ جَهْلٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِمُوقِنٍ اسْتَبْصَرَ بِآيَاتِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١١٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

رِسَالَةُ النُّبُوَّةِ تَقُومُ عَلَى التَّوَازُنِ المُحْكَمِ بَيْنَ البِشَارَةِ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ الرَّجَاءِ لِلطَّائِعِينَ، وَالنَّذَارَةِ الَّتِي تُوقِظُ قُلُوبَ الغَافِلِينَ؛ مَعَ تَحْدِيدٍ دَقِيقٍ لِحُدُودِ المَسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ حَيْثُ يَنْتَهِي دَوْرُ الرَّسُولِ عِنْدَ البَلَاغِ المُبِينِ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ مَصِيرِ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الكُفْرِ وَاخْتَارَ طَرِيقَ الجَحِيمِ بِإِرَادَتِهِ، لِيَتَحَرَّرَ الدَّاعِي إِلَى الحَقِّ مِنْ عِبْءِ الحُزْنِ المُدَمِّرِ عَلَى المُعْرِضِينَ، وَيُدْرِكَ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنَّهُ مَسْؤُولٌ وَحْدَهُ عَنْ اخْتِيَارِهِ، فَمَنْ قَبِلَ البِشَارَةَ وَاتَّعَظَ بِالنَّذَارَةِ نَجَا وَفَازَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الحَقِّ بَعْدَ البَلَاغِ تَحَمَّلَ وِزْرَ جَحِيمِهِ وَحْدَهُ.

الصَّدَى

جَنَاحَا البِشَارَةِ وَبَرَاءَةُ البَلَاغِ
صَدَى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

مِيزَانُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ يَعْتَدِلُ بَيْنَ نَسِيمِ البِشَارَةِ الَّذِي يُنْعِشُ القُلُوبَ المُقْبِلَةَ وَرَعْدِ النَّذَارَةِ الَّذِي يُحَذِّرُ النُّفُوسَ المُدْبِرَةَ مَعَ بَرَاءَةِ المُبَلِّغِ مِنْ مَصِيرِ الجَاحِدِينَ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْدِيدِ الرَّبَّانِيِّ تَخْلَعُ رِدَاءَ القَلَقِ الزَّائِدِ عَلَى نَتَائِجِ الدَّعْوَةِ لِتُدْرِكَ أَنَّ وَاجِبِي هُوَ البَلَاغُ الصَّادِقُ أَمَّا الهِدَايَةُ وَالحِسَابُ فَبِيَدِ الخَالِقِ، وَكَمْ أَرْهَقْتُ رُوحِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ القَاعِدَةِ بِالحَسْرَةِ عَلَى مَنْ يَرْفُضُونَ النُّصْحَ وَيُصِرُّونَ عَلَى الهَلَاكِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ رَهِينَةٌ بِاخْتِيَارِهَا، أَرَى الدَّلِيلَ الأَمِينَ فِي الصَّحْرَاءِ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَبْعِ المَاءِ وَيُحَذِّرُ مِنَ الهَاوِيَةِ ثُمَّ يَمْضِي سَالِماً بَرِيئاً مِمَّنْ أَصَرَّ عَلَى السَّيْرِ نَحْوَ الهَلَاكِ كَمَا لَا يُسْأَلُ رَسُولُ اللهِ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ البِشَارَةِ

وَالنَّذَارَةِ لِيُخَاطِبَ فِطْرَةَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ مَعاً ثُمَّ أَرَاحَ قَلْبَ نَبِيِّهِ مِنْ تَبِعَةِ المعَانِدِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ اتِّزَانٍ وَحُرِّيَّةٍ يَجْعَلُنِي أُؤَدِّي رِسَالَةَ الخَيْرِ بِصِدْقٍ وَأَتْرُكُ النَّتَائِجَ لِعَدْلِ السَّمَاءِ، فَكُلُّ عِنَادٍ يَخْتَارُ طَرِيقَ النَّارِ شَقَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ اسْتَجَابَ لِبِشَارَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ التَّمَايُزِ العَقَدِيِّ يَقْطَعُ أَوْهَامَ المدَاهَنَةِ وَالتَّنَازُلِ عَنِ الثَّوَابِتِ لِإِرْضَاءِ الخُصُومِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ بِجَزْمٍ أَبَدِيٍّ أَنَّ أَهْلَ المِلَلِ المنْحَرِفَةِ لَنْ يَرْضَوْا عَنْ حَامِلِ الحَقِّ حَتَّى يَنْسَلِخَ مِنْ دِينِهِ وَيَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ، فَيُعْلِنُ الحَقُّ صَرِيحاً أَنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى الحَقِيقِيُّ الوَحِيدُ، وَيُحَذِّرُ مِنْ مُجَارَاةِ الأَهْوَاءِ بَعْدَ العِلْمِ لِأَنَّ ذٰلِكَ يَقْطَعُ صِلَةَ العَبْدِ بِوَلَايَةِ رَبِّهِ وَنُصْرَتِهِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ هَوَسِ طَلَبِ القَبُولِ مِنَ المعَانِدِينَ، فَمَنِ اعْتَزَّ بِهُدَى رَبِّهِ وَلَمْ يُدَاهِنْ فِي دِينِهِ نَالَ الوَلَايَةَ وَالنَّصْرَ، وَمَنْ تَنَازَلَ عَنِ الحَقِّ لِيُرْضِيَ الخَلْقَ سَخِطَ عَلَيْهِ الخَالِقُ وَخَذَلَهُ الخَلْقُ.

الصَّدَى

سَرَابُ الإِرْضَاءِ وَعِزَّةُ الهُدَى

صَدَى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

سُورُ الثَّبَاتِ الشَّامِخُ يَرْتَفِعُ فِي وَجْهِ المسَاوَمَاتِ لِيُعْلِنَ أَنَّ رِضَا المعَانِدِينَ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالِانْسِلَاخِ عَنِ الحَقِّ وَاتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ الفَانِيَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الصَّارِمَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّرَدُّدِ وَمُجَامَلَةِ البَاطِلِ لِيُدْرِكَ أَنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى الأَوْحَدُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّجْزِئَةَ وَلَا التَّنَازُلَ، وَكَمْ حَاوَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا القَانُونِ أَنْ أُقَرِّبَ المسَافَاتِ عَلَى حِسَابِ وَضُوحِ المبْدَأِ فَكُنْتُ أَخْسَرُ

وُضُوحِي وَلَا أَنَالُ رِضَا الخُصُومِ، أَرَى المَنَارَةَ الثَّابِتَةَ عَلَى الصَّخْرَةِ العَالِيَةِ تَرْفُضُ أَنْ تَنْزِلَ إِلَى قَاعِ البَحْرِ لِتُرْضِيَ الأَمْوَاجَ المُتَلَاطِمَةَ لِأَنَّ نُزُولَهَا يَعْنِي انْطِفَاءَ نُورِهَا وَغَرَقَ السُّفُنِ كَمَا يَحْرُمُ عَلَى المُؤْمِنِ اتِّبَاعُ الأَهْوَاءِ بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ لِئَلَّا يَفْقِدَ وَلَايَةَ اللهِ وَنُصْرَتَهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ حَسَمَ الأَمْرَ بِكَلِمَةٍ لَنْ المؤَبَّدَةِ لِيُقِيمَ مَنَاعَةً نَفْسِيَّةً تَحْمِي المؤْمِنَ مِنَ الذَّوَبَانِ وَالتَّبَعِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ عِزَّةٍ وَاسْتِقْلَالٍ تَجْعَلُنِي أَطْلُبُ رِضَا رَبِّي وَحْدَهُ وَلَا أَبِيعُ عِلْمِي بِأَهْوَاءِ البَشَرِ، فَكُلُّ تَنَازُلٍ عَنِ الوَحْيِ لِإِرْضَاءِ الخَلْقِ خِذْلَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُصْرَةَ إِلَّا لِثَابِتٍ اعْتَصَمَ بِهُدَى اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٢١-١٣٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِحْرَابُ التِّلَاوَةِ الحَقَّةِ يَتَجَاوَزُ تَحْرِيكَ الشِّفَاهِ بِالحُرُوفِ إِلَى إِقَامَةِ الحُدُودِ وَتَدَبُّرِ المَقَاصِدِ وَالِاتِّبَاعِ الصَّادِقِ؛ إِذْ تَشْهَدُ اسْتِقَامَةُ السُّلُوكِ عَلَى حَيَاةِ الإِيمَانِ فِي القُلُوبِ، بَيْنَمَا يَنْحَدِرُ الجَاحِدُونَ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ وَيَهْجُرُونَ العَمَلَ إِلَى هَاوِيَةِ الخُسْرَانِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الميزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ القِرَاءَةَ المُثْمِرَةَ هِيَ الَّتِي تَنْقُلُ الوَحْيَ مِنَ السُّطُورِ إِلَى الصُّدُورِ وَمِنَ النُّطْقِ إِلَى التَّطْبِيقِ، فَمَنْ رَعَى كِتَابَ رَبِّهِ حَقَّ رِعَايَتِهِ ظَفِرَ بِالإِيمَانِ وَالفَلَاحِ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ وَعَطَّلَ هِدَايَتَهُ بَاءَ بِالخَسَارَةِ وَالضَّيَاعِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ التِّلَاوَةِ وَغُرْبَةُ السُّطُورِ
صَدَى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

نُورُ الكِتَابِ المُتْلُوِّ بِحَقِّهِ يَسْرِي فِي عُرُوقِ القَلْبِ سَرَيَانَ الحَيَاةِ لِيُحَوِّلَ الحُرُوفَ السَّاكِنَةَ إِلَى سُلُوكٍ يَنْبِضُ بِالإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا المِعْيَارِ الرَّفِيعِ تَخْلَعُ رِدَاءَ التِّلَاوَةِ العَابِرَةِ لِتُدْرِكَ أَنَّ حَقَّ

الكِتَابِ هُوَ أَنْ يُقْرَأَ بِالعَقْلِ وَيُعَاشَ بِالجَوَارِحِ، وَكَمْ مَرَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَلَى صَفَحَاتِ الوَحْيِ بِسُرْعَةِ اللِّسَانِ دُونَ أَنْ أَتَوَقَّفَ لِأَسْأَلَ نَفْسِي هَلْ أَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَمْ أَكْتَفِي بِصَوْتِ القِرَاءَةِ، أَرَى المطَرَ العَذْبَ يَنْزِلُ عَلَى التُّرْبَةِ الصَّالِحَةِ فَتَتَشَرَّبُهُ وَتُخْرِجُ الثِّمَارَ اليَانِعَةَ كَمَا يَتْلُو الصَّادِقُونَ كِتَابَ اللهِ حَقَّ تِلَاوَتِهِ فَيُثْمِرُ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَاليَقِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ الإِيمَانَ الصَّحِيحَ بِحَقِّ التِّلَاوَةِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ مَنْ يَحْمِلُ الكِتَابَ مَنْهَجَ حَيَاةٍ وَمَنْ يَتَّخِذُهُ أَلْفَاظاً مَهْجُورَةً، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ قِرَاءَةٍ يَجْعَلُنِي أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَقْفَةَ تَدَبُّرٍ وَعَمَلٍ، فَكُلُّ تِلَاوَةٍ تَخْلُو مِنَ الِاتِّبَاعِ صَدَىً عَابِرٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَقَامَ كِتَابَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نِدَاءُ التَّذْكِيرِ بِالنِّعَمِ السَّالِفَةِ يَعُودُ لِيَقْرَعَ أَبْوَابَ الضَّمَائِرِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ وَإِغْلَاقِ بَابِ الإِمْهَالِ؛ إِذْ يُنَبِّهُ الخَالِقُ عِبَادَهُ إِلَى أَنَّ التَّفْضِيلَ وَالعَطَاءَ مَسْؤُولِيَّةٌ تَتَطَلَّبُ يَقَظَةَ الشُّكْرِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِلْوَحْيِ الخَاتِمِ، لَا الِاتِّكَاءَ عَلَى مَجْدٍ غَابِرٍ أَوِ الاغْتِرَارَ بِفَضْلٍ قَدِيمٍ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ تَكْرَارَ التَّذْكِيرِ رَحْمَةٌ لِإِيقَاظِ الغَافِلِينَ وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَى المعَانِدِينَ، فَمَنْ قَابَلَ تَذْكِيرَ رَبِّهِ بِالشُّكْرِ وَالإِيمَانِ حَفِظَ نِعْمَتَهُ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَى الجُحُودِ زَالَتْ عَنْهُ الكَرَامَةُ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الوَدَاعِ وَتَذْكِيرُ العَطَاءِ

صَدَى ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

صَوْتُ الرَّحْمَةِ المُمْتَدَّةِ يُعِيدُ التَّذْكِيرَ بِسِجِلِّ النِّعَمِ وَالتَّفْضِيلِ كَنِدَاءٍ أَخِيرٍ يُوقِظُ القُلُوبَ الغَافِلَةَ قَبْلَ أَنْ تَطْوِيَ السَّمَاءُ صَفْحَةَ العِتَابِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّكْرَارِ الرَّحِيمِ يَسْتَحْضِرُ كُلَّ فَضْلٍ أَسْبَغَهُ اللهُ عَلَيَّ لِئَلَّا أَقَعَ فِي فِتْنَةِ النِّسْيَانِ وَالجُحُودِ، وَكَمْ غَفَلَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عَنْ أَنَّ

تَكْرَارَ النِّعَمِ يَقْتَضِي تَكْرَارَ الشُّكْرِ وَأَنَّ المَاضِيَ المُشْرِقَ لَا يَحْمِي الحَاضِرَ المُظْلِمَ، أَرَى الأَبَ الرَّحِيمَ يُذَكِّرُ وَلَدَهُ العَاقَّ بِأَيَّامِ الرِّعَايَةِ وَالحَنَانِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى لَعَلَّ قَلْبَهُ يَلِينُ قَبْلَ سَاعَةِ الفِرَاقِ كَمَا يُذَكِّرُ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعْمَتِهِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى العَالَمِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ ذِكْرَ النِّعْمَةِ مِفْتَاحاً لِلتَّوْبَةِ وَالتَّوَاضُعِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ كُلَّ فَضْلٍ مِنْ عِنْدِهِ هُوَ أَمَانَةٌ تُسْأَلُ عَنْهَا النُّفُوسُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ ذِكْرٍ وَشُكْرٍ يُحْيِي فِي قَلْبِي مَعْرِفَةَ المُنْعِمِ وَيَصُونُنِي مِنَ الغُرُورِ، فَكُلُّ تَفْضِيلٍ يَخْلُو مِنَ الشُّكْرِ حُجَّةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِشَاكِرٍ حَفِظَ نِعْمَةَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

هَيْبَةُ اليَوْمِ الأَخِيرِ تَخْتِمُ مَلَفَّ العِتَابِ بِإِسْقَاطِ كُلِّ أَوْهَامِ النَّجَاةِ المَجَّانِيَّةِ وَالوَسَاطَاتِ البَشَرِيَّةِ؛ إِذْ يَقِفُ الإِنْسَانُ فَرْداً أَمَامَ عَدْلِ الخَالِقِ حَيْثُ لَا تُغْنِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ، وَلَا تُقْبَلُ فِدْيَةٌ، وَلَا تَنْفَعُ شَفَاعَةُ شَافِعٍ لِغَيْرِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ، وَلَا يُوجَدُ نَاصِرٌ يَدْفَعُ العَذَابَ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مِيزَانَ الآخِرَةِ يَقُومُ عَلَى العَمَلِ الشَّخْصِيِّ وَصِدْقِ الإِيمَانِ لَا عَلَى شَرَفِ الأَنْسَابِ، فَمَنِ اتَّقَى ذٰلِكَ اليَوْمَ بِإِصْلَاحِ سَرِيرَتِهِ وَعَمَلِهِ نَجَا وَفَازَ، وَمَنِ اعْتَمَدَ عَلَى الأَنْسَابِ وَالشَّفَاعَاتِ المَوْهُومَةِ خَسِرَ نَفْسَهُ.

الصَّدَى

صَمْتُ المَحْشَرِ وَفَرْدِيَّةُ المَصِيرِ
صَدَى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

رَغْدُ اليَوْمِ المَوْعُودِ يُبَدِّدُ كُلَّ أَوْهَامِ الحِمَايَةِ المَوْرُوثَةِ لِيُوقِفَ كُلَّ عَبْدٍ مُنْفَرِداً أَمَامَ مِيزَانِ العَدْلِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ فِدْيَةً وَلَا شَفَاعَةً وَلَا نَصِيراً، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا الحَصْرِ المَهِيبِ تَخْلَعُ رِدَاءَ الِاتِّكَالِ عَلَى صَلَاحِ الآبَاءِ وَأَلْقَابِ الانْتِمَاءِ لِتُدْرِكَ أَنَّ نَجَاتِي تَصْنَعُهَا يَدَايَ وَيَقِينِي، وَكَمْ زَكَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ إِلَى رَوَابِطِ الأَرْضِ وَمَوَازِينِهَا وَظَنَنْتُ أَنَّ القُرْبَ مِنَ الصَّالِحِينَ يُغْنِي عَنْ صَلَاحِ العَمَلِ الشَّخْصِيِّ، أَرَى البَذْرَةَ الوَحِيدَةَ تَسْقُطُ فِي الأَرْضِ فَلَا تُغْنِي عَنْهَا جُذُورُ الشَّجَرَةِ الأُمِّ إِنْ لَمْ تَضْرِبْ هِيَ جُذُورَهَا فِي الثَّرَى وَتَشْرَبْ مِنَ المَاءِ كَمَا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً فِي يَوْمِ الحِسَابِ عِنْدَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ نِدَاءَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِهٰذَا التَّحْذِيرِ القَاطِعِ لِيَقْطَعَ أَطْمَاعَهُمْ فِي شَفَاعَةِ آبَائِهِمُ الأَنْبِيَاءِ دُونَ إِيمَانٍ وَعَمَلٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ اجْتِهَادٍ فَرْدِيٍّ يَجْعَلُنِي أَبْنِي نَجَاتِي بِيَدِي وَأَتَّقِي يَوْمَ اللِّقَاءِ، فَكُلُّ اتِّكَالٍ عَلَى غَيْرِ العَمَلِ الصَّالِحِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِتَقِيٍّ أَعَدَّ زَادَهُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الإِمَامَةِ وَالقِيَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَقُومُ عَلَى البَلَاءِ وَالتَّمَامِ وَالعَدْلِ، لَا عَلَى التَّوْرِيثِ الأَعْمَى وَالِامْتِيَازِ العِرْقِيِّ؛ إِذْ نَالَ الخَلِيلُ شَرَفَ الإِمَامَةِ لِلنَّاسِ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ كَلِمَاتِ الِابْتِلَاءِ بِصِدْقٍ وَتَسْلِيمٍ، فَلَمَّا سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ تَمْتَدَّ هٰذِهِ الإِمَامَةُ فِي ذُرِّيَّتِهِ جَاءَ الحُكْمُ الإِلٰهِيُّ الحَاسِمُ بِحِرْمَانِ الظَّالِمِينَ مِنْ عَهْدِ اللهِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ صُلْبِ الأَنْبِيَاءِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الأَهْلِيَّةَ الدِّينِيَّةَ وَالْقِيَادِيَّةَ مَنُوطَةٌ بِالعَدْلِ وَالِاسْتِقَامَةِ لَا بِالنَّسَبِ، فَمَنْ أَتَمَّ أَمَانَةَ الِابْتِلَاءِ وَعَدَلَ اسْتَحَقَّ الإِمَامَةَ، وَمَنْ ظَلَمَ سَقَطَتْ أَهْلِيَّتُهُ وَلَوِ انْتَسَبَ إِلَى أَكْرَمِ الخَلْقِ.

الصَّدَى

تَاجُ الإِمَامَةِ وَسُقُوطُ التَّوْرِيثِ

صَدَى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

مَنَارَةُ الإِمَامَةِ العُلْيَا لَا تُرْفَعُ إِلَّا فَوْقَ قِمَمِ الِابْتِلَاءِ وَالإِتْمَامِ وَلَا يَنَالُ عَهْدَهَا المُقَدَّسَ ظَالِمٌ وَلَوْ تَعَلَّقَ بِأَنْسَابِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الدُّسْتُورِ العَادِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاغْتِرَارِ بِالمَوْرُوثِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَقَامَاتِ الشَّرَفِ عِنْدَ الخَالِقِ تُنَالُ بِالكَفَاءَةِ وَالعَدْلِ لَا بِالقَرَابَةِ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا القَانُونِ أَنَّ صَلَاحَ الأُصُولِ يَمْنَحُ الفُرُوعَ حَصَانَةً مِنَ السُّقُوطِ أَوْ أَهْلِيَّةً لِلْقِيَادَةِ دُونَ امْتِحَانٍ وَبَلَاءٍ، أَرَى الجَوْهَرَةَ النَّفِيسَةَ لَا تَزْدَادُ بَرِيقاً إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَدْخُلَ نَارَ الصَّهْرِ وَالتَّنْقِيَةِ وَتَخْرُجَ صَافِيَةً كَمَا أَتَمَّ إِبْرَاهِيمُ كَلِمَاتِ رَبِّهِ فَجَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ اسْتَثْنَى الظَّالِمِينَ مِنْ عَهْدِهِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ لِلذُّرِّيَّةِ لِيَهْدِمَ خُرَافَةَ الشَّعْبِ المُخْتَارِ وَيُقِيمَ مِيزَانَ العَدْلِ وَالجَدَارَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عَدْلٍ وَمُجَاهَدَةٍ يَجْعَلُنِي أَسْعَى لِإِتْمَامِ أَوَامِرِ رَبِّي وَأَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ ظُلْمٍ، فَكُلُّ مَقَامٍ يُدَّعَى بِالنَّسَبِ مَعَ الظُّلْمِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا إِمَامَةَ إِلَّا لِعَادِلٍ أَتَمَّ عَهْدَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِحْرَابُ التَّوْحِيدِ العَالَمِيُّ يَنْتَصِبُ مَرْجِعاً تَثُوبُ إِلَيْهِ القُلُوبُ وَتَأْمَنُ فِيهِ الأَرْوَاحُ، لِيُجَدِّدَ صِلَةَ الأَجْيَالِ بِمَقَامِ الخَلِيلِ وَطَهَارَةِ البَيْتِ العَتِيقِ؛ إِذْ يُكَلِّفُ الخَالِقُ أَوْلِيَاءَهُ بِتَطْهِيرِ المَسْجِدِ الحَرَامِ مِنْ أَرْجَاسِ الشِّرْكِ وَالأَوْثَانِ وَأَدْنَاسِ الغَفْلَةِ لِيَكُونَ مَلَاذاً نَقِيّاً لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ قَدَاسَةَ المَكَانِ مَنُوطَةٌ بِطَهَارَةِ التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ العِبَادَةِ الخَالِصَةِ فِيهِ،

فَمَنْ عَمَرَ بُيُوتَ اللهِ بِالطَّهَارَةِ وَالسُّجُودِ نَالَ الأَمْنَ وَالِاسْتِقْرَارَ، وَمَنْ دَنَّسَهَا بِالشِّرْكِ وَالخُرَافَةِ نَقَضَ عَهْدَ الخَلِيلِ.

الصَّدَى

مَثَابَةُ الأَمْنِ وَطَهَارَةُ البَيْتِ

صَدَى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

قِبْلَةُ الأَرْوَاحِ المشْتَاقَةِ تَتَلَأْلَأُ فِي قَلْبِ الأَرْضِ مَثَابَةً تَعُودُ إِلَيْهَا القُلُوبُ كُلَّمَا أَرْهَقَتْهَا غُرْبَةُ الدُّنْيَا وَحَرَماً آمِناً يَطْهُرُ بِالتَّوْحِيدِ لِلسَّاجِدِينَ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المَلَاذِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الوَحْشَةِ وَالخَوْفِ لِيُدْرِكَ أَنَّ البَيْتَ العَتِيقَ هُوَ مَرْكَزُ السَّكِينَةِ الَّذِي يَجْمَعُ شَتَاتَ البَشَرِيَّةِ عَلَى عِبَادَةِ الوَاحِدِ، وَكَمْ تَاهَتْ رُوحِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ فِي مَتَاهَاتِ الحَيَاةِ وَضَجِيجِهَا حَتَّى وَجَدْتُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَرْسَى الأَمَانِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، أَرَى الطُّيُورَ المهَاجِرَةَ الَّتِي تَضْرِبُ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا تَعُودُ بِشَوْقٍ لَا يَفْتُرُ إِلَى عُشِّهَا الآمِنِ لِتَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ كَمَا تَئُوبُ قُلُوبُ النَّاسِ إِلَى بَيْتِ اللهِ الطَّاهِرِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِتَطْهِيرِ البَيْتِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ بُيُوتَ اللهِ وَقُلُوبَ العِبَادِ لَا تَصْلُحُ لِسُكْنَى النُّورِ إِلَّا بَعْدَ تَطْهِيرِهَا مِنْ أَوْثَانِ الشِّرْكِ وَالهَوَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ طَهَارَةٍ وَأَمْنٍ يُنَقِّي قَلْبِي لِيَكُونَ بَيْتاً صَالِحاً لِذِكْرِ رَبِّي، فَكُلُّ مَكَانٍ يَخْلُو مِنْ طَهَارَةِ التَّوْحِيدِ وَحْشَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا فِي جِوَارِ بَيْتِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

المَوْعِظَةُ

سَعَةُ الرُّبُوبِيَّةِ تَتَجَاوَزُ ضِيقَ الِاجْتِهَادِ البَشَرِيّ حِينَ يَشْمَلُ رِزْقُ الدُّنْيَا المؤْمِنَ وَالكَافِرَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ بِمُقْتَضَى الرَّحْمَةِ العَامَّةِ؛ إِذْ دَعَا الخَلِيلُ بِالرِّزْقِ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، فَأَجَابَهُ الخَالِقُ بِأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا عَطَاءٌ عَامٌّ يَتَمَتَّعُ بِهِ الكَافِرُ قَلِيلاً ثُمَّ يُسَاقُ بِعَدْلٍ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، بَيْنَمَا يُدَّخَرُ النَّعِيمُ البَاقِي لِأَهْلِ الإِيمَانِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ مِنْ وَهْمِ قِيَاسِ رِضَا اللهِ بِسَعَةِ الرِّزْقِ الدُّنْيَوِيّ، فَمَنْ نَالَ الرِّزْقَ مَعَ الإِيمَانِ وَالشُّكْرِ جَمَعَ خَيْرَ الدَّارَيْنِ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِمَتَاعِ الدُّنْيَا مَعَ الكُفْرِ كَانَ مَتَاعُهُ اسْتِدْرَاجاً إِلَى بِئْسَ المصِيرِ.

الصَّدَى

دَعْوَةُ الأَمَانِ وَمَتَاعُ الِاسْتِدْرَاجِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

بُسْتَانُ الرُّبُوبِيَّةِ الوَاسِعُ يُفِيضُ ثِمَارَهُ فِي البَلَدِ الآمِنِ عَلَى البَرِّ وَالفَاجِرِ لِيَكْشِفَ هَوَانَ مَتَاعِ الدُّنْيَا الفَانِي أَمَامَ عَظَمَةِ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ الأَبَدِيّ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْحِيحِ الإِلٰهِيّ لِدَعْوَةِ الخَلِيلِ يَتَحَرَّرُ مِنْ خِدْعَةِ المظَاهِرِ لِيُدْرِكَ أَنَّ غِنَى الكَافِرِ لَيْسَ كَرَامَةً بَلْ هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَسْبِقُ الاضْطِرَارَ إِلَى النَّارِ، وَكَمْ حَارَ فِكْرِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الميزَانِ حِينَ كُنْتُ أَرَى نِعَمَ الأَرْضِ تَتَدَفَّقُ عَلَى الجَاحِدِينَ وَأَتَسَاءَلُ عَنْ حِكْمَةِ ذٰلِكَ حَتَّى أَبْصَرْتُ قِصَرَ هٰذَا المتَاعِ وَفَنَاءَهُ، أَرَى الشَّاةَ المعْلُوفَةَ فِي المرْعَى الخَصِيبِ تَأْكُلُ وَتَسْمَنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ السِّكِّينَ تَنْتَظِرُهَا عِنْدَ نِهَايَةِ المرْعَى كَمَا يُمَتِّعُ اللهُ الكَافِرَ قَلِيلاً ثُمَّ يَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ الأَمْنَ بِالرِّزْقِ فِي دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ وَفَرَّقَ بَيْنَ عَطَاءِ الدُّنْيَا المشْتَرَكِ وَجَزَاءِ الآخِرَةِ المخْتَصِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ بَصِيرَةٍ يَجْعَلُنِي أَشْكُرُ النِّعْمَةَ بِالإِيمَانِ وَلَا أَغْتَرُّ بِسَعَةِ المتَاعِ عِنْدَ أَهْلِ الطُّغْيَانِ، فَكُلُّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ سَرَابٌ قَلِيلٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَعِيمَ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

قِمَّةُ الإِخْلَاصِ وَالوَجَلِ تَتَجَلَّى فِي مَشْهَدِ الأَبِ وَالِابْنِ وَهُمَا يَرْفَعَانِ قَوَاعِدَ أَعْظَمِ بَيْتٍ فِي الأَرْضِ، وَقُلُوبُهُمَا تَلْهَجُ بِضَرَاعَةِ القَبُولِ وَتَخْشَى رَدَّ العَمَلِ؛ إِذْ لَمْ يَغْتَرَّ الخَلِيلَانِ بِشَرَفِ البِنَاءِ وَلَا بِمَقَامِ النُّبُوَّةِ، بَلْ تَوَسَّلَا إِلَى السَّمِيعِ لِلدُّعَاءِ العَلِيمِ بِالنِّيَّاتِ أَنْ يَتَقَبَّلَ جَهْدَهُمَا، لِيَتَأَسَّسَ فِي المَنْهَجِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ العِبْرَةَ عِنْدَ الخَالِقِ لَيْسَتْ بِكَثْرَةِ الأَعْمَالِ بَلْ بِقَبُولِهَا وَصَفَاءِ القَصْدِ فِيهَا، فَمَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ وَقَلْبُهُ وَجِلٌ يَسْأَلُ القَبُولَ زَكَا عَمَلُهُ وَرُفِعَ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِفِعْلِهِ وَأَدَلَّ بِهِ عَلَى رَبِّهِ حَبِطَ سَعْيُهُ.

الصَّدَى

سَوَاعِدُ البِنَاءِ وَضَرَاعَةُ القَبُولِ

صَدَى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

حِجَارَةُ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ تَرْتَفِعُ عَلَى سَوَاعِدِ النُّبُوَّةِ مَمْزُوجَةً بِدُمُوعِ الِافْتِقَارِ وَدُعَاءِ القَبُولِ مِنْ خَالِقٍ يَسْمَعُ النِّدَاءَ وَيَعْلَمُ خَفَايَا الصُّدُورِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المَشْهَدِ الخَاشِعِ يَخْلَعُ رِدَاءَ العُجْبِ بِأَيِّ طَاعَةٍ لِيُدْرِكَ أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ يَخَافُونَ رَدَّ أَعْمَالِهِمْ وَيَتَضَرَّعُونَ لِقَبُولِهَا، وَكَمْ أَصَابَنِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأَدَبِ شُعُورٌ بِالِاكْتِفَاءِ وَالرِّضَا عَنِ النَّفْسِ عِنْدَ إِنْجَازِ عَمَلٍ صَالِحٍ دُونَ أَنْ يَرْتَجِفَ قَلْبِي طَلَباً لِلْقَبُولِ، أَرَى الصَّائِغَ المَاهِرَ يَصْنَعُ أَجْمَلَ تُحْفَةٍ ذَهَبِيَّةٍ ثُمَّ يَقِفُ بِتَوَاضُعٍ وَانْكِسَارٍ أَمَامَ المَلِكِ يَرْجُو أَنْ تَنَالَ رِضَاهُ وَلَا تُرَدَّ عَلَيْهِ كَمَا رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ القَوَاعِدَ وَهُمَا يَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَلَّدَ دُعَاءَهُمَا فِي القُرْآنِ لِيُعَلِّمَ كُلَّ عَامِلٍ أَنَّ الِافْتِقَارَ بَعْدَ الطَّاعَةِ أَعْظَمُ مِنَ الطَّاعَةِ نَفْسِهَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَوَاضُعٍ وَرَجَاءٍ يَجْعَلُنِي أَحْتِمُ كُلَّ عَمَلٍ بِسُؤَالِ القَبُولِ وَتَنْقِيَةِ النِّيَّةِ، فَكُلُّ عَمَلٍ يُشَابُ بِالعُجْبِ وَالمَنِّ هَبَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِفْعَةَ إِلَّا لِعَمَلٍ تَقَبَّلَهُ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

رُؤْيَةُ المُسْتَقْبَلِ الرُّوحِيِّ تَدْفَعُ الصَّالِحِينَ إِلَى تَأْمِينِ إِسْلَامِ الذَّاتِ وَالذُّرِّيَّةِ قَبْلَ السُّؤَالِ عَنْ حُظُوظِ المَادَّةِ وَالدُّنْيَا؛ إِذْ يَسْأَلُ الخَلِيلَانِ رَبَّهُمَا كَمَالَ الانْقِيَادِ وَالِاسْتِسْلَامِ لَهُ، وَأَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمَا أُمَّةً مُسْلِمَةً خَالِصَةً، مَعَ طَلَبِ العِلْمِ بِشَرَائِعِ العِبَادَةِ وَالمَنَاسِكِ وَالتَّوْبَةِ الدَّائِمَةِ مِنَ التَّقْصِيرِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ التَّرْبَوِيِّ أَنَّ أَعْظَمَ مِيرَاثٍ يَتْرُكُهُ الآبَاءُ لِلْأَبْنَاءِ هُوَ الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالإِسْلَامِ وَالهِدَايَةِ، فَمَنْ رَبَطَ ذُرِّيَّتَهُ بِعَهْدِ الِاسْتِسْلَامِ لِلَّهِ وَطَلَبَ العِلْمَ وَالتَّوْبَةَ أَثْمَرَ غَرْسُهُ، وَمَنْ انْشَغَلَ بِتَأْمِينِ الدُّنْيَا لِأَبْنَائِهِ وَنَسِيَ دِينَهُمْ خَسِرَ المَآلَ.

الصَّدَى

مِيرَاثُ الِاسْتِسْلَامِ وَأُمَّةُ المُسْتَقْبَلِ
صَدَى ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

بُذُورُ الدُّعَاءِ الصَّادِقِ تَخْتَرِقُ حُجُبَ الزَّمَانِ لِتَصْنَعَ مِنَ الذُّرِّيَّةِ أُمَّةً مُسْتَسْلِمَةً لِخَالِقِهَا تَهْتَدِي بِمَنَاسِكِ النُّورِ وَتَتَفَيَّأُ ظِلَالَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الهَمِّ الرِّسَالِيِّ الكَبِيرِ يَرْتَقِي فَوْقَ أَنَانِيَّةِ الفَرْدِ لِيُدْرِكَ أَنَّ المُؤْمِنَ الحَقَّ يَحْمِلُ هَمَّ هِدَايَةِ الأَجْيَالِ القَادِمَةِ كَمَا يَحْمِلُ هَمَّ نَفْسِهِ، وَكَمْ حَصَرْتُ دُعَائِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأُفُقِ فِي مَطَالِبِي القَرِيبَةِ وَأَغْفَلْتُ الدُّعَاءَ بِثَبَاتِ الإِسْلَامِ فِي ذُرِّيَّتِي وَالعِلْمِ بِشَرَائِعِ رَبِّي، أَرَى الغَارِسَ الحَكِيمَ يَضَعُ النَّوَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الأَرْضِ وَيَسْقِيهَا بِالمَاءِ وَالرِّعَايَةِ لِيَسْتَظِلَّ بِهَا الأَحْفَادُ بَعْدَ قُرُونٍ كَمَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَهُ وَيَتُوبَ عَلَيْهِمَا، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَرَنَ طَلَبَ مَعْرِفَةِ المَنَاسِكِ بِسُؤَالِ التَّوْبَةِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ العَبْدَ مَهْمَا بَلَغَ فِي العِلْمِ وَالعِبَادَةِ يَظَلُّ مُفْتَقِراً إِلَى عَفْوِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ دُعَاءٍ يَمْتَدُّ أَثَرُهُ لِي وَلِذُرِّيَّتِي بِالإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ، فَكُلُّ مِيرَاثٍ يُتْرَكُ لِلْأَبْنَاءِ بِلَا إِيمَانٍ تُرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا لِذُرِّيَّةٍ أَسْلَمَتْ وَجْهَهَا لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٢٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

هَنْدَسَةُ الإِصْلَاحِ النَّبَوِيِّ تَتَكَامَلُ فِي أَرْبَعِ رَكَائِزَ تَبْنِي الإِنْسَانَ وَتُحْيِي الأُمَمَ: تِلَاوَةُ الآيَاتِ الَّتِي تُوقِظُ السَّمْعَ، وَتَعْلِيمُ الكِتَابِ الَّذِي يُنِيرُ العَقْلَ، وَبَثُّ الحِكْمَةِ الَّتِي تَضْبِطُ السُّلُوكَ وَتَضَعُ الأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَتَزْكِيَةُ النُّفُوسِ الَّتِي تُطَهِّرُ القُلُوبَ مِنْ أَدْرَانِ الشِّرْكِ وَالرَّذَائِلِ؛ إِذْ تَجْتَمِعُ فِي هٰذِهِ الدَّعْوَةِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ مَعَالِمُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ الَّتِي أَخْرَجَتِ البَشَرِيَّةَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ النَّهْضَةَ الحَقِيقِيَّةَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ وَالتَّزْكِيَةِ، فَمَنْ أَخَذَ بِمَنْهَجِ النُّبُوَّةِ الكَامِلِ زَكَتْ نَفْسُهُ وَاهْتَدَى عَقْلُهُ، وَمَنْ فَصَلَ العِلْمَ عَنِ الحِكْمَةِ وَالتَّزْكِيَةِ ضَلَّ مَسَارُهُ.

الصَّدَى

مَنَارَةُ النُّبُوَّةِ وَرَكَائِزُ التَّزْكِيَةِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

ثَمَرَةُ الدَّعْوَةِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ تَتَفَتَّحُ فِي أُفُقِ الزَّمَانِ بِبَعْثَةِ الرَّسُولِ الخَاتِمِ الَّذِي يَبْنِي العُقُولَ بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَيُطَهِّرُ الأَرْوَاحَ بِنُورِ التَّزْكِيَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِنْهَاجِ النَّبَوِيِّ المُتَكَامِلِ يَمْتَلِئُ شُكْراً لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الرِّسَالَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ إِصْلَاحَ الإِنْسَانِ يَحْتَاجُ إِلَى نُورِ الوَحْيِ وَبَصِيرَةِ الحِكْمَةِ وَطَهَارَةِ القَلْبِ مَعاً، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الهَنْدَسَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ مَنَاهِجَ بَشَرِيَّةٍ تَهْتَمُّ بِالمَعْلُومَاتِ الجَافَّةِ وَتُهْمِلُ تَزْكِيَةَ النُّفُوسِ فَتُخْرِجُ عُقُولاً ذَكِيَّةً وَقُلُوباً قَاسِيَةً، أَرَى الشَّمْسَ المُنِيرَةَ تَمْنَحُ الكَوْنَ الضِّيَاءَ الَّذِي يَكْشِفُ الطَّرِيقَ وَالدِّفْءَ الَّذِي يُنْضِجُ الثِّمَارَ وَيُطَهِّرُ الأَرْضَ كَمَا يَجْمَعُ رَسُولُ اللهِ بَيْنَ تَعْلِيمِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ بِعِزَّةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذِهِ الدَّعْوَةَ بِاسْمَيْهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ بَعْثَةَ الأَنْبِيَاءِ وَإِصْلَاحَ الأُمَمِ صَادِرٌ عَنْ عِزَّةٍ لَا تُقْهَرُ وَحِكْمَةٍ تَضَعُ

كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ تَرْبِيَةٍ وَبِنَاءٍ يَجْعَلُنِي أَطْلُبُ العِلْمَ المَقْرُونَ بِالحِكْمَةِ وَالتَّزْكِيَةِ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَخْلُو مِنْ طَهَارَةِ الرُّوحِ حُجَّةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِمَنْ اهْتَدَى بِرَسُولِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُكْمُ السَّفَاهَةِ العَقْلِيَّةِ يَلْحَقُ كُلَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ الخَالِصَةِ وَالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ الَّتِي أَقَامَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ لَا يَتْرُكُ النُّورَ الوَاضِحَ وَالفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَاسْتَخَفَّ بِعَقْلِهِ وَبَاعَ كَرَامَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، بَعْدَ أَنْ شَهِدَ الوَحْيُ بِاصْطِفَاءِ الخَلِيلِ إِمَاماً فِي الأَرْضِ وَفَوْزِهِ بِمَقَامِ الصَّالِحِينَ فِي دَارِ البَقَاءِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ قِمَّةُ الرُّشْدِ وَالعَقْلِ وَأَنَّ الإِعْرَاضَ عَنْهُ هُوَ عَيْنُ السَّفَهِ، فَمَنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً فَقَدْ كَرَّمَ نَفْسَهُ وَعَقْلَهُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَقَدْ أَهَانَ ذَاتَهُ وَخَسِرَ الدَّارَيْنِ.

الصَّدَى

سَفَاهَةُ الإِعْرَاضِ وَمَقَامُ الاصْطِفَاءِ

صَدَى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

صَرْحُ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ يَشْمَخُ فِي أُفُقِ الفِطْرَةِ كَأَوْضَحِ طَرِيقٍ إِلَى الخَالِقِ فَلَا يَنْحَرِفُ عَنْهُ إِلَّا مَنْ أَهَانَ عَقْلَهُ وَسَفِهَ نَفْسَهُ بِاخْتِيَارِهِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الحُكْمِ البُرْهَانِيِّ يَزْدَادُ اعْتِزَازاً بِمِلَّةِ التَّوْحِيدِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ دِينُ الفِطْرَةِ وَالرُّشْدِ وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ تِيهٌ وَسَفَاهَةٌ، وَكَمْ تَعَجَّبْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ عُقُولٍ تَدَّعِي الذَّكَاءَ وَالمَعْرِفَةَ ثُمَّ تَسْجُدُ لِلْأَوْهَامِ وَالأَهْوَاءِ وَتُعْرِضُ عَنْ مِلَّةِ الخَلِيلِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَرَى السَّائِرَ الَّذِي يَتْرُكُ الطَّرِيقَ المُعَبَّدَ المُنِيرَ الَّذِي

يَقُودُ إِلَى قَصْرِ السَّعَادَةِ لِيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ فِي مُسْتَنْقَعٍ مُظْلِمٍ فَيَحْكُمُ كُلُّ عَاقِلٍ بِسَفَهِهِ كَمَا سَفِهَ نَفْسَهُ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ الإِعْرَاضَ عَنِ التَّوْحِيدِ بِسَفَهِ النَّفْسِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَتَضَرَّرُ بِالكُفْرِ هُوَ الكَافِرُ نَفْسُهُ حِينَ يَحْرِمُهَا شَرَفَ العُبُودِيَّةِ لِلْخَالِقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى تَاجِ كَرَامَةٍ وَعَقْلٍ يَجْعَلُنِي أَتَمَسَّكُ بِمِلَّةِ التَّوْحِيدِ حَنِيفاً مُسْلِماً، فَكُلُّ مَنْهَجٍ يُخَالِفُ حَنِيفِيَّةَ الخَلِيلِ سَفَهٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا صَلَاحَ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَأَسْلَمَ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٣١–١٤٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَادِرَةُ الِاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ تَكْشِفُ عَنْ سِرِّ الِاصْطِفَاءِ الإِلٰهِيِّ حِينَ يَلْتَقِي أَمْرُ الرُّبُوبِيَّةِ بِقَلْبٍ طَاهِرٍ لَا يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ وَلَا التَّسْوِيفَ؛ إِذْ مَا إِنْ نَادَاهُ خَالِقُهُ بِكَلِمَةِ الِانْقِيَادِ حَتَّى أَعْلَنَ الخَلِيلُ إِسْلَامَ وِجْهَتِهِ وَحَيَاتِهِ كُلِّهَا لِرَبِّ العَالَمِينَ دُونَ شَرْطٍ أَوْ قَيْدٍ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِيزَانِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ كَمَالَ العُبُودِيَّةِ يَكْمُنُ فِي سُرْعَةِ التَّسْلِيمِ لِحِكْمَةِ المَالِكِ المُدَبِّرِ، فَمَنْ أَسْلَمَ قِيَادَهُ لِرَبِّ العَالَمِينَ نَالَ عِزَّ الِانْتِسَابِ وَسَكِينَةَ اليَقِينِ، وَمَنْ تَلَكَّأَ أَمَامَ أَمْرِ السَّمَاءِ حَرَمَ نَفْسَهُ مِنْ مَنَازِلِ المُصْطَفَيْنَ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الِانْقِيَادِ وَسُرْعَةُ التَّسْلِيمِ

صَدَى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

شَرَارَةُ الِاسْتِجَابَةِ السَّرِيعَةِ تَنْطَلِقُ مِنَ القَلْبِ المُؤْمِنِ فَوْرَ سَمَاعِ نِدَاءِ السَّمَاءِ لِتُحَوِّلَ الوُجُودَ كُلَّهُ إِلَى مِحْرَابِ طَاعَةٍ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحِوَارِ القَصِيرِ العَمِيقِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّرَدُّدِ وَالمُسَاوَمَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ شَرَفَ الإِنْسَانِ يَكْمُنُ فِي قَوْلِهِ أَسْلَمْتُ بِلَا تَأْخِيرٍ وَلَا تَبْرِيرٍ، وَكَمْ أَطَلْتُ الوُقُوفَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَلَى عَتَبَاتِ الأَوَامِرِ أُقَلِّبُ الرَّأْيَ وَأَتَرَدَّدُ فِي الخُطْوَةِ بَيْنَمَا الخَلِيلُ أَجَابَ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بِكُلِّ كِيَانِهِ، أَرَى المَرْكَبَ الشِّرَاعِيَّ يَفْتَحُ أَشْرِعَتَهُ فَوْراً لِلنَّسِيمِ العَلِيلِ فَيَنْطَلِقُ بِانْسِيَابٍ

وَقُوَّةٍ نَحْوَ شَاطِئِ الأَمَانِ كَمَا أَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ وَجْهَهُ لِرَبِّ العَالَمِينَ فَوْرَ نِدَائِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ لَخَّصَ تَارِيخَ النُّبُوَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ فِي كَلِمَتَيْنِ تَجْمَعَانِ بَيْنَ أَمْرِ الرَّبِّ وَانْقِيَادِ العَبْدِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ الدِّينَ هُوَ التَّسْلِيمُ المطْلَقُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى شِعَارِ طَاعَةٍ فَوْرِيَّةٍ يُلْغِي التَّسْوِيفَ وَيُعْلِنُ انْقِيَادِي لِرَبِّي فِي كُلِّ شَأْنٍ، فَكُلُّ تَلَكُّؤٍ أَمَامَ أَمْرِ الخَالِقِ قَيْدٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِفْعَةَ إِلَّا لِقَلْبٍ أَسْلَمَ أَمْرَهُ لِرَبِّ العَالَمِينَ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

وَصِيَّةُ الآبَاءِ الرَّاشِدِينَ تَجْعَلُ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى المَمَاتِ أَغْلَى مَا يُورَّثُ لِلْأَبْنَاءِ وَالأَحْفَادِ؛ إِذْ تَوَاصَى الأَنْبِيَاءُ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ أَنَّ هٰذَا الدِّينَ هُوَ اخْتِيَارُ الخَالِقِ المصْطَفَى لِسَعَادَةِ الإِنْسَانِ، وَأَنَّ الوَسِيلَةَ الوَحِيدَةَ لِلْمَوْتِ عَلَى الإِسْلَامِ هِيَ مُلَازَمَتُهُ فِي كُلِّ أَنْفَاسِ الحَيَاةِ لِأَنَّ المَوْتَ يَأْتِي بَغْتَةً، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ التَّرْبَوِيِّ أَنَّ حِمَايَةَ الأُسْرَةِ مِنَ الذَّوَبَانِ العَقَدِيِّ هِيَ أَعْظَمُ مَسْؤُولِيَّةٍ، فَمَنْ رَبَّى أَبْنَاءَهُ عَلَى الِاعْتِزَازِ بِدِينِ اللهِ وَحُسْنِ الخَاتِمَةِ صَانَ ذُرِّيَّتَهُ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي وَصِيَّةِ التَّوْحِيدِ عَرَّضَ أَهْلَهُ لِلضَّيَاعِ.

الصَّدَى

وَصِيَّةُ الأَنْبِيَاءِ وَمِيثَاقُ الخَاتِمَةِ
صَدَى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

عَهْدُ النُّبُوَّةِ المتَوَارَثُ يَنْتَقِلُ مِنْ قَلْبِ الخَلِيلِ إِلَى قَلْبِ يَعْقُوبَ لِيُعَلِّمَ الأَبْنَاءَ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ اصْطِفَاءُ السَّمَاءِ وَأَنَّ الثَّبَاتَ عَلَيْهِ حَتَّى النَّفَسِ الأَخِيرِ هُوَ غَايَةُ الحَيَاةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الوَصِيَّةِ الحَانِيَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الغَفْلَةِ عَنْ عَاقِبَةِ العُمُرِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَمُوتَ مُسْلِماً وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ

مُسْلِماً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَكَمْ شَغَلَتْنِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ مَخَاوِفُ الرِّزْقِ وَالمسْتَقْبَلِ الدُّنْيَوِيِّ لِلْأَبْنَاءِ وَنَسِيتُ أَنَّ أَعْظَمَ خَوْفٍ يَجِبُ أَنْ يَسْكُنَ القَلْبَ هُوَ خَوْفُ سُوءِ الخَاتِمَةِ، أَرَى الحَارِسَ الأَمِينَ عَلَى الكَنْزِ النَّفِيسِ يُوصِي أَبْنَاءَهُ قَبْلَ رَحِيلِهِ أَنْ لَا يُفْلِتُوا الجَوْهَرَةَ مِنْ أَيْدِيهِمْ لَحْظَةً وَاحِدَةً لِئَلَّا يَخْطَفَهَا اللُّصُوصُ عَلَى غَفْلَةٍ كَمَا أَوْصَى إِبْرَاهِيمُ وَيَعْقُوبُ بَنِيهِمْ أَنْ لَا يَمُوتُوا إِلَّا وَهُمْ مُسْلِمُونَ لِلَّهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ وَصِيَّةَ الآبَاءِ مُرَكَّزَةً عَلَى الدِّينِ المصْطَفَى لِيُبَيِّنَ أَنَّ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ مَرْهُونَةٌ بِبَقَائِهِ تَحْتَ رَايَةِ التَّوْحِيدِ إِلَى يَوْمِ اللِّقَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ ثَبَاتٍ يَجْعَلُنِي أُجَدِّدُ إِسْلَامِي فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَأُوصِي بِهِ أَهْلِي، فَكُلُّ مِيرَاثٍ دُنْيَوِيٍّ يَنْقَطِعُ عِنْدَ عَتَبَةِ القَبْرِ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَوْزَ إِلَّا لِمَنْ لَقِيَ اللهَ مُسْلِماً فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَشْهَدُ الِاحْتِضَارِ النَّبَوِيِّ يَفْضَحُ أَكَاذِيبَ المحَرِّفِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ يَعْقُوبَ أَوْصَى بَنِيهِ بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ؛ إِذْ كَانَ هَمُّ النَّبِيِّ فِي لَحَظَاتِ الوَدَاعِ الأَخِيرَةِ الاطْمِئْنَانَ عَلَى وَحْدَةِ المعْبُودِ فِي قُلُوبِ أَبْنَائِهِ، فَجَاءَ جَوَابُهُمُ الحَاسِمُ إِقْرَاراً بِعِبَادَةِ الإِلٰهِ الوَاحِدِ الَّذِي عَبَدَهُ الآبَاءُ وَالأَجْدَادُ وَالِاسْتِسْلَامَ التَّامَّ لَهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ عَقِيدَةَ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً هِيَ الإِسْلَامُ وَالتَّوْحِيدُ بِلَا تَبْدِيلٍ، فَمَنْ لَزِمَ عَهْدَ التَّوْحِيدِ اتَّصَلَ بِسِلْسِلَةِ النُّبُوَّةِ، وَمَنْ ادَّعَى عَلَى الأَنْبِيَاءِ غَيْرَ التَّوْحِيدِ بَطَلَتْ دَعْوَاهُ.

الصَّدَى

سُؤَالُ الوَدَاعِ وَمِيثَاقُ الإِلٰهِ الوَاحِدِ

صَدَى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

لَحْظَةُ الغُرُوبِ الحَاسِمَةُ فِي حَيَاةِ يَعْقُوبَ تَتَحَوَّلُ إِلَى شَمْسِ يَقِينٍ تُطْمَئِنُّ قَلْبَ الأَبِ عَلَى أَنَّ مِشْعَلَ التَّوْحِيدِ سَيَظَلُّ مُتَّقِداً فِي أَيْدِي الأَبْنَاءِ بَعْدَ رَحِيلِهِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحِوَارِ المهِيبِ يَتَسَاءَلُ عَنْ أَعْظَمِ هَمٍّ يَسْكُنُ صَدْرِي عِنْدَ سَاعَةِ الوَدَاعِ لِيُدْرِكَ أَنَّ سَلَامَةَ التَّوْحِيدِ فِي الأَهْلِ هِيَ قُرَّةُ العَيْنِ الحَقِيقِيَّةُ، وَكَمْ غَفَلَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَنْ تَجْدِيدِ عَهْدِ التَّوْحِيدِ مَعَ أَهْلِ بَيْتِي وَتَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّ دِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ هُوَ الإِسْلَامُ لِلَّهِ الوَاحِدِ، أَرَى الشُّعْلَةَ المقَدَّسَةَ تَنْتَقِلُ مِنْ يَدِ الأَبِ المسَافِرِ إِلَى أَيْدِي الأَبْنَاءِ صَافِيَةً نَقِيَّةً لَا يُخَالِطُهَا دُخَانُ الشِّرْكِ كَمَا أَعْلَنَ بَنُو يَعْقُوبَ عِبَادَتَهُمْ لِلْإِلٰهِ الوَاحِدِ وَإِسْلَامَهُمْ لَهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ فَضَحَ ادِّعَاءَ المحَرِّفِينَ بِسُؤَالِ التَّحَدِّي أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ لِيُثْبِتَ أَنَّ الوَحْيَ هُوَ الشَّاهِدُ الأَمِينُ عَلَى تَارِيخِ النُّبُوَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ وَحْدَةٍ وَتَوْحِيدٍ يَرْبِطُ قَلْبِي بِأَنْبِيَاءِ اللهِ جَمِيعاً، فَكُلُّ مَنْهَجٍ يَنْحَرِفُ عَنْ عِبَادَةِ الإِلٰهِ الوَاحِدِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمُسْلِمٍ أَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الِاسْتِقْلَالِ فِي المسْؤُولِيَّةِ يَقْطَعُ أَوْهَامَ التَّوَاكُلِ عَلَى أَمْجَادِ السَّابِقِينَ أَوْ تَحَمُّلِ أَوْزَارِ الغَابِرِينَ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ كُلَّ جِيلٍ مَرْهُونٌ بِكَسْبِهِ وَعَمَلِهِ، فَلَا يَنْفَعُ الخَلَفَ صَلَاحُ السَّلَفِ إِنْ قَصَّرُوا، وَلَا يَضُرُّهُمْ فَسَادُ السَّابِقِينَ إِنْ أَصْلَحُوا، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ مِنْ عُقْدَةِ التَّغَنِّي بِالتَّارِيخِ بِلَا إِنْجَازٍ حَاضِرٍ، فَمَنْ أَحْسَنَ العَمَلَ فِي زَمَانِهِ حَصَدَ ثَمَرَةَ سَعْيِهِ، وَمَنِ اكْتَفَى بِمَفَاخِرِ الآبَاءِ خَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ صِفْرَ اليَدَيْنِ.

الصَّدَى

قَافِلَةُ المَاضِي وَمِيزَانُ الكَسْبِ

صَدَى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

صَفَحَاتُ التَّارِيخِ المِطْوِيَّةُ تَشْهَدُ أَنَّ كُلَّ جِيلٍ يَرْحَلُ بِصَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ وَحْدَهُ لِيَبْقَى الحَاضِرُونَ أَمَامَ مَسْؤُولِيَّتِهِمْ الكَامِلَةِ عَنْ كَسْبِ أَيْدِيهِمْ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الفَصْلِ العَادِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاتِّكَالِ عَلَى مَجْدِ الأَجْدَادِ لِيُدْرِكَ أَنَّ قِيمَتِي تَتَحَدَّدُ بِمَا أُقَدِّمُهُ اليَوْمَ لَا بِمَا فَعَلَهُ السَّابِقُونَ، وَكَمْ زَكَنَتِ النُّفُوسُ الكَسُولَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا القَانُونِ إِلَى التَّبَاهِي بِتُرَاثِ الآبَاءِ وَصَلَاحِهِمْ وَظَنَّتْ أَنَّ ذٰلِكَ يَسُدُّ فَرَاغَ تَقْصِيرِهَا، أَرَى الشَّجَرَةَ الفَتِيَّةَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعِيشَ عَلَى الأَوْرَاقِ الَّتِي أَنْتَجَتْهَا الشَّجَرَةُ الأُمُّ فِي الرَّبِيعِ المَاضِي بَلْ يَجِبُ أَنْ تَمْتَصَّ المَاءَ وَتُورِقَ بِنَفْسِهَا كَمَا أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَا كَسَبَتْ وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ بِعَدْلِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَضَعَ هٰذَا المَبْدَأَ الحَاسِمَ لِيَصْنَعَ الإِنْسَانَ الفَاعِلَ الَّذِي يَبْنِي حَاضِرَهُ وَلَا يَتَسَوَّلُ الكَرَامَةَ مِنْ أَمْجَادِ المَاضِي، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ إِنْجَازٍ وَمُحَاسَبَةٍ ذَاتِيَّةٍ تَجْعَلُنِي أَمْلَأُ صَحِيفَتِي بِالْخَيْرِ، فَكُلُّ تَفَاخُرٍ بِالمَاضِي بِلَا عَمَلٍ حَاضِرٍ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِعَامِلٍ أَحْسَنَ كَسْبَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُوصَلَةُ الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ تَرُدُّ دَعَاوَى التَّحَزُّبِ الضَّيِّقَةِ إِلَى الأَصْلِ النَّقِيِّ الَّذِي لَا شَوَائِبَ فِيهِ؛ إِذْ تَدْعُو الفِرَقُ المُتَنَاحِرَةُ إِلَى الِانْضِوَاءِ تَحْتَ رَايَاتِهَا المُحَرَّفَةِ كَشَرْطٍ لِلْهِدَايَةِ، فَيُعْلِنُ الوَحْيُ المَنْهَجَ الرُّشْدِيَّ الحَاسِمَ بِالِاعْتِصَامِ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ المَائِلِ عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، مُبَرِّئاً سَاحَةَ الخَلِيلِ مِنْ كُلِّ صُوَرِ الشِّرْكِ وَالوَثَنِيَّةِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ المُؤْمِنِ أَنَّ الهِدَايَةَ فِي العَوْدَةِ إِلَى نَبْعِ الفِطْرَةِ وَالتَّوْحِيدِ الأَوَّلِ، فَمَنْ سَلَكَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً نَجَا مِنَ التَّشَتُّتِ وَالِانْحِرَافِ، وَمَنْ تَبِعَ الأَهْوَاءَ الطَّائِفِيَّةَ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ.

الصَّدَى

نَبْعُ الحَنِيفِيَّةِ وَضَجِيجُ الفِرَقِ

صَدَى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

صَوْتُ الفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ يَعْلُو فَوْقَ نِدَاءَاتِ التَّحَزُّبِ وَالتَّقْلِيدِ لِيَرُدَّ التَّائِهِينَ إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِ الَّذِي بَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ كُلِّهِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْحِيحِ الجَذْرِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّبَعِيَّةِ لِلْأَسْمَاءِ المُحْدَثَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الهِدَايَةَ تَكْمُنُ فِي العَوْدَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ الأَوَّلِ الصَّافِي، وَكَمْ حَارَتِ القُلُوبُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بَيْنَ تَنَاقُضَاتِ المَذَاهِبِ وَادِّعَاءَاتِ الطَّوَائِفِ حَتَّى أَشْرَقَتْ شَمْسُ الحَنِيفِيَّةِ تُبَدِّدُ الغَبَشَ وَتُوَحِّدُ الطَّرِيقَ، أَرَى المَاءَ العَذْبَ الصَّافِيَ عِنْدَ رَأْسِ النَّبْعِ الجَبَلِيِّ نَقِيّاً لَمْ تُعَكِّرْهُ الأَتْرِبَةُ الَّتِي تَلَوَّثَتْ بِهَا الجَدَاوِلُ فِي أَسْفَلِ الوَادِي كَمَا تَبْقَى مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً هِيَ الأَصْلَ النَّقِيَّ المُبَرَّأَ مِنَ الشِّرْكِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَ بِالِانْتِسَابِ إِلَى حَنِيفِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِيَقْطَعَ دَابِرَ التَّفَرُّقِ وَيُثْبِتَ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ امْتِدَادٌ لِدِينِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بُوصَلَةٍ تُحْرِيدٍ تَرُدُّنِي دَائِماً إِلَى صَفَاءِ التَّوْحِيدِ وَتُحَرِّرُنِي مِنْ كُلِّ شِرْكٍ خَفِيٍّ، فَكُلُّ مَنْهَجٍ يَشُوبُهُ الشِّرْكُ أَوِ التَّعَصُّبُ طَرِيقٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِحَنِيفٍ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ العَالَمِيَّةِ وَالإِنْصَافِ يُعْلِنُ عَقِيدَةَ المُؤْمِنِينَ الَّتِي تَحْتَضِنُ جَمِيعَ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَتُؤْمِنُ بِكُلِّ الأَنْبِيَاءِ دُونَ تَفْرِيقٍ أَوْ جُحُودٍ؛ إِذْ يَجْمَعُ القَلْبُ المُسْلِمُ بَيْنَ التَّصْدِيقِ بِالوَحْيِ الخَاتِمِ وَبِمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَسَائِرِ النَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ، مُعْلِناً الِانْقِيَادَ الخَالِصَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ دِينُ الوَحْدَةِ الَّذِي يُكَرِّمُ كُلَّ سُفَرَاءِ السَّمَاءِ وَيَرْفُضُ الإِقْصَاءَ، فَمَنْ آمَنَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَأَسْلَمَ لِرَبِّهِ كَمُلَ يَقِينُهُ وَاتَّسَعَ أُفُقُهُ، وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ رُسُلِ اللهِ نَاقَضَ وَحْدَةَ المَصْدَرِ.

الصَّدَى

قَافِلَةُ النُّورِ وَعَقِيدَةُ الوَحْدَةِ

صَدَى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

قُبَّةُ الإِيمَانِ الرَّحِيبَةُ تَتَّسِعُ لِتَحْتَضِنَ مَوْكِبَ الأَنْبِيَاءِ كُلَّهُمْ مِنْ فَجْرِ النُّبُوَّةِ إِلَى خِتَامِهَا بِلَا تَفْرِيقٍ وَلَا تَعَصُّبٍ تَحْتَ رَايَةِ الإِسْلَامِ لِلَّهِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الأُفُقِ الوَاسِعِ يَمْتَلِئُ طُمَأْنِينَةً وَإِنْصَافاً لِيُدْرِكَ أَنَّ الإِسْلَامَ لَمْ يَأْتِ لِيَهْدِمَ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ بَلْ لِيُصَدِّقَهَا وَيَجْمَعَ شَمْلَهَا فِي نُورٍ وَاحِدٍ، وَكَمْ تَمَزَّقَتِ البَشَرِيَّةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بَيْنَ أُمَمٍ تُؤْمِنُ بِنَبِيٍّ وَتَكْفُرُ بِآخَرَ فَتَحْجُبُ عَنْ نَفْسِهَا نِصْفَ الضِّيَاءِ بِسَبَبِ التَّحَيُّزِ وَالجُحُودِ، أَرَى النُّجُومَ المُتَلَأْلِئَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ تَتَكَاثَفُ مَعاً لِتُضِيءَ لَيْلَ المسَافِرِينَ بِنُورٍ وَاحِدٍ يَصْدُرُ عَنْ خَالِقٍ وَاحِدٍ كَمَا يَتَكَامَلُ أَنْبِيَاءُ اللهِ فِي هِدَايَةِ الخَلْقِ دُونَ تَفْرِيقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَنَا أَنْ نُعْلِنَ عَدَمَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ ثُمَّ نُخْتِمَ بِالإِسْلَامِ لَهُ لِيُبَيِّنَ أَنَّ تَوْقِيرَ الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ جُزْءٌ مِنْ عَقِيدَةِ المسْلِمِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ وَحْدَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِكُلِّ أَنْبِيَاءِ رَبِّي وَتَسْلِيمٍ مُطْلَقٍ لِمُرْسِلِهِمْ، فَكُلُّ دَعْوَى تُفَرِّقُ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ جُحُودٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَلَاحَ إِلَّا لِمُسْلِمٍ آمَنَ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

مِعْيَارُ الهِدَايَةِ الثَّابِتُ يَضَعُ إِيمَانَ الوَحْيِ الشَّامِلِ حَكَماً عَلَى النَّاسِ فَمَنْ دَخَلَ فِي هٰذَا النُّورِ نَالَ الهِدَايَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَمَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَغْرَقُ فِي الشِّقَاقِ وَالخِلَافِ الَّذِي يَضُرُّ بِهِ وَلَا يَضُرُّ الحَقَّ شَيْئاً؛ إِذْ يَتَكَفَّلُ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِهِمُ العَلِيمُ بِمَكْرِهِمْ بِكِفَايَةِ عِبَادِهِ الصَّادِقِينَ وَحِمَايَتِهِمْ مِنْ كَيْدِ

المعَانِدِينَ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ المؤْمِنُ مِنْ خَوْفِ المخَالِفِينَ وَمَكْرِ المتَرَبّصِينَ، فَمَنِ اعْتَصَمَ بِإِيمَانِ السَّمَاءِ كَفَاهُ رَبُّهُ شَرَّ الخَلْقِ، وَمَنْ تَوَلَّى عَنِ الحَقِّ انْقَسَمَ عَلَى نَفْسِهِ وَبَاءَ بِالشِّقَاقِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الهُدَى وَكِفَايَةُ السَّمِيعِ

صَدَى ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

حِصْنُ الكِفَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَرْتَفِعُ حَوْلَ أَهْلِ الإِيمَانِ لِيُطَمْئِنَ قُلُوبَهُمْ أَنَّ تَوَلِّيَ المعَانِدِينَ لَا يَزِيدُ الخُصُومَ إِلَّا شِقَاقاً وَتَمَزُّقاً بَيْنَمَا يَتَوَلَّى السَّمِيعُ العَلِيمُ حِمَايَةَ الصَّادِقِينَ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الكَافِي يَخْلَعُ رِدَاءَ القَلَقِ مِنْ كَثْرَةِ المخَالِفِينَ وَمَكْرِهِمْ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ مَعَ الحَقِّ كَفَاهُ خَالِقُ الكَوْنِ، وَكَمْ اضْطَرَبَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ السَّكِينَةِ أَمَامَ ضَجِيجِ المعْتَرِضِينَ وَتَخَالُفِ البَاطِلِ حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي طُمَأْنِينَةُ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ، أَرَى الصَّخْرَةَ الشَّامِخَةَ فِي قَلْبِ البَحْرِ تَتَكَسَّرُ عَلَيْهَا الأَمْوَاجُ الغَاضِبَةُ فَتَتَفَرَّقُ زَبَداً ذَاهِباً بَيْنَمَا تَبْقَى الصَّخْرَةُ ثَابِتَةً بِإِذْنِ خَالِقِهَا كَمَا يَكْفِي اللهُ المؤْمِنِينَ شَرَّ أَهْلِ الشِّقَاقِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ وَعْدَ الكِفَايَةِ بِاسْمَيْهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ كُلَّ هَمْسٍ أَوْ تَخْطِيطٍ يُدَبَّرُ فِي الخَفَاءِ مَكْشُوفٌ لَهُ وَتَحْتَ قَبْضَتِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى دِرْعِ أَمَانٍ وَثَبَاتٍ يَجْعَلُنِي أَمْضِي عَلَى طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَلَا أَخْشَى شِقَاقَ المدْبِرِينَ، فَكُلُّ مَكْرٍ يَقِفُ فِي وَجْهِ الحَقِّ شِقَاقٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كِفَايَةَ إِلَّا مِنَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

المؤْعِظَةُ

صِبْغَةُ الفِطْرَةِ وَالتَّوْحِيدِ تَكْسُو الإِنْسَانَ بِأَجْمَلِ حُلَّةٍ رُوحِيَّةٍ تَظْهَرُ آثَارُهَا فِي سُمُوِّ عَقْلِهِ وَطَهَارَةِ قَلْبِهِ وَاسْتِقَامَةِ سُلُوكِهِ؛ إِذْ تَبْطُلُ أَمَامَ هٰذِهِ الصِّبْغَةِ الرَّبَّانِيَّةِ كُلُّ الأَصْبَاغِ البَشَرِيَّةِ الزَّائِفَةِ وَالمنَاهِجِ المصْنُوعَةِ الَّتِي تَبْهَتُ وَتَزُولُ مَعَ الأَيَّامِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ هُوِيَّةَ الإِسْلَامِ وَالعُبُودِيَّةَ الخَالِصَةِ هِيَ

الجَمَالُ الأَصِيلُ الَّذِي لَا يَعْلُو عَلَيْهِ جَمَالٌ، فَمَنِ اصْطَبَغَ بِفِطْرَةِ اللهِ وَدِينِهِ ازْدَانَتْ حَيَاتُهُ وَثَبَتَتْ هُوِيَّتُهُ، وَمَنِ اسْتَبْدَلَ بِهَا أَصْبَاغَ الأَهْوَاءِ تَشَوَّهَتْ فِطْرَتُهُ وَبَهَتَ نُورُهُ.

الصَّدَى

حُلَّةُ الفِطْرَةِ وَبَهَاءُ الصِّبْغَةِ

صَدَى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾

لَوْنُ التَّوْحِيدِ الصَّافِي يَتَغَلْغَلُ فِي أَعْمَاقِ الرُّوحِ لِيَمْنَحَهَا بَهَاءً أَبَدِيّاً يَفُوقُ كُلَّ زِينَةِ الأَرْضِ وَأَصْبَاغِ البَشَرِ الفَانِيَةِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الجَمَالِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ كُلَّ ثِيَابِ التَّقْلِيدِ وَالتَّبَعِيَّةِ لِيَعْتَزَّ بِصِبْغَةِ اللهِ الَّتِي لَا أَحْسَنَ مِنْهَا صِبْغَةً، وَكَمْ انْبَهَرَتِ العُيُونُ القَاصِرَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِزُخْرُفِ المَنَاهِجِ الأَرْضِيَّةِ وَأَلْوَانِهَا البَرَّاقَةِ الَّتِي سُرْعَانَ مَا تَتَقَشَّرُ عِنْدَ أَوَّلِ امْتِحَانٍ، أَرَى الزَّهْرَةَ البَرِّيَّةَ الَّتِي لَوَّنَتْهَا يَدُ الخَالِقِ بِأَبْهَى الأَلْوَانِ الطَّبِيعِيَّةِ تَفُوحُ عِطْراً وَحَيَاةً بَيْنَمَا تَبْدُو الزَّهْرَةُ المِصْنُوعَةُ مِنَ الوَرَقِ جَامِدَةً بِلَا رُوحٍ وَلَا رَائِحَةٍ كَمَا تَسْمُو صِبْغَةُ اللهِ عَلَى كُلِّ مَنْهَجٍ بَشَرِيٍّ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ التَّبَاهِيَ بِصِبْغَتِهِ بِقَوْلِهِ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ جَمَالَ هٰذِهِ الصِّبْغَةِ يَظْهَرُ فِي صِدْقِ العُبُودِيَّةِ وَالسُّلُوكِ لَا فِي مُجَرَّدِ الدَّعْوَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى تَاجِ عِزَّةٍ وَهُوِيَّةٍ يَجْعَلُنِي أَفْخَرُ بِعُبُودِيَّتِي لِرَبِّي وَلَا أَسْتَبْدِلُ بِدِينِهِ بَدِيلاً، فَكُلُّ صِبْغَةٍ تَخْرُجُ عَنْ فِطْرَةِ السَّمَاءِ قِشْرَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَهَاءَ إِلَّا لِصِبْغَةِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٣٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُرْهَانُ الرُّبُوبِيَّةِ المُشْتَرَكَةِ يَحْسِمُ جَدَلَ المُتَعَصِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ احْتِكَارَ الخَالِقِ لِأَنْفُسِهِمْ دُونَ سَائِرِ البَشَرِ؛ إِذْ يُقِيمُ الوَحْيُ الحُجَّةَ العَقْلِيَّةَ عَلَى أَنَّ اللهَ رَبُّ الجَمِيعِ وَخَالِقُهُمْ، وَأَنَّ التَّفَاضُلَ عِنْدَهُ لَا يَكُونُ بِالجَدَلِ وَالِادِّعَاءِ بَلْ بِصَلَاحِ الأَعْمَالِ وَكَمَالِ الإِخْلَاصِ لَهُ وَحْدَهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّنَافُسَ الحَقِيقِيَّ هُوَ فِي الإِخْلَاصِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لَا فِي المِرَاءِ وَالخُصُومَةِ، فَمَنْ

أَخْلَصَ عَمَلَهُ لِرَبِّ العَالَمِينَ فَازَ بِالقُرْبِ وَالرِّضْوَانِ، وَمَنْ ضَيَّعَ عُمُرَهُ فِي المحَاجَّةِ البَاطِلَةِ خَسِرَ المِيزَانَ.

الصَّدَى

رَبُّ الجَمِيعِ وَمِيزَانُ الإِخْلَاصِ
صَدَى ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

نُورُ الحُجَّةِ الهَادِئَةِ يُطْفِئُ نَارَ الجَدَلِ العَقِيمِ لِيُقَرِّرَ أَنَّ اللهَ رَبُّ العَالَمِينَ جَمِيعاً وَأَنَّ الفَصْلَ بَيْنَ الخَلْقِ يَقُومُ عَلَى الإِخْلَاصِ وَصَلَاحِ الأَعْمَالِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا المَنْطِقِ الرَّصِينِ يَخْلَعُ رِدَاءَ المِرَاءِ وَالمجَادَلَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ لَا يُخْتَكَرُ بِالدَّعْوَى بَلْ يُنَالُ رِضَاهُ بِصَفَاءِ الإِخْلَاصِ، وَكَمْ اسْتَنْزَفَتِ المحَاجَّاتُ الفَارِغَةُ طَاقَاتِ النَّاسِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ حِينَ تَنَازَعُوا عَلَى الأَسْمَاءِ وَأَهْمَلُوا تَجْوِيدَ الأَعْمَالِ وَتَنْقِيَةَ النِّيَّاتِ، أَرَى الشَّمْسَ تَشْرُقُ فِي السَّمَاءِ لِلْجَمِيعِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِضِيَائِهَا وَدِفْئِهَا إِلَّا مَنْ فَتَحَ نَوَافِذَ بَيْتِهِ وَزَرَعَ أَرْضَهُ بِإِتْقَانٍ كَمَا يَنَالُ قُرْبَ اللهِ مَنْ أَخْلَصَ لَهُ العَمَلَ وَأَحْسَنَ السَّعْيَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ المحَاجَّةَ بِقَوْلِهِ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الإِخْلَاصَ هُوَ العَلَامَةُ الفَارِقَةُ الَّتِي تُمَيِّزُ أَهْلَ الحَقِّ عَنْ أَهْلِ الدَّعْوَى، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ صَفَاءٍ يَصْرِفُنِي عَنِ الجَدَلِ إِلَى العَمَلِ وَيُطَهِّرُ نِيَّتِي لِرَبِّي، فَكُلُّ جَدَلٍ يَخْلُو مِنَ الإِخْلَاصِ ضَجِيجٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قَبُولَ إِلَّا لِعَمَلٍ خَالِصٍ لِلَّهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُغَالَطَةُ التَّارِيخِ تَنْكَشِفُ أَمَامَ سُؤَالِ البَدِيهَةِ العَقْلِيَّةِ حِينَ يَنْسِبُ المتَعَصِّبُونَ الأَنْبِيَاءَ الأَوَّلِينَ إِلَى مِلَلٍ ظَهَرَتْ بَعْدَهُمْ بِقُرُونٍ؛ إِذْ يَقْرَعُ الوَحْيُ عُقُولَهُمْ بِالمقَارَنَةِ بَيْنَ جَهْلِ البَشَرِ وَعِلْمِ الخَالِقِ المحِيطِ، وَيَفْضَحُ جَرِيمَةَ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ فِي كُتُبِهِمْ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَالإِسْلَامِ، لِيَتَأَسَّسَ

فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ تَزْيِيفَ الحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ وَكِتْمَانَ العِلْمِ هُمَا أَقْبَحُ صُوَرِ الظُّلْمِ، فَمَنْ أَظْهَرَ شَهَادَةَ الحَقِّ وَسَلَّمَ لِعِلْمِ رَبِّهِ نَجَا مِنَ الظُّلْمِ، وَمَنْ كَتَمَ البُرْهَانَ وَافْتَرَى عَلَى التَّارِيخِ رَصَدَتْهُ عَيْنُ اللهِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

الصَّدَى

مُغَالَطَةُ التَّارِيخِ وَجَرِيمَةُ الكِتْمَانِ

صَدَى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

سَيْفُ الحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ يَقْطَعُ أَكَاذِيبَ المحَرِّفِينَ الَّذِينَ يَلْبِسُونَ الأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ ثِيَابَ مِلَلٍ مُحْدَثَةٍ وَيَكْتُمُونَ شَهَادَةَ السَّمَاءِ المحْفُوظَةَ عِنْدَهُمْ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا البُرْهَانِ القَاطِعِ يَخْضَعُ لِعِلْمِ الخَالِقِ الأَعْلَمِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كِتْمَانَ الحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ هُوَ ذُرْوَةُ الظُّلْمِ وَالِافْتِرَاءِ، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أَهْلِ الأَهْوَاءِ مَنْ يَلْوِي عُنُقَ التَّارِيخِ وَيُخْفِي الوَثَائِقَ الصَّرِيحَةَ لِيُثْبِتَ دَعْوَاهُ البَاطِلَةَ وَيَنْسَى أَنَّ الرَّقِيبَ لَا يَغْفُلُ عَنْ شَيْءٍ، أَرَى الشَّاهِدَ الخَائِنَ فِي المحْكَمَةِ يَطْمِسُ الدَّلِيلَ القَاطِعَ بِيَدِهِ لِيُضَلِّلَ النَّاسَ بَيْنَمَا عَيْنُ القَاضِي الأَعْلَمِ تَرْصُدُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْهُ كَمَا رَصَدَ اللهُ ظُلْمَ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذِهِ الموَاجَهَةَ البُرْهَانِيَّةَ بِقَوْلِهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ لِيُزَلْزِلَ قُلُوبَ الكَاتِمِينَ لِلْحَقِّ وَيُطَمْئِنَ الصَّادِقِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ أَمَانَةٍ يَمْنَعُنِي مِنْ كِتْمَانِ الحَقِّ أَوْ تَزْيِيفِ التَّارِيخِ وَيُثَبِّتُنِي عَلَى الصِّدْقِ، فَكُلُّ شَهَادَةٍ تُكْتَمُ لِأَجْلِ الهَوَى ظُلْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَظْهَرَ شَهَادَةَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٤١–١٥٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قِسْطَاسُ الجَزَاءِ الفَرْدِيِّ يُغْلِقُ مَلَفَّ الِاتِّكَالِ عَلَى صَلَاحِ الآبَاءِ وَأَمْجَادِ السَّلَفِ الغَابِرِ؛ إِذْ يَتَكَرَّرُ هٰذَا القَانُونُ المحْكَمُ لِيُوقِظَ العُقُولَ الغَافِلَةَ إِلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَبْنِي مَصِيرَهُ بِيَدِهِ وَيُحَاسَبُ عَلَى

كَسْبِهِ وَحْدَهُ، فَلَا تُغْنِي شَجَرَةُ النَّسَبِ عَنْ ثَمَرَةِ العَمَلِ، وَلَا يَنْفَعُ تَارِيخُ الصَّالِحِينَ مَنْ قَعَدَ عَنِ الإِحْسَانِ، لِيَتَحَرَّرَ الفِكْرُ الرُّشْدِيُّ مِنْ وَهْمِ التَّفَاخُرِ بِالمَاضِي بِلَا عَطَاءٍ حَاضِرٍ، فَمَنْ عَمَرَ يَوْمَهُ بِالطَّاعَةِ وَالإِتْقَانِ رَبِحَ المَآلَ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالتَّغَنِّي بِالأَجْدَادِ خَرَجَ مِنْ دُنْيَاهُ صِفْرَ الوِفَاضِ.

الصَّدَى

صَحِيفَةُ الكَسْبِ وَسُقُوطُ الِاتِّكَالِ

صَدَى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

مِيزَانُ العَدْلِ الأَبَدِيِّ يَطْوِي سِجِلَّ الأُمَمِ الغَابِرَةِ بِمَا كَسَبَتْ لِيَضَعَ كُلَّ جِيلٍ أَمَامَ مَسْؤُولِيَّتِهِ الكَامِلَةِ عَمَّا تَصْنَعُهُ يَدَاهُ فِي الحَاضِرِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّذْكِيرِ الحَاسِمِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاتِّكَالِ عَلَى مَفَاخِرِ المَاضِي لِيُدْرِكَ أَنَّ النَّجَاةَ لَا تُورَّثُ بِالدَّمِ بَلْ تُنَالُ بِالكَسْبِ وَالِاجْتِهَادِ، وَكَمْ رَكَنَتِ النُّفُوسُ المُتَرَاخِيَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ إِلَى انْتِسَابِهَا لِلصَّالِحِينَ وَتَوَهَّمَتْ أَنَّ صَلَاحَ الآبَاءِ يَسُدُّ فَرَاغَ تَقْصِيرِ الأَبْنَاءِ، أَرَى الشَّجَرَةَ الجَدِيدَةَ لَا تَرْتَوِي بِالمَاءِ الَّذِي شَرِبَتْهُ الشَّجَرَةُ القَدِيمَةُ فِي القَرْنِ المَاضِي بَلْ يَجِبُ أَنْ تَمُدَّ جُذُورَهَا فِي الأَرْضِ لِتَحْيَا وَتُثْمِرَ كَمَا أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مَا كَسَبَتْ وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ بِحُكْمِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَعَادَ تَقْرِيرَ هٰذِهِ القَاعِدَةِ فِي خِتَامِ الجَدَلِ حَوْلَ الأَنْبِيَاءِ لِيَقْطَعَ كُلَّ طَمَعٍ فِي النَّجَاةِ المَجَّانِيَّةِ وَيَبْعَثَ الهِمَمَ نَحْوَ العَمَلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ انْضِبَاطٍ وَعَمَلٍ تَجْعَلُنِي أَبْنِي رَصِيدِي بِيَدِي وَلَا أَتَعَلَّقُ بِأَمْجَادِ الغَابِرِينَ، فَكُلُّ انْتِسَابٍ يَخْلُو مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِعَامِلٍ أَحْسَنَ كَسْبَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

رُؤْيَةُ الوَحْيِ الِاسْتِبَاقِيَّةُ تَكْشِفُ سَفَاهَةَ المُعْتَرِضِينَ عَلَى تَحْوِيلِ القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ؛ إِذْ يَظُنُّ القَاصِرُونَ أَنَّ العِبَادَةَ مُرْتَبِطَةٌ بِذَاتِ الجِهَةِ المكَانِيَّةِ لَا بِطَاعَةِ المالِكِ الَّذِي لَهُ المشْرِقُ وَالمغْرِبُ وَسَائِرُ الآفَاقِ، فَيُعْلِنُ القُرْآنُ أَنَّ الهِدَايَةَ تَكْمُنُ فِي الِانْقِيَادِ لِأَمْرِ الشَّارِعِ حَيْثُمَا وَجَّهَ عِبَادَهُ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ مِنْ وَهْمِ تَقْدِيسِ الأَمَاكِنِ لِذَاتِهَا دُونَ أَمْرِ السَّمَاءِ، فَمَنْ دَارَ مَعَ أَمْرِ رَبِّهِ حَيْثُ دَارَ اهْتَدَى إِلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ، وَمَنِ اعْتَرَضَ عَلَى تَدْبِيرِ الخَالِقِ كَشَفَ عَنْ خِفَّةِ عَقْلِهِ وَسَفَهِ نَظَرِهِ.

الصَّدَى

ضَجِيجُ السُّفَهَاءِ وَبُوصَلَةُ الطَّاعَةِ

صَدَى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أَلْسِنَةُ الجَاهِلِينَ المتَرَبِّصَةِ تَتَهَافَتُ بِالِاعْتِرَاضِ عَلَى تَحْوِيلِ القِبْلَةِ لِأَنَّهَا تَحْبِسُ العُبُودِيَّةَ فِي قَفَصِ الجِهَاتِ وَتَنْسَى أَنَّ المشْرِقَ وَالمغْرِبَ مِلْكٌ لِمَنْ يَأْمُرُ وَيَهْدِي، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْرِيرِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّعَلُّقِ بِالشَّكْلِيَّاتِ المعْزُولَةِ عَنِ الأَمْرِ لِيُدْرِكَ أَنَّ قُدْسِيَّةَ القِبْلَةِ تَنْبُعُ مِنْ طَاعَةِ الخَالِقِ لَا مِنْ حِجَارَةِ المكَانِ، وَكَمْ اضْطَرَبَتِ النُّفُوسُ القَاصِرَةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عِنْدَ تَبَدُّلِ الأَحْوَالِ وَتَغَيُّرِ التَّوَجُّهَاتِ حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّ الثَّابِتَ الحَقِيقِيَّ هُوَ الِامْتِثَالُ لِأَمْرِ السَّمَاءِ، أَرَى الجُنْدِيَّ المنْضَبِطَ يَتَّجِهُ يَمِيناً ثُمَّ يَساراً بِإِشَارَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ قَائِدِهِ الحَكِيمِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سِرِّ الجِهَةِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الأَرْضَ كُلَّهَا مَيْدَانُ الطَّاعَةِ كَمَا يَتَوَجَّهُ المؤْمِنُونَ حَيْثُ أَمَرَهُمُ اللهُ الَّذِي لَهُ المشْرِقُ وَالمغْرِبُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ بِمَقَالَةِ السُّفَهَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ المؤْمِنِينَ وَيُبْطِلَ صَدْمَةَ التَّشْكِيكِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بُوصَلَةِ انْقِيَادٍ تَجْعَلُنِي أَتَّبِعُ أَمْرَ رَبِّي حَيْثُ وَجَّهَنِي وَلَا أَلْتَفِتُ إِلَى ضَجِيجِ السُّفَهَاءِ، فَكُلُّ جِهَةٍ تَخْلُو مِنْ أَمْرِ السَّمَاءِ تِيهٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا عَلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ الَّذِي يَهْدِي إِلَيْهِ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الوَسَطِيَّةِ وَالِاعْتِدَالِ يَرْفَعُ هٰذِهِ الأُمَّةَ لِتَكُونَ شَاهِدَةً بِالعَدْلِ وَالبَصِيرَةِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، بَعْدَ أَنْ خَاضَتْ امْتِحَانَ القِبْلَةِ الَّذِي مَيَّزَ الصَّادِقَ الثَّابِتَ عَلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ مِنَ المُتَرَدِّدِ المُنْقَلِبِ عَلَى عَقِبَيْهِ؛ إِذْ تَشُقُّ هٰذِهِ الِاخْتِبَارَاتُ عَلَى النُّفُوسِ المَأْلُوفَةِ لِلْعَادَةِ وَلٰكِنَّهَا تَهُونُ عَلَى مَنْ هَدَاهُ الخَالِقُ وَثَبَّتَ قَلْبَهُ، مَعَ بِشَارَةٍ تَغْمُرُ القُلُوبَ بِالطُّمَأْنِينَةِ أَنَّ صَلَوَاتِ السَّابِقِينَ وَإِيمَانَهُمْ لَنْ يَضِيعَ عِنْدَ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّكْلِيفَ امْتِحَانٌ لِلِانْقِيَادِ وَأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَحْفَظُ أُجُورَ الطَّائِعِينَ، فَمَنْ ثَبَتَ مَعَ الوَحْيِ نَالَ شَرَفَ الشَّهَادَةِ وَالعَدْلِ، وَمَنِ انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ خَسِرَ شَرَفَ الِاصْطِفَاءِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الوَسَطِيَّةِ وَغِرْبَالُ الِاتِّبَاعِ

صَدَى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

مَنَارَةُ الِاعْتِدَالِ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْتَفِعُ فِي قَلْبِ العَالَمِ لِتُقِيمَ أُمَّةَ الوَسَطِ شَاهِدَةً عَلَى البَشَرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ صَفَّاهَا غِرْبَالُ الطَّاعَةِ مِنَ المُنْقَلِبِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الِامْتِحَانِ الدَّقِيقِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِارْتِبَاطِ بِالمَأْلُوفِ لِيُدْرِكَ أَنَّ العُبُودِيَّةَ الحَقَّةَ هِيَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ حَيْثُ سَارَ بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا انْكِسَارٍ، وَكَمْ شَقَّ عَلَى النَّفْسِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ أَنْ تُغَيِّرَ عَادَةً أَلِفَتْهَا حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ كَسْرَ المَأْلُوفِ بِأَمْرِ السَّمَاءِ هُوَ الدَّلِيلُ الأَصْدَقُ عَلَى حُرِّيَّةِ القَلْبِ لِلَّهِ، أَرَى الذَّهَبَ الخَالِصَ يَدْخُلُ نَارَ الِاخْتِبَارِ فَيَخْرُجُ أَكْثَرَ نَقَاءً وَبَرِيقاً بَيْنَمَا يَتَطَايَرُ الزَّغَلُ وَالشَّوَائِبُ كَمَا يَثْبُتُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ عِنْدَ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ وَيَنْقَلِبُ المُتَرَدِّدُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ طَمْأَنَ قُلُوبَ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ لَنْ يُضِيعَ إِيمَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمُ السَّابِقَةَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ رَأْفَتَهُ وَرَحْمَتَهُ تَحْفَظُ كُلَّ سَعْيٍ صَادِقٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ

الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ ثَبَاتٍ وَوَسَطِيَّةٍ يَحْمِينِي مِنَ الغُلُوِّ وَالتَّفْرِيطِ وَيُطَمْئِنُنِي عَلَى حِفْظِ أَعْمَالِي، فَكُلُّ انْقِلَابٍ عَنْ طَرِيقِ الرَّسُولِ خُسْرَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا شَهَادَةَ عَدْلٍ إِلَّا لِأُمَّةٍ اسْتَقَامَتْ بِرَأْفَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِجَابَةُ السَّمَاءِ لِشَوْقِ النُّبُوَّةِ تُعِيدُ البَشَرِيَّةَ إِلَى قِبْلَةِ التَّوْحِيدِ الأُولَى وَبَيْتِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِذْ رَاقَبَ الخَالِقُ تَطَلُّعَ نَبِيِّهِ الصَّامِتَ نَحْوَ السَّمَاءِ أَدَباً وَشَوْقاً لِلْكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، فَأَكْرَمَهُ بِتَحْوِيلِ القِبْلَةِ إِلَى المسْجِدِ الحَرَامِ وَجَعَلَهُ وِجْهَةً جَامِعَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، رَغْمَ عِلْمِ أَهْلِ الكِتَابِ بِصِدْقِ هٰذَا الحَقِّ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى كِتْمَانِهِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الأَدَبَ مَعَ اللهِ وَصِدْقَ التَّوَجُّهِ يُثْمِرَانِ العَطَاءَ وَالرِّضَا، فَمَنْ وَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ البَيْتِ الحَرَامِ اتَّحَدَتْ وِجْهَتُهُ مَعَ أُمَّةِ التَّوْحِيدِ، وَمَنْ كَتَمَ الحَقَّ بَعْدَ العِلْمِ رَصَدَهُ عِلْمُ الرَّقِيبِ.

الصَّدَى

شَوْقُ السَّمَاءِ وَوِجْهَةُ البَيْتِ الحَرَامِ

صَدَى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

نَظَرَاتُ الشَّوْقِ الصَّامِتَةُ الَّتِي تَرْتَفِعُ مِنْ قَلْبِ النُّبُوَّةِ نَحْوَ العُلَا تَلْتَقِطُهَا عَيْنُ الرَّحْمَةِ لِتُهْدِيَ الأُمَّةَ قِبْلَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ الَّتِي تَرْضَاهَا الأَرْوَاحُ المُوَحِّدَةُ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الإِكْرَامِ الحَانِي يَتَعَلَّمُ أَدَبَ الدُّعَاءِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَى السَّمَاءِ لِيُدْرِكَ أَنَّ اللهَ يَرَى خَفَقَاتِ الرَّجَاءِ فِي الصُّدُورِ قَبْلَ أَنْ تَبُوحَ بِهَا

الشِّفَاهُ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا اللُّطْفِ أَنَّ الرَّغَبَاتِ الصَّادِقَةَ المَكْتُومَةَ تَضِيعُ فِي صَمْتِ الانْتِظَارِ حَتَّى رَأَيْتُ كَيْفَ اسْتَجَابَ الخَالِقُ لِتَقَلُّبِ وَجْهِ نَبِيِّهِ فِي السَّمَاءِ، أَرَى البُوصَلَةَ الدَّقِيقَةَ تَدُورُ فِي فَضَاءِ البَحْرِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ بِثَبَاتٍ تَامٍّ نَحْوَ القُطْبِ الَّذِي تَهْدِي بِهِ السُّفُنَ كَمَا اسْتَقَرَّتْ وُجُوهُ المؤْمِنِينَ شَطْرَ المسْجِدِ الحَرَامِ حَيْثُمَا كَانُوا بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَحَّدَ قِبْلَةَ المسْلِمِينَ فِي كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ لِيَجْمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى مَرْكَزٍ وَاحِدٍ وَيَفْضَحَ كِتْمَانَ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ أَدَبٍ وَاجْتِمَاعٍ يَجْعَلُنِي أَرْفَعُ بَصَرِي إِلَى السَّمَاءِ بِثِقَةٍ وَأُثَبِّتُ وِجْهَتِي نَحْوَ قِبْلَةِ التَّوْحِيدِ، فَكُلُّ وِجْهَةٍ تَنْحَرِفُ عَنْ قِبْلَةِ الحَقِّ تَشَتُّتٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رِضاً إِلَّا فِيمَا اخْتَارَهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

المؤْعِظَةُ

حَسْمُ المفَاصَلَةِ العَقَدِيَّةِ يَقْطَعُ أَمَلَ التَّوَافُقِ المؤْهُومِ مَعَ أَهْلِ العِنَادِ الَّذِينَ لَا تُقْنِعُهُمْ كُلُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُتَعَصِّبٌ لِهَوَاهُ وَقِبْلَتِهِ، وَأَنَّ صَاحِبَ الحَقِّ يَجِبُ أَنْ يَسْتَعْلِيَ بِالعِلْمِ اليَقِينِيِّ الَّذِي أَتَاهُ مِنَ السَّمَاءِ دُونَ أَنْ يَنْجَرَّ خَلْفَ أَهْوَائِهِمْ، لِأَنَّ مُجَارَاةَ الهَوَى بَعْدَ وُضُوحِ العِلْمِ تَنْقُلُ الإِنْسَانَ مِنْ مَقَامِ الهِدَايَةِ إِلَى دَائِرَةِ الظُّلْمِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الثَّبَاتَ عَلَى العِلْمِ البُرْهَانِيِّ أَوْلَى مِنْ مُسَايَرَةِ الخَلْقِ، فَمَنْ لَزِمَ عِلْمَ الوَحْيِ سَلِمَ مِنَ الظُّلْمِ، وَمَنِ اتَّبَعَ الأَهْوَاءَ بَعْدَ المعْرِفَةِ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَدِينَهُ.

الصَّدَى

سُورُ الثَّبَاتِ وَسَرَابُ المسَايَرَةِ

صَدَى ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا

بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

جِدَارُ العِنَادِ المسْتَحْكِمِ يَرُدُّ كُلَّ الآيَاتِ وَالبَرَاهِينِ حِينَ يَكُونُ الرَّفْضُ نَابِعاً مِنَ الهَوَى وَالعَصَبِيَّةِ لَا مِنْ قِلَّةِ الدَّلِيلِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الحَسْمِ الإِلٰهِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ المجَامَلَةِ عَلَى حِسَابِ المبْدَأِ لِيُدْرِكَ أَنَّ اتِّبَاعَ الأَهْوَاءِ بَعْدَ العِلْمِ هُوَ عَيْنُ الظُّلْمِ وَالخُسْرَانِ، وَكَمْ حَاوَلْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنْ أُقْنِعَ المكَابِرِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الحُجَجِ أَوْ أَلِينَ لِأَهْوَائِهِمْ طَمَعاً فِي تَأْلِيفِهِمْ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ الهَوَى لَا يُدَاوَى بِالتَّنَازُلِ، أَرَى النَّهْرَ العَذْبَ الجَارِيَ فِي مَجْرَاهُ المسْتَقِيمِ يَأْبَى أَنْ يَصُبَّ مَاءَهُ فِي المسْتَنْقَعَاتِ الآسِنَةِ لِئَلَّا يَتَعَكَّرَ صَفَاؤُهُ وَيَفْقِدَ حَيَاتَهُ كَمَا يَأْبَى صَاحِبُ الحَقِّ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ المعَانِدِينَ بَعْدَ مَا جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ حَذَّرَ مِنْ اتِّبَاعِ الأَهْوَاءِ بَعْدَ العِلْمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ عُقُوبَةَ الانْحِرَافِ تَعْظُمُ كُلَّمَا ازْدَادَتِ المعْرِفَةُ وَالبَصِيرَةُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى قَلْعَةِ اسْتِقْلَالٍ وَثَبَاتٍ تَجْعَلُنِي أَعْتَزُّ بِعِلْمِ الوَحْيِ وَلَا أُسَاوِمُ عَلَيْهِ لِإِرْضَاءِ أَحَدٍ، فَكُلُّ مَسِيرٍ خَلْفَ أَهْوَاءِ البَشَرِ بَعْدَ العِلْمِ ظُلْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِثَابِتٍ اسْتَقَامَ عَلَى عِلْمِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

المؤعِظَةُ

يَقِينُ المعْرِفَةِ البَاطِنِيَّةِ يَفْضَحُ جَرِيمَةَ الكِتْمَانِ عِنْدَ أَحْبَارِ السُّوءِ الَّذِينَ يُبْصِرُونَ صِدْقَ النُّبُوَّةِ وَضُوحاً يُضَاهِي مَعْرِفَتَهُمْ بِأَبْنَائِهِمْ بَيْنَ الزِّحَامِ؛ وَلٰكِنَّهُمْ يَطْمِسُونَ هٰذِهِ الشَّهَادَةَ عَمْداً وَهُمْ يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهَا خَوْفاً عَلَى رِيَاسَتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ كِتْمَانَ العِلْمِ وَالحَقِيقَةِ بَعْدَ اليَقِينِ بِهَا هُوَ خِيَانَةٌ عُظْمَى لِلْأَمَانَةِ، فَمَنْ صَدَعَ بِالحَقِّ الَّذِي عَرَفَهُ أَدَّى زَكَاةَ عِلْمِهِ وَنَجَا، وَمَنْ كَتَمَ اليَقِينَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا خَانَ ضَمِيرَهُ وَاسْتَوْجَبَ اللَّعْنَةَ.

الصَّدَى

بَصْمَةُ اليَقِينِ وَخِيَانَةُ الكِتْمَانِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

صُورَةُ الحَقِيقَةِ السَّاطِعَةِ تَرْتَسِمُ فِي عُقُولِ العَارِفِينَ بِوُضُوحٍ لَا يَشُوبُهُ شَكٌّ كَمَعْرِفَةِ الأَبِ بِمَلَامِحِ ابْنِهِ فَيَحْنُقُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ بِسِكِّينِ الكِتْمَانِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّشْبِيهِ المُذْهِلِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ أَنْ يَحْجُبَ الهَوَى أَوِ المَصْلَحَةُ لِسَانِي عَنِ الشَّهَادَةِ بِحَقٍّ أَعْرِفُهُ يَقِيناً، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أُنَاسٍ يَتَظَاهَرُونَ بِالحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ أَمَامَ البَرَاهِينِ الجَلِيَّةِ بَيْنَمَا قُلُوبُهُمْ تَعْرِفُ الصِّدْقَ تَمَامَ المَعْرِفَةِ وَلٰكِنَّ الكِبْرَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الِاعْتِرَافِ، أَرَى الأَبَ الَّذِي يُبْصِرُ وَلَدَهُ الوَحِيدَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ بِلَا أَدْنَى لَبْسٍ ثُمَّ يُنْكِرُ مَعْرِفَتَهُ طَمَعاً فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ فَيَسْتَقْبِحُ كُلُّ عَاقِلٍ جُحُودَهُ كَمَا كَتَمَ أُولٰئِكَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ شَبَّهَ مَعْرِفَتَهُمْ بِالنَّبِيِّ بِمَعْرِفَةِ الأَبْنَاءِ لِيَقْطَعَ كُلَّ شُبْهَةٍ فِي وُضُوحِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَيُثْبِتَ أَنَّ كُفْرَهُمْ كَانَ عِنَاداً مَحْضاً، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ صِدْقٍ وَشَجَاعَةٍ يَجْعَلُنِي أَشْهَدُ بِالحَقِّ الَّذِي أَعْرِفُهُ وَلَا أَكْتُمُهُ لِأَجْلِ مَخْلُوقٍ، فَكُلُّ عِلْمٍ يُكْتَمُ بِالهَوَى خِيَانَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ صَدَعَ بِحَقِّ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

صَحْرَةُ اليَقِينِ الرَّاسِخَةُ تَنْفِي كُلَّ شَكٍّ وَارْتِيَابٍ عَنْ قَلْبِ المُؤْمِنِ حِينَ يَسْتَنِدُ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ هٰذَا الدِّينَ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الحَكِيمِ؛ إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ كِتْمَانُ المُكَابِرِينَ أَوْ تَشْكِيكُ الجَاحِدِينَ أَنْ يُثِيرَ فِي النَّفْسِ ذَرَّةً مِنْ تَرَدُّدٍ بَعْدَ ثُبُوتِ المَصْدَرِ الإِلٰهِيِّ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الطُّمَأْنِينَةَ العَقْلِيَّةَ تَنْبُعُ مِنْ صِحَّةِ المَبْدَأِ لَا مِنْ كَثْرَةِ المُوَافِقِينَ، فَمَنِ اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ أَنَّ الحَقَّ مِنْ رَبِّهِ ثَبَتَ كَالجَبَلِ الأَشَمِّ، وَمَنْ فَتَحَ بَابَ الِامْتِرَاءِ وَالشَّكِّ تَزَعْزَعَتْ خُطُوَاتُهُ.

الصَّدَى

صَخْرَةُ اليَقِينِ وَغُبَارُ الِامْتِرَاءِ

صَدَى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

شَمْسُ الحَقِيقَةِ النَّازِلَةُ مِنْ عِنْدِ الخَالِقِ تَسْطَعُ بِثَبَاتٍ أَبَدِيٍّ فَتُبَدِّدُ غُبَارَ الشُّكُوكِ وَتَغْرِسُ اليَقِينَ فِي أَعْمَاقِ البَصِيرَةِ بِلَا تَرَدُّدٍ وَلَا امْتِرَاءٍ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الحَسْمِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّسَاؤُلِ القَلِقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَا جَاءَ مِنَ السَّمَاءِ هُوَ الحَقُّ المُطْلَقُ الَّذِي لَا يَتَزَعْزَعُ بِإِنْكَارِ المُنْكِرِينَ، وَكَمْ هَبَّتْ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الثَّبَاتِ رِيَاحُ الشُّبُهَاتِ وَتَشْكِيكُ الخُصُومِ فَتَحَرَّكَتْ لَهَا بَعْضُ الخَوَاطِرِ حَتَّى أَرْسَى هٰذَا النِّدَاءُ قَوَاعِدَ اليَقِينِ فِي فُؤَادِي، أَرَى الطَّوْدَ الشَّامِخَ الضَّارِبَ بِجُذُورِهِ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ تَمُرُّ بِهِ العَوَاصِفُ وَالغُيُومُ فَتَتَلَاشَى عَلَى صُخُورِهِ دُونَ أَنْ تَهُزَّ مِنْهُ ذَرَّةً كَمَا يَثْبُتُ الحَقُّ النَّازِلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ أَمَامَ كُلِّ مُمْتَرٍ وَمُشَكِّكٍ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَ بِتَرْكِ الِامْتِرَاءِ بَعْدَ إِثْبَاتِ أَنَّ الحَقَّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ مَعْرِفَةَ المَصْدَرِ تَقْطَعُ دَابِرَ التَّرَدُّدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مَرْسَى طُمَأْنِينَةٍ يُثَبِّتُ إِيمَانِي وَيَطْرُدُ وَسَاوِسَ الشَّكِّ، فَكُلُّ ارْتِيَابٍ يَقِفُ أَمَامَ نُورِ السَّمَاءِ غُبَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا يَقِينَ إِلَّا لِلْحَقِّ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مَيْدَانُ المُسَابَقَةِ الحَقِيقِيُّ يَنْتَقِلُ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ ضَجِيجِ الجَدَلِ حَوْلَ الجِهَاتِ إِلَى سِبَاقٍ مَحْمُومٍ فِي فِعْلِ الخَيْرَاتِ وَالإِحْسَانِ؛ إِذْ إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةً تَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا، وَلٰكِنَّ العِبْرَةَ العُظْمَى فِي مُبَادَرَةِ الصَّالِحَاتِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ، لِأَنَّ القُدْرَةَ الإِلٰهِيَّةَ المُطْلَقَةَ سَتَجْمَعُ الخَلَائِقَ جَمِيعاً مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الأَرْضِ يَوْمَ الحِسَابِ لِتُجَازِيَ كُلَّ سَابِقٍ بِسَبْقِهِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّفَاضُلَ بَيْنَ

البَشَرِ يُحْسَمُ بِالمسَارَعَةِ إِلَى الخَيْرِ لَا بِالمَنَاظَرَاتِ الفَارِغَةِ، فَمَنِ اسْتَبَقَ الخَيْرَاتِ فَازَ بِالسَّبْقِ عِنْدَ اللهِ، وَمَنْ ضَيَّعَ وَقْتَهُ فِي الخُصُومَةِ فَاتَهُ رَكْبُ الصَّالِحِينَ.

الصَّدَى

مِضْمَارُ الخَيْرَاتِ وَمَوْعِدُ الجَمْعِ
صَدَى ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

مَيْدَانُ التَّنَافُسِ الشَّرِيفِ يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْمُبَادِرِينَ كَيْ يَتْرُكُوا خُصُومَاتِ الأَلْسِنَةِ وَيَتَسَابَقُوا فِي صِنَاعَةِ الخَيْرَاتِ قَبْلَ يَوْمِ الجَمْعِ الأَكْبَرِ، وَنَفْسِي أَمَامَ هٰذَا النِّدَاءِ المحَفِّزِ تَخْلَعُ رِدَاءَ الكَسَلِ وَالِانْشِغَالِ بِجَدَلِ النَّاسِ لِتُدْرِكَ أَنَّ قِيمَتِي تَتَحَدَّدُ بِمِقْدَارِ مَا أَسْبِقُ إِلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ وَالإِحْسَانِ، وَكَمْ أَضَعْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ مِنْ أَوْقَاتٍ ثَمِينَةٍ فِي مُرَاقَبَةِ وِجْهَاتِ الآخَرِينَ وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا بَدَلَ أَنْ أُطْلِقَ جَوَادَ هِمَّتِي فِي مِضْمَارِ الخَيْرَاتِ، أَرَى الجِيَادَ الأَصِيلَةَ تَنْطَلِقُ فِي السِّبَاقِ نَحْوَ الغَايَةِ لَا تَلْتَفِتُ يَمِيناً وَلَا يَسَاراً لِأَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ الجَائِزَةَ لِمَنْ يَبْلُغُ خَطَّ النِّهَايَةِ أَوَّلاً كَمَا يَأْمُرُنَا اللهُ أَنْ نَسْتَبِقَ الخَيْرَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِنَا جَمِيعاً بِقُدْرَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ الأَمْرَ بِاسْتِبَاقِ الخَيْرَاتِ بِحَتْمِيَّةِ الجَمْعِ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُوقِظَ الهِمَمَ وَيُذَكِّرَنَا أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ نَزْرَعُهُ فِي أَيِّ مَكَانٍ سَنَجِدُهُ مَحْفُوظاً عِنْدَهُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى شُعْلَةِ مُبَادَرَةٍ تَجْعَلُنِي أُسَارِعُ إِلَى كُلِّ بَابٍ مِنَ الخَيْرِ وَلَا أَتَأَخَّرُ عَنْ رَكْبِ السَّابِقِينَ، فَكُلُّ جَدَلٍ يُعَطِّلُ عَنِ الخَيْرِ خُسْرَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا فَوْزَ إِلَّا لِمُسَابِقٍ أَحْسَنَ السَّعْيَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٤٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَبَاتُ الوِجْهَةِ وَالمَبْدَأِ يَبْقَى قَانُوناً مُطَّرِداً لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَسْفَارِ وَالأَحْوَالِ؛ إِذْ يُؤَكِّدُ الوَحْيُ لِلْمُؤْمِنِ أَنَّهُ أَيْنَمَا خَرَجَ وَارْتَحَلَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ فَإِنَّ قِبْلَتَهُ الثَّابِتَةَ هِيَ المَسْجِدُ الحَرَامُ، لِأَنَّ هٰذَا التَّشْرِيعَ هُوَ الحَقُّ المَحْضُ النَّازِلُ مِنَ الرَّبِّ، وَلِأَنَّ رَقَابَةَ الخَالِقِ تُحِيطُ بِأَعْمَالِ العِبَادِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّنَقُّلَ فِي الدُّنْيَا لَا يُسْقِطُ التَّكْلِيفَ وَلَا يُغَيِّرُ البُوصَلَةَ، فَمَنْ حَافَظَ عَلَى وِجْهَتِهِ فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ اسْتَقَامَ أَمْرُهُ، وَمَنْ تَلَوَّنَ بِتَغَيُّرِ الأَمَاكِنِ غَفَلَ عَنْ رَقَابَةِ الرَّقِيبِ.

الصَّدَى

ثَبَاتُ البُوصَلَةِ فِي مَفَارِقِ السَّفَرِ

صَدَى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قِبْلَةُ التَّوْحِيدِ الثَّابِتَةُ تَظَلُّ هِيَ المَرْجِعَ الوَحِيدَ لِلْقَلْبِ وَالجَسَدِ مَهْمَا تَبَدَّلَتِ المَنَازِلُ وَتَعَدَّدَتْ مَخَارِجُ السَّفَرِ فِي الآفَاقِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّأْكِيدِ المُتَكَرِّرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّغَيُّرِ بِتَغَيُّرِ البِيئَاتِ لِيُدْرِكَ أَنَّ انْضِبَاطَ المُؤْمِنِ مَعَ رَبِّهِ لَا يَخْتَلِفُ بَيْنَ الحَضَرِ وَالسَّفَرِ وَلَا بَيْنَ السِّرِّ وَالعَلَنِ، وَكَمْ تَأَثَّرَتِ النُّفُوسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ القَاعِدَةِ بِاخْتِلَافِ الأَمَاكِنِ وَتَبَدُّلِ الظُّرُوفِ فَتَرَاخَتْ فِي التِزَامِهَا حِينَ تَبْتَعِدُ عَنْ مَأْلُوفِهَا، أَرَى النَّجْمَ القُطْبِيَّ الثَّابِتَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ يَظَلُّ هُوَ الدَّلِيلَ الوَحِيدَ لِلْقَوَافِلِ مَهْمَا تَشَعَّبَتْ بِهَا الصَّحَارِي وَتَغَيَّرَتْ مَخَارِجُهَا كَمَا يَظَلُّ المَسْجِدُ الحَرَامُ قِبْلَةَ المُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ خَرَجُوا بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الأَمْرَ بِالثَّبَاتِ عَلَى القِبْلَةِ بِقَوْلِهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ لِيَزْرَعَ الرَّقَابَةَ الذَّاتِيَّةَ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا الإِنْسَانُ خَارِجَ دَارِهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ ثَبَاتٍ يُوَحِّدُ سُلُوكِي فِي كُلِّ مَكَانٍ أَحُلُّ بِهِ تَحْتَ نَظَرِ الرَّقِيبِ، فَكُلُّ تَلَوُّنٍ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَمَاكِنِ ضَعْفٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا اسْتِقَامَةَ إِلَّا لِثَابِتٍ وَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ قِبْلَةِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِكْمَةُ الثَّبَاتِ عَلَى الشَّرِيعَةِ تَتَجَلَّى فِي قَطْعِ حُجَجِ المتَرَبِّصِينَ وَتَحْرِيرِ المؤْمِنِينَ مِنْ خَشْيَةِ الظَّالِمِينَ إِلَى خَشْيَةِ الخَالِقِ وَحْدَهُ؛ إِذْ يُبَيِّنُ الوَحْيُ أَنَّ الِالْتِزَامَ الجَمَاعِيَّ بِالقِبْلَةِ الوَاحِدَةِ يُسْقِطُ ذَرَائِعَ المشَكِّكِينَ الَّذِينَ يَرْقُبُونَ أَيَّ تَنَاقُضٍ فِي مَسِيرَةِ الأُمَّةِ، وَيَدْفَعُ خَوْفَ الظَّالِمِينَ المعَانِدِينَ الَّذِينَ لَا يُقْنِعُهُمْ دَلِيلٌ، لِيَتِمَّ بِذٰلِكَ عَطَاءُ النِّعْمَةِ وَيَكْتَمِلَ نُورُ الهِدَايَةِ، فَمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ وَحْدَهُ وَثَبَتَ عَلَى شَرْعِهِ أَتَمَّ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ وَهَدَاهُ، وَمَنْ خَشِيَ النَّاسَ وَتَرَدَّدَ فِي دِينِهِ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ أَبْوَابَ الحُجَجِ وَالضَّيَاعِ.

الصَّدَى

قَطْعُ الحُجَجِ وَتَمَامُ النِّعْمَةِ

صَدَى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

وَحْدَةُ الصَّفِّ المنْضَبِطِ نَحْوَ قِبْلَةِ التَّوْحِيدِ تَهْدِمُ ذَرَائِعَ المعْتَرِضِينَ وَتَسْكُبُ فِي القُلُوبِ شَجَاعَةً تَخْشَى الخَالِقَ وَحْدَهُ لِتَبْلُغَ تَمَامَ النِّعْمَةِ وَالهِدَايَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الحِكْمَةِ الجَامِعَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ المهَابَةِ مِنْ أَلْسِنَةِ الظَّالِمِينَ لِيُدْرِكَ أَنَّ الثَّبَاتَ الجَمَاعِيَّ عَلَى الحَقِّ يَقْطَعُ الحُجَّةَ عَلَى المنْصِفِينَ وَيَكْشِفُ عِنَادَ الظَّالِمِينَ، وَكَمْ تَرَدَّدَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ خَوْفاً مِنْ لَوْمِ اللَّائِمِينَ وَضَجِيجِ المعَانِدِينَ حَتَّى أَشْرَقَ فِي صَدْرِي نِدَاءُ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي، أَرَى الجَيْشَ المنَظَّمَ الَّذِي يَسِيرُ فِي خَطٍّ وَاحِدٍ وَوِجْهَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَا يَجِدُ العَدُوُّ فِيهِ ثَغْرَةً يَنْفُذُ مِنْهَا وَلَا يَخْشَى صُرَاخَ المثَبِّطِينَ كَمَا يَثْبُتُ المؤْمِنُونَ عَلَى قِبْلَةِ اللهِ لِيُتِمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ وَيَهْدِيَهُمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ تَمَامَ النِّعْمَةِ وَالهِدَايَةِ بِتَحْرِيرِ القَلْبِ مِنْ خَشْيَةِ الظَّالِمِينَ وَقَصْرِ الخَشْيَةِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ

فِي صَدْرِي إِلَى دِرْعِ شَجَاعَةٍ وَتَمَامِ نِعْمَةٍ يَجْعَلُنِي أَثْبُتُ عَلَى الحَقِّ بِلَا خَوْفٍ مِنْ مَخْلُوقٍ، فَكُلُّ خَشْيَةٍ مِنْ غَيْرِ الخَالِقِ ذُلٌّ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا تَمَامَ نِعْمَةٍ إِلَّا لِمَنْ خَشِيَ اللهَ الكَبِيرَ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٥١–١٦٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِنَّةُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ تَتَوَّجُ إِتْمَامَ النِّعْمَةِ بِبَعْثَةِ رَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِ البَشَرِ يُخْرِجُ العُقُولَ مِنْ دَيَاجِيرِ الجَهَالَةِ إِلَى أَنْوَارِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ وَالتَّزْكِيَةِ؛ إِذْ تَتَدَرَّجُ هَنْدَسَةُ البِنَاءِ النَّبَوِيِّ مِنْ تِلَاوَةِ الآيَاتِ الَّتِي تَقْرَعُ السَّمْعَ، إِلَى تَطْهِيرِ البَوَاطِنِ مِنَ الأَدْرَانِ، ثُمَّ تَعْلِيمِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ، وَفَتْحِ آفَاقِ المَعْرِفَةِ الَّتِي كَانَتْ مَحْجُوبَةً عَنِ المَدَارِكِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّزْكِيَةَ تَسْبِقُ التَّعْلِيمَ العَمِيقَ لِتُهَيِّئَ وِعَاءَ القَلْبِ لِقَبُولِ النُّورِ، فَمَنِ اهْتَدَى بِمَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ زَكَتْ رُوحُهُ وَاسْتَنَارَ عَقْلُهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالغَفْلَةِ.

الصَّدَى

مِشْكَاةُ الرِّسَالَةِ وَوِلَادَةُ الوَعْيِ
صَدَى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

شَمْسُ النُّبُوَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ تُشْرِقُ فِي أُفُقِ البَشَرِيَّةِ لِتَغْسِلَ أَدْرَانَ القُلُوبِ بِالتَّزْكِيَةِ وَتَفْتَحَ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لِلْعُقُولِ بِالكِتَابِ وَالحِكْمَةِ وَالعِلْمِ الجَدِيدِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الفَيْضِ الغَامِرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ اليُتْمِ المَعْرِفِيِّ لِيُدْرِكَ أَنَّ إِرْسَالَ الرَّسُولِ هُوَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَتَمَّهَا اللهُ عَلَى الوُجُودِ، وَكَمْ تَاهَتْ بِيَ السُّبُلُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ فِي ظُنُونٍ بَشَرِيَّةٍ قَاصِرَةٍ لَا تَمْلِكُ دَوَاءً لِلْقُلُوبِ وَلَا إِجَابَةً عَنْ أَسْئِلَةِ المَصِيرِ، أَرَى الأَرْضَ البُورَ المَيْتَةَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا الغَيْثُ المَبَارَكُ فَيُطَهِّرُ تُرْبَتَهَا مِنَ الأَمْلَاحِ ثُمَّ يُنْبِتُ فِيهَا أَزْهَاراً وَثِمَاراً لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهَا مِنْ قَبْلُ كَمَا يُزَكِّي رَسُولُ اللهِ النُّفُوسَ وَيُعَلِّمُهَا مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، فَمَا أَعْظَمَ

حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَدَّمَ التَّزْكِيَةَ عَلَى التَّعْلِيمِ فِي هٰذَا السِّيَاقِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ القَلْبَ الطَّاهِرَ هُوَ وَحْدَهُ القَادِرُ عَلَى اسْتِيعَابِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَزْكِيَةٍ وَتَعَلُّمٍ يَجْعَلُنِي أُطَهِّرُ قَلْبِي كُلَّ يَوْمٍ لِأَتَلَقَّى عَنْ رَسُولِ اللهِ نُورَ الوَحْيِ، فَكُلُّ مَعْرِفَةٍ تَنْقَطِعُ عَنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِمَنْ تَزَكَّى وَتَعَلَّمَ بِوَحْيِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ المعَامَلَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَرْفَعُ العَبْدَ الفَقِيرَ إِلَى مَقَامِ الذِّكْرِ فِي المَلَإِ الأَعْلَى كُلَّمَا حَرَّكَ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ بِذِكْرِ خَالِقِهِ فِي الأَرْضِ؛ إِذْ يَجْمَعُ هٰذَا المِيثَاقُ الوَجِيزُ بَيْنَ الذِّكْرِ الَّذِي يَصِلُ الرُّوحَ بِمَبْدَئِهَا، وَالشُّكْرِ الَّذِي يُقَيِّدُ النِّعَمَ وَيُضَاعِفُهَا، وَالنَّهْيِ عَنِ الكُفْرَانِ الَّذِي يَمْحَقُ البَرَكَةَ وَيَقْطَعُ المَدَدَ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ مَفَاتِيحَ القُرْبِ الإِلٰهِيِّ بِيَدِ الإِنْسَانِ بِمِقْدَارِ مَا يَذْكُرُ وَيَشْكُرُ، فَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ وَشَكَرَهُ ذَكَرَهُ اللهُ بِالرَّحْمَةِ وَالعَطَاءِ، وَمَنْ غَفَلَ وَجَحَدَ حُرِمَ شَرَفَ المعِيَّةِ وَالبَقَاءِ.

الصَّدَى

مِفْتَاحُ السَّمَاءِ وَنَشِيدُ العِرْفَانِ
صَدَى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

صَوْتُ الذِّكْرِ الخَاشِعِ يَصْعَدُ مِنْ أَعْمَاقِ الأَرْضِ لِيَطْرُقَ أَبْوَابَ المَلَكُوتِ فَيُقَابَلَ بِذِكْرِ الخَالِقِ لِعَبْدِهِ الضعِيفِ فِي المَلَإِ الأَعْلَى، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّشْرِيفِ المذْهِلِ يَذُوبُ شَوْقاً وَحَيَاءً لِيُدْرِكَ أَنَّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَذْكُرُنِي بِاسْمِي كُلَّمَا ذَكَرْتُهُ وَشَكَرْتُ نِعَمَهُ، وَكَمْ غَفَلَتْ شِفَاهِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ عَنْ تَرْطِيبِ اللِّسَانِ بِالتَّسْبِيحِ وَالحَمْدِ فَحَرَمْتُ رُوحِي مِنْ أَعْظَمِ شَرَفٍ يَنَالُهُ مَخْلُوقٌ فِي الوُجُودِ، أَرَى المِرْآةَ الصَّافِيَةَ المُوَجِّهَةَ نَحْوَ الشَّمْسِ تَسْتَقْبِلُ الشُّعَاعَ فَتَعْكِسُهُ نُوراً وَدِفْئاً فِي كُلِّ الأَرْجَاءِ كَمَا يَسْتَقْبِلُ القَلْبُ الذَّاكِرُ الشَّاكِرُ ذِكْرَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ

الذِّكْرِ وَالشُّكْرِ وَنَهَى عَنِ الكُفْرَانِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الذِّكْرَ يَحْفَظُ صِلَةَ القَلْبِ وَالشُّكْرَ يَحْفَظُ دَوَامَ النِّعْمَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى نَبْضٍ دَائِمٍ يَجْعَلُ أَنْفَاسِي تَلْهَجُ بِذِكْرِ رَبِّي وَشُكْرِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَكُلُّ عُمُرٍ يَخْلُو مِنْ ذِكْرِ الخَالِقِ نِسْيَانٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا شَرَفَ إِلَّا لِذَاكِرٍ شَاكِرٍ ذَكَرَهُ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

زَادُ الطَّرِيقِ الطَّوِيلِ يَتَجَدَّدُ نِدَاؤُهُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ لِيَتَسَلَّحُوا بِالصَّبْرِ الَّذِي يَحْمِي الإِرَادَةَ مِنَ الِانْكِسَارِ، وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَشْحَنُ الرُّوحَ بِمَدَدِ السَّمَاءِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الِابْتِلَاءِ؛ إِذْ تَضْمَنُ هٰذِهِ الوَصِيَّةُ الرَّحِيمَةُ أَعْظَمَ جائِزَةٍ وُجُودِيَّةٍ وَهِيَ مَعِيَّةُ الخَالِقِ لِلصَّابِرِينَ بِالتَّأْيِيدِ وَالنُّصْرَةِ وَالتَّثْبِيتِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ المُؤْمِنَ لَا يُوَاجِهُ أَعْبَاءَ الحَيَاةِ بِقُوَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ المَحْدُودَةِ بَلْ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ وَالمِحْرَابِ، فَمَنْ صَبَرَ وَأَقَامَ صِلَتَهُ بِرَبِّهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ وَلَمْ يُغْلَبْ، وَمَنْ جَزِعَ وَانْقَطَعَ عَنِ الصَّلَاةِ وَاجَهَ العَوَاصِفَ وَحِيداً.

الصَّدَى

جَنَاحَا الثَّبَاتِ وَمَعِيَّةُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

رَايَةُ المَعِيَّةِ الإِلٰهِيَّةِ تَرْتَفِعُ فَوْقَ رُؤُوسِ الصَّابِرِينَ لِتُعْلِنَ أَنَّ مَنِ اسْتَعَانَ بِثَبَاتِ الصَّبْرِ وَنُورِ الصَّلَاةِ لَنْ يُتْرَكَ وَحِيداً فِي مَيْدَانِ الحَيَاةِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الوَعْدِ الدَّافِئِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الوَحْشَةِ وَالانْكِسَارِ عِنْدَ النَّوَائِبِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ مَلَاذُ المَكْرُوبِينَ وَالصَّبْرَ حِصْنُ الثَّابِتِينَ، وَكَمْ أَرْهَقَتْنِي الشَّدَائِدُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ حِينَ كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ المَخْرَجِ فِي ضَجِيجِ الأَسْبَابِ وَأَنْسَى أَنَّ أَقْرَبَ بَابٍ لِلْفَرَجِ هُوَ سَجْدَةٌ خَاشِعَةٌ وَصَبْرٌ جَمِيلٌ، أَرَى الشَّجَرَةَ الصَّامِدَةَ فِي وَجْهِ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ تَثْبُتُ بِجُذُورِهَا العَمِيقَةِ فِي الأَرْضِ وَتَسْتَمِدُّ الحَيَاةَ مِنْ ضِيَاءِ السَّمَاءِ فَلَا تَنْكَسِرُ كَمَا يَثْبُتُ المُؤْمِنُونَ

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ فَيَكُونُ اللهُ مَعَهُمْ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الوَصِيَّةَ بِقَوْلِهِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ لِيُعَوِّضَ الصَّابِرَ عَنْ كُلِّ أَلَمٍ بِشَرَفِ المعِيَّةِ الَّتِي تَهُونُ مَعَهَا كُلُّ المشَاقِّ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى زَادِ طُمَأْنِينَةٍ وَقُوَّةٍ يَجْعَلُنِي أَفْزَعُ إِلَى الصَّلَاةِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ كُلِّ كَرْبٍ، فَكُلُّ جَزَعٍ يَنْقَطِعُ عَنْ مَدَدِ السَّمَاءِ انْكِسَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نُصْرَةَ إِلَّا لِصَابِرٍ كَانَ مَعَهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَفْهُومُ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ يَتَحَرَّرُ مِنْ ضِيقِ الحَوَاسِّ المادِّيَّةِ لِيَكْشِفَ عَنْ خُلُودِ الأَرْوَاحِ الَّتِي بَذَلَتْ دِمَاءَهَا إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ الحَقِّ؛ إِذْ يَنْهَى الوَحْيُ عَنْ إِطْلَاقِ وَصْفِ الفَنَاءِ وَالمَوْتِ عَلَى الشُّهَدَاءِ، وَيُقَرِّرُ أَنَّهُمْ يَنْعَمُونَ بِحَيَاةٍ بَرْزَخِيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ أَرْقَى وَأَكْمَلَ مِمَّا تُدْرِكُهُ مَدَارِكُ البَشَرِ المحْدُودَةُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ البَذْلَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَيْسَ فَنَاءً بَلْ هُوَ عُبُورٌ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ كَرِيمَةٍ، فَمَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ لِإِحْيَاءِ الحَقِّ أَحْيَاهُ اللهُ حَيَاةً لَا تَنْقَطِعُ، وَمَنْ ضَنَّ بِرُوحِهِ وَآثَرَ الدُّنْيَا الفَانِيَةَ فَقَدْ خَسِرَ الحَيَاةَ الحَقِيقِيَّةَ.

الصَّدَى

خُلُودُ الشُّهَدَاءِ وَقُصُورُ الحَوَاسِّ
صَدَى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾

سِتَارُ الغَيْبِ الشَّفَّافُ يَنْكَشِفُ لِيُعْلِنَ أَنَّ دِمَاءَ الشُّهَدَاءِ لَا تَسِيلُ إِلَى الفَنَاءِ بَلْ تَفْتَحُ أَبْوَابَ حَيَاةٍ رَفِيعَةٍ تَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِهَا حَوَاسُّ الأَرْضِ القَاصِرَةُ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الكَشْفِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الحَزْنِ المادِّيِّ عَلَى فِرَاقِ الصَّادِقِينَ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنِ ارْتَقَى فِي سَبِيلِ اللهِ قَدِ انْتَقَلَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الحَيَاةِ الكَامِلَةِ، وَكَمْ خَدَعَتْنِي العَيْنُ المادِّيَّةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ حِينَ كَانَتْ تَرَى سُكُونَ الجَسَدِ فَتَظُنُّهُ نِهَايَةَ الوُجُودِ بَيْنَمَا الرُّوحُ تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الكَرَامَةِ، أَرَى البَذْرَةَ الَّتِي تَخْتَفِي تَحْتَ

التُّرَابِ فَتَظُنُّهَا العَيْنُ الجَاهِلَةُ قَدْ فَنِيَتْ وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ قَدْ تَفَتَّقَتْ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَشَجَرَةٍ بَاسِقَةٍ كَمَا يَحْيَا الشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ بِحُكْمِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَثْبَتَ حَيَاتَهُمْ وَنَفَى شُعُورَ البَشَرِ بِكُنْهِهَا لِيُوَسِّعَ مَدَارِكَنَا بِأَنَّ الوُجُودَ أَكْبَرُ مِمَّا تَرَاهُ العُيُونُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى شَجَاعَةٍ وَيَقِينٍ تُحَرِّرُنِي مِنَ الخَوْفِ عَلَى المَصِيرِ عِنْدَ البَذْلِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، فَكُلُّ حَيَاةٍ تُبْخَلُ بِهَا عَنْ نُصْرَةِ السَّمَاءِ مَوْتٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ حَقَّةً إِلَّا لِمَنْ أَحْيَاهُ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

سُنَّةُ الِابْتِلَاءِ الرَّحِيمَةُ تَكْشِفُ عَنْ حِكْمَةِ التَّرْبِيَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تَصْقُلُ الإِيمَانَ بِاخْتِبَارَاتٍ مَحْسُوسَةٍ فِي الأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ؛ إِذْ يُؤَكِّدُ الوَحْيُ أَنَّ البَلَاءَ قَدَرٌ حَتْمِيٌّ وَلٰكِنَّهُ جُزْءٌ يَسِيرٌ بِحِكْمَةِ اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ، لِيُفْرَزَ الصَّادِقُ الصَّابِرُ مِنَ الجَازِعِ السَّاخِطِ، وَتُزَفُّ البِشَارَةُ الكُبْرَى لِلصَّابِرِينَ الَّذِينَ ثَبَتُوا عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانٍ لَا دَارُ جَزَاءٍ، فَمَنْ قَابَلَ البَلَاءَ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا نَالَ البِشَارَةَ وَالأَجْرَ، وَمَنْ تَسَخَّطَ وَاعْتَرَضَ جَمَعَ بَيْنَ أَلَمِ المَصِيبَةِ وَحِرْمَانِ الثَّوَابِ.

الصَّدَى

غِرْبَالُ الِابْتِلَاءِ وَبِشَارَةُ الصَّابِرِينَ
صَدَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

مِيزَانُ التَّمْحِيصِ الرَّبَّانِيُّ يَمُرُّ عَلَى قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ بِنَسَمَاتٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصِ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ لِيَكْشِفَ مَعْدِنَ الصِّدْقِ وَيُتَوِّجَ الثَّابِتِينَ بِتَاجِ البِشَارَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الإِعْلَانِ الصَّرِيحِ يَخْلَعُ رِدَاءَ المُفَاجَأَةِ وَالِاعْتِرَاضِ عِنْدَ نُزُولِ المِحَنِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الِابْتِلَاءَ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ وَمَقْدَارٌ يَسِيرٌ مَحْفُوفٌ

بِاللُّطْفِ، وَكَمْ جَزِعَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عِنْدَ نَقْصِ حُظُوظِ الدُّنْيَا وَتَبَدُّلِ الأَحْوَالِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ كُلَّ مِحْنَةٍ هِيَ بَوَّابَةٌ لِبِشَارَةٍ تَنْتَظِرُ الصَّابِرِينَ، أَرَى الصَّائِغَ الحَكِيمَ يُدْخِلُ سَبِيكَةَ الذَّهَبِ الخَامِ فِي النَّارِ فَيَنْقُصُ وَزْنُهَا قَلِيلاً بِذَهَابِ الشَّوَائِبِ وَلٰكِنَّهَا تَخْرُجُ نَقِيَّةً تَسْتَحِقُّ أَنْ تُصَاغَ تَاجاً لِلْمُلُوكِ كَمَا يَبْتَلِي اللهُ عِبَادَهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّقْصِ ثُمَّ يُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَالَ بِشَيْءٍ لِيُطَمْئِنَ القُلُوبَ أَنَّ البَلَاءَ مَحْدُودٌ بِقَدَرِ الطَّاقَةِ وَأَنَّ البِشَارَةَ مُطْلَقَةٌ بِلَا حُدُودٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِظَلَّةِ رِضاً وَاسْتِعْدَادٍ تَجْعَلُنِي أَسْتَقْبِلُ أَقْدَارَ رَبِّي بِالصَّبْرِ طَمَعاً فِي بِشَارَتِهِ، فَكُلُّ نَعِيمٍ دُنْيَوِيٍّ عُرْضَةٌ لِلنَّقْصِ وَالزَّوَالِ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بِشَارَةَ إِلَّا لِصَابِرٍ رَضِيَ عَنْهُ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

شِعَارُ الِاسْتِرْجَاعِ المَضِيءُ يَحْسِمُ مَعْرَكَةَ القَلْبِ عِنْدَ نُزُولِ الكَوَارِثِ بِرَدِّ الأَمْرِ كُلِّهِ إِلَى مَالِكِ المُلْكِ؛ إِذْ يُعْلِنُ المُؤْمِنُ الحَكِيمُ عِنْدَ صَدْمَةِ الفَقْدِ أَنَّهُ وَمَا يَمْلِكُ مِلْكٌ خَالِصٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنَّ مَصِيرَ الجَمِيعِ هُوَ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ لِلْحِسَابِ وَالعِوَضِ، لِيَتَحَرَّرَ العَقْلُ الرُّشْدِيُّ مِنْ وَهْمِ التَّمَلُّكِ المُطْلَقِ لِأَشْيَاءِ الدُّنْيَا وَالِاعْتِرَاضِ عَلَى قَضَاءِ المَالِكِ، فَمَنْ رَدَّ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهَا بِرِضاً وَتَسْلِيمٍ هَانَتْ عَلَيْهِ المُصِيبَةُ وَسَكَنَتْ رُوحُهُ، وَمَنْ نَازَعَ الخَالِقَ فِي مُلْكِهِ تَمَزَّقَ قَلْبُهُ بِالحَسْرَةِ وَالجَزَعِ.

الصَّدَى

فَلْسَفَةُ الأَمَانَةِ وَنَشِيدُ الرُّجُوعِ
صَدَى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

كَلِمَةُ الِاسْتِرْجَاعِ الصَّادِقَةُ تَسْكُبُ البَرْدَ وَالسَّلَامَ عَلَى نَارِ المُصِيبَةِ حِينَ تُذَكِّرُ القَلْبَ المَكْلُومَ أَنَّنَا مِلْكٌ لِلَّهِ وَأَنَّ الرِّحْلَةَ تَنْتَهِي بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الشَّافِيَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّمَلُّكِ المَغْرُورِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مَا فِي يَدِي مِنْ نِعَمٍ وَأَحِبَّةٍ هُوَ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ بِيَدِ المَالِكِ الحَكِيمِ، وَكَمْ تَمَزَّقَتْ

رُوحِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ عِنْدَ فَقْدِ عَزِيزٍ أَوْ ذَهَابِ نِعْمَةٍ لِأَنَّنِي كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ مَا فِي يَدِي مِلْكٌ أَبَدِيٌّ لَا يَحِقُّ لِلسَّمَاءِ اسْتِرْدَادُهُ، أَرَى المُسْتَعِيرَ الأَمِينَ يَرُدُّ الوَدِيعَةَ النَّفِيسَةَ إِلَى صَاحِبِهَا الكَرِيمِ عِنْدَمَا يَطْلُبُهَا بِطِيبِ نَفْسٍ وَشُكْرٍ عَلَى مَا انْتَفَعَ بِهِ كَمَا يَقُولُ الصَّابِرُونَ عِنْدَ المُصِيبَةِ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ فِي هٰذِهِ الكَلِمَةِ بَيْنَ الِاعْتِرَافِ بِالمُلْكِيَّةِ فِي البِدَايَةِ وَاليَقِينِ بِالرُّجُوعِ فِي النِّهَايَةِ لِيُطْفِئَ نَارَ الحَسْرَةِ وَيُحَوِّلَ الفَقْدَ إِلَى رَجَاءٍ فِي اللِّقَاءِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بَلْسَمٍ يَشْفِي جِرَاحَ الفَقْدِ وَيُرَبِّي قَلْبِي عَلَى التَّسْلِيمِ المُطْلَقِ، فَكُلُّ مَا عَلَى الأَرْضِ وَدِيعَةٌ مُؤَقَّتَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قَرَارَ إِلَّا عِنْدَ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَاجُ الكَرَامَةِ الإِلٰهِيَّةِ يَتَوِّجُ الصَّابِرِينَ المُسْتَرْجِعِينَ بِثَلَاثِ مَنَاقِبَ عُظْمَى تَمْحُو أَثَرَ المُصِيبَةِ وَتُضَاعِفُ العَطَاءَ: ثَنَاءٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الرَّبِّ، وَرَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ تَجْبُرُ كَسْرَ القَلْبِ، وَشَهَادَةٌ بِالهِدَايَةِ التَّامَّةِ فِي مَوَاقِفِ الِامْتِحَانِ؛ إِذْ يَتَحَوَّلُ البَلَاءُ بِفَضْلِ الصَّبْرِ مِنْ مِحْنَةٍ مُؤْلِمَةٍ إِلَى مِعْرَاجٍ يَرْفَعُ العَبْدَ إِلَى أَعْلَى مَقَامَاتِ القُرْبِ وَالثَّنَاءِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ عِوَضَ السَّمَاءِ لِلصَّابِرِينَ أَعْظَمُ مِمَّا فَقَدُوا فِي الأَرْضِ، فَمَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ البَلَاءِ ظَفِرَ بِالصَّلَوَاتِ وَالرَّحْمَةِ وَالهُدَى، وَمَنْ جَزِعَ وَسَخِطَ خَسِرَ الدُّنْيَا وَعِوَضَ الآخِرَةِ.

الصَّدَى

شَلَّالُ الرَّحْمَةِ وَتَاجُ المُهْتَدِينَ
صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

سَحَائِبُ الثَّنَاءِ وَالرَّحْمَةِ تَتَنَزَّلُ مِنَ العَرْشِ عَلَى قُلُوبِ الصَّابِرِينَ لِتُبَدِّلَ مَرَارَةَ الفَقْدِ حَلَاوَةَ قُرْبٍ وَتُتَوِّجَهُمْ بِشَهَادَةِ الهِدَايَةِ الكَامِلَةِ، وَرُوحِي أَمَامَ هٰذَا العَطَاءِ المُضَاعَفِ تَخْلَعُ رِدَاءَ الأَلَمِ لِتُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مَا نَفْقِدُهُ بِصَبْرٍ يَعُودُ إِلَيْنَا صَلَوَاتٍ مِنَ الرَّبِّ وَرَحْمَةً وَهُدًى، وَكَمْ حَزِنَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ

هٰذِهِ البِشَارَةِ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ حُظُوظِ الأَرْضِ حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ ثَنَاءَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ أَغْلَى مِنْ كُلِّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، أَرَى الشَّجَرَةَ الَّتِي تُقَلَّمُ أَغْصَانُهَا اليَابِسَةُ فَتَبْدُو حَزِينَةً لِلنَّاظِرِينَ ثُمَّ تَنْفَجِرُ بَعْدَ قَلِيلٍ بِأَزْهَارٍ وَثِمَارٍ أَضْعَافَ مَا فَقَدَتْ كَمَا يَغْمُرُ اللهُ الصَّابِرِينَ بِصَلَوَاتٍ مِنْهُ وَرَحْمَةٍ وَيَجْعَلُهُمْ هُمُ المُهْتَدِينَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ لِلصَّابِرِينَ بَيْنَ الثَّنَاءِ وَالرَّحْمَةِ وَالهِدَايَةِ لِيُثْبِتَ أَنَّ الصَّبْرَ هُوَ أَقْصَرُ الطُّرُقِ إِلَى رِضْوَانِ الخَالِقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى يَنَابِيعِ سَلْوَى وَطُمَأْنِينَةٍ تَجْعَلُنِي أَرَى فِي كُلِّ مِحْنَةٍ نَافِذَةَ رَحْمَةٍ وَهِدَايَةٍ، فَكُلُّ مَتَاعٍ يُفْقَدُ فِي الدُّنْيَا عَرَضٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا عِوَضَ أَعْظَمَ مِنْ صَلَوَاتِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَطْهِيرُ الشَّعَائِرِ مِنْ أَوْهَامِ الجَاهِلِيَّةِ يُعِيدُ لِلْعِبَادَةِ صَفَاءَهَا الإِبْرَاهِيمِيَّ وَيَرْفَعُ الحَرَجَ عَنْ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ؛ إِذْ تَحَرَّجَ بَعْضُ الصَّادِقِينَ مِنَ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ لِمَا كَانَ عَلَيْهِمَا مِنْ أَصْنَامِ المُشْرِكِينَ قَبْلَ الإِسْلَامِ، فَقَرَّرَ الوَحْيُ أَنَّهُمَا مِنْ شَعَائِرِ اللهِ المُعَظَّمَةِ الَّتِي تَذْكُرُ بِسَعْيِ هَاجَرَ وَتَوَكُّلِهَا، وَأَنَّ الأَصْنَامَ العَارِضَةَ لَا تُفْسِدُ أَصْلَ الشَّعِيرَةِ، مَعَ التَّرْغِيبِ فِي التَّطَوُّعِ بِالخَيْرِ الَّذِي يُقَابِلُهُ الشَّاكِرُ العَلِيمُ بِأَعْظَمِ الثَّوَابِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الفِقْهِيِّ التَّفْرِيقُ بَيْنَ جَوْهَرِ الشَّعِيرَةِ وَعَوَارِضِ الانْحِرَافِ، فَمَنْ عَظَّمَ شَعَائِرَ اللهِ وَتَطَوَّعَ بِالخَيْرِ شَكَرَ اللهُ سَعْيَهُ وَأَثَابَهُ، وَمَنْ تَوَقَّفَ عَنِ الطَّاعَةِ بِسَبَبِ الأَوْهَامِ حُرِمَ فَضْلَ المُبَادَرَةِ.

الصَّدَى

شَعَائِرُ السَّعْيِ وَتَحْرِيرُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

مَعَالِمُ التَّوْحِيدِ الخَالِدَةُ تَسْتَعِيدُ بَهَاءَهَا النَّقِيَّ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ لِتُطَهِّرَ العِبَادَةَ مِنْ غُبَارِ الجَاهِلِيَّةِ وَتَرْفَعَ الحَرَجَ عَنْ أَفْئِدَةِ السَّاعِينَ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْحِيحِ الفِقْهِيِّ الرَّحِيمِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الوَسْوَسَةِ وَالتَّحَرُّجِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ لِيُدْرِكَ أَنَّ جَوْهَرَ الشَّعَائِرِ يَبْقَى طَاهِراً وَلَوْ عَبَثَ بِهِ الجَاهِلُونَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ، وَكَمْ تَرَدَّدَتْ بَعْضُ القُلُوبِ الورِعَةِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عَنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ خَشْيَةَ الشُّبْهَةِ حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّ التَّطَوُّعَ بِالخَيْرِ مَحَلُّ شُكْرٍ وَتَقْدِيرٍ عِنْدَ الشَّاكِرِ العَلِيمِ، أَرَى النَّبْعَ العَذْبَ الَّذِي تَرَاكَمَتْ حَوْلَهُ أَوْرَاقُ الخَرِيفِ فَلَمَّا أُزِيلَتِ الأَوْرَاقُ عَادَ مَاؤُهُ صَافِياً يَرْوِي الظَّمْآنِينَ كَمَا عَادَ الصَّفَا وَالمَرْوَةُ شَعِيرَةً خَالِصَةً لِلَّهِ بَعْدَ تَحْطِيمِ الأَوْثَانِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الآيَةَ بِوَصْفِ نَفْسِهِ بِالشَّاكِرِ العَلِيمِ لِيُطَمْئِنَ كُلَّ مُتَطَوِّعٍ بِالخَيْرِ أَنَّ سَعْيَهُ مَشْكُورٌ وَنِيَّتَهُ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ رَبِّهِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانٍ بَصِيرَةٍ يُفَرِّقُ بَيْنَ الأَصْلِ الثَّابِتِ وَالعَارِضِ الزَّائِلِ وَيُحَفِّزُنِي لِلتَّطَوُّعِ بِالخَيْرِ، فَكُلُّ وَثَنٍ يَطْرَأُ عَلَى مَعَالِمِ الحَقِّ زَبَدٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا شُكْرَ إِلَّا لِسَعْيٍ خَالِصٍ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٥٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَرِيمَةُ احْتِكَارِ الهِدَايَةِ وَكِتْمَانِ البَيِّنَاتِ تَسْتَجْلِبُ طَرْدَ السَّمَاءِ وَلَعْنَةَ الكَائِنَاتِ عَلَى كُلِّ مَنْ أَخْفَى نُورَ الوَحْيِ بَعْدَ أَنْ جَلَّاهُ الخَالِقُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ؛ إِذْ إِنَّ العِلْمَ الشَّرْعِيَّ مِشْكَاةٌ أُنْزِلَتْ لِتُضِيءَ دُرُوبَ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، فَمَنْ حَبَسَ هٰذَا النُّورَ طَمَعاً فِي رِيَاسَةٍ أَوْ خَوْفاً مِنْ سُلْطَانٍ فَقَدْ خَانَ أَمَانَةَ البَلَاغِ وَاسْتَحَقَّ الطَّرْدَ مِنَ الرَّحْمَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ نَشْرَ العِلْمِ وَتَبْيِينَ الحَقِّ وَاجِبٌ لَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، فَمَنْ بَلَّغَ بَيِّنَاتِ رَبِّهِ بِصِدْقٍ نَالَ الرَّحْمَةَ وَالدُّعَاءَ، وَمَنْ كَتَمَ الهُدَى لَعَنَهُ اللهُ وَالعَالَمُونَ.

الصَّدَى

جَرِيمَةُ الكِتْمَانِ وَلَعْنَةُ الكَائِنَاتِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

سِجْنُ الكِتْمَانِ المظْلِمُ الَّذِي يَحْبِسُ نُورَ الهِدَايَةِ عَنِ الحَائِرِينَ يَتَحَوَّلُ إِلَى دَائِرَةِ طَرْدٍ وَلَعْنَةٍ تَصُبُّهَا السَّمَاءُ وَالأَرْضُ عَلَى رُؤُوسِ الخَائِنِينَ لِأَمَانَةِ الكِتَابِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الوَعِيدِ المزَلْزِلِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ أَنْ أَكْتُمَ حَقّاً عَلَّمَنِيهِ اللهُ أَوْ أُخْفِيَ بَيَاناً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَهْتَدُوا، وَكَمْ رَأَيْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أُنَاسٍ يَحْتَكِرُونَ المعْرِفَةَ أَوْ يَسْكُتُونَ عَنْ بَيَانِ الحَقِّ خَوْفاً عَلَى مَكَاسِبِهِمْ فَيَظُنُّونَ أَنَّ الصَّمْتَ سَلَامَةٌ بَيْنَمَا هُوَ لَعْنَةٌ وَطَرْدٌ، أَرَى البَخِيلَ القَاسِيَ الَّذِي يَضَعُ صَخْرَةً كَبِيرَةً عَلَى عَيْنِ الماءِ العَذْبِ فِي الصَّحْرَاءِ لِيَمْنَعَ القَوَافِلَ العَطْشَى مِنَ الشُّرْبِ فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَارٍّ وَطَائِرٍ كَمَا يَلْعَنُ اللهُ وَاللَّاعِنُونَ مَنْ يَكْتُمُونَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ عُقُوبَةَ الكِتْمَانِ الطَّرْدَ وَاللَّعْنَةَ لِيُحَطِّمَ كَهَنُوتَ الاحْتِكَارِ الدِّينِيِّ وَيَجْعَلَ الوَحْيَ نُوراً مَبْذُولاً لِكُلِّ البَشَرِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقِ بَلَاغٍ وَبَيَانٍ يَجْعَلُنِي أَنْشُرُ الهُدَى الَّذِي أَعْلَمُهُ بِلَا خَوْفٍ وَلَا تَرَدُّدٍ، فَكُلُّ عِلْمٍ يُحْبَسُ عَنِ النَّاسِ بُخْلاً أَوْ هَوًى لَعْنَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا لِمُبَلِّغٍ أَظْهَرَ بَيِّنَاتِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

المؤْعِظَةُ

بَوَّابَةُ الرَّجَاءِ المفْتُوحَةُ تَمْنَحُ المقَصِّرِينَ وَالكَاتِمِينَ فُرْصَةَ العَوْدَةِ وَالنَّجَاةِ بِشَرْطِ اسْتِكْمَالِ أَرْكَانِ التَّوْبَةِ الثَّلَاثَةِ: نَدَمٌ وَرُجُوعٌ إِلَى اللهِ، وَإِصْلَاحٌ لِمَا أَفْسَدَتْهُ الأَيْدِي وَالأَلْسِنَةُ، وَتَبْيِينٌ صَرِيحٌ لِلْحَقِّ الَّذِي كُتِمَ مِنَ النَّاسِ؛ إِذْ يَتَلَقَّى التَّوَّابُ الرَّحِيمُ هٰذِهِ العَوْدَةَ الصَّادِقَةَ بِمَغْفِرَةٍ تَمْحُو أَثَرَ اللَّعْنَةِ وَتُعِيدُ لِلْعَبْدِ كَرَامَتَهُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذُّنُوبِ المتَعَدِّيَةِ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِرَدِّ الحُقُوقِ

وَإِظْهَارِ الحَقِيقَةِ، فَمَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ وَبَيَّنَ قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ وَرَحِمَهُ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالِاسْتِغْفَارِ اللِّسَانِيِّ دُونَ إِصْلَاحٍ وَبَيَانٍ بَقِيَ رَهِينَ تَقْصِيرِهِ.

الصَّدَى

ثُلَاثِيَّةُ العَوْدَةِ وَحَنَانُ التَّوَّابِ

صَدَى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

نَافِذَةُ العَفْوِ الإِلٰهِيِّ تَنْفَتِحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا بَعْدَ رَعْدِ اللَّعْنَةِ لِتُعْلِنَ أَنَّ بَابَ السَّمَاءِ لَا يُغْلَقُ فِي وَجْهِ مَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَ وَبَيَّنَ مَا كَتَمَ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحَنَانِ الغَامِرِ يَذُوبُ شُكْراً لِلتَّوَّابِ الرَّحِيمِ لِيُدْرِكَ أَنَّ التَّوْبَةَ الحَقِيقِيَّةَ عَمَلٌ وَإِصْلَاحٌ وَشَجَاعَةٌ فِي إِظْهَارِ الحَقِّ لَا مُجَرَّدُ دُمُوعٍ عَابِرَةٍ، وَكَمْ ظَنَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ أَنَّ النَّدَمَ الدَّاخِلِيَّ وَحْدَهُ يَكْفِي لِمَحْوِ أَثَرِ الكِتْمَانِ وَالتَّضْلِيلِ حَتَّى أَبْصَرْتُ شَرْطَ الإِصْلَاحِ وَالبَيَانِ، أَرَى الَّذِي أَغْلَقَ نَافِذَةَ النُّورِ عَنِ الجَالِسِينَ فِي الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ لَا تَكْتَمِلُ تَوْبَتُهُ إِلَّا حِينَ يَفْتَحُ النَّافِذَةَ بِيَدِهِ وَيُزِيلُ السَّتَائِرَ لِيَدْخُلَ الضِّيَاءُ إِلَى الجَمِيعِ كَمَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَةَ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ نَسَبَ التَّوْبَةَ إِلَى ذَاتِهِ العَلِيَّةِ بِقَوْلِهِ فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ لِيَغْمُرَ التَّائِبَ الصَّادِقَ بِأَعْظَمِ مَقَامَاتِ القُرْبِ وَالأَمَانِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مَنْهَجِ تَوْبَةٍ عَمَلِيَّةٍ تَدْفَعُنِي لِإِصْلَاحِ كُلِّ خَطَأٍ وَبَيَانِ كُلِّ حَقٍّ أَخْفَيْتُهُ، فَكُلُّ تَوْبَةٍ تَخْلُو مِنَ الإِصْلَاحِ وَالبَيَانِ نَاقِصَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا مَغْفِرَةَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ التَّوَّابِ الرَّحِيمِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٦١–١٧٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

خَاتِمَةُ الإِصْرَارِ عَلَى الجُحُودِ تَطْوِي سِجِلَّ الإِمْهَالِ لِتُعْلِنَ الطَّرْدَ الأَبَدِيَّ مِنْ دَائِرَةِ الرَّحْمَةِ وَالِاحْتِفَاءِ؛ إِذْ تَتَطَابَقُ شَهَادَةُ الخَالِقِ وَالمَلَائِكَةِ وَالبَشَرِ أَجْمَعِينَ عَلَى إِبْعَادِ مَنْ أَغْلَقَ بَابَ الفِطْرَةِ بِيَدِهِ حَتَّى انْقَضَى أَجَلُهُ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الكُفْرَانِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ فُرْصَةَ التَّدَارُكِ

مَمْدُودَةٌ مَا دَامَ النَّفَسُ يَتَرَدَّدُ فِي الصُّدُورِ، فَإِذَا حَضَرَ الأَجَلُ عَلَى العِنَادِ انْقَطَعَ الرَّجَاءُ وَحَقَّ الطَّرْدُ وَالبُعْدُ، فَمَنْ بَادَرَ إِلَى الإِيمَانِ قَبْلَ الغَرْغَرَةِ أَدْرَكَتْهُ الرَّحْمَةُ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى الجُحُودِ تَبَرَّأَ مِنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

الصَّدَى

إِغْلَاقُ البَوَّابَةِ وَإِجْمَاعُ اللَّعْنَةِ
صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

سِتَارُ النِّهَايَةِ الحَاسِمَةُ يُسْدَلُ عَلَى عُمُرٍ انْقَضَى فِي العِنَادِ لِيُعْلِنَ إِجْمَاعَ الخَالِقِ وَالمَلَائِكَةِ وَالخَلْقِ عَلَى طَرْدِ مَنْ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المَصِيرِ المُوحِشِ يَرْتَجِفُ خَشْيَةً مِنْ تَسْوِيفِ التَّوْبَةِ وَالتَّهَاوُنِ بِأَنْفَاسِ العُمُرِ الَّتِي تَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَكَمْ غَفَلَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ عَنْ قِيمَةِ اللَّحْظَةِ الحَاضِرَةِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الأَجَلَ بَعِيدٌ وَأَنَّ الإِصْلَاحَ يُمْكِنُ تَأْجِيلُهُ إِلَى الغَدِ، أَرَى السَّفِينَةَ المُبْحِرَةَ الَّتِي تَتَجَاهَلُ نِدَاءَاتِ المِينَاءِ طُولَ النَّهَارِ حَتَّى يَهْبِطَ اللَّيْلُ وَتُغْلَقَ البَوَّابَاتُ فَتَبْقَى تَائِهَةً فِي الظَّلَامِ البَارِدِ بِلَا مَأْوَى كَمَا يُطْرَدُ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ قَيَّدَ اللَّعْنَةَ الأَبَدِيَّةَ بِالمَوْتِ عَلَى الكُفْرِ لِيَبْقَى بَابُ العَوْدَةِ مَفْتُوحاً لِلْأَحْيَاءِ وَيُنْذِرَ المُسَوِّفِينَ مِنْ بَغْتَةِ الرَّحِيلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى جَرَسٍ يَقْطَةٍ يَدْفَعُنِي لِتَجْدِيدِ إِيمَانِي وَتَوْبَتِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ، فَكُلُّ عُمُرٍ يُخْتَمُ بِالجُحُودِ خَسَارَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا لِمَنْ لَقِيَ اللهَ مُؤْمِناً فِي كُلِّ مَآلٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

دَيْمُومَةُ العَذَابِ الأَبَدِيِّ تَكْشِفُ عَنْ قَسْوَةِ الجَزَاءِ حِينَ يَنْتَهِي زَمَنُ الِاخْتِبَارِ وَتَنْقَطِعُ فُرَصُ الإِمْهَالِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ أَهْلَ الطَّرْدِ يَبْقَوْنَ فِي سِجْنِ العُقُوبَةِ بِلَا انْقِطَاعٍ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْهُمُ العَذَابُ لَحْظَةً لِلرَّاحَةِ، وَلَا يُمْنَحُونَ مُهْلَةً لِلِاعْتِذَارِ أَوِ التَّدَارُكِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ

الإِمْهَالَ الدُّنْيَوِيَّ نِعْمَةٌ عُظْمَى يَجِبُ اغْتِنَامُهَا قَبْلَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى حَسْرَةٍ لَا تَنْقَضِي، فَمَنْ بَادَرَ بِالعُذْرِ وَالتَّوْبَةِ فِي دَارِ الإِنْظَارِ نَجَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مُهْلَةَ العُمُرِ وَقَفَ فِي دَارِ الجَزَاءِ بِلَا تَخْفِيفٍ وَلَا إِنْظَارٍ.

الصَّدَى

سِجْنُ الأَبَدِ وَانْقِطَاعُ المهْلَةِ
صَدَى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

صَمْتُ الأَبَدِيَّةِ الثَّقِيلُ يُطْبِقُ عَلَى أَهْلِ الجُحُودِ فَلَا تَخْفِيفَ يُرِيحُ الأَبْدَانَ وَلَا مُهْلَةَ تُعِيدُ الزَّمَانَ إِلَى الوَرَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الحُكْمِ الصَّارِمِ يَسْتَشْعِرُ قِيمَةَ كُلِّ ثَانِيَةٍ أَعِيشُهَا اليَوْمَ فِي دَارِ الإِمْهَالِ وَالتَّيْسِيرِ، وَكَمْ تَهَاوَنْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِالسَّاعَاتِ وَالأَيَّامِ كَأَنَّهَا مَعْدِنٌ رَخِيصٌ لَا يَنْفَدُ حَتَّى أَبْصَرْتُ يَوْماً لَا يُنظَرُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُخَفَّفُ فِيهِ العَذَابُ، أَرَى الزَّارِعَ الكَسُولَ الَّذِي يَنَامُ طُولَ مَوْسِمِ البَذْرِ وَالسَّقْيِ فَإِذَا حَلَّ شِتَاءُ الجَفَافِ وَانْغَلَقَتِ الأَرْضُ بَكَى وَطَلَبَ مُهْلَةً لِيَزْرَعَ فَلَا يَجِدُ إِلَّا البَرْدَ وَالحِرْمَانَ كَمَا يُحْرَمُ الكَافِرُونَ مِنَ التَّخْفِيفِ وَالإِنْظَارِ بِعَدْلِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَعْلَمَنَا بِانْقِطَاعِ التَّخْفِيفِ وَالإِنْظَارِ فِي الآخِرَةِ لِيُوقِظَ هِمَمَنَا فِي الدُّنْيَا حَيْثُ الرَّحْمَةُ مَبْذُولَةٌ وَالإِمْهَالُ مَمْنُوحٌ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ اغْتِنَامٍ يَجْعَلُنِي أَسْتَثْمِرُ مُهْلَةَ حَيَاتِي قَبْلَ انْتِهَاءِ الأَجَلِ، فَكُلُّ تَسْوِيفٍ يَضِيعُ فِيهِ زَمَنُ الإِنْظَارِ حَسْرَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمُبَادِرٍ اغْتَنَمَ مُهْلَةَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

قِمَّةُ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ تَشْمَخُ فِي أُفُقِ الوُجُودِ لِتُعْلِنَ وَحْدَانِيَّةَ المَعْبُودِ وَتَفَرُّدَهُ بِالأُلُوهِيَّةِ وَالرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ وَالخَاصَّةِ؛ إِذْ يَجْمَعُ الوَحْيُ بَيْنَ نَفْيِ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ وَإِثْبَاتِ كَمَالِ رَحْمَتِهِ، لِيُدْرِكَ العَقْلُ البَشَرِيُّ أَنَّ وَحْدَةَ الخَالِقِ تَقْتَضِي وَحْدَةَ الوِجْهَةِ، وَأَنَّ الِانْقِيَادَ لِلْإِلٰهِ الوَاحِدِ هُوَ مَصْدَرُ الأَمَانِ

وَالسَّعَةِ لَا القَهْرِ وَالضِّيقِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوْحِيدَ المَقْرُونَ بِالرَّحْمَةِ هُوَ أَسَاسُ النِّظَامِ الكَوْنِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، فَمَنْ وَحَّدَ رَبَّهُ وَاسْتَظَلَّ بِرَحْمَتِهِ اجْتَمَعَ شَمْلُ قَلْبِهِ، وَمَنْ فَرَّقَ وَلَاءَهُ بَيْنَ الآلِهَةِ المَوْهُومَةِ تَمَزَّقَتْ رُوحُهُ.

الصَّدَى

نُورُ التَّوْحِيدِ وَسَحَابَةُ الرَّحْمَةِ
صَدَى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

شَمْسُ الوَحْدَانِيَّةِ السَّاطِعَةُ تُوَحِّدُ شَتَاتَ القُلُوبِ الحَائِرَةِ لِتَرُدَّهَا إِلَى إِلٰهٍ وَاحِدٍ يَعْمُرُ الكَوْنَ بِفَيْضِ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الإِعْلَانِ الكَوْنِيِّ يَخْلَعُ أَغْلَالَ التَّعَدُّدِ وَالتَّشَتُّتِ لِيَسْتَقِرَّ فِي مِحْرَابِ الوَاحِدِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، وَكَمْ تَمَزَّقَتْ نَفْسِي قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بَيْنَ إِرْضَاءِ أَهْوَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَخَاوِفَ شَتَّى حَتَّى جَمَعَنِي التَّوْحِيدُ عَلَى بَابٍ وَاحِدٍ مَفْتُوحٍ بِالرَّحْمَةِ، أَرَى الأَنْهَارَ وَالجَدَاوِلَ الصَّغِيرَةَ كُلَّهَا تَنْسَابُ نَحْوَ البَحْرِ الكَبِيرِ لِتَسْتَقِرَّ فِي أَحْضَانِهِ الوَاسِعَةِ كَمَا تَتَّجِهُ القُلُوبُ المُوَحِّدَةُ نَحْوَ الإِلٰهِ الوَاحِدِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ إِعْلَانَ التَّوْحِيدِ بِصِفَتَيِ الرَّحْمَةِ لِيُطَمْئِنَ العُقُولَ أَنَّ الإِلٰهَ الوَاحِدَ الَّذِي تَخْضَعُ لَهُ الأَكْوَانُ هُوَ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مَرْسَى سَكِينَةٍ يُوَحِّدُ وِجْهَتِي وَيَعْمُرُنِي بِالأَمَانِ، فَكُلُّ مَعْبُودٍ يُتَّخَذُ مِنْ دُونِ الوَاحِدِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِهْرَجَانُ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ يَفْتَحُ صَفَحَاتِ الوُجُودِ أَمَامَ العُقُولِ البَصِيرَةِ لِتَقْرَأَ بَرَاهِينَ الوَحْدَانِيَّةِ وَالإِتْقَانِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ وَمَجَرَّةٍ؛ إِذْ يَتَلَاحَمُ إِبْدَاعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَعَ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَسُفُنِ

البِحَارِ الجَارِيَةِ بِمَنَافِعِ البَشَرِ، وَغَيْثِ السَّمَاءِ الَّذِي يُحْيِي مَوَاتَ الثَّرَى وَيَبُثُّ فِيهِ الحَيَاةَ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المسَخَّرِ بِدِقَّةٍ لَا تَطِيشُ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المِنْهَجِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ النَّظَرَ العَقْلِيَّ فِي صَنْعَةِ الكَوْنِ هُوَ الطَّرِيقُ الأَقْوَمُ إِلَى اليَقِينِ، فَمَنْ أَعْمَلَ عَقْلَهُ فِي مَلَكُوتِ اللهِ أَبْصَرَ الحَقَّ وَاهْتَدَى، وَمَنْ مَرَّ عَلَى الآيَاتِ كَالأَعْمَى حُرِمَ نُورَ الهِدَايَةِ.

الصَّدَى

كِتَابُ الكَوْنِ وَمِحْرَابُ العُقَلَاءِ

صَدَى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

سِفْرُ الوُجُودِ المَفْتُوحُ يَنْطِقُ بِوَحْدَانِيَّةِ الخَالِقِ فِي رَفْعِ السَّمَاوَاتِ وَتَعَاقُبِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَجَرَيَانِ الفُلْكِ وَنُزُولِ الغَيْثِ وَتَسْخِيرِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ لِتَقْرَأَهُ العُقُولُ المتَدَبِّرَةُ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ السِّيمْفُونِيَّةِ الكَوْنِيَّةِ المتْقَنَةِ يَخْلَعُ غَفْلَةَ الاعْتِيَادِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ مَشْهَدٍ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى المبْدِعِ الحَكِيمِ، وَكَمْ مَرَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ البَصِيرَةِ عَلَى هُبُوبِ الرِّيحِ وَنُزُولِ المطَرِ وَسَيْرِ السُّفُنِ بِعَيْنٍ عَابِرَةٍ لَا تَرَى وَرَاءَ الأَسْبَابِ يَدَ التَّسْخِيرِ الإِلٰهِيِّ، أَرَى اللَّوْحَةَ الفَنِّيَّةَ العَظِيمَةَ الَّتِي تَتَنَاغَمُ فِيهَا الأَلْوَانُ وَالظِّلَالُ بِدِقَّةٍ مُذْهِلَةٍ فَتَشْهَدُ كُلُّ لَمْسَةٍ فِيهَا عَلَى عَبْقَرِيَّةِ الرَّسَّامِ وَوَحْدَتِهِ كَمَا تَشْهَدُ آيَاتُ الآفَاقِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذَا المعْرِضَ الكَوْنِيَّ بِقَوْلِهِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ العَقْلَ السَّلِيمَ هُوَ الأَدَاةُ الَّتِي تَسْتَنْطِقُ الكَوْنَ وَتَصِلُ بِهِ إِلَى الخَالِقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ تَفَكُّرٍ يَجْعَلُنِي أَرَى أَسْمَاءَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ فِي كُلِّ نَسْمَةٍ وَسَحَابَةٍ، فَكُلُّ نَظَرٍ فِي الكَوْنِ يَخْلُو مِنَ التَّعَقُّلِ غَفْلَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا يَقِينَ إِلَّا لِعَاقِلٍ أَبْصَرَ آيَاتِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ المَحَبَّةِ الصَّادِقَةِ يَفْصِلُ بَيْنَ قُلُوبٍ مُشْرِكَةٍ تُسَوِّي بَيْنَ الخَالِقِ وَالأَنْدَادِ الفَانِيَةِ فِي التَّعَلُّقِ وَالتَّعْظِيمِ، وَبَيْنَ قُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ تَتَفَرَّدُ بِأَشَدِّ الحُبِّ لِلَّهِ وَحْدَهُ لِأَنَّهَا عَرَفَتْ كَمَالَهُ وَإِنْعَامَهُ؛ إِذْ تَنْكَشِفُ الحَقِيقَةُ المُذْهِلَةُ لِلظَّالِمِينَ عِنْدَ مُعَايَنَةِ العَذَابِ حِينَ يُوقِنُونَ أَنَّ القُوَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ أَنْدَادَهُمْ عَاجِزَةٌ عَنِ النُّصْرَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ تَوْحِيدَ المَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ هُوَ جَوْهَرُ الإِيمَانِ، فَمَنْ أَفْرَدَ رَبَّهُ بِالحُبِّ الأَعْظَمِ سَعِدَ فِي الدَّارَيْنِ، وَمَنِ اتَّخَذَ أَنْدَاداً يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللهِ انْكَشَفَ عَجْزُهُمْ يَوْمَ الوَعِيدِ.

الصَّدَى

عَرْشُ المَحَبَّةِ وَسَرَابُ الأَنْدَادِ

صَدَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾

مِحْرَابُ الحُبِّ الأَعْظَمِ لَا يَتَّسِعُ لِشَرِيكٍ فَالْمُؤْمِنُونَ يَعْمُرُ قُلُوبَهُمْ حُبٌّ خَالِصٌ لِلَّهِ يَفُوقُ كُلَّ تَعَلُّقٍ بَيْنَمَا يَغْرَقُ الظَّالِمُونَ فِي مَحَبَّةِ أَنْدَادٍ عَاجِزَةٍ تَتَلَاشَى عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا المِيزَانِ القَلْبِيِّ يَفْحَصُ مَنَازِلَ المَحَبَّةِ فِي دَاخِلِهِ لِيُطَهِّرَهَا مِنْ كُلِّ نَدٍّ يُزَاحِمُ حُبَّ الخَالِقِ، وَكَمْ تَعَلَّقَتِ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِأَشْخَاصٍ أَوْ أَسْبَابٍ تَظُنُّ فِيهَا القُوَّةَ وَالنَّفْعَ حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، أَرَى الشَّمْسَ المُتَوَهِّجَةَ تَمْلَأُ الكَوْنَ بِالنُّورِ وَالدِّفْءِ فَمَنْ تَعَلَّقَ بِشَمْعَةٍ هَزِيلَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ انْطَفَأَتْ عَنْهُ عِنْدَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ وَبَقِيَ فِي الظَّلَامِ كَمَا يَخْذُلُ الأَنْدَادُ عُبَّادَهُمْ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَصَفَ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ لِأَنَّ حُبَّهُمْ ثَابِتٌ لَا يَتَغَيَّرُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ بَيْنَمَا حُبُّ المُشْرِكِينَ لِأَنْدَادِهِمْ يَنْقَلِبُ عَدَاوَةً عِنْدَ الشِّدَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ عِشْقٍ إِلٰهِيٍّ يَجْعَلُ حُبَّ اللهِ فَوْقَ كُلِّ مَحْبُوبٍ وَيُحَرِّرُنِي مِنْ ذُلِّ الأَنْدَادِ، فَكُلُّ مَحْبُوبٍ يُقَدَّمُ عَلَى طَاعَةِ الخَالِقِ وَهْمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾

المَوْعِظَةُ

سَاعَةُ التَّبَرُّؤِ الكُبْرَى تَفْضَحُ زَيْفَ الزَّعَامَاتِ البَاطِلَةِ وَالرَّوَابِطِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى الضَّلَالِ وَالطُّغْيَانِ؛ إِذْ يَتَنَصَّلُ القَادَةُ وَالمَتْبُوعُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ عِنْدَ مُعَايَنَةِ العَذَابِ، وَتَتَمَزَّقُ بَيْنَهُمْ كُلُّ حِبَالِ القَرَابَةِ وَالمَصَالِحِ وَالوُعُودِ الزَّائِفَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ كُلَّ أُخُوَّةٍ أَوْ تَبَعِيَّةٍ لَا تَقُومُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَنْقَلِبُ حَسْرَةً وَتَقَطُّعاً يَوْمَ القِيَامَةِ، فَمَنِ اتَّبَعَ نُورَ الوَحْيِ وَصَحِبَ الصَّالِحِينَ دَامَتْ مَوَدَّتُهُ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ قَلَّدَ دُعَاةَ البَاطِلِ تَبَرَّؤُوا مِنْهُ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهِمْ.

الصَّدَى

خِيَانَةُ المَتْبُوعِينَ وَتَمَزُّقُ الحِبَالِ
صَدَى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾

مَشْهَدُ الخِذْلَانِ المَرْوِّعِ يَتَجَلَّى فِي سَاحَةِ الحِسَابِ حِينَ يَخْلَعُ القَادَةُ المَغْرُورُونَ ثَوْبَ الرِّعَايَةِ وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ وَتَقَطُّعِ الأَسْبَابِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا الانْهِيَارِ الشَّامِلِ لِرَوَابِطِ البَاطِلِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى لِلْبَشَرِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ زَعِيمٍ يَدْعُو إِلَى غَيْرِ طَرِيقِ اللهِ سَيَتَخَلَّى عَنْ أَتْبَاعِهِ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ، وَكَمْ انْبَهَرَ النَّاسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِبَرِيقِ الكُبَرَاءِ وَوُعُودِهِمْ بِلَا مِيزَانٍ مِنَ الوَحْيِ حَتَّى أَبْصَرُوا نِهَايَةَ الطَّرِيقِ حَيْثُ تَتَقَطَّعُ الأَسْبَابُ وَتَنْهَارُ العَلَاقَاتُ، أَرَى نَسِيجَ العَنْكَبُوتِ الوَاهِيَ الَّذِي يَجْمَعُ الحَشَرَاتِ المَخْدُوعَةَ فَإِذَا هَبَّتْ رِيحُ العَاصِفَةِ تَمَزَّقَتْ خُيُوطُهُ وَهَوَى الجَمِيعُ فِي الهَاوِيَةِ بِلَا مُغِيثٍ كَمَا تَتَقَطَّعُ الأَسْبَابُ بَيْنَ القَادَةِ وَالأَتْبَاعِ عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَوَّرَ تَقَطُّعَ الأَسْبَابِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ كُلَّ مَا كَانُوا يَظُنُّونَهُ وَسِيلَةً لِلنَّجَاةِ مِنْ نَسَبٍ أَوْ مَالٍ أَوْ زَعَامَةٍ قَدِ انْقَطَعَ إِلَى الأَبَدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ وَلَاءٍ وَبَرَاءٍ يَجْعَلُنِي لَا أَتْبَعُ إِلَّا مَنْ يَسِيرُ عَلَى هُدَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَكُلُّ رَابِطَةٍ تُبْنَى

عَلَى البَاطِلِ خَيْطٌ مَقْطُوعٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا صُحْبَةَ بَاقِيَةَ إِلَّا لِلْمُتَّقِينَ فِي جِوَارِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسْرَةُ الأَتْبَاعِ المُقَلِّدِينَ تَشْتَعِلُ فِي قُلُوبِهِمْ حِينَ يَكْتَشِفُونَ خِدْعَةَ مَنْ أَضَلُّوهُمْ، فَيَتَمَنَّوْنَ العَوْدَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ؛ وَلٰكِنَّ سُنَّةَ العَدْلِ تُرِيهِمْ أَعْمَالَهُمُ الفَاسِدَةَ حَسَرَاتٍ مُتَتَابِعَةً تُقَطِّعُ أَفْئِدَتَهُمْ، مَعَ إِغْلَاقِ بَابِ الخُرُوجِ مِنَ النَّارِ إِلَى الأَبَدِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّقْلِيدَ الأَعْمَى لَا يُعْفِي صَاحِبَهُ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ عَنْ عَقْلِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَمَنْ حَكَّمَ عَقْلَهُ وَاتَّبَعَ البُرْهَانَ سَلِمَ مِنَ النَّدَامَةِ، وَمَنْ أَسْلَمَ قِيَادَهُ لِلْمُضِلِّينَ حَصَدَ الحَسْرَةَ وَالخُلُودَ فِي العَذَابِ.

الصَّدَى

أُمْنِيَةُ الرُّجُوعِ وَمَطَرُ الحَسَرَاتِ
صَدَى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

صَرْخَةُ النَّدَمِ المُتَأَخِّرَةِ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِ الأَتْبَاعِ المَخْدُوعِينَ طَالِبَةً كَرَّةً إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ أَنْ تَحَوَّلَتْ أَعْمَالُهُمْ إِلَى حَسَرَاتٍ وَأُغْلِقَتْ دُونَهُمْ أَبْوَابُ الخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ المَأْسَاةِ المُبْكِيَةِ يَسْتَيْقِظُ لِيُدْرِكَ أَنَّنِي اليَوْمَ فِي تِلْكَ الكَرَّةِ الَّتِي يَتَمَنَّاهَا أَهْلُ النَّارِ لِأَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ ضَلَالٍ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، وَكَمْ يَنْسَاقُ الإِنْسَانُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ خَلْفَ المَأْلُوفِ وَالمجَارَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي سَاعَةِ الحَسْرَةِ الَّتِي لَا يُغْنِي فِيهَا اللَّوْمُ، أَرَى المسَافِرَ الَّذِي أَضَاعَ تَذْكِرَةَ السَّفَرِ لَهْواً وَغَفْلَةً فَلَمَّا أَقْلَعَتِ السَّفِينَةُ وَغَابَتْ فِي الأُفُقِ وَقَفَ عَلَى الشَّاطِئِ يَعَضُّ أَصَابِعَ النَّدَمِ وَيَتَمَنَّى عَوْدَةَ الزَّمَانِ فَلَا يَجِدُ إِلَّا الحَسْرَةَ كَمَا يُرِي اللهُ الضَّالِّينَ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَلَا يَخْرُجُونَ مِنَ

النَّارِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ أَعْمَالَهُمْ نَفْسَهَا تَتَجَسَّدُ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ لِيَكُونَ عَذَابُ النَّدَمِ النَّفْسِيِّ مُقْتَرِناً بِعَذَابِ النَّارِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ مَسْؤُولِيَّةٍ شَخْصِيَّةٍ يَجْعَلُنِي أَخْتَارُ طَرِيقِي بِعَقْلِي وَبَصِيرَتِي وَلَا أُقَلِّدُ أَحَداً فِي البَاطِلِ، فَكُلُّ تَبَعِيَّةٍ عَمْيَاءَ تَنْتَهِي بِالحَسْرَةِ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِبَصِيرٍ اتَّبَعَ وَحْيَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الِاعْتِدَالِ فِي الرِّزْقِ وَالمَعَاشِ يَفْتَحُ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ مَوَائِدَ الأَرْضِ بِشَرْطَيْنِ يُحَقِّقَانِ صَلَاحَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ: أَنْ يَكُونَ المَأْكُولُ حَلَالاً فِي مَصْدَرِهِ وَكَسْبِهِ، وَطَيِّباً فِي جَوْهَرِهِ وَنَفْعِهِ؛ مَعَ التَّحْذِيرِ الصَّارِمِ مِنِ اسْتِدْرَاجِ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَقُودُ الإِنْسَانَ خُطْوَةً بَعْدَ خُطْوَةٍ نَحْوَ تَحْرِيمِ الحَلَالِ أَوِ اسْتِبَاحَةِ الحَرَامِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الطَّيِّبَاتِ هِيَ الأَصْلُ وَأَنَّ الوَسْوَسَةَ وَالتَّشْدِيدَ وَالكَسْبَ الخَبِيثَ مِنْ مَكَايِدِ العَدُوِّ المُبِينِ، فَمَنْ تَحَرَّى الحَلَالَ الطَّيِّبَ طَابَتْ حَيَاتُهُ وَدُعَاؤُهُ، وَمَنْ تَبِعَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ أَفْسَدَ دِينَهُ وَبَدَنَهُ.

الصَّدَى

مَائِدَةُ الطَّيِّبَاتِ وَفِخَاخُ الخُطُوَاتِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

خَزَائِنُ الأَرْضِ المَبْسُوطَةُ تَدْعُو البَشَرَ إِلَى التَّنَعُّمِ بِالحَلَالِ الطَّيِّبِ وَتُحَذِّرُهُمْ مِنَ الانْزِلَاقِ خَلْفَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَسْتَدْرِجُ القُلُوبَ نَحْوَ الخَبَائِثِ أَوِ التَّحْرِيمِ المُتَكَلَّفِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا التَّوْجِيهِ الرَّحِيمِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّهَاوُنِ فِي المَكْسَبِ وَالتَّشْدِيدِ فِي المَطْعَمِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الحَلَالَ الطَّيِّبَ هُوَ قِوَامُ الحَيَاةِ السَّلِيمَةِ، وَكَمْ غَفَلَتِ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ عَنْ أَنَّ السُّقُوطَ فِي الحَرَامِ لَا

يَقَعُ دُفْعَةً وَاحِدَةً بَلْ يَبْدَأُ بِخُطْوَةٍ صَغِيرَةٍ يُزَيِّنُهَا العَدُوُّ المبِينُ، أَرَى الطَّائِرَ الحَذِرَ الَّذِي يَلْتَقِطُ الحَبَّ النَّقِيَّ فِي الحَقْلِ الوَاسِعِ وَيَتَجَنَّبُ الحَبَّاتِ المَنْثُورَةَ فِي طَرِيقِ الفَخِّ المَنْصُوبِ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَكْرَ الصَّيَّادِ كَمَا يَحْذَرُ المؤْمِنُ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَيَكْتَفِي بِالحَلَالِ الطَّيِّبِ مِنْ رِزْقِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَمَعَ بَيْنَ الحَلَالِ وَالطَّيِّبِ لِيَكُونَ الرِّزْقُ نَقِيّاً فِي شَرْعِيَّتِهِ وَنَافِعاً فِي طَبِيعَتِهِ ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالتَّحْذِيرِ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ الظَّاهِرَة، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ وَرَعٍ وَاعْتِدَالٍ يُنَقِّي مَطْعَمِي وَمَكْسَبِي وَيَحْمِي خُطُوَاتِي مِنَ الِاسْتِدْرَاجِ، فَكُلُّ كَسْبٍ خَبِيثٍ أَوْ تَحْرِيمٍ مُبْتَدَعٍ شَرَكٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا فِي الحَلَالِ الطَّيِّبِ الَّذِي أَبَاحَهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٦٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

كَشْفُ خُطَّةِ العَدُوِّ الشَّيْطَانِيَّةِ يُعَرِّي غَايَاتِهِ الحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَنْحَصِرُ فِي دَفْعِ الإِنْسَانِ إِلَى قَبَائِحِ الأَفْعَالِ وَالفَوَاحِشِ، وَإِلَى أَعْظَمِ الجَرَائِمِ العَقْلِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَهِيَ القَوْلُ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ؛ إِذْ يُبَيِّنُ الوَحْيُ أَنَّ الِافْتِرَاءَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالبِدَعِ وَالخُرَافَاتِ هُوَ قِمَّةُ مَطَالِبِ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهُ يُفْسِدُ الدِّينَ مِنْ أَصْلِهِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّوَقُّفَ عِنْدَ حُدُودِ العِلْمِ اليَقِينِيِّ هُوَ الحِصْنُ الأَعْظَمُ، فَمَنْ صَانَ جَوَارِحَهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَلِسَانَهُ عَنِ القَوْلِ بِلَا عِلْمٍ نَجَا مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الفُجُورِ أَوِ التَّشْرِيعِ بِالهَوَى وَقَعَ فِي شِبَاكِ العَدُوِّ.

الصَّدَى

سِهَامُ الفَحْشَاءِ وَجَرِيمَةُ الِافْتِرَاءِ
صَدَى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

بُوصَلَةُ الشَّيْطَانِ المسْمُومَةُ لَا تُشِيرُ إِلَّا نَحْوَ قَبَائِحِ السُّوءِ وَالفَحْشَاءِ ثُمَّ تَبْلُغُ ذُرْوَةَ الخُبْثِ حِينَ تَدْفَعُ الأَلْسِنَةَ لِلْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّشْرِيحِ الدَّقِيقِ لِوَسَاوِسِ العَدُوِّ يَزْدَادُ حَذَراً وَوَرَعاً لِيُدْرِكَ أَنَّ الفَتْوَى بِلَا بُرْهَانٍ وَالتَّحْرِيمَ بِالهَوَى هُمَا أَعْظَمُ انْتِصَارٍ لِلشَّيْطَانِ، وَكَمْ رَأَيْتُ

قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ مِنْ أُنَاسٍ يَتَوَرَّعُونَ عَنِ الفَوَاحِشِ الظَّاهِرَةِ ثُمَّ يَتَجَرَّؤُونَ عَلَى النِّسْبَةِ إِلَى دِينِ اللهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا أَنَّهُمْ يُنَفِّذُونَ أَعْظَمَ أَوَامِرِ الشَّيْطَانِ، أَرَى المخَرِّبَ الماكِرَ الَّذِي لَا يَكْتَفِي بِإِفْسَادِ سُلُوكِ سُكَّانِ المدِينَةِ بَلْ يَسْعَى لِتَزْيِيفِ القَانُونِ وَخَتْمِ المِلكِ لِيُفْسِدَ المَمْلَكَةَ كُلَّهَا كَمَا يَأْمُرُ الشَّيْطَانُ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَالقَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ جَعَلَ القَوْلَ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ فِي قِمَّةِ مَآرِبِ الشَّيْطَانِ بَعْدَ السُّوءِ وَالفَحْشَاءِ لِيُعَلِّمَنَا أَنَّ تَزْيِيفَ الدِّينِ أَخْطَرُ مِنَ المعْصِيَةِ الفَرْدِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسِ عِلْمٍ وَأَدَبٍ يَمْنَعُنِي مِنَ الفَحْشَاءِ وَيُلْجِمُ لِسَانِي عَنِ القَوْلِ عَلَى رَبِّي بِلَا دَلِيلٍ، فَكُلُّ قَوْلٍ يُنْسَبُ إِلَى السَّمَاءِ بِلَا بُرْهَانٍ وَسْوَسَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِصَادِقٍ وَقَفَ عِنْدَ عِلْمِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَيْدُ التَّقْلِيدِ الأَعْمَى يَشُلُّ حَرَكَةَ العَقْلِ البَشَرِيِّ حِينَ يَجْعَلُ عَادَاتِ الآبَاءِ وَالمَوْرُوثَاتِ السَّابِقَةَ حَكَماً عَلَى وَحْيِ السَّمَاءِ؛ إِذْ يُقَدِّمُ المعَانِدُونَ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ أَسْلَافَهُمْ عَلَى نُورِ التَّنْزِيلِ السَّاطِعِ، فَيَقْرَعُ القُرْآنُ عُقُولَهُمْ بِسُؤَالٍ يَهْدِمُ صَنَمَ التَّبَعِيَّةِ العَمْيَاءِ: كَيْفَ يَتْبَعُ العَاقِلُ مَنْ كَانُوا يَفْتَقِرُونَ إِلَى الفَهْمِ العَقْلِيِّ وَالهِدَايَةِ الرُّشْدِيَّةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي المنْهَجِ الإِسْلَامِيِّ التَّحَرُّرُ الفِكْرِيُّ وَتَحْكِيمُ البُرْهَانِ عَلَى التُّرَاثِ البَشَرِيِّ، فَمَنْ وَزَنَ المَوْرُوثَ بِمِيزَانِ الوَحْيِ وَالعَقْلِ اهْتَدَى، وَمَنْ عَبَدَ عَادَاتِ الآبَاءِ بِلَا تَفْكِيرٍ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ.

الصَّدَى

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

سَلَاسِلُ التَّقْلِيدِ المَوْرُوثِ تَغُلُّ العُقُولَ الرَّاكِدَةَ فَتَرْفُضُ ضِيَاءَ الوَحْيِ الجَدِيدِ لِتَبْقَى أَسِيرَةَ عَادَاتِ آبَاءٍ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّحْرِيرِ العَقْلِيِّ الجَرِيءِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّبَعِيَّةِ بِلَا دَلِيلٍ لِيُدْرِكَ أَنَّ قِدَمَ الفِكْرَةِ لَا يَمْنَحُهَا القَدَاسَةَ إِنْ خَالَفَتِ البُرْهَانَ وَالتَّنْزِيلَ، وَكَمْ حَبَسَتِ العَادَاتُ المَأْلُوفَةُ عُقُولَ البَشَرِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا المِيزَانِ فَجَعَلَتْهُمْ يُدَافِعُونَ عَنِ الخَطَأِ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ نَشَأُوا عَلَيْهِ وَوَجَدُوا أَسْلَافَهُمْ يَفْعَلُونَهُ، أَرَى السَّائِرَ فِي النَّفَقِ المُظْلِمِ الَّذِي يَرْفُضُ الخُرُوجَ إِلَى ضَوْءِ الشَّمْسِ لِمُجَرَّدِ أَنَّ آبَاءَهُ عَاشُوا فِي ذٰلِكَ الظَّلَامِ وَلَمْ يَعْرِفُوا الطَّرِيقَ كَمَا يَتَمَسَّكُ المُقَلِّدُونَ بِمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ وَيَتْرُكُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ اسْتَنْكَرَ تَقْلِيدَ مَنْ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَهْتَدِي لِيُعْلِيَ شَأْنَ العَقْلِ وَالهِدَايَةِ وَيَجْعَلَ الوَحْيَ هُوَ المَرْجِعَ الأَعْلَى فَوْقَ كُلِّ تُرَاثٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِشْكَاةِ تَحَرُّرٍ وَبَصِيرَةٍ تَجْعَلُنِي أَعْرِضُ كُلَّ مَوْرُوثٍ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَمِيزَانِ العَقْلِ، فَكُلُّ عَادَةٍ تُخَالِفُ نُورَ الوَحْيِ قَيْدٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا هِدَايَةَ إِلَّا لِعَاقِلٍ اتَّبَعَ مَا أَنْزَلَ اللهُ الكَبِيرُ المُتَعَالُ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٧١–١٨٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَأْسَاةُ تَعْطِيلِ المَدَارِكِ العَقْلِيَّةِ تُحِيلُ الجَاحِدَ المُقَلِّدَ إِلَى بَهِيمَةٍ شَارِدَةٍ تَسْمَعُ رَنِينَ الصَّوْتِ وَلَا تَفْقَهُ جَوْهَرَ الخِطَابِ؛ إِذْ يُصَوِّرُ الوَحْيُ حَالَ الدَّاعِي إِلَى الهُدَى مَعَ المُعْرِضِينَ كَرَاعٍ يَصِيحُ بِأَنْعَامٍ لَا تُدْرِكُ إِلَّا جَرْسَ النِّدَاءِ دُونَ مَعْنَاهُ، لِأَنَّهُمْ أَغْلَقُوا نَوَافِذَ الفَهْمِ فَصَارُوا صُمّاً عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ، بُكْماً عَنِ النُّطْقِ بِهِ، عُمْياً عَنْ إِبْصَارِ دَلَائِلِهِ، فَسَقَطُوا عَنْ مَرْتَبَةِ التَّعَقُّلِ وَالتَّكْرِيمِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ

الرُّشْدِيِّ أَنَّ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ تَقُومُ عَلَى إِعْمَالِ عَقْلِهِ وَحَوَاسِّهِ فِي فَهْمِ رِسَالَةِ السَّمَاءِ، فَمَنْ أَصْغَى بِعَقْلِهِ وَتَدَبَّرَ نَالَ شَرَفَ الإِنْسَانِيَّةِ، وَمَنْ عَطَّلَ بَصِيرَتَهُ انْحَدَرَ إِلَى دَرَكِ الأَنْعَامِ.

الصَّدَى

صَيْحَةُ الرَّاعِي وَصَمَمُ القَطِيعِ
صَدَى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

نِدَاءُ الهِدَايَةِ الرَّحِيمُ يَتَرَدَّدُ فِي أُفُقِ الغَافِلِينَ كَصَيْحَةِ الرَّاعِي بِقَطِيعٍ لَا يُدْرِكُ مِنَ الكَلَامِ إِلَّا صَدَى الصَّوْتِ دُونَ جَوْهَرِ المَعْنَى وَالبُرْهَانِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْوِيرِ البَلِيغِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ أَنْ يَمُرَّ عَلَى آيَاتِ اللهِ كَمَنْ يَسْمَعُ جَرْسَ الحُرُوفِ وَلَا يَعْقِلُ مَقَاصِدَهَا، وَكَمْ أَدْرَكْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ تَعْطِيلَ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَاللِّسَانِ عَنِ الحَقِّ يُجَرِّدُ الإِنْسَانَ مِنْ خَصَائِصِهِ العَقْلِيَّةِ وَيُهْوِي بِهِ إِلَى مَرْتَبَةِ العَجْمَاوَاتِ، أَرَى المِرْآةَ المَكْسُورَةَ المُغَطَّاةَ بِالتُّرَابِ تَقَعُ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ فَلَا تَعْكِسُ ضِيَاءً وَلَا تَحْمِلُ صُورَةً لِأَنَّهَا فَقَدَتْ صَفَاءَهَا كَمَا يَفْقِدُ الكَافِرُونَ العَقْلَ وَالبَصِيرَةَ فَيَصِيرُونَ صُمّاً بُكْماً عُمْياً، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذَا المَثَلَ بِقَوْلِهِ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ العَقْلَ الحَقِيقِيَّ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالحَوَاسِّ لِيَصِلَ إِلَى الخَالِقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ يَقَظَةٍ وَتَدَبُّرٍ يُوقِظُ سَمْعِي وَبَصَرِي وَفِكْرِي لِفَهْمِ خِطَابِ رَبِّي، فَكُلُّ حَاسَّةٍ تُعَطَّلُ عَنْ نُورِ الوَحْيِ جَمَادٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا كَرَامَةَ إِلَّا لِعَاقِلٍ فَقِهَ نِدَاءَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الشُّكْرِ وَالتَّنَعُّمِ يَجْمَعُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ بَيْنَ الِانْتِفَاعِ بِطَيِّبَاتِ الرِّزْقِ الحَلَالِ وَبَيْنَ الِاعْتِرَافِ بِفَضْلِ المُنْعِمِ عِبَادَةً وَشُكْراً؛ إِذْ يُحَرِّرُ الوَحْيُ المُؤْمِنِينَ مِنْ قُيُودِ التَّحْرِيمِ الجَاهِلِيِّ الَّذِي حَرَّمَ عَلَى النَّاسِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ، وَيَجْعَلُ شُكْرَ النِّعْمَةِ هُوَ البُرْهَانَ العَمَلِيَّ عَلَى إِفْرَادِ الخَالِقِ بِالعِبَادَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي

الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّمَتُّعَ بِالطَّيِّبَاتِ مَعَ الشُّكْرِ جُزْءٌ مِنْ عُبُودِيَّةِ المُنْعِمِ، فَمَنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ وَشَكَرَ رَبَّهُ كَمُلَ تَوْحِيدُهُ وَزَادَ عَطَاؤُهُ، وَمَنْ حَرَّمَ الطَّيِّبَاتِ أَوْ نَسِيَ الشُّكْرَ خَالَفَ مَقْصِدَ العِبَادَةِ.

الصَّدَى

مَائِدَةُ الطَّيِّبَاتِ وَبُرْهَانُ العِبَادَةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

مَوَائِدُ الرِّزْقِ الطَّيِّبِ تَنْبَسِطُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ بِإِذْنِ السَّمَاءِ لِتُحَرِّرَهُمْ مِنْ أَغْلَالِ التَّحْرِيمِ المَوْهُومِ وَتَرْبِطَ كُلَّ لُقْمَةٍ بِعِبَادَةِ الشُّكْرِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الكَرَمِ الرَّبَّانِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّنَطُّعِ وَالغَفْلَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ تَنَاوُلَ الطَّيِّبَاتِ بِنِيَّةِ الشُّكْرِ يَتَحَوَّلُ إِلَى مِحْرَابِ طَاعَةٍ وَتَوْحِيدٍ، وَكَمْ غَفَلَتِ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا السِّرِّ عَنْ حُضُورِ قَلْبِ الشَّاكِرِ عِنْدَ المَائِدَةِ فَكُنْتُ أَنَالُ الرِّزْقَ بِعَادَةِ الجَسَدِ دُونَ أَنْ يَخْفِقَ فُؤَادِي بِالعِرْفَانِ لِلْمُنْعِمِ، أَرَى الغُصْنَ المُثْمِرَ يَمْتَصُّ مَاءَ الغَيْثِ الطَّهُورِ فَيُخْرِجُ ثِمَاراً حُلْوَةً تَشْهَدُ بِجَمَالِهَا عَلَى كَرَمِ السَّمَاءِ الَّتِي سَقَتْهُ كَمَا يَشْهَدُ شُكْرُ المُؤْمِنِينَ عَلَى صِدْقِ عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ شَرَطَ لِصِدْقِ العِبَادَةِ شُكْرَهُ عَلَى الطَّيِّبَاتِ لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَنْ يَشْكُرُ غَيْرَ اللهِ أَوْ يُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَمْ يُحَقِّقْ مَعْنَى إِيَّاكَ نَعْبُدُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عِرْفَانٍ يَجْعَلُ كُلَّ نِعْمَةٍ أَتَنَاوَلُهَا جِسْراً يَصِلُنِي بِشُكْرِ رَبِّي، فَكُلُّ رِزْقٍ يَخْلُو مِنَ الشُّكْرِ غَفْلَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَكَةَ إِلَّا لِشَاكِرٍ أَفْرَدَ بِالعِبَادَةِ اللهَ الكَبِيرَ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الحَصْرِ وَالضَّرُورَةِ يَجْمَعُ فِي التَّشْرِيعِ الإِلٰهِيِّ بَيْنَ حِمَايَةِ النَّفْسِ مِنَ الخَبَائِثِ وَصِيَانَةِ الحَيَاةِ عِنْدَ الهَلَاكِ؛ إِذْ يَحْصُرُ الشَّارِعُ المحرَّمَاتِ فِي أَرْبَعِ خَبَائِثَ تَضُرُّ البَدَنَ وَالعَقِيدَةَ: المَيْتَةُ، وَالدَّمُ المسْفُوحُ، وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِ اللهِ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَابَ الرُّخْصَةِ عِنْدَ الاضْطِرَارِ لِحِفْظِ النَّفْسِ

بِشَرْطِ عَدَمِ البَغْيِ وَتَجَاوُزِ قَدْرِ الحَاجَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الفِقْهِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الأَصْلَ فِي الأَشْيَاءِ الإِبَاحَةُ وَأَنَّ الضَّرُورَاتِ تُبِيحُ المَحْظُورَاتِ بِقَدَرِهَا، فَمَنْ تَجَنَّبَ الخَبَائِثَ وَوَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ الرُّخْصَةِ شَمِلَتْهُ مَغْفِرَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ، وَمَنْ بَغَى أَوْ تَعَدَّى الحُدُودَ تَحَمَّلَ وِزْرَ عُدْوَانِهِ.

الصَّدَى

سِيَاجُ الطَّهَارَةِ وَرَحْمَةُ الضَّرُورَةِ
صَدَى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

مِيزَانُ التَّشْرِيعِ الحَكِيمِ يَصُونُ طَهَارَةَ الجَسَدِ وَالعَقِيدَةِ بِتَحْرِيمِ الخَبَائِثِ الأَرْبَعِ ثُمَّ يَحْنُو عَلَى ضَعْفِ الإِنْسَانِ عِنْدَ الاضْطِرَارِ فَيَرْفَعُ الإِثْمَ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّوَازُنِ المَقَاصِدِيِّ البَدِيعِ يَمْتَلِئُ إِجْلَالاً لِشَرِيعَةٍ تَحْمِي الإِنْسَانَ مِنَ الضَّرَرِ فِي الرَّخَاءِ وَتُنْقِذُ حَيَاتَهُ عِنْدَ الشِّدَّةِ، وَكَمْ ظَنَّ القَاصِرُونَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ أَنَّ التَّكْلِيفَ قَيْدٌ جَامِدٌ لَا يَرْحَمُ الضَّعْفَ حَتَّى أَبْصَرُوا سَعَةَ الرُّخْصَةِ المُنْضَبِطَةِ بِعَدَمِ البَغْيِ وَالِاعْتِدَاءِ، أَرَى الحَارِسَ الحَكِيمَ يَضَعُ سِيَاجاً حَوْلَ البِئْرِ العَمِيقَةِ لِيَمْنَعَ السُّقُوطَ فِيهَا فَإِذَا اشْتَدَّ العَطَشُ بِالمُسَافِرِ وَأَشْرَفَ عَلَى الهَلَاكِ فَتَحَ لَهُ مَنْفَذاً آمِناً يَأْخُذُ مِنْهُ قَدْرَ نَجَاتِهِ دُونَ إِسْرَافٍ كَمَا أَبَاحَ اللهُ لِلْمُضْطَرِّ مَا يُنْقِذُ حَيَاتَهُ بِرَحْمَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ رُخْصَةَ الاضْطِرَارِ بِاسْمَيْهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِيَرْفَعَ الحَرَجَ النَّفْسِيَّ عَنِ المُضْطَرِّ وَيُطَمْئِنَ قَلْبَهُ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ فِقْهٍ وَتَوَازُنٍ يَجْعَلُنِي أَتَنَزَّهُ عَنِ الخَبَائِثِ وَأَشْكُرُ سَعَةَ الشَّرِيعَةِ وَرَحْمَتَهَا، فَكُلُّ خَبِيثٍ يُؤْكَلُ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ دَنَسٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا فِي شَرْعِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

بَشَاعَةُ المتَاجَرَةِ بِالدِّينِ تَنْكَشِفُ فِي أَقْسَى صُوَرِهَا حِينَ يَكْتُمُ الأَحْبَارُ وَالعُلَمَاءُ أَحْكَامَ الكِتَابِ لِيَنَالُوا بِذٰلِكَ مَتَاعَ الدُّنْيَا الزَّائِلَ؛ إِذْ يُصَوِّرُ الوَحْيُ الأَمْوَالَ الَّتِي يَجْنُونَهَا مِنْ خِيَانَةِ العِلْمِ كَأَنَّهَا جَمْرٌ وَنَارٌ يَصُبُّونَهَا فِي بُطُونِهِمْ، مَعَ عُقُوبَاتٍ أُخْرَوِيَّةٍ تَقْطَعُ أَوَا صِرَ القُرْبِ: فَلَا يُكَلِّمُهُمُ الخَالِقُ كَلَامَ رِضاً، وَلَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ كِتْمَانَ الحَقِّ لِأَجْلِ المالِ وَالجَاهِ هُوَ أَقْبَحُ أَنْوَاعِ السُّحْتِ، فَمَنْ صَدَعَ بِكِتَابِ رَبِّهِ نَزِيهاً عَنِ المطَامِعِ طَابَ كَسْبُهُ وَزَكَا قَلْبُهُ، وَمَنْ بَاعَ الوَحْيَ بِحُطَامِ الأَرْضِ أَكَلَ النَّارَ وَحُرِمَ كَلَامَ الرَّبِّ.

الصَّدَى

مَائِدَةُ السُّحْتِ وَجَمْرُ البُطُونِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لُقْمَةُ الحَرَامِ المغْمُوسَةُ بِخِيَانَةِ الكِتْمَانِ تَتَحَوَّلُ فِي أَجْوَافِ المتَاجِرِينَ بِالدِّينِ إِلَى جَمْرٍ مُتَّقِدٍ يَحْرِقُ البُطُونَ وَيَقْطَعُ حِبَالَ الكَلَامِ وَالتَّزْكِيَةِ عِنْدَ لِقَاءِ اللهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّصْوِيرِ المرْعِبِ يَرْتَعِدُ خَشْيَةً مِنْ أَنْ تَمْتَدَّ يَدِي إِلَى كَسْبٍ مَشْبُوهٍ أَوْ يَسْكُتَ لِسَانِي عَنْ حَقٍّ طَمَعاً فِي ثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَكَمْ انْخَدَعَتْ أَعْيُنُ الغَافِلِينَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِزِينَةِ المالِ الَّذِي يُجْمَعُ مِنْ تَزْيِيفِ الحَقَائِقِ وَكِتْمَانِ الكِتَابِ فَلَمْ يَرَوْا تَحْتَ بَرِيقِ الذَّهَبِ أَلْسِنَةَ اللَّهَبِ، أَرَى الجَائِعَ المخْدُوعَ يَبْتَلِعُ جَمْرَةً مُتَوَهِّجَةً ظَانّاً أَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْ حَلْوَى فَتُمَزِّقُ أَحْشَاءَهُ فِي الحَالِ كَمَا يَأْكُلُ الكَاتِمُونَ لِكِتَابِ اللهِ فِي بُطُونِهِمُ النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَصَفَ كُلَّ مَا يُشْتَرَى بِكِتْمَانِ الوَحْيِ بِأَنَّهُ ثَمَنٌ قَلِيلٌ وَلَوْ مَلَأَ الخَزَائِنَ لِيُحَقِّرَ شَأْنَ الدُّنْيَا أَمَامَ خَسَارَةِ الآخِرَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى حَارِسِ نَزَاهَةٍ يَصُونُ عِلْمِي وَلِسَانِي عَنِ المتَاجَرَةِ وَالمدَاهَنَةِ، فَكُلُّ مَالٍ يُجْنَى بِكِتْمَانِ الحَقِّ نَارٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا تَزْكِيَةَ إِلَّا لِصَادِقٍ أَظْهَرَ كِتَابَ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

قِمَّةُ الحَمَاقَةِ وَالِانْتِكَاسِ تَتَجَلَّى فِي صَفْقَةِ المُبَادَلَةِ الخَاسِرَةِ حِينَ يَتْرُكُ الإِنْسَانُ نُورَ الهِدَايَةِ المُنْذُولَ لِيَشْتَرِيَ ظُلْمَةَ الضَّلَالَةِ، وَيُعْرِضُ عَنْ مَغْفِرَةِ الرَّبِّ الوَاسِعَةِ لِيَسْتَجْلِبَ العَذَابَ الأَلِيمَ؛ إِذْ يَتَعَجَّبُ الوَحْيُ مِنْ جُرْأَةِ هٰؤُلَاءِ عَلَى اقْتِحَامِ أَسْبَابِ الجَحِيمِ وَكَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ جَلَداً وَصَبْراً عَلَى لَهِيبِهَا، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الإِصْرَارَ عَلَى البَاطِلِ بَعْدَ بَيَانِ الحَقِّ هُوَ انتِحَارٌ عَقْلِيٌّ وَرُوحِيٌّ، فَمَنِ اخْتَارَ الهُدَى وَالمَغْفِرَةَ نَجَا وَفَازَ، وَمَنِ اشْتَرَى الضَّلَالَةَ وَالعَذَابَ كَشَفَ عَنْ سَفَهِهِ وَجُرْأَتِهِ عَلَى الهَلَاكِ.

الصَّدَى

تِجَارَةُ الهَلَاكِ وَجُرْأَةُ الجَحِيمِ
صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾

صَفْقَةُ الجُنُونِ المَكْشُوفَةُ تُقَلِّبُ مَوَازِينَ العَقْلِ حِينَ يَدْفَعُ الإِنْسَانُ جَوْهَرَةَ الهُدَى وَالمَغْفِرَةِ لِيَشْتَرِيَ بِهَا الضَّلَالَةَ وَالعَذَابَ كَأَنَّهُ يَتَحَدَّى لَهِيبَ النَّارِ بِصَبْرٍ مَوْهُومٍ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا التَّعَجُّبِ القُرْآنِيِّ يَسْتَفِيقُ مِنْ كُلِّ غَفْلَةٍ تُزَيِّنُ المَعْصِيَةَ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صَبْرِ سَاعَةٍ عَلَى حَرِّ الدُّنْيَا كَيْفَ يَجْرُؤُ عَلَى أَسْبَابِ نَارِ الآخِرَةِ، وَكَمْ غَابَ عَنِ الأَذْهَانِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ أَنَّ كُلَّ إِعْرَاضٍ عَنْ طَاعَةِ اللهِ هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ شِرَاءٌ لِلْعَذَابِ بِالمَغْفِرَةِ، أَرَى المِحْدُوعَ الَّذِي يُلْقِي بِنَفْسِهِ فِي أَتُونٍ مُشْتَعِلٍ وَيَتْرُكُ البُسْتَانَ الظَّلِيلَ وَالنَّهْرَ العَذْبَ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَيَعْجَبُ النَّاظِرُونَ مِنْ جُرْأَتِهِ عَلَى الحَرِيقِ كَمَا يَتَعَجَّبُ القُرْآنُ مِنْ جُرْأَةِ الكَاتِمِينَ بِقَوْلِهِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ صَاغَ التَّحْذِيرَ فِي صُورَةِ تَعَجُّبٍ لِيَصْدِمَ العُقُولَ الغَافِلَةَ وَيُوقِظَهَا مِنْ سُكْرِ التَّهَاوُنِ بِالْعَوَاقِبِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ حَذَرٍ وَبَصِيرَةٍ يَجْعَلُنِي أَتَمَسَّكُ بِالهُدَى وَالمَغْفِرَةِ وَلَا أَغْتَرُّ بِحِلْمِ اللهِ، فَكُلُّ ضَلَالَةٍ تُشْتَرَى بِالهُدَى جَحِيمٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا فِي مَغْفِرَةِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ الحَقِّ المُنَزَّلِ تَكْشِفُ أَنَّ كُلَّ اخْتِلَافٍ وَتَمَزُّقٍ حَوْلَ الكِتَابِ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنَ الأَهْوَاءِ وَالكِتْمَانِ لَا مِنْ قُصُورٍ فِي الوَحْيِ؛ إِذْ نَزَّلَ الخَالِقُ الكِتَابَ مُشْتَمِلاً عَلَى الحَقِّ الصَّافِي الَّذِي يَجْمَعُ الكَلِمَةَ وَيُقِيمُ العَدْلَ، فَمَنْ جَادَلَ فِيهِ وَبَعَّضَهُ بِالهَوَى سَقَطَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ عَنِ الصَّوَابِ وَالوِئَامِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الِاعْتِصَامَ بِكِتَابِ اللهِ كُلِّهِ هُوَ سَبِيلُ الوَحْدَةِ وَالسَّلَامَةِ، فَمَنْ أَخَذَ الكِتَابَ بِالحَقِّ اجْتَمَعَ شَمْلُهُ وَاهْتَدَى، وَمَنْ فَرَّقَ الكِتَابَ وَاخْتَلَفَ فِيهِ تَاهَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

الصَّدَى

صَفَاءُ التَّنْزِيلِ وَتِيهُ الشِّقَاقِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

نُورُ الكِتَابِ المُنَزَّلِ بِالحَقِّ يَنْتَصِبُ حَبْلاً مَتِيناً يَجْمَعُ القُلُوبَ عَلَى الصِّرَاطِ فَمَنْ مَزَّقَهُ بِالخِلَافِ وَالهَوَى سَقَطَ فِي هُوَّةِ الشِّقَاقِ البَعِيدِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الجَلِيَّةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الجَدَلِ وَالتَّفْرِيقِ لِيُدْرِكَ أَنَّ وَحْيَ السَّمَاءِ مَصْدَرُ ائْتِلَافٍ وَرَحْمَةٍ وَإِنَّمَا الشِّقَاقُ صِنَاعَةُ الأَهْوَاءِ البَشَرِيَّةِ، وَكَمْ تَفَرَّقَتْ كَلِمَةُ النَّاسِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأَصْلِ حِينَ تَرَكُوا كُلِّيَّاتِ الكِتَابِ وَمَقَاصِدَهُ وَتَنَازَعُوا فِي تَأْوِيلَاتٍ جُزْئِيَّةٍ تُرْضِي عَصَبِيَّاتِهِمْ، أَرَى الطَّرِيقَ المُسْتَقِيمَ الوَاضِحَ الَّذِي يَصِلُ السَّائِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ الآمِنَةِ فَمَنْ انْحَرَفَ عَنْهُ يَميناً أَوْ يَساراً تَاهَ فِي الأَوْدِيَةِ السَّحِيقَةِ وَابْتَعَدَ عَنِ الغَايَةِ كَمَا يَبْتَعِدُ المُخْتَلِفُونَ فِي الكِتَابِ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ رَبَطَ عَذَابَ الكَاتِمِينَ بِنُزُولِ الكِتَابِ بِالحَقِّ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ جَرِيمَتَهُمْ عَظُمَتْ لِأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لِهِدَايَةِ الخَلْقِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ وَحْدَةٍ وَاجْتِمَاعٍ يَجْعَلُنِي أَلْتَزِمُ بِحَقِّ الكِتَابِ وَأَبْتَعِدُ عَنْ مَسَالِكِ الشِّقَاقِ، فَكُلُّ خِلَافٍ يَهْدِمُ أُصُولَ الوَحْيِ تِيهٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا ائْتِلَافَ إِلَّا لِمُعْتَصِمٍ بِكِتَابِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

دُسْتُورُ البِرّ الجَامِعُ يَنْتَشِلُ التَّدَيُّنَ مِنْ قُشُورِ الشَّكْلِيَّاتِ وَالجَدَلِ حَوْلَ الجِهَاتِ إِلَى جَوْهَرِ الإِيمَانِ وَالبَذْلِ وَالأَخْلَاقِ؛ إِذْ يَشْمَلُ البِرُّ الحَقِيقِيُّ الإِيمَانَ بِأُصُولِ الغَيْبِ وَالوَحْيِ، وَسَخَاءَ اليَدِ بِالمَالِ النَّفِيسِ لِلْأَقْرَبِينَ وَالضُّعَفَاءِ وَتَحْرِيرِ الرِّقَابِ، وَإِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَالْوَفَاءَ بِالعُهُودِ، وَالصَّبْرَ فِي الشَّدَائِدِ وَالفَقْرِ وَالمَرَضِ وَالمِعَارِكِ، لِيَتَوّجَ الخَالِقُ أَهْلَ هٰذِهِ الصِّفَاتِ بِوِسَامِ الصِّدْقِ وَالتَّقْوَى، فَمَنْ أَقَامَ أَرْكَانَ البِرّ العَمَلِيَّةَ صَدَقَ إِيمَانُهُ وَحَقَّقَ التَّقْوَى، وَمَنِ اكْتَفَى بِحَرَكَاتِ الجَسَدِ بِلَا عَقِيدَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ وَلَا وَفَاءٍ فَقَدَ رُوحَ البِرّ.

الصَّدَى

خَرِيطَةُ البِرّ وَوِسَامُ الصَّادِقِينَ

صَدَى ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

لَوْحَةُ البِرّ الكُبْرَى تَتَجَلَّى بِأَبْهَى أَلْوَانِهَا لِتُعْلِنَ أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَوَجُّهٍ بِالجَسَدِ نَحْوَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ بَلْ هُوَ إِيمَانٌ رَاسِخٌ وَسَخَاءٌ بِالمَالِ المَحْبُوبِ وَصَلَاةٌ وَزَكَاةٌ وَوَفَاءٌ وَصَبْرٌ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا المِيزَانِ الجَامِعِ يَخْلَعُ رِدَاءَ التَّدَيُّنِ الشَّكْلِيِّ لِيُدْرِكَ أَنَّ الصِّدْقَ وَالتَّقْوَى يَظْهَرَانِ فِي بَذْلِ المَالِ لِلْيَتِيمِ وَالمِسْكِينِ وَالْوَفَاءِ بِالعَهْدِ وَالصَّبْرِ فِي البَأْسَاءِ، وَكَمْ حَصَرْتُ مَفْهُومَ الصَّلَاحِ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الدُّسْتُورِ فِي طُقُوسٍ مَحْدُودَةٍ دُونَ أَنْ أَرَى اتِّسَاعَ البِرّ لِيَشْمَلَ العَقِيدَةَ وَالعِبَادَةَ وَالمَالَ

وَالخُلُقَ وَالشَّجَاعَةَ، أَرَى الشَّجَرَةَ المُتَكَامِلَةَ الَّتِي تَضْرِبُ جُذُورُهَا فِي عُمْقِ الإِيمَانِ وَيَشْمَخُ جِذْعُهَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَتَدَلَّى أَغْصَانُهَا بِالعَطَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالصَّبْرِ فَتَمْنَحُ الظِّلَّ وَالثَّمَرَ لِكُلِّ مُحْتَاجٍ كَمَا يَجْمَعُ الأَبْرَارُ هٰذِهِ الخِصَالَ فَيَنَالُونَ شَهَادَةَ الصِّدْقِ وَالتَّقْوَى مِنَ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ هٰذِهِ الآيَةَ بِقَوْلِهِ أُولٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولٰئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ البِرَّ الحَقِيقِيَّ هُوَ تَرْجَمَةُ الإِيمَانِ إِلَى عَطَاءٍ وَثَبَاتٍ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِرْآةٍ مُحَاسَبَةٍ شَامِلَةٍ أَقِيسُ بِهَا صِدْقَ تَقْوَايَ فِي المَالِ وَالعَهْدِ وَالصَّبْرِ، فَكُلُّ شَكْلِيَّةٍ تَخْلُو مِنْ جَوْهَرِ البِرِّ قِشْرَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا تَقْوَى إِلَّا لِصَادِقٍ أَقَامَ دُسْتُورَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٨ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

عَدَالَةُ التَّشْرِيعِ الجِنَائِيِّ تَجْمَعُ بَيْنَ الصَّرَامَةِ فِي حِفْظِ الدِّمَاءِ وَالمُسَاوَاةِ أَمَامَ القَانُونِ، وَبَيْنَ فَتْحِ بَابِ العَفْوِ وَالأُخُوَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ إِذْ يُقَرِّرُ الوَحْيُ قَانُونَ القِصَاصِ العَادِلِ الَّذِي يَقْطَعُ دَابِرَ الثَّأْرِ الجَاهِلِيِّ وَالتَّفَاوُتِ الطَّبَقِيِّ، ثُمَّ يُرَغِّبُ فِي العَفْوِ وَالتَّنَازُلِ إِلَى الدِّيَةِ بِأُسْلُوبٍ يَحْفَظُ أَوَاصِرَ الأُخُوَّةِ وَيُوجِبُ الأَدَاءَ بِإِحْسَانٍ دُونَ مُمَاطَلَةٍ، مُعْتَبِراً ذٰلِكَ تَخْفِيفاً وَرَحْمَةً مِنَ الخَالِقِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ العَدْلَ هُوَ الأَسَاسُ وَالعَفْوَ هُوَ الفَضْلُ، فَمَنْ عَفَا وَأَدَّى الحَقَّ بِإِحْسَانٍ نَالَ رَحْمَةَ رَبِّهِ، وَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ العَفْوِ وَالصُّلْحِ اسْتَوْجَبَ العَذَابَ الأَلِيمَ.

الصَّدَى

مِيزَانُ القِصَاصِ وَنَسِيمُ الأُخُوَّةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ

بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

سَيْفُ العَدْلِ المتَوَازِنُ يَقْطَعُ سَلَاسِلَ الثَّأْرِ الأَعْمَى لِيُقِيمَ المسَاوَاةَ في القِصَاصِ ثُمَّ يَغْمِدُ نَصْلَهُ في رَحْمَةِ العَفْوِ وَكَلِمَةِ الأُخُوَّةِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذَا السُّمُوِّ التَّشْرِيعِيِّ يَنْحَنِي إِكْبَاراً لِحِكْمَةٍ تُدَاوِي جِرَاحَ الدِّمَاءِ بِالعَدْلِ المطْلَقِ وَتُطْفِئُ نَارَ الحِقْدِ بِالفَضْلِ وَالإِحْسَانِ، وَكَمْ أَدْرَكْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ أَنَّ القَوَانِينَ البَشَرِيَّةَ تَعْجِزُ عَنِ الجَمْعِ بَيْنَ هَيْبَةِ العُقُوبَةِ وَرِقَّةِ التَّسَامُحِ حَتَّى رَأَيْتُ كَيْفَ نَادَى الوَحْيُ القَاتِلَ بِأَخِيهِ عِنْدَ العَفْوِ لِيَغْسِلَ أَثَرَ الجَرِيمَةِ بِالمودَّةِ، أَرَى الطَّبِيبَ الحَاذِقَ يَسْتَأْصِلُ الوَرَمَ الخَبِيثَ بِدِقَّةٍ حَتَّى لَا يَمْتَدَّ إِلَى الجَسَدِ ثُمَّ يَضَعُ عَلَى الجُرْحِ بَلْسَماً شَافِياً يُعِيدُ لِلْعُضْوِ حَيَاتَهُ وَنَضَارَتَهُ كَمَا شَرَعَ اللهُ القِصَاصَ وَرَغَّبَ في العَفْوِ وَالإِحْسَانِ تَخْفِيفاً وَرَحْمَةً، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَمَرَ بِالمعْرُوفِ عِنْدَ المطَالَبَةِ وَالإِحْسَانِ عِنْدَ الأَدَاءِ لِيَحْمِيَ المجْتَمَعَ مِنَ التَّنَازُعِ وَيُثَبِّتَ أَرْكَانَ السَّلَامِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ في صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ عَدْلٍ وَإِحْسَانٍ يَجْعَلُنِي أُطَالِبُ بِحَقِّي بِمَعْرُوفٍ وَأُؤَدِّي مَا عَلَيَّ بِإِحْسَانٍ، فَكُلُّ عُدْوَانٍ يَنْقُضُ الصُّلْحَ بَغْيٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا أَمَانَ إِلَّا في تَخْفِيفِ وَرَحْمَةِ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٧٩ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

فَلْسَفَةُ العُقُوبَةِ الرَّادِعَةِ تَكْشِفُ لِأَصْحَابِ العُقُولِ النَّيِّرَةِ أَنَّ إِزْهَاقَ رُوحِ القَاتِلِ المعْتَدِي هُوَ عَيْنُ الحَيَاةِ وَالأَمَانِ لِلْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ؛ إِذْ حِينَ يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ تُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ سَفْكَ الدِّمَاءِ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قِصَاصاً يَرْتَدِعُ عَنِ الجَرِيمَةِ، فَتُحْقَنُ دِمَاءُ القَاتِلِ وَالمقْتُولِ مَعاً وَتَسْتَقِرُّ الحَيَاةُ الآمِنَةُ في الأَرْضِ، لِيَتَأَسَّسَ في الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّسَاهُلَ في حُدُودِ اللهِ يُفْضِي إِلَى الفَوْضَى وَالموْتِ، فَمَنْ أَعْمَلَ لُبَّهُ وَعَقْلَهُ أَدْرَكَ أَنَّ في القِصَاصِ حَيَاةً وَتَقْوَى، وَمَنِ انْخَدَعَ بِالعَوَاطِفِ السَّطْحِيَّةِ عَطَّلَ شَرْعَ اللهِ وَأَفْسَدَ الحَيَاةَ.

الصَّدَى

سِرُّ الحَيَاةِ فِي سَيْفِ القِصَاصِ
صَدَى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

إِعْجَازُ البَيَانِ القُرْآنِيّ يَجْمَعُ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ فِي الظَّاهِرِ لِيُثْبِتَ لِأُولِي الأَلْبَابِ أَنَّ القِصَاصَ الَّذِي يَبْدُو قَتْلاً هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ مَنْبَعُ الحَيَاةِ وَصِمَامُ الأَمَانِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ الحِكْمَةِ السَّاطِعَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ النَّظْرَةِ القَاصِرَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ قَتْلَ المِجْرِمِ الوَاحِدِ يُحْمِي أُلُوفَ الأَبْرِيَاءِ مِنَ الفَنَاءِ، وَكَمْ تَاهَتِ العُقُولُ البَشَرِيَّةُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا النُّورِ فِي تَرْجِيمِ الجَانِي عَلَى حِسَابِ الضَّحِيَّةِ فَانْتَشَرَتِ الجَرَائِمُ وَتَهَدَّدَتْ حَيَاةُ الآمِنِينَ فِي دِيَارِهِمْ، أَرَى البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ يَقْطَعُ الغُصْنَ المُتَعَفِّنَ المُلِيءَ بِالآفَاتِ لِيُحْمِيَ الشَّجَرَةَ كُلَّهَا مِنَ اليَبَاسِ وَالمَوْتِ فَتَبْقَى مُورِقَةً مُثْمِرَةً كَمَا أَنَّ فِي القِصَاصِ حَيَاةً لِأُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَاطَبَ أُولِي الأَلْبَابِ بِهٰذَا السِّرِّ العَمِيقِ لِأَنَّ أَصْحَابَ العُقُولِ الصَّافِيَةِ هُمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ إِلَى المَآلَاتِ وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ لَا إِلَى المَظَاهِرِ الجُزْئِيَّةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى بُرْهَانٍ سَاطِعٍ عَلَى كَمَالِ التَّشْرِيعِ الإِلٰهِيّ وَرَحْمَتِهِ بِالبَشَرِيَّةِ، فَكُلُّ تَعْطِيلٍ لِعَدَالَةِ السَّمَاءِ فَوْضَى إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حَيَاةَ آمِنَةً إِلَّا فِي ظِلِّ شَرْعِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٠ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَمَانَةُ تَوْدِيعِ الحَيَاةِ تَقْتَضِي أَنْ يُبَادِرَ الإِنْسَانُ عِنْدَ اسْتِشْعَارِ قُرْبِ الأَجَلِ إِلَى تَنْظِيمِ حُقُوقِهِ وَأَمْوَالِهِ بِالعَدْلِ وَالمَعْرُوفِ لِئَلَّا يَتْرُكَ خَلْفَهُ نِزَاعاً يُمَزِّقُ الأَرْحَامَ؛ إِذْ يُرْشِدُ الوَحْيُ أَصْحَابَ الثَّرْوَةِ وَالخَيْرِ إِلَى إِيصَالِ البِرِّ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وِفْقَ مِيزَانِ العَدْلِ الَّذِي لَا يَحِيفُ وَلَا يَظْلِمُ، جَاعِلاً ذٰلِكَ حَقّاً ثَابِتاً عَلَى أَهْلِ التَّقْوَى الَّذِينَ يَرْقُبُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ التَّقْوَى تَتَجَلَّى فِي

حُسْنِ التَّدْبِيرِ قَبْلَ الرَّحِيلِ، فَمَنْ أَوْصَى بِالمَعْرُوفِ وَأَبْرَأَ ذِمَّتَهُ لَقِيَ اللهَ نَقِيّاً وَحَفِظَ مَوَدَّةَ أَهْلِهِ، وَمَنْ فَرَّطَ أَوْ جَارَ فِي وَصِيَّتِهِ تَرَكَ خَلْفَهُ فِتْنَةً وَوِزْراً.

الصَّدَى

تَدْبِيرُ الرَّحِيلِ وَوَصِيَّةُ التَّقْوَى
صَدَى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

مِيثَاقُ الوَدَاعِ الرَّشِيدُ يَدْعُو المؤْمِنَ عِنْدَ إِطْلَالَةِ الموْتِ إِلَى إِحْكَامِ وَصِيَّتِهِ بِالمعْرُوفِ كَيْ يَكُونَ مَالُهُ جِسْرَ صِلَةٍ وَرَحْمَةٍ لَا شَرَارَةَ خُصُومَةٍ بَعْدَ رَحِيلِهِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّوْجِيهِ الحَكِيمِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الغَفْلَةِ عَنْ تَرْتِيبِ أُمُورِ الآخِرَةِ وَالدُّنْيَا لِيُدْرِكَ أَنَّ المتَّقِيَ الحَقَّ هُوَ مَنْ يَسْتَعِدُّ لِسَاعَةِ اللِّقَاءِ بِتَصْفِيَةِ الحُقُوقِ وَالمظَالِمِ، وَكَمْ تَرَكَ الغَافِلُونَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا الأَدَبِ أَمْوَالَهُمْ مُعَلَّقَةً بِلَا وَصِيَّةٍ وَلَا بَيَانٍ فَتَحَوَّلَ الخَيْرُ الَّذِي جَمَعُوهُ إِلَى نَارِ عَدَاوَةٍ تَأْكُلُ أَوَا صِرَ القُرْبَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ، أَرَى المسَافِرَ العَاقِلَ الَّذِي يُرَتِّبُ مَتَاعَهُ وَيُعِيدُ الأَمَانَاتِ إِلَى أَصْحَابِهَا وَيَكْتُبُ وَصِيَّتَهُ بِوُضُوحٍ قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِقَ القَافِلَةُ فَيَرْحَلَ مُطْمَئِنَّ البَالِ مَحْمُودَ الأَثَرِ كَمَا يَكْتُبُ المتَّقُونَ وَصِيَّتَهُمْ بِالمعْرُوفِ بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ وَصَفَ المالَ بِالخَيْرِ وَقَيَّدَ الوَصِيَّةَ بِالمعْرُوفِ وَجَعَلَهَا حَقّاً عَلَى المتَّقِينَ لِيُرَبِّيَ النُّفُوسَ عَلَى العَدْلِ حَتَّى فِي آخِرِ أَنْفَاسِ الحَيَاةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ اسْتِعْدَادٍ وَأَمَانَةٍ يَجْعَلُنِي أُحْسِنُ تَدْبِيرَ شَأْنِي قَبْلَ الرَّحِيلِ، فَكُلُّ مَالٍ يُتْرَكُ بِلَا عَدْلٍ وَلَا مَعْرُوفٍ فِتْنَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا حُسْنَ عَاقِبَةٍ إِلَّا لِمُتَّقٍ أَدَّى حَقَّ اللهِ الكَبِيرِ المتَعَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (١٨١–١٩٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨١ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المؤْعِظَةُ

قَانُونُ الأَمَانَةِ وَالنَّزَاهَةِ يَحْمِي وَصَايَا الرَّاحِلِينَ مِنْ عَبَثِ الطَّامِعِينَ وَتَزْيِيفِ المَاكِرِينَ؛ إِذْ تَبْرَأُ ذِمَّةُ الموصِي العَادِلِ بِمُجَرَّدِ إِبْلَاغِ عَهْدِهِ، وَيَنْصَبُّ وِزْرُ الخِيَانَةِ كَامِلاً عَلَى مَنْ يُحَرِّفُ الوَصِيَّةَ بَعْدَ

سَمَاعِهَا، تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمِيعِ لِكُلِّ هَمْسٍ وَالعَلِيمِ بِكُلِّ دَسٍّ، لِيَسْتَقِرَّ فِي مِيزَانِ العَدْلِ أَنَّ صِيَانَةَ العُهُودِ بَعْدَ غِيَابِ أَصْحَابِهَا هِيَ أَصْدَقُ بُرْهَانٍ عَلَى حَيَاةِ الضَّمِيرِ، فَمَنْ حَفِظَ الوَصِيَّةَ وَأَدَّاهَا بِأَمَانَةٍ سَلِمَتْ ذِمَّتُهُ وَزَكَا عَمَلُهُ، وَمَنْ بَدَّلَهَا طَمَعاً أَوْ هَوًى بَاءَ بِالإِثْمِ المُبِينِ وَلَمْ يَخْفَ مَكْرُهُ عَلَى اللهِ.

الصَّدَى

حُرْمَةُ الوَصِيَّةِ وَعَيْنُ الرَّقِيبِ

صَدَى ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

أَمَانَةُ الكَلِمَةِ الأَخِيرَةِ تَقِفُ حَاجِزاً مَنِيعاً أَمَامَ جَشَعِ الأَحْيَاءِ الَّذِينَ يَسْتَغِلُّونَ صَمْتَ القُبُورِ لِيُبَدِّلُوا وَصَايَا الأَمْوَاتِ وَيَسْلُبُوا حُقُوقَ الضُّعَفَاءِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الوَعِيدِ الدَّقِيقِ يَزْدَادُ إِجْلَالاً لِلْعُهُودِ الغَائِبَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ غِيَابَ صَاحِبِ الحَقِّ لَا يُسْقِطُ حَقَّهُ بَلْ يُضَاعِفُ رَقَابَةَ السَّمِيعِ العَلِيمِ، وَكَمْ تَصَوَّرَ الخَائِنُونَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا القَانُونِ أَنَّ رَحِيلَ المُوصِي يُطْفِئُ الشَّاهِدَ عَلَى التَّبْدِيلِ وَيُبِيحُ لَهُمُ التَّلَاعُبَ بِالأَلْفَاظِ وَالأَرْقَامِ، أَرَى الحَارِسَ الخَائِنَ الَّذِي يَفْتَحُ الخَزِينَةَ المَخْتُومَةَ بَعْدَ سَفَرِ صَاحِبِهَا ظَانّاً أَنَّ المَكَانَ خَالٍ مِنَ الرُّقَبَاءِ بَيْنَمَا عَيْنُ السُّلْطَانِ تَرْصُدُهُ مِنْ فَوْقِ السَّبْعِ الطِّبَاقِ كَمَا يَرْصُدُ اللهُ مَنْ يُبَدِّلُ الوَصِيَّةَ بَعْدَ سَمَاعِهَا، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ التَّحْذِيرَ بِاسْمَيْهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ لِيُطَمْئِنَ المُوصِيَ العَادِلَ أَنَّ أَجْرَهُ قَدْ ثَبَتَ وَأَنَّ إِثْمَ التَّحْرِيفِ مَحْصُورٌ فِي عُنُقِ المُبَدِّلِينَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيثَاقٍ نَزَاهَةٍ يَجْعَلُنِي أَرْعَى عُهُودَ الغَائِبِينَ وَالأَمْوَاتِ كَمَا أَرْعَاهَا فِي حُضُورِهِمْ، فَكُلُّ تَبْدِيلٍ لِلْحَقِّ بَعْدَ السَّمَاعِ خِيَانَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا بَرَاءَةَ إِلَّا لِأَمِينٍ صَانَ عَهْدَ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٢ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ العَدْلِ وَالإِصْلَاحِ يَفْتَحُ بَابَ التَّدَخُّلِ الرَّشِيدِ لِتَقْوِيمِ المَيْلِ وَالجَوْرِ فِي الوَصَايَا قَبْلَ أَنْ يَشْتَعِلَ شَرَرُ النِّزَاعِ بَيْنَ الوَرَثَةِ؛ إِذْ يُمَيِّزُ التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ بَيْنَ التَّبْدِيلِ الظَّالِمِ المحَرَّمِ وَبَيْنَ الإِصْلَاحِ العَادِلِ الَّذِي يَرْفَعُ الحَيْفَ وَيَجْمَعُ الشَّمْلَ دُونَ إِثْمٍ وَلَا حَرَجٍ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الفِقْهِ المقَاصِدِيِّ أَنَّ الغَايَةَ العُظْمَى هِيَ إِقَامَةُ القِسْطِ وَإِطْفَاءُ الفِتَنِ لَا الجُمُودُ عَلَى خَطَإٍ يُفْسِدُ ذَاتَ البَيْنِ، فَمَنْ سَعَى بِالحِكْمَةِ لِرَدِّ الحُقُوقِ وَتَأْلِيفِ القُلُوبِ شَمِلَتْهُ مَغْفِرَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ، وَمَنْ تَرَكَ الجَوْرَ يَهْدِمُ البُيُوتَ بِحُجَّةِ النَّصِّ الجَائِرِ غَفَلَ عَنْ رُوحِ العَدَالَةِ.

الصَّدَى

مِشْرَطُ الإِصْلَاحِ وَتَقْوِيمُ الجَنَفِ

صَدَى ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

نَسِيمُ العَدْلِ وَالصُّلْحِ يَهُبُّ لِيُعَدِّلَ مِيزَانَ الوَصِيَّةِ إِذَا مَالَ بِهَا الهَوَى أَوِ الخَطَأُ فَيُطْفِئُ نَارَ الشِّقَاقِ بَيْنَ الأَرْحَامِ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَعَقْلِي أَمَامَ هٰذِهِ المرُونَةِ الفِقْهِيَّةِ الرَّاقِيَةِ يَمْتَلِئُ إِكْبَاراً لِشَرِيعَةٍ تُقَدِّمُ العَدْلَ وَالإِصْلَاحَ عَلَى كُلِّ جَوْرٍ وَاعْوِجَاجٍ، وَكَمْ ظَنَّ القَاصِرُونَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحِكْمَةِ أَنَّ الطَّاعَةَ تَعْنِي إِنْفَاذَ الظُّلْمِ إِذَا صَدَرَ عَنْ مُوصٍ حَتَّى أَبْصَرُوا كَيْفَ أَذِنَ الشَّارِعُ لِلْمُصْلِحِ أَنْ يَرُدَّ الجَنَفَ إِلَى القِسْطِ، أَرَى البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ الَّذِي يُسْنِدُ الغُصْنَ المائِلَ قَبْلَ أَنْ يَنْكَسِرَ وَيَسُدَّ طَرِيقَ النُّورِ عَنْ بَقِيَّةِ الشَّجَرَةِ فَيَسْتَقِيمُ العُودُ وَتَنْمُو الثِّمَارُ كَمَا يُصْلِحُ العَاقِلُ بَيْنَ الأَهْلِ إِذَا خَافَ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ بِحُكْمِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الإِذْنَ بِالإِصْلَاحِ بِاسْمَيْهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ لِيَرْفَعَ الحَرَجَ عَنْ قَلْبِ المصْلِحِ وَيُبَارِكَ خُطُوَاتِهِ فِي جَمْعِ الشَّمْلِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِيزَانِ حِكْمَةٍ وَإِصْلَاحٍ يَجْعَلُنِي أَسْعَى لِرَفْعِ الجَوْرِ وَتَقْرِيبِ القُلُوبِ بِلَا تَرَدُّدٍ، فَكُلُّ جَنَفٍ يُتْرَكُ بِلَا تَقْوِيمٍ فِتْنَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سَلَامَ إِلَّا فِي إِصْلَاحٍ يَرْضَاهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٣ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَدْرَسَةُ الصِّيَامِ العَرِيقَةُ تَرْبِطُ أُمَّةَ الإِيمَانِ بِمَرْكِبِ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ لِتُهَذِّبَ النُّفُوسَ وَتَرْفَعَهَا مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ إِلَى مَقَامِ التَّقْوَى؛ إِذْ يُدَرِّبُ الإِمْسَاكُ عَنِ المُبَاحَاتِ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ عَلَى ضَبْطِ الهَوَى وَمُرَاقَبَةِ الخَالِقِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الصِّيَامَ لَيْسَ حِرْمَاناً جَسَدِيّاً جَافّاً بَلْ هُوَ تَرْبِيَةٌ رُوحِيَّةٌ تُوَلِّدُ المَنَاعَةَ ضِدَّ المَعَاصِي، فَمَنْ صَامَ بِقَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ بَلَغَ غَايَةَ التَّقْوَى وَسَمَتْ رُوحُهُ، وَمَنِ اكْتَفَى بِالجُوعِ وَالعَطَشِ دُونَ كَفٍّ عَنِ الآثَامِ فَقَدَ ثَمَرَةَ الفَرِيضَةِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ الإِمْسَاكِ وَوِلَادَةُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

نَسِيمُ التَّطَهُّرِ السَّمَاوِيِّ يَهُبُّ عَلَى الأَرْوَاحِ المُثْقَلَةِ بِرَغَبَاتِ الطِّينِ لِيُحَرِّرَهَا بِصِيَامِ الإِرَادَةِ وَيَصْعَدَ بِهَا إِلَى ذُرْوَةِ التَّقْوَى وَالمُرَاقَبَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذِهِ الفَرِيضَةِ الخَالِدَةِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاسْتِسْلَامِ لِنِدَاءِ الجَسَدِ لِيُدْرِكَ أَنَّ مَنْ مَلَكَ زِمَامَ نَفْسِهِ عَنِ الحَلَالِ المَأْلُوفِ طَاعَةً لِرَبِّهِ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى تَرْكِ الحَرَامِ، وَكَمْ غَلَبَتْنِي العَادَاتُ المَادِّيَّةُ قَبْلَ انْكِشَافِ سِرِّ الصِّيَامِ حَتَّى عَلَّمَنِي هٰذَا المِحْرَابُ أَنَّ الرُّوحَ تَقْوَى وَتُشْرِقُ كُلَّمَا خَفَّ ثِقَلُ البَدَنِ، أَرَى الفَارِسَ الشُّجَاعَ الَّذِي يُرَوِّضُ جَوَادَهُ الجَامِحَ بِاللِّجَامِ المُحْكَمِ حَتَّى يَنْقَادَ لِإِشَارَتِهِ فِي مَيْدَانِ السِّبَاقِ كَمَا يُرَوِّضُ الصِّيَامُ النَّفْسَ البَشَرِيَّةَ لِتَبْلُغَ مَقَامَ التَّقْوَى بِأَمْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ ذَكَّرَنَا بِأَنَّ الصِّيَامَ كُتِبَ عَلَى الأُمَمِ السَّابِقَةِ لِيُؤَنِّسَ النُّفُوسَ بِوَحْدَةِ التَّشْرِيعِ وَيُحَدِّدَ الغَايَةَ الكُبْرَى بِقَوْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مَدْرَسَةِ إِرَادَةٍ وَتَقْوَى تُعَلِّمُنِي السِّيَادَةَ عَلَى شَهَوَاتِي وَتُقَرِّبُنِي مِنْ خَالِقِي، فَكُلُّ جُوعٍ يَخْلُو مِنَ التَّقْوَى عَنَاءٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا سُمُوَّ إِلَّا لِصَائِمٍ اتَّقَى اللهَ الكَبِيرَ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٤ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

رَحْمَةُ التَّيْسِيرِ وَالتَّدَرُّجِ تُهَوِّنُ مَشَقَّةَ التَّكْلِيفِ عَلَى القُلُوبِ حِينَ تَجْعَلُ زَمَنَ الصِّيَامِ أَيَّاماً قَلِيلَةً مَعْدُودَةً تَمُرُّ سَرِيعاً، وَتَفْتَحُ أَبْوَابَ الرُّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَالمسَافِرِ لِيَقْضِيَا فِي أَيَّامٍ أُخَرَ دُونَ حَرَجٍ وَلَا إِرْهَاقٍ، مَعَ تَرْغِيبِ القَادِرِينَ فِي اغْتِنَامِ فَضْلِ الصِّيَامِ وَالتَّطَوُّعِ بِالخَيْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَنَافِعَ عَظِيمَةٍ لِلرُّوحِ وَالبَدَنِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الفِقْهِيِّ أَنَّ الشَّرِيعَةَ بُنِيَتْ عَلَى الرِّفْقِ وَرَفْعِ الحَرَجِ، فَمَنْ أَخَذَ بِرُخْصَةِ رَبِّهِ عِنْدَ العُذْرِ وَبَادَرَ إِلَى العَزِيمَةِ عِنْدَ القُدْرَةِ نَالَ الخَيْرَ الكَامِلَ، وَمَنْ شَقَّ عَلَى نَفْسِهِ فِي السَّفَرِ وَالمرَضِ أَوْ تَرَكَ الصِّيَامَ بِلَا عُذْرٍ خَالَفَ حِكْمَةَ الشَّارِعِ.

الصَّدَى

قِصَرُ الأَيَّامِ وَسَعَةُ الرُّخْصَةِ

صَدَى ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

سَحَابَةُ اللُّطْفِ الإِلٰهِيِّ تُظِلُّ الصَّائِمِينَ فَتُقَصِّرُ زَمَنَ الِامْتِحَانِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ وَتَمْنَحُ العَاجِزَ وَالمسَافِرَ رُخْصَةَ التَّأْجِيلِ مَعَ البِشَارَةِ بِخَيْرِيَّةِ الصِّيَامِ لِأَهْلِ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا الحَنَانِ التَّشْرِيعِيِّ يَخْلَعُ رِدَاءَ الِاسْتِثْقَالِ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ تَكْلِيفٍ هُوَ لَحَظَاتٌ عَابِرَةٌ يَبْقَى أَجْرُهَا وَتَزُولُ مَشَقَّتُهَا، وَكَمْ تَصَوَّرَتِ النَّفْسُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذَا التَّيْسِيرِ طُولَ الطَّرِيقِ وَثِقَلَ العِبَادَةِ حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يَرْفُقُ الخَالِقُ بِالمرِيضِ وَالمسَافِرِ وَيُشَجِّعُ القَادِرَ عَلَى المزِيدِ، أَرَى المسَافِرَ الَّذِي يَقْطَعُ جِسْراً قَصِيراً فَوْقَ النَّهْرِ لِيَصِلَ إِلَى بُسْتَانٍ وَارِفِ الظِّلَالِ فَتَهُونُ عَلَيْهِ خُطُوَاتُ الجِسْرِ لِقِصَرِهَا وَعِظَمِ مَا بَعْدَهَا كَمَا تَهُونُ أَيَّامُ الصِّيَامِ المعْدُودَاتُ عَلَى العَارِفِينَ بِأَجْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ خَتَمَ الآيَةَ بِقَوْلِهِ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لِيَرْبِطَ الإِقْبَالَ عَلَى الطَّاعَةِ بِالعِلْمِ بِأَسْرَارِهَا وَمَنَافِعِهَا، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى طَاقَةِ رِضاً وَإِقْبَالٍ تَجْعَلُنِي أَغْتَنِمُ أَيَّامَ الطَّاعَةِ القَصِيرَةَ وَأَشْكُرُ رُخَصَ اللهِ عِنْدَ العُذْرِ، فَكُلُّ مَشَقَّةٍ فِي طَاعَةِ الخَالِقِ عَابِرَةٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا خَيْرَ أَعْظَمُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللهُ الكَبِيرُ المتَعَالُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٥ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَوْسِمُ النُّورِ وَالقُرْآنِ يَسْتَمِدُّ قَدَاسَتَهُ وَبَرَكَتَهُ مِنْ كَوْنِهِ الوِعَاءَ الزَّمَنِيَّ الَّذِي تَنَزَّلَ فِيهِ الوَحْيُ هِدَايَةً لِلْبَشَرِيَّةِ وَبَيِّنَاتٍ تَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ؛ إِذْ تَتَكَامَلُ فِي هٰذَا الشَّهْرِ المُبَارَكِ تَرْبِيَةُ الصِّيَامِ مَعَ إِشْرَاقَةِ القُرْآنِ وَقَاعِدَةِ التَّيْسِيرِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي تُرِيدُ لِلْعِبَادِ اليُسْرَ وَتَرْفَعُ عَنْهُمُ العُسْرَ، لِيُتَوَّجَ خِتَامُ الشَّهْرِ بِتَكْبِيرِ الخَالِقِ وَشُكْرِهِ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ، فَمَنْ وَصَلَ صِيَامَهُ بِتَدَبُّرِ القُرْآنِ وَشُكْرِ المُنْعِمِ نَالَ الهِدَايَةَ الكَامِلَةَ، وَمَنْ فَصَلَ رَمَضَانَ عَنِ القُرْآنِ فَقَدَ رُوحَ المَوْسِمِ وَبَرَكَتَهُ.

الصَّدَى

رَبِيعُ القُرْآنِ وَقَاعِدَةُ اليُسْرِ
صَدَى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

مِهْرَجَانُ الوَحْيِ الخَالِدُ يُشْرِقُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ لِيَجْمَعَ بَيْنَ صَفَاءِ الصِّيَامِ وَنُورِ القُرْآنِ تَحْتَ مِظَلَّةِ اليُسْرِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي يَنْتَهِي بِالتَّكْبِيرِ وَالشُّكْرِ عَلَى الهِدَايَةِ، وَقَلْبِي أَمَامَ هٰذَا التَّلَاحُمِ البَدِيعِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالقُرْآنِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الغَفْلَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ جُوعَ البَدَنِ إِنَّمَا شُرِعَ لِيَتَهَيَّأَ القَلْبُ لِمَائِدَةِ القُرْآنِ وَفُرْقَانِهِ، وَكَمْ حَصَرْتُ رَمَضَانَ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ فِي عَادَاتِ الطَّعَامِ وَالإِمْسَاكِ دُونَ أَنْ أَجْعَلَهُ شَهْرَ العَيْشِ مَعَ آيَاتِ الهُدَى وَالبَيِّنَاتِ، أَرَى الأَرْضَ العَطْشَى تَصُومُ عَنِ المَاءِ فِي الصَّيْفِ حَتَّى تَتَشَقَّقَ مَسَامُّهَا فَتَسْتَقْبِلَ غَيْثَ السَّمَاءِ الغَزِيرَ وَتُزْهِرَ بِالحَيَاةِ كَمَا تَتَهَيَّأُ الأَرْوَاحُ بِالصِّيَامِ لِاسْتِقْبَالِ نُورِ القُرْآنِ وَيُسْرِ اللهِ، فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَعْلَنَ إِرَادَةَ اليُسْرِ وَنَفْيَ العُسْرِ وَسْطَ آيَاتِ الصِّيَامِ لِيُؤَسِّسَ لِأَصْلٍ فِقْهِيٍّ عَظِيمٍ يَجْعَلُ السَّمَاحَةَ رُوحَ الشَّرِيعَةِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ

فِي صَدْرِي إِلَى رَبِيعٍ دَائِمٍ يَصِلُ صِيَامِي بِالقُرْآنِ وَيَمْلَأُ لِسَانِي بِالتَّكْبِيرِ وَالشُّكْرِ، فَكُلُّ مَوْسِمٍ يَخْلُو مِنْ هُدَى القُرْآنِ وَقْتٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا يُسْرَ إِلَّا فِي شَرْعِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٦ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قُرْبُ السَّمَاءِ المَحْفُوفُ بِالحَنَانِ يُسْقِطُ كُلَّ الوَسَائِطِ وَالحُجُبِ بَيْنَ الخَالِقِ وَعِبَادِهِ حِينَ يَتَوَلَّى اللهُ بِنَفْسِهِ الإِجَابَةَ عَنْ سُؤَالِهِمْ بِعِبَارَةٍ تَفِيضُ قُرْباً وَاسْتِجَابَةً؛ إِذْ يَضْمَنُ القَرِيبُ المُجِيبُ إِجَابَةَ دَعْوَةِ الدَّاعِي الصَّادِقِ بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَجِيبَ العَبْدُ لِأَوَامِرِ رَبِّهِ وَيُحَقِّقَ اليَقِينَ وَالإِيمَانَ بِهِ لِيَبْلُغَ بِذٰلِكَ قِمَّةَ الرُّشْدِ وَالهِدَايَةِ، لِيَتَأَسَّسَ فِي الوَعْيِ الرُّشْدِيِّ أَنَّ الدُّعَاءَ جِسْرٌ مُبَاشِرٌ بَيْنَ فَقْرِ المَخْلُوقِ وَغِنَى الخَالِقِ، فَمَنْ دَعَا رَبَّهُ مُوقِناً مُسْتَجِيباً لِشَرْعِهِ نَالَ الإِجَابَةَ وَالرُّشْدَ، وَمَنْ اتَّخَذَ الوَسَائِطَ أَوْ دَعَا بِغَفْلَةٍ وَعِصْيَانٍ حَجَبَ نَفْسَهُ عَنْ نُورِ القُرْبِ.

الصَّدَى

هِبَةُ القُرْبِ وَجِسْرُ الدُّعَاءِ
صَدَى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

نَسِيمُ القُرْبِ الإِلٰهِيِّ يَمْسَحُ دُمُوعَ السَّائِلِينَ وَيُزِيلُ كُلَّ حَاجِزٍ بَيْنَ هَمْسِ القُلُوبِ فِي الأَرْضِ وَبَيْنَ عَرْشِ القَرِيبِ المُجِيبِ فِي السَّمَاءِ، وَفُؤَادِي أَمَامَ هٰذَا الحَنَانِ الغَامِرِ يَخْلَعُ رِدَاءَ الوَحْشَةِ وَالغُرْبَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ اللهَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ وَيَسْمَعُ نِدَائِي بِلَا وَاسِطَةٍ وَلَا تَرْجُمَانٍ، وَكَمْ شَعَرْتُ قَبْلَ انْكِشَافِ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ بِبُعْدِ المَسَافَةِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الكُرُوبِ حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي سَكِينَةُ فَإِنِّي قَرِيبٌ تَمْلَأُ رُوحِي بِالأُنْسِ وَاليَقِينِ، أَرَى الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَهْمِسُ بِحَاجَتِهِ فِي أُذُنِ أُمِّهِ الحَنُونِ فَتُسَارِعُ إِلَى تَلْبِيَتِهَا قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ كَلَامَهُ كَمَا يُجِيبُ اللهُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاهُ بِصِدْقٍ وَإِيمَانٍ، فَمَا

أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ حِينَ أَسْقَطَ كَلِمَةَ قُلْ فِي الجَوَابِ لِيُبَاشِرَ عِبَادَهُ بِالقُرْبِ ثُمَّ رَبَطَ الإِجَابَةَ بِالِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ لِيَقُودَهُمْ إِلَى الرُّشْدِ، هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هٰذِهِ الآيَةُ فِي صَدْرِي إِلَى مِحْرَابِ مُنَاجَاةٍ دَائِمَةٍ تَجْعَلُنِي أَلْجَأُ إِلَى رَبِّي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَأَسْتَجِيبُ لِأَمْرِهِ، فَكُلُّ بَابٍ يُطْرَقُ غَيْرَ بَابِ الخَالِقِ سَرَابٌ إِلَى زَوَالٍ، وَلَا خُلُودَ وَلَا رُشْدَ إِلَّا فِي قُرْبِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ ١٨٧ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ...﴾

المَوْعِظَةُ

رَحْمَةُ التَّشْرِيعِ وَتَوَازُنُ الفِطْرَةِ يُرْسِيَانِ قَوَاعِدَ الصِّيَامِ عَلَى اليُسْرِ لَا العَنَتِ، فَيَجْعَلَانِ اللَّيْلَ سَكِينَةً وَإِبَاحَةً لِلطَّيِّبَاتِ وَالْمَوَدَّةِ الزَّوْجِيَّةِ، وَيَجْعَلَانِ النَّهَارَ مِحْراباً لِلْإِمْسَاكِ وَتَزْكِيَةِ الرُّوحِ. هٰذَا المِيزَانُ الرَّبَّانِيُّ يَهْدِمُ التَّنَطُّعَ الَّذِي يُرْهِقُ البَدَنَ بِحِرْمَانٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الخَالِقُ، وَيُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَسَاوِسِ الحَرَجِ، مَعَ رَسْمِ حُدُودٍ وَاضِحَةٍ كَخَيْطِ الفَجْرِ تَفْصِلُ بَيْنَ رُخْصَةِ اللَّيْلِ وَانْضِبَاطِ النَّهَارِ وَقَدَاسَةِ الِاعْتِكَافِ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ رَبِّهِ بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ نَالَ نُورَ التَّقْوَى وَسَعَادَةَ الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ مَنْ خَانَ نَفْسَهُ أَوْ تَجَاوَزَ الحُدُودَ فِي ظُلْمَةِ الغَفْلَةِ وَالِاضْطِرَابِ.

الصَّدَى

خَيْطُ الفَجْرِ وَلِبَاسُ السَّكِينَةِ

صَدَى آيَةِ الصِّيَامِ وَرُخْصَةِ اللَّيْلِ

لَيْلٌ رَحِيمٌ يُسْدِلُ سِتْرَ المَوَدَّةِ وَالسَّكِينَةِ عَلَى الأَرْوَاحِ، وَخَيْطٌ أَبْيَضُ مِنَ الفَجْرِ يَرْسُمُ بِدِقَّةٍ سَاعَةَ الِانْتِقَالِ مِنْ رُخْصَةِ الجَسَدِ إِلَى سُمُوِّ الرُّوحِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ القَسْوَةِ عَلَى النَّفْسِ الَّذِي يَظُنُّ القُرْبَ فِي تَعْذِيبِ البَدَنِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تَرْفَعُ عَنَّا الحَرَجَ لِتَسْمُوَ بِنَا نَحْوَ التَّقْوَى. وَكَمْ أَثْقَلْتُ كَاهِلِي قَدِيماً بِظُنُونٍ وَتَكَلُّفَاتٍ تُضَيِّقُ مَا وَسَّعَهُ الخَالِقُ، فَأَضَعْتُ حَلَاوَةَ الطُّمَأْنِينَةِ وَسَكِينَةَ الامْتِثَالِ! أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ كَيْفَ يَنْبَلِجُ مِنَ الظَّلَامِ بِرِفْقٍ وَهُدُوءٍ، فَيَفْصِلُ بَيْنَ سُكُونِ اللَّيْلِ وَيَقَظَةِ النَّهَارِ دُونَ صَخَبٍ أَوِ اضْطِرَابٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّتِي تَجْعَلُ الزَّوْجَيْنِ لِبَاساً وَسِتْراً لِبَعْضِهِمَا،

ثُمَّ تَضَعُ لِكُلِّ عِبَادَةٍ حُدُوداً تَصُونُ القَلْبَ مِنَ الزَّلَلِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامُ صِيَامِي مِنْ مُكَابَدَةٍ جَافَّةٍ إِلَى تَنَاغُمٍ بَدِيعٍ يَجْمَعُ بَيْنَ طُهْرِ الِاعْتِكَافِ وَيُسْرِ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ. فَكُلُّ تَكَلُّفٍ يُجَاوِزُ الحُدُودَ مَآلُهُ التَّعَبُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ الَّتِي تَنْبُتُ فِي ظِلَالِ اليُسْرِ وَالِاعْتِدَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 188 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُرْمَةُ المالِ العَامِّ وَالخَاصِّ وَصِيَانَةُ القَضَاءِ مِنَ التَّلَاعُبِ يُشَكِّلَانِ السِّيَاجَ الأَمِينَ لِاسْتِقْرَارِ المجْتَمَعَاتِ وَطَهَارَةِ الذِّمَمِ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُقَرِّرُ أَنَّ أَحْكَامَ القُضَاةِ الظَّاهِرَةَ لَا تُغَيِّرُ حَقَائِقَ الأَشْيَاءِ فِي البَاطِنِ، فَمَنِ انْتَزَعَ حَقَّ غَيْرِهِ بِحُجَّةٍ كَاذِبَةٍ أَوْ رَشْوَةٍ خَفِيَّةٍ فَإِنَّمَا يَقْتَطِعُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ وَهُوَ يَعْلَمُ بُطْلَانَ دَعْوَاهُ. هٰذِهِ الهِدَايَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ التَّحَايُلِ القَانُونِيِّ الَّذِي يَظُنُّ البَرَاءَةَ فِي غَلَبَةِ الخَصْمِ أَمَامَ المحَاكِمِ، لِتَرْبِطَ المِلْكِيَّةَ بِالْحَقِّ المجَرَّدِ وَمُرَاقَبَةِ الضَّمِيرِ الحَيِّ. فَمَنْ طَهَّرَ كَسْبَهُ مِنَ البَاطِلِ وَوَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ العَدْلِ بُورِكَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَسَلِمَتْ ذِمَّتُهُ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ آكِلُ السُّحْتِ وِزْرَ إِثْمِهِ مُضَاعَفاً يَوْمَ تُكْشَفُ السَّرَائِرُ. [1]

الصَّدَى

طَهَارَةُ الكَسْبِ وَسَرَابُ الحُجَجِ الكَاذِبَةِ

صَدَى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

نَبْعٌ صَافٍ مِنَ الكَسْبِ الحَلَالِ يَرْوِي العُرُوقَ بِالبَرَكَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَمُسْتَنْقَعٌ مِنَ السُّحْتِ يَتَسَتَّرُ خَلْفَ أَقْنِعَةِ القَضَاءِ وَالحِيَلِ الماكِرَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْتِصَارِ الظَّاهِرِيِّ الَّذِي يَغْتَرُّ بِحُكْمٍ بَشَرِيٍّ بُنِيَ عَلَى شَهَادَةِ زُورٍ أَوْ لَدَدٍ فِي الخُصُومَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحَرَامَ لَا يَنْقَلِبُ حَلَالاً بِتَزْيِينِ الأَلْفَاظِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً أَيْدِياً تَمْتَدُّ إِلَى حُقُوقِ الآخَرِينَ بِأَسَالِيبَ مُلْتَوِيَةٍ، نَحْسَبُ أَنَّ ذَكَاءَ

الحِيلَةِ يُغْنِيهَا عَنْ نَظَرِ الرَّقِيبِ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ! أَتَأَمَّلُ الميزَانَ الدَّقِيقَ كَيْفَ يَفْضَحُ زَيْفَ المِعَادِنِ مَهْمَا طُلِيَتْ بِبَرِيقِ الذَّهَبِ، فَلَا يَثْبُتُ فِي كِفَّتِهِ إِلَّا الجَوْهَرُ الخَالِصُ. فَمَا أَشَدَّ وَعِيدَ اللهِ لِمَنْ يَتَّخِذُ مَجَالِسَ الحُكْمِ مَطِيَّةً لِابْتِلَاعِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَهُوَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ ظُلْمِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتِي بِالمالِ مِنْ تَكَالُبٍ يَبْحَثُ عَنِ الثَّغَرَاتِ إِلَى وَرَعٍ يَحْرُسُ حُقُوقَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ تَطَالَهَا الشُّبُهَاتُ. فَكُلُّ مَالٍ يُنْتَزَعُ بِالبَاطِلِ مَآلُهُ المحْقُ وَالوَبَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرِزْقٍ طَيِّبٍ يَرْضَاهُ اللهُ وَتُبَارِكُهُ السَّمَاءُ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 189 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1]

المَوْعِظَةُ

تَوْجِيهُ العَقْلِ البَشَرِيِّ نَحْوَ الغَايَاتِ العَمَلِيَّةِ وَهَدْمُ الطُّقُوسِ المَوْرُوثَةِ الخَالِيَةِ مِنَ المَعْنَى يُعِيدَانِ لِلدِّينِ رُوحَهُ الصَّافِيَةَ وَيُسْرَهُ الفِطْرِيَّ. الإِجَابَةُ القُرْآنِيَّةُ عَنْ تَقَلُّبِ الأَهِلَّةِ تَنْقُلُ السَّائِلَ مِنَ الفُضُولِ الفَلَكِيِّ المجَرَّدِ إِلَى إِدْرَاكِ الحِكْمَةِ التَّنْظِيمِيَّةِ الَّتِي تَضْبِطُ مَوَاقِيتَ العِبَادَاتِ وَالمعَامَلَاتِ وَالحَجِّ. كَمَا تُبْطِلُ الآيَةُ تِلْكَ التَّكَلُّفَاتِ الجَاهِلِيَّةَ الَّتِي تَوَهَّمَتِ البِرَّ فِي التَّسَوُّرِ عَلَى البُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا، لِتُقَرِّرَ أَنَّ البِرَّ الحَقِيقِيَّ هُوَ التَّقْوَى وَسُلُوكُ الأَبْوَابِ المشْرُوعَةِ دُونَ عَنَتٍ أَوْ خُرَافَةٍ. فَمَنْ سَلَكَ مَسَالِكَ الفِطْرَةِ وَالتَّقْوَى أَفْلَحَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المتَنَطِّعُ فِي أَوْهَامٍ وَرُسُومٍ لَا تُقَرِّبُهُ مِنَ الخَالِقِ زُلْفَى. [1]

الصَّدَى

مَوَاقِيتُ الأَهِلَّةِ وَأَبْوَابُ البِرِّ
صَدَى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
هِلَالٌ وَلِيدٌ يَبْزُغُ كَالخَيْطِ الفِضِّيِّ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ثُمَّ يَكْتَمِلُ بَدْراً، لِيَرْسُمَ لِلْبَشَرِ سَاعَةَ الزَّمَنِ

وَمَوَاسِمَ القُرْبِ وَالطَّاعَةِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّدَيُّنِ الشَّكْلِيِّ الَّذِي يَصْنَعُ لِنَفْسِهِ مَشَاقَّ مَوْهُومَةً وَيُغْلِقُ الأَبْوَابَ الوَاسِعَةَ لِيَتَسَلَّقَ الجُدْرَانَ المُلْتَوِيَةَ. وَكَمْ أَرْهَقْتُ نَفْسِي قَدِيماً بِتَعْقِيدَاتٍ لَا أَصْلَ لَهَا، غَافِلاً عَنْ أَنَّ جَوْهَرَ البِرِّ هُوَ صَفَاءُ التَّقْوَى وَالِاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقِ المَأْلُوفِ! أَتَأَمَّلُ الفُصُولَ الأَرْبَعَةَ كَيْفَ تَتَعَاقَبُ بِنِظَامٍ مُحْكَمٍ لِتُعْلِنَ لِلْأَرْضِ مَوَاعِيدَ البَذْرِ وَالحَصَادِ فِي يَسْرٍ وَانْسِيَابٍ دُونَ تَكَلُّفٍ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّتِي تَجْعَلُ الأَهِلَّةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ وَتَرُدُّ القُلُوبَ إِلَى أَبْوَابِ البِرِّ الحَقِيقِيَّةِ المَبْنِيَّةِ عَلَى التَّقْوَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِبَادَتِي مِنْ طُقُوسٍ جَامِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْقُشُورِ إِلَى سُلُوكٍ رَاشِدٍ يَلِجُ البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا بِسَكِينَةٍ وَيَقِينٍ. فَكُلُّ تَكَلُّفٍ يَبْتَدِعُهُ الوَهْمُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا فَلَاحَ إِلَّا بِتَقْوَى اللهِ وَاتِّبَاعِ صِرَاطِهِ المُسْتَقِيمِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 190 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [1]

المَوْعِظَةُ

مَشْرُوعِيَّةُ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَالعَقِيدَةِ مَعَ الِانْضِبَاطِ الأَخْلَاقِيِّ الصَّارِمِ تَضَعُ لِلْحَرْبِ فِي الإِسْلَامِ مِيثَاقَ شَرَفٍ لَا يَعْرِفُ الغَدْرَ وَلَا البَغْيَ. القَاعِدَةُ القُرْآنِيَّةُ تُقَيِّدُ القِتَالَ بِمَنْ يُبَادِرُ بِالْعُدْوَانِ وَالمحَارَبَةِ، فَتَصُونُ دِمَاءَ المسَالِمِينَ وَالشُّيُوخِ وَالنِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ وَتَحْمِي الحَيَاةَ مِنَ التَّدْمِيرِ الأَعْمَى. هٰذَا التَّشْرِيعُ العَادِلُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ نَزَعَاتِ التَّوَحُّشِ وَالِانْتِقَامِ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ غَايَةَ القُوَّةِ هِيَ إِقَامَةُ العَدْلِ فِي سَبِيلِ الخَالِقِ لَا إِرْضَاءُ شَهْوَةِ الغَلَبَةِ، وَأَنَّ مُجَاوَزَةَ الحَدِّ تَحْرِمُ المقَاتِلَ مَحَبَّةَ السَّمَاءِ. فَمَنْ دَافَعَ عَنِ الحَقِّ بِنَزَاهَةٍ وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الاعْتِدَاءِ نَالَ عِزَّةَ النَّصْرِ وَرِضَا الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَبُوءُ المعْتَدِي بِبُغْضِ اللهِ وَخُسْرَانِ المآلِ. [1]

الصَّدَى

سَيْفُ العَدْلِ وَلِجَامُ النَّزَاهَةِ

صَدَى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ...﴾ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

سَيْفٌ مُشْرَعٌ لِحِرَاسَةِ الحَقِّ لَا يَمْتَدُّ إِلَّا لِرَدِّ صَائِلٍ بَغَى، وَمِيزَانٌ دَقِيقٌ يَكُفُّ اليَدَ عَنْ كُلِّ بَرِيءٍ لَمْ يَرْفَعْ سِلَاحاً. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ القُوَّةِ المُطْلَقَةِ الَّتِي تَسْتَبِيحُ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ الخُصُومَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الشَّجَاعَةَ الحَقِيقِيَّةَ تَكْمُنُ فِي ضَبْطِ النَّفْسِ عَنْ مُجَاوَزَةِ الحُدُودِ. وَكَمْ جَاشَتْ فِي صَدْرِي قَدِيماً رَغْبَةُ الرَّدِّ القَاسِي عِنْدَ المواجهَةِ، فَكَادَتْ تُعْمِي بَصِيرَتِي عَنِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ المعْتَدِي وَالمسَالِمِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ المُمْطِرَةَ كَيْفَ تَسْقِي الأَرْضَ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ لِتُحْيِيَ الزَّرْعَ دُونَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى سَيْلٍ جَارِفٍ يَهْدِمُ البُيُوتَ وَيُغْرِقُ الآمِنِينَ. فَمَا أَعْظَمَ وَصِيَّةَ اللهِ الَّتِي تَرْبِطُ القِتَالَ بِسَبِيلِهِ ثُمَّ تُحَذِّرُ مِنْ كُلِّ اعْتِدَاءٍ يُفْقِدُ العَبْدَ مَحَبَّةَ خَالِقِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَلَابَتِي فِي مَوَاقِفِ الصِّرَاعِ مِنْ عَاصِفَةٍ هَوْجَاءَ إِلَى قُوَّةٍ عَادِلَةٍ تَحْمِي المظْلُومَ وَتَقِفُ بِوَرَعٍ عِنْدَ حَدِّ الأَمْرِ الإِلٰهِيِّ. فَكُلُّ عُدْوَانٍ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ القِسْطِ مَآلُهُ الخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقٍّ يُصَانُ بِالعَدْلِ وَيَحُفُّهُ رِضَا اللهِ. [1]

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (191–200)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 191 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَدَاسَةُ الحَرَمِ وَحُرْمَةُ الدِّمَاءِ مِيزَانٌ دَقِيقٌ يَضْبِطُ سَاعَةَ الدِّفَاعِ عَنِ الوُجُودِ، فَلَا يُبَاحُ السَّيْفُ إِلَّا لِرَدِّ العُدْوَانِ وَدَفْعِ الفِتْنَةِ الَّتِي تَسْلُبُ الإِنْسَانَ حُرِّيَّةَ الضَّمِيرِ وَأَمْنَ المعْتَقَدِ. شَرِيعَةُ السَّمَاءِ تَصُونُ رِحَابَ البَيْتِ العَتِيقِ مِنْ أَنْ تُدَنَّسَ بِصَخَبِ الحُرُوبِ، فَتَجْعَلُ السِّلْمَ أَصْلاً ثَابِتاً لَا يُخْرَقُ إِلَّا إِذَا بَدَأَ البَاغِي بِانْتِهَاكِ الحُرُمَاتِ وَاسْتِبَاحَةِ الآمِنِينَ. عَقْلُ المؤْمِنِ يَزِنُ المفَاسِدَ بِبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ، فَيُدْرِكُ أَنَّ صَدَّ العَادِي عَنْ إِكْرَاهِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ أَوْلَى مِنْ مُجَرَّدِ حَقْنِ دَمِ المعْتَدِي، مَعَ التَّقَيُّدِ الصَّارِمِ بِحُدُودِ العَدْلِ دُونَ تَجَاوُزٍ أَوْ طُغْيَانٍ. هٰكَذَا يَغْدُو السِّلْمُ المسَلَّحُ بِالحَقِّ حِصْناً يَحْمِي كَرَامَةَ الإِنْسَانِ وَيَصُونُ الحَرَمَاتِ، بَيْنَمَا يَنْقَلِبُ البَغْيُ وَتَرْوِيعُ الآمِنِينَ وَبَالاً يَحْصُدُ أَصْحَابَهُ فِي مَيْدَانِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ.

الصَّدَى

سَيَاجُ الحَرَمِ وَصَحَبُ البَغْيِ

صَدَى ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ حَرَمٌ آمِنٌ تَتَفَيَّأُ الطَّيْرُ ظِلَالَهُ بِسَلَامٍ، وَعَدْلٌ رَبَّانِيٌّ يَرْسُمُ لِلْقُوَّةِ حُدُودَ المِحْرَابِ فَلَا تَتَجَاوَزُهَا إِلَّا رَدّاً لِلصَّائِلِ. في أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاسْتِسْلَامِ المَذْمُومِ أَمَامَ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ حِمَايَةَ حُرِّيَّةِ الرُّوحِ أَغْلَى مِنْ كُلِّ سُكُونٍ زَائِفٍ. وَكَمْ تَاهَتْ خُطَايَ قَدِيماً بَيْنَ خَوْفٍ يَشُلُّ الإِرَادَةَ عَنْ دَفْعِ الظُّلْمِ وَغَضَبٍ يَطِيشُ بِالمِيزَانِ فَيُجَاوِزُ الحَدَّ المَشْرُوعَ! أَتَأَمَّلُ الجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ كَيْفَ تَصُدُّ الرِّيَاحَ العَاتِيَةَ دُونَ أَنْ تَبْرَحَ مَكَانَهَا أَوْ تَبْغِيَ عَلَى السُّهُولِ، فَأُبْصِرُ هَيْبَةَ الحَقِّ حِينَ يَتَدَرَّعُ بِالحِكْمَةِ. فَمَا أَعْظَمَ مِيزَانَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ لِلْبَيْتِ العَتِيقِ قَدَاسَةً تَكُفُّ الأَيْدِي، ثُمَّ يَأْذَنُ بِدَفْعِ الصَّائِلِ إِذَا هَتَكَ سِتْرَ الأَمَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ القُوَّةُ في دَاخِلِي مِنْ نَارٍ عَمْيَاءَ تَلْتَهِمُ الأَخْضَرَ وَاليَابِسَ إِلَى دِرْعٍ بَصِيرَةٍ تَحْرُسُ مَحَارِيبَ السَّكِينَةِ. فَكُلُّ عُدْوَانٍ يَنْتَهِكُ حُرْمَةَ الأَمْنِ مَآلُهُ الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسَلَامٍ يَحْمِيهِ العَدْلُ وَيَصُونُهُ أَمْرُ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 192 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

بَابُ التَّوْبَةِ المَفْتُوحُ عِنْدَ نِهَايَةِ الخُصُومَةِ يُعْلِنُ أَنَّ الغَايَةَ مِنْ تَشْرِيعِ القِتَالِ هِيَ اسْتِئْصَالُ العُدْوَانِ لَا اسْتِئْصَالُ الإِنْسَانِ. كَلِمَةُ الِانْتِهَاءِ عَنِ البَغْيِ تَكْفِي لِتُغْمِدَ السُّيُوفُ فَوْراً وَتُطْوَى صَفَحَاتُ الصِّرَاعِ، إِذْ لَا مَجَالَ في شَرْعِ الرَّحْمَةِ لِتَشَفٍّ أَوِ انْتِقَامٍ بَعْدَ كَفِّ الأَذَى. الرُّؤْيَةُ المَقَاصِدِيَّةُ تُحَرِّرُ القُلُوبَ مِنْ أَغْلَالِ الضَّغَائِنِ المَوَارَثَةِ، فَتُعَلِّمُ المُؤْمِنَ أَنْ يَقْبَلَ جُنُوحَ الخَصْمِ لِلسِّلْمِ بِصَدْرٍ رَحْبٍ يَسْتَمِدُّ سَعَتَهُ مِنْ مَغْفِرَةِ الخَالِقِ. فَمَنْ بَادَرَ إِلَى كَفِّ شَرِّهِ وَالرُّجُوعِ إِلَى جَادَّةِ الحَقِّ وَجَدَ سَحَائِبَ الرَّحْمَةِ تَغْسِلُ مَا سَلَفَ مِنْ خَطَايَاهُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المِصِرُّ عَلَى عِنَادِهِ مَحْبُوساً في ظُلْمَةِ بَغْيِهِ وَقَسْوَةِ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

إِغْمَادُ السَّيْفِ وَفَيْضُ المَغْفِرَة

صَدَى ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

سَحَابَةُ غَيْثٍ تُهْطِلُ فَوْقَ أَرْضٍ أَحْرَقَتْهَا نِيرَانُ الخُصُومَةِ، فَتُطْفِئُ الجَمْرَ وَتُنْبِتُ الزَّهْرَ فِي لَحْظَةِ سَلَامٍ وَاحِدَةٍ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الثَّأْرِ الأَبَدِيِّ، وَأُدْرِكُ أَنَّ إِغْمَادَ السَّيْفِ عِنْدَ نَدَمِ الخَصْمِ هُوَ ذُرْوَةُ الِانْتِصَارِ عَلَى هَوَى النَّفْسِ. وَكَمْ أَثْقَلَتْ صَدْرِي قَدِيماً ذَاكِرَةُ الإِسَاءَاتِ، وَكَمْ تَشَتَّتْ رُوحِي بَيْنَ رَغْبَةٍ فِي الاقْتِصَاصِ وَخَوْفٍ مِنْ تَجَدُّدِ الجِرَاحِ! أَرَى الفَجْرَ كَيْفَ يَمْحُو سَوَادَ اللَّيْلِ بِرِفْقٍ دُونَ ضَجِيجٍ، فَيُعِيدُ لِلْكَوْنِ بَهَاءَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ الأُولَى. فَمَا أَعْظَمَ عَهْدَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ التَّرَاجُعَ عَنِ الغَيِّ مِفْتَاحاً لِبَحْرِ المَغْفِرَةِ الرَّحِيمَةِ الَّذِي لَا يَنْضَبُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ القَسْوَةُ الكَامِنَةُ فِي أَعْمَاقِي إِلَى نَبْعٍ صَافٍ يَغْسِلُ أَدْرَانَ الخِلَافِ وَيَسْتَقْبِلُ التَّائِبِينَ بِالأَمَانِ. فَكُلُّ ضَغِينَةٍ يَبْنِيهَا البَشَرُ مَصِيرُهَا الزَّوَالُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 193 مِنْ سُورَةِ البَقَرَة

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُرِّيَّةُ الضَّمِيرِ الإِنْسَانِيِّ وَخُلُوصُ العُبُودِيَّةِ لِلْخَالِقِ هُمَا الغَايَةُ العُلْيَا الَّتِي تُقَاسُ بِهَا مَشْرُوعِيَّةُ المَدَافَعَةِ، فَلَا يُقَاتَلُ النَّاسُ لِإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الإِيمَانِ، بَلْ لِإِزَالَةِ الحَوَاجِزِ الَّتِي تَفْتِنُهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ. الضَّابِطُ المَقَاصِدِيُّ يَرْسُمُ خَطّاً فَاصِلاً بَيْنَ الرَّدْعِ العَادِلِ وَالعُدْوَانِ البَاغِي، فَمَتَى انْقَشَعَتْ غُمَّةُ الِاضْطِهَادِ وَانْتَهَى المُعْتَدُونَ وَجَبَ الكَفُّ الفَوْرِيُّ عَنْ كُلِّ تَعَرُّضٍ لَهُمْ. تَحْرِيرُ العَقْلِ مِنَ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى يَجْعَلُ المُؤْمِنَ حَارِساً لِلْعَدْلِ حَتَّى مَعَ مَنْ خَالَفَهُ، فَلَا يَمْتَدُّ عِقَابُهُ لِيَشْمَلَ بَرِيئاً أَوْ مُسَالِماً كَفَّ أَذَاهُ. فَمَنْ جَعَلَ غَايَتَهُ إِقَامَةَ القِسْطِ وَتَأْمِينَ سَبِيلِ الهِدَايَةِ نَالَ عِزَّةَ التَّوْحِيدِ وَنَقَاءَ المَقْصِدِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ مَنْ جَاوَزَ حَدَّ الدِّفَاعِ فِي هُوَّةِ الظُّلْمِ الَّذِي قَامَ لِمُحَارَبَتِهِ.

الصَّدَى

فَجْرُ الحُرِّيَّةِ وَحُدُودُ القِسْطِ

صَدَى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

فَضَاءٌ رَحْبٌ تَتَنَفَّسُ فِيهِ الأَرْوَاحُ هَوَاءَ التَّوْحِيدِ النَّقِيِّ بَعْدَ أَنْ تَكَسَّرَتْ قُيُودُ الإِكْرَاهِ وَالِاسْتِعْبَادِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الغَلَبَةِ الَّتِي تَسْعَى لِإِخْضَاعِ الرِّقَابِ، وَيُشْرِقُ مَعْنَى الجِهَادِ كَرِسَالَةٍ تُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الطَّوَاغِيتِ إِلَى رِحَابِ الخَالِقِ. وَكَمْ تَشَتَّتْ بَصِيرَتِي قَدِيماً بَيْنَ حَمَاسَةٍ تَغْفُلُ عَنْ نُبْلِ الغَايَةِ وَتَرَدُّدٍ يَخْشَى مُوَاجَهَةَ الظُّلْمِ الجَاثِمِ عَلَى الصُّدُورِ! أَتَأَمَّلُ النَّسِيمَ كَيْفَ يُبَدِّدُ الضَّبَابَ الكَثِيفَ لِيَكْشِفَ وَجْهَ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْكُنُ فِي لُطْفٍ دُونَ أَنْ يَقْتَلِعَ شَجَرَةً وَاحِدَةً. فَمَا أَشَدَّ إِحْكَامَ المِيزَانِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي يَقْصُرُ الرَّدْعَ عَلَى الظَّالِمِينَ وَحْدَهُمْ وَيَصُونُ المِسَالِمِينَ مِنْ كُلِّ أَذًى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ إِرَادَةُ المواجهَةِ فِي نَفْسِي إِلَى طَاقَةِ بِنَاءٍ تَكْسِرُ أَغْلَالَ الفِتْنَةِ وَتَقِفُ بِخُشُوعٍ عِنْدَ حُدُودِ العَدْلِ. فَكُلُّ طُغْيَانٍ يَحْجُبُ النُّورَ عَنِ القُلُوبِ مَآلُهُ التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِدِينِ اللهِ القَائِمِ عَلَى القِسْطِ وَالحُرِّيَّةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 194 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّمَاثُلُ العَادِلُ فِي رَدِّ العُدْوَانِ وَمُرَاقَبَةُ الضَّمِيرِ عِنْدَ القُدْرَةِ يُشَكِّلَانِ سِيَاجاً يَحْمِي الحُرُمَاتِ الزَّمَانِيَّةَ وَالمكَانِيَّةَ مِنَ الِاسْتِبَاحَةِ. شَرِيعَةُ العَدْلِ لَا تَجْعَلُ مِنْ قَدَاسَةِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ ذَرِيعَةً لِتَمْكِينِ البَاغِينَ مِنْ رِقَابِ المسَالِمِينَ، بَلْ تُقِرُّ مَبْدَأَ المعَامَلَةِ بِالمِثْلِ لِرَدْعِ كُلِّ مَنْ يَسْتَخِفُّ بِالعُهُودِ. غَيْرَ أَنَّ التَّوْجِيهَ الرَّبَّانِيَّ يُقَيِّدُ هٰذَا الِاقْتِصَاصَ بِلِجَامِ التَّقْوَى، كَيْ لَا تَنْزَلِقَ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ عِنْدَ الغَضَبِ إِلَى الشَّطَطِ وَالتَّمْثِيلِ وَمُجَاوَزَةِ المِثْلِ. فَمَنْ ضَبَطَ انْفِعَالَهُ بِتَقْوَى اللهِ عِنْدَ الِانْتِصَافِ لِنَفْسِهِ ظَفِرَ بِمَعِيَّةِ السَّمَاءِ وَتَأْيِيدِهَا، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ أَطْلَقَ العِنَانَ لِغَضَبِهِ بَرَكَةَ النَّصْرِ وَسُمُوَّ العَدَالَةِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ المِثْلِ وَلِجَامُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

كِفَّتَا مِيزَانٍ مِنَ الذَّهَبِ الخَالِصِ تَتَعَادَلَانِ تَحْتَ عَيْنِ الرَّقِيبِ، فَلَا تَمِيلُ إِحْدَاهُمَا بِذَرَّةٍ مِنْ هَوًى أَوِ انْتِقَامٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَلَاشَى وَهْمُ التَّشَفِّي الَّذِي يُغْرِي النَّفْسَ بِمُضَاعَفَةِ الضَّرْبَةِ عِنْدَ المَقْدِرَةِ، وَيَسْتَقِرُّ يَقِينُ أَنَّ العَدْلَ هُوَ الوُقُوفُ الصَّارِمُ عِنْدَ حَدِّ المِثْلِ. وَكَمْ جَرَفَتْنِي قَدِيماً عَوَاصِفُ الغَضَبِ عِنْدَ الإِسَاءَةِ، فَكِدْتُ أُقَابِلُ الظُّلْمَ بِظُلْمٍ أَشَدَّ يَمْحُو مَظْلُومِيَّتِي وَيُسْقِطُنِي فِي فِخَاخِ البَغْيِ! أَرَى البَحْرَ كَيْفَ يَرُدُّ الصَّخْرَةَ الَّتِي تُلْقَى فِيهِ بِمَوْجَةٍ عَلَى قَدْرِهَا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى هُدُوئِهِ العَمِيقِ تَحْتَ نُورِ القَمَرِ. فَمَا أَعْظَمَ وَصِيَّةَ التَّقْوَى الَّتِي تَقِفُ حَارِساً عَلَى عَتَبَةِ القِصَاصِ لِتُذَكِّرَ القَلْبَ أَنَّ مَعِيَّةَ اللهِ لَا تَنْزِلُ إِلَّا عَلَى المُنْضَبِطِينَ بِأَمْرِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحْظَةُ الِانْتِصَافِ فِي وِجْدَانِي مِنْ مَعْرَكَةٍ لِلْأَنَا إِلَى مِحْرَابٍ لِلْوَرَعِ وَالِاتِّزَانِ. فَكُلُّ شَطَطٍ يُجَاوِزُ الحَدَّ مَصِيرُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْحَقِّ المَحْفُوفِ بِالتَّقْوَى وَمَعِيَّةِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 195 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

البَذْلُ السَّخِيُّ فِي مَيَادِينِ البِنَاءِ وَالمُدَافَعَةِ هُوَ شِرْيَانُ الحَيَاةِ الَّذِي يَحْمِي الأُمَمَ مِنَ الِانْهِيَارِ، بَيْنَمَا يُعَدُّ الشُّحُّ وَالإِخْلَادُ إِلَى الدَّعَةِ انْتِحَاراً بَطِيئاً يُسْلِمُ الدِّيَارَ لِلْعَادِينَ. الفَهْمُ الرَّشِيدُ يُصَحِّحُ المَفَاهِيمَ المَقْلُوبَةَ الَّتِي تَظُنُّ الإِمْسَاكَ عَنِ العَطَاءِ حِفْظاً لِلْمَالِ وَالنَّفْسِ، لِيَكْشِفَ أَنَّ التَّهْلُكَةَ الحَقِيقِيَّةَ تَكْمُنُ فِي التَّقَاعُسِ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ وَإِهْمَالِ أَسْبَابِ القُوَّةِ. وَفَوْقَ وَاجِبِ الإِنْفَاقِ يَأْتِي مَقَامُ الإِحْسَانِ لِيُضْفِيَ عَلَى العَطَاءِ رُوحَ الجَمَالِ وَالإِتْقَانِ وَالإِخْلَاصِ، فَيُخْرِجَ المَالَ بِطِيبِ نَفْسٍ دُونَ

مَنٍّ أَوْ تَرَدُّدٍ. فَمَنْ بَذَلَ وَأَحْسَنَ اتَّقَى مَصَارِعَ الهَلَاكِ وَفَازَ بِمَحَبَّةِ الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ البَخِيلُ المُتَقَاعِسُ ضَيَاعَ مَالِهِ وَذُلَّ نَفْسِهِ.

الصَّدَى

نَهْرُ العَطَاءِ وَسَرَابُ الإِمْسَاكِ

صَدَى ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

نَهْرٌ جَارٍ يَهَبُ مَاءَهُ لِلْحُقُولِ فَيَزْدَادُ عُذُوبَةً وَتَدَفُّقاً، وَبِئْرٌ مَسْدُودَةٌ تَضِنُّ بِمَائِهَا فَتَأْسَنُ فِي قَاعِهَا المُظْلِمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الأَمَانِ الزَّائِفِ الَّذِي يَخْدَعُنِي بِأَنَّ تَكْدِيسَ النِّعَمِ يَحْمِينِي مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ البُخْلَ هُوَ البَوَّابَةُ الخَفِيَّةُ لِلْهَلَاكِ. وَكَمْ قَبَضْتُ يَدِي قَدِيماً خَوْفاً مِنَ الفَقْرِ أَوْ إِيثَاراً لِلرَّاحَةِ، فَوَجَدْتُ رُوحِي تَذْبُلُ وَتَضِيقُ كَأَنَّهَا فِي سِجْنٍ مِنَ الجَفَافِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَ كَيْفَ يَجُودُ بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ مِنْ قَطَرَاتٍ فَوْقَ الأَرْضِ العَطْشَى، فَتُكْرِمُهُ السَّمَاءُ بِتَجَدُّدٍ دَائِمٍ لَا يَنْقَطِعُ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ الإِحْسَانِ الَّذِي يَرْفَعُ العَطَاءَ مِنْ مُجَرَّدِ وَاجِبٍ ثَقِيلٍ إِلَى مِعْرَاجٍ يَنَالُ بِهِ العَبْدُ مَحَبَّةَ اللهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ النِّعْمَةُ بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ صَنَمٍ يُعْبَدُ وَيُخْشَى عَلَيْهِ إِلَى جِسْرٍ مِنَ النُّورِ يَقِينِي مَهَاوِيَ التَّهْلُكَةِ. فَكُلُّ مَالٍ يُحْبَسُ عَنْ سَبِيلِ الحَقِّ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِإِحْسَانٍ يُثْمِرُ فِي كَنَفِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 196 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

إِتْمَامُ النُّسُكِ بِإِخْلَاصٍ وَتَيْسِيرُ المَخَارِجِ عِنْدَ العَوَارِضِ يَكْشِفَانِ عَنْ شَرِيعَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ عَزِيمَةِ الوَفَاءِ وَرَحْمَةِ الرُّخْصَةِ. المِنْهَجُ القُرْآنِيُّ يَرْفَعُ الحَرَجَ عَنِ المُحْرِمِ إِذَا حَبَسَهُ عَدُوٌّ أَوْ مَرَضٌ، فَيُشَرِّعُ لَهُ البَدَائِلَ المَيْسُورَةَ مِنَ الهَدْيِ أَوِ الصِّيَامِ أَوِ الصَّدَقَةِ دُونَ أَنْ يُكَلِّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ. هٰذَا التَّدَرُّجُ الحَكِيمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ المُتَعَبِّدَ مِنَ الوَسْوَسَةِ وَالجُمُودِ أَمَامَ الظُّرُوفِ الطَّارِئَةِ، وَيُبْرِزُ عَدَالَةَ التَّشْرِيعِ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الآفَاقِيِّ البَعِيدِ وَالمُقِيمِ بِجِوَارِ الحَرَمِ، مَعَ تَذْكِيرِ القَلْبِ بِالتَّقْوَى كَيْ لَا تَتَّخِذَ الرُّخَصُ ذَرِيعَةً لِلتَّهَاوُنِ. فَمَنْ أَدَّى مَنَاسِكَهُ خَالِصَةً لِوَجْهِ رَبِّهِ وَتَقَبَّلَ رُخَصَهُ بِشُكْرٍ وَوَرَعٍ نَالَ كَمَالَ القُرْبِ وَسَكِينَةَ الطَّاعَةِ، بَيْنَمَا يَقَعُ مَنْ تَلَاعَبَ بِحُدُودِ الشَّرْعِ تَحْتَ طَائِلَةِ المَسَاءَلَةِ وَالحِرْمَانِ.

الصَّدَى

عَزِيمَةُ الإِتْمَامِ وَأَجْنِحَةُ التَّيْسِيرِ

صَدَى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قَافِلَةٌ تَشُدُّ الرِّحَالَ نَحْوَ البَيْتِ العَتِيقِ بِقُلُوبٍ مُتَجَرِّدَةٍ، وَرَحْمَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تَمُدُّ لَهَا جُسُورَ التَّيْسِيرِ كُلَّمَا اعْتَرَضَتْهَا عَوَارِضُ الطَّرِيقِ. فِي وِجْدَانِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ التَّشَدُّدِ الَّذِي يَظُنُّ العِبَادَةَ مَشَقَّةً جَامِدَةً لَا تَقْبَلُ الرُّخْصَةَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ القَصْدَ هُوَ صِدْقُ التَّوَجُّهِ لَا إِعْنَاتُ الأَبْدَانِ. وَكَمْ أَرْهَقَتْنِي قَدِيماً وَسَاوِسُ التَّقْصِيرِ عِنْدَ نُزُولِ المَرَضِ أَوِ العَجْزِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ انْقِطَاعَ السَّبِيلِ يَعْنِي انْقِطَاعَ الوَصْلِ مَعَ السَّمَاءِ! أَرَى الجَدَاوِلَ الصَّغِيرَةَ كَيْفَ تَلْتَفُّ حَوْلَ الصُّخُورِ الَّتِي تَسُدُّ مَجْرَاهَا لِتُكْمِلَ رِحْلَتَهَا نَحْوَ البَحْرِ الكَبِيرِ فِي انْسِيَابٍ وَيُسْرٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يُحْصِي الأَيَّامَ العَشَرَةَ بِدِقَّةٍ وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الفِدْيَةِ لِلْمُضْطَرِّ دُونَ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ العِبَادَةُ فِي رُوحِي مِنْ طُقُوسٍ تَضِيقُ بِالعَوَارِضِ إِلَى رِحْلَةٍ مَرِنَةٍ تَسْتَنِدُ إِلَى لُطْفِ الشَّارِعِ وَحِكْمَتِهِ. فَكُلُّ عَائِقٍ دُنْيَوِيٍّ يَعْتَرِضُ السَّائِرِينَ مَآلُهُ التَّذْلِيلُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَاعَةٍ خَالِصَةٍ تُتَمُّ لِوَجْهِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 197 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيثَاقُ الإِحْرَامِ مَدْرَسَةٌ تَرْبَوِيَّةٌ تَصْقُلُ السُّلُوكَ الإِنْسَانِيَّ وَتُعِيدُ تَرْتِيبَ أَوْلَوِيَّاتِ الرُّوحِ قَبْلَ السَّفَرِ الأَخِيرِ. مَنْ دَخَلَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مُلَبِّياً وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُطَهِّرَ لِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ مِنْ فُحْشِ القَوْلِ وَالخُرُوجِ عَنِ الطَّاعَةِ وَالمِرَاءِ الَّذِي يُوغِرُ الصُّدُورَ، لِيَتَفَرَّغَ لِفِعْلِ الخَيْرِ المَرْصُودِ بِعِلْمِ الخَالِقِ. اللُّبُّ العَاقِلُ يُدْرِكُ أَنَّ زَادَ الطَّعَامِ يَنْفَدُ عِنْدَ مَشَارِفِ الطَّرِيقِ، بَيْنَمَا يَبْقَى زَادُ التَّقْوَى رَفِيقاً يُنِيرُ الدَّرْبَ فِي الدُّنْيَا وَيُؤَمِّنُ العُبُورَ فِي الآخِرَةِ. فَمَنْ صَانَ إِحْرَامَهُ عَنِ اللَّغْوِ وَتَزَوَّدَ بِخَشْيَةِ رَبِّهِ عَادَ مِنْ رِحْلَتِهِ نَقِيَّ الصَّحِيفَةِ رَاجِحَ العَقْلِ، بَيْنَمَا يَرْجِعُ مَنْ غَرِقَ فِي الجِدَالِ وَالغَفْلَةِ بِتَعَبِ السَّفَرِ دُونَ ثَمَرَةِ القُرْبِ.

الصَّدَى

تَجَرُّدُ الإِحْرَامِ وَزَادُ الرَّحِيلِ

صَدَى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

مِيقَاتٌ زَمَانِيٌّ يَخْلَعُ فِيهِ السَّائِرُ ثِيَابَ الزِّينَةِ وَصَخَبَ الخُصُومَاتِ، لِيَدْخُلَ حَضْرَةَ السَّلَامِ بِقَلْبٍ أَبْيَضَ كَرِدَاءِ إِحْرَامِهِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْتِصَارِ فِي الجِدَالِ العَقِيمِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ صَمْتَ اللِّسَانِ عَنِ المِرَاءِ هُوَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ التَّهْذِيبِ وَأَدَبِ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ. وَكَمْ حَمَلْتُ قَدِيماً عَلَى كَاهِلِي أَحْمَالاً ثَقِيلَةً مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الفَانِي وَنَسِيتُ أَنْ أَضَعَ فِي حَقِيبَةِ الرُّوحِ زَاداً يَقِينِي وَحْشَةَ الطَّرِيقِ! أَتَأَمَّلُ الطُّيُورَ المُهَاجِرَةَ كَيْفَ تَطْوِي المَسَافَاتِ الشَّاسِعَةَ خَفِيفَةً مِنَ الأَثْقَالِ، لَا تَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَى فِطْرَتِهَا الَّتِي تَهْدِيهَا إِلَى مَوَاطِنِ الدِّفْءِ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ السَّمَاءِ لِأُولِي الأَلْبَابِ حِينَ تَخْتَصِرُ زَادَ الرِّحْلَةِ كُلِّهَا فِي كَلِمَةِ التَّقْوَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامُ عُمْرِي مِنْ صِرَاعٍ عَلَى الفُتَاتِ وَمِرَاءٍ يَسْتَنْزِفُ الطَّاقَةَ إِلَى صَمْتٍ عَامِرٍ بِالخَيْرِ الخَفِيِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ اللهُ. فَكُلُّ زَادٍ مَادِّيٍّ يَفْنَى عِنْدَ نِهَايَةِ المَطَافِ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ الَّتِي تَبْقَى نُوراً يُضِيءُ الدَّارَيْنِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 198 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَوَازُنُ السَّعْيِ المَعِيشِيِّ مَعَ صَفَاءِ الذِّكْرِ الرُّوحِيِّ يَرْفَعُ عَنِ المؤْمِنِينَ حَرَجَ التَّحَرُّجِ مِنَ التِّجَارَةِ المَشْرُوعَةِ فِي مَوَاسِمِ الطَّاعَةِ. الإِسْلَامُ يَهْدِمُ الرَّهْبَانِيَّةَ المتَكَلِّفَةَ الَّتِي تَعْزِلُ الدِّينَ عَنْ حَرَكَةِ الحَيَاةِ، فَيُبِيحُ لِلْحَاجِّ أَنْ يَبْتَغِيَ الرِّزْقَ الحَلَالَ بِشَرْطِ أَلَّا يَشْغَلَهُ ذٰلِكَ عَنْ ذُرْوَةِ الخُشُوعِ عِنْدَ الإِفَاضَةِ مِنْ عَرَفَاتٍ وَالوُقُوفِ بِالمَشْعَرِ الحَرَامِ. هٰذَا الجَمْعُ البَدِيعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ عِمَارَةِ الأَرْضِ وَإِحْيَاءِ القَلْبِ، وَيُذَكِّرُ الإِنْسَانَ بِنِعْمَةِ الهِدَايَةِ الَّتِي انْتَشَلَتْهُ مِنْ تِيهِ الضَّلَالِ لِيُقَابِلَ الفَضْلَ الإِلٰهِيَّ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ. فَمَنْ وَازَنَ بَيْنَ كَسْبِ يَدِهِ وَحُضُورِ قَلْبِهِ نَالَ بَرَكَةَ الرِّزْقِ وَنُورَ الهِدَايَةِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ أَغْرَقَهُ السُّوقُ عَنِ المشْعَرِ أَوْ قَيَّدَتْهُ الأَوْهَامُ عَنِ السَّعْيِ الحَلَالِ.

الصَّدَى

تَوَازُنُ السُّوقِ وَالمِحْرَابِ

صَدَى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾

سَيْلٌ بَشَرِيٌّ يَنْحَدِرُ مِنْ جَبَلِ الرَّحْمَةِ نَحْوَ المشْعَرِ الحَرَامِ، تَخْتَلِطُ فِيهِ حَرَكَةُ السَّعْيِ المشْرُوعِ بِنَبْضِ الذِّكْرِ الَّذِي يَغْمُرُ الوَادِي بِالسَّكِينَةِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخُصُومَةِ بَيْنَ طَلَبِ الرِّزْقِ وَسُمُوِّ الرُّوحِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الكَسْبَ الطَّيِّبَ فَضْلٌ مِنَ السَّمَاءِ لَا يَحْجُبُ القَلْبَ عَنْ مَوْلَاهُ. وَكَمْ تَشَتَّتْ خُطَايَ قَدِيماً بَيْنَ انْغِمَاسٍ فِي المَعَاشِ يُنْسِينِي ذِكْرَ المنْعِمِ، وَتَحَرُّجٍ زَائِفٍ يَظُنُّ البُعْدَ عَنِ الكَسْبِ كَمَالاً فِي الوَرَعِ! أَرَى الشَّجَرَةَ المثْمِرَةَ كَيْفَ تَمُدُّ جُذُورَهَا فِي تُرَابِ الأَرْضِ لِتَمْتَصَّ الغِذَاءَ، بَيْنَمَا تَرْفَعُ أَغْصَانَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ لِتَسْتَقْبِلَ النُّورَ وَالهَوَاءَ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ الجُنَاحَ عَنِ السَّاعِينَ فِي رِزْقِهِ ثُمَّ يَجْمَعُ شَتَاتَهُمْ عِنْدَ المشْعَرِ الحَرَامِ لِيَذْكُرُوا نِعْمَةَ الهِدَايَةِ بَعْدَ الضَّلَالِ! هٰكَذَا

تَتَحَوَّلُ حَرَكَةُ المعَاشِ في دَاخِلِي مِنْ عِبْءٍ يُثْقِلُ الرُّوحَ إِلَى عِبَادَةٍ مَشْفُوعَةٍ بِالشُّكْرِ وَالعِرْفَانِ. فَكُلُّ كَسْبٍ يَخْلُو مِنَ الذِّكْرِ مَآلُهُ الجَفَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ وَنُورِ هِدَايَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 199 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مُسَاوَاةُ البَشَرِ في مَوْقِفِ العُبُودِيَّةِ تَهْدِمُ صُرُوحَ الطَّبَقِيَّةِ وَالكِبْرِيَاءِ الَّتِي تَوَهَّمَ فِيهَا البَعْضُ امْتِيَازاً عَنْ سَائِرِ النَّاسِ. الأَمْرُ بِالإِفَاضَةِ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ جَمِيعاً يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ عُقْدَةِ التَّفَوُّقِ الجَاهِلِيِّ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الكَرَامَةَ عِنْدَ الخَالِقِ تُنَالُ بِالتَّوَاضُعِ وَالِانْخِرَاطِ في صَفِّ العِبَادِ لَا بِالِاسْتِعْلَاءِ وَالعُزْلَةِ.
وَيَأْتِي الِاسْتِغْفَارُ عَقِبَ إِتْمَامِ المَنَاسِكِ لِيُعَلِّمَ النَّفْسَ أَلَّا تَغْتَرَّ بِعَمَلِهَا، بَلْ تَخْتِمُ طَاعَتَهَا بِالِانْكِسَارِ وَطَلَبِ المَغْفِرَةِ جَبْراً لِكُلِّ نَقْصٍ أَوْ غَفْلَةٍ. فَمَنْ ذَابَ في جَمَاعَةِ المُؤْمِنِينَ مُتَوَاضِعاً مُسْتَغْفِراً نَالَ سِعَةَ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المتَكَبِّرُ المَعْزُولُ أَسِيراً لِوَهْمِ نَفْسِهِ وَحِرْمَانِ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

ذَوَبَانُ الكِبْرِ في مَوْكِبِ النَّاسِ
صَدَى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
مَوْكِبٌ وَاحِدٌ تَتَسَاوَى فِيهِ الرُّؤُوسُ وَالأَقْدَامُ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَلَا يَعْلُو فِيهِ سَيِّدٌ عَلَى مَسُودٍ وَلَا غَنِيٌّ عَلَى فَقِيرٍ. في أَعْمَاقِي يَنْهَارُ صَنَمُ التَّمَيُّزِ الأَجْوَفِ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يَصْنَعَ لِلنَّفْسِ مَقَاماً خَاصّاً بَعِيداً عَنْ زِحَامِ البُسَطَاءِ. وَكَمْ أَغْرَتْنِي قَدِيماً نَزْعَةُ الِانْفِرَادِ وَالتَّعَالِي، فَحَرَمَتْنِي بَرَكَةَ الِانْصِهَارِ في صَفِّ العَابِدِينَ وَأَوْرَثَتْنِي عُجْباً يُفْسِدُ صَفَاءَ العَمَلِ! أَرَى قَطَرَاتِ المطَرِ كَيْفَ تَتَلَاشَى أَسْمَاؤُهَا وَأَحْجَامُهَا حِينَ تَسْقُطُ في البَحْرِ الكَبِيرِ، فَتَصِيرُ جُزْءاً مِنْ عَظَمَتِهِ وَنَقَائِهِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّتِي تَأْمُرُ الحَجِيجَ بِالسَّيْرِ في مَسَارٍ وَاحِدٍ ثُمَّ تَخْتِمُ مَسِيرَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ الرَّحِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِنَفْسِي مِنْ عُجْبٍ يَرَى الفَضْلَ ذَاتِيّاً إِلَى انْكِسَارٍ يَلُوذُ بِعَفْوِ السَّمَاءِ وَيَأْنَسُ بِصُحْبَةِ الخَلْقِ. فَكُلُّ كِبْرٍ يَرْفَعُهُ الوَهْمُ مَآلُهُ السُّقُوطُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِمَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي تَغْمُرُ المتَوَاضِعِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 200 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

المَوْعِظَةُ

تَوْجِيهُ بُوصَلَةِ الدُّعَاءِ نَحْوَ البَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ قِصَرِ النَّظَرِ الَّذِي يَحْصُرُ طُمُوحَهُ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ. عِنْدَ خِتَامِ العِبَادَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَحُلَّ ذِكْرُ الخَالِقِ وَتَعْظِيمُهُ مَحَلَّ المُفَاخَرَةِ بِالأَنْسَابِ وَالآبَاءِ، إِذِ الفَضْلُ كُلُّهُ بِيَدِ مُدَبِّرِ الكَوْنِ لَا بِيَدِ البَشَرِ. الكَشْفُ القُرْآنِيُّ عَنْ تَفَاوُتِ هِمَمِ الدَّاعِينَ يُنَبِّهُ العَقْلَ إِلَى خُطُورَةِ حَصْرِ المَطَالِبِ فِي العَاجِلَةِ الفَانِيَةِ، لِأَنَّ مَنْ بَاعَ حَظَّهُ مِنَ الآخِرَةِ بِحُطَامِ الدُّنْيَا خَرَجَ مِنْ مَوْسِمِ الفَضْلِ صِفْرَ اليَدَيْنِ. فَمَنْ سَمَتْ هِمَّتُهُ فَذَكَرَ رَبَّهُ بِحُضُورٍ صَادِقٍ وَسَأَلَهُ خَيْرَ الدَّارَيْنِ ظَفِرَ بِالعَطَاءِ المُضَاعَفِ، بَيْنَمَا يَبْقَى أَسِيرُ الشَّهَوَاتِ العَاجِلَةِ مَحْرُوماً مِنْ نَعِيمِ الأَبَدِ.

الصَّدَى

بُوصَلَةُ الدُّعَاءِ بَيْنَ الفَانِي وَالبَاقِي

صَدَى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾

مِحْرَابٌ يَنْفَضُّ عَنْهُ الجَمْعُ بَعْدَ أَدَاءِ النُّسُكِ، فَتَتَكَشَّفُ خَبَايَا القُلُوبِ بَيْنَ قَلْبٍ يَرْنُو إِلَى السَّمَاءِ وَقَلْبٍ يَلْتَصِقُ بِتُرَابِ الأَرْضِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِالمَطَالِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ العَاجِلَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ قِيمَةَ الإِنْسَانِ تُقَاسُ بِعُلُوِّ هِمَّتِهِ وَاتِّسَاعِ أُفُقِ دُعَائِهِ. وَكَمْ وَقَفْتُ قَدِيماً عَلَى أَبْوَابِ الرَّجَاءِ أَسْأَلُ عَرَضاً زَائِلاً أَوْ أَتَفَاخَرُ بِمَوْرُوثٍ بَشَرِيٍّ، غَافِلاً عَنْ كُنُوزِ الآخِرَةِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ! أَرَى العُيُونَ كَيْفَ تَتَعَلَّقُ بِبَرِيقِ السَّرَابِ فِي الصَّحْرَاءِ فَتُضَيِّعُ الطَّرِيقَ إِلَى النَّبْعِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي يَرْوِي الظَّمَأَ الأَبَدِيَّ. فَمَا أَشَدَّ خَسَارَةَ مَنْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ فَلَمْ يَرَ فِي خَزَائِنِهِ الوَاسِعَةِ إِلَّا حُطَامَ الدُّنْيَا القَلِيلَ! هٰكَذَا

تَتَحَوَّلُ لَهْجَةُ دُعَائِي مِنْ تَعَلُّقٍ قَاصِرٍ بِالفَانِي إِلَى ذِكْرٍ دَائِمٍ يَطْلُبُ رِضَا اللهِ وَنَعِيمَ الدَّارِ البَاقِيَةِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ يَنْقَطِعُ عِنْدَ عَتَبَةِ المَوْتِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِذِكْرِ اللهِ وَحَظِّ الآخِرَةِ المَوْفُورِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (201–210)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 201 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

جَمْعُ الدُّعَاءِ بَيْنَ خَيْرَيِ الدَّارَيْنِ يَكْشِفُ عَنْ بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تَزِنُ الوُجُودَ بِمِيزَانِ الِاعْتِدَالِ، فَلَا تَهْجُرُ الدُّنْيَا رَهْبَانِيَّةً مُتَكَلِّفَةً وَلَا تَبِيعُ الآخِرَةَ بِعَرَضٍ زَائِلٍ. الفَهْمُ الرَّشِيدُ لِحَقِيقَةِ الإِنْسَانِ يُدْرِكُ أَنَّ العَافِيَةَ وَالرِّزْقَ الطَّيِّبَ وَالعِلْمَ النَّافِعَ فِي العَاجِلَةِ هِيَ مَطِيَّةُ العَبْدِ لِبُلُوغِ النَّعِيمِ المُقِيمِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ فِي الآجِلَةِ. هٰذَا التَّوَازُنُ البَدِيعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ التَّصَادُمِ بَيْنَ سَعَادَةِ العَيْشِ وَنَجَاةِ الرُّوحِ، وَيَرْفَعُ عَنِ القَلْبِ حَرَجَ طَلَبِ الطَّيِّبَاتِ مَا دَامَتْ مَشْفُوعَةً بِحُسْنِ العَاقِبَةِ. فَمَنْ سَأَلَ رَبَّهُ جَمَالَ الدُّنْيَا وَبَهَاءَ الآخِرَةِ ظَفِرَ بِكَمَالِ العَطَاءِ وَالأَمَانِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ قَصَرَ رَجَاءَهُ عَلَى الفَانِيَةِ أَوْ أَهْمَلَ أَسْبَابَ العَمَلِ الصَّالِحِ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الرَّجَاءِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ

صَدَى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

طَائِرٌ يُحَلِّقُ بِجَنَاحَيْنِ مُتَوَازِنَيْنِ فَوْقَ أُفُقِ الزَّمَانِ، جَنَاحٌ يَلْمَسُ طَيِّبَاتِ الأَرْضِ بِشُكْرٍ وَجَنَاحٌ يَعْلُو إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ بِأَمَانٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ القَطِيعَةِ بَيْنَ سَعَادَةِ الحَيَاةِ وَنَجَاةِ المَآلِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ كَرَمَ الخَالِقِ يَتَّسِعُ لِمَنْحِ الحُسْنَيَيْنِ مَعاً. وَكَمْ تَشَتَّتْ رَغَبَاتِي قَدِيماً بَيْنَ انْغِمَاسٍ فِي زِينَةِ العَاجِلَةِ يُنْسِينِي هَوْلَ الحِسَابِ، وَانْقِبَاضٍ يَظُنُّ أَنَّ طَلَبَ الرَّاحَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ يَنْتَقِصُ مِنْ صَفَاءِ الزُّهْدِ! أَتَأَمَّلُ النَّخْلَةَ البَاسِقَةَ كَيْفَ تَشْرَبُ مِنْ عُذُوبَةِ الأَرْضِ لِتُثْمِرَ رُطَباً جَنِيّاً، بَيْنَمَا يَعْلُو رَأْسُهَا نَحْوَ السَّمَاءِ فِي شُمُوخٍ وَطُمَأْنِينَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي تُعَلِّمُ القَلْبَ كَيْفَ يَجْمَعُ شَتَاتَ أَمَانِيهِ فِي دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ تَسْتَجْلِبُ الحُسْنَى وَتَدْفَعُ لَهِيبَ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُنَاجَاتِي مِنْ مَطَالِبَ مُبَعْثَرَةٍ تَضِيقُ

بِالفَانِي إِلَى بُوصَلَةٍ رَاشِدَةٍ تَطْلُبُ جَمَالَ الدُّنْيَا وَخُلُودَ الجَنَّةِ. فَكُلُّ نَعِيمٍ يَنْقَطِعُ عَنْ رِضَا الخَالِقِ مَآلُهُ السَّرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَسَنَةِ الدَّارَيْنِ الَّتِي يَهَبُهَا اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 202 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

عَدَالَةُ الجَزَاءِ وَسُرْعَةُ الِاسْتِيفَاءِ فِي مِيزَانِ السَّمَاءِ تَبْعَثُ فِي النَّفْسِ طُمَأْنِينَةَ اليَقِينِ بِأَنَّ كُلَّ سَعْيٍ صَادِقٍ مَحْفُوظٌ لَا يَضِيعُ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْبِطُ الثَّوَابَ بِالكَسْبِ الحَقِيقِيِّ لَا بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّي، فَتُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّوَاكُلِ وَالأَوْهَامِ الَّتِي تَنْتَظِرُ المَحْصُولَ دُونَ بَذْرٍ أَوْ جُهْدٍ. وَيَأْتِي الإِخْبَارُ بِسُرْعَةِ الحِسَابِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ إِحْصَاءَ الأَعْمَالِ لَا يُعْجِزُ القُدْرَةَ المُطْلَقَةَ، مِمَّا يَدْفَعُ المُؤْمِنَ إِلَى المُبَادَرَةِ وَاغْتِنَامِ الأَنْفَاسِ قَبْلَ طَيِّ الصَّحَائِفِ. فَمَنْ أَحْسَنَ الكَسْبَ وَأَخْلَصَ الدُّعَاءَ نَالَ نَصِيبَهُ المَوْفُورَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا تَأْخِيرٍ، بَيْنَمَا يَقِفُ المُفَرِّطُ أَمَامَ دِقَّةِ المِيزَانِ عَارِياً مِنْ زَادِ العَمَلِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الكَسْبِ وَبَرْقُ الحِسَابِ

صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

بَذْرَةٌ تُودَعُ فِي تُرَابِ الإِخْلَاصِ فَتُنْبِتُ سَنَابِلَ الخَيْرِ تَحْتَ عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ عَنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الأَمَانِي الفَارِغَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُ الحَصَادَ بِلَا غَرْسٍ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ نَصِيبَ الرُّوحِ يُصْنَعُ بِمَا تَكْسِبُهُ اليَدُ وَيَعْقِدُ عَلَيْهِ القَلْبُ. وَكَمْ سَوَّفْتُ قَدِيماً فِي إِصْلَاحِ مَسَارِي ظَنّاً مِنِّي أَنَّ الزَّمَنَ مَمْدُودٌ وَأَنَّ يَوْمَ العَرْضِ بَعِيدُ المَنَالِ! أَرَى الشَّمْسَ كَيْفَ تَغْمُرُ الأَرْضَ بِضِيَائِهَا فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ دُونَ عَنَاءٍ أَوْ تَبَاطُؤٍ، فَأُدْرِكُ كَيْفَ تُطْوَى أَعْمَالُ الخَلْقِ أَمَامَ القُدْرَةِ المُحِيطَةِ. فَمَا أَشَدَّ دِقَّةَ عَدْلِ اللهِ الَّذِي يَحْفَظُ لِكُلِّ سَاعٍ ثَمَرَةَ كَسْبِهِ وَيُجْرِي الحِسَابَ بِسُرْعَةٍ لَا تَحْتَمِلُ التَّأْجِيلَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحَظَاتُ عُمْرِي مِنْ فَرَاغٍ يَتَسَرَّبُ بَيْنَ الأَصَابِعِ إِلَى مَزْرَعَةٍ حَيَّةٍ أُودِعُ فِيهَا أَطْيَبَ البُذُورِ. فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ تَخْلُو مِنَ العَمَلِ مَآلُهَا التَّبَخُّرُ، وَلَا خُلُودَ إِلَّا لِكَسْبٍ صَالِحٍ يُثْمِرُ فِي مِيزَانِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 203 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سَعَةُ التَّيْسِيرِ فِي مَنَاسِكِ التَّشْرِيقِ وَرَفْعُ الحَرَجِ عَنِ المُتَعَجِّلِ وَالمُتَأَخِّرِ يُبْرِزَانِ مَرُونَةَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَرْعَى أَحْوَالَ النَّاسِ وَظُرُوفَهُمْ. المَنْهَجُ الرَّشِيدُ يَجْعَلُ التَّقْوَى هِيَ المِعْيَارَ الحَقِيقِيَّ لِقَبُولِ النُّسُكِ لَا مِقْدَارَ المُكْثِ الزَّمَنِيِّ وَحْدَهُ، فَيُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّنَازُعِ الشَّكْلِيِّ وَالوَسْوَسَةِ حَوْلَ الأَفْضَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ. وَيَأْتِي التَّذْكِيرُ بِالحَشْرِ العَظِيمِ فِي خِتَامِ أَيَّامِ المِنَى لِيَرْبِطَ تَجَمُّعَ الحَجِيجِ فِي البِقَاعِ المُقَدَّسَةِ بِالتَّجَمُّعِ الأَكْبَرِ يَوْمَ القِيَامَةِ. فَمَنْ أَحْيَا أَيَّامَهُ المَعْدُودَةَ بِالذِّكْرِ وَالتَّقْوَى نَالَ رُخْصَةَ التَّيْسِيرِ وَأَمَانَ المَعَادِ، بَيْنَمَا يَخْرُجُ مَنْ غَفَلَ عَنْ رُوحِ التَّقْوَى بِمَشَقَّةِ السَّفَرِ دُونَ زَادٍ لِيَوْمِ الحَشْرِ.

الصَّدَى

أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ وَمِيعَادُ الحَشْرِ

صَدَى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

أَيَّامٌ قَلَائِلُ تَمُرُّ كَنَسَمَاتِ السَّحَرِ فَوْقَ وِهَادِ مِنَى، تَحْمِلُ أَنْفَاسَ الذَّاكِرِينَ وَتَطْوِي خُطَاهُمْ بَيْنَ عَجَلَةِ الرَّحِيلِ وَتَأَنِّي المُقَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّفَاضُلِ بِالْمَظَاهِرِ الزَّمَنِيَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّمَاءَ تَنْظُرُ إِلَى نَقَاءِ التَّقْوَى فِي القَلْبِ سَوَاءٌ تَعَجَّلَتِ الخُطَى أَوْ تَأَخَّرَتْ. وَكَمْ حَصَرْتُ نَفْسِي قَدِيماً فِي قَوَالِبَ جَامِدَةٍ تَخْشَى الرُّخْصَةَ وَتَغْفُلُ عَنِ الغَايَةِ الكُبْرَى الَّتِي تُعِدُّنِي لِيَوْمِ اللِّقَاءِ! أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ كَيْفَ تَسْبَحُ فِي مَدَارَاتِهَا المُقَدَّرَةِ، مِنْهَا السَّرِيعُ وَمِنْهَا المُتَمَهِّلُ، وَكُلُّهَا تَجْرِي بِأَمْرٍ وَاحِدٍ نَحْوَ مُسْتَقَرِّهَا الأَخِيرِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ الإِثْمَ عَنِ المُتَعَجِّلِ وَالمُتَأَخِّرِ مَتَى تَحَلَّى بِالتَّقْوَى وَاسْتَحْضَرَ يَوْمَ الحَشْرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامُ حَيَاتِي المَعْدُودَةُ مِنْ عَدَّادٍ يَنْتَقِصُ فِي غَفْلَةٍ إِلَى مِحْرَابٍ

ذِكْرٍ يُهَيِّئُ رُوحِي لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّيَّانِ. فَكُلُّ زَمَنٍ يَمْضِي بِلَا تَقْوَى مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِذِكْرِ اللهِ الَّذِي يَشْفَعُ لِصَاحِبِهِ يَوْمَ الحَشْرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 204 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّفْرِيقُ البَصِيرُ بَيْنَ بَرِيقِ اللِّسَانِ وَحَقِيقَةِ الجَنَانِ يَحْمِي العَقْلَ المؤْمِنَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِالزَّخَارِفِ الكَلَامِيَّةِ وَالأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ. القُرْآنُ يُرَبِّي الوَعْيَ النَّقْدِيَّ لَدَى الإِنْسَانِ حَتَّى لَا يَغْتَرَّ بِفَصَاحَةِ المَنَافِقِ الَّذِي يَسْتَثْمِرُ اسْمَ الخَالِقِ لِتَرْوِيجِ بَاطِلِهِ، بَيْنَمَا يَنْطَوِي صَدْرُهُ عَلَى أَشَدِّ العَدَاوَةِ وَالفُجُورِ فِي الخُصُومَةِ. كَشْفُ هٰذَا التَّنَاقُضِ الصَّارِخِ يُحَرِّرُ المجْتَمَعَ مِنْ سَذَاجَةِ التَّصْدِيقِ الأَعْمَى، وَيُعَلِّمُهُ أَنْ يَزِنَ الرِّجَالَ بِمَوَاقِفِهِمْ وَآثَارِهِمْ لَا بِعُذُوبَةِ أَلْفَاظِهِمْ. فَمَنْ صَدَقَتْ سَرِيرَتُهُ مَعَ عَلَانِيَتِهِ نَالَ ثِقَةَ القُلُوبِ وَرِضَا السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ أَلَدُّ الخِصَامِ مَهْمَا تَسَتَّرَ خَلْفَ أَقْنِعَةِ البَلَاغَةِ وَالحَلِفِ الكَاذِبِ.

الصَّدَى

زُخْرُفُ اللِّسَانِ وَظُلْمَةُ الجَنَانِ

صَدَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾

قِنَاعٌ مَصْقُولٌ مِنْ فِضَّةِ الكَلَامِ المزَخْرَفِ يَتَلَأْلَأُ تَحْتَ أَضْوَاءِ الدُّنْيَا، وَخَلْفَهُ قَلْبٌ مُظْلِمٌ يَغْلِي بِأَشَدِّ العَدَاوَةِ وَاللَّدَدِ. فِي وِجْدَانِي يَنْكَشِفُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِالْفَصَاحَةِ المجَرَّدَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَخْطَرَ الخُصُومِ مَنْ يَتَّخِذُ الأَيْمَانَ المكْذُوبَةَ جِسْراً لِخِدَاعِ القُلُوبِ النَّقِيَّةِ. وَكَمِ انْخَدَعَتْ عَيْنِي قَدِيماً بِبَرِيقِ العِبَارَاتِ المنَمَّقَةِ، فَسَلَّمْتُ زِمَامَ ثِقَتِي لِمَنْ يُجِيدُ تَزْيِينَ البَاطِلِ حَتَّى لَسَعَتْنِي عَقَارِبُ خُصُومَتِهِ! أَتَأَمَّلُ السَّرَابَ فِي الهَجِيرِ كَيْفَ يَخْدَعُ الظَّمْآنَ بِبَرِيقِ المَاءِ العَذْبِ، فَإِذَا بَلَغَهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا رَمْضَاءَ تَحْرِقُ الأَقْدَامَ. فَمَا أَشَدَّ بَصِيرَةَ كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَهْتِكُ أَسْتَارَ النِّفَاقِ وَيَكْشِفُ عَنْ قُبْحِ السَّرِيرَةِ مَهْمَا تَجَمَّلَتْ بِالْقَوْلِ!

هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَازِينُ الحُكْمِ فِي عَقْلِي مِنْ سَمَاعٍ يَقِفُ عِنْدَ حَلَاوَةِ النُّطْقِ إِلَى فِرَاسَةٍ تَسْبُرُ أَغْوَارَ الأَفْعَالِ وَالمَقَاصِدِ. فَكُلُّ زُخْرُفٍ كَلَامِيٍّ يَسْتُرُ الخِيَانَةَ مَآلُهُ الِافْتِضَاحُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقٍ يَعْلَمُهُ اللهُ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 205 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

المَوْعِظَةُ

الأَثَرُ العَمَلِيُّ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَوْ تَخْرِيبِهَا هُوَ المِحَكُّ القَاطِعُ الَّذِي يَفْضَحُ دَعَاوَى المُنَافِقِينَ وَيُظْهِرُ حَقِيقَةَ نَوَايَاهُمْ. فَمَا إِنْ يَنْصَرِفُ المُدَّعِي عَنْ مَجَالِسِ الِاسْتِعْرَاضِ وَيَمْلِكُ زِمَامَ القُدْرَةِ حَتَّى تَنْكَشِفَ طَبِيعَتُهُ الهَدَّامَةُ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ مُقَوِّمَاتِ الحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ مِنَ الزَّرْعِ وَالذُّرِّيَّةِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَجْعَلُ حِفْظَ الحَرْثِ وَالنَّسْلِ وَصِيَانَةَ البِيئَةِ وَالبَشَرِ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِهَا، لِأَنَّ الخَالِقَ يَبْغَضُ الفَسَادَ بِكُلِّ صُوَرِهِ وَيُحِبُّ الإِصْلَاحَ وَالإِعْمَارَ. فَمَنْ كَانَتْ خُطَاهُ بَرَكَةً تُنْمِي الحَيَاةَ وَتَحْفَظُ النَّسْلَ نَالَ مَحَبَّةَ الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَبُوءُ المُفْسِدُ فِي الأَرْضِ بِسَخَطِ السَّمَاءِ وَلَعْنَةِ التَّارِيخِ.

الصَّدَى

خُطَى الهَدْمِ وَمَقْصِدُ الإِعْمَارِ

صَدَى ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾

يَدٌ خَفِيَّةٌ تَتَسَلَّلُ فِي الظَّلَامِ لِتَقْتَلِعَ السَّنَابِلَ الخَضْرَاءَ وَتُطْفِئَ مَصَابِيحَ الحَيَاةِ فِي المَهْدِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَتَظَاهَرُ بِالرَّأْفَةِ وَالإِصْلَاحِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَلَاشَى وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ الفَسَادِ الأَخْلَاقِيِّ وَالدَّمَارِ الكَوْنِيِّ، وَأُبْصِرُ أَنَّ القَلْبَ المُظْلِمَ عَدُوٌّ لِلْإِنْسَانِ وَالشَّجَرِ وَالنَّمَاءِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً أَصْوَاتاً تَرْتَفِعُ بِشِعَارَاتِ البِنَاءِ ثُمَّ تَتْرُكُ خَلْفَهَا أَرْضاً يَبَاباً وَأَجْيَالاً مَكْلُومَةً! أَرَى الجَرَادَ العَابِرَ كَيْفَ يَجْتَاحُ الحُقُولَ المُزْهِرَةَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيُحِيلُ خُضْرَتَهَا النَّضِرَةَ إِلَى هَشِيمٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ. فَمَا أَشَدَّ غَضَبَ اللهِ عَلَى كُلِّ سَعْيٍ يُهْلِكُ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَيَنْشُرُ الخَرَابَ فِي أَرْضٍ خُلِقَتْ لِتُعْمَرَ بِالخَيْرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ

مَسْؤُولِيَّتِي فِي الحَيَاةِ مِنْ تَفَرُّجٍ سَلْبِيٍّ إِلَى يَقَظَةٍ تَحْرُسُ نَبْتَةَ الحَيَاةِ وَتَصُونُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ. فَكُلُّ إِفْسَادٍ يَزْرَعُ الخَرَابَ مَآلُهُ البَوَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِصْلَاحٍ يُحِبُّهُ اللهُ وَتُبَارِكُهُ السَّمَاءُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 206 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

المَوْعِظَةُ

الِانْتِفَاخُ الكَاذِبُ عِنْدَ سَمَاعِ النَّصِيحَةِ وَالِاسْتِكْبَارُ عَنِ الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ هُمَا عَلَامَةُ مَوْتِ الضَّمِيرِ وَاسْتِحْكَامِ الغِوَايَةِ. العَقْلُ السَّلِيمُ يَرَى فِي التَّذْكِيرِ بِتَقْوَى الخَالِقِ طَوْقَ نَجَاةٍ يُنْقِذُهُ مِنَ الزَّلَلِ، أَمَّا المَغْرُورُ الفَاجِرُ فَيَعُدُّ النُّصْحَ إِهَانَةً لِكِبْرِيَائِهِ فَتَدْفَعُهُ الحَمِيَّةُ الجَاهِلِيَّةُ إِلَى الإِصْرَارِ عَلَى الإِثْمِ وَالمُكَابَرَةِ. هٰذَا الدَّاءُ النَّفْسِيُّ يَسُدُّ جَمِيعَ مَنَافِذِ التَّوْبَةِ، فَيَجْعَلُ جَهَنَّمَ هِيَ المِهَادَ المُسْتَحَقَّ لِمَنْ اسْتَعْلَى عَلَى أَمْرِ رَبِّهِ. فَمَنْ لَانَ قَلْبُهُ لِلْمَوْعِظَةِ وَتَوَاضَعَ لِلْحَقِّ رَفَعَهُ اللهُ وَأَكْرَمَهُ، بَيْنَمَا يَهْوِي المُتَكَبِّرُ بِإِثْمِهِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ وَبِئْسَ القَرَارُ.

الصَّدَى

كِبْرِيَاءُ الإِثْمِ وَمِهَادُ النَّارِ

صَدَى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

صَخْرَةٌ صَمَّاءُ تَتَكَسَّرُ عَلَيْهَا أَمْوَاجُ النَّصِيحَةِ الصَّادِقَةِ دُونَ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى جَوْفِهَا قَطْرَةٌ مِنْ نَدَى التَّقْوَى. فِي وِجْدَانِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ العِزَّةِ الزَّائِفَةِ الَّتِي تَأْنَفُ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الحَقِّ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الِاعْتِرَافَ بِالذَّنْبِ هُوَ الشَّجَاعَةُ الحَقِيقِيَّةُ لَا المُكَابَرَةُ فِي البَاطِلِ. وَكَمْ ثَارَتْ فِي صَدْرِي قَدِيماً نَخْوَةُ الأَنَا عِنْدَ سَمَاعِ اللَّوْمِ، فَضَاعَفْتُ الخَطَأَ بِخَطَأٍ أَكْبَرَ حِفَاظاً عَلَى صُورَةٍ وَهْمِيَّةٍ أَمَامَ النَّاسِ! أَرَى الشَّجَرَةَ اليَابِسَةَ كَيْفَ تَتَقَصَّفُ أَمَامَ الرِّيحِ العَاتِيَةِ لِأَنَّهَا تَأْبَى الِانْحِنَاءَ، بَيْنَمَا تَسْلَمُ الأَغْصَانُ اللَّيِّنَةُ وَتَعُودُ أَكْثَرَ نَضَارَةً. فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ يَسْمَعُ نِدَاءَ تَقْوَى اللهِ فَتَأْخُذُهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ حَتَّى تَصِيرَ جَهَنَّمُ مِهَادَهُ الأَخِيرَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ النَّصِيحَةُ فِي مَسْمَعِي مِنْ سَهْمٍ يَجْرَحُ الكِبْرِيَاءَ إِلَى هَدِيَّةٍ سَمَاوِيَّةٍ تَنْتَشِلُنِي مِنْ

حَافَةِ الهَاوِيَةِ. فَكُلُّ عِزَّةٍ تَقُومُ عَلَى المَعْصِيَةِ مَآلُهَا الذُّلُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَوَاضُعٍ يَنْحَنِي لِأَمْرِ اللهِ وَيَسْتَجِيبُ لِتَذْكِيرِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 207 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

المَوْعِظَةُ

بَيْعُ النَّفْسِ فِي سُوقِ الرِّضَا الإِلٰهِيِّ هُوَ أَرْبَحُ صَفْقَةٍ يَعْقِدُهَا الإِنْسَانُ العَاقِلُ لِيَسْتَبْدِلَ الفَنَاءَ بِالخُلُودِ وَالضَّعْفَ بِالعِزَّةِ الأَبَدِيَّةِ. فِي مُقَابِلِ صُورَةِ المُنَافِقِ المُسْتَكْبِرِ تَبْرُزُ قِمَّةُ البَذْلِ الإِيمَانِيِّ لِمَنْ يَتَجَرَّدُ مِنْ حُظُوظِ ذَاتِهِ وَمَالِهِ طَلَباً لِمَرْضَاةِ خَالِقِهِ، مُوقِناً أَنَّ النَّفْسَ أَمَانَةٌ لَا تَكْمُلُ قِيمَتُهَا إِلَّا حِينَ تُبْذَلُ فِي سَبِيلِ الحَقِّ. وَيَأْتِي خِتَامُ الآيَةِ بِإِثْبَاتِ رَأْفَةِ الخَالِقِ لِيُطَمْئِنَ البَاذِلِينَ أَنَّ رَبَّهُمْ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يُضَيِّعُ تَضْحِيَتَهُمْ وَلَا يُكَلِّفُهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ. فَمَنْ أَسْلَمَ زِمَامَ نَفْسِهِ لِمَوْلَاهُ نَالَ أَعْلَى مَقَامَاتِ القُرْبِ وَالرَّأْفَةِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ بَخِلَ بِذَاتِهِ فَبَاعَهَا بِأَبْخَسِ الأَثْمَانِ لِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا.

الصَّدَى

صَفْقَةُ الخُلُودِ وَرَأْفَةُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

مِيزَانٌ نُورَانِيٌّ تُوضَعُ فِيهِ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ بِكُلِّ آمَالِهَا وَآلَامِهَا، فَتَشْتَرِيهَا السَّمَاءُ بِرِضْوَانٍ لَا يَزُولُ وَرَأْفَةٍ تَعْمُرُ الوُجُودَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّمَسُّكِ البَخِيلِ بِحُظُوظِ الذَّاتِ الفَانِيَةِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ الحُرِّيَّةَ الكُبْرَى تَبْدَأُ حِينَ أَبِيعُ نَفْسِي لِمَنْ خَلَقَهَا وَسَوَّاهَا. وَكَمْ حَرَصْتُ قَدِيماً عَلَى إِرْضَاءِ الخَلْقِ أَوْ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ الهَوَى، فَعُدْتُ بِقَلْبٍ مُمَزَّقٍ لَا يَجِدُ السَّكِينَةَ وَلَا يَبْلُغُ المُنَى! أَتَأَمَّلُ الشَّمْعَةَ المُنِيرَةَ كَيْفَ تَبْذُلُ ذَاتَهَا قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ لِتَبُثَّ الدِّفْءَ وَالضِّيَاءَ فِي الظُّلْمَةِ، فَتَخْلُدَ ذِكْرَاهَا فِي العُيُونِ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ بِعِبَادِهِ حِينَ يَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ المَحْدُودَةِ لِيُعَوِّضَهُمْ عَنْهَا بِنَعِيمِهِ الأَبَدِيِّ الَّذِي لَا يَنْفَدُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ مِلْكِيَّةٍ قَلِقَةٍ أَخْشَى عَلَيْهَا الزَّوَالَ إِلَى وَدِيعَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ فِي

كَنَفِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ. فَكُلُّ نَفْسٍ تُحْبَسُ عَنْ مَرْضَاةِ خَالِقِهَا مَآلُهَا الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَنْ بَاعَ ذَاتَهُ لِيَشْتَرِيَ رِضَا اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 208 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

المَوْعِظَةُ

شُمُولِيَّةُ الِاسْتِسْلَامِ لِشَرْعِ السَّمَاءِ وَتَوْحِيدُ مَرْجِعِيَّةِ السُّلُوكِ يَحْمِيَانِ المؤْمِنَ مِنَ التَّمَزُّقِ النَّفْسِيِّ وَالِازْدِوَاجِيَّةِ فِي الحَيَاةِ. النِّدَاءُ الإِلٰهِيُّ يَدْعُو أَهْلَ الإِيمَانِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ وَالسَّلَامِ بِكُلِّ جَوَارِحِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ، فَلَا يَأْخُذُونَ بَعْضَ الأَحْكَامِ وَيَتْرُكُونَ بَعْضَهَا تَبَعاً لِلْأَهْوَاءِ وَالمَوْرُوثَاتِ. كَمَا يُنَبِّهُ العَقْلَ إِلَى خُطُورَةِ التَّدَرُّجِ الشَّيْطَانِيِّ الَّذِي يَبْدَأُ بِخُطُوَاتٍ صَغِيرَةٍ تَبْدُو بَرِيئَةً لِيَسْتَدْرِجَ الإِنْسَانَ نَحْوَ الهَاوِيَةِ. فَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ كُلَّهُ لِلْحَقِّ وَقَطَعَ دَابِرَ الوَسَاوِسِ عَاشَ فِي سَلَامٍ دَاخِلِيٍّ وَأَمَانٍ مُجْتَمَعِيٍّ، بَيْنَمَا يَتَمَزَّقُ المتَرَدِّدُ بَيْنَ نِدَاءِ الفِطْرَةِ وَمَصَائِدِ العَدُوِّ المبِينِ.

الصَّدَى

رِحَابُ السِّلْمِ الكَامِلِ وَمَصَائِدُ الخُطُوَاتِ
صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾
بَيْتٌ وَاسِعٌ مِنَ النُّورِ وَالسَّكِينَةِ يَفْتَحُ أَبْوَابَهُ لِلْحَائِرِينَ كَيْ يَدْخُلُوهُ بِكُلِّ كِيَانِهِمْ، فَلَا تَبْقَى قَدَمٌ فِي النُّورِ وَأُخْرَى فِي الظَّلَامِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الإِيمَانِ المجَزَّأِ الَّذِي يَنْتَقِي مِنَ الحَقِّ مَا يُوَافِقُ الهَوَى وَيُعْرِضُ عَمَّا يُخَالِفُ المأْلُوفَ. وَكَمْ زَلَّتْ قَدَمِي قَدِيماً حِينَ اسْتَهَنْتُ بِخُطْوَةٍ صَغِيرَةٍ نَحْوَ الشُّبُهَاتِ، فَإِذَا بِهَا تَجُرُّنِي إِلَى مَتَاهَاتٍ بَعِيدَةٍ عَنْ سَكِينَةِ الرُّوحِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَظِيمَ كَيْفَ يَجْرِي بِكُلِّ مِيَاهِهِ فِي مَجْرًى وَاحِدٍ صَافٍ نَحْوَ البَحْرِ، فَلَوْ تَفَرَّقَتْ مِيَاهُهُ فِي جَدَاوِلَ تَائِهَةٍ لَابْتَلَعَتْهَا الرِّمَالُ وَجَفَّتْ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْ يَنْعَمُوا بِسَلَامِ الطَّاعَةِ الكَامِلَةِ وَيَحْذَرُوا مَكْرَ العَدُوِّ الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِهِمْ عِنْدَ كُلِّ مُنْعَطَفٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ شَتَاتٍ مُتَنَاقِضٍ يَسْتَنْزِفُ

طَاقَتِي إِلَى وَحْدَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ تَسْتَظِلُّ بِأَمَانِ الوَحْيِ. فَكُلُّ خُطْوَةٍ تَتْبَعُ هَوَى الشَّيْطَانِ مَآلُهَا الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسِلْمٍ شَامِلٍ يَجْمَعُ القَلْبَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 209 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

وُضُوحُ الحُجَّةِ وَسُطُوعُ البَيِّنَاتِ يُضَاعِفَانِ مَسْؤُولِيَّةَ الإِنْسَانِ العَاقِلِ عَنْ كُلِّ انْحِرَافٍ أَوْ زَلَلٍ بَعْدَ قِيَامِ البُرْهَانِ. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يُؤَسِّسُ لِلْعَدَالَةِ العَقْلِيَّةِ، فَلَا يُؤَاخِذُ أَحَداً إِلَّا بَعْدَ كَشْفِ الحَقَائِقِ وَإِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ، ثُمَّ يُذَكِّرُ المُتَهَاوِنَ بِصِفَتَيِ العِزَّةِ وَالحِكْمَةِ لِيُدْرِكَ أَنَّ الخَالِقَ قَادِرٌ عَلَى إِنْفَاذِ وَعِيدِهِ بِغَلَبَةٍ لَا تُقْهَرُ، وَحَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ فَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. هٰذَا الرَّبْطُ يُوقِظُ الضَّمِيرَ مِنْ سُبَاتِ الِاتِّكَالِ الكَاذِبِ، وَيَدْفَعُهُ لِلثَّبَاتِ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ. فَمَنِ اسْتَقَامَ عَلَى البَيِّنَةِ نَالَ عِزَّةَ التَّوْفِيقِ وَحِكْمَةَ الرَّشَادِ، بَيْنَمَا يَقَعُ الزَّائِغُ بَعْدَ العِلْمِ تَحْتَ طَائِلَةِ عِزَّةِ الجَبَّارِ وَحِكْمَتِهِ البَالِغَةِ.

الصَّدَى

سُطُوعُ البَيِّنَةِ وَحِكْمَةُ العَزِيزِ

صَدَى ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

شَمْسٌ مُشْرِقَةٌ تَغْمُرُ الطَّرِيقَ بِالضِّيَاءِ الكَامِلِ حَتَّى لَا يَبْقَى لِسَائِرٍ عُذْرٌ فِي التَّعَثُّرِ أَوِ المَيْلِ نَحْوَ المَهَاوِي. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاعْتِذَارِ بِالْجَهْلِ بَعْدَ أَنْ تَكَشَّفَتِ الحَقَائِقُ وَسَطَعَتْ بَرَاهِينُ الحَقِّ أَمَامَ بَصِيرَتِي. وَكَمْ تَسَاهَلْتُ قَدِيماً فِي هَفَوَاتِ الطَّرِيقِ رَغْمَ وُضُوحِ المَعَالِمِ، مُتَّكِئاً عَلَى أَمَانِيَّ كَاذِبَةٍ تُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ الزَّلَلِ بَعْدَ المَعْرِفَةِ! أَتَأَمَّلُ المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ كَيْفَ تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا الثَّاقِبَةَ لِتَهْدِيَ السُّفُنَ، فَإِنْ أَعْرَضَ الرُّبَّانُ عَنْ نُورِهَا تَحَطَّمَتْ سَفِينَتُهُ عَلَى الصُّخُورِ بِمُقْتَضَى السُّنَنِ الثَّابِتَةِ. فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ عِزَّةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ حِينَ تُقِيمُ الحُجَّةَ البَالِغَةَ ثُمَّ تَضَعُ كُلَّ انْحِرَافٍ فِي مَوْضِعِهِ العَادِلِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ المَعْرِفَةُ فِي قَلْبِي مِنْ حُجَّةٍ عَلَيَّ إِلَى مِشْعَلٍ يَضْبِطُ

خُطَايَ وَيَعْصِمُنِي مِنَ الزَّلَلِ. فَكُلُّ زَيْغٍ يَأْتِي بَعْدَ البَيِّنَةِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِاسْتِقَامَةٍ تَسْتَنِيرُ بِبُرْهَانِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 210 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

المَوْعِظَةُ

إِيقَاظُ القُلُوبِ الغَافِلَةِ قَبْلَ فَوَاتِ أَوَانِ الإِمْهَالِ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ دَاءِ التَّسْوِيفِ الَّذِي يُؤَجِّلُ التَّوْبَةَ حَتَّى تُغْلَقَ أَبْوَابُ الِاخْتِيَارِ. الِاسْتِفْهَامُ القُرْآنِيُّ المَهِيبُ يَضَعُ المِعَانِدَ أَمَامَ المَشْهَدِ الأَخِيرِ حِينَ تَنْكَشِفُ الحُجُبُ وَتَتَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ فِي ظُلَلِ الغَمَامِ لِفَصْلِ القَضَاءِ، فَلَا يَنْفَعُ حِينَهَا إِيمَانٌ اضْطِرَارِيٌّ وَلَا نَدَمٌ بَعْدَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ. رَدُّ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى الخَالِقِ الوَاحِدِ يَهْدِمُ كُلَّ رِهَانٍ عَلَى قُوَى الأَرْضِ الفَانِيَةِ، وَيُعِيدُ لِلْعَقْلِ رُشْدَهُ لِيُبَادِرَ بِالإِصْلَاحِ فِي زَمَنِ المُهْلَةِ. فَمَنِ اعْتَبَرَ بِمَشْهَدِ الفَصْلِ وَبَادَرَ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَمْرِ نَجَا يَوْمَ تُرْجَعُ الأُمُورُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُسَوِّفُ مَشْدُوهاً أَمَامَ قَضَاءٍ لَا يُرَدُّ وَلَا يُؤَجَّلُ.

الصَّدَى

ظُلَلُ الغَمَامِ وَسَاعَةُ الفَصْلِ

صَدَى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

سَحَابٌ مَهِيبٌ يَطْوِي أُفُقَ الدُّنْيَا بِجَلَالِ الفَصْلِ الأَخِيرِ، وَمَوَاكِبُ المَلَائِكَةِ تَشْهَدُ سَاعَةَ انْقِضَاءِ الأَمْرِ حَيْثُ لَا رَجْعَةَ وَلَا إِمْهَالَ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الأَبَدِيَّةِ الزَّائِفَةِ لِهٰذِهِ الحَيَاةِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ زَمَنَ الِاخْتِيَارِ لَحَظَةٌ عَابِرَةٌ تَسْبِقُ انْكِشَافَ الغِطَاءِ الكَبِيرِ. وَكَمْ أَجَّلْتُ قَدِيماً إِقْبَالِي الصَّادِقَ عَلَى الحَقِّ مُنْتَظِراً آيَةً خَارِقَةً أَوْ فُرْصَةً قَادِمَةً، غَافِلاً عَنْ أَنَّ المُفَاجَأَةَ الكُبْرَى تَطْوِي كُلَّ الأَعْذَارِ! أَرَى الشَّفَقَ الأَحْمَرَ عِنْدَ الغُرُوبِ كَيْفَ يُؤْذِنُ بِرَحِيلِ النَّهَارِ وَإِغْلَاقِ أَبْوَابِ السَّعْيِ، فَلَا يَمْلِكُ السَّاهِي أَنْ يَرُدَّ

الشَّمْسَ إِلَى كَبِدِ السَّمَاءِ. فَمَا أَشَدَّ جَلَالَ مَشْهَدِ اللهِ حِينَ يُقْضَى الأَمْرُ فِي ظُلَلِ الغَمَامِ وَتُعَادُ مَقَالِيدُ الكَوْنِ كُلِّهَا إِلَى مَالِكِهَا الوَاحِدِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي مِنْ انْتِظَارٍ بَلِيدٍ لِلْمَجْهُولِ إِلَى مُبَادَرَةٍ حَيَّةٍ تَغْتَنِمُ سَاعَةَ الإِمْهَالِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ. فَكُلُّ تَسْوِيفٍ يَغْتَرُّ بِطُولِ الأَمَلِ مَآلُهُ النَّدَمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحُكْمِ اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُ جَمِيعُ الأُمُورِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (211–220)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 211 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

صِيَانَةُ النِّعَمِ المَعْرِفِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالجُحُودِ هِيَ مِفْتَاحُ اسْتِمْرَارِ العَطَاءِ الإِلٰهِيِّ وَنَمَائِهِ. التَّذْكِيرُ بِمَصَائِرِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أُوتِيَتِ البَرَاهِينَ السَّاطِعَةَ ثُمَّ بَدَّلَتْ نِعْمَةَ الهِدَايَةِ بِالهَوَى وَالعِنَادِ يُوقِظُ العَقْلَ لِإِدْرَاكِ سُنَنِ التَّارِيخِ الثَّابِتَةِ. الحِكْمَةُ الرَّشِيدَةُ تَرَى فِي الوَحْيِ وَالعَقْلِ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهَا، لَا التَّلَاعُبَ بِمَقَاصِدِهَا تَبَعاً لِلْمَصَالِحِ العَاجِلَةِ. فَمَنْ حَفِظَ نِعْمَةَ البَيَانِ وَشَكَرَهَا بِالعَمَلِ دَامَتْ لَهُ البَرَكَةُ وَالهُدَى، بَيْنَمَا يَسْتَجْلِبُ مَنْ بَدَّلَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ شِدَّةَ العِقَابِ وَزَوَالَ النِّعَمِ.

الصَّدَى

سُطُوعُ الآيَاتِ وَمَصِيرُ التَّبْدِيلِ

صَدَى ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

بَرَاهِينُ نُورَانِيَّةٌ تَتَتَابَعُ كَالكَوَاكِبِ فِي سَمَاءِ التَّارِيخِ لِتَهْدِيَ العُقُولَ، وَأَيْدٍ جَاحِدَةٌ تَطْمِسُ مَعَالِمَ النِّعْمَةِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْهَا صَافِيَةً نَقِيَّةً. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الأَمَانِ عِنْدَ التَّهَاوُنِ بِمِيثَاقِ الهِدَايَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُفْرَانَ النِّعَمِ المَعْنَوِيَّةِ أَشَدُّ خَطَراً مِنْ جُحُودِ النِّعَمِ المَادِّيَّةِ. وَكَمْ غَفَلْتُ قَدِيماً عَنْ قِيمَةِ النُّورِ الَّذِي أُودِعَ بَيْنَ يَدَيَّ، فَكَادَتْ أَهْوَاءُ النَّفْسِ تُغَيِّرُ بُوصَلَتِي بَعْدَ وُضُوحِ الطَّرِيقِ! أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ

الطَّيِّبَةَ كَيْفَ تَزْدَهِرُ حِينَ تَحْتَفِظُ بِمَاءِ الغَيْثِ وَتُنْبِتُ الزَّرْعَ، فَإِذَا تَصَدَّعَتْ جُدْرَانُهَا وَتَسَرَّبَ مَاؤُهَا عَادَتْ قَاحِلَةً تَسْفِيهَا الرِّيَاحُ. فَمَا أَشَدَّ عِقَابَ اللهِ لِمَنْ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ الهُدَى وَاليَقِينِ بِظُلُمَاتِ الجُحُودِ وَالهَوَى بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي مِنْ تَعَامُلٍ عَابِرٍ مَعَ الآيَاتِ إِلَى حِرَاسَةٍ دَائِمَةٍ تَصُونُ نِعْمَةَ السَّمَاءِ فِي قَلْبِي. فَكُلُّ تَبْدِيلٍ لِلْحَقِّ يَجُرُّ الخَرَابَ وَالنَّقْمَةَ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنِعْمَةِ اللهِ الَّتِي تُحْفَظُ بِالشُّكْرِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 212 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

المَوْعِظَةُ

انْكِشَافُ زَيْفِ الزِّينَةِ الفَانِيَةِ وَثَبَاتُ المَوَازِينِ الحَقِيقِيَّةِ يَوْمَ العَرْضِ يُحَرِّرَانِ قَلْبَ المُؤْمِنِ مِنَ الِانْكِسَارِ أَمَامَ سُخْرِيَةِ المُغْتَرِّينَ بِالدُّنْيَا. العَقْلُ البَصِيرُ يُدْرِكُ أَنَّ انْبِهَارَ الكَافِرِينَ بِمَتَاعِ العَاجِلَةِ هُوَ غِشَاوَةٌ تَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ العَوَاقِبِ، فَيَسْتَهْزِئُونَ بِأَهْلِ الإِيمَانِ لِزُهْدِهِمْ وَتَعَفُّفِهِمْ عَنِ الحَرَامِ. الرُّؤْيَةُ القُرْآنِيَّةُ تُصَحِّحُ مَقَايِيسَ الرِّفْعَةِ وَالدَّنَاءَةِ، فَتُؤَكِّدُ أَنَّ العُلُوَّ الحَقِيقِيَّ هُوَ عُلُوُّ التَّقْوَى يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنَّ خَزَائِنَ الرِّزْقِ الإِلٰهِيِّ لَا تَخْضَعُ لِحِسَابَاتِ البَشَرِ الضَّيِّقَةِ. فَمَنِ اسْتَعْلَى بِإِيمَانِهِ عَنْ ضَجِيجِ السَّاخِرِينَ نَالَ الرِّفْعَةَ الأَبَدِيَّةَ وَالعَطَاءَ الوَاسِعَ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُغْتَرُّ بِزِينَةِ الدُّنْيَا مَحْبُوساً فِي سَرَابِهِ حَتَّى يَنْكَشِفَ الغِطَاءُ.

الصَّدَى

زُخْرُفُ السَّرَابِ وَعُلُوُّ التَّقْوَى

صَدَى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

زِينَةٌ بَرَّاقَةٌ تَخْطَفُ أَبْصَارَ الغَافِلِينَ فَيَظُنُّونَهَا الخُلُودَ، وَسُخْرِيَةٌ جَوْفَاءُ تَتَعَالَى عَلَى السَّائِرِينَ فِي دَرْبِ النُّورِ وَاليَقِينِ. فِي وِجْدَانِي يَنْهَارُ وَهْمُ الهَزِيمَةِ النَّفْسِيَّةِ أَمَامَ بَرِيقِ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي المُعْرِضِينَ، وَتَسْتَقِرُّ

طُمَأْنِينَةُ أَنَّ العَاقِبَةَ لِأَهْلِ التَّقْوَى حِينَ تَنْقَلِبُ المَوَازِينُ. وَكَمْ شَعَرْتُ قَدِيماً بِوَحْشَةِ الغُرْبَةِ حِينَ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ المُسْتَهْزِئِينَ بِقِيَمِ الحَقِّ، فَكَادَ قَلْبِي يَلْتَفِتُ إِلَى زُخْرُفِهِمْ الزَّائِلِ! أَتَأَمَّلُ القِمَمَ الشَّامِخَةَ كَيْفَ تَظَلُّ ثَابِتَةً فَوْقَ الغُيُومِ بَيْنَمَا تَتَبَخَّرُ الأَوْهَامُ فِي الوِدْيَانِ السَّحِيقَةِ دُونَ أَنْ تَبْلُغَ عُلُوَّهَا. فَمَا أَعْظَمَ وَعْدَ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ المُتَّقِينَ فَوْقَ السَّاخِرِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ بِغَيْرِ حِسَابٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْحَيَاةِ مِنْ مِقْيَاسٍ مَادِّيٍّ يَنْخَدِعُ بِالظَّوَاهِرِ إِلَى بَصِيرَةٍ تَرَى مَقَامَاتِ الخُلُودِ وَرَحْمَةَ الرَّزَّاقِ. فَكُلُّ زِينَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ تَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ مَآلُهَا الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرِفْعَةِ التَّقْوَى وَعَطَاءِ اللهِ الَّذِي لَا يَنْفَدُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 213 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ الأَصْلِ الإِنْسَانِيِّ وَمَرْجِعِيَّةُ الوَحْيِ الحَاكِمَةُ هُمَا العَاصِمُ الوَحِيدُ مِنَ التَّشَرْذُمِ وَالصِّرَاعِ الَّذِي يَصْنَعُهُ البَغْيُ وَالهَوَى. الفِطْرَةُ الأُولَى جَمَعَتِ البَشَرَ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَلَمَّا تَفَرَّقَتْ بِهِمُ السُّبُلُ أَرْسَلَ الخَالِقُ الأَنْبِيَاءَ بِالكِتَابِ الحَقِّ لِيَكُونَ مِيزَاناً عَادِلاً يَفْصِلُ فِي النِّزَاعَاتِ وَيُبَدِّدُ الشُّبُهَاتِ. كَشْفُ القُرْآنِ عَنْ أَنَّ الخِلَافَ بَعْدَ وُضُوحِ البَيِّنَاتِ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ غُمُوضِ النَّصِّ بَلْ بِسَبَبِ البَغْيِ وَطَلَبِ الرِّئَاسَةِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّعَصُّبِ المَذْهَبِيِّ الأَعْمَى. فَمَنْ تَجَرَّدَ مِنَ الهَوَى وَاحْتَكَمَ إِلَى الكِتَابِ بِإِخْلَاصٍ هَدَاهُ رَبُّهُ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ أَهْلُ البَغْيِ فِي ظُلُمَاتِ التَّنَازُعِ وَالفُرْقَةِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الوَحْيِ وَتِيهُ الِاخْتِلَافِ

صَدَى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

نَبْعٌ وَاحِدٌ صَدَرَتْ عَنْهُ البَشَرِيَّةُ فِي فَجْرِهَا الأَوَّلِ، وَكِتَابٌ مُنِيرٌ تَنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ لِيَجْمَعَ الشَّتَاتَ وَيُقِيمَ العَدْلَ بَيْنَ المتَنَازِعِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ أَنَّ كَثْرَةَ الخِلَافَاتِ تَعْنِي غِيَابَ الحَقِيقَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ البَغْيَ وَحُبَّ الغَلَبَةِ هُمَا اللُّذَانِ يُعَكِّرَانِ صَفْوَ البَيِّنَاتِ. وَكَمْ حِرْتُ قَدِيماً بَيْنَ أَصْوَاتٍ مُتَصَارِعَةٍ تَدَّعِي كُلٌّ مِنْهَا احْتِكَارَ الصَّوَابِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي قَلْبِي هِدَايَةُ الرُّجُوعِ الصَّادِقِ إِلَى مِيزَانِ الكِتَابِ! أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ الوَاحِدَةَ كَيْفَ تَعْمُرُ الكَوْنَ بِنُورٍ وَاحِدٍ، فَمَا تَعَدَّدَتِ الظِّلَالُ إِلَّا بِسَبَبِ الحَوَاجِزِ الَّتِي يَضَعُهَا البَشَرُ أَمَامَ أَشِعَّتِهَا. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ حِينَ يَهْدِي القُلُوبَ المخْلِصَةَ إِلَى الحَقِّ الَّذِي اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ وَيُسَدِّدُ خُطَاهَا نَحْوَ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ بَصِيرَتِي مِنْ حَيْرَةٍ تَتَقَاذَفُهَا الأَهْوَاءُ إِلَى سَكِينَةٍ تَسْتَنِدُ إِلَى حُكْمِ الوَحْيِ وَنَقَاءِ القَصْدِ. فَكُلُّ خِلَافٍ يَصْنَعُهُ البَغْيُ مَآلُهُ التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ الَّذِي يَجْمَعُ القُلُوبَ عَلَى الحَقِّ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 214 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سُنَّةُ الِابْتِلَاءِ وَالتَّمْحِيصِ هِيَ البَوَّابَةُ الحَتْمِيَّةُ لِاسْتِحْقَاقِ الكَرَامَةِ الأَبَدِيَّةِ وَتَمْيِيزِ الصَّادِقِينَ مِنَ المدَّعِينَ. التَّسَاؤُلُ القُرْآنِيُّ يُوقِظُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ الوُصُولِ السَّهْلِ إِلَى الجَنَّةِ دُونَ تَضْحِيَةٍ أَوْ صَبْرٍ عَلَى الشَّدَائِدِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الصَّالِحُونَ عَبْرَ العُصُورِ. الِاشْتِدَادُ الَّذِي يُزَلْزِلُ النُّفُوسَ حَتَّى يَسْتَبْطِئَ المؤْمِنُونَ الفَرَجَ لَيْسَ تَخَلِّياً مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ مَخَاضٌ يَسْبِقُ وِلَادَةَ النَّصْرِ القَرِيبِ الَّذِي يَأْتِي فِي

لَحْظَةِ انْقِطَاعِ الأَسْبَابِ البَشَرِيَّةِ. فَمَنْ ثَبَتَ عِنْدَ الزَّلْزَلَةِ وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ أَدْرَكَ بُشْرَى النَّصْرِ وَنَعِيمَ الجَنَّةِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ قَلِيلُ الصَّبْرِ عِنْدَ أَوَّلِ عَقَبَةٍ فِي طَرِيقِ الِامْتِحَانِ.

الصَّدَى

زَلْزَلَةُ الِابْتِلَاءِ وَفَجْرُ النَّصْرِ القَرِيبِ

صَدَى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ لَيْلٌ طَوِيلٌ تَشْتَدُّ ظُلْمَتُهُ وَتَعْصِفُ رِيَاحُهُ بِالأَعْصَانِ حَتَّى تَظُنَّ القُلُوبُ أَنَّ الفَجْرَ قَدْ تَأَخَّرَ مِيعَادُهُ، وَإِذَا بِالنُّورِ يَنْبَلِجُ مِنْ قَلْبِ العَتْمَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الطَّرِيقِ المَفْرُوشِ بِالوُرُودِ نَحْوَ الخُلُودِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ هُوَ الثَّمَنُ الحَقِيقِيُّ لِلْجَنَّةِ. وَكَمْ ضَاقَ صَدْرِي قَدِيماً عِنْدَ تَوَالِي الكُرُوبِ، فَارتَفَعَ فِي دَاخِلِي تَسَاؤُلُ المُضْطَرِّ عَنْ سَاعَةِ الفَرَجِ بَعْدَ أَنْ ضَاقَتْ بِيَ الحِيَلُ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الكَامِنَةَ تَحْتَ التُّرَابِ كَيْفَ تُعَانِي ثِقَلَ الأَرْضِ وَظُلْمَتَهَا حَتَّى تَنْشَقَّ عَنْ نَبْتَةٍ خَضْرَاءَ تُعَانِقُ ضَوْءَ الشَّمْسِ. فَمَا أَعْظَمَ بُشْرَى اللهِ الَّتِي تَمْسَحُ دُمُوعَ الصَّابِرِينَ فِي ذُرْوَةِ الشِّدَّةِ لِتُعْلِنَ أَنَّ نَصْرَهُ قَرِيبٌ لَا يَتَخَلَّفُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ المِحْنَةُ فِي وِجْدَانِي مِنْ سِجْنٍ يُورِثُ اليَأْسَ إِلَى مِعْرَاجٍ يَصْقُلُ الإِيمَانَ وَيُبَشِّرُ بِالفَرَجِ. فَكُلُّ شِدَّةٍ تُمْتَحِنُ الصَّادِقِينَ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنَصْرِ اللهِ وَوَعْدِهِ الحَقِّ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 215 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَرْتِيبُ مَصَارِفِ العَطَاءِ وَفْقَ فِقْهِ الأَوْلَوِيَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ يَجْعَلُ الإِنْفَاقَ جِسْراً لِلتَّكَافُلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنَ الدَّائِرَةِ الأَقْرَبِ لِيَعُمَّ المُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ. الإِجَابَةُ القُرْآنِيَّةُ تَصْرِفُ السَّائِلِينَ عَنِ التَّفَاصِيلِ الشَّكْلِيَّةِ لِنَوْعِ المَالِ إِلَى جَوْهَرِ «الخَيْرِ» وَأَحَقِّ النَّاسِ بِهِ، فَتُقَدِّمُ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ صِلَةً لِلرَّحِمِ، ثُمَّ تَمْتَدُّ

بِالرَّحْمَةِ لِتَجْبُرَ كَسْرَ اليَتِيمِ وَالمِسْكِينِ وَالمُنْقَطِعِ فِي السَّفَرِ. وَيَأْتِي خِتَامُ الآيَةِ بِإِحَاطَةِ عِلْمِ الخَالِقِ بِكُلِّ خَيْرٍ كَيْ يُحَرِّرَ المُعْطِيَ مِنَ انْتِظَارِ شُكْرِ البَشَرِ أَوِ المِنِّ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ أَنْفَقَ طَيِّبَ مَالِهِ فِي مَصَارِفِهِ العَادِلَةِ نَالَ بَرَكَةَ الصِّلَةِ وَعِلْمَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ بَعْثَرَ عَطَاءَهُ فِي الرِّيَاءِ وَتَرَكَ أَهْلَ الحَاجَةِ الأَقْرَبِينَ.

الصَّدَى

دَوَائِرُ العَطَاءِ وَعِلْمُ الرَّقِيبِ

صَدَى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

دَوَائِرُ مِنَ النُّورِ تَتَّسِعُ فَوْقَ سَطْحِ المَاءِ الصَّافِي، تَبْدَأُ مِنْ نُقْطَةِ البِرِّ بِالوَالِدَيْنِ ثُمَّ تَعْمُرُ الأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ بِالدِّفْءِ وَالأَمَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ العَطَاءِ العَشْوَائِيِّ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الثَّنَاءِ البَعِيدِ وَيَغْفُلُ عَنِ الجِرَاحِ القَرِيبَةِ فِي مُحِيطِهِ. وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَدِيماً فِي بَذْلِ القَلِيلِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّ الخَيْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالكَثِيرِ المَشْهُودِ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ أَيَّ خَيْرٍ خَفِيٍّ مَرْصُودٌ فِي سِجِلِّ السَّمَاءِ! أَتَأَمَّلُ المَطَرَ كَيْفَ يَرْوِي الجُذُورَ القَرِيبَةَ أَوَّلاً لِتَقْوَى الشَّجَرَةُ، ثُمَّ تَفِيضُ ظِلَالُهَا وَثِمَارُهَا عَلَى كُلِّ عَابِرِ سَبِيلٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا. فَمَا أَعْظَمَ عِلْمَ اللهِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ لَمْسَةِ حَنَانٍ وَكُلِّ لُقْمَةٍ تُسِدُّ جَوْعَةَ يَتِيمٍ أَوْ تُعِينُ غَرِيباً فِي الطَّرِيقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي مِنْ قَبْضَةٍ تَحْسِبُ الأَرْقَامَ إِلَى نَبْعٍ رَحِيمٍ يَسْقِي الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الخَالِقِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَبْتَغِي سُمْعَةَ النَّاسِ مَآلُهُ التَّبَخُّرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيُضَاعِفُ أَجْرَهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 216 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّسْلِيمُ لِلْعِلْمِ الإِلٰهِيِّ المحِيطِ وَمُجَاوَزَةُ قُصُورِ النَّظَرِ البَشَرِيِّ يُحَرِّرَانِ الإِنْسَانَ مِنَ الِانْقِيَادِ لِمَشَاعِرِ الحُبِّ وَالكُرْهِ العَابِرَةِ. القُرْآنُ يَعْتَرِفُ بِفِطْرَةِ النَّفْسِ الَّتِي تَكْرَهُ مَشَقَّةَ القِتَالِ وَمَخَاطِرَهُ، لٰكِنَّهُ يَرْفَعُ الوَعْيَ لِإِدْرَاكِ الحِكْمَةِ الخَفِيَّةِ وَرَاءَ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ الَّتِي تَحْفَظُ الحَيَاةَ وَالكَرَامَةَ. هٰذِهِ القَاعِدَةُ الكَوْنِيَّةُ تُطَمْئِنُ القَلْبَ أَمَامَ أَقْدَارِ الحَيَاةِ وَأَوَامِرِ الشَّرْعِ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ النَّفْسُ نَافِعاً وَلَا كُلُّ مَا تَنْفِرُ مِنْهُ ضَارّاً. فَمَنْ سَلَّمَ قِيَادَهُ لِعِلْمِ الخَالِقِ وَصَبَرَ عَلَى مَكَارِهِ الطَّاعَةِ نَالَ الخَيْرَ العَمِيمَ، بَيْنَمَا يَهْلِكُ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَاخْتَارَ الرَّاحَةَ الزَّائِفَةَ الَّتِي تَجُرُّ الهَوَانَ.

الصَّدَى

بَصِيرَةُ العَوَاقِبِ وَحِكْمَةُ العَلِيمِ

صَدَى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

دَوَاءٌ مُرٌّ تَنْفِرُ مِنْهُ النَّفْسُ للوَهْلَةِ الأُولَى ثُمَّ يَسْرِي بِالعَافِيَةِ فِي العُرُوقِ، وَشَهْدٌ مَسْمُومٌ يُغْرِي اللِّسَانَ بِحَلَاوَتِهِ ثُمَّ يُورِثُ الهَلَاكَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الإِحَاطَةِ بِمَآلَاتِ الأُمُورِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ نَظَرِي المحْدُودَ لَا يَرَى إِلَّا ظَاهِرَ اللَّحْظَةِ بَيْنَمَا يُحِيطُ عِلْمُ السَّمَاءِ بِالبِدَايَاتِ وَالنِّهَايَاتِ. وَكَمْ جَزِعْتُ قَدِيماً مِنْ مَشَقَّةٍ اعْتَرَضَتْ طَرِيقِي فَكَرِهْتُهَا، ثُمَّ كَشَفَتِ الأَيَّامُ أَنَّهَا كَانَتْ طَوْقَ النَّجَاةِ الَّذِي حَمَانِي مِنَ السُّقُوطِ! أَتَأَمَّلُ المِحْرَاثَ الحَدِيدِيَّ كَيْفَ يَشُقُّ صَدْرَ الأَرْضِ بِقَسْوَةٍ فَتَبْدُو جَرِيحَةً، وَلَوْلَا تِلْكَ الجِرَاحُ لَمَا تَفَتَّحَتْ تُرْبَتُهَا عَنْ أَجْمَلِ السَّنَابِلِ وَالثِّمَارِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا تَخْفِيهِ الأَقْدَارُ وَالتَّكَالِيفُ بَيْنَمَا نَحْنُ لَا نَعْلَمُ مِنْ حِكْمَتِهَا إِلَّا القَلِيلَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَشَاعِرِي تِجَاهَ المكَارِهِ مِنْ سَخَطٍ وَتَبَرُّمٍ إِلَى رِضاً مُطْمَئِنٍّ يَثِقُ فِي تَدْبِيرِ الخَبِيرِ العَلِيمِ. فَكُلُّ مَحْبُوبٍ يَخْلُو مِنْ حِكْمَةِ الشَّرْعِ مَآلُهُ الشَّرُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرٍ يَخْتَارُهُ اللهُ لِعِبَادِهِ بِعِلْمِهِ المحِيطِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 217 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ

عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

فِقْهُ المُوَازَنَةِ بَيْنَ المَفَاسِدِ وَكَشْفُ الزَّيْفِ الأَخْلَاقِيِّ لِلْمُعْتَدِينَ يُحَرِّرَانِ العَقْلَ المؤْمِنَ مِنْ عُقْدَةِ الذَّنْبِ المَوْهُومَةِ الَّتِي يَزْرَعُهَا الخُصُومُ. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يُقِرُّ بِحُرْمَةِ القِتَالِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، لٰكِنَّهُ يَضَعُهُ فِي مِيزَانِ العَدْلِ مُقَابِلَ جَرَائِمَ أَكْبَرَ وَأَفْظَعَ؛ كَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ الخَالِقِ، وَتَهْجِيرِ الآمِنِينَ مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَفِتْنَةِ النَّاسِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ. هٰذَا الوَعْيُ النَّقْدِيُّ يَفْضَحُ مَنْ يَتَبَاكَى عَلَى حُرْمَةٍ جُزْئِيَّةٍ بَيْنَمَا يَنْتَهِكُ كُلَّ الحُرُمَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَيُحَذِّرُ المؤْمِنَ مِنَ التَّرَاجُعِ عَنْ دِينِهِ أَمَامَ الضُّغُوطِ لِأَنَّ الرِّدَّةَ تَمْحُو ثَمَرَةَ العُمْرِ كُلِّهِ. فَمَنْ أَدْرَكَ مَرَاتِبَ المَفَاسِدِ وَثَبَتَ عَلَى إِيمَانِهِ حَتَّى المَمَاتِ حَفِظَ أَعْمَالَهُ وَفَازَ بِالنَّجَاةِ، بَيْنَمَا يَحْبَطُ سَعْيُ المُرْتَدِّ وَيَخْسَرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الحُرُمَاتِ وَثَبَاتُ العَقِيدَةِ

صَدَى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

مِيزَانٌ دَقِيقٌ يَزِنُ الجَرَائِمَ بِقَدْرِهَا الحَقِيقِيِّ فِي السَّمَاءِ، فَيَكْشِفُ قُبْحَ مَنْ يَسْتُرُ جِبَالَ الظُّلْمِ وَالتَّهْجِيرِ بِالتَّبَاكِي عَلَى هَفْوَةٍ عَابِرَةٍ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ المَقَايِيسِ المَقْلُوبَةِ الَّتِي يُرَوِّجُهَا البَاغُونَ لِتَشْكِيكِ أَهْلِ الحَقِّ فِي عَدَالَةِ مَوْقِفِهِمْ، وَأُبْصِرُ أَنَّ فِتْنَةَ الرُّوحِ أَشَدُّ مِنْ إِزْهَاقِ الجَسَدِ. وَكَمْ أَرْبَكَنِي قَدِيماً ضَجِيجُ المتَلَاعِبِينَ بِالشِّعَارَاتِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ حَقِيقَةَ عَدَاوَتِهِمُ الَّتِي لَا تَهْدَأُ حَتَّى تَسْلُبَ القَلْبَ نُورَ إِيمَانِهِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الرَّاسِخَ كَيْفَ يَتَلَقَّى عَوَاصِفَ الرِّيَاحِ الهَوْجَاءِ دُونَ أَنْ تَتَزَحْزَحَ صُخُورُهُ، بَيْنَمَا تَتَطَايَرُ الأَوْرَاقُ الذَّابِلَةُ مَعَ أَوَّلِ نَسْمَةٍ عَابِرَةٍ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَفْضَحُ كَبَائِرَ الصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ وَيُحَذِّرُ مِنْ حُبُوطِ الأَعْمَالِ لِمَنْ يَبِيعُ دِينَهُ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ بَصِيرَتِي

مِنْ تَرَدُّدٍ تُثِيرُهُ شُبُهَاتُ الخُصُومِ إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يَحْمِي جَوْهَرَ التَّوْحِيدِ حَتَّى اللِّقَاءِ الأَخِيرِ. فَكُلُّ عَمَلٍ يُخْتَمُ بِالرِّدَّةِ مَآلُهُ الحُبُوطُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِيمَانٍ صَادِقٍ يَلْقَى بِهِ العَبْدُ رَبَّهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 218 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

اقْتِرَانُ الإِيمَانِ الصَّادِقِ بِالهِجْرَةِ عَنِ البَاطِلِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ مَعَ انْكِسَارِ القَلْبِ وَرَجَاءِ الرَّحْمَةِ هُوَ مَنْهَجُ العُبُودِيَّةِ الرَّاشِدَةِ. الإِسْلَامُ يَرْفَعُ عَنِ المجَاهِدِينَ المهَاجِرِينَ حَرَجَ الوَسْوَسَةِ وَاليَأْسِ بَعْدَ حَادِثَةِ الشَّهْرِ الحَرَامِ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ بَذْلَهُمْ وَتَضْحِيَتَهُمْ يَفْتَحَانِ لَهُمْ أَبْوَابَ الرَّجَاءِ فِي مَغْفِرَةِ الخَالِقِ وَرَحْمَتِهِ. هٰذِهِ التَّرْبِيَةُ الرُّوحِيَّةُ تَمْنَعُ العَامِلَ مِنَ الغُرُورِ بِتَضْحِيَاتِهِ، فَهُوَ مَهْمَا بَذَلَ يَظَلُّ مُفْتَقِراً يَرْجُو رَحْمَةَ مَوْلَاهُ وَلَا يَمُنُّ بِعَمَلِهِ عَلَى رَبِّهِ. فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ صِدْقِ البَذْلِ وَحُسْنِ الرَّجَاءِ وَجَدَ مَغْفِرَةً تَمْحُو الزَّلَّاتِ وَرَحْمَةً تَعْمُرُ الرُّوحَ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ قَعَدَ عَنِ السَّعْيِ أَوْ أَدَلَّ بِعَمَلِهِ عَلَى خَالِقِهِ.

الصَّدَى

رِحْلَةُ البَذْلِ وَشَاطِئُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

سُفُنٌ تَمْخُرُ عُبَابَ التَّضْحِيَةِ وَالهِجْرَةِ تَارِكَةً خَلْفَهَا شَوَاطِئَ الدَّعَةِ، تَتَّجِهُ بِشِرَاعِ الإِيمَانِ نَحْوَ مَرْفَأِ الرَّحْمَةِ وَالمغْفِرَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاتِّكَالِ عَلَى صَلَاحِ العَمَلِ وَحْدَهُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَعْظَمَ القُرُبَاتِ هِيَ الَّتِي تَقُودُ القَلْبَ إِلَى مَقَامِ الرَّجَاءِ وَالِافْتِقَارِ. وَكَمْ أَثْقَلَتْ نَفْسِي قَدِيماً مَخَاوِفُ الزَّلَلِ بَعْدَ الاجْتِهَادِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي سَكِينَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تَسْتَقْبِلُ السَّاعِينَ بِفَيْضِ المغْفِرَةِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ المتَدَفِّقَ الَّذِي يَقْطَعُ الصُّخُورَ وَالوِدْيَانَ فِي رِحْلَةِ شَاقَّةٍ حَتَّى يَبْلُغَ البَحْرَ الوَاسِعَ، فَيَذُوبَ فِي مَائِهِ العَمِيقِ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ بُشْرَى اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالهِجْرَةِ وَالجِهَادِ حِينَ يَجْعَلُ

رَجَاءَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ مَحْفُوفاً بِمَغْفِرَتِهِ الَّتِي لَا تَنْضَبُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَشَقَّةُ السَّيْرِ فِي حَيَاتِي مِنْ قَلَقٍ يُورِثُ الخَوْفَ إِلَى رَجَاءٍ عَذْبٍ يَسْتَنِدُ إِلَى سَعَةِ عَفْوِ الرَّحِيمِ. فَكُلُّ عَمَلٍ يَخْلُو مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى السَّمَاءِ مَآلُهُ العُجْبُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي تَسَعُ المجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 219 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

المُوَازَنَةُ العَقْلِيَّةُ بَيْنَ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ وَالتَّدَرُّجُ التَّرْبَوِيُّ فِي اجْتِثَاثِ العَادَاتِ الضَّارَّةِ يُبْرِزَانِ حِكْمَةَ الشَّرِيعَةِ فِي مُخَاطَبَةِ العُقُولِ وَتَهْيِئَةِ النُّفُوسِ. القُرْآنُ لَا يُنْكِرُ وُجُودَ بَعْضِ المَنَافِعِ المَادِّيَّةِ العَابِرَةِ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ، لٰكِنَّهُ يُحَكِّمُ مِيزَانَ العَقْلِ لِيُقَرِّرَ أَنَّ مَفَاسِدَهُمَا العَقْلِيَّةَ وَالِاجْتِمَاعِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ نَفْعِهِمَا، فَيُحَرِّكُ فِي الإِنْسَانِ مَلَكَةَ التَّفَكُّرِ لِيَتْرُكَهُمَا عَنْ قَنَاعَةٍ. وَفِي الشَّقِّ الثَّانِي يَرْسُمُ مَنْهَجَ الإِنْفَاقِ المُتَوَازِنِ بِإِخْرَاجِ «العَفْوِ» وَهُوَ مَا فَضَلَ عَنِ الحَاجَةِ دُونَ إِضْرَارٍ بِالنَّفْسِ أَوِ الأَهْلِ، لِيَجْمَعَ بَيْنَ السَّخَاءِ وَالِاعْتِدَالِ. فَمَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ فَاجْتَنَبَ مَا يَغْلِبُ ضَرَرُهُ وَأَنْفَقَ الفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِهِ عَاشَ سَلِيمَ العَقْلِ مُتَوَازِنَ الحَيَاةِ، بَيْنَمَا يَهْلِكُ مَنِ انْخَدَعَ بِالمَنَافِعِ الزَّائِفَةِ أَوْ أَسْرَفَ حَتَّى أَضَاعَ نَفْسَهُ.

الصَّدَى

مِيزَانُ العَقْلِ وَسَخَاءُ العَفْوِ

صَدَى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

مِيزَانٌ عَقْلِيٌّ رَاشِدٌ يَضَعُ المَنَافِعَ الزَّائِفَةَ فِي كِفَّةٍ وَالأَضْرَارَ المدَمِّرَةَ فِي كِفَّةٍ، لِيَظْهَرَ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ رُجْحَانُ الإِثْمِ وَوُجُوبُ الِاجْتِنَابِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْسِيَاقِ خَلْفَ المَكْسَبِ السَّرِيعِ أَوِ اللَّذَّةِ الَّتِي تُغَيِّبُ الوَعْيَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ فِي صَحْوِ عَقْلِهِ وَطَهَارَةِ رِزْقِهِ. وَكَمْ غَرَّتْنِي قَدِيماً

بَوَارِقُ نَفْعٍ عَاجِلٍ تُخْفِي وَرَاءَهَا خَرَابَ الرُّوحِ وَالمالِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي نِدَاءُ التَّفَكُّرِ فِي عَوَاقِبِ الأَشْيَاءِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ كَيْفَ يَقْتَلِعُ النَّبْتَةَ السَّامَّةَ رَغْمَ جَمَالِ أَزْهَارِهَا حِفَاظاً عَلَى الحَدِيقَةِ، ثُمَّ يَجُودُ بِفَائِضِ الثِّمَارِ الطَّيِّبَةِ عَلَى الجِيرَانِ فِي سَمَاحَةٍ وَيُسْرٍ. فَمَا أَعْظَمَ بَيَانَ اللهِ الَّذِي يُخَاطِبُ فِينَا العُقُولَ لِتَتَفَكَّرَ فَتَجْتَنِبَ الإِثْمَ الكَبِيرَ وَتُخْرِجَ العَفْوَ بِطِيبِ نَفْسٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اختِيَارَاتِي فِي الحَيَاةِ مِنْ رُدُودِ أَفْعَالٍ عَاطِفِيَّةٍ إِلَى بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تَزِنُ المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ بِعَدْلٍ وَاتِّزَانٍ. فَكُلُّ نَفْعٍ يَجُرُّ إِثْماً أَكْبَرَ مِنْهُ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِكْمَةِ اللهِ الَّتِي تُنِيرُ العُقُولَ المُتَفَكِّرَةَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 220 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حِكْمَةُ التَّيْسِيرِ فِي رِعَايَةِ اليَتَامَى وَرَفْعُ الحَرَجِ عَنِ الأَوْصِيَاءِ الصَّادِقِينَ يُحَرِّرَانِ المجْتَمَعَ مِنَ الجُمُودِ وَالتَّحَرُّجِ الَّذِي يَضُرُّ بِمَصْلَحَةِ الضُّعَفَاءِ. حِينَ تَحَرَّجَ المؤْمِنُونَ مِنْ مُخَالَطَةِ أَمْوَالِ اليَتَامَى خَوْفاً مِنَ الإِثْمِ حَتَّى شَقَّ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اليَتَامَى، جَاءَ التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ لِيَجْعَلَ «الإِصْلَاحَ» وَ«الأُخُوَّةَ» هُمَا الضَّابِطَ الحَقِيقِيَّ لِلتَّعَامُلِ، لَا العُزْلَةَ الجَافَّةَ الَّتِي تُعَطِّلُ تَنْمِيَةَ أَمْوَالِهِمْ. هٰذَا المَنْهَجُ المَقَاصِدِيُّ يُرَبِّي الضَّمِيرَ الدَّاخِلِيَّ، إِذْ يُذَكِّرُ بِأَنَّ الخَالِقَ يَعْلَمُ نِيَّةَ المصْلِحِ مِنْ نِيَّةِ المفْسِدِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى التَّضْيِيقِ لَوْ شَاءَ وَلٰكِنَّ حِكْمَتَهُ اقْتَضَتِ الرَّحْمَةَ وَالرِّفْقَ. فَمَنْ خَالَطَ اليَتِيمَ بِنِيَّةِ الأَخِ المشْفِقِ المصْلِحِ بُورِكَ لَهُ وَرُفِعَ عَنْهُ الحَرَجُ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المفْسِدُ أَمَامَ عِلْمِ العَزِيزِ الحَكِيمِ مَهْمَا تَظَاهَرَ بِالحِرْصِ.

الصَّدَى

أُخُوَّةُ الإِصْلَاحِ وَرَفْعُ الحَرَجِ

صَدَى ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يَدٌ حَانِيَةٌ تَمْسَحُ رَأْسَ اليَتِيمِ بِرُوحِ الأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ، فَتُزِيلُ حَوَاجِزَ الوَحْشَةِ وَالتَّحَرُّجِ الَّتِي كَادَتْ

تَعْزِلُهُ عَنْ دِفْءِ الأُسْرَةِ وَنَمَاءِ المالِ. في أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الوَرَعِ البَارِدِ الَّذِي يَبْتَعِدُ عَنْ خِدْمَةِ الضُّعَفَاءِ خَوْفاً مِنَ المِسَاءَلَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الإِصْلَاحَ الحَقِيقِيَّ يَتَطَلَّبُ المخَالَطَةَ الرَّحِيمَةَ وَالقَلْبَ النَّقِيَّ. وَكَمْ قَيَّدَتْنِي قَدِيماً وَسَاوِسُ الخَوْفِ مِنَ الخَطَأِ فَأَحْجَمْتُ عَنِ المبَادَرَةِ لِلْخَيْرِ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ السَّمَاءَ تَنْظُرُ إِلَى صِدْقِ القَصْدِ لَا إِلَى الشَّكْلِ الظَّاهِرِ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ الصَّغِيرَ في البُسْتَانِ كَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّفَافِ الأَغْصَانِ الكَبِيرَةِ حَوْلَهُ لِتَحْمِيَهُ مِنْ عَوَاصِفِ الرِّيحِ حَتَّى يَشْتَدَّ عُودُهُ وَيُثْمِرَ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ وَعِزَّتَهُ حِينَ يَرْفَعُ العَنَتَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَجْعَلُ عِلْمَهُ المحِيطَ هُوَ الفَيْصَلَ بَيْنَ المفْسِدِ وَالمصْلِحِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رِعَايَتِي لِلْضُّعَفَاءِ مِنْ عِبْءٍ ثَقِيلٍ يَخْشَى الزَّلَلَ إِلَى أُخُوَّةٍ حَيَّةٍ تَنْبُضُ بِالإِصْلَاحِ وَتَسْتَنِدُ إِلَى رَحْمَةِ الشَّارِعِ. فَكُلُّ نِيَّةٍ فاسِدَةٍ تَتَسَتَّرُ خَلْفَ الرِّعَايَةِ مَآلُهَا الِانْكِشَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِصْلَاحٍ صَادِقٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (2221–230)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 221 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بِنَاءُ الأُسْرَةِ عَلَى وَحْدَةِ العَقِيدَةِ وَالقِيَمِ هُوَ الأَسَاسُ المتِينُ الَّذِي يَصُونُ كِيَانَ المجْتَمَعِ وَيَحْفَظُ هُوِيَّةَ الأَجْيَالِ مِنَ التَّشَتُّتِ. المنْهَجُ القُرْآنِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ أَسْرِ الإِعْجَابِ الشَّكْلِيِّ وَالمقَايِيسِ الطَّبَقِيَّةِ الزَّائِفَةِ، فَيُقَرِّرُ أَنَّ كَرَامَةَ الإِيمَانِ في نَفْسٍ بَسِيطَةٍ أَرْفَعُ قَدْراً مِنْ كُلِّ جَمَالٍ أَوْ نَسَبٍ يَقُومُ عَلَى الشِّرْكِ. تَعْلِيلُ هٰذَا الحُكْمِ بِأَنَّ الرِّفْقَةَ الدَّائِمَةَ تُؤَثِّرُ في المصِيرِ الأَبَدِيِّ يَضَعُ الإِنْسَانَ أَمَامَ خِيَارٍ وَاضِحٍ بَيْنَ سَبِيلٍ يَجُرُّ إِلَى الهَلَاكِ وَسَبِيلٍ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ وَالمغْفِرَةِ. فَمَنْ أَسَّسَ بَيْتَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالقِيَمِ البَاقِيَةِ نَالَ سَكِينَةَ الرُّوحِ وَسَلَامَةَ المآلِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنِ انْقَادَ خَلْفَ الإِعْجَابِ العَابِرِ دُونَ بَصِيرَةٍ بِالعَوَاقِبِ.

الصَّدَى

بَيْتُ التَّوْحِيدِ وَسَرَابُ الإِعْجَابِ

صَدَى ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

سَقْفٌ وَاحِدٌ يَسْتَظِلُّ تَحْتَهُ قَلْبَانِ يَتَّجِهَانِ نَحْوَ قِبْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النُّورِ، وَبَيْتٌ مَشْطُورٌ تَتَنَازَعُهُ رِيَاحُ الشِّرْكِ وَالتَّوْحِيدِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِالزَّخَارِفِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَخْطَفُ العَيْنَ وَتُطْفِئُ جَذْوَةَ الإِيمَانِ فِي الصَّدْرِ. وَكَمْ غَرَّتْنِي قَدِيماً مَظَاهِرُ الكَمَالِ الدُّنْيَوِيِّ، فَكَادَتْ تَصْرِفُنِي عَنْ جَوْهَرِ الرُّوحِ وَوَحْدَةِ الوِجْهَةِ نَحْوَ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ فِي عُرْضِ البَحْرِ كَيْفَ تَحْتَاجُ إِلَى مِجْدَافَيْنِ يَعْمَلَانِ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ لِتَبْلُغَ شَاطِئَ الأَمَانِ، فَإِنْ تَعَاكَسَتْ حَرَكَتُهُمَا دَارَتْ فِي دَوَّامَةِ الغَرَقِ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ لَنَا حَقِيقَةَ الطَّرِيقَيْنِ وَيَدْعُونَا إِلَى الجَنَّةِ وَالمَغْفِرَةِ بِبَيَانِهِ المُشْرِقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَقَايِيسُ الِاخْتِيَارِ فِي قَلْبِي مِنْ فِتْنَةِ الشَّكْلِ الفَانِي إِلَى عِزَّةِ الإِيمَانِ الَّذِي يَرْفَعُ قَدْرَ الإِنْسَانِ. فَكُلُّ إِعْجَابٍ يَخْلُو مِنْ نُورِ التَّوْحِيدِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَوَدَّةٍ تَجْتَمِعُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 222 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُرَاعَاةُ الصِّحَّةِ البَدَنِيَّةِ وَالطَّهَارَةِ الجَسَدِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ تَضَعُ لِلْعِلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ مِيزَاناً يَجْمَعُ بَيْنَ الحَنَانِ وَالِانْضِبَاطِ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُبْطِلُ جَفَاءَ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْزِلُ المَرْأَةَ الحَائِضَ عَزْلاً كَامِلاً كَأَنَّهَا نَجَاسَةٌ، كَمَا يَمْنَعُ التَّهَاوُنَ الَّذِي يُؤْذِي البَدَنَ وَيُخَالِفُ الفِطْرَةَ، فَيَقْصُرُ الِاعْتِزَالَ عَلَى مَوْضِعِ الأَذَى حَتَّى تَكْتَمِلَ الطَّهَارَةُ. هٰذَا التَّوَازُنُ البَدِيعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الوَسْوَسَةِ وَالجَفَاءِ، وَيَرْبِطُ طَهَارَةَ الجَسَدِ بِتَوْبَةِ القَلْبِ لِيَنَالَ الإِنْسَانُ مَحَبَّةَ الخَالِقِ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ الفِطْرَةِ وَتَطَهَّرَ ظَاهِراً وَبَاطِناً ظَفِرَ بِصِحَّةِ البَدَنِ وَمَحَبَّةِ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَقَعُ مَنْ تَجَاوَزَ الحَدَّ أَوْ غَلَا فِي الجَفَاءِ فِي الأَذَى وَمُخَالَفَةِ الرُّشْدِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الطُّهْرِ وَرِفْقُ الفِطْرَةِ

صَدَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ جَدْوَلٌ رَقْرَاقٌ يَتَوَقَّفُ عَنِ السَّقْيِ سَاعَةَ العُكُورَةِ حِفَاظاً عَلَى صَفَاءِ البُسْتَانِ، ثُمَّ يَعُودُ بِالنَّمَاءِ وَالبَهَاءِ حِينَ يَنْجَلِي الغُبَارُ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ القَسْوَةِ الَّتِي تَحْفُو الرَّفِيقَ عِنْدَ ضَعْفِهِ البَدَنِيِّ، وَأُبْصِرُ رَحْمَةَ الشَّرْعِ الَّذِي يَصُونُ الجَسَدَ مِنَ الأَذَى دُونَ أَنْ يَقْطَعَ حِبَالَ المَوَدَّةِ. وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ قَدِيماً بَيْنَ إِفْرَاطٍ يُؤْذِي الفِطْرَةَ وَتَفْرِيطٍ يَنْبِذُ الإِنْسَانَ، حَتَّى أَشْرَقَ نُورُ الهِدَايَةِ بِالِاعْتِدَالِ الرَّشِيدِ! أَتَأَمَّلُ الزَّهْرَةَ النَّدِيَّةَ كَيْفَ تَضُمُّ أَوْرَاقَهَا لَيْلاً لِتَحْمِيَ رَحِيقَهَا مِنَ البَرْدِ، فَإِذَا أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ تَفَتَّحَتْ فِي نَقَاءٍ وَطُهْرٍ لِتَسْتَقْبِلَ الحَيَاةَ. فَمَا أَعْظَمَ مَحَبَّةَ اللهِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ التَّوَّابِينَ المُتَطَهِّرِينَ فِي القُلُوبِ وَالمُتَطَهِّرِينَ فِي الأَبْدَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِأَحْكَامِ البَدَنِ مِنْ قُيُودٍ جَافَّةٍ إِلَى رِعَايَةٍ حَانِيَةٍ تَحْفَظُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ وَطَهَارَةَ رُوحِهِ. فَكُلُّ تَجَاوُزٍ لِحُدُودِ الفِطْرَةِ مَآلُهُ الأَذَى، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَهَارَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَتَسْكُنُ إِلَيْهَا النُّفُوسُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 223 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِعَارَةُ الحَرْثِ فِي العِلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ تَسْمُو بِالفِطْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ مِنْ مُجَرَّدِ الشَّهْوَةِ العَابِرَةِ إِلَى مَقْصِدِ الإِنْبَاتِ وَاسْتِمْرَارِ النَّسْلِ وَعِمَارَةِ الحَيَاةِ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُوَسِّعُ دَائِرَةَ المُبَاحِ فِي الإِتْيَانِ كَيْفَمَا شَاءَ الزَّوْجَانِ مَا دَامَ فِي مَوْضِعِ الحَرْثِ وَالنَّمَاءِ، فَيَرْفَعُ الحَرَجَ وَالتَّضْيِيقَ عَنِ النُّفُوسِ، ثُمَّ يُوَجِّهُ القَلْبَ إِلَى تَقْدِيمِ العَمَلِ الصَّالِحِ وَمُرَاقَبَةِ الخَالِقِ عِنْدَ قَضَاءِ الوَطَرِ. هٰذَا الرَّبْطُ بَيْنَ اللَّذَّةِ المُبَاحَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ السَّمَاءِ يُطَهِّرُ الغَرِيزَةَ وَيَجْعَلُهَا مَصْدَراً لِلْأَجْرِ وَالبُشْرَى. فَمَنْ أَتَى أَهْلَهُ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَوَقَفَ عِنْدَ

حُدُودِ التَّقْوَى نَالَ بُشْرَى الإِيمَانِ وَسَكِينَةَ القَلْبِ، بَيْنَمَا يَنْحَرِفُ مَنِ انْقَادَ خَلْفَ الشَّهْوَةِ المجَرَّدَةِ عَنْ مَقَاصِدِ الفِطْرَةِ وَأَدَبِ اللِّقَاءِ.

الصَّدَى

بُسْتَانُ الحَرْثِ وَمِيعَادُ اللِّقَاءِ

صَدَى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

حَقْلٌ خَصِيبٌ تَتَعَهَّدُهُ الأَيْدِي بِالرِّفْقِ وَالمَوَدَّةِ لِيُثْمِرَ حَيَاةً تَمْتَدُّ عَبْرَ الأَجْيَالِ، وَمِيثَاقٌ رَبَّانِيٌّ يَصِلُ مَتَاعَ الأَرْضِ بِرَجَاءِ السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ فِطْرَةِ الجَسَدِ وَسُمُوِّ الرُّوحِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الغَرِيزَةَ المُنْضَبِطَةَ بِالتَّقْوَى تَغْدُو عِبَادَةً تُثْمِرُ بَرَكَةً وَنَمَاءً. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ شُؤُونَ البَيْتِ وَالفِطْرَةِ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذِكْرِ الآخِرَةِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي نِدَاءُ التَّقْدِيمِ لِلنَّفْسِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ اللِّقَاءِ! أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ البَصِيرَ كَيْفَ يَغْرِسُ البُذُورَ فِي الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ بِرِفْقٍ وَعِنَايَةٍ، وَعَيْنُهُ تَرْنُو إِلَى السَّمَاءِ رَجَاءَ الغَيْثِ وَالبَرَكَةِ فِي الحَصَادِ. فَمَا أَعْظَمَ بُشْرَى اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْتَحْضِرُونَ لِقَاءَهُ فِي كُلِّ شُؤُونِهِمْ وَيُقَدِّمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ زَادَ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَدَّةُ الأُسْرَةِ فِي حَيَاتِي مِنْ رَغْبَةٍ عَابِرَةٍ إِلَى غَرْسٍ مُبَارَكٍ يَمْتَدُّ أَثَرُهُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ. فَكُلُّ لَذَّةٍ تَغْفُلُ عَنْ لِقَاءِ الخَالِقِ مَآلُهَا الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَمَلٍ صَالِحٍ يُقَدِّمُهُ الإِنْسَانُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 224 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَعْظِيمُ اسْمِ الخَالِقِ وَتَقْدِيمُ مَصْلَحَةِ البِرِّ وَالإِصْلَاحِ عَلَى لَجَاجِ الحَلِفِ يُحَرِّرَانِ الإِنْسَانَ مِنَ الجُمُودِ وَالقَسْوَةِ تَحْتَ غِطَاءِ الوَرَعِ الكَاذِبِ. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يَنْهَى أَنْ يَتَّخِذَ المؤْمِنُ يَمِينَهُ بِاسْمِ رَبِّهِ حَاجِزاً يَمْنَعُهُ مِنْ فِعْلِ الخَيْرِ أَوْ صِلَةِ الرَّحِمِ أَوْ إِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ، فَيَجْعَلُ طَاعَةَ اللهِ وَالإِحْسَانَ إِلَى خَلْقِهِ أَوْلَى مِنَ التَّمَسُّكِ بِيَمِينٍ تَقْطَعُ المَعْرُوفَ. هٰذِهِ القَاعِدَةُ الرَّشِيدَةُ تَكْسِرُ عِنَادَ النَّفْسِ الَّتِي تُقْسِمُ

عِنْدَ الغَضَبِ عَلَى هَجْرِ الخَيْرِ، وَتُذَكِّرُ بِأَنَّ السَّمِيعَ العَلِيمَ يَرْضَى بِكَفَّارَةِ اليَمِينِ وَالرُّجُوعِ إِلَى البِرِّ أَكْثَرَ مِنْ إِصْرَارِ العَبْدِ عَلَى القَطِيعَةِ. فَمَنْ حَنَثَ فِي يَمِينِهِ لِيَصِلَ رَحِماً أَوْ يُصْلِحَ بَيْنَ مُتَخَاصِمَيْنِ نَالَ رِضَا الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَقَعُ المُصِرُّ عَلَى هَجْرِ الخَيْرِ فِي إِثْمِ القَسْوَةِ وَسُوءِ الفَهْمِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ البِرِّ وَانْكِسَارُ قَيْدِ اليَمِينِ

صَدَى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

حَاجِزٌ صَلْبٌ تَبْنِيهِ النَّفْسُ الغَاضِبَةُ بِأَيْمَانِهَا لِتَمْنَعَ نَهْرَ البِرِّ مِنَ الجَرَيَانِ، وَأَمْرٌ سَمَاوِيٌّ يَهْدِمُ السَّدَّ لِتَعُودَ الحَيَاةُ وَالصِّلَةُ بَيْنَ القُلُوبِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَفَاءِ الشَّكْلِيِّ الَّذِي يُضَحِّي بِجَوْهَرِ الرَّحْمَةِ وَالإِصْلَاحِ حِفَاظاً عَلَى كَلِمَةٍ خَرَجَتْ فِي سَاعَةِ انْفِعَالٍ. وَكَمْ قَيَّدْتُ يَدِي قَدِيماً بِقَسَمٍ مُتَعَجِّلٍ عِنْدَ الخِلَافِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ كَسْرَ القَيْدِ يُنْقِصُ مِنْ قَدْرِي، غَافِلاً عَنْ أَنَّ الخَيْرَ أَعْظَمُ حُرْمَةً! أَتَأَمَّلُ الجَلِيدَ المُتَجَمِّدَ فَوْقَ النَّبْعِ كَيْفَ يَذُوبُ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ، فَيَتَدَفَّقُ المَاءُ العَذْبُ لِيَرْوِيَ الأَرْضَ العَطْشَى وَيُحْيِيَ الزَّرْعَ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَصُونُ اسْمَهُ العَظِيمَ مِنْ أَنْ يُجْعَلَ ذَرِيعَةً لِقَطْعِ المَعْرُوفِ وَتَعْطِيلِ الإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَتِي مِنْ قَيْدٍ يَحْبِسُنِي عَنِ البِرِّ إِلَى مِرْوَنَةٍ رَاشِدَةٍ تَتَرَاجَعُ عَنِ الخَطَأِ لِتَصْنَعَ السَّلَامَ. فَكُلُّ يَمِينٍ تَصُدُّ عَنِ الخَيْرِ مَآلُهَا الكَفَّارَةُ وَالتَّرَاجُعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبِرٍّ وَإِصْلَاحٍ يَرْضَاهُمَا اللهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 225 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

رَفْعُ الحَرَجِ عَنْ فَلَتَاتِ اللِّسَانِ وَرَبْطُ المسَاءَلَةِ بِقَصْدِ القَلْبِ وَعَزْمِهِ يُحَرِّرَانِ الإِنْسَانَ مِنْ دَاءِ الوَسْوَسَةِ وَتَعْذِيبِ الذَّاتِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَزِنُ الأَعْمَالَ وَالأَقْوَالَ بِمَا انْعَقَدَتْ عَلَيْهِ النِّيَّةُ وَاكْتَسَبَهُ الجَنَانُ، فَتَعْفُو عَمَّا يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ دُونَ قَصْدٍ أَوْ تَفْكِيرٍ تَخْفِيفاً عَنِ العِبَادِ وَرَحْمَةً بِطَبِيعَتِهِمُ البَشَرِيَّةِ. وَيَأْتِي خِتَامُ الآيَةِ بِاسْمَيِ الغَفُورِ الحَلِيمِ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ سَعَةَ المَغْفِرَةِ وَالحِلْمِ الإِلٰهِيِّ تَسْتَوْعِبُ

ضَعْفَ البَشَرِ وَسُرْعَةَ أَلْسِنَتِهِمْ مَا لَمْ يَتَعَمَّدُوا الإِثْمَ وَالحِنْثَ. فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ وَصَدَقَ فِي عَزْمِهِ وَجَدَ مَغْفِرَةً وَحِلْماً يَرْفَعَانِ عَنْهُ العَنَتَ، بَيْنَمَا يَقَعُ المتَعَمِّدُ لِلْكَذِبِ وَالخِدَاعِ تَحْتَ طَائِلَةِ كَسْبِ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

فَلَتَاتُ اللِّسَانِ وَمِيزَانُ الجَنَانِ

صَدَى ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

رِيحٌ خَفِيفَةٌ تَمُرُّ فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ فَتُحَرِّكُ الزَّبَدَ العَابِرَ دُونَ أَنْ تُعَكِّرَ صَفْوَ الأَعْمَاقِ السَّاكِنَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الخَوْفِ المَرَضِيِّ مِنْ زَلَّاتِ الكَلَامِ العَفْوِيَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّمَاءَ تَنْظُرُ إِلَى مَا اسْتَقَرَّ فِي سُوَيْدَاءِ القَلْبِ لَا إِلَى مَا سَبَقَ إِلَيْهِ اللِّسَانُ. وَكَمْ أَرْهَقَتْنِي قَدِيماً وَسَاوِسُ التَّدْقِيقِ فِي كُلِّ لَفْظَةٍ عَابِرَةٍ، فَعِشْتُ فِي قَلَقٍ يَحْجُبُ عَنِّي سَعَةَ الرَّحْمَةِ وَحِلْمَ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المُثْمِرَةَ كَيْفَ تَتَسَاقَطُ عَنْهَا بَعْضُ الأَوْرَاقِ اليَابِسَةِ مَعَ النَّسِيمِ دُونَ أَنْ يَنْتَقِصَ ذٰلِكَ مِنْ قُوَّةِ جُذُورِهَا الرَّاسِخَةِ فِي الأَرْضِ. فَمَا أَعْظَمَ مَغْفِرَةَ اللهِ وَحِلْمَهُ حِينَ يَتَجَاوَزُ عَنْ لَغْوِ الأَلْسِنَةِ وَيُحَاسِبُ النُّفُوسَ عَلَى مَا كَسَبَتْهُ قُلُوبُهَا مِنْ قَصْدٍ وَعَزْمٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُرَاقَبَتِي لِنَفْسِي مِنْ تَتَبُّعٍ قَلِقٍ لِلْقُشُورِ إِلَى عِنَايَةٍ صَادِقَةٍ بِطَهَارَةِ القَلْبِ وَنَقَاءِ السَّرِيرَةِ. فَكُلُّ لَغْوٍ عَابِرٍ يَغْفِرُهُ الحِلْمُ الإِلٰهِيُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقِ القَلْبِ الَّذِي يَعْلَمُهُ اللهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 226 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حِمَايَةُ المَرْأَةِ مِنَ التَّعْلِيقِ وَالإِضْرَارِ وَتَحْدِيدُ سَقْفٍ زَمَنِيٍّ لِلْغَضَبِ الزَّوْجِيِّ يُرْسِيَانِ قَوَاعِدَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ دَاخِلَ الأُسْرَةِ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُبْطِلُ ظُلْمَ الجَاهِلِيَّةِ حِينَ كَانَ الرَّجُلُ يَحْلِفُ عَلَى هَجْرِ زَوْجَتِهِ السَّنَةَ وَالسَّنَتَيْنِ لِيَتْرُكَهَا مُعَلَّقَةً لَا هِيَ ذَاتُ زَوْجٍ وَلَا هِيَ مُطَلَّقَةٌ، فَيَجْعَلُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مُهْلَةً كَافِيَةً لِمُرَاجَعَةِ النَّفْسِ وَتَهْدِئَةِ الخَاطِرِ. كَمَا يُشَجِّعُ القُرْآنُ عَلَى الرُّجُوعِ وَالفَيْءِ إِلَى المَوَدَّةِ بِفَتْحِ

بَابِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِمَنْ تَرَاجَعَ عَنْ هَجْرِهِ وَأَصْلَحَ بَيْتَهُ. فَمَنْ أَطْفَأَ نَارَ الغَضَبِ وَعَادَ إِلَى عِشْرَةِ أَهْلِهِ بِالمَعْرُوفِ غَفَرَ لَهُ رَبُّهُ وَرَحِمَهُ، بَيْنَمَا يُمْنَعُ الظَّالِمُ مِنْ إِطَالَةِ أَمَدِ الإِيذَاءِ وَالتَّعْلِيقِ.

الصَّدَى

سَقْفُ الهَجْرِ وَعَوْدَةُ المَوَدَّةِ

صَدَى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

مُهْلَةٌ رَحِيمَةٌ تَضَعُ حَدّاً لِشِتَاءِ الهَجْرِ الطَّوِيلِ، وَتَفْتَحُ نَافِذَةَ الرَّبِيعِ لِتَعُودَ الدِّفْءُ وَالسَّكِينَةُ إِلَى أَرْكَانِ البَيْتِ. في وِجْدَانِي يَنْهَارُ وَهْمُ الكِبْرِيَاءِ الزَّوْجِيِّ الَّذِي يَتَّخِذُ الصَّمْتَ وَالبُعْدَ سِلَاحاً لِتَعْذِيبِ الشَّرِيكِ وَتَعْلِيقِهِ بَيْنَ اليَأْسِ وَالرَّجَاءِ. وَكَمْ أَطَالَ العِنَادُ قَدِيماً أَمَدَ الجَفَاءِ بَيْنَ القُلُوبِ المُتَحَابَّةِ، حَتَّى كَادَتْ تَذْبُلُ شَجَرَةُ المَوَدَّةِ مِنْ طُولِ العَطَشِ! أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ كَيْفَ يَطْوِي سَاعَاتِ اللَّيْلِ المَحْدُودَةَ بِأَمْرٍ كَوْنِيٍّ لَا يَتَأَخَّرُ، فَلَا يَتْرُكُ الأَرْضَ أَسِيرَةً لِلظَّلَامِ إِلَى الأَبَدِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي يُحَدِّدُ أَمَدَ التَّرَبُّصِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لِيَصُونَ كَرَامَةَ المَرْأَةِ وَيُبَارِكَ عَوْدَةَ الرَّجُلِ إِلَى رُشْدِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحَظَاتُ الخِلَافِ في بَيْتِي مِنْ قَطِيعَةٍ مَفْتُوحَةٍ إِلَى مُرَاجَعَةٍ هَادِئَةٍ تَنْتَهِي بِالصَّفْحِ وَالِاحْتِوَاءِ. فَكُلُّ هَجْرٍ يُجَاوِزُ حُدُودَ العَدْلِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَوَدَّةٍ تَسْتَظِلُّ بِمَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 227 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسْمُ القَرَارِ عِنْدَ اسْتِحَالَةِ العِشْرَةِ وَمُرَاقَبَةُ النِّيَّةِ عِنْدَ الفِرَاقِ يَمْنَعَانِ التَّلَاعُبَ بِمَصَائِرِ الأُسَرِ وَيَحْفَظَانِ الحُقُوقَ. بَعْدَ انْقِضَاءِ مُهْلَةِ التَّرَبُّصِ لَا يُتْرَكُ البَابُ مُوَارَباً لِلْإِضْرَارِ، بَلْ إِمَّا إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ عَزْمٌ صَادِقٌ عَلَى الطَّلَاقِ يُنْهِي حَالَةَ التَّعْلِيقِ وَيُعِيدُ لِكُلِّ طَرَفٍ حُرِّيَّتَهُ. وَيَأْتِي التَّذْكِيرُ بِأَنَّ الخَالِقَ سَمِيعٌ لِلْأَقْوَالِ عَلِيمٌ بِالنَّوَايَا لِيَرْدَعَ مَنْ يُضْمِرُ الكَيْدَ أَوْ يُسِيءُ اسْتِخْدَامَ رُخْصَةِ الطَّلَاقِ

لِلْإِيذَاءِ وَالِانْتِقَامِ. فَمَنْ فَارَقَ بِإِحْسَانٍ وَنِيَّةٍ خَالِصَةٍ مِنَ الظُّلْمِ سَلِمَ مِنْ تَبِعَاتِ البَغْيِ، بَيْنَمَا يُحَاسَبُ المتَلَاعِبُ بِالحُدُودِ عَلَى مَا أَسَرَّهُ قَلْبُهُ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ.

الصَّدَى

حَسْمُ القَرَارِ وَعِلْمُ السَّمِيعِ

صَدَى ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

مَفْتَرَقُ طُرُقٍ وَاضِحُ المعَالِمِ يَحْسِمُ حَيْرَةَ التَّرَدُّدِ، فَلَا يَتْرُكُ القُلُوبَ مُعَلَّقَةً فِي فَضَاءِ الضَّيَاعِ وَالِانْتِظَارِ المرِّ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الهُرُوبِ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ عِنْدَ تَعَذُّرِ الوِفَاقِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الفِرَاقَ العَادِلَ أَرْحَمُ مِنْ بَقَاءٍ يَقُومُ عَلَى الأَذَى وَالجَفَاءِ. وَكَمْ تَرَدَّدَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً بَيْنَ إِمْسَاكٍ يَخْلُو مِنَ المَوَدَّةِ وَفِرَاقٍ يَشُوبُهُ الكَيْدُ، غَافِلَةً عَنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ الَّتِي تَسْمَعُ الهَمْسَ وَتَعْلَمُ السِّرَّ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ اليَابِسَ كَيْفَ يَنْفَصِلُ عَنِ الشَّجَرَةِ فِي هُدُوءٍ عِنْدَ حُلُولِ الخَرِيفِ، لِيَمْنَحَ الشَّجَرَةَ فُرْصَةَ التَّجَدُّدِ وَيُفْسِحَ المجَالَ لِحَيَاةٍ أُخْرَى. فَمَا أَشَدَّ إِحَاطَةَ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ بِكُلِّ كَلِمَةِ طَلَاقٍ وَكُلِّ نِيَّةٍ تَخْتَبِئُ خَلْفَ قَرَارِ الفِرَاقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَاقِفُ الحَسْمِ فِي حَيَاتِي مِنْ سَاحَةٍ لِلْكَيْدِ وَالمكَايَدَةِ إِلَى انْضِبَاطٍ أَخْلَاقِيٍّ يَخْشَى اللهَ فِي الوَصْلِ وَالقَطْعِ. فَكُلُّ عَزْمٍ يَشُوبُهُ الظُّلْمُ مَآلُهُ المسَاءَلَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلْعَدْلِ الَّذِي يَرْضَاهُ اللهُ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 228 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَنْظِيمُ العِدَّةِ وَصِيَانَةُ الأَنْسَابِ وَتَقْرِيرُ التَّكَافُؤِ فِي الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ تَجْعَلُ فَتْرَةَ الفِرَاقِ فُرْصَةً ذَهَبِيَّةً لِرَأْبِ الصَّدْعِ وَإِعَادَةِ البِنَاءِ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يَضْبِطُ انْتِقَالَ المرْأَةِ بَعْدَ الطَّلَاقِ بِثَلَاثَةِ قُرُوءٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ، وَيَسْتَثِيرُ ضَمِيرَهَا الإِيمَانِيَّ كَيْ لَا تَكْتُمَ حَمْلاً أَوْ حَيْضاً، ثُمَّ يَمْنَحُ الزَّوْجَ حَقَّ المرَاجَعَةِ

بِشَرْطِ إِرَادَةِ «الإِصْلَاحِ» لَا الإِضْرَارِ. كَمَا يُرْسِي القُرْآنُ مَبْدَأَ المعَامَلَةِ بِالمعْرُوفِ حَيْثُ لِلْمَرْأَةِ مِنَ الحُقُوقِ مِثْلُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الوَاجِبَاتِ، مَعَ تَحْمِيلِ الرَّجُلِ دَرَجَةَ القِوَامَةِ وَالمسْؤُولِيَّةِ وَالصَّفْحِ. فَمَنْ أَرَادَ الإِصْلَاحَ وَأَدَّى الحُقُوقَ بِالمعْرُوفِ حَفِظَ كِيَانَ أُسْرَتِهِ، بَيْنَمَا يَقَعُ مَنْ كَتَمَ الحَقَّ أَوْ أَرَادَ الإِضْرَارَ تَحْتَ طَائِلَةِ عِزَّةِ الجَبَّارِ وَحِكْمَتِهِ.

الصَّدَى

مُهْلَةُ التَّرَبُّصِ وَمِيزَانُ المعْرُوفِ

صَدَى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

جِسْرٌ مِنَ التَّأَنِّي يَمْتَدُّ عَلَى ضِفَّتَيِ الفِرَاقِ، لِيَمْنَحَ القُلُوبَ فُسْحَةً لِلْمُرَاجَعَةِ الصَّادِقَةِ وَيَصُونَ بَرَاءَةَ الأَرْحَامِ مِنَ الِاخْتِلَاطِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّسَرُّعِ فِي هَدْمِ البُيُوتِ أَوِ التَّلَاعُبِ بِالحَقَائِقِ عِنْدَ الخُصُومَةِ، وَأُبْصِرُ عَدَالَةَ المِيزَانِ الَّذِي يُسَاوِي بَيْنَ الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ بِالمعْرُوفِ. وَكَمْ تَصَدَّعَتْ بُيُوتٌ قَدِيماً بِسَبَبِ الكِتْمَانِ أَوِ المرَاجَعَةِ الَّتِي تَقْصِدُ الإِيذَاءَ لَا الإِصْلَاحَ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ عَيْنَ الإِيمَانِ تَرْقُبُ السَّرَائِرَ! أَتَأَمَّلُ الجُرْحَ العَمِيقَ كَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى وَقْتٍ مِنَ السُّكُونِ وَالرِّعَايَةِ لِيَلْتَئِمَ دُونَ أَنْ يَتْرُكَ أَثَراً يُشَوِّهُ الجَسَدَ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ وَعِزَّتَهُ حِينَ يَجْعَلُ الإِصْلَاحَ شَرْطاً لِلرَّدِّ وَيُقَرِّرُ لِلنِّسَاءِ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمعْرُوفِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ العِلَاقَاتُ الأُسَرِيَّةُ فِي وَعْيِي مِنْ صِرَاعٍ عَلَى النُّفُوذِ إِلَى تَكَامُلٍ رَاشِدٍ يَقُومُ عَلَى الأَمَانَةِ وَالمسْؤُولِيَّةِ. فَكُلُّ رَجْعَةٍ تَخْلُو مِنْ إِرَادَةِ الإِصْلَاحِ مَآلُهَا الفَشَلُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبَيْتٍ يُبْنَى عَلَى المعْرُوفِ وَحِكْمَةِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 229 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَقْيِيدُ الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ بِمَرَّتَيْنِ وَحِمَايَةُ الحُقُوقِ المَالِيَّةِ لِلْمَرْأَةِ يَقْطَعَانِ دَابِرَ الِابْتِزَازِ وَالتَّلَاعُبِ بِرِبَاطِ الزَّوْجِيَّةِ. فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ وَيُرَاجِعُهَا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لِيُضِرَّ بِهَا، فَجَاءَ التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ لِيَحْصُرَ الفُرَصَ فِي مَرَّتَيْنِ، يَخْتَارُ بَعْدَهُمَا إِمَّا الإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوِ التَّسْرِيحَ بِإِحْسَانٍ دُونَ سَلْبٍ لِمَهْرِهَا، إِلَّا فِي حَالَةِ الخُلْعِ العَادِلِ عِنْدَ خَوْفِ التَّقْصِيرِ فِي حُدُودِ الشَّرْعِ. هٰذَا الضَّبْطُ المَقَاصِدِيُّ يُحَرِّرُ المَرْأَةَ مِنَ الظُّلْمِ المَالِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، وَيَضَعُ لِكِلَا الزَّوْجَيْنِ سِيَاجاً مِنْ حُدُودِ الخَالِقِ الَّتِي يَحْرُمُ تَجَاوُزُهَا. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ حَفِظَ كَرَامَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ، بَيْنَمَا يُوصَمُ المُتَعَدِّي لِحُدُودِ الشَّرْعِ بِالظُّلْمِ المُبِينِ.

الصَّدَى

إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ

صَدَى ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

مِيزَانٌ نَبِيلٌ يَضْبِطُ خُطُوَاتِ الوِصَالِ وَالفِرَاقِ، فَلَا يَسْمَحُ لِلْقُوَّةِ أَنْ تَبْتَزَّ الضَّعْفَ وَلَا لِلْغَضَبِ أَنْ يَسْلُبَ الحُقُوقَ المَشْرُوعَةَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِحْوَاذِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَسْتَرِدَّ مَا وَهَبَهُ عِنْدَ نِهَايَةِ الطَّرِيقِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ تَظْهَرُ فِي إِحْسَانِهِ عِنْدَ الفِرَاقِ كَمَا تَظْهَرُ فِي مَعْرُوفِهِ عِنْدَ البَقَاءِ. وَكَمْ شَهِدَتِ الحَيَاةُ قَدِيماً مَآسِيَ التَّعْلِيقِ وَالتَّضْيِيقِ لِإِجْبَارِ الزَّوْجَةِ عَلَى التَّنَازُلِ عَنْ مَالِهَا، حَتَّى جَاءَ الوَحْيُ لِيُحَرِّرَهَا بِمَخْرَجِ الفِدَاءِ العَادِلِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَذْبَ كَيْفَ يَتْرُكُ الضِّفَافَ الَّتِي مَرَّ بِهَا مُزْهِرَةً خَضْرَاءَ دُونَ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنْهَا زَهْرَةً وَاحِدَةً عِنْدَ رَحِيلِهِ. فَمَا أَعْظَمَ حُدُودَ اللهِ الَّتِي تَرْسُمُ لِلْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ سِيَاجاً مِنَ العَدْلِ وَالمُرُوءَةِ وَتُحَذِّرُ مِنَ الِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَاقِي فِي الخُصُومَةِ مِنْ رَغْبَةٍ فِي الِاسْتِرْدَادِ وَالمُشَاحَّةِ إِلَى سَمَاحَةٍ تَحْفَظُ العَهْدَ وَتَصُونُ الحُقُوقَ. فَكُلُّ تَعَدٍّ عَلَى حُدُودِ الشَّرْعِ مَآلُهُ الظُّلْمُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِحْسَانٍ يُرْضِي اللهَ وَيَحْفَظُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 230 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حُرْمَةُ التَّسَرُّعِ فِي الطَّلَاقِ الثَّالِثِ وَجَعْلُ العَوْدَةِ بَعْدَهُ مَرْهُونَةً بِزَوَاجٍ طَبِيعِيٍّ جَدِيدٍ يَرْدَعَانِ المسْتَهْتِرِينَ بِقَدَاسَةِ الرِّبَاطِ الأُسَرِيِّ. التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُعَلِّمُ الإِنْسَانَ أَنَّ الكَلِمَاتِ المصِيرِيَّةَ لَيْسَتْ لُعْبَةً فِي يَدِ الغَضَبِ، فَمَنِ اسْتَنْفَدَ فُرَصَهُ الثَّلَاثَ حُرِمَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ حَتَّى تَتَزَوَّجَ غَيْرَهُ زَوَاجاً صَحِيحاً مَقْصُوداً لِذَاتِهِ لَا تَحْلِيلاً صُورِيّاً، فَإِنْ فَارَقَهَا الثَّانِي جَازَ لَهُمَا التَّرَاجُعُ بِشَرْطِ غَلَبَةِ الظَّنِّ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى حُدُودِ الشَّرْعِ. هٰذَا التَّدْبِيرُ الدَّقِيقُ يَصُونُ الأُسْرَةَ مِنَ الهَزْلِ، وَيَرْبِطُ العِلَاقَاتِ بِمَقْصِدِ إِقَامَةِ حُدُودِ الخَالِقِ. فَمَنْ عَظَّمَ مِيثَاقَ الزَّوْجِيَّةِ وَتَأَنَّى قَبْلَ الهَدْمِ حَفِظَ بَيْتَهُ، بَيْنَمَا يَدْفَعُ المسْتَهْتِرُ ثَمَنَ تَسَرُّعِهِ حِرْمَاناً وَنَدَماً.

الصَّدَى

قَدَاسَةُ الميثَاقِ وَسِيَاجُ الحُدُودِ

صَدَى ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

بَابٌ يُغْلَقُ بِإِحْكَامٍ بَعْدَ ثَلَاثِ فُرَصٍ لِلْمُرَاجَعَةِ، كَيْ لَا تَغْدُوَ كَلِمَاتُ الفِرَاقِ عَبَثاً تَتَلَاعَبُ بِهِ أَهْوَاءُ الغَضَبِ وَالعَجَلَةِ. فِي وِجْدَانِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِهَانَةِ بِالأَلْفَاظِ الَّتِي تَهْدِمُ البُيُوتَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ مِيثَاقٍ عَظِيمٍ لَهُ سَقْفٌ إِذَا تَجَاوَزَهُ الإِنْسَانُ انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ. وَكَمْ أَطْلَقَتِ الأَلْسِنَةُ قَدِيماً سِهَامَ الطَّلَاقِ عِنْدَ كُلِّ انْفِعَالٍ عَابِرٍ، ظَانَّةً أَنَّ الرُّجُوعَ مَفْتُوحٌ دَائِماً بِلَا ثَمَنٍ وَلَا حِسَابٍ! أَتَأَمَّلُ الجِسْرَ المتِينَ كَيْفَ يَتَحَمَّلُ اهْتِزَازَ العَوَاصِفِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَإِذَا تَصَدَّعَتْ أَرْكَانُهُ الثَّلَاثَةُ انْهَارَ فِي النَّهْرِ فَلَا يُعَادُ بِنَاؤُهُ إِلَّا بِأَسَاسٍ جَدِيدٍ وَمُعَانَاةٍ طَوِيلَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُبَيِّنُ حُدُودَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَيَجْعَلُ إِقَامَتَهَا شَرْطاً لِكُلِّ لِقَاءٍ جَدِيدٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتِي فِي البَيْتِ مِنْ أَدَاةٍ لِلتَّهْدِيدِ وَالهَدْمِ إِلَى أَمَانَةٍ أَزِنُهَا بِالعَقْلِ وَالحِلْمِ قَبْلَ النُّطْقِ بِهَا. فَكُلُّ اسْتِهْتَارٍ بِالمَوَاثِيقِ مَآلُهُ القَطِيعَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبَيْتٍ يَقُومُ عَلَى العِلْمِ وَحُدُودِ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 231 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

نُبْلُ المَقَاصِدِ عِنْدَ نِهَايَةِ العِشْرَةِ وَحُرْمَةُ التَّحَايُلِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرْعِ لِإِيذَاءِ الشَّرِيكِ يُرْسِيَانِ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ وَقَدَاسَةَ العُقُودِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَضَعُ الإِنْسَانَ أَمَامَ خِيَارَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا عِنْدَ انْقِضَاءِ العِدَّةِ: إِمَّا إِمْسَاكٌ يَغْمُرُهُ المَعْرُوفُ وَالمَوَدَّةُ، وَإِمَّا تَسْرِيحٌ يَسُودُهُ الإِحْسَانُ وَالِاحْتِرَامُ. هٰذَا التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يَسُدُّ بَابَ اللِّدَدِ وَالمُضَارَّةِ الَّتِي تَتَّخِذُ الرَّجْعَةَ أَدَاةً لِتَعْلِيقِ المَرْأَةِ وَإِعْنَاتِهَا، وَيُحَذِّرُ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ بِآيَاتِ الخَالِقِ عَبْرَ تَفْرِيغِهَا مِنْ غَايَاتِهَا الأَخْلَاقِيَّةِ، مُذَكِّراً بِنِعْمَةِ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ الَّتِي تَصْقُلُ الضَّمِيرَ وَتُوقِظُ مُرَاقَبَةَ العَلِيمِ الخَبِيرِ. فَمَنْ صَانَ العِشْرَةَ أَوِ الفِرَاقَ بِالمَعْرُوفِ نَالَ سَلَامَةَ الدِّينِ وَنَقَاءَ الذِّمَّةِ، بَيْنَمَا يَظْلِمُ المَتَلَاعِبُ بِالأَحْكَامِ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَظْلِمَ غَيْرَهُ.

الصَّدَى

شَرَفُ المَعْرُوفِ وَحُرْمَةُ الإِضْرَارِ

صَدَى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

بَابٌ يُفْتَحُ بِالمَعْرُوفِ لِيُعِيدَ الدِّفْءَ إِلَى البَيْتِ، أَوْ يُغْلَقُ بِالإِحْسَانِ لِيَحْفَظَ لِلْأَرْوَاحِ كَرَامَتَهَا دُونَ

جِرَاحٍ أَوْ مَهَانَةٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْتِصَارِ الرَّخِيصِ الَّذِي يَسْتَغِلُّ ثَغَرَاتِ القَانُونِ لِإِيلَامِ طَرَفٍ ضَعِيفٍ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ أَذًى أُوجِّهُهُ لِغَيْرِي هُوَ سَهْمٌ يَرْتَدُّ إِلَى صَدْرِي. وَكَمْ غَفَلْتُ قَدِيماً عَنْ رُوحِ الحِكْمَةِ فِي العَلَاقَاتِ، فَتَعَلَّقْتُ بِظَاهِرِ الحَقِّ وَنَسِيتُ أَنَّ نِعْمَةَ الكِتَابِ نَزَلَتْ لِتُهَذِّبَ الطِّبَاعَ وَتُطَهِّرَ النَّوَايَا! أَتَأَمَّلُ الغَيْمَةَ الكَرِيمَةَ كَيْفَ تَسْقِي الأَرْضَ بِرِفْقٍ ثُمَّ تَنْقَشِعُ فِي هُدُوءٍ وَبَهَاءٍ دُونَ أَنْ تَتْرُكَ خَلْفَهَا عَاصِفَةً تَقْتَلِعُ الأَشْجَارَ. فَمَا أَعْظَمَ وَعْظَ اللهِ الَّذِي يَرْبِطُ تَقْوَاهُ بِعِلْمِهِ المُحِيطِ وَيُحَذِّرُ القُلُوبَ مِنْ أَنْ تَتَّخِذَ آيَاتِهِ مَطِيَّةً لِلْعُدْوَانِ وَالهُزْءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَاقِفِي عِنْدَ الخِلَافِ مِنْ رَغْبَةٍ فِي الإِضْرَارِ وَالتَّعْلِيقِ إِلَى سُمُوٍّ أَخْلَاقِيٍّ يَلْتَزِمُ المَعْرُوفَ فِي الوَصْلِ وَالفِرَاقِ. فَكُلُّ حِيلَةٍ تَبْتَغِي الأَذَى مَآلُهَا ظُلْمُ النَّفْسِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَعْرُوفٍ يَرْعَاهُ اللهُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 232 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

رَفْعُ الوِصَايَةِ المُتَسَلِّطَةِ عَنْ إِرَادَةِ المَرْأَةِ الرَّاشِدَةِ وَتَيْسِيرُ عَوْدَةِ الوِئَامِ الأُسَرِيِّ يُطَهِّرَانِ المُجْتَمَعَ مِنْ عَقْدِ الحَمِيَّةِ الجَاهِلِيَّةِ وَالكِبْرِيَاءِ المَوْرُوثِ. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يَنْهَى الأَوْلِيَاءَ عَنِ العَضْلِ وَمَنْعِ المُطَلَّقَةِ مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى زَوْجِهَا إِذَا صَدَقَتِ النَّوَايَا وَتَمَّ التَّرَاضِي بِالمَعْرُوفِ، جَاعِلاً الإِيمَانَ بِالخَالِقِ وَاليَوْمِ الآخِرِ هُوَ الدَّافِعَ لِلتَّجَرُّدِ مِنَ الأَنَانِيَّةِ. هٰذَا التَّيْسِيرُ هُوَ الأَزْكَى لِلنُّفُوسِ وَالأَطْهَرُ لِلْأَعْرَاضِ، لِأَنَّ عِلْمَ السَّمَاءِ يُدْرِكُ مَصَالِحَ العِبَادِ وَبَوَاطِنَ قُلُوبِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا تُدْرِكُهُ حِسَابَاتُ البَشَرِ الضَّيِّقَةِ. فَمَنْ أَعَانَ عَلَى الصُّلْحِ وَتَرَكَ التَّعَنُّتَ نَالَ زَكَاةَ القَلْبِ وَطَهَارَةَ البَيْتِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ مَنْ عَضَلَ وَعَانَدَ وِزْرَ الشِّقَاقِ وَقُصُورِ النَّظَرِ.

الصَّدَى

طَهَارَةُ التَّرَاضِي وَهَدْمُ العَضْلِ

صَدَى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

جِسْرٌ مِنَ المَوَدَّةِ يُعَادُ بِنَاؤُهُ فَوْقَ أَنْقَاضِ الخِلَافِ، وَأَبْوَابٌ تُفْتَحُ بِالرِّضَا لِتُعِيدَ لِلْقَلْبَيْنِ سَكِينَةَ اللِّقَاءِ بَعْدَ وَحْشَةِ الفِرَاقِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الكَرَامَةِ المَوْهُومَةِ الَّتِي تَقِفُ حَاجِزاً أَمَامَ صَلَاحِ البُيُوتِ بِدَعْوَى الغَضَبِ أَوِ الأَنَفَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ التَّسَامُحَ هُوَ قِمَّةُ النَّقَاءِ. وَكَمْ حَكَمْتُ قَدِيماً عَلَى مَآلَاتِ العَلَاقَاتِ بِعَيْنِ القُصُورِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ إِغْلَاقَ الأَبْوَابِ أَصْوَنُ لِلْهَيْبَةِ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ التَّرَاضِيَ بِالمَعْرُوفِ أَزْكَى وَأَطْهَرُ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَيْنِ الصَّافِيَيْنِ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ بَعْدَ افْتِرَاقٍ طَوِيلٍ بَيْنَ الصُّخُورِ، فَيَزْدَادُ مَاؤُهُمَا عُذُوبَةً وَتَدَفُّقاً وَيُحْيِيَانِ مَا حَوْلَهُمَا مِنَ الرِّيَاضِ. فَمَا أَعْظَمَ مَوْعِظَةَ اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ حِينَ تَرْفَعُ عَنِ القُلُوبِ قُيُودَ العَضْلِ وَتَكِلُ العَوَاقِبَ إِلَى عِلْمِهِ المحِيطِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِإِصْلَاحِ ذَاتِ البَيْنِ مِنْ تَعَصُّبٍ لِلْكِبْرِيَاءِ إِلَى تَيْسِيرٍ رَحِيمٍ يَبْتَغِي الطَّهَارَةَ وَالوِئَامَ. فَكُلُّ عِنَادٍ يَمْنَعُ التَّرَاضِيَ مَآلُهُ الوَحْشَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصُلْحٍ يُبَارِكُهُ اللهُ بِعِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 233 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حِمَايَةُ حَقِّ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ فِي الغِذَاءِ وَالحَنَانِ وَضَبْطُ الحُقُوقِ المَالِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ بَيْنَ الوَالِدَيْنِ عِنْدَ الِانْفِصَالِ يُقِيمَانِ صَرْحَ العَدَالَةِ الأُسَرِيَّةِ عَلَى التَّشَاوُرِ وَرَفْعِ الحَرَجِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْسُمُ مِيثَاقاً مُتَكَامِلاً يَضْمَنُ لِلْوَلِيدِ رَضَاعَتَهُ الكَامِلَةَ، وَيُوجِبُ عَلَى الأَبِ نَفَقَةَ الأُمِّ وَكِسْوَتَهَا بِالمَعْرُوفِ دُونَ

تَكْلِيفٍ فَوْقَ الوُسْعِ، مَعَ تَحْرِيمِ اتِّخَاذِ الطِّفْلِ وَسِيلَةً لِلْمُضَارَّةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ. هٰذِهِ المُرُونَةُ الحَكِيمَةُ تُحَرِّرُ الأُسْرَةَ مِنَ الجُمُودِ، فَتُبِيحُ الفِطَامَ المُبَكِّرَ أَوِ الِاسْتِرْضَاعَ مَتى تَمَّ بِالتَّرَاضِي وَالتَّشَاوُرِ وَأَدَاءِ الحُقُوقِ تَحْتَ رَقَابَةِ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ. فَمَنْ رَعَى حَقَّ الطُّفُولَةِ وَالتَزَمَ التَّشَاوُرَ وَالإِنْصَافَ نَالَ بَرَكَةَ الذُّرِّيَّةِ وَرِضَا الخَالِقِ، بَيْنَمَا يَبُوءُ مَنْ أَضَرَّ بِشَرِيكِهِ أَوْ ضَيَّعَ وَلَدَهُ بِسَخَطِ البَصِيرِ الخَبِيرِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ الرَّضَاعَةِ وَرَحْمَةُ التَّشَاوُرِ

صَدَى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

مَهْدٌ صَغِيرٌ يَحْتَضِنُ بَرَاءَةَ الحَيَاةِ، وَسِيَاجٌ مِنَ العَدْلِ وَالحَنَانِ يَحْرُسُهُ مِنْ عَوَاصِفِ الخِلَافِ بَيْنَ الكِبَارِ كَيْ لَا يَذْبُلَ الغُصْنُ الطَّرِيُّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ تَصْفِيَةِ الحِسَابَاتِ عَلَى حِسَابِ الضُّعَفَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الأُبُوَّةَ وَالأُمُومَةَ أَمَانَةٌ تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الأَنَانِيَّةِ وَالخُصُومَةِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً قُلُوباً تَقْسُو عِنْدَ النِّزَاعِ فَتَجْعَلُ الصِّغَارَ سَاحَةً لِلْإِيذَاءِ، غَافِلَةً عَنْ أَنَّ السَّمَاءَ تَزِنُ كُلَّ تَصَرُّفٍ بِمِيزَانِ الوُسْعِ وَالمَعْرُوفِ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الحَانِيَةَ كَيْفَ تَمُدُّ ثِمَارَهَا بِالعُصَارَةِ الحَيَّةِ حَتَّى تَكْتَمِلَ، بَيْنَمَا تَحْمِيهَا الجُذُورُ الرَّاسِخَةُ فِي تُرَابِ الأَرْضِ بِصَمْتٍ وَوَفَاءٍ دُونَ مَنٍّ أَوْ أَذًى. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يُقِيمُ حُقُوقَ الرَّضِيعِ عَلَى التَّرَاضِي وَالتَّشَاوُرِ وَيُذَكِّرُ الوَالِدَيْنِ بِأَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَسْؤُولِيَّتِي تِجَاهَ الأُسْرَةِ مِنْ تَنَازُعٍ عَلَى الحُقُوقِ إِلَى تَكَامُلٍ رَحِيمٍ يَصُونُ النَّشْءَ وَيَرْفَعُ الحَرَجَ. فَكُلُّ مُضَارَّةٍ تَسْتَغِلُّ بَرَاءَةَ الأَبْنَاءِ مَآلُهَا الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَعْرُوفٍ يَرْعَاهُ اللهُ بِبَصَرِهِ وَرَحْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 234 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوَازُنُ الحَكِيمُ بَيْنَ الوَفَاءِ لِعَهْدِ الزَّوْجِيَّةِ وَحُرِّيَّةِ اسْتِئْنَافِ الحَيَاةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ العِدَّةِ يُكَرِّمُ المَرْأَةَ وَيَصُونُ كَرَامَتَهَا مِنَ الأَعْرَافِ الجَائِرَةِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تُحَدِّدُ أَمَدَ الحِدَادِ وَالتَّرَبُّصِ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ وَفَاءً لِلزَّوْجِ الرَّاحِلِ وَاسْتِبْرَاءً لِلرَّحِمِ، ثُمَّ تَرْفَعُ الحَرَجَ وَالوِصَايَةَ عَنِ الأَرْمَلَةِ فَوْرَ بُلُوغِ الأَجَلِ لِتَتَزَيَّنَ وَتَخْتَارَ شَرِيكَ حَيَاتِهَا بِالمَعْرُوفِ. هٰذَا التَّشْرِيعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ المُجْتَمَعِيَّ مِنْ وَهْمِ تَأْبِيدِ الحُزْنِ عَلَى المَرْأَةِ أَوِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهَا بَعْدَ العِدَّةِ، وَيَرْبِطُ سُلُوكَ الجَمِيعِ بِمُرَاقَبَةِ الخَبِيرِ بِخَفَايَا القُلُوبِ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ العِدَّةِ بِوَقَارٍ ثُمَّ يَسَّرَ لِلْأَرْمَلَةِ حَقَّهَا فِي الحَيَاةِ نَالَ رِضَا السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَظْلِمُ مَنْ قَيَّدَهَا بِعَادَاتٍ بَالِيَةٍ لَمْ يُنْزِلْ بِهَا الخَالِقُ سُلْطَاناً.

الصَّدَى

وَقَارُ العِدَّةِ وَفَجْرُ الحَيَاةِ الجَدِيدَةِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

فَتْرَةٌ مِنَ السُّكُونِ الوَقُورِ تَحْفَظُ ذِكْرَى العِشْرَةِ الرَّاحِلَةِ، ثُمَّ تَنْفَتِحُ نَوَافِذُ الأَمَلِ لِتَسْتَقْبِلَ الرُّوحُ نَسَمَاتِ الحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ بِعِزَّةٍ وَمَعْرُوفٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ التَّقَالِيدِ القَاسِيَةِ الَّتِي تَدْفِنُ الأَرْمَلَةَ فِي سِجْنِ الحِدَادِ الأَبَدِيِّ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّمَاءَ تَصُونُ لِلْإِنْسَانِ حَقَّهُ فِي الفَرَحِ المَشْرُوعِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ. وَكَمْ أَسَرَتْنِي قَدِيماً نَظَرَاتُ النَّاسِ وَأَحْكَامُهُمُ الجَامِدَةُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي بَصِيرَتِي سَعَةُ التَّشْرِيعِ الَّذِي يَرْفَعُ الجُنَاحَ وَيُكَرِّمُ اخْتِيَارَ المَرْأَةِ! أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ بَعْدَ شِتَاءٍ طَوِيلٍ كَيْفَ تَخْلَعُ ثَوْبَ السُّكُونِ وَالصَّمْتِ حِينَ يَحِلُّ الرَّبِيعُ، فَتَتَزَيَّنُ بِالأَزْهَارِ فِي طُهْرٍ وَنَقَاءٍ دُونَ حَرَجٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُقَدِّرُ أَيَّامَ التَّرَبُّصِ بِحِكْمَةٍ ثُمَّ يُطْلِقُ سَرَاحَ القُلُوبِ نَحْوَ الحَيَاةِ بِالمَعْرُوفِ وَهُوَ خَبِيرٌ بِالسَّرَائِرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِأَحْكَامِ العِدَّةِ مِنْ قَيْدٍ يُثْقِلُ النَّفْسَ إِلَى مِيزَانٍ عَادِلٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الوَفَاءِ لِلْمَاضِي وَالِانْطِلَاقِ نَحْوَ المُسْتَقْبَلِ. فَكُلُّ عُرْفٍ يُضَيِّقُ مَا وَسَّعَهُ الشَّرْعُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِكْمَةِ اللهِ الخَبِيرِ بِعِبَادِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 235 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مُرَاعَاةُ النَّزْعَةِ الفِطْرِيَّةِ فِي القُلُوبِ مَعَ صِيَانَةِ حُرْمَةِ العِدَّةِ مِنَ التَّعْجِيلِ وَالخَلْوَةِ السِّرِّيَّةِ يُبْرِزَانِ وَاقِعِيَّةَ الشَّرِيعَةِ وَسُمُوَّهَا الأَخْلَاقِيَّ. الخَالِقُ الَّذِي يَعْلَمُ مَا يَجُولُ فِي النُّفُوسِ يَرْفَعُ الحَرَجَ عَنِ التَّلْمِيحِ العَفِيفِ وَالكِتْمَانِ القَلْبِيِّ أَثْنَاءَ عِدَّةِ الوَفَاةِ، لٰكِنَّهُ يَسُدُّ ذَرَائِعَ الفِتْنَةِ بِتَحْرِيمِ المُوَاعَدَةِ السِّرِّيَّةِ أَوْ إِبْرَامِ العَقْدِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الأَجَلِ المَكْتُوبِ. هٰذَا الضَّبْطُ الدَّقِيقُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الوَسْوَسَةِ بِشَأْنِ خَوَاطِرِ النَّفْسِ، وَيُرَبِّي الضَّمِيرَ عَلَى الخَشْيَةِ مِنَ العَلِيمِ بِالسَّرَائِرِ مَعَ الطَّمَعِ فِي مَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ. فَمَنْ لَزِمَ القَوْلَ المَعْرُوفَ وَانْتَظَرَ تَمَامَ الأَجَلِ بِوَرَعٍ نَالَ طَهَارَةَ القَلْبِ وَبَرَكَةَ العَقْدِ، بَيْنَمَا يَقَعُ مَنِ اسْتَعْجَلَ فِي الخَفَاءِ تَحْتَ طَائِلَةِ المُسَاءَلَةِ الإِلٰهِيَّةِ.

الصَّدَى

عِفَّةُ التَّلْمِيحِ وَوَقَارُ الِانْتِظَارِ

صَدَى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ بُرْعُمُ أَمَلٍ يَتَحَرَّكُ فِي صَمْتِ القَلْبِ بِعِفَّةٍ وَحَيَاءٍ، فَيَتَلَطَّفُ فِي الإِشَارَةِ دُونَ أَنْ يَخْدِشَ وَقَارَ العِدَّةِ أَوْ يَتَسَلَّلَ فِي ظُلْمَةِ السِّرِّ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ المُؤَاخَذَةِ عَلَى خَوَاطِرِ الفِطْرَةِ النَّقِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تَتَفَهَّمُ نَبْضَ القُلُوبِ وَتَضَعُ لَهُ مَسَاراً آمِناً يَصُونُهُ مِنَ الزَّلَلِ. وَكَمْ تَعَجَّلْتُ قَدِيماً فِي قَطْفِ الثِّمَارِ قَبْلَ أَوَانِ نُضْجِهَا، فَخَسِرْتُ حَلَاوَةَ الصَّبْرِ وَبَرَكَةَ التَّأَنِّي حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ تَحْتَ الثَّرَى كَيْفَ تَتَهَيَّأُ فِي سُكُونٍ وَطُمَأْنِينَةٍ طِيلَةَ أَيَّامِ الشِّتَاءِ، فَلَا تَشُقُّ التُّرَابَ إِلَّا

حِينَ يَأْذَنُ لَهَا الرَّبِيعُ بِالظُّهُورِ فِي النُّورِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الَّذِي يَعْلَمُ خَفَايَا النُّفُوسِ فَيُحَذِّرُهَا مِنْ خِيَانَةِ السِّرِّ ثُمَّ يَغْمُرُهَا بِمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ الوَاسِعِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رَغَبَاتِي مِنْ اندِفَاعٍ يَبْحَثُ عَنِ الخَفَاءِ إِلَى انْضِبَاطٍ وَقُورٍ يَلْتَزِمُ القَوْلَ المَعْرُوفَ وَيَحْتَرِمُ مَوَاقِيتَ الشَّرْعِ. فَكُلُّ عَقْدٍ يُبْرَمُ فِي عَجَلَةٍ قَبْلَ أَوَانِهِ مَآلُهُ الِاضْطِرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطُهْرٍ يَرْعَاهُ اللهُ بِعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 236 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَبْرُ الخَوَاطِرِ عِنْدَ الفِرَاقِ قَبْلَ الدُّخُولِ وَمُرَاعَاةُ التَّفَاوُتِ المَالِيِّ بَيْنَ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ يُخَوِّلَانِ انْفِصَالَ العَقْدِ إِلَى مَشْهَدٍ مِنَ السَّمَاحَةِ وَالإِحْسَانِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْفَعُ الإِثْمَ عَنْ تَطْلِيقِ المَرْأَةِ قَبْلَ المَسِيسِ وَتَحْدِيدِ المَهْرِ إِذَا تَعَذَّرَ الوِفَاقُ، لٰكِنَّهَا تُعَوِّضُ انْكِسَارَ قَلْبِهَا بِعَطِيَّةٍ مَالِيَّةٍ مُنَاسِبَةٍ تُسَمَّى «المُتْعَةَ»، يَبْذُلُهَا الموسِعُ عَلَى قَدْرِ سَعَتِهِ وَالمُقْتِرُ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ. هٰذَا المِيزَانُ العَادِلُ يُحَرِّرُ المُعْسِرَ مِنَ الحَرَجِ وَيَحُثُّ الموسِرَ عَلَى السَّخَاءِ، جَاعِلاً هٰذَا العَطَاءَ حَقّاً لَازِماً عَلَى أَهْلِ الإِحْسَانِ وَالمُرُوءَةِ. فَمَنْ جَبَرَ خَاطِرَ المُفَارِقَةِ بِمَتَاعٍ طَيِّبٍ دَخَلَ فِي زُمْرَةِ المُحْسِنِينَ، بَيْنَمَا يَكْشِفُ البَخِيلُ المُتَعَنِّتُ عَنْ لُؤْمِ طَبْعِهِ وَقَسْوَةِ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

جَبْرُ الخَوَاطِرِ وَسَمَاحَةُ المحْسِنِينَ

صَدَى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

هَدِيَّةٌ كَرِيمَةٌ تَمْسَحُ دَمْعَةَ الفِرَاقِ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الرِّحْلَةُ، فَتُبْدِلُ وَحْشَةَ القَطِيعَةِ بِدِفْءِ المُرُوءَةِ وَسَمَاحَةِ العَطَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الاقْتِصَارِ عَلَى الحُقُوقِ الجَافَّةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ جَبْرَ الخَوَاطِرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الإِحْسَانَ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ العَلَاقَاتِ الإِنْسَانِيَّةَ فَوْقَ مَادِّيَّةِ العُقُودِ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ

انْتِهَاءَ الِارْتِبَاطِ يَعْنِي انْقِطَاعَ الفَضْلِ وَالبَذْلِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ الوَحْيُ مِنَ المَتَاعِ بِالمَعْرُوفِ عُنْوَاناً لِلنُّبْلِ وَالكَرَمِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ العَابِرَةَ الَّتِي لَمْ تَمْكُثْ طَوِيلاً فَوْقَ الوَادِي، كَيْفَ تَجُودُ بِرَذَاذٍ لَطِيفٍ يَتْرُكُ فِي الأَرْضِ نَدًى وَعِطْراً قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ فِي سَبِيلِهَا. فَمَا أَعْظَمَ شَرْعَ اللهِ الَّذِي يُقَدِّرُ عَطَاءَ المُوسِعِ وَالمُقْتِرِ بِعَدْلٍ وَيَجْعَلُ جَبْرَ القُلُوبِ حَقّاً وَاجِباً عَلَى المُحْسِنِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي عِنْدَ الفِرَاقِ مِنْ إِمْسَاكٍ شَحِيحٍ إِلَى بَذْلٍ كَرِيمٍ يَحْفَظُ الوُدَّ وَيُكْرِمُ الإِنْسَانَ. فَكُلُّ فِرَاقٍ يَخْلُو مِنَ الإِحْسَانِ مَآلُهُ الجَفَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَعْرُوفٍ يَكْتُبُهُ اللهُ فِي سِجِلِّ المُحْسِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 237 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّنَاصُفُ العَادِلُ عِنْدَ الحُكْمِ وَالتَّسَامُحُ الفَاضِلُ عِنْدَ البَذْلِ يُرْسِيَانِ مَبْدَأً أَخْلَاقِيّاً رَفِيعاً يَصُونُ المُجْتَمَعَ مِنْ جَفَافِ الخُصُومَاتِ المَادِّيَّةِ. إِذَا وَقَعَ الطَّلَاقُ قَبْلَ الدُّخُولِ بَعْدَ تَسْمِيَةِ المَهْرِ، فَإِنَّ مِيزَانَ العَدْلِ يَقْضِي بِتَنْصِيفِ الصَّدَاقِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ جَبْراً لِلْكَلِمَةِ وَالعَقْدِ، ثُمَّ يَفْتَحُ القُرْآنُ بَابَ الفَضْلِ وَالتَّنَازُلِ الكَرِيمِ مِنْ أَيِّ مِنَ الجَانِبَيْنِ. الِارْتِقَاءُ مِنَ العَدْلِ إِلَى الفَضْلِ وَالعَفْوِ هُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ إِلَى التَّقْوَى، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى جُذُورِ المَوَدَّةِ وَالِاحْتِرَامِ حَتَّى بَعْدَ انْفِصَامِ العَلَاقَةِ، تَحْتَ نَظَرِ البَصِيرِ الَّذِي يُثِيبُ كُلَّ مُتَسَامِحٍ كَرِيمٍ. فَمَنْ عَفَا وَتَذَكَّرَ الفَضْلَ نَالَ مَقَامَ التَّقْوَى وَسَعَةَ الرِّزْقِ، بَيْنَمَا يَضِيقُ عَيْشُ مَنْ تَشَبَّثَ بِالحُقُوقِ وَنَسِيَ الإِحْسَانَ.

الصَّدَى

تَنَاصُفُ العَدْلِ وَسَمَاءُ الفَضْلِ

صَدَى ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ

اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

مِيزَانٌ يَقْسِمُ الحَقَّ بِالنِّصْفِ عَدْلاً، وَسَمَاءٌ رَحْبَةٌ تَدْعُو القُلُوبَ إِلَى العَفْوِ وَالإِيثَارِ لِتَسْمُوَ فَوْقَ حِسَابَاتِ الدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ كَمَالَ القُوَّةِ فِي اسْتِيفَاءِ كُلِّ حَقٍّ دُونَ تَنَازُلٍ، وَأُدْرِكُ أَنَّ التَّسَامُحَ عِنْدَ الفِرَاقِ هُوَ أَقْرَبُ المَنَازِلِ إِلَى التَّقْوَى. وَكَمْ جَفَّتْ مَشَاعِرِي قَدِيماً عِنْدَ المُنَازَعَاتِ المَالِيَّةِ فَنَسِيتُ أَيَّامَ الوُدِّ وَالمَعْرُوفِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا النِّدَاءُ النُّورَانِيُّ بِحِفْظِ الفَضْلِ بَيْنَ النَّاسِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَيْنِ كَيْفَ يَتَقَاسَمَانِ المَاءَ بِالتَّسَاوِي ثُمَّ يَفِيضُ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ بِالكَرَمِ وَالسَّخَاءِ فَتَخْضَرُّ الضِّفَافُ كُلُّهَا بِالحَيَاةِ. فَمَا أَعْظَمَ وَصِيَّةَ اللهِ الَّتِي تَجْعَلُ العَفْوَ أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَتُذَكِّرُ النُّفُوسَ بِأَنَّهُ بَصِيرٌ بِكُلِّ لَفْتَةِ كَرَمٍ وَتَسَامُحٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْعَلَاقَاتِ مِنْ مُحَاسَبَةٍ صَارِمَةٍ تَقِفُ عِنْدَ العَدْلِ إِلَى رُوحٍ سَمْحَةٍ تَحْفَظُ الفَضْلَ وَتُبَادِرُ بِالعَفْوِ. فَكُلُّ عَدْلٍ يَخْلُو مِنَ الفَضْلِ قَدْ يَشُوبُهُ الجَفَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ الَّتِي تَزْهُو بِالعَفْوِ وَالإِحْسَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 238 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

المُدَاوَمَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَإِقَامَتُهَا بِخُشُوعٍ وَقُنُوتٍ فِي قَلْبِ مَعْمَعَةِ الحَيَاةِ وَأَحْكَامِ الأُسْرَةِ تَمْنَحُ الرُّوحَ السَّكِينَةَ وَالتَّوَازُنَ. مَجِيءُ الأَمْرِ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ فِي وَسَطِ آيَاتِ الطَّلَاقِ وَالنَّفَقَةِ وَالعِدَّةِ يَكْشِفُ عَنْ حِكْمَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ عَمِيقَةٍ؛ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَلْتَزِمَ العَدْلَ وَالمَعْرُوفَ وَالعَفْوَ فِي عَلَاقَاتِهِ إِلَّا إِذَا اتَّصَلَ قَلْبُهُ بِخَالِقِهِ عَبْرَ الصَّلَاةِ الخَاشِعَةِ. التَّأْكِيدُ عَلَى الصَّلَاةِ الوُسْطَى وَالقُنُوتِ الدَّاخِلِيِّ يُحَرِّرُ العِبَادَةَ مِنَ الحَرَكَاتِ الآلِيَّةِ الخَالِيَةِ مِنَ الحُضُورِ، لِيَجْعَلَهَا مَصْدَرَ طَاقَةٍ تُهَذِّبُ السُّلُوكَ. فَمَنْ حَافَظَ عَلَى صَلَاتِهِ قَانِتاً خَاشِعاً اسْتَقَامَتْ لَهُ شُؤُونُ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، بَيْنَمَا يَضْطَرِبُ مَنْ أَضَاعَ صِلَتَهُ بِالسَّمَاءِ فِي مُعْتَرَكِ الحَيَاةِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ القُنُوتِ فِي قَلْبِ الزِّحَامِ

صَدَى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

خَمْسُ مَنَارَاتٍ نُورَانِيَّةٍ تَتَوَزَّعُ عَلَى مَدَارِ اليَوْمِ لِتَغْسِلَ أَدْرَانَ التَّعَبِ، وَتَتَوَسَّطُهَا جَوْهَرَةُ الصَّلَاةِ الوُسْطَى لِتُعِيدَ لِلْقَلْبِ نَبْضَهُ وَسَكِينَتَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ خُشُوعِ المِحْرَابِ وَعَدَالَةِ المُعَامَلَةِ مَعَ الخَلْقِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الصَّلَاةَ هِيَ الوَقُودُ الخَفِيُّ لِكُلِّ مَعْرُوفٍ وَتَسَامُحٍ. وَكَمْ جَرَفَنِي قَدِيماً ضَجِيجُ الأَعْمَالِ وَالخِلَافَاتِ عَنْ حُضُورِ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ، فَأَدَّيْتُ الحَرَكَاتِ بِجَسَدٍ حَاضِرٍ وَرُوحٍ تَائِهَةٍ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَتَعَرَّضُ لِلرِّيَاحِ وَالغُبَارِ طُولَ النَّهَارِ، كَيْفَ تَنْتَعِشُ أَوْرَاقُهَا حِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا النَّدَى فِي أَوْقَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ فَيُعِيدُ إِلَيْهَا نَضَارَتَهَا وَخُضْرَتَهَا. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ اللهِ لِعِبَادِهِ كَيْ يُحَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَيَقُومُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَانِتِينَ خَاشِعِينَ فِي صَمْتٍ وَوَقَارٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَلَاتِي مِنْ عَادَةٍ يَوْمِيَّةٍ تُؤَدَّى عَلَى عَجَلٍ إِلَى وَاحَةِ سَلَامٍ تَضْبِطُ إِيقَاعَ حَيَاتِي وَتُهَذِّبُ مَشَاعِرِي. فَكُلُّ سَعْيٍ يَنْقَطِعُ عَنْ مِحْرَابِ الصَّلَاةِ مَآلُهُ الجَفَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقُنُوتٍ صَادِقٍ يَصِلُ القَلْبَ بِاللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 239 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَرُونَةُ الشَّرِيعَةِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالخَوْفِ وَشُكْرُ نِعْمَةِ الأَمْنِ وَالمَعْرِفَةِ عِنْدَ الرَّخَاءِ يُبْرِزَانِ يُسْرَ الإِسْلَامِ وَعَدَمَ سُقُوطِ الصَّلَاةِ فِي أَيِّ حَالٍ. الفِقْهُ الرَّشِيدُ يَرْفَعُ الحَرَجَ عَنِ الخَائِفِ فِي سَاحَاتِ القِتَالِ أَوْ طُرُقِ السَّفَرِ المُخِيفَةِ، فَيُبِيحُ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ مَاشِياً عَلَى قَدَمَيْهِ أَوْ رَاكِباً عَلَى دَابَّتِهِ كَيْفَمَا تَيَسَّرَ لَهُ، حَتَّى لَا تَنْقَطِعَ صِلَتُهُ بِرَبِّهِ فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ. فَإِذَا زَالَ الخَوْفُ وَعَادَ الأَمَانُ وَجَبَ إِتْمَامُ الصَّلَاةِ بِهَيْئَتِهَا الكَامِلَةِ شُكْراً لِلْخَالِقِ الَّذِي عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ. فَمَنْ حَافَظَ عَلَى ذِكْرِ رَبِّهِ فِي الخَوْفِ وَالأَمْنِ نَالَ سَكِينَةَ القَلْبِ وَنُورَ العِلْمِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَوْ غَفَلَ عَنِ الشُّكْرِ عِنْدَ النِّعْمَةِ.

الصَّدَى

صَلَاةُ الخَوْفِ وَشُكْرُ الأَمَانِ

صَدَى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ لَا يَنْقَطِعُ حَتَّى فِي قَلْبِ العَاصِفَةِ، فَيُصَلِّي السَّائِرُ عَلَى قَدَمَيْهِ أَوْ فَوْقَ رَاحِلَتِهِ وَقَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِمَوْلَاهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ تَعْطِيلِ العِبَادَةِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الأَحْوَالِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ يُسْرَ التَّشْرِيعِ يَتَّسِعُ لِيَحْتَضِنَ الرُّوحَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ القُرْبَ يَحْتَاجُ دَائِماً إِلَى هُدُوءٍ تَامٍّ وَطُقُوسٍ كَامِلَةٍ، فَضَيَّعْتُ لَحَظَاتِ المَنَاجَاةِ عِنْدَ تَوَالِي المَخَاوِفِ وَالأَسْفَارِ! أَتَأَمَّلُ البُوصَلَةَ الدَّقِيقَةَ كَيْفَ تَحْتَفِظُ بِاتِّجَاهِهَا نَحْوَ الشَّمَالِ رَغْمَ تَلَاطُمِ الأَمْوَاجِ وَاهْتِزَازِ السَّفِينَةِ فِي عُرْضِ البَحْرِ، ثُمَّ تَسْتَقِرُّ فِي سُكُونٍ حِينَ تَبْلُغُ المِينَاءَ الآمِنَ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُيَسِّرُ الصَّلَاةَ فِي سَاعَةِ الخَوْفِ ثُمَّ يَدْعُو القُلُوبَ عِنْدَ الأَمَانِ إِلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا عَلَّمَهَا مِنَ الهُدَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صِلَتِي بِالخَالِقِ مِنْ عِبَادَةٍ تَتَوَقَّفُ عِنْدَ العَوَارِضِ إِلَى نَبْضٍ دَائِمٍ يُرَافِقُنِي فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ. فَكُلُّ أَمْنٍ يَخْلُو مِنْ ذِكْرِ المُنْعِمِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَذِكْرِهِ الَّذِي يَحْرُسُ الأَرْوَاحَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 240 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَأْمِينُ المَأْوَى وَالنَّفَقَةِ لِلزَّوْجَةِ بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِهَا مَعَ تَرْكِ الخِيَارِ لَهَا فِي البَقَاءِ أَوِ الِانْتِقَالِ يُجَسِّدُ قِمَّةَ الوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ التَّشْرِيعِيَّةِ. التَّدَرُّجُ القُرْآنِيُّ فِي تَرْسِيخِ حُقُوقِ الأَرْمَلَةِ كَفَلَ لَهَا السُّكْنَى وَالمَتَاعَ لِمُدَّةِ عَامٍ كَامِلٍ دُونَ إِخْرَاجٍ قَسْرِيٍّ مِنَ الوَرَثَةِ، مَعَ مَنْحِهَا الحُرِّيَّةَ الكَامِلَةَ إِذَا اخْتَارَتِ الخُرُوجَ وَاسْتِئْنَافَ حَيَاتِهَا بِالمَعْرُوفِ. هٰذَا الحُكْمُ المُحْكَمُ يُحَرِّرُ المَرْأَةَ مِنْ شَبَحِ التَّشَرُّدِ وَالضَّيَاعِ بَعْدَ فَقْدِ السَّنَدِ، وَيُذَكِّرُ الوَرَثَةَ بِعِزَّةِ الخَالِقِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي تَحْمِي حُقُوقَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الجَشَعِ وَالأَنَانِيَّةِ. فَمَنْ أَنْفَذَ الوَصِيَّةَ

وَصَانَ حُرْمَةَ البَيْتِ نَالَ رِضَا العَزِيزِ الحَكِيمِ، بَيْنَمَا يَبُوءُ مَنْ أَخْرَجَ الأَرْمَلَةَ وَأَكَلَ حَقَّهَا بِالخِزْيِ وَالمسَاءَلَةِ.

الصَّدَى

سَقْفُ الأَمَانِ وَحُرِّيَّةُ الِاخْتِيَارِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

سَقْفٌ دَافِئٌ يَظَلُّ مَمْدُوداً فَوْقَ رَأْسِ الأَرْمَلَةِ بَعْدَ رَحِيلِ رَفِيقِ الدَّرْبِ، فَيَحْمِيهَا مِنْ بَرْدِ الوَحْشَةِ وَقَسْوَةِ التَّشَرُّدِ طِيلَةَ عَامٍ كَامِلٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ تَقَاسُمِ التَّرِكَاتِ بِجَفَاءٍ يَنْسَى العِشْرَةَ وَالضَّعْفَ الإِنْسَانِيَّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الوَفَاءَ الحَقِيقِيَّ يَمْتَدُّ لِيَحْرُسَ مَنْ تَرَكْنَاهُمْ خَلْفَنَا. وَكَمْ قَسَتِ القُلُوبُ قَدِيماً عِنْدَ انْقِطَاعِ المِصَالِحِ فَأَغْلَقَتِ الأَبْوَابَ فِي وَجْهِ المَكْلُومِينَ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا التَّشْرِيعُ الرَّحِيمُ لِيَجْعَلَ البَقَاءَ حَقّاً وَالخُرُوجَ حُرِّيَّةً! أَتَأَمَّلُ العُشَّ الدَّافِئَ فَوْقَ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ كَيْفَ يَظَلُّ مَأْوًى آمِناً يَحْمِي الطَّيْرَ مِنْ عَوَاصِفِ الفُصُولِ حَتَّى يَقْوَى جَنَاحُهُ وَيَخْتَارَ التَّحْلِيقَ فِي الأُفُقِ الوَاسِعِ بِحُرِّيَّةٍ وَسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ عِزَّةَ اللهِ وَحِكْمَتَهُ حِينَ يَضَعُ سِيَاجاً قَانُونِيّاً وَأَخْلَاقِيّاً يَصُونُ كَرَامَةَ المَرْأَةِ بَعْدَ الوَفَاةِ وَيَرْفَعُ عَنْهَا كُلَّ حَرَجٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْحُقُوقِ الأُسَرِيَّةِ مِنْ حِسَابَاتٍ مَادِّيَّةٍ ضَيِّقَةٍ إِلَى مِيثَاقِ وَفَاءٍ يَجْبُرُ الكَسْرَ وَيَحْتَرِمُ إِرَادَةَ الإِنْسَانِ. فَكُلُّ جَشَعٍ يَهْدِمُ سَقْفَ الأَمَانِ عَنِ الضُّعَفَاءِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِشَرْعِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢٤١-٢٥٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 241 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

إِكْرَامُ المَرْأَةِ المطَلَّقَةِ بِمَتَاعٍ عَادِلٍ يَجْبُرُ كَسْرَ نَفْسِهَا وَيُخَفِّفُ أَلَمَ الفِرَاقِ يُبْرِزُ سُمُوَّ الشَّرِيعَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الإِحْسَانَ حَقّاً ثَابِتاً لَا مِنَّةً عَابِرَةً. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يَرْبِطُ أَدَاءَ هٰذَا الحَقِّ بِوِجْدَانِ التَّقْوَى الدَّاخِلِيِّ،

لِيُحَرِّرَ العَلَاقَاتِ الإِنْسَانِيَّةَ مِنَ الشُّحِّ وَاللِّدَدِ الَّذِي يَعْقُبُ انْتِهَاءَ الزَّوْجِيَّةِ، فَيُغَادِرُ كُلُّ طَرَفٍ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ وَذِكْرَى طَيِّبَةٍ. فَمَنْ أَخْرَجَ المَتَاعَ بِسَمَاحَةٍ وَرِضاً بَرْهَنَ عَلَى صِدْقِ تَقْوَاهُ وَمُرُوءَتِهِ، بَيْنَمَا يَكْشِفُ المماطِلُ البَخِيلُ عَنْ ضَعْفِ وَرَعِهِ وَقَسْوَةِ طَبْعِهِ.

الصَّدَى

نَدَى المَعْرُوفِ عِنْدَ الرَّحِيلِ

صَدَى ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾

قَطَرَاتٌ مِنَ النَّدَى تَنْزِلُ عَلَى أَرْضٍ جَفَّتْ فِيهَا المَوَدَّةُ، فَتُلَطِّفُ حَرَارَةَ الفِرَاقِ وَتَحْفَظُ لِلْقَلْبِ المَكْلُومِ كَرَامَتَهُ وَعِزَّتَهُ. في أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ انْقِطَاعَ العَقْدِ يُسْقِطُ وَاجِبَ المُرُوءَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّقْوَى تَتَجَلَّى في أَصْدَقِ صُوَرِهَا حِينَ تَغِيبُ المَصْلَحَةُ وَتَبْقَى المَرَاقَبَةُ. وَكَمْ جَفَّتْ يَدِي قَدِيماً عِنْدَ نِهَايَةِ الدُّرُوبِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّ العَطَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا في زَمَنِ الوِصَالِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا النِّدَاءُ بِأَنَّ المَتَاعَ حَقٌّ عَلَى المُتَّقِينَ! أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ عِنْدَ الغُرُوبِ كَيْفَ تَنْسَحِبُ مِنْ كَبِدِ السَّمَاءِ بِهُدُوءٍ، تَارِكَةً خَلْفَهَا شَفَقاً ذَهَبِيّاً يُجَمِّلُ الأُفُقَ وَلَا يَتْرُكُ ظُلْمَةً مُفَاجِئَةً. فَمَا أَعْظَمَ شَرْعَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ جَبْرَ الخَوَاطِرِ بِالمَعْرُوفِ عُنْوَاناً لِلتَّقْوَى وَمِيزَاناً لِصِدْقِ الإِيمَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحْظَةُ الوَدَاعِ في حَيَاتِي مِنْ قَطِيعَةٍ مُوحِشَةٍ إِلَى مَوْقِفٍ نَبِيلٍ يَشْهَدُ بِسُمُوِّ الخُلُقِ وَنَقَاءِ الضَّمِيرِ. فَكُلُّ فِرَاقٍ يَخْلُو مِنَ المَعْرُوفِ مَآلُهُ النَّدَمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ الَّتِي تَصُونُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 242 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

وُضُوحُ التَّشْرِيعِ الإِلٰهِيِّ وَتَعْلِيلُ أَحْكَامِهِ بِمَقَاصِدِهَا العَادِلَةِ يُوقِظَانِ مَلَكَةَ العَقْلِ لِيُدْرِكَ حِكْمَةَ السَّمَاءِ في تَنْظِيمِ الحَيَاةِ. البَيَانُ القُرْآنِيُّ لَا يَطْلُبُ مِنَ الإِنْسَانِ تَعْطِيلَ فِكْرِهِ، بَلْ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الحَقَائِقَ وَالمَوَازِينَ لِيَتَعَقَّلَ أَسْرَارَهَا في حِفْظِ الأُسْرَةِ وَصِيَانَةِ الحُقُوقِ وَإِقَامَةِ القِسْطِ. هٰذَا الخِطَابُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الجُمُودِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى، لِيَرَى في كُلِّ حُكْمٍ رَبَّانِيٍّ نُوراً يَهْدِي البَشَرِيَّةَ إِلَى

صَلَاحِهَا. فَمَنْ أَعْمَلَ عَقْلَهُ فِي تَدَبُّرِ الآيَاتِ اهْتَدَى إِلَى جَوْهَرِ الحِكْمَةِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الغَافِلُ مَحْجُوباً عَنْ أَنْوَارِ البَيَانِ رَغْمَ سُطُوعِهَا.

الصَّدَى

نُورُ البَيَانِ وَيَقَظَةُ العَقْلِ

صَدَى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

مَصَابِيحُ مُضِيئَةٌ تُنِيرُ دُرُوبَ الحَيَاةِ بِوُضُوحٍ لَا يَعْرِفُ اللُّبْسَ، لِتَسْتَيْقِظَ العُقُولُ مِنْ سُبَاتِ الغَفْلَةِ وَتُبْصِرَ حِكْمَةَ التَّدْبِيرِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخُصُومَةِ بَيْنَ نُصُوصِ الوَحْيِ وَبَصِيرَةِ العَقْلِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ هِيَ دَعْوَةٌ صَادِقَةٌ لِلْفَهْمِ وَالتَّعَقُّلِ. وَكَمْ مَرَرْتُ قَدِيماً عَلَى الحَقَائِقِ مُرُورَ العَابِرِ دُونَ أَنْ أَسْتَنْطِقَ حِكْمَتَهَا، فَضَاعَتْ مِنِّي لَذَّةُ اليَقِينِ وَطُمَأْنِينَةُ البُرْهَانِ! أَتَأَمَّلُ فَجْرَ الصَّبَاحِ كَيْفَ يَكْشِفُ تَفَاصِيلَ الأَرْضِ وَمَعَالِمَ الطَّرِيقِ لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ سَلِيمٍ، فَلَا يَتَعَثَّرُ إِلَّا مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عَنِ الضِّيَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ حِينَ يُفَصِّلُ لَنَا آيَاتِهِ بِهٰذَا الوُضُوحِ المُبْهِرِ لِيَرْتَقِيَ بِعُقُولِنَا إِلَى مَدَارِكِ الحِكْمَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْآيَاتِ مِنْ تِلَاوَةٍ عَابِرَةٍ إِلَى حِوَارٍ عَقْلِيٍّ حَيٍّ يَكْشِفُ أَسْرَارَ العَدْلِ وَالرَّحْمَةِ. فَكُلُّ جَهْلٍ يَصْنَعُهُ الإِعْرَاضُ مَآلُهُ التِّيهُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبَيَانِ اللهِ الَّذِي يُنِيرُ العُقُولَ المُتَدَبِّرَةَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 243 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَقِيقَةُ الأَجَلِ المَحْتُومِ وَبُطْلَانُ الفِرَارِ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ خَوْفاً مِنَ الفَنَاءِ تُحَرِّرَانِ الإِنْسَانَ مِنْ أَوْهَامِ الجُبْنِ وَالتَّقَاعُسِ. التَّارِيخُ القُرْآنِيُّ يَعْرِضُ مَشْهَدَ تِلْكَ الجُمُوعِ الغَفِيرَةِ الَّتِي هَجَرَتْ دِيَارَهَا هَرَباً مِنَ المَوْتِ، فَأَدْرَكَهَا القَدَرُ حَيْثُ فَرَّتْ، ثُمَّ أَعَادَ الخَالِقُ إِلَيْهَا الحَيَاةَ لِتُوقِنَ أَنَّ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ بِيَدِ مُدَبِّرِ الكَوْنِ لَا بِيَدِ الحَذَرِ البَشَرِيِّ. هٰذِهِ العِبْرَةُ تَشْفِي القُلُوبَ مِنَ الهَلَعِ الَّذِي يَشُلُّ الإِرَادَةَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَتَدْعُوهَا لِشُكْرِ فَضْلِ السَّمَاءِ الَّذِي يَمْنَحُ العِبَادَ فُرَصاً مُتَجَدِّدَةً لِلْوَعْيِ وَالِاسْتِقَامَةِ. فَمَنْ

أَيْقَنَ أَنَّ الأَجَلَ بِيَدِ رَبِّهِ وَشَكَرَ نِعْمَةَ الحَيَاةِ عَاشَ شُجَاعاً عَزِيزاً، بَيْنَمَا يَبْقَى الجَبَانُ أَسِيراً لِوَهْمِ المَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ.

الصَّدَى

سَرَابُ الهَرَبِ وَقَبْضَةُ الحَيَاةِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

جُمُوعٌ هَائِمَةٌ تَفِرُّ بِأَقْدَامٍ مُرْتَعِشَةٍ مِنْ ظِلِّ المَوْتِ، فَتَسْقُطُ فِي قَبْضَةِ الفَنَاءِ حَيْثُ ظَنَّتِ النَّجَاةَ، ثُمَّ تَنْبَعِثُ الحَيَاةُ فِي عُرُوقِهَا بِأَمْرٍ وَاحِدٍ مِنَ السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الهُرُوبَ مِنَ المَوَاقِفِ يُطِيلُ العُمْرَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الأَنْفَاسَ مَعْدُودَةٌ فِي كِتَابٍ لَا تُغَيِّرُهُ المِحَاوِفُ. وَكَمْ تَرَاجَعْتُ قَدِيماً عَنْ نُصْرَةِ حَقٍّ أَوْ أَدَاءِ أَمَانَةٍ حَذَرَ الخَسَارَةِ، فَوَجَدْتُ أَنَّ الخَوْفَ نَفْسَهُ هُوَ المَوْتُ البَطِيءُ لِلرُّوحِ! أَتَأَمَّلُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ فِي الخَرِيفِ كَيْفَ تَتَطَايَرُ هَارِبَةً مِنَ الرِّيحِ فَتَسْقُطُ عَلَى التُّرَابِ، بَيْنَمَا تَبْقَى الجُذُوعُ الثَّابِتَةُ فِي مَكَانِهَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا رَبِيعُ الحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ عَلَى النَّاسِ حِينَ يُعِيدُ لَهُمُ الحَيَاةَ وَالبَصِيرَةَ لِيُدْرِكُوا أَنَّ الأَمَانَ الحَقِيقِيَّ فِي كَنَفِهِ لَا فِي الفِرَارِ مِنْ قَدَرِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ شَجَاعَتِي فِي الحَيَاةِ مِنْ تَرَدُّدٍ يَحْسِبُ مَخَاطِرَ الفَنَاءِ إِلَى إِقْدَامٍ مُطْمَئِنٍّ يَشْكُرُ نِعْمَةَ الوُجُودِ. فَكُلُّ فِرَارٍ مِنْ قَدَرِ الخَالِقِ مَآلُهُ العَجْزُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَيَاةٍ يَهَبُهَا اللهُ لِلشَّاكِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 244 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

الثَّبَاتُ فِي مَيْدَانِ المُدَافَعَةِ عَنِ الحَقِّ مَعَ اسْتِحْضَارِ رَقَابَةِ السَّمِيعِ العَلِيمِ يُطَهِّرُ القِتَالَ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَطَلَبِ السُّمْعَةِ. بَعْدَ كَشْفِ عِبْرَةِ الفَارِّينَ مِنَ المَوْتِ، يَأْتِي الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِالإِقْدَامِ فِي سَبِيلِ الخَالِقِ وَحْدَهُ، مُقْتَرِناً بِالعِلْمِ اليَقِينِيِّ بِأَنَّ السَّمَاءَ تَسْمَعُ كُلَّ كَلِمَةٍ وَتَعْلَمُ كُلَّ نِيَّةٍ تَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ. هٰذَا الرَّبْطُ يَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِ الصَّادِقِينَ، إِذْ يُدْرِكُونَ أَنَّ تَضْحِيَاتِهِمْ مَرْصُودَةٌ بِسَمْعٍ وَعِلْمٍ لَا يَغْفُلُ،

وَيَرْدَعُ المُتَخَاذِلِينَ عَنِ التَّمَارُضِ وَالتَّبْرِيرِ الكَاذِبِ. فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ رَبِّهِ هِيَ العُلْيَا نَالَ شَرَفَ النِّيَّةِ وَتَأْيِيدَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المَرَائِي أَمَامَ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

الصَّدَى

رَايَةُ الحَقِّ وَإِحَاطَةُ السَّمِيعِ العَلِيمِ

صَدَى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

رَايَةٌ نَقِيَّةٌ تَرْتَفِعُ فِي سَاحَةِ الوَاجِبِ لَا تَبْتَغِي مَجْداً زَائِفاً وَلَا هُتَافَ بَشَرٍ، بَلْ تَسْتَنِدُ إِلَى عَيْنٍ لَا تَنَامُ وَسَمْعٍ يُحِيطُ بِالكَوْنِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَحْشَةِ عِنْدَ مُوَاجَهَةِ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ هَمَسَاتِ صَدْرِي وَنَبَضَاتِ إِخْلَاصِي مَسْمُوعَةٌ وَمَعْلُومَةٌ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ. وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَدِيماً عِنْدَ البَذْلِ حِينَ غَابَ عَنِّي ثَنَاءُ النَّاسِ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ شَهَادَةَ السَّمِيعِ العَلِيمِ تُغْنِي عَنْ كُلِّ مَدِيحٍ! أَتَأَمَّلُ الجُنْدِيَّ الصَّامِتَ فِي ثَغْرِهِ تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ، كَيْفَ يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ وَثَبَاتَهُ مِنْ يَقِينِهِ بِأَنَّ رَبَّهُ يَرَى مَكَانَهُ وَيَسْمَعُ دُعَاءَهُ الخَفِيَّ. فَمَا أَعْظَمَ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ حِينَ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ لِكُلِّ نِدَاءٍ صَادِقٍ وَعَلِيمٌ بِمَا تُخْفِيهِ السَّرَائِرُ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ تَضْحِيَاتِي فِي سَبِيلِ الحَقِّ مِنْ مَشَقَّةٍ تَنْتَظِرُ التَّقْدِيرَ البَشَرِيَّ إِلَى عِبَادَةٍ خَالِصَةٍ تَأْنَسُ بِمَعِيَّةِ الخَالِقِ. فَكُلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ لِغَيْرِ الحَقِّ مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسَعْيٍ يَرْصُدُهُ اللهُ بِسَمْعِهِ وَعِلْمِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 245 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّرْغِيبُ الرَّبَّانِيُّ اللَّطِيفُ فِي الإِنْفَاقِ وَتَصْوِيرُ العَطَاءِ كَقَرْضٍ حَسَنٍ لِلْغَنِيِّ الحَمِيدِ يُحَرِّرَانِ النَّفْسَ مِنْ جُرْثُومَةِ البُخْلِ وَخَوْفِ الفَقْرِ. الخَالِقُ الَّذِي يَمْلِكُ خَزَائِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَتَنَزَّلُ بِفَضْلِهِ فَيَسْتَقْرِضُ عِبَادَهُ مِنْ مَالِهِ الَّذِي وَهَبَهُمْ، لِيُضَاعِفَ لَهُمُ الجَزَاءَ أَضْعَافاً كَثِيرَةً لَا تُحْصَى. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تُعِيدُ تَرْتِيبَ العَقْلِ الِاقْتِصَادِيِّ لِلْمُؤْمِنِ، فَيُدْرِكُ أَنَّ القَبْضَ وَالبَسْطَ بِيَدِ الرَّزَّاقِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ

المالَ المَبْذُولَ في الخَيْرِ هُوَ الرَّصِيدُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي يَجِدُهُ الإِنْسَانُ يَوْمَ الرُّجُوعِ إِلَى مَوْلَاهُ. فَمَنْ أَقْرَضَ رَبَّهُ بِطِيبِ نَفْسٍ نَالَ المُضَاعَفَةَ وَالبَرَكَةَ في الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الشَّحِيحُ أَسِيراً لِوَهْمِ الإِمْسَاكِ حَتَّى يَتْرُكَ مَالَهُ خَلْفَهُ.

الصَّدَى

قَرْضُ الكَرِيمِ وَمَفَاتِيحُ القَبْضِ وَالبَسْطِ

صَدَى ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

نِدَاءٌ عَذْبٌ يَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ لِيَطْرُقَ أَبْوَابَ القُلُوبِ السَّخِيَّةِ، فَيَحُولُ العَطَاءَ المَحْدُودَ إِلَى كُنُوزٍ تَتَضَاعَفُ في خَزَائِنِ الخُلُودِ. في أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الرِّزْقَ يُحْفَظُ بِالِاكْتِنَازِ وَالإِغْلَاقِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ يَدَ البَسْطِ وَالقَبْضِ بِيَدِ مَنْ خَلَقَ النِّعَمَ وَصَرَّفَهَا. وَكَمْ أَمْسَكْتُ قَدِيماً خَوْفاً مِنْ ضِيقِ العَيْشِ، فَضَاقَ صَدْرِي وَتَبَخَّرَتِ البَرَكَةُ، حَتَّى تَعَلَّمْتُ أَنَّ الإِنْفَاقَ هُوَ مِفْتَاحُ السَّعَةِ! أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ البَصِيرَ كَيْفَ يَنْثُرُ حَبَّاتِ القَمْحِ الطَّيِّبَةِ في تُرَابِ الأَرْضِ بِرِضاً وَسَخَاءٍ، فَتَرُدُّهَا لَهُ الحُقُولُ سَنَابِلَ مُثْقَلَةً بِالْخَيْرِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَسْتَقْرِضُ عِبَادَهُ قَرْضاً حَسَناً لِيُضَاعِفَهُ لَهُمْ أَضْعَافاً كَثِيرَةً قَبْلَ يَوْمِ الرُّجُوعِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفَقَتِي في وُجُوهِ البِرِّ مِنْ نَقْصٍ ظَاهِرٍ في المالِ إِلَى اسْتِثْمَارٍ رَابِحٍ في مَصْرِفِ السَّمَاءِ الآمِنِ. فَكُلُّ مَالٍ يُكْنَزُ بَعِيداً عَنِ الخَيْرِ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقَرْضٍ حَسَنٍ يُضَاعِفُهُ اللهُ لِعِبَادِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 246 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الفَجْوَةُ بَيْنَ الحَمَاسَةِ الكَلَامِيَّةِ فِي أَوْقَاتِ الرَّخَاءِ وَالثَّبَاتِ العَمَلِيِّ عِنْدَ نُزُولِ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ تَفْضَحُ هَشَاشَةَ الدَّعَاوَى غَيْرِ الصَّادِقَةِ. قِصَّةُ المَلَإِ الَّذِينَ طَلَبُوا القِيَادَةَ وَالقِتَالَ بِانْدِفَاعٍ ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ حِينَ أَصْبَحَ الجِهَادُ فَرْضاً عَمَلِيّاً تُعَلِّمُ العَقْلَ أَنْ يَزِنَ عَزَائِمَهُ قَبْلَ إِطْلَاقِ الشِّعَارَاتِ. الصِّدْقُ الإِيمَانِيُّ لَا يُقَاسُ بِالْانْفِعَالِ العَاطِفِيِّ أَمَامَ المَظَالِمِ، بَلْ بِالصَّبْرِ وَالوَفَاءِ بِالعَهْدِ حِينَ تَشْتَدُّ المِحْنَةُ وَيَقِلُّ النَّاصِرُ، تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ الَّذِي يُمَيِّزُ الصَّادِقِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَمَنْ طَابَقَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ نَالَ شَرَفَ القِلَّةِ الثَّابِتَةِ، بَيْنَمَا يَنْكَشِفُ المَدَّعِي عِنْدَ أَوَّلِ اخْتِبَارٍ حَقِيقِيٍّ.

الصَّدَى

ضَجِيجُ الدَّعَاوَى وَصَمْتُ الثَّبَاتِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

أَصْوَاتٌ عَالِيَةٌ تَطْلُبُ المَيْدَانَ فِي سَاعَةِ الأَمَانِ، ثُمَّ تَتَبَخَّرُ كَالضَّبَابِ حِينَ تُقْرَعُ طُبُولُ التَّكْلِيفِ وَلَا يَبْقَى فِي السَّاحَةِ إِلَّا قِلَّةٌ صَادِقَةٌ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الاغْتِرَارِ بِحَمَاسَةِ اللِّسَانِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ قِيمَةَ العَهْدِ تَظْهَرُ حِينَ يَتَحَوَّلُ الكَلَامُ إِلَى تَضْحِيَةٍ مَلْمُوسَةٍ. وَكَمْ أَطْلَقْتُ قَدِيماً وُعُوداً رَنَّانَةً فِي لَحَظَاتِ الِانْفِعَالِ، فَلَمَّا جَاءَتْ سَاعَةُ الوَفَاءِ تَثَاقَلَتْ قَدَمَايَ وَبَحَثْتُ عَنِ المَعَاذِيرِ! أَتَأَمَّلُ الزَّبَدَ الأَبْيَضَ فَوْقَ أَمْوَاجِ البَحْرِ كَيْفَ يَمْلَأُ الأُفُقَ بِالضَّجِيجِ وَالرَّغْوَةِ، فَإِذَا لَامَسَ الشَّاطِئَ تَلَاشَى فِي لَحْظَةٍ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا المَاءُ العَمِيقُ الصَّامِتُ. فَمَا أَشَدَّ بَصِيرَةَ كِتَابِ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ تَوَلِّيَ المَدَّعِينَ عِنْدَ الِامْتِحَانِ وَيُبْقِي عَلَى ذِكْرِ القِلَّةِ الصَّادِقَةِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَزِيمَتِي مِنْ اندِفَاعٍ عَاطِفِيٍّ سَرِيعِ الِانْطِفَاءِ إِلَى ثَبَاتٍ هَادِئٍ يَزِنُ الخُطْوَةَ وَيَفِي بِالعَهْدِ. فَكُلُّ حَمَاسَةٍ تَخْلُو مِنَ الصِّدْقِ مَآلُهَا التَّوَلِّي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِثَبَاتٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 247 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَصْحِيحُ مَعَايِيرِ الكَفَاءَةِ وَالقِيَادَةِ بِتَقْدِيمِ العِلْمِ وَالقُوَّةِ البَدَنِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ عَلَى الثَّرْوَةِ وَالنَّسَبِ يُحَرِّرُ المجْتَمَعَ مِنْ أَوْهَامِ الطَّبَقِيَّةِ المادِّيَّةِ. حِينَ اعْتَرَضَ المَلَأُ عَلَى قِيَادَةِ طَالُوتَ بِحُجَّةِ فَقْرِهِ وَعَدَمِ انْتِمَائِهِ لِبُيُوتِ المالِ، أَرْسَى الوَحْيُ قَانُونَ الِاصْطِفَاءِ الحَقِيقِيِّ القَائِمِ عَلَى «البَسْطَةِ فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ»؛ إِذْ بِالعِلْمِ تُدَبَّرُ الأُمُورُ وَبِالقُوَّةِ تُنَفَّذُ المهَامُّ. هٰذَا المِيزَانُ العَقْلِيُّ يَهْدِمُ تَقْدِيسَ المالِ كَمِعْيَارٍ لِلْأَهْلِيَّةِ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ المُلْكَ وَالتَّمْكِينَ هِبَةٌ مِنَ الوَاسِعِ العَلِيمِ يَضَعُهَا حَيْثُ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ. فَمَنْ تَسَلَّحَ بِالعِلْمِ النَّافِعِ وَالقُوَّةِ الأَمِينَةِ اسْتَحَقَّ الصَّدَارَةَ، بَيْنَمَا يَفْشَلُ مَنْ قَاسَ الرِّجَالَ بِأَرْصِدَتِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ.

الصَّدَى

مِيزَانُ العِلْمِ وَوَهْمُ الثَّرْوَةِ

صَدَى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

نُورُ العِلْمِ وَقُوَّةُ العَزِيمَةِ يَرْتَفِعَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى قِمَّةِ القِيَادَةِ، بَيْنَمَا تَتَكَسَّرُ أَمَامَهُمَا مَقَايِيسُ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَتَفَاخُرُ الأَنْسَابِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ رَبْطِ القِيمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ بِسَعَةِ المالِ أَوْ بَرِيقِ المَنَاصِبِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الأَهْلِيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ تُبْنَى بِمَا يَحْمِلُهُ العَقْلُ مِنْ بَصِيرَةٍ وَمَا يَمْلِكُهُ الجَسَدُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى العَطَاءِ. وَكَمِ انْخَدَعْتُ قَدِيماً بِالمظَاهِرِ البَرَّاقَةِ لِأَصْحَابِ الثَّرَاءِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ المالَ يَصْنَعُ القَادَةَ، حَتَّى كَشَفَتِ الشَّدَائِدُ عَنْ هَشَاشَةِ الكُنُوزِ أَمَامَ عَزِيمَةِ العُلَمَاءِ الأَقْوِيَاءِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ فِي عُرْضِ البَحْرِ كَيْفَ لَا تَنْجُو بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ جَوَاهِرَ وَذَهَبٍ فِي جَوْفِهَا، بَلْ تَنْجُو بِحِكْمَةِ رُبَّانِهَا العَالِمِ بِالمسَالِكِ وَقُوَّةِ شِرَاعِهَا المقَاوِمِ لِلرِّيَاحِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي يَصْطَفِي لِحَمْلِ الأَمَانَةِ مَنْ زَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ دُونَ انْحِيَازٍ لِحُطَامِ الدُّنْيَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَازِينُ التَّقْدِيرِ

فِي نَفْسِي مِنْ انْبِهَارٍ بِالمادَّةِ الفَانِيَةِ إِلَى احْتِرَامٍ لِلْكِفَايَةِ العَقْلِيَّةِ وَالخُلُقِيَّةِ. فَكُلُّ مَجْدٍ يَبْنِيهِ المالُ وَحْدَهُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلٍ يُؤْتِيهِ اللهُ مَنْ يَشَاءُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 248 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

رَبْطُ القُلُوبِ بِمَوَارِيثِ النُّبُوَّةِ وَاسْتِجْلَابُ السَّكِينَةِ الرَّبَّانِيَّةِ عِنْدَ الاضْطِرَابِ يُثَبِّتَانِ الصُّفُوفَ وَيُزِيلَانِ الشُّكُوكَ مِنَ النُّفُوسِ. حِينَ طَلَبَتِ العُقُولُ المُتَرَدِّدَةُ بُرْهَاناً مَلْمُوساً عَلَى اصْطِفَاءِ طَالُوتَ، جَاءَتِ الآيَةُ بِعَوْدَةِ التَّابُوتِ الَّذِي يَحْمِلُ السَّكِينَةَ وَبَقَايَا آثَارِ الأَنْبِيَاءِ تَحُفُّهُ المَلَائِكَةُ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ بَلْسَماً يَطْمَئِنُّ بِهِ الوِجْدَانُ وَيُوَحِّدُ الكَلِمَةَ. هٰذِهِ الحِكْمَةُ تُبْرِزُ أَنَّ السَّكِينَةَ الَّتِي يَقْذِفُهَا الخَالِقُ فِي القُلُوبِ هِيَ أَعْظَمُ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالثَّبَاتِ، وَأَنَّ الِارْتِبَاطَ بِتُرَاثِ الهِدَايَةِ النَّقِيِّ يَمْنَحُ الأُمَّةَ هُوِيَّتَهَا وَقُوَّتَهَا. فَمَنِ اسْتَقْبَلَ آيَاتِ السَّمَاءِ بِإِيمَانٍ صَادِقٍ غَمَرَتْهُ السَّكِينَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُرْتَابُ تَائِهاً فِي قَلَقِهِ رَغْمَ وُضُوحِ البَرَاهِينِ.

الصَّدَى

تَابُوتُ السَّكِينَةِ وَمِيرَاثُ النُّبُوَّةِ

صَدَى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

نَسِيمٌ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ يَهْبِطُ مِنَ المَلَأِ الأَعْلَى مَحْمُولاً عَلَى أَجْنِحَةِ المَلَائِكَةِ، لِيَمْسَحَ غُبَارَ التَّرَدُّدِ عَنِ القُلُوبِ وَيُعِيدَ إِلَيْهَا سَكِينَتَهَا المَفْقُودَةَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِالأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ الصَّمَّاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّكِينَةَ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَى الرُّوحِ هِيَ الدِّرْعُ الأَقْوَى فِي سَاعَةِ الخَوْفِ. وَكَمِ اضْطَرَبَتْ نَفْسِي قَدِيماً أَمَامَ العَوَاصِفِ حِينَ انْقَطَعْتُ عَنْ مَوَارِيثِ الهُدَى وَالنُّورِ، فَلَمْ أَجِدِ الأَمَانَ إِلَّا حِينَ عُدْتُ إِلَى رِحَابِ الوَحْيِ! أَتَأَمَّلُ المِينَاءَ الهَادِئَ كَيْفَ يَسْتَقْبِلُ السُّفُنَ المُنْهَكَةَ بَعْدَ تَلَاطُمِ

الأَمْوَاجِ، فَتَسْكُنُ أَشْرِعَتُهَا وَتَهْدَأُ أَرْوَاحُ رُكَّابِهَا فِي ظِلِّ الأَمَانِ وَالِاسْتِقْرَارِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّتِي تُرْسِلُ السَّكِينَةَ بُرْهَاناً لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَحْفَظُ لَهُمْ بَقِيَّةً مِنْ نُورِ النُّبُوَّاتِ لِتُضِيءَ لَهُمْ طَرِيقَ النَّصْرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيْرَتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنْ قَلَقٍ يُشَتِّتُ الفِكْرَ إِلَى سَكِينَةٍ عَمِيقَةٍ تَسْتَنِدُ إِلَى آيَاتِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ قُوَّةٍ تَخْلُو مِنَ السَّكِينَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مَآلُهَا الِاضْطِرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطُمَأْنِينَةٍ يَقْذِفُهَا اللهُ فِي قُلُوبِ المؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 249 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِانْضِبَاطُ الإِرَادِيُّ أَمَامَ الشَّهَوَاتِ المُبَاحَةِ فِي أَوْقَاتِ الِاخْتِبَارِ وَالرُّؤْيَةُ الإِيمَانِيَّةُ الَّتِي تَتَجَاوَزُ حِسَابَاتِ الكَثْرَةِ المَادِّيَّةِ هُمَا مِفْتَاحُ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ. مِحْنَةُ النَّهَرِ فِي عِزِّ الظَّمَإِ كَانَتْ مِصْفَاةً تَرْبَوِيَّةً دَقِيقَةً تَفْرِزُ أَصْحَابَ الإِرَادَةِ الصُّلْبَةِ الَّذِينَ يَكْتَفُونَ بِغُرْفَةٍ تَسُدُّ الرَّمَقَ مِمَّنْ يَنْهَارُونَ أَمَامَ أَوَّلِ إِغْرَاءٍ فَيَعْجِزُونَ عَنِ الصُّمُودِ فِي المَعْرَكَةِ. ثُمَّ يَبْرُزُ الفَرْقُ بَيْنَ النَّظَرِ المَادِّيِّ الَّذِي يَرَى الضَّعْفَ فِي قِلَّةِ العَدَدِ، وَاليَقِينِ الرُّوحِيِّ لِمَنْ يُؤْمِنُونَ بِلِقَاءِ الخَالِقِ فَيُدْرِكُونَ أَنَّ الغَلَبَةَ بِإِذْنِ السَّمَاءِ وَمَعِيَّتِهَا لِلصَّابِرِينَ لَا بِضَخَامَةِ الجُيُوشِ. فَمَنْ مَلَكَ زِمَامَ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهْوَةِ وَصَبَرَ عِنْدَ اللِّقَاءِ ظَفِرَ بِمَعِيَّةِ رَبِّهِ وَنَصْرِهِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ أَسِيرُ الرَّغَبَاتِ العَاجِلَةِ عِنْدَ أَوَّلِ نَهَرٍ فِي الطَّرِيقِ.

الصَّدَى

غُرْفَةُ النَّهَرِ وَيَقِينُ الفِئَةِ القَلِيلَةِ

صَدَى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

نَهْرٌ عَذْبٌ يَجْرِي فِي صَحْرَاءِ الظَّمَإِ لِيَمْتَحِنَ صَلَابَةَ الإِرَادَةِ، فَلَا يَعْبُرُهُ بِعِزَّةٍ إِلَّا مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَاكْتَفَى بِغُرْفَةٍ تَحْفَظُ العَهْدَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِالكَثْرَةِ المَادِّيَّةِ وَالأَرْقَامِ الضَّخْمَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ النَّصْرَ يُصْنَعُ فِي دَاخِلِ النَّفْسِ حِينَ تَنْتَصِرُ عَلَى شَهْوَتِهَا قَبْلَ أَنْ تُوَاجِهَ عَدُوَّهَا. وَكَمْ انْهَزَمْتُ قَدِيماً أَمَامَ مُغْرَيَاتٍ صَغِيرَةٍ فِي الطَّرِيقِ، فَفَقَدْتُ طَاقَتِي عَلَى مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ الكُبْرَى حِينَ وَقَفْتُ أَمَامَهَا! أَتَأَمَّلُ الجَمْرَةَ الصَّغِيرَةَ المُتَّقِدَةَ بِصِدْقٍ كَيْفَ تَغْلِبُ ظَلَامَ اللَّيْلِ الكَثِيفِ وَتَبُثُّ النُّورَ وَالدِّفْءَ، بَيْنَمَا تَعْجِزُ أَكْوَامُ الهَشِيمِ الكَثِيرَةُ عَنْ الصُّمُودِ أَمَامَ نَسْمَةِ هَوَاءٍ عَابِرَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ يَقِينَ المُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ اللهِ حِينَ يُعْلِنُونَ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ أَنَّ الفِئَةَ القَلِيلَةَ تَغْلِبُ الكَثِيرَةَ بِإِذْنِهِ وَمَعِيَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ إِرَادَتِي مِنْ ضَعْفٍ يَسْتَسْلِمُ لِلْعَطَشِ وَالأَرْقَامِ إِلَى صَلَابَةٍ تَضْبِطُ الرَّغَبَاتِ وَتَثِقُ فِي تَأْيِيدِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ كَثْرَةٍ تَخْلُو مِنَ الصَّبْرِ وَاليَقِينِ مَآلُهَا الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفِئَةٍ صَادِقَةٍ يَكُونُ اللهُ مَعَهَا بِصَبْرِهَا.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 250 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِالتِجَاءُ الصَّادِقُ إِلَى الخَالِقِ عِنْدَ سَاعَةِ المواجهَةِ وَالتَّدَرُّعُ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ قَبْلَ طَلَبِ النَّصْرِ يُجَسِّدَانِ قِمَّةَ الفِقْهِ الرُّوحِيِّ فِي الأَزَمَاتِ. الفِئَةُ المُؤْمِنَةُ حِينَ بَرَزَتْ لِجَالُوتَ لَمْ تَغْتَرَّ بِاجْتِيَازِهَا مِحْنَةَ النَّهَرِ، بَلْ أَدْرَكَتْ افْتِقَارَهَا الكَامِلَ إِلَى مَدَدِ السَّمَاءِ، فَسَأَلَتْ رَبَّهَا أَنْ يُفْرِغَ عَلَيْهَا الصَّبْرَ إِفْرَاغاً يَغْمُرُ القُلُوبَ، وَأَنْ يُثَبِّتَ الأَقْدَامَ فِي مَيْدَانِ الزَّلْزَلَةِ، لِيَكُونَ النَّصْرُ ثَمَرَةً طَبِيعِيَّةً لِهٰذَا الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ. هٰذَا الدُّعَاءُ الجَامِعُ يُعَلِّمُ الإِنْسَانَ أَنَّ الثَّبَاتَ الدَّاخِلِيَّ هُوَ أَسَاسُ الغَلَبَةِ الخَارِجِيَّةِ. فَمَنْ تَحَصَّنَ بِالدُّعَاءِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَمَدَّهُ رَبُّهُ بِالثَّبَاتِ وَالظَّفَرِ، بَيْنَمَا يَنْهَارُ مَنِ اعْتَمَدَ عَلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ دُونَ الِافْتِقَارِ إِلَى مَوْلَاهُ.

الصَّدَى

إِفْرَاغُ الصَّبْرِ وَثَبَاتُ الأَقْدَامِ

صَدَى ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

غَيْثٌ مِنَ الصَّبْرِ يَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ لِيُطْفِئَ حَرَارَةَ الخَوْفِ فِي الصُّدُورِ، وَأَوْتَادٌ مِنَ اليَقِينِ تَشُدُّ الأَقْدَامَ فِي الأَرْضِ فَلَا تَتَزَحْزَحُ أَمَامَ العَاصِفَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاعْتِمَادِ عَلَى القُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ عِنْدَ المِلِمَّاتِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَعْظَمَ سِلَاحٍ يَمْلِكُهُ الإِنْسَانُ هُوَ دَعْوَةُ المُفْتَقِرِ الصَّادِقِ بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهِ. وَكَمِ اهْتَزَّتْ قَدَمَايَ قَدِيماً عِنْدَ مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ حِينَ نَسِيتُ أَنْ أَسْتَمِدَّ الصَّبْرَ مِنْ مَصْدَرِهِ الأَعْلَى، فَجَفَّتْ طَاقَتِي وَضَاقَ صَدْرِي! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الشَّامِخَ كَيْفَ تَضْرِبُ جُذُورُهُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ بِثَبَاتٍ رَاسِخٍ، فَتَتَكَسَّرُ عَلَى صُخُورِهِ أَعْتَى الرِّيَاحِ وَالأَمْطَارِ دُونَ أَنْ يَمِيلَ أَوْ يَنْحَنِيَ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ القُلُوبِ الصَّادِقَةِ حِينَ تَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ أَنْ يُفْرِغَ عَلَيْهَا صَبْراً وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَهَا لِتَنَالَ شَرَفَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحْظَةُ المواجهَةِ فِي حَيَاتِي مِنْ رَهْبَةٍ تُزَلْزِلُ الكِيَانَ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ رَاسِخَةٍ تَسْتَنِدُ إِلَى مَدَدِ اللهِ وَتَأْيِيدِهِ. فَكُلُّ طُغْيَانٍ يَتَجَبَّرُ فِي الأَرْضِ مَآلُهُ الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنَصْرِ اللهِ الَّذِي يَهَبُهُ لِلصَّابِرِينَ الثَّابِتِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢٥١-٢٦٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 251 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَصْرُ السَّمَاءِ المَقْرُونُ بِالحِكْمَةِ وَالتَّمْكِينِ يَكْشِفُ سُنَّةَ التَّدَافُعِ الكَوْنِيِّ الَّتِي تَصُونُ الأَرْضَ مِنَ الخَرَابِ وَاسْتِبَاحَةِ الطُّغَاةِ، فَلَا يَقُومُ صَرْحُ المجْتَمَعَاتِ إِلَّا بِمُدَافَعَةِ البَاطِلِ وَحِرَاسَةِ العَدَالَةِ مِنْ أَنْ تَطْمِسَهَا أَيْدِي البُغَاةِ. مِيزَانُ المُلْكِ الرَّاشِدِ لَا يَسْتَقِيمُ بِالسَّيْفِ وَحْدَهُ دُونَ نُورِ الحِكْمَةِ وَالعِلْمِ

الَّذِي يَضْبِطُ القُوَّةَ وَيُوَجِّهُهَا نَحْوَ الإِعْمَارِ، فَقَدْ جَمَعَ الخَالِقُ لِدَاوُودَ بَيْنَ سُلْطَانِ الغَلَبَةِ وَبَصِيرَةِ الفَصْلِ لِيُقِيمَ مَنَارَاتِ الحَقِّ بَعْدَ انْكِسَارِ جَالُوتَ. هٰذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ السَّلْبِيَّةِ وَالاسْتِسْلَامِ لِلْفَسَادِ، لِيُدْرِكَ أَنَّ تَدَافُعَ أَهْلِ الحَقِّ مَعَ أَهْلِ البَغْيِ هُوَ صِمَامُ الأَمَانِ الَّذِي يَحْفَظُ نَضَارَةَ الحَيَاةِ وَطَهَارَةَ الأَوْطَانِ. فَمَنْ نَهَضَ لِمُدَافَعَةِ الظُّلْمِ مُتَسَلِّحاً بِالعِلْمِ وَالحِكْمَةِ نَالَ تَأْيِيدَ السَّمَاءِ وَفَضْلَهَا، بَيْنَمَا تَفْسُدُ الأَرْضُ وَتُظْلِمُ الدِّيَارُ حِينَ يَتَقَاعَسُ المُرْشِدُونَ وَيَسْتَفْرِدُ المُفْسِدُونَ بِالمَيْدَانِ.

الصَّدَى

سُنَّةُ التَّدَافُعِ وَمِيزَانُ الحِكْمَةِ

صَدَى ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

عَاصِفَةُ الطُّغْيَانِ تَنْكَسِرُ عَلَى صَخْرَةِ اليَقِينِ، وَشَمْسُ الحِكْمَةِ تُشْرِقُ فَوْقَ رُبُوعِ الأَرْضِ لِتُعِيدَ إِلَيْهَا تَوَازُنَهَا وَنَقَاءَهَا. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ السَّلَامَ يُصْنَعُ بِالسُّكُوتِ عَنِ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ سُنَّةَ التَّدَافُعِ هِيَ الَّتِي تَحْرُسُ الحَيَاةَ مِنَ التَّعَفُّنِ وَالفَسَادِ. وَكَمْ تَصَوَّرْتُ قَدِيماً أَنَّ الِاعْتِزَالَ البَارِدَ أَسْلَمُ لِلرُّوحِ، فَأَبْصَرْتُ كَيْفَ يَتَمَدَّدُ الظَّلَامُ حِينَ تَغِيبُ مَصَابِيحُ المُدَافَعَةِ وَالحِكْمَةِ! أَتَأَمَّلُ أَمْوَاجَ البَحْرِ المُتَلَاطِمَةَ كَيْفَ يَدْفَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً فِي حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ، فَلَوْلَا هٰذَا التَّدَافُعُ لَأَسِنَ المَاءُ وَفَسَدَتِ الكَائِنَاتُ فِي أَعْمَاقِهِ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ عَلَى العَالَمِينَ حِينَ يُقِيمُ التَّوَازُنَ فِي الكَوْنِ وَيُؤْتِي المُلْكَ وَالحِكْمَةَ لِمَنْ يَنْهَضُ بِأَمَانَةِ الإِصْلَاحِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلصِّرَاعِ فِي الحَيَاةِ مِنْ رَهْبَةٍ تُورِثُ الِانْكِفَاءَ إِلَى وَعْيٍ رَاشِدٍ يَجْمَعُ بَيْنَ قُوَّةِ الحَقِّ وَنُورِ الحِكْمَةِ. فَكُلُّ تَقَاعُسٍ يَتْرُكُ الأَرْضَ لِلْمُفْسِدِينَ مَآلُهُ الخَرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ وَتَدْبِيرِهِ الَّذِي يَحْفَظُ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 252 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

صِدْقُ الوَحْيِ النَّاطِقِ بِالحَقَّائِقِ التَّارِيخِيَّةِ وَالسُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ هُوَ البُرْهَانُ السَّاطِعُ عَلَى رِسَالَةِ النُّبُوَّةِ وَنَقَاءِ مَصْدَرِهَا، فَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ أَوْهَامُ الأَسَاطِيرِ وَلَا تَحْرِيفَاتُ الهَوَى. تِلَاوَةُ هٰذِهِ الآيَاتِ بِالحَقِّ المجَرَّدِ تَرْبِطُ حَاضِرَ الرِّسَالَةِ بِمَاضِي الأَنْبِيَاءِ فِي خَيْطٍ نُورَانِيٍّ وَاحِدٍ، لِيَطْمَئِنَّ القَلْبُ إِلَى أَنَّ الحَقَّ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَعَاقُبِ الأَزْمَانِ وَلَا يَخْبُو بَرِيقُهُ أَمَامَ عَوَاصِفِ التَّكْذِيبِ. هٰذَا التَّثْبِيتُ الرَّبَّانِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الرَّيْبِ وَالحَيْرَةِ، وَيُبْرِزُ أَنَّ كِتَابَ السَّمَاءِ هُوَ الشَّاهِدُ الأَمِينُ عَلَى تَارِيخِ البَشَرِ وَمَصَائِرِ الأُمَمِ. فَمَنْ أَنْصَتَ لِتِلَاوَةِ الحَقِّ بِبَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ أَيْقَنَ بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ وَاهْتَدَى بِنُورِهَا، بَيْنَمَا يَبْقَى المرْتَابُ تَائِهاً فِي ظُلُمَاتِ الشَّكِّ رَغْمَ سُطُوعِ الدَّلِيلِ.

الصَّدَى

تِلَاوَةُ الحَقِّ وَيَقِينُ الرِّسَالَةِ

صَدَى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

نُورٌ يَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ صَافِياً كَمَاءِ الغَمَامِ، يَرْوِي قَصَصَ الأَوَّلِينَ بِمِيزَانِ الصِّدْقِ وَيُثَبِّتُ قَدَمَ النُّبُوَّةِ فِي أَرْضِ اليَقِينِ. فِي وِجْدَانِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِانْقِطَاعِ بَيْنَ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تُتْلَى بِالحَقِّ هِيَ شَهَادَةٌ حَيَّةٌ تَنْطِقُ بِعَظَمَةِ المرسِلِ وَأَمَانَةِ المرسَلِ. وَكَمْ حَامَتْ حَوْلَ عَقْلِي قَدِيماً ظِلَالُ التَّسَاؤُلِ وَالحَيْرَةِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي طُمَأْنِينَةُ هٰذَا البَيَانِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ! أَتَأَمَّلُ النَّجْمَ القُطْبِيَّ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَظَلُّ ثَابِتاً فِي مَكَانِهِ لِيَهْدِيَ السَّائِرِينَ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ، فَلَا يُخْطِئُ مَوْضِعَهُ أَبَداً. فَمَا أَعْظَمَ صِدْقَ كَلَامِ اللهِ الَّذِي يَتْلُو الحَقَّائِقَ بِالحَقِّ وَيَشْهَدُ لِرَسُولِهِ بِالصِّدْقِ وَالرِّسَالَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ تِلَاوَتِي لِلْوَحْيِ مِنْ مُجَرَّدِ سَمَاعٍ لِلْأَلْفَاظِ إِلَى شُهُودٍ قَلْبِيٍّ يَرَى نُورَ النُّبُوَّةِ سَاطِعاً فِي كُلِّ حَرْفٍ. فَكُلُّ رَيْبٍ يُعَانِدُ البَيَانَ مَآلُهُ التَّبَدُّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 253 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّفَاوُتُ الفَضْلِيُّ بَيْنَ الرُّسُلِ مَعَ وَحْدَةِ مَشْكَاةِ النُّبُوَّةِ وَحُرِّيَّةِ الِاخْتِيَارِ الإِنْسَانِيِّ أَمَامَ البَيِّنَاتِ يُرْسِيَانِ فِقْهَ الإِيمَانِ الجَامِعِ وَيُفَسِّرَانِ سِرَّ الِاخْتِلَافِ البَشَرِيِّ. التَّشْرِيفُ الإِلٰهِيُّ لِأَنْبِيَائِهِ بِتَكْلِيمٍ أَوْ رِفْعَةِ دَرَجَاتٍ أَوْ تَأْيِيدٍ بِرُوحِ القُدُسِ لَا يَعْنِي التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُمْ فِي الأَصْلِ وَالتَّصْدِيقِ، بَلْ يُبْرِزُ تَنَوُّعَ مَظَاهِرِ الفَضْلِ السَّمَاوِيِّ فِي هِدَايَةِ الخَلْقِ. كَمَا يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ التَّنَازُعَ وَالِاقْتِتَالَ بَعْدَ مَجِيءِ البَيِّنَاتِ لَمْ يَكُنْ جَبْراً قَدَرِيّاً يَسْلُبُ الإِرَادَةَ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ مَشِيئَةِ الِابْتِلَاءِ الَّتِي تَرَكَتْ لِلْعِبَادِ حُرِّيَّةَ الإِيمَانِ أَوِ الكُفْرِ لِيَتَمَيَّزَ الصَّادِقُونَ. فَمَنْ وَحَّدَ الإِيمَانَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَتَجَرَّدَ مِنَ التَّعَصُّبِ نَالَ سَعَةَ الأُفُقِ وَسَلَامَةَ المُعْتَقَدِ، بَيْنَمَا يَغْرَقُ المُتَعَصِّبُونَ فِي نَارِ الشِّقَاقِ رَغْمَ وُضُوحِ البَرَاهِينِ.

الصَّدَى

مَشْكَاةُ النُّبُوَّاتِ وَحُرِّيَّةُ الِاخْتِيَارِ

صَدَى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

كَوَاكِبُ مُنِيرَةٌ تَتَفَاوَتُ فِي السُّطُوعِ وَتَجْتَمِعُ فِي سَمَاءِ التَّوْحِيدِ، لِتُضِيءَ لِلْبَشَرِيَّةِ طَرِيقَ النَّجَاةِ دُونَ إِكْرَاهٍ أَوْ قَسْرٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ التَّصَادُمِ بَيْنَ أَنْبِيَاءِ السَّمَاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ هُوَ لَبِنَةٌ نُورَانِيَّةٌ فِي صَرْحِ الهِدَايَةِ الوَاحِدِ الَّذِي أَرَادَ لَنَا حُرِّيَّةَ القَبُولِ أَوِ الرَّفْضِ. وَكَمْ تَسَاءَلْتُ قَدِيماً عَنْ سِرِّ انْقِسَامِ النَّاسِ بَعْدَ وُضُوحِ الحَقَائِقِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ مَشِيئَةَ الِاخْتِبَارِ تَقْتَضِي أَنْ يَخْتَارَ كُلُّ قَلْبٍ مَصِيرَهُ بِنَفْسِهِ! أَتَأَمَّلُ المِطَرَ العَذْبَ كَيْفَ يَنْزِلُ مِنْ سَحَابَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى أَرْضٍ وَاسِعَةٍ، فَتُنْبِتُ التُّرْبَةُ الطَّيِّبَةُ زَهْراً وَثَمَراً بَيْنَمَا تَبْقَى الصُّخُورُ الصَّمَّاءُ جَافَّةً لَا تَنْتَفِعُ بِالمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُفَضِّلُ رُسُلَهُ بِآيَاتِهِ وَرُوحِهِ ثُمَّ يَتْرُكُ لِلْعِبَادِ مَيْدَانَ الِاخْتِيَارِ لِيَفْعَلَ مَا يُرِيدُ بِعَدْلِهِ وَمَشِيئَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِاخْتِلَافِ البَشَرِ مِنْ دَهْشَةٍ تُورِثُ القَلَقَ إِلَى بَصِيرَةٍ تَفْهَمُ سُنَّةَ الِابْتِلَاءِ وَمَسْؤُولِيَّةَ

الإِرَادَةِ. فَكُلُّ شِقَاقٍ يَصْنَعُهُ الهَوَى بَعْدَ البَيِّنَةِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 254 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

المُبَادَرَةُ بِالإِنْفَاقِ مِنَ الرِّزْقِ المَوْهُوبِ قَبْلَ انْغِلَاقِ سُوقِ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعِ الوَسَائِطِ المادِّيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ تُوقِظُ القُلُوبَ مِنْ غَفْلَةِ التَّسْوِيفِ. التَّذْكِيرُ بِأَنَّ المالَ الَّذِي فِي أَيْدِي العِبَادِ هُوَ رِزْقٌ مُسْتَخْلَفٌ مِنَ الخَالِقِ يُزِيلُ عُقْدَةَ الشُّحِّ، وَيَضَعُ الإِنْسَانَ أَمَامَ مَشْهَدِ اليَوْمِ العَظِيمِ الَّذِي تَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ صَفَقَاتِ البَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَتَتَلَاشَى فِيهِ عُلَاقَاتُ الصَّدَاقَةِ وَالشَّفَاعَةِ غَيْرِ المَأْذُونَةِ. هٰذَا الإِنْذَارُ البَلِيغُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاتِّكَالِ عَلَى الثَّرْوَةِ أَوِ النُّفُوذِ البَشَرِيِّ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ وَالبَذْلَ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ هُمَا العُمْلَةُ الوَحِيدَةُ الرَّائِجَةُ فِي الآخِرَةِ. فَمَنْ بَادَرَ بِالعَطَاءِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ أَمَّنَ نَفْسَهُ يَوْمَ الفَزَعِ، بَيْنَمَا يَظْلِمُ الكَافِرُ المُتَقَاعِسُ نَفْسَهُ حِينَ يَصِلُ إِلَى ذٰلِكَ اليَوْمِ صِفْرَ اليَدَيْنِ.

الصَّدَى

إِغْلَاقُ السُّوقِ وَسَاعَةُ المُبَادَرَةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

سُوقُ الدُّنْيَا تَتَأَهَّبُ لِإِغْلَاقِ أَبْوَابِهَا عِنْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، وَالنِّدَاءُ يَرْتَفِعُ مُحَذِّراً مِنْ يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ دِرْهَمٌ وَلَا صَدِيقٌ وَلَا شَفِيعٌ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاحْتِمَاءِ بِالمالِ المَكْنُوزِ أَوِ الوَجَاهَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ مَا أُنْفِقُهُ اليَوْمَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي سَيَبْقَى لِي غَداً. وَكَمْ أَجَّلْتُ قَدِيماً بَذْلَ الخَيْرِ مُتَعَلِّلاً بِطُولِ الأَمَلِ وَكَثْرَةِ الأَصْحَابِ، غَافِلاً عَنْ سَاعَةٍ يَفِرُّ فِيهَا المَرْءُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَقِفُ عَلَى رَصِيفِ القِطَارِ قَبْلَ انْطِلَاقِهِ بِدَقَائِقَ، كَيْفَ يُبَادِرُ بِتَحْوِيلِ

نُقُودِهِ إِلَى عُمْلَةِ البَلَدِ الَّذِي يَقْصِدُهُ لِأَنَّ عُمْلَتَهُ القَدِيمَةَ سَتُصْبِحُ وَرَقاً لَا قِيمَةَ لَهُ فَوْرَ العُبُورِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ حِينَ يُنَبِّهُ أَهْلَ الإِيمَانِ كَيْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ يَنْقَطِعُ فِيهِ البَيْعُ وَالخُلَّةُ وَالشَّفَاعَةُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي مِنْ إِمْسَاكٍ حَذِرٍ يَخْشَى النَّفَادَ إِلَى سَخَاءٍ مُبَادِرٍ يَسْتَبِقُ انْقِضَاءَ الأَجَلِ. فَكُلُّ مَالٍ يُحْبَسُ عَنِ الخَيْرِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ وَالظُّلْمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَطَاءٍ صَادِقٍ يَدَّخِرُهُ العَبْدُ عِنْدَ اللهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 255 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوْحِيدُ الخَالِصُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الكَوْنُ وَلَا يَعْتَرِيهِ نُعَاسٌ وَلَا تَعَبٌ يَمْلَأُ القَلْبَ بِالطُّمَأْنِينَةِ المُطْلَقَةِ وَيُحَرِّرُهُ مِنْ كُلِّ خَوْفٍ أَوْ تَعَلُّقٍ بِسِوَاهُ. آيَةُ الكُرْسِيِّ تَرْسُمُ أَعْظَمَ لَوْحَةٍ لِجَلَالِ الأُلُوهِيَّةِ؛ فَهُوَ المَالِكُ المُطْلَقُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لَا تَمْلِكُ أَيُّ قُوَّةٍ فِي الوُجُودِ حَقَّ الشَّفَاعَةِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَعِلْمُهُ يُحِيطُ بِالحَاضِرِ وَالمَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ بَيْنَمَا تَقِفُ عُقُولُ الخَلْقِ عَاجِزَةً إِلَّا عَمَّا أَذِنَ لَهَا بِمَعْرِفَتِهِ. هٰذَا اليَقِينُ يَهْدِمُ كُلَّ أَصْنَامِ الخَوْفِ وَالأَوْهَامِ، إِذْ يُدْرِكُ المُؤْمِنُ أَنَّ مَنْ يَحْفَظُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ دُونَ كَلَلٍ أَوْ مَشَقَّةٍ قَادِرٌ عَلَى حِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ. فَمَنْ أَوَى إِلَى رُكْنِ الحَيِّ القَيُّومِ نَالَ الأَمَانَ الأَبَدِيَّ وَالعِزَّةَ الرُّوحِيَّةَ، بَيْنَمَا يَضِيعُ مَنْ تَعَلَّقَ بِقُوًى فَانِيَةٍ تَنَامُ وَتَعْجِزُ وَتَزُولُ.

الصَّدَى

قَيُّومِيَّةُ السَّمَاءِ وَحِفْظُ الكَوْنِ

صَدَى ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

عَرْشٌ عَظِيمٌ تَقُومُ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ فِي تَنَاغُمٍ مُذْهِلٍ، وَعَيْنٌ قَيُّومَةٌ تَحْرُسُ الكَوْنَ كُلَّهُ دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا نُعَاسٌ أَوْ غَفْلَةٌ أَوْ تَعَبٌ. فِي أَعْمَاقِي يَتَلَاشَى وَهْمُ الوَحْدَةِ وَالعَجْزِ أَمَامَ عَوَاصِفِ الحَيَاةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ وُجُودِي مَحْفُوظٌ بِيَدِ الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي لَا يَعُودُهُ حِفْظُ الأَفْلَاكِ. وَكَمْ أَرَّقَتْنِي قَدِيماً مَخَاوِفُ المَجْهُولِ وَتَقَلُّبَاتُ الأَيَّامِ حِينَ نَسِيتُ أَنَّ مَقَالِيدَ الكَوْنِ بِيَدِ مَنْ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا! أَتَأَمَّلُ المَجَرَّاتِ الشَّاسِعَةَ وَالكَوَاكِبَ السَّابِحَةَ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ كَيْفَ تَجْرِي فِي مَدَارَاتِهَا بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ دُونَ أَنْ تَصْطَدِمَ أَوْ تَهْوِيَ، مُسْتَمِدَّةً بَقَاءَهَا مِنْ قَيُّومِيَّةِ الخَالِقِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ الَّذِي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي الوُجُودِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُوحِي مِنْ قَلَقٍ يَرْتَجِفُ أَمَامَ الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ إِلَى سَكِينَةٍ تَأْوِي إِلَى رُكْنِ الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي لَا يَنَامُ. فَكُلُّ قُوَّةٍ فِي الأَرْضِ مَآلُهَا الفَنَاءُ وَالزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الحَيِّ القَيُّومِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 256 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حُرِّيَّةُ الِاعْتِقَادِ القَائِمَةُ عَلَى وُضُوحِ البُرْهَانِ وَتَمَيُّزِ الرُّشْدِ مِنَ الغَيِّ تُكَرِّمُ العَقْلَ الإِنْسَانِيَّ وَتَجْعَلُ الإِيمَانَ قَنَاعَةً حُرَّةً لَا إِذْعَاناً مَقْهُوراً. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْفَعُ سَوْطَ الإِكْرَاهِ عَنِ الضَّمَائِرِ؛ لِأَنَّ الحَقَّ بَعْدَ نُزُولِ الوَحْيِ أَصْبَحَ سَاطِعاً كَالشَّمْسِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَسْرٍ لِيَدْخُلَ القُلُوبَ. هٰذَا المَبْدَأُ العَظِيمُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الطَّوَاغِيتِ وَالأَوْهَامِ، لِيَخْتَارَ بِإِرَادَتِهِ الحُرَّةِ التَّمَسُّكَ بِحَبْلِ التَّوْحِيدِ المَتِينِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ أَبَداً، تَحْتَ رَقَابَةِ السَّمِيعِ العَلِيمِ بِصِدْقِ النَّوَايَا. فَمَنْ كَفَرَ بِالطَّاغُوتِ وَآمَنَ عَنْ بَصِيرَةٍ نَالَ النَّجَاةَ وَالثَّبَاتَ الأَبَدِيَّ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنِ اخْتَارَ الغَيَّ عِنَاداً بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الرَّشَادِ.

الصَّدَى

نُورُ الرُّشْدِ وَالعُرْوَةُ الوُثْقَى

صَدَى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فَجْرٌ صَادِقٌ يَفْصِلُ بِوُضُوحٍ بَيْنَ طَرِيقِ الرُّشْدِ وَمَتَاهَاتِ الغَيِّ، وَحَبْلٌ مَتِينٌ يَتَدَلَّى مِنَ السَّمَاءِ لِيُمْسِكَ بِهِ السَّائِرُونَ بِحُرِّيَّةٍ وَيَقِينٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الإِيمَانِ المَوْرُوثِ بِالتَّقْلِيدِ أَوِ القَسْرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كَرَامَةَ العَقْلِ تَتَجَلَّى حِينَ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيَخْتَارُ النُّورَ عَنْ بَصِيرَةٍ. وَكَمْ تَشَبَّثْتُ قَدِيماً بِحِبَالٍ وَاهِيَةٍ مِنْ أَوْهَامِ الدُّنْيَا وَتَعَصُّبَاتِهَا، فَانْقَطَعَتْ بِي عِنْدَ أَوَّلِ عَاصِفَةٍ حَتَّى أَمْسَكْتُ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى! أَتَأَمَّلُ النُّورَ وَالظَّلَامَ عِنْدَ انْبِلَاجِ الصُّبْحِ كَيْفَ يَتَمَيَّزُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِنَفْسِهِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُخْبِرُ العُيُونَ عَلَى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي صَانَ حُرِّيَّةَ الضَّمِيرِ الإِنْسَانِيِّ وَجَعَلَ الإِيمَانَ بِهِ عُرْوَةً وُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَهُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي مِنْ عَادَةٍ تَخْضَعُ لِلْمَأْلُوفِ إِلَى قَنَاعَةٍ حُرَّةٍ تَرْفُضُ الطَّاغُوتَ وَتَعْتَصِمُ بِحَبْلِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ حَبْلٍ يُمَدُّ لِغَيْرِ الحَقِّ مَآلُهُ الِانْقِطَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعُرْوَةِ اللهِ الوُثْقَى الَّتِي تَعْصِمُ المُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 257 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

وِلَايَةُ الخَالِقِ لِلْمُؤْمِنِينَ هِيَ مَصْدَرُ الهِدَايَةِ الَّتِي تَنْتَشِلُ العُقُولَ مِنْ تَعَدُّدِ الظُّلُمَاتِ إِلَى وَحْدَةِ النُّورِ، بَيْنَمَا تَقُودُ وِلَايَةُ الطَّاغُوتِ إِلَى التِّيهِ وَالضَّيَاعِ. دِقَّةُ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ فِي جَمْعِ «الظُّلُمَاتِ» وَإِفْرَادِ «النُّورِ» تَكْشِفُ أَنَّ الحَقَّ وَاحِدٌ وَاضِحٌ يَجْمَعُ الشَّتَاتَ وَيُطَمْئِنُ الرُّوحَ، أَمَّا البَاطِلُ وَالأَهْوَاءُ فَهِيَ ظُلُمَاتٌ مُتَرَاكِمَةٌ تُمَزِّقُ الإِنْسَانَ بَيْنَ شَهَوَاتٍ وَأَوْهَامٍ لَا تَنْتَهِي. هٰذِهِ المُقَابَلَةُ البَدِيعَةُ تُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِبَرِيقِ الطَّوَاغِيتِ، لِتُدْرِكَ أَنَّ الوِلَايَةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ الَّتِي تُضِيءُ الدَّرْبَ فِي الدُّنْيَا وَتُنْجِي مِنَ النَّارِ فِي الآخِرَةِ. فَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِوِلَايَةِ رَبِّهِ عَاشَ فِي رِحَابِ النُّورِ وَاليَقِينِ، بَيْنَمَا يَهْوِي مَنْ وَالَى الطَّاغُوتَ مِنْ نُورِ الفِطْرَةِ إِلَى ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ وَالخُلُودِ فِي العَذَابِ.

الصَّدَى

وِلَايَةُ النُّورِ وَظُلُمَاتُ الطَّاغُوتِ

صَدَى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يَدٌ رَحِيمَةٌ تَنْتَشِلُ الغَرِيقَ مِنْ لُجَجِ الظُّلُمَاتِ المتَرَاكِمَةِ إِلَى شَاطِئِ النُّورِ الوَاحِدِ، وَأَهْوَاءٌ مُتَفَرِّقَةٌ تَسْحَبُ الغَافِلِينَ مِنْ ضِيَاءِ الفِطْرَةِ إِلَى عَتْمَةِ التِّيهِ. في أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاسْتِقْلَالِ الزَّائِفِ عَنْ وِلَايَةِ السَّمَاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ القَلْبَ إِنْ لَمْ يَتَوَلَّهُ خَالِقُهُ تَخَطَّفَتْهُ الطَّوَاغِيتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. وَكَمْ تَاهَتْ خُطَايَ قَدِيماً في دُرُوبٍ مُظْلِمَةٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالرَّغَبَاتِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ عَلَيَّ وِلَايَةُ الحَقِّ فَجَمَعَتْ شَتَاتِي في نُورٍ وَاحِدٍ! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ المنِيرَ في الغُرْفَةِ المظْلِمَةِ كَيْفَ يَبُثُّ ضِيَاءً وَاحِداً يَكْشِفُ كُلَّ الزَّوَايَا بِوُضُوحٍ، فَإِذَا انْطَفَأَ تَرَاكَمَتْ ظُلُمَاتُ اللَّيْلِ وَالخَوْفِ وَالعَثَرَاتِ في كُلِّ مَكَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ وَلِيِّ المؤْمِنِينَ الَّذِي يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ لِيَحْمِيَهُمْ مِنْ مَصِيرِ أَصْحَابِ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ تَخَبُّطٍ بَيْنَ أَوْلِيَاءَ مُتَعَدِّدِينَ يَسْتَنْزِفُونَ رُوحِي إِلَى سَكِينَةٍ تَسْتَظِلُّ بِوِلَايَةِ الوَاحِدِ الأَحَدِ. فَكُلُّ وِلَايَةٍ تَقُودُ إِلَى الطَّاغُوتِ مَآلُهَا الظَّلَامُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنُورِ اللهِ الَّذِي يَهْدِي بِهِ أَوْلِيَاءَهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 258 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قُوَّةُ البُرْهَانِ العَقْلِيِّ وَسُرْعَةُ البَدِيهَةِ في إِفْحَامِ الطُّغَاةِ تَكْشِفَانِ هَشَاشَةَ الِاسْتِبْدَادِ حِينَ يَغْتَرُّ بِالمُلْكِ المَوْهُوبِ فَيُنَازِعُ الخَالِقَ رُبُوبِيَّتَهُ. حِينَ جَادَلَ النُّمْرُودُ إِبْرَاهِيمَ بِمُغَالَطَةٍ سَاذَجَةٍ في الإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةِ، لَمْ يَدْخُلْ نَبِيُّ اللهِ في مِرَاءٍ لَفْظِيٍّ عَقِيمٍ، بَلْ نَقَلَهُ بِذَكَاءٍ نُورَانِيٍّ إِلَى قَانُونٍ كَوْنِيٍّ لَا تَطَالُهُ أَيْدِي البَشَرِ

وَهُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ، فَانْقَطَعَتْ حُجَّةُ المتَجَبِّرِ وَهُتِ أَمَامَ العَقْلِ وَالتَّارِيخِ. هٰذَا المْنْهَجُ الحِوَارِيُّ يُعَلِّمُ المؤْمِنَ كَيْفَ يَسْتَثْمِرُ النَّوَامِيسَ الكَوْنِيَّةَ لِهَدْمِ غُرُورِ المادِّيِّينَ الَّذِينَ يَنْسَوْنَ أَنَّ سُلْطَانَهُمْ عَارِيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ. فَمَنِ احْتَكَمَ إِلَى البَرَاهِينِ الكَوْنِيَّةِ السَّاطِعَةِ أَفْحَمَ أَهْلَ البَاطِلِ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ الظَّالِمُ المكابِرُ نَفْسَهُ مِنْ نُورِ الهِدَايَةِ بِغُرُورِهِ وَطُغْيَانِهِ.

الصَّدَى

بُرْهَانُ الشَّمْسِ وَانْكِسَارُ الطُّغْيَانِ

صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

تَاجٌ مِنَ الغُرُورِ يَسْقُطُ عَنْ رَأْسِ الطَّاغِيَةِ أَمَامَ بُرْهَانٍ كَوْنِيٍّ نَاصِعٍ، فَتَخْرَسُ لَجَاجَةُ المَنَازِعِ وَيُبْهَتُ الكُفْرُ فِي وضحِ النَّهَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِجَبَرُوتِ السُّلْطَانِ المادِّيِّ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّ قُدْرَتَهُ تَمْتَدُّ إِلَى نَوَامِيسِ الوُجُودِ، وَأُبْصِرُ عَجْزَ الخَلْقِ أَمَامَ خَالِقِ الأَفْلَاكِ. وَكَمْ أَرْبَكَنِي قَدِيماً جِدَالُ المغَالِطِينَ الَّذِينَ يَلْوُونَ أَعْنَاقَ الكَلِمَاتِ، حَتَّى تَعَلَّمْتُ مِنْ حِكْمَةِ الخَلِيلِ كَيْفَ أَرُدُّ البَاطِلَ بِبُرْهَانٍ لَا يَقْبَلُ التَّأْوِيلَ! أَتَأَمَّلُ شُرُوقَ الشَّمْسِ كُلَّ صَبَاحٍ مِنَ المشْرِقِ فِي مَوْكِبٍ مَهِيبٍ لَا يَمْلِكُ مَلِكٌ وَلَا جَبَّارٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَسَارَهُ أَوْ يُؤَخِّرَ مِيعَادَهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً. فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ البَالِغَةَ الَّتِي أَجْرَاهَا عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ لِتَكْشِفَ عَجْزَ الطُّغَاةِ وَتُقَرِّرَ أَنَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي مِنْ خَوْفٍ أَمَامَ صَخَبِ المسْتَبِدِّينَ إِلَى ثِقَةٍ رَاسِخَةٍ بِقُوَّةِ الحَقِّ وَسُطُوعِ الدَّلِيلِ. فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يُنَازِعُ الخَالِقَ رُبُوبِيَّتَهُ مَآلُهُ البُهْتَانُ وَالذُّلُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسُلْطَانِ اللهِ الَّذِي يُسَيِّرُ الشَّمْسَ وَالكَوَاكِبَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 259 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مُعَايَنَةُ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ فِي تَصْرِيفِ الزَّمَنِ وَإِحْيَاءِ المَوْتَى تَنْتَشِلُ العَقْلَ البَشَرِيَّ مِنْ حَيْرَةِ الِاسْتِبْعَادِ إِلَى يَقِينِ الشُّهُودِ وَالمعَايَنَةِ. حِينَ وَقَفَ العَبْدُ الصَّالِحُ أَمَامَ أَنْقَاضِ القَرْيَةِ المهَدَّمَةِ مُتَسَائِلاً عَنْ كَيْفِيَّةِ البَعْثِ بَعْدَ الفَنَاءِ، أَجَابَتْهُ السَّمَاءُ بِتَجْرِبَةٍ كَوْنِيَّةٍ حَيَّةٍ فِي ذَاتِهِ وَمُحِيطِهِ؛ فَأَمَاتَهُ الخَالِقُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ، وَحَفِظَ طَعَامَهُ طَرِيّاً بَيْنَمَا فَنِيَ حِمَارُهُ ثُمَّ أَعَادَ تَرْكِيبَ عِظَامِهِ وَكَسَاهَا لَحْماً أَمَامَ عَيْنَيْهِ. هٰذِهِ الآيَةُ البَاهِرَةُ تُحَرِّرُ الفِكْرَ مِنْ قُيُودِ المأْلُوفِ الفِيزْيَائِيِّ، لِيُدْرِكَ أَنَّ الزَّمَنَ وَالمادَّةَ يَخْضَعَانِ لِإِرَادَةِ القَدِيرِ الَّذِي يُبْلِي وَيَحْفَظُ وَيُحْيِي بِكَلِمَةِ كُنْ. فَمَنْ تَدَبَّرَ آيَاتِ البَعْثِ فِي الآفَاقِ وَالأَنْفُسِ رَسَخَ فِي قَلْبِهِ عِلْمُ اليَقِينِ بِقُدْرَةِ الخَالِقِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المنْكِرُ أَسِيراً لِحِسَابَاتِهِ المحْدُودَةِ حَتَّى يُفَاجِئَهُ البَعْثُ الحَقُّ.

الصَّدَى

مِائَةُ عَامٍ وَمَشْهَدُ البَعْثِ

صَدَى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أَطْلَالٌ خَاوِيَةٌ يَسْكُنُهَا الصَّمْتُ وَالفَنَاءُ، ثُمَّ تَدِبُّ الحَيَاةُ فِي العِظَامِ النَّخِرَةِ وَيُطْوَى قَرْنٌ مِنَ الزَّمَانِ كَأَنَّهُ سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ اسْتِحَالَةِ الإِحْيَاءِ بَعْدَ التَّلَاشِي، وَأُبْصِرُ أَنَّ الزَّمَنَ وَالفَنَاءَ أَدَوَاتٌ طَيِّعَةٌ فِي يَدِ الخَالِقِ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. وَكَمْ حَارَ عَقْلِي قَدِيماً أَمَامَ مَشَاهِدِ المَوْتِ وَالخَرَابِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ مَا ذَهَبَ لَا يَعُودُ، حَتَّى أَشْرَقَ فِي بَصِيرَتِي هٰذَا البُرْهَانُ الحَيُّ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ حِفْظِ الطَّعَامِ وَبَعْثِ العِظَامِ! أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ المَيْتَةَ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ كَيْفَ تَبْدُو خَاوِيَةً صَامِتَةً، فَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا غَيْثُ السَّمَاءِ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي يَكْسُو العِظَامَ لَحْماً أَمَامَ العُيُونِ لِيَجْعَلَ مِنْ عِبَادِهِ آيَةً نَاطِقَةً بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيْرَتِي أَمَامَ غُمُوضِ البَعْثِ إِلَى عِلْمٍ يَقِينٍ يَرَى فِي كُلِّ

ذَرَّةٍ شَاهِداً عَلَى كَمَالِ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ. فَكُلُّ فَنَاءٍ يَعْتَرِي الخَلْقَ مَآلُهُ البَعْثُ وَالنُّشُورُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقُدْرَةِ اللهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 260 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

الِارْتِقَاءُ بِالإِيمَانِ مِنْ مَرْتَبَةِ التَّصْدِيقِ القَلْبِيِّ إِلَى مَقَامِ الطُّمَأْنِينَةِ وَعَيْنِ اليَقِينِ هُوَ مَطْلَبُ العُقُولِ البَاحِثَةِ عَنْ سَكِينَةِ المعَايَنَةِ. سُؤَالُ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ كَيْفِيَّةِ إِحْيَاءِ المَوْتَى لَمْ يَكُنْ شَكّاً فِي القُدْرَةِ، بَلْ كَانَ تَشَوُّقاً رُوحِيّاً لِرُؤْيَةِ صُنْعِ الخَالِقِ كَيْ يَسْكُنَ القَلْبُ وَيَطْمَئِنَّ، فَأَجَابَتْهُ السَّمَاءُ بِمُعْجِزَةِ الطُّيُورِ الأَرْبَعَةِ الَّتِي تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهَا عَلَى الجِبَالِ ثُمَّ التَأَمَتْ وَأَقْبَلَتْ سَعْياً بِأَمْرِ رَبِّهَا. هٰذَا المَنْهَجُ يُرَحِّبُ بِالتَّسَاؤُلِ المَعْرِفِيِّ الصَّادِقِ الَّذِي يَزِيدُ الإِيمَانَ رُسُوخاً، وَيَخْتِمُ المَشْهَدَ بِصِفَتَيِ العِزَّةِ وَالحِكْمَةِ لِتَأْكِيدِ غَلَبَةِ الخَالِقِ عَلَى أَسْبَابِ الفَنَاءِ وَإِتْقَانِهِ لِتَدْبِيرِ البَعْثِ. فَمَنْ طَلَبَ الفَهْمَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ فَتَحَ رَبُّهُ لَهُ أَبْوَابَ اليَقِينِ، بَيْنَمَا يَضِلُّ مَنْ سَأَلَ تَعَنُّتاً وَاسْتِكْبَاراً فَيُحْرَمُ نُورَ الطُّمَأْنِينَةِ.

الصَّدَى

سَعْيُ الطُّيُورِ وَطُمَأْنِينَةُ القَلْبِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

أَجْزَاءٌ مُتَنَاثِرَةٌ فَوْقَ قِمَمِ الجِبَالِ الشَّامِخَةِ تَلْتَئِمُ فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، فَتُقْبِلُ الطُّيُورُ سَعْياً نَحْوَ الخَلِيلِ لِتَمْلَأَ قَلْبَهُ بِسَكِينَةِ اليَقِينِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ السُّؤَالَ المَعْرِفِيَّ الصَّادِقَ يَقْدَحُ فِي صِحَّةِ الإِيمَانِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ التَّأَمُّلَ فِي كَيْفِيَّةِ الصُّنْعِ الإِلٰهِيِّ هُوَ المِعْرَاجُ نَحْوَ طُمَأْنِينَةِ الرُّوحِ. وَكَمْ ظَمِئَ

قَلْبِي قَدِيماً إِلَى مَشْهَدٍ يَشُدُّ أَزْرَ يَقِينِي وَيُسْكِنُ خَوَاطِرِي، حَتَّى وَجَدْتُ فِي قِصَّةِ الطُّيُورِ الأَرْبَعَةِ بَلْسَماً يَشْفِي التَّسَاؤُلَ وَيُثَبِّتُ الفُؤَادَ! أَتَأَمَّلُ قَطَرَاتِ البُخَارِ المُتَفَرِّقَةَ فِي أَرْجَاءِ الفَضَاءِ الفَسِيحِ كَيْفَ تَتَجَمَّعُ بِأَمْرٍ خَفِيٍّ لِتُشَكِّلَ سَحَابَةً وَاحِدَةً تُهْطِلُ بِالحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ. فَمَا أَعْظَمَ عِزَّةَ اللهِ وَحِكْمَتَهُ حِينَ يَسْتَجِيبُ لِتَشَوُّقِ خَلِيلِهِ فَيُحْيِي الطُّيُورَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ لِيَبْلُغَ ذُرْوَةَ الطُّمَأْنِينَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ تَسَاؤُلَاتِي العَقْلِيَّةُ مِنْ قَلَقٍ يَبْحَثُ فِي الظَّلَامِ إِلَى مُنَاجَاةٍ خَاشِعَةٍ تَسْأَلُ الخَالِقَ نُورَ البَصِيرَةِ وَسَكِينَةَ الفُؤَادِ. فَكُلُّ شَتَاتٍ تُفَرِّقُهُ الجِبَالُ وَالأَزْمَانُ يَجْمَعُهُ أَمْرُ البَعْثِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي يُطَمْئِنُ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢٦١-٢٧٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 261 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

نَمَاءُ البَذْلِ الصَّادِقِ فِي مَيَادِينِ الخَيْرِ يَتَجَاوَزُ حِسَابَاتِ الرِّيَاضِيَّاتِ المَادِّيَّةِ، فَيَحُولُ الدِّرْهَمَ الوَاحِدَ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَيَزِيدُ، بِبَرَكَةٍ تُنْبِتُ الرِّزْقَ كَمَا تُنْبِتُ الأَرْضُ الطَّيِّبَةُ أَزْكَى السَّنَابِلِ وَأَوْفَرَ الحَصَادِ. المَثَلُ القُرْآنِيُّ البَدِيعُ يَهْدِمُ وَهْمَ النُّقْصَانِ عِنْدَ العَطَاءِ، وَيُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ شُحِّ الحِسَابَاتِ الضَّيِّقَةِ، لِيُبْصِرَ أَنَّ المُعَامَلَةَ مَعَ الوَاسِعِ العَلِيمِ تِجَارَةٌ لَا تَعْرِفُ الكَسَادَ، بَلْ تَتَضَاعَفُ أَرْبَاحُهَا بِقَدْرِ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ وَحَاجَةِ المُلْهُوفِينَ. هٰذَا التَّصْوِيرُ الحَيُّ يَزْرَعُ فِي الضَّمِيرِ يَقِينَ السَّخَاءِ وَطُمَأْنِينَةَ الرِّزْقِ، إِذْ لَا يَضِيعُ عِنْدَ خَالِقِ الكَوْنِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ بُذِلَتْ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ. فَمَنْ أَوْدَعَ بَذْرَةَ مَالِهِ فِي تُرْبَةِ الإِخْلَاصِ حَصَدَ سَنَابِلَ البَرَكَةِ فِي الدُّنْيَا وَكُنُوزَ الخُلُودِ فِي الآخِرَةِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الشَّحِيحُ المُمْسِكُ مَحْرُوماً مِنْ نَمَاءِ الرِّزْقِ وَسَعَةِ الفَضْلِ.

الصَّدَى

حَبَّةُ العَطَاءِ وَسَنَابِلُ المِضَاعَفَةِ

صَدَى ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

بَذْرَةٌ صَغِيرَةٌ تُودَعُ فِي تُرْبَةِ الإِخْلَاصِ بِيَدٍ سَخِيَّةٍ، فَتَنْفَجِرُ بِالحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ لِتُثْمِرَ سَبْعَ سَنَابِلَ تَزْخَرُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِمِائَةِ حَبَّةٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الإِنْفَاقَ يَنْتَقِصُ مِنَ الثَّرْوَةِ وَيُقَرِّبُ مِنَ الفَقْرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ العَطَاءَ هُوَ البَوَّابَةُ السِّرِّيَّةُ لِانْفِتَاحِ خَزَائِنِ السَّمَاءِ. وَكَمْ حَبَسْتُ يَدِي قَدِيماً خَوْفاً مِنَ القِلَّةِ، فَجَفَّتْ بَرَكَةُ مَا أَمْلِكُ كَمَا تَجِفُّ الحَبَّةُ المَحْبُوسَةُ فِي صُنْدُوقٍ مُغْلَقٍ لَا يَمَسُّهُ المَاءُ وَلَا التُّرَابُ! أَتَأَمَّلُ الحَقْلَ الوَاسِعَ كَيْفَ يَتَحَوَّلُ مِنْ حَفْنَةِ بُذُورٍ مَنْثُورَةٍ إِلَى بَحْرٍ مُتَمَوِّجٍ مِنَ السَّنَابِلِ الذَّهَبِيَّةِ الَّتِي تُطْعِمُ الجَائِعِينَ وَتَمْلَأُ المَخَازِنَ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي يُضَاعِفُ الأَجْرَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُبَارِكُ فِي القَلِيلِ حَتَّى يَغْدُوَ ثَرْوَةً لَا تَنْفَدُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفَقَتِي فِي وُجُوهِ الخَيْرِ مِنْ تَضْحِيَةٍ ثَقِيلَةٍ عَلَى النَّفْسِ إِلَى غَرْسٍ مَيْمُونٍ أَتَرَقَّبُ سَنَابِلَهُ بِفَرَحٍ وَيَقِينٍ. فَكُلُّ مَالٍ يُكْنَزُ بَعِيداً عَنِ البَذْلِ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَطَاءٍ يُضَاعِفُهُ اللهُ بِفَضْلِهِ وَعِلْمِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 262 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

صِيَانَةُ الصَّدَقَةِ مِنْ كَدَرِ المَنِّ وَجِرَاحِ الأَذَى هُوَ السِّيَاجُ الَّذِي يَحْفَظُ لِلْعَطَاءِ نَقَاءَهُ وَيُبْلِغُهُ مَقَامَ القَبُولِ وَالأَمَانِ الأَبَدِيِّ. لَيْسَ الشَّأْنُ فِي إِخْرَاجِ المَالِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي حِفْظِ كَرَامَةِ الآخِذِ وَسَتْرِ حَاجَتِهِ دُونَ تَعْيِيرٍ أَوْ تَفَاخُرٍ يَكْسِرُ القَلْبَ وَيُفْسِدُ الثَّوَابَ. هٰذَا الأَدَبُ الرَّفِيعُ يُحَرِّرُ العَطَاءَ مِنْ شَوَائِبِ الأَنَانِيَّةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ البَشَرِيِّ، لِيَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِ الخَالِقِ الَّذِي يَتَوَلَّى حِفْظَ الأَجْرِ عِنْدَهُ وَيَمْنَحُ المُحْسِنِينَ سَكِينَةً تَطْرُدُ الخَوْفَ مِنَ المُسْتَقْبَلِ وَالحُزْنَ عَلَى المَاضِي. فَمَنْ أَعْطَى بِيَدٍ حَانِيَةٍ وَلِسَانٍ عَفِيفٍ نَالَ أَجْرَهُ مَوْفُوراً وَعَاشَ آمِناً مُطْمَئِنّاً، بَيْنَمَا يَهْدِمُ المَنَّانُ المُؤْذِي بُنْيَانَ إِحْسَانِهِ بِيَدِهِ وَيَخْسَرُ مَوَدَّةَ الخَلْقِ وَرِضَا الرَّبِّ.

الصَّدَى

عِفَّةُ العَطَاءِ وَسَكِينَةُ الأَمَانِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

غَيْثٌ رَحِيمٌ يَهْطِلُ فِي صَمْتِ اللَّيْلِ فَيَرْوِي العُرُوقَ العَطْشَى دُونَ صَخَبٍ يُوقِظُ النَّائِمِينَ أَوْ بَرْقٍ يَجْرَحُ العُيُونَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِعْلَاءِ الخَفِيِّ الَّذِي يُغْرِي المُعْطِيَ بِذِكْرِ فَضْلِهِ أَوْ كَسْرِ خَاطِرِ المُحْتَاجِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ أَغْلَى مِنَ العَطِيَّةِ. وَكَمْ أَفْسَدَتِ الكَلِمَاتُ الجَافَّةُ قَدِيماً مَعْرُوفاً بُذِلَ بِتَعَبٍ، فَذَهَبَ صَفَاؤُهُ وَبَقِيَتْ غُصَّتُهُ فِي الصُّدُورِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الصَّافِيَ فِي أَعَالِي الجِبَالِ كَيْفَ يَجُودُ بِمَائِهِ العَذْبِ لِكُلِّ عَابِرٍ دُونَ أَنْ يُنَادِيَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ يُذَكِّرَ الشَّارِبِينَ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ وَعْدَ اللهِ لِلْمُنْفِقِينَ العَفِيفِينَ حِينَ يَحْفَظُ أَجْرَهُمْ عِنْدَهُ وَيَنْفِي عَنْهُمْ كُلَّ خَوْفٍ أَوْ حُزْنٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَتِي مِنْ مِنَّةٍ تَشْعُرُ بِالفَوْقِيَّةِ إِلَى خِدْمَةٍ خَاشِعَةٍ تَشْكُرُ الفَقِيرَ لِأَنَّهُ فَتَحَ لَهَا بَابَ القُرْبِ مِنَ السَّمَاءِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَشُوبُهُ المَنُّ وَالأَذَى مَآلُهُ البُطْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِحْسَانٍ نَقِيٍّ يَحْفَظُهُ اللهُ عِنْدَهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 263 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

جَمَالُ الكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَسَعَةُ التَّجَاوُزِ عَنْ إِلْحَاحِ السَّائِلِ يَرْجَحَانِ فِي مِيزَانِ القِيَمِ عَلَى عَطَاءٍ مَادِّيٍّ مَشُوبٍ بِالتَّجْرِيحِ وَالإِهَانَةِ. المَنْهَجُ القُرْآنِيُّ يُعِيدُ تَرْتِيبَ الأَوْلَوِيَّاتِ الأَخْلَاقِيَّةِ، فَيُؤَكِّدُ أَنَّ صِيَانَةَ مَشَاعِرِ الإِنْسَانِ بِقَوْلٍ رَفِيقٍ وَعَفْوٍ كَرِيمٍ أَحَبُّ إِلَى الخَالِقِ الغَنِيِّ عَنْ صَدَقَاتِ العِبَادِ مِنْ مَالٍ يُذِلُّ النُّفُوسَ، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى حِلْمِهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي لَا يُعَاجِلُ المَنَّانِينَ بِالعُقُوبَةِ رَغْمَ قُبْحِ صَنِيعِهِمْ. هٰذِهِ الحِكْمَةُ تَفْتَحُ أَبْوَابَ الإِحْسَانِ أَمَامَ كُلِّ إِنْسَانٍ وَلَوْ كَانَ فَقِيراً لَا يَمْلِكُ دِرْهَماً، إِذِ الِابْتِسَامَةُ

الصَّادِقَةُ وَالدُّعَاءُ الحَسَنُ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ تَجْبُرُ القُلُوبَ. فَمَنْ أَلَانَ قَوْلَهُ وَغَفَرَ هَفَوَاتِ المحْتَاجِينَ نَالَ خَيْرِيَّةَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ أَعْطَى بِيَدِهِ وَجَرَحَ بِلِسَانِهِ.

الصَّدَى

بَلْسَمُ الكَلِمَةِ وَغِنَى الحَلِيمِ

صَدَى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

كَلِمَةٌ حَانِيَةٌ تَمْسَحُ غُبَارَ الانْكِسَارِ عَنْ وَجْهِ الفَقِيرِ، فَتُغْنِي رُوحَهُ بِالْكَرَامَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تُغْنِيهِ الدَّرَاهِمُ المشُوبَةُ بِالمنِّ وَالجَفَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الإِحْسَانَ مَحْصُورٌ فِي العَطَاءِ المالِيّ وَحْدَهُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ وَالمغْفِرَةَ هُمَا أَرْفَعُ مَنَازِلِ الكَرَمِ الإِنْسَانِيّ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ ضِيقَ اليَدِ يَمْنَعُنِي مِنْ مَيَادِينِ البِرّ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي بَصِيرَتِي هٰذِهِ المفَاضَلَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي تُقَدِّمُ المعْرُوفَ اللِّسَانِيَّ عَلَى الصَّدَقَةِ المؤْذِيَةِ! أَتَأَمَّلُ النَّسِيمَ العَلِيلَ فِي الظَّهِيرَةِ الحَارَّةِ كَيْفَ يُبَرِّدُ وَجْهَ العَابِرِ وَيُدْخِلُ السَّكِينَةَ إِلَى صَدْرِهِ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ مَالاً أَوْ ذَهَباً، بَيْنَمَا تُؤْذِي الرِّيحُ المحَمَّلَةُ بِالغُبَارِ وَلَوْ حَمَلَتْ مَعَهَا أَوْرَاقَ الشَّجَرِ. فَمَا أَعْظَمَ غِنَى اللهِ وَحِلْمَهُ حِينَ يُعَلِّمُنَا أَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِنَا وَحَلِيمٌ عَلَى تَقْصِيرِنَا لِيُهَذِّبَ أَلْسِنَتَنَا وَقُلُوبَنَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُعَامَلَتِي مَعَ السَّائِلِينَ مِنْ تَبَرُّمٍ وَضِيقٍ إِلَى رِفْقٍ وَمَغْفِرَةٍ تَصُونُ كَرَامَةَ البَشَرِ. فَكُلُّ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى مَآلُهَا الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَعْرُوفٍ يَرْضَاهُ اللهُ الغَنِيُّ الحَلِيمُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 264 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُحْبِطَاتُ الأَعْمَالِ الخَفِيَّةُ مِنَ المنِّ وَالرِّيَاءِ تَهْدِمُ صَرْحَ الطَّاعَةِ مِنْ أَسَاسِهِ، فَتَجْعَلُ صَاحِبَ الصَّدَقَةِ المؤْذِيَةِ شَبِيهاً بِالمرَائِي الَّذِي لَا يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ. التَّشْبِيهُ القُرْآنِيُّ المبْهِرُ يُصَوِّرُ هٰذِهِ الأَعْمَالَ الجَوْفَاءَ

بِحَجَرٍ أَمْلَسَ غَطَّتْهُ قِشْرَةٌ رَقِيقَةٌ مِنَ التُّرَابِ تَوَهَّمَهَا النَّاظِرُ أَرْضاً خَصْبَةً، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهَا المطَرُ الغَزِيرُ جَرَفَ التُّرَابَ وَكَشَفَ عَنْ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَا تُنْبِتُ زَرْعاً وَلَا تُمْسِكُ مَاءً. هٰذَا الميزَانُ التَّرْبَوِيُّ يُحَرِّرُ القَلْبَ مِنْ وَهْمِ الِاغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ العَطَاءِ الظَّاهِرِ مَعَ فَسَادِ البَاطِنِ، وَيَدْعُو لِتَطْهِيرِ النِّيَّةِ مِنَ التَّظَاهُرِ وَالإِيذَاءِ حَتَّى لَا يَتَبَخَّرَ الجُهْدُ يَوْمَ الحِسَابِ. فَمَنْ أَخْلَصَ صَدَقَتَهُ لِوَجْهِ مَوْلَاهُ وَصَانَهَا عَنِ المنِّ أَثْمَرَتْ لَهُ نَعِيماً مُقِيماً، بَيْنَمَا يَقِفُ المرَائِي وَالمنَّانُ أَمَامَ صَخْرَةٍ صَلْدَاءَ لَا يَقْدِرَانِ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبَا.

الصَّدَى

صَخْرَةُ الرِّيَاءِ وَعَاصِفَةُ الوَابِلِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

صَخْرَةٌ مَلْسَاءُ تَتَسَتَّرُ تَحْتَ غِشَاءٍ رَقِيقٍ مِنَ التُّرَابِ الزَّائِفِ، فَيَجْتَاحُهَا المطَرُ الغَزِيرُ لِيَفْضَحَ جَفَافَهَا وَيَتْرُكَهَا عَارِيَةً لَا تُنْبِتُ حَيَاةً. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الطُّمَأْنِينَةِ إِلَى عَمَلٍ يَبْتَغِي مَدِيحَ النَّاسِ أَوْ يَتْبَعُهُ التَّعْيِيرُ، وَأُبْصِرُ أَنَّ السَّرِيرَةَ الفَاسِدَةَ تُحِيلُ الكُنُوزَ إِلَى هَبَاءٍ مَنْثُورٍ. وَكَمِ انْخَدَعَتْ عَيْنِي قَدِيماً بِبَرِيقِ المظَاهِرِ الخَادِعَةِ، فَظَنَنْتُ كُلَّ عَطَاءٍ مَشْهُودٍ مَقْبُولاً حَتَّى هَزَّنِي مَثَلُ الصَّفْوَانِ وَالوَابِلِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الأَجْرَدَ حِينَ تَهْطِلُ عَلَيْهِ السُّيُولُ الجَارِفَةُ فَتَغْسِلُ مَا عَلَقَ بِسَطْحِهِ مِنْ غُبَارٍ خَفِيفٍ، فَيَظْهَرُ صَلْداً قَاسِياً لَا يَحْتَفِظُ بِقَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الغَيْثِ. فَمَا أَشَدَّ تَحْذِيرَ اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ كَيْ لَا يُبْطِلُوا صَدَقَاتِهِمْ بِالمنِّ وَالأَذَى فَيَصِيرُوا كَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاليَوْمِ الآخِرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُرَاقَبَتِي لِنَفْسِي مِنْ عِنَايَةٍ بِحَجْمِ العَطَاءِ الظَّاهِرِ إِلَى حِرَاسَةٍ صَارِمَةٍ لِصَفَاءِ النِّيَّةِ وَسَلَامَةِ اللِّسَانِ. فَكُلُّ عَمَلٍ يَقُومُ عَلَى الرِّيَاءِ وَالمنِّ مَآلُهُ الصَّلْدُ وَالفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِخْلَاصٍ يَهْدِي بِهِ اللهُ القُلُوبَ الصَّادِقَةَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 265 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

الإِنْفَاقُ الخَالِصُ لِوَجْهِ الخَالِقِ النَّابِعُ مِنْ رُسُوخِ اليَقِينِ فِي النَّفْسِ يُشْبِهُ بُسْتَاناً مُرْتَفِعاً فَوْقَ رَبْوَةٍ طَيِّبَةِ الهَوَاءِ وَالتُّرْبَةِ، لَا تَزِيدُهُ الأَمْطَارُ الغَزِيرَةُ إِلَّا تَضَاعُفاً فِي الثَّمَرِ، وَيَكْفِيهِ النَّدَى الخَفِيفُ لِيُحَافِظَ عَلَى خُضْرَتِهِ وَعَطَائِهِ. هٰذَا المَثَلُ النُّورَانِيُّ يَكْشِفُ أَنَّ قِيمَةَ العَطَاءِ تَنْبُعُ مِنْ تَثْبِيتِ النَّفْسِ عَلَى الإِيمَانِ وَتَرْوِيضِهَا عَلَى السَّخَاءِ، فَسَوَاءٌ كَانَ المَالُ المَبْذُولُ كَثِيراً كَالوَابِلِ أَوْ قَلِيلاً كَالطَّلِّ، فَإِنَّهُ يُثْمِرُ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً تَحْتَ عَيْنِ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ. هٰذِهِ البِشَارَةُ تُحَرِّرُ الفَقِيرَ مِنْ شُعُورِ العَجْزِ أَمَامَ عَطَاءِ الأَغْنِيَاءِ، إِذِ القَلِيلُ الصَّادِقُ يُبَارِكُهُ البَصِيرُ فَيَغْدُو جَنَّةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ. فَمَنْ أَنْفَقَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ أَزْهَرَتْ حَيَاتُهُ وَآخِرَتُهُ بِأَطْيَبِ الثِّمَارِ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ البَخِيلُ رُوحَهُ مِنْ نَعِيمِ الجَنَّةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ.

الصَّدَى

جَنَّةُ الرَّبْوَةِ وَبَرَكَةُ الوَابِلِ وَالطَّلِّ

صَدَى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

بُسْتَانٌ عَامِرٌ يَعْلُو فَوْقَ رَبْوَةٍ نَقِيَّةِ الهَوَاءِ، تَغْمُرُهُ السَّحَائِبُ بِالوَابِلِ الغَزِيرِ فَيُضَاعِفُ ثِمَارَهُ، وَإِنْ مَسَّهُ الطَّلُّ اللَّطِيفُ أَزْهَرَ فِي سَكِينَةٍ وَهَاءٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ احْتِقَارِ القَلِيلِ مِنَ الخَيْرِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ صِدْقَ القَلْبِ وَتَثْبِيتَ النَّفْسِ عَلَى البَذْلِ هُمَا اللَّذَانِ يَجْعَلَانِ العَطَاءَ جَنَّةً لَا تَذْبُلُ. وَكَمْ تَصَاغَرَتْ فِي عَيْنِي قَدِيماً نَفَقَةٌ يَسِيرَةٌ فِي سَاعَةِ الضِّيقِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ قَطَرَاتِ الطَّلِّ فِي عَيْنِ السَّمَاءِ تُغْنِي كَمَا يُغْنِي المَطَرُ الهَطَّالُ! أَتَأَمَّلُ الحَدِيقَةَ الغَنَّاءَ عَلَى السَّفْحِ المُرْتَفِعِ كَيْفَ تَسْتَقْبِلُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ وَنَسَمَاتِ الفَجْرِ، فَلَا يَجْرُفُهَا السَّيْلُ وَلَا يَقْتُلُهَا الجَفَافُ بَلْ تَزْدَادُ نَضَارَةً فِي كُلِّ حَالٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ البَصِيرِ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ حِينَ يَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الوَابِلَ وَالطَّلَّ وَيُؤْتِيهِمْ أُكُلَ إِخْلَاصِهِمْ ضِعْفَيْنِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي مِنْ تَرَدُّدٍ يَنْتَظِرُ الثَّرَاءَ الكَبِيرَ لِيُعْطِيَ إِلَى نَبْعٍ دَائِمٍ يَجُودُ بِمَا يَمْلِكُ فِي كُلِّ وَقْتٍ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَبْتَغِي مَرْضَاةَ الخَالِقِ مَآلُهُ النَّمَاءُ المُضَاعَفُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِجَنَّةٍ يَرْعَاهَا اللهُ بِبَصَرِهِ وَفَضْلِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 266 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الفَاجِعَةُ النَّفْسِيَّةُ لِضَيَاعِ ثَمَرَةِ العُمْرِ عِنْدَ أَشَدِّ سَاعَاتِ الحَاجَةِ وَالعَجْزِ تَهُزُّ الضَّمِيرَ الغَافِلَ لِيَحْذَرَ مِنْ إِحْبَاطِ أَعْمَالِهِ بِالمَعَاصِي وَالمنِّ وَالرِّيَاءِ. الِاسْتِفْهَامُ القُرْآنِيُّ المؤَثِّرُ يَضَعُ العَقْلَ أَمَامَ مَشْهَدِ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَهَنَ عَظْمُهُ وَأَحَاطَ بِهِ أَطْفَالٌ ضُعَفَاءُ لَا يَقْوَوْنَ عَلَى الكَسْبِ، وَكَانَ مَلَاذُهُمُ الوَحِيدُ بُسْتَاناً عَامِراً بِالنَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ وَالأَنْهَارِ، فَإِذَا بِإِعْصَارٍ نَارِيٍّ يَلْتَهِمُهُ فِي لَحْظَةٍ وَيَتْرُكُهُمْ فِي العَرَاءِ. كَذٰلِكَ حَالُ مَنْ يَبْنِي جَبَلاً مِنَ الحَسَنَاتِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُرْسِلُ عَلَيْهِ إِعْصَارَ المنِّ وَالأَذَى وَالعُجْبِ، فَيَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَهُوَ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَى حَسَنَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَا يَجِدُ إِلَّا الرَّمَادَ. فَمَنْ أَعْمَلَ فِكْرَهُ فَصَانَ بُسْتَانَ عَمَلِهِ مِنَ المحْبِطَاتِ نَجَا يَوْمَ الفَاقَةِ الكُبْرَى، بَيْنَمَا يَبْكِي المفَرِّطُ عَلَى رَمَادِ جَنَّتِهِ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ.

الصَّدَى

إِعْصَارُ النَّارِ وَرَمَادُ البُسْتَانِ

صَدَى ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾

جَنَّةٌ وَارِفَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ تُظِلُّ شَيْخاً ضَعِيفاً وَصِغَاراً عَاجِزِينَ، فَيَجْتَاحُهَا إِعْصَارٌ مُلْتَهِبٌ يُحِيلُ خُضْرَتَهَا وَثِمَارَهَا إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الأَمَانِ الكَاذِبِ عَلَى مَخْزُونِ الطَّاعَاتِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الكِبْرَ وَالمنَّ وَالأَذَى نِيرَانٌ خَفِيَّةٌ تَلْتَهِمُ حَصَادَ العُمْرِ كُلِّهِ. وَكَمْ جَمَعْتُ قَدِيماً أَعْمَالاً ظَنَنْتُهَا ذَخِيرَةً لِيَوْمِ الفَاقَةِ، ثُمَّ أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا رِيَاحَ الغَفْلَةِ وَالتَّفَاخُرِ فَكِدْتُ أُحْرِقُ بُسْتَانِي بِيَدِي! أَتَأَمَّلُ الغَابَةَ الكَثِيفَةَ الَّتِي نَمَتْ عَبْرَ السِّنِينَ الطِّوَالِ كَيْفَ تَصِيرُ هَشِيماً أَسْوَدَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ بِسَبَبِ شَرَارَةٍ عَابِرَةٍ لَمْ يُطْفِئْهَا صَاحِبُهَا فِي حِينِهَا. فَمَا أَعْظَمَ مَوْعِظَةَ اللهِ الَّذِي يَضْرِبُ لَنَا

الأَمْثَالَ لِنَتَفَكَّرَ فِي عَوَاقِبِ أَعْمَالِنَا قَبْلَ أَنْ نَبْلُغَ سَاعَةَ العَجْزِ وَالحَاجَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي مِنْ حِرْصٍ عَلَى جَمْعِ الحَسَنَاتِ فَقَطْ إِلَى حِرَاسَةٍ دَائِمَةٍ تَحْمِي البُسْتَانَ مِنْ شَرَارَةِ الرِّيَاءِ وَالمِنّ. فَكُلُّ جَنَّةٍ تَخْلُو مِنْ سِيَاجِ الإِخْلَاصِ مَآلُهَا الِاحْتِرَاقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِثَمَرٍ يَحْفَظُهُ اللهُ لِصَاحِبِهِ يَوْمَ اللِّقَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 267 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَقْدِيمُ الأَجْوَدِ وَالأَطْيَبِ فِي مَيَادِينِ البَذْلِ وَالتَّنَزُّهُ عَنْ إِخْرَاجِ الرَّدِيءِ المَعِيبِ يُبْرِزَانِ تَعْظِيمَ الخَالِقِ وَاحْتِرَامَ كَرَامَةِ الفُقَرَاءِ. المِعْيَارُ الأَخْلَاقِيُّ الدَّقِيقُ الَّذِي يَضَعُهُ القُرْآنُ هُوَ أَنْ يَضَعَ المُعْطِي نَفْسَهُ مَكَانَ الآخِذِ؛ فَمَا لَا يَرْضَاهُ الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ وَكَرَاهِيَةٍ لَا يَلِيقُ أَنْ يُقَدِّمَهُ قُرْبَاناً لِرَبِّهِ أَوْ صَدَقَةً لِأَخِيهِ. هٰذِهِ الهِدَايَةُ تُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنْ دَنَاءَةِ التَّخَلُّصِ مِنَ الفَاسِدِ تَحْتَ سِتَارِ الصَّدَقَةِ، وَتُذَكِّرُ بِأَنَّ الخَالِقَ غَنِيٌّ عَنْ عَطَاءِ العِبَادِ، حَمِيدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ. فَمَنْ آثَرَ الطَّيِّبَ فِي عَطَائِهِ نَالَ قَبُولَ الغَنِيِّ الحَمِيدِ وَزَكَاةَ نَفْسِهِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ شُحُّ مَنْ يَنْتَقِي الخَبِيثَ لِيُقَدِّمَهُ لِلسَّمَاءِ.

الصَّدَى

إِيثَارُ الطَّيِّبِ وَغِنَى الحَمِيدِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ثِمَارٌ يَانِعَةٌ تَتَلَأْلَأُ بِالنَّضَارَةِ وَالجَوْدَةِ تُقَدَّمُ بِحُبٍّ وَإِكْرَامٍ، وَبَقَايَا ذَابِلَةٌ تَأْنَفُ مِنْهَا العُيُونُ وَلَا تَقْبَلُهَا النُّفُوسُ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ وَتَكَرُّهٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّصَدُّقِ بِمَا فَاضَ عَنِ الرَّغْبَةِ وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِ القِيمَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ العَطَاءَ الحَقِيقِيَّ هُوَ أَنْ أُعْطِيَ مِمَّا أُحِبُّ وَأَرْضَى لِنَفْسِي. وَكَمْ امتَدَّتْ يَدِي قَدِيماً إِلَى الأَدْنَى لِأُخْرِجَهُ بِاسْمِ البِرِّ بَيْنَمَا أَسْتَبْقِي الأَطْيَبَ لِذَاتِي، غَافِلاً عَنْ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي

يَدِ الخَالِقِ قَبْلَ يَدِ الفَقِيرِ! أَتَأَمَّلُ النَّحْلَةَ الدَّؤُوبَ كَيْفَ لَا تَقِفُ إِلَّا عَلَى أَطْيَبِ الأَزْهَارِ وَأَنْقَى الرَّحِيقِ لِتُخْرِجَ شَهْداً شَافِياً يُكْرِمُ الآكِلِينَ وَيُبْهِجُ النَّاظِرِينَ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ الَّذِي يَرْفَعُ ذَوْقَ عِبَادِهِ وَمُرُوءَتَهُمْ كَيْ لَا يُقَدِّمُوا لِغَيْرِهِمْ مَا يَسْتَحْيُونَ مِنْ قَبُولِهِ لِأَنْفُسِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اختِيَارَاتِي عِنْدَ البَذْلِ مِنْ تَخَلُّصٍ مِنَ الزَّائِدِ الرَّدِيءِ إِلَى انْتِقَاءٍ كَرِيمٍ يَبْتَغِي الأَجْوَدَ وَالأَطْيَبَ. فَكُلُّ خَبِيثٍ يُقَدَّمُ فِي مِحْرَابِ العَطَاءِ مَآلُهُ الرَّدُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَيِّبٍ يَتَقَبَّلُهُ اللهُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 268 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

الصِّرَاعُ الدَّاخِلِيُّ فِي نَفْسِ الإِنْسَانِ عِنْدَ لَحْظَةِ البَذْلِ هُوَ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ نِدَاءَيْنِ: نِدَاءُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُخَوِّفُ القَلْبَ مِنْ شَبَحِ الفَقْرِ لِيَدْفَعَهُ إِلَى الإِمْسَاكِ وَالمَعْصِيَةِ، وَوَعْدُ الخَالِقِ الَّذِي يُبَشِّرُ بِالمَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ وَالفَضْلِ المُضَاعَفِ فِي الرِّزْقِ. كَشْفُ هٰذِهِ الحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَسَاوِسِ القَلَقِ الِاقْتِصَادِيِّ الَّتِي تَصْنَعُ البُخْلَ وَالجَشَعَ، لِيَثِقَ فِي وَعْدِ الوَاسِعِ الَّذِي لَا تَنْفَدُ خَزَائِنُهُ، العَلِيمِ بِنَوَايَا البَاذِلِينَ وَحَاجَاتِهِمْ. هٰذِهِ البَصِيرَةُ تَجْعَلُ الإِنْسَانَ سَيِّداً عَلَى مَالِهِ لَا عَبْداً لِمَخَاوِفِهِ، فَيَخْتَارُ وَعْدَ السَّمَاءِ الصَّادِقَ وَيَرْكُلُ أَوْهَامَ العَدُوِّ الكَاذِبَ. فَمَنْ صَدَّقَ وَعْدَ رَبِّهِ وَأَنْفَقَ نَالَ المَغْفِرَةَ وَالفَضْلَ الوَاسِعَ، بَيْنَمَا يَعِيشُ أَسِيرُ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ فِي فَقْرٍ نَفْسِيٍّ دَائِمٍ وَلَوْ مَلَكَ قَنَاطِيرَ الذَّهَبِ.

الصَّدَى

هَمْسُ الفَقْرِ وَوَعْدُ الفَضْلِ الوَاسِعِ

صَدَى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

نِدَاءَانِ يَتَجَاذَبَانِ القَلْبَ عِنْدَ عَتَبَةِ العَطَاءِ؛ ظِلٌّ مُظْلِمٌ يَبُثُّ رُعْبَ الفَقْرِ وَالإِفْلَاسِ، وَنُورٌ سَمَاوِيٌّ يَفْتَحُ أَبْوَابَ المَغْفِرَةِ وَالفَضْلِ الكَرِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّصْدِيقِ لِهَوَاجِسِ الخَوْفِ الَّتِي تَقْبِضُ اليَدَ وَتُضَيِّقُ الصَّدْرَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الفَقْرَ الحَقِيقِيَّ هُوَ فَقْرُ الثِّقَةِ بِوَعْدِ الرَّزَّاقِ. وَكَمْ أَرْجَفَتْ قَلْبِي قَدِيماً

وَسَاوِسُ الحِرْمَانِ عِنْدَ كُلِّ فُرْصَةِ بَذْلٍ، حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ تِلْكَ المخَاوِفَ لَيْسَتْ إِلَّا خُيُوطَ عَنْكَبُوتٍ يَنْسُجُهَا الشَّيْطَانُ لِيَحْرِمَنِي خَيْرَ الدَّارَيْنِ! أَتَأَمَّلُ البَحْرَ المحِيطَ كَيْفَ تَغْتَرِفُ مِنْهُ السُّحُبُ كُلَّ يَوْمٍ أَنْهَاراً مِنَ الماءِ لِتَسْقِيَ القَارَّاتِ، فَلَا يَنْقُصُ مِنْ سَعَتِهِ شَيْءٌ بَلْ يَزْدَادُ صَفَاءً وَعَطَاءً. فَمَا أَعْظَمَ وَعْدَ اللهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي يَمْحُو الذُّنُوبَ بِمَغْفِرَتِهِ وَيُخْلِفُ النَّفَقَةَ بِفَضْلِهِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَحْظَةُ التَّرَدُّدِ فِي نَفْسِي مِنْ خَوْفٍ يَخْشَى النَّفَادَ إِلَى يَقِينٍ مُطْمَئِنٍّ يُبَادِرُ بِالعَطَاءِ طَمَعاً فِي مَغْفِرَةِ الخَالِقِ وَسَعَةِ رِزْقِهِ. فَكُلُّ وَعْدٍ يَبُثُّهُ الشَّيْطَانُ مَآلُهُ السَّرَابُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَعْدِ اللهِ الوَاسِعِ العَلِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 269 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

الحِكْمَةُ البَالِغَةُ الَّتِي تَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا وَتَهْدِي الإِنْسَانَ إِلَى الصَّوَابِ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ هِيَ أَعْظَمُ هِبَةٍ يَمْنَحُهَا الخَالِقُ لِعِبَادِهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ. لَيْسَ الخَيْرُ الكَثِيرُ فِي تَكْدِيسِ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ وَبَالاً عَلَى صَاحِبِهَا إِذَا أَسَاءَ تَدْبِيرَهَا، بَلْ فِي نُورِ الحِكْمَةِ الَّذِي يُبَصِّرُ العَقْلَ بِمَقَاصِدِ الوَحْيِ وَسُنَنِ الكَوْنِ فَيُحْسِنُ الِاخْتِيَارَ وَالبَذْلَ. هٰذَا المِيزَانُ المَعْرِفِيُّ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ سَطْحِيَّةِ التَّفْكِيرِ المَادِّيِّ، وَيُبْرِزُ أَنَّ أَصْحَابَ العُقُولِ الصَّافِيَةِ «أُولِي الأَلْبَابِ» هُمُ الَّذِينَ يَتَّعِظُونَ بِالْآيَاتِ وَيَسْتَثْمِرُونَ الحِكْمَةَ فِي إِصْلَاحِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فَمَنْ أُوتِيَ الحِكْمَةَ وَعَمِلَ بِهَا حَازَ خَيْرَيِ الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المحْرُومُ مِنْهَا فِي مَتَاهَاتِ الجَهْلِ وَلَوْ مَلَكَ خَزَائِنَ الأَرْضِ.

الصَّدَى

نُورُ الحِكْمَةِ وَكَنْزُ أُولِي الأَلْبَابِ

صَدَى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

جَوْهَرَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَسْتَقِرُّ فِي قَلْبِ العَاقِلِ فَتُضِيءُ لَهُ زَوَايَا الوُجُودِ، وَتَهْدِيهِ إِلَى مَوَاضِعِ الصَّوَابِ حَيْثُ

تَتَعَثَّرُ خُطَى الغَافِلِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ حَصْرِ الخَيْرِ الكَثِيرِ فِي الثَّرْوَةِ المَادِّيَّةِ أَوِ المَتَاعِ الفَانِي، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحِكْمَةَ هِيَ التَّاجُ الأَغْلَى الَّذِي يُتَوِّجُ بِهِ الخَالِقُ عُقُولَ أَصْفِيَائِهِ. وَكَمْ جَرَيْتُ قَدِيماً خَلْفَ بَرِيقِ الأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ حِكْمَتِهَا وَغَايَتِهَا، فَعُدْتُ بِتَعَبِ الطَّرِيقِ دُونَ سَكِينَةِ الوُصُولِ! أَتَأَمَّلُ المَنَارَةَ العَالِيَةَ الَّتِي تَبْعَثُ ضَوْءَهَا الثَّاقِبَ فَوْقَ الأَمْوَاجِ المُظْلِمَةِ، فَتُرْشِدُ السُّفُنَ الحَائِرَةَ إِلَى مَمَرَّاتِ الأَمَانِ وَتَقِيهَا التَّحَطُّمَ عَلَى الصُّخُورِ الخَفِيَّةِ. فَمَا أَعْظَمَ عَطَاءَ اللهِ حِينَ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ لِيَمْنَحَهُ خَيْراً كَثِيراً لَا تَطَالُهُ يَدُ الفَنَاءِ وَلَا يَغْفُلُ عَنْهُ أُولُو الأَلْبَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمُوحَاتِي فِي الحَيَاةِ مِنْ تَكَالُبٍ عَلَى الفُتَاتِ الزَّائِلِ إِلَى ابْتِهَالٍ صَادِقٍ يَسْأَلُ السَّمَاءَ نُورَ الفَهْمِ وَسَدَادَ البَصِيرَةِ. فَكُلُّ مَالٍ يَخْلُو مِنَ الحِكْمَةِ مَآلُهُ الضَّيَاعُ وَالشَّقَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِكْمَةِ اللهِ الَّتِي تُنِيرُ أُولِي الأَلْبَابِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 270 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

المَوْعِظَةُ

إِحَاطَةُ العِلْمِ الإِلٰهِيِّ بِكُلِّ عَطَاءٍ صَغُرَ أَوْ كَبُرَ وَبِكُلِّ عَهْدٍ قَطَعَهُ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ تَغْرِسُ فِي القَلْبِ الطُّمَأْنِينَةَ وَالمَسْؤُولِيَّةَ مَعاً. لَا تَضِيعُ نَفَقَةٌ فِي سِجِلِّ السَّمَاءِ مَهْمَا خَفِيَتْ عَنْ أَعْيُنِ البَشَرِ، وَلَا يَسْقُطُ نَذْرٌ التَزَمَهُ العَبْدُ طَاعَةً لِرَبِّهِ دُونَ وَفَاءٍ؛ لِأَنَّ الخَالِقَ يَعْلَمُ الدَّقَائِقَ وَالنَّوَايَا وَيُجَازِي كُلَّ سَاعٍ بِقَدْرِ إِخْلَاصِهِ. وَفِي المُقَابِلِ يَأْتِي التَّحْذِيرُ الحَاسِمُ لِلظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ الحُقُوقَ أَوْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الفَسَادِ وَالصَّدِّ عَنِ الحَقِّ، بِأَنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا يَوْمَ الحِسَابِ نَصِيراً يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَدْلَ السَّمَاءِ. فَمَنْ أَوْفَى بِنَذْرِهِ وَأَخْلَصَ نَفَقَتَهُ نَالَ تَقْدِيرَ العَلِيمِ وَنُصْرَتَهُ، بَيْنَمَا يَقِفُ الظَّالِمُ وَحِيداً بِلَا نَصِيرٍ أَمَامَ عَوَاقِبِ بَغْيِهِ.

الصَّدَى

سِجِلُّ العَلِيمِ وَوَحْشَةُ الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

صَحِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ لَا تَغْفُلُ عَنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ عَطَاءٍ خَفِيٍّ أَوْ عَهْدٍ صَادِقٍ، تَحْفَظُ أَنْفَاسَ المحْسِنِينَ وَتَكْشِفُ عُزْلَةَ الظَّالِمِينَ يَوْمَ اللِّقَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الخَيْرَ المسْتُورَ الَّذِي لَا يَرَاهُ النَّاسُ يَذْهَبُ سُدًى، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ عِلْمَ السَّمَاءِ أَوْفَى سِجِلٍّ وَأَكْرَمُ شَاهِدٍ. وَكَمْ تَرَدَّدْتُ قَدِيماً فِي الوَفَاءِ بِبَعْضِ العُهُودِ حِينَ تَبَاعَدَ الزَّمَنُ وَنَسِيَ الخَلْقُ، حَتَّى أَيْقَظَنِي يَقِينُ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ وَكُلَّ نَذْرٍ مَعْلُومٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَى! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَسْقُطُ فِي شَقِّ صَخْرَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أَعْيُنِ البَشَرِ، كَيْفَ يَرْعَاهَا المطَرُ وَالشَّمْسُ بِأَمْرِ الخَالِقِ حَتَّى تَشُقَّ طَرِيقَهَا نَحْوَ النُّورِ وَتُثْمِرَ فِي صَمْتٍ. فَمَا أَعْظَمَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ الَّذِي يُحْصِي كُلَّ نَفَقَةٍ وَنَذْرٍ لِيُثِيبَ الصَّادِقِينَ، بَيْنَمَا يَتْرُكُ الظَّالِمِينَ بِلَا نَصِيرٍ وَلَا شَفِيعٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَعْمَالِي وَعُهُودِي مِنْ انْتِظَارٍ لِشَهَادَةِ البَشَرِ إِلَى وَفَاءٍ صَادِقٍ يَأْنَسُ بِعِلْمِ الخَالِقِ وَيَحْذَرُ مَصِيرَ الظَّالِمِينَ. فَكُلُّ ظُلْمٍ يَتَجَبَّرُ فِي الأَرْضِ مَآلُهُ الخِذْلَانُ وَالعُزْلَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَحُكْمِهِ العَادِلِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢٧١–٢٨٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 271 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

فِقْهُ المُوَازَنَةِ بَيْنَ إِعْلَانِ العَطَاءِ لِتَحْفِيزِ الهِمَمِ وَإِسْرَارِهِ لِصِيَانَةِ الإِخْلَاصِ وَكَرَامَةِ الفَقِيرِ يُبْرِزُ مَرُونَةَ التَّشْرِيعِ فِي رِعَايَةِ القُلُوبِ وَالمجْتَمَعَاتِ، فَلَا يَحْجُرُ عَلَى الإِنْسَانِ خَيْراً أَظْهَرَهُ بِصِدْقٍ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْغَيْرِ، وَلَا يُحْرِمُهُ فَضِيلَةَ الخَفَاءِ الَّذِي يَقْطَعُ دَابِرَ الرِّيَاءِ وَيَسْتُرُ حَاجَةَ السَّائِلِ. هٰذَا التَّدَرُّجُ الحَكِيمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَسْوَسَةِ التَّرَدُّدِ بَيْنَ السِّرِّ وَالعَلَنِ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الصَّدَقَةَ الخَفِيَّةَ لِلْفُقَرَاءِ أَقْرَبُ إِلَى النَّقَاءِ وَأَعْظَمُ أَثَراً فِي تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَتَطْهِيرِ الصَّحَائِفِ، تَحْتَ نَظَرِ الخَبِيرِ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ دَقَائِقُ النَّوَايَا وَخَفَايَا الصُّدُورِ. فَمَنْ أَسَرَّ بِعَطَائِهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ مَوْلَاهُ نَالَ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ وَصَفَاءَ السَّرِيرَةِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ أَفْسَدَ عَلَانِيَتَهُ بِالتَّبَاهِي وَالمنِّ فَذَهَبَ أَجْرُهُ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ.

الصَّدَى

سِتْرُ الخَفَاءِ وَنُورُ القُدْوَةِ

صَدَى ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

جَدْوَلٌ رَقْرَاقٌ يَسْرِي تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ لِيَرْوِيَ الجُذُورَ العَطْشَى فِي صَمْتٍ، وَنَهْرٌ ظَاهِرٌ يَجْرِي فِي ضَوْءِ النَّهَارِ لِيُعَلِّمَ العَابِرِينَ سَبِيلَ السَّخَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ القَطِيعَةِ بَيْنَ جَمَالِ القُدْوَةِ المُعْلَنَةِ وَطَهَارَةِ الإِخْلَاصِ المَسْتُورِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ سِتْرَ الفَقِيرِ أَزْكَى لِلْقَلْبِ وَأَحْمَى لِلذُّنُوبِ. وَكَمْ تَرَدَّدَتْ يَدِي قَدِيماً بَيْنَ خَوْفِ الرِّيَاءِ إِنْ أَظْهَرْتُ، وَشُحِّ النَّفْسِ إِنْ أَخْفَيْتُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي بَصِيرَتِي سَعَةُ التَّشْرِيعِ الَّذِي يُبَارِكُ الخَيْرَ فِي كُلِّ حَالٍ! أَتَأَمَّلُ النَّدَى اللَّيْلِيَّ كَيْفَ يَتَسَاقَطُ عَلَى أَوْرَاقِ الشَّجَرِ دُونَ أَنْ تَسْمَعَهُ أُذُنٌ أَوْ تَرَاهُ عَيْنٌ، فَتَسْتَيْقِظُ الحَدِيقَةُ فَجْراً وَهِيَ تَتَلَأْلَأُ بِالحَيَاةِ وَالنَّضَارَةِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الخَبِيرِ بِأَعْمَالِنَا حِينَ يَجْعَلُ إِخْفَاءَ الصَّدَقَةِ مِمْحَاةً لِلسَّيِّئَاتِ وَسِتْراً يَصُونُ كَرَامَةَ الفُقَرَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَفَقَتِي مِنْ حَيْرَةٍ تَتَقَاذَفُهَا الظُّنُونُ إِلَى عَطَاءٍ رَاشِدٍ يَتَحَرَّى السِّرَّ وَيَحْفَظُ القَلْبَ. فَكُلُّ تَبَاهٍ يَفْضَحُ حَاجَةَ النَّاسِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ الخَبِيرُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 272 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَحْرِيرُ العَطَاءِ الإِنْسَانِيِّ مِنَ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ وَقُيُودِ الِانْتِمَاءِ يُرْسِي قَاعِدَةَ الرَّحْمَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي تَصِلُ الخَيْرَ إِلَى كُلِّ مُحْتَاجٍ دُونَ اشْتِرَاطِ مُوَافَقَتِهِ فِي المُعْتَقَدِ. حِينَ تَحَرَّجَ بَعْضُ المُؤْمِنِينَ مِنَ التَّصَدُّقِ عَلَى فُقَرَاءِ غَيْرِ المُسْلِمِينَ طَمَعاً فِي دَفْعِهِمْ لِلْإِيمَانِ، نَزَلَ البَيَانُ الرَّبَّانِيُّ لِيَفْصِلَ بَيْنَ مَسْؤُولِيَّةِ الهِدَايَةِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الخَالِقُ وَوَاجِبِ الإِغَاثَةِ الَّذِي يَعُمُّ البَشَرَ، مُؤَكِّداً أَنَّ ثَمَرَةَ الخَيْرِ تَعُودُ لِصَاحِبِهَا مَوْفُورَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ مَتَى كَانَ القَصْدُ خَالِصاً لِوَجْهِ السَّمَاءِ. هٰذَا المَنْهَجُ العَادِلُ يُنَقِّي الضَّمِيرَ مِنْ سُلْطَةِ

الِابْتِزَازِ العَاطِفِيِّ أَوِ المَادِّيِّ، وَيَضْمَنُ لِلْمُحْسِنِ اسْتِيفَاءَ أَجْرِهِ كَامِلاً دُونَ أَدْنَى ظُلْمٍ. فَمَنْ أَعْطَى ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ عَادَ نَفْعُ عَطَائِهِ إِلَى نَفْسِهِ وَزَادَتْ بَرَكَتُهُ، بَيْنَمَا يَضِيقُ أُفُقُ مَنْ حَبَسَ مَعْرُوفَهُ عَنِ الخَلْقِ فَحَرَمَ ذَاتَهُ مِنْ ثَوَابِ الإِحْسَانِ.

الصَّدَى

سَعَةُ الرَّحْمَةِ وَثَمَرَةُ الخَيْرِ

صَدَى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

شَمْسٌ رَحِيمَةٌ تُرْسِلُ دِفْأَهَا وَضِيَاءَهَا عَلَى جَمِيعِ الكَائِنَاتِ دُونَ تَمْيِيزٍ، فَتُحْيِي القُلُوبَ بِالكَرَمِ وَتَرُدُّ ثَمَرَةَ البَذْلِ وَافِيَةً إِلَى صَاحِبِهَا. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ اشْتِرَاطِ المماثَلَةِ لِإِسْدَاءِ المَعْرُوفِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ هِدَايَةَ العُقُولِ بِيَدِ الخَالِقِ وَأَنَّ الإِحْسَانَ حَقٌّ لِكُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٍ. وَكَمْ ضَيَّقْتُ قَدِيماً دَائِرَةَ عَطَائِي بِحِسَابَاتٍ بَشَرِيَّةٍ قَاصِرَةٍ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ كُلَّ خَيْرٍ أُقَدِّمُهُ إِنَّمَا أَزْرَعُهُ لِنَفْسِي فِي حَقْلِ الآخِرَةِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ الكَرِيمَةَ كَيْفَ تَجُودُ بِغَيْثِهَا فَوْقَ السُّهُولِ وَالجِبَالِ عَلَى السَّوَاءِ، ثُمَّ يَعُودُ مَاؤُهَا الصَّافِي لِيَمْلَأَ الأَنْهَارَ وَالبِحَارَ دُونَ أَنْ يَضِيعَ مِنْهُ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُوَفِّي المحْسِنِينَ أُجُورَهُمْ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ مَتى خَلَصَتْ نَوَايَاهُمْ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي مِنْ مِيزَانٍ يَقْرِزُ النَّاسَ قَبْلَ العَطَاءِ إِلَى غَيْمَةٍ تَهْطِلُ بِالخَيْرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ ضِيقٍ يَحْبِسُ المَعْرُوفَ عَنِ الخَلْقِ مَآلُهُ الحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرٍ يُوَفِّيهِ اللهُ لِأَصْحَابِهِ بِعَدْلِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 273 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

فِرَاسَةُ القَلْبِ البَصِيرِ فِي تَلَمُّسِ حَاجَةِ المتَعَفِّفِينَ الَّذِينَ حَبَسَهُمُ الجِهَادُ وَالعِلْمُ عَنِ التَّكَسُّبِ وَمَنَعَهُمْ عِزُّ النَّفْسِ مِنْ إِرَاقَةِ مَاءِ الوَجْهِ بِالسُّؤَالِ تَرْفَعُ العَطَاءَ إِلَى مَقَامِ البَحْثِ عَنِ المسْتَحِقِّينَ قَبْلَ

أَنْ يَمُدُّوا أَيْدِيَهُمْ. الجَاهِلُ بِبَوَاطِنِ الأُمُورِ يَنْخَدِعُ بِمَظْهَرِ الصَّبْرِ وَالتَّجَمُّلِ فَيَظُنُّهُمْ فِي غِنًى وَسَعَةٍ، بَيْنَمَا يَلْمَحُ المؤْمِنُ اليَقِظُ فِي سِيمَاهُمْ وَهَيئَتِهِمْ أَثَرَ الفَاقَةِ المسْتُورَةِ بِالْكَرَامَةِ. هٰذَا التَّوْجِيهُ التَّرْبَوِيُّ يُحَرِّرُ المجْتَمَعَ مِنَ التَّرْكِيزِ عَلَى المحْتَرِفِينَ لِلسُّؤَالِ وَالإِلْحَافِ، لِيُوَجِّهَ مَوَارِدَ الخَيْرِ نَحْوَ أَهْلِ العِفَّةِ وَالكَرَامَةِ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِقْدَارُ البَذْلِ وَلَا صِدْقُ التَّحَرِّي. فَمَنْ تَفَقَّدَ المتَعَفِّفِينَ وَأَغْنَاهُمْ دُونَ سُؤَالٍ نَالَ شَرَفَ الفِرَاسَةِ وَعِلْمَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَغْفُلُ السَّطْحِيُّ عَنْ أَكْرَمِ الفُقَرَاءِ وَأَحَقِّهِمْ بِالصِّلَةِ.

الصَّدَى

سِيمَا التَّعَفُّفِ وَفِرَاسَةُ البَصِيرَةِ

صَدَى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

زُهُورٌ بَرِّيَّةٌ تَتَجَمَّلُ بِالصَّبْرِ فَوْقَ الصُّخُورِ الصَّمَّاءِ، فَيَظُنُّهَا العَابِرُ الغَافِلُ رَيَّانَةً بِالماءِ بَيْنَمَا تَشْكُو أَعْمَاقُهَا ظَمَأَ الفَاقَةِ وَالحِرْمَانِ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِمَا تَرَاهُ العَيْنُ المجَرَّدَةُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَشْرَفَ الفُقَرَاءِ مَنْ يَسْتُرُ حَاجَتَهُ بِرِدَاءِ العِزَّةِ وَلَا يَطْرُقُ أَبْوَابَ الخَلْقِ بِالإِلْحَافِ. وَكَمْ مَرَرْتُ قَدِيماً بِوُجُوهٍ صَامِتَةٍ تَحْمِلُ كِبْرِيَاءَ الفَقْرِ النَّبِيلِ فَلَمْ أَنْتَبِهْ إِلَى سِيمَاهَا، حَتَّى أَيْقَظَنِي الوَحْيُ لِأَبْحَثَ عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا! أَتَأَمَّلُ الجَوْهَرَةَ النَّفِيسَةَ المكْنُونَةَ فِي صَدَفَتِهَا المغْلَقَةِ فِي قَاعِ البَحْرِ، كَيْفَ تَظَلُّ صَامِتَةً لَا تَبُوحُ بِقِيمَتِهَا وَلَا تَتَكَلَّفُ البَرِيقَ حَتَّى يَغُوصَ إِلَيْهَا الغَوَّاصُ البَصِيرُ فَيَسْتَخْرِجَهَا بِرِفْقٍ وَإِكْرَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ العَلِيمِ بِكُلِّ خَيْرٍ حِينَ يَشْهَدُ لِأَهْلِ التَّعَفُّفِ بِالْغِنَى النَّفْسِيِّ وَيَدُلُّ القُلُوبَ اليَقِظَةَ عَلَى مَوَاطِنِ حَاجَتِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَتِي مِنِ انْتِظَارٍ لِصَوْتِ السَّائِلِ إِلَى بَحْثٍ حَانٍ يَتَلَمَّسُ سِيمَا العِفَّةِ فِي صَمْتٍ. فَكُلُّ غَفْلَةٍ عَنِ المتَعَفِّفِينَ مَآلُهَا التَّقْصِيرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 274 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

دَيْمُومَةُ العَطَاءِ عَبْرَ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَنَوُّعِ أَحْوَالِ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ تَجْعَلُ الإِنْفَاقَ سَجِيَّةً رُوحِيَّةً لَا تَتَوَقَّفُ عِنْدَ مَوْسِمٍ أَوْ حَالٍ. هٰذَا الشُّمُولُ الزَّمَانِيُّ وَالمِكَانِيُّ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنْ رُوتِينِ العَطَاءِ العَابِرِ، لِيَصْبِحَ المُؤْمِنُ كَالغَيْثِ المُتَّصِلِ الَّذِي يُغِيثُ المَلْهُوفَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سِرّاً إِذَا اقْتَضَى السِّتْرُ، وَيُبَادِرُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ عَلَانِيَةً إِذَا دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَى النُّصْرَةِ وَالإِعْلَانِ. ثَمَرَةُ هٰذَا التَّدَفُّقِ المُسْتَمِرِّ هِيَ ضَمَانُ الأَجْرِ عِنْدَ المَلِكِ الكَرِيمِ وَالظَّفَرُ بِسَكِينَةِ الأَمَانِ الَّتِي تَنْفِي الخَوْفَ وَالحُزْنَ فِي الدَّارَيْنِ. فَمَنْ جَعَلَ مَالَهُ مَبْذُولاً فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ عَاشَ مَحْفُوظاً بِرِعَايَةِ مَوْلَاهُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُتَقَطِّعُ الشَّحِيحُ أَسِيراً لِقَلَقِ المَادَّةِ وَوَحْشَةِ الحِرْمَانِ.

الصَّدَى

تَدَفُّقُ السَّخَاءِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

نَبْعٌ دَائِمُ الجَرَيَانِ لَا يَعْرِفُ التَّوَقُّفَ، يَسْقِي الأَرْضَ فِي هَدْأَةِ اللَّيْلِ سِرّاً وَيُضِيءُ الدُّرُوبَ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ عَلَانِيَةً بِقَلْبٍ نَقِيٍّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَقْيِيدِ الخَيْرِ بِأَوْقَاتٍ مَحْدُودَةٍ أَوْ صُوَرٍ جَامِدَةٍ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ السَّخَاءَ الحَقِيقِيَّ هُوَ نَبْضٌ مُسْتَمِرٌّ يَسْتَجِيبُ لِنِدَاءِ الحَاجَةِ حَيْثُمَا حَلَّتْ. وَكَمْ أَجَّلْتُ قَدِيماً عَطَاءً طَرَقَ بَابِي لَيْلاً انْتِظَاراً لِلنَّهَارِ، أَوْ حَبَسْتُهُ نَهَاراً خَشْيَةَ العُيُونِ، فَفَاتَتْنِي بَرَكَةُ المُبَادَرَةِ الفَوْرِيَّةِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَظِيمَ كَيْفَ يَتَدَفَّقُ بِمَائِهِ العَذْبِ تَحْتَ نُجُومِ اللَّيْلِ كَمَا يَتَدَفَّقُ تَحْتَ شَمْسِ النَّهَارِ، لَا يُغَيِّرُ عَطَاءَهُ تَبَدُّلُ الضِّيَاءِ وَالظَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ بِشَارَةَ اللهِ لِهٰؤُلَاءِ السَّخِيِّينَ حِينَ يَحْفَظُ لَهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَهُ وَيَمْنَحُهُمْ أَمَاناً أَبَدِيّاً لَا خَوْفَ فِيهِ وَلَا حُزْنَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ مَوَاسِمَ مُتَبَاعِدَةٍ لِلْبِرِّ إِلَى حَالَةِ عَطَاءٍ دَائِمَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ سِتْرِ السِّرِّ وَشَجَاعَةِ العَلَانِيَةِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ المَوَاسِمِ مَآلُهُ النُّقْصَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِأَجْرٍ يَحْفَظُهُ اللهُ لِعِبَادِهِ المُحْسِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 275 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الفَصْلُ الحَاسِمُ بَيْنَ البَيْعِ المشْرُوعِ القَائِمِ عَلَى تَبَادُلِ المَنَافِعِ وَالرِّبَا المحَرَّمِ القَائِمِ عَلَى اسْتِغْلَالِ حَاجَةِ المضْطَرِّينَ يَحْمِي الِاقْتِصَادَ الإِنْسَانِيَّ مِنَ التَّضَخُّمِ الوَهْمِيِّ وَالِانْهِيَارِ الأَخْلَاقِيِّ. القُرْآنُ يُصَوِّرُ حَالَةَ الِاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ وَالمصِيرِيِّ لِآكِلِي الرِّبَا بِمَنْ يَتَخَبَّطُهُ المسُّ الشَّيْطَانِيُّ؛ لِأَنَّ جَشَعَهُمْ أَعْمَى بَصَائِرَهُمْ فَسَوَّوْا بَيْنَ التِّجَارَةِ الحَلَالِ الَّتِي تَبْنِي العُمْرَانَ وَبَيْنَ الزِّيَادَةِ الرِّبَوِيَّةِ الَّتِي تَمْتَصُّ دِمَاءَ الفُقَرَاءِ دُونَ جُهْدٍ أَوْ مُخَاطَرَةٍ. وَمَعَ ذٰلِكَ تَفْتَحُ الشَّرِيعَةُ بَابَ التَّوْبَةِ الرَّحِيمَ لِمَنِ اتَّعَظَ وَانْتَهَى فَوْراً، فَتُعْفِيهِ عِمَّا سَلَفَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ، بَيْنَمَا تُنْذِرُ المصِرَّ العَائِدَ بِالخُلُودِ فِي النَّارِ. فَمَنْ طَهَّرَ تِجَارَتَهُ مِنَ الرِّبَا وَانْتَهَى عِنْدَ المَوْعِظَةِ نَجَا وَأَفْلَحَ، بَيْنَمَا يَتَخَبَّطُ المرَابِي فِي ظُلُمَاتِ الجَشَعِ وَعَذَابِ الآخِرَةِ.

الصَّدَى

نَقَاءُ التِّجَارَةِ وَتَخَبُّطُ الرِّبَا

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

مِيزَانٌ عَادِلٌ يَفْصِلُ بَيْنَ عَرَقِ السَّعْيِ الحَلَالِ الَّذِي يُنْمِي الحَيَاةَ، وَبَيْنَ شَرَهِ الرِّبَا الَّذِي يَصْرَعُ صَاحِبَهُ كَالمَمْسُوسِ يَوْمَ النُّشُورِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ المسَاوَاةِ الخَادِعَةِ بَيْنَ رِبْحِ البَيْعِ القَائِمِ عَلَى العَمَلِ وَالمخَاطَرَةِ وَبَيْنَ زِيَادَةِ الدَّيْنِ الَّتِي تَسْتَغِلُّ انْكِسَارَ المحْتَاجِينَ. وَكَمْ حَاوَلَتِ المطَامِعُ قَدِيماً أَنْ تُزَيِّنَ لِلْعَقْلِ أَنَّ النَّمَاءَ المادِّيَّ وَاحِدٌ مَهْمَا اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُ، حَتَّى هَزَّنِي هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ الَّذِي أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ الطَّبِيعِيَّ كَيْفَ يَجْرِي بِتَوَازُنٍ فَيُسْقِي الزَّرْعَ وَيُحْيِي الوَادِيَ، بَيْنَمَا الوَرَمُ الخَبِيثُ فِي الجَسَدِ يَظْهَرُ كَأَنَّهُ زِيَادَةٌ وَنَمَاءٌ وَلٰكِنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ يَمْتَصُّ الحَيَاةَ وَيَقُودُ إِلَى الهَلَاكِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يَقْبَلُ تَوْبَةَ مَنْ جَاءَتْهُ المَوْعِظَةُ فَانْتَهَى وَيُحَذِّرُ العَائِدِينَ إِلَى الرِّبَا مِنْ

مَصِيرِ أَصْحَابِ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَعَامَلَاتِي المَالِيَّةُ مِنْ بَحْثٍ عَنِ الزِّيَادَةِ الصَّمَّاءِ إِلَى تِجَارَةٍ نَظِيفَةٍ تَبْنِي الأَرْضَ وَتَحْتَرِمُ كَرَامَةَ الإِنْسَانِ. فَكُلُّ مَالٍ يَنْمُو بِالرِّبَا مَآلُهُ التَّخَبُّطُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَلَالٍ أَحَلَّهُ اللهُ وَبَارَكَ فِيهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 276 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ البَرَكَةِ وَالمحْقِ فِي عَالَمِ الأَمْوَالِ يَقْلِبُ المَوَازِينَ الظَّاهِرَةَ لِلْعُيُونِ؛ فَالرِّبَا وَإِنْ بَدَا مُتَضَخِّماً فِي الأَرْقَامِ فَإِنَّ الخَالِقَ يَمْحَقُ بَرَكَتَهُ وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ الآفَاتِ وَالقَلَقَ، بَيْنَمَا يُنَمِّي الصَّدَقَاتِ وَيُبَارِكُ فِيهَا حَتَّى تَتَضَاعَفَ ثَمَرَتُهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. هٰذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ الِاقْتِصَادِيَّ مِنْ عُبُودِيَّةِ الأَرْقَامِ الصَّمَّاءِ، لِيُدْرِكَ أَنَّ جُحُودَ النِّعْمَةِ وَالإِصْرَارَ عَلَى الإِثْمِ يَحْرِمَانِ الإِنْسَانَ مَحَبَّةَ السَّمَاءِ وَتَوْفِيقَهَا. فَمَنْ أَخْرَجَ الصَّدَقَةَ شُكْراً لِلْمُنْعِمِ نَمَا مَالُهُ وَطَابَ عَيْشُهُ، بَيْنَمَا يَذْهَبُ مَالُ المُرَابِي الأَثِيمِ مَحْقاً وَبَوَاراً وَلَوْ بَلَغَ عَنَانَ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

سُنَّةُ المحْقِ وَنَمَاءُ الصَّدَقَاتِ

صَدَى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

سَحَابَةٌ خَفِيَّةٌ مِنَ البَرَكَةِ تَحُفُّ مَالَ المُتَصَدِّقِ فَتُنَمِّيهِ كَالشَّجَرَةِ المُبَارَكَةِ، وَنَارٌ بَارِدَةٌ تَسْرِي فِي أَرْقَامِ الرِّبَا فَتَمْحَقُ عَافِيَتَهَا وَطُمَأْنِينَتَهَا. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِتَضَخُّمِ الأَرْصِدَةِ المَشْبُوهَةِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ القَلِيلَ المُبَارَكَ أَغْنَى وَأَبْقَى مِنَ الكَثِيرِ المَمْحُوقِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً ثَرَوَاتٍ تَعَاظَمَتْ بِالْبَاطِلِ ثُمَّ تَلَاشَتْ كَالسَّرَابِ أَوِ انْقَلَبَتْ جَحِيماً عَلَى أَصْحَابِهَا، بَيْنَمَا بَقِيَ أَثَرُ الصَّدَقَةِ نُوراً وَنَمَاءً! أَتَأَمَّلُ كُومَةَ الرَّمَادِ المُنْتَفِخَةَ كَيْفَ تَبْدُو كَبِيرَةَ الحَجْمِ لِلنَّاظِرِ، فَإِذَا هَبَّتْ عَلَيْهَا نَسْمَةُ رِيحٍ تَطَايَرَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا شَيْءٌ، بَيْنَمَا حَبَّةُ اللُّؤْلُؤِ الصَّغِيرَةُ تَحْتَفِظُ بِقِيمَتِهَا وَبَهَائِهَا عَبْرَ الزَّمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَمْحَقُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَيُبْغِضُ كُلَّ كَفَّارٍ لِلنِّعَمِ أَثِيمٍ فِي الكَسْبِ! هٰكَذَا

تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلثَّرْوَةِ مِنْ جَمْعٍ لِلْأَرْقَامِ الكَبِيرَةِ إِلَى تَحَرٍّ لِلْبَرَكَةِ الَّتِي تَنْزِلُ مَعَ الصَّدَقَةِ وَالشُّكْرِ. فَكُلُّ رِبًا يَتَضَخَّمُ فِي الدُّنْيَا مَآلُهُ المحْقُ وَالفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَدَقَةٍ يُنَمِّيهَا اللهُ بِفَضْلِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 277 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّكَامُلُ البَدِيعُ بَيْنَ صَفَاءِ العَقِيدَةِ وَصَلَاحِ السُّلُوكِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يُبْنَى عَلَيْهِ صَرْحُ المجْتَمَعِ الإِيمَانِيِّ المتَوَازِنِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ حَقِّ السَّمَاءِ وَحَقِّ الأَرْضِ. فِي مُقَابِلِ اضْطِرَابِ المرَابِينَ وَتَخَبُّطِهِمْ، تَبْرُزُ هٰذِهِ الصُّورَةُ المشْرِقَةُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَرْوَاحَهُمْ بِالصَّلَاةِ وَيُطَهِّرُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالزَّكَاةِ، فَيَحُوزُونَ الأَمَانَ النَّفْسِيَّ الكَامِلَ الَّذِي يَطْرُدُ شَبَحَ الخَوْفِ مِنَ المسْتَقْبَلِ وَغُصَّةَ الحُزْنِ عَلَى المَاضِي. هٰذَا المنْهَجُ الشَّامِلُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنَ الفَصْلِ بَيْنَ العِبَادَةِ الشَّعَائِرِيَّةِ وَالمسْؤُولِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، لِيَضْمَنَ لَهُ السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ. فَمَنْ أَقَامَ صَلَاتَهُ وَآتَى زَكَاتَهُ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ حَفِظَ رَبُّهُ أَجْرَهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ، بَيْنَمَا يَضْطَرِبُ مَنْ أَخَلَّ بِأَحَدِ هٰذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ فَفَقَدَ التَّوَازُنَ وَالطُّمَأْنِينَةَ.

الصَّدَى

جَنَاحَا الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَسَمَاءُ الأَمَانِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

مِحْرَابٌ يَصِلُ الرُّوحَ بِالسَّمَاءِ وَيَدٌ سَخِيَّةٌ تَمْسَحُ جِرَاحَ الأَرْضِ، فَيُحَلِّقُ المؤْمِنُ فِي فَضَاءِ الطُّمَأْنِينَةِ بَعِيداً عَنْ عَوَاصِفِ الخَوْفِ وَالأَحْزَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِإِيمَانٍ سَاكِنٍ لَا يَتَرْجَمُ إِلَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ وَزَكَاةٍ طَاهِرَةٍ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّكِينَةَ ثَمَرَةُ التَّوَازُنِ بَيْنَ عِبَادَةِ الخَالِقِ وَخِدْمَةِ الخَلْقِ. وَكَمْ تَشَتَّتْ رُوحِي قَدِيماً عِنْدَمَا قَصَّرْتُ فِي صِلَةِ السَّمَاءِ أَوْ بَخِلْتُ بِحَقِّ الفُقَرَاءِ، فَلَمْ أَجِدْ مَلَاذاً مِنَ

القَلَقِ إِلَّا حِينَ جَمَعْتُ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المُبَارَكَةَ كَيْفَ تَمْتَصُّ نُورَ الشَّمْسِ مِنْ أَعْلَى وَتَمُدُّ تُرْبَةَ الأَرْضِ بِأَوْرَاقِهَا وَظِلَالِهَا مِنْ أَسْفَلَ، فَتَعِيشُ فِي تَنَاغُمٍ بَدِيعٍ لَا تَهُزُّهُ الرِّيَاحُ. فَمَا أَعْظَمَ وَعْدَ اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ حِينَ يَجْعَلُ أَجْرَهُمْ مَحْفُوظاً عِنْدَهُ وَيَنْفِي عَنْهُمْ كُلَّ خَوْفٍ أَوْ حُزْنٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ تَأَرْجُحٍ بَيْنَ القَلَقِ وَالنَّدَمِ إِلَى اسْتِقْرَارٍ رُوحِيٍّ يَسْتَنِدُ إِلَى الصَّلَاةِ وَالعَطَاءِ. فَكُلُّ عَيْشٍ يَخْلُو مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَآلُهُ الوَحْشَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِأَجْرٍ يَحْفَظُهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 278 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

صِدْقُ الإِيمَانِ يُقَاسُ بِسُرْعَةِ الِاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ السَّمَاءِ وَالتَّنَازُلِ الفَوْرِيِّ عَنِ المَكَاسِبِ المُحَرَّمَةِ العَالِقَةِ فِي ذِمَمِ النَّاسِ. النِّدَاءُ الإِلٰهِيُّ يَرْبِطُ بَيْنَ تَقْوَى الخَالِقِ وَتَرْكِ بَقَايَا الرِّبَا الَّتِي لَمْ تُقْبَضْ بَعْدُ، لِيَضَعَ المُؤْمِنَ أَمَامَ اخْتِبَارٍ عَمَلِيٍّ يُثْبِتُ بِهِ أَنَّ طَاعَةَ رَبِّهِ أَغْلَى عِنْدَهُ مِنْ أَرْقَامِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ. هٰذَا التَّطْهِيرُ الشَّامِلُ لِلْأَسْوَاقِ وَالذِّمَمِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ تَسْوِيفِ التَّوْبَةِ أَوِ التَّحَايُلِ لِاسْتِيفَاءِ الدُّيُونِ الرِّبَوِيَّةِ السَّابِقَةِ، وَيُعِيدُ لِلْمُجْتَمَعِ صَفَاءَهُ وَثِقَتَهُ. فَمَنْ تَرَكَ بَقَايَا الرِّبَا خَشْيَةً مِنْ مَوْلَاهُ بَرْهَنَ عَلَى كَمَالِ إِيمَانِهِ وَنَالَ بَرَكَةَ التَّقْوَى، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ زَيْفُ دَعْوَى مَنْ تَشَبَّثَ بِالمَالِ الحَرَامِ بَعْدَ قِيَامِ الحُجَّةِ.

الصَّدَى

تَطْهِيرُ الذِّمَمِ وَامْتِحَانُ الإِيمَانِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

مِقَصٌّ نُورَانِيٌّ يَقْطَعُ خُيُوطَ الجَشَعِ العَالِقَةَ فِي الدُّيُونِ، وَنِدَاءٌ سَمَاوِيٌّ يَمْتَحِنُ صِدْقَ الإِيمَانِ عِنْدَ عَتَبَةِ التَّنَازُلِ عَنِ المَالِ الحَرَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاحْتِفَاظِ بِبَقَايَا المَكَاسِبِ المَشْبُوهَةِ بِحُجَّةِ أَنَّهَا عُقُودٌ مَضَتْ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّقْوَى تَقْتَضِي التَّطَهُّرَ الكَامِلَ دُونَ تَرَدُّدٍ. وَكَمْ تَعَلَّقَتْ نَفْسِي قَدِيماً بِخُقُوقٍ ظَاهِرَةٍ تُخْفِي وَرَاءَهَا ظُلْماً لِلْمُعْسِرِينَ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا الشَّرْطُ الجَلِيلُ الَّذِي يَجْعَلُ تَرْكَ الرِّبَا عُنْوَاناً لِلْإِيمَانِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ المُمْتَلِئَةَ بِالأَثْقَالِ المُحَرَّمَةِ فِي عُرْضِ البَحْرِ الهَائِجِ، كَيْفَ لَا

تَنْجُو مِنَ الغَرَقِ إِلَّا حِينَ يُلْقِي رُبَّانُهَا تِلْكَ الأَحْمَالَ الفَاسِدَةَ فِي اللُّجَّةِ لِتَخِفَّ وَتَبْلُغَ شَاطِئَ الأَمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ نِدَاءَ اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ كَيْ يَتَّقُوهُ وَيَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِثْبَاتاً لِصِدْقِ عَهْدِهِمْ مَعَ السَّمَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ذِمَّتِي مِنْ سِجِلٍّ يُطَالِبُ بِالزِّيَادَةِ الرِّبَوِيَّةِ إِلَى صَحِيفَةٍ بَيْضَاءَ تَتَنَازَلُ عَنِ الحَرَامِ طَلَباً لِرِضَا الخَالِقِ. فَكُلُّ بَقِيَّةٍ مِنَ الرِّبَا مَآلُهَا الوَبَالُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ وَإِيمَانٍ يُطَاعُ بِهِ أَمْرُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 279 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

إِعْلَانُ الحَرْبِ الإِلٰهِيَّةِ عَلَى المُصِرِّينَ عَلَى الرِّبَا يَكْشِفُ أَنَّ اسْتِغْلَالَ حَاجَةِ البَشَرِ هُوَ عُدْوَانٌ مُبَاشِرٌ عَلَى نِظَامِ العَدْلِ فِي الكَوْنِ لَا يُمْكِنُ التَّسَاهُلُ مَعَهُ. وَفِي قِمَّةِ هٰذَا الوَعِيدِ الشَّدِيدِ يَبْرُزُ الميزَانُ العَادِلُ الَّذِي يَضْمَنُ حُقُوقَ الجَمِيعِ عِنْدَ التَّوْبَةِ؛ فَيُعِيدُ لِصَاحِبِ المَالِ رَأْسَ مَالِهِ الأَصْلِيَّ دُونَ أَنْ يَظْلِمَ المَدِينَ بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ، وَدُونَ أَنْ يُظْلَمَ الدَّائِنُ بِإِضَاعَةِ أَصْلِ حَقِّهِ. هٰذَا التَّشْرِيعُ الحَكِيمُ يُحَرِّرُ الاِقْتِصَادَ مِنَ الجَشَعِ وَالمُصَادَرَةِ مَعاً، وَيُقِيمُ المُعَامَلَاتِ عَلَى العَدَالَةِ المُطْلَقَةِ الَّتِي تَصُونُ الأَمْوَالَ وَالكَرَامَاتِ. فَمَنْ تَابَ وَرَضِيَ بِرَأْسِ مَالِهِ سَلِمَ مِنْ حَرْبِ السَّمَاءِ وَنَالَ العَدْلَ، بَيْنَمَا يَخُوضُ المُصِرُّ عَلَى الرِّبَا مَعْرَكَةً خَاسِرَةً ضِدَّ خَالِقِهِ وَرَسُولِهِ.

الصَّدَى

إِنْذَارُ الحَرْبِ وَمِيزَانُ رَأْسِ المَالِ

صَدَى ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

صَاعِقَةٌ مُدَوِّيَةٌ تُعْلِنُ الحَرْبَ عَلَى قُلُوبٍ تَسْتَبِيحُ دِمَاءَ الفُقَرَاءِ بِالرِّبَا، وَمِيزَانٌ ذَهَبِيٌّ يَحْفَظُ رَأْسَ المَالِ بِعَدْلٍ لَا ظُلْمَ فِيهِ وَلَا إِجْحَافَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ القُدْرَةِ عَلَى مُغَالَبَةِ سُنَنِ السَّمَاءِ بِالمَالِ

وَالنُّفُوذِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَخْطَرَ حَرْبٍ يَخُوضُهَا الإِنْسَانُ هِيَ أَنْ يُحَارِبَهُ خَالِقُهُ بِسَبَبِ ظُلْمِهِ لِلْعِبَادِ. وَكَمْ ظَنَّ المَرَابُونَ قَدِيماً أَنَّ أَرْصِدَتَهُمْ تَحْمِيهِمْ مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ، فَإِذَا بِحَرْبِ السَّمَاءِ تَسْلُبُ مِنْهُمُ الأَمَانَ وَالسَّكِينَةَ وَتُحِيلُ حَيَاتَهُمْ جَحِيماً! أَتَأَمَّلُ الجِسْرَ المَتِينَ القَائِمَ فَوْقَ النَّهْرِ كَيْفَ يَحْمِلُ العَابِرِينَ بِأَمَانٍ مَا دَامَ مُسْتَقِيمَ الأَرْكَانِ، فَإِذَا مَالَتْ كِفَّتُهُ بِالظُّلْمِ وَالأَثْقَالِ الزَّائِدَةِ انْهَارَ بِمَنْ عَلَيْهِ فِي أَعْمَاقِ اللُّجَّةِ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَفْتَحُ بَابَ التَّوْبَةِ لِيُعِيدَ لِلتَّائِبِينَ رُءُوسَ أَمْوَالِهِمْ بِقَاعِدَةِ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي فِي الحُقُوقِ المَالِيَّةِ مِنْ طَمَعٍ يَطْلُبُ الفَائِضَ الحَرَامَ إِلَى انْضِبَاطٍ عَادِلٍ يَقْنَعُ بِرَأْسِ المَالِ الحَلَالِ. فَكُلُّ زِيَادَةٍ تُؤْخَذُ بِالظُّلْمِ مَآلُهَا الدَّمَارُ وَالحَرْبُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ الَّذِي يَصُونُ الحُقُوقَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 280 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الرَّأْفَةُ بِالمَدِينِ المُعْسِرِ وَإِمْهَالُهُ حَتَّى تَتَيَسَّرَ أَحْوَالُهُ، ثُمَّ الِارْتِقَاءُ إِلَى مَقَامِ التَّصَدُّقِ بِالدَّيْنِ وَإِسْقَاطِهِ عَنْهُ، يُجَسِّدَانِ قِمَّةَ التَّكَافُلِ الإِنْسَانِيِّ وَالرَّحْمَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لَا تَكْتَفِي بِمَنْعِ الظُّلْمِ الرِّبَوِيِّ، بَلْ تَدْفَعُ المُجْتَمَعَ نَحْوَ الإِحْسَانِ الإِيجَابِيِّ الَّذِي يَرْفَعُ الكَرْبَ عَنِ المَكْرُوبِينَ وَيُعِيدُ لَهُمُ الأَمَلَ فِي الحَيَاةِ وَالعَمَلِ. هٰذِهِ الهِدَايَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ قَسْوَةِ المُطَالَبَةِ الجَافَّةِ عِنْدَ إِعْسَارِ الخَصْمِ، لِتُؤَكِّدَ أَنَّ التَّنَازُلَ عَنِ الدَّيْنِ لِوَجْهِ الخَالِقِ هُوَ الخَيْرُ الأَعْظَمُ وَالِاسْتِثْمَارُ الأَرْبَحُ لِمَنْ يَعْلَمُ حَقَائِقَ الثَّوَابِ وَمَآلَاتِ الأُمُورِ. فَمَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ أَظَلَّهُ رَبُّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ العُسْرَةِ الكُبْرَى، بَيْنَمَا يَضِيقُ الخِنَاقُ عَلَى مَنْ ضَيَّقَ عَلَى عِبَادِ السَّمَاءِ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ.

الصَّدَى

مُهْلَةُ التَّيْسِيرِ وَسَمَاءُ الصَّدَقَةِ

صَدَى ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

نَسِيمٌ مِنَ الرَّحْمَةِ يَفُكُّ قُيُودَ الكَرْبِ عَنْ عُنُقِ المُعْسِرِ، فَيَمْنَحُهُ فُسْحَةَ الأَمَلِ حَتَّى يَنْفَرِجَ ضِيقُهُ، أَوْ

يَمْسَحُ دَيْنَهُ بِصَدَقَةٍ تَرْتَفِعُ بِصَاحِبِهَا إِلَى ذُرَى الإِحْسَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ إِسْقَاطَ الدَّيْنِ عَنِ العَاجِزِ خَسَارَةٌ لِلْمَالِ، وَأُدْرِكُ أَنَّهُ تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ تَشْتَرِي بِهَا النَّفْسُ مَغْفِرَةَ السَّمَاءِ وَتَفْرِيجَ الكُرُبَاتِ. وَكَمْ قَسَتِ القُلُوبُ قَدِيماً عِنْدَ حُلُولِ الأَجَلِ فَلَمْ تَرْحَمْ عَجْزَ المدِينِ وَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى انْكِسَارِهِ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا النِّدَاءُ الرَّحِيمُ لِيَجْعَلَ الإِمْهَالَ وَاجِباً وَالتَّصَدُّقَ خَيْراً! أَتَأَمَّلُ الطَّيْرَ الجَرِيحَ الَّذِي سَقَطَ عَلَى الأَرْضِ عَاجِزاً عَنِ الطَّيَرَانِ، كَيْفَ يَرْفُقُ بِهِ الرَّحِيمُ فَيُمْهِلُهُ حَتَّى يَلْتَئِمَ جَنَاحُهُ أَوْ يُطْلِقُ سَرَاحَهُ فِي الفَضَاءِ الوَاسِعِ لِيُحَلِّقَ مِنْ جَدِيدٍ بِسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يَدْعُو أَهْلَ العِلْمِ وَالبَصِيرَةِ إِلَى التَّصَدُّقِ عَلَى المعْسِرِينَ لِيُضَاعِفَ لَهُمُ الخَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الحِسَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَدِي عِنْدَ إِعْسَارِ النَّاسِ مِنْ مُطَالَبَةٍ تُثْقِلُ الكَاهِلَ إِلَى سَمَاحَةٍ تُنْظِرُ المتَعَثِّرَ وَتَجُودُ بِالعَفْوِ. فَكُلُّ تَضْيِيقٍ عَلَى مُعْسِرٍ مَآلُهُ العُسْرُ وَالضِّيقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِخَيْرِ اللهِ الَّذِي يَهَبُهُ لِلْمُتَصَدِّقِينَ الرَّحِيمِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢٨١-٢٨٦)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 281 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِحْضَارُ سَاعَةِ الرُّجُوعِ الحَتْمِيِّ إِلَى الخَالِقِ وَتَوْفِيَةِ كُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ بِمِيزَانٍ لَا يَحِيفُ وَلَا يَظْلِمُ يُوقِظُ الضَّمِيرَ الغَافِلَ لِيَزِنَ أَعْمَالَهُ قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ عَلَيْهِ، وَيُحَرِّرَ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ انْفِلَاتِ الظَّالِمِينَ أَوْ ضَيَاعِ جُهُودِ المحْسِنِينَ. هٰذَا النِّدَاءُ الجَامِعُ يَخْتِمُ تَشْرِيعَاتِ الأَمْوَالِ وَالمعَامَلَاتِ بِرَقَابَةِ اليَوْمِ الآخِرِ؛ إِذْ لَا يَكْفِي القَانُونُ الظَّاهِرُ لِضَبْطِ السُّلُوكِ مَا لَمْ يَسْتَقِرَّ فِي الوِجْدَانِ يَقِينُ اللِّقَاءِ وَدِقَّةُ الحِسَابِ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً. فَمَنْ أَعَدَّ لِيَوْمِ الرُّجُوعِ زَاداً مِنَ التَّقْوَى وَالعَدْلِ وَجَدَ ثَمَرَةَ سَعْيِهِ مَوْفُورَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، بَيْنَمَا يَقِفُ المتَهَاوِنُ أَمَامَ صَحِيفَتِهِ عَارِياً مِنَ الحُجَّةِ وَالنَّصِيرِ.

الصَّدَى

مِيعَادُ الرُّجُوعِ وَمِيزَانُ العَدْلِ

صَدَى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ سَاعَةٌ مَهِيبَةٌ تَطْوِي بِسَاطَ الدُّنْيَا وَتَرُدُّ الكَائِنَاتِ كُلَّهَا إِلَى مَبْدَئِهَا الأَوَّلِ، فَتُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي مِيزَانٍ نُورَانِيٍّ لَا يَبْخَسُ ذَرَّةً وَلَا يَظْلِمُ أَحَداً. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الدَّيْمُومَةِ الخَادِعَةِ لِهٰذِهِ الحَيَاةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ نَفَسٍ يَخْرُجُ مِنِّي هُوَ خُطْوَةٌ نَحْوَ يَوْمِ التَّوْفِيَةِ وَالحِسَابِ. وَكَمِ انْشَغَلْتُ قَدِيماً بِإِرْضَاءِ العُيُونِ العَابِرَةِ وَنَسِيتُ تَهْيِئَةَ صَحِيفَتِي لِسَاعَةِ العَرْضِ الأَكْبَرِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّيَّانِ! أَتَأَمَّلُ الأَنْهَارَ الجَارِيَةَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ كَيْفَ تَقْطَعُ السُّهُولَ وَالوِدْيَانَ فِي رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ، ثُمَّ تَعُودُ جَمِيعُهَا فِي النِّهَايَةِ إِلَى البَحْرِ الكَبِيرِ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَتْ. فَمَا أَعْظَمَ وَصِيَّةَ اللهِ الَّتِي تَدْعُو القُلُوبَ إِلَى اتِّقَاءِ يَوْمِ الرُّجُوعِ حَيْثُ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ بِعَدْلٍ مُطْلَقٍ لَا شَائِبَةَ فِيهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي اليَوْمِيَّةُ مِنْ غَفْلَةٍ تَسْتَغْرِقُ فِي العَاجِلِ إِلَى اسْتِعْدَادٍ دَائِمٍ يَزِنُ الكَلِمَةَ وَالخُطْوَةَ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحُكْمِ اللهِ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُ الخَلَائِقُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 282 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَوْثِيقُ الحُقُوقِ بِالكِتَابَةِ العَادِلَةِ وَالإِشْهَادِ المَرْضِيِّ يَسُدُّ أَبْوَابَ النِّزَاعِ وَالرِّيبَةِ، وَيَحْمِي المَوَدَّةَ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَنْ تُفْسِدَهَا آفةُ النِّسْيَانِ أَوْ جُحُودُ الذِّمَمِ. أَطْوَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ السَّمَاءِ تُؤَسِّسُ لِدَوْلَةِ القَانُونِ وَالمؤَسَّسَاتِ، فَتُوجِبُ كِتَابَةَ الدُّيُونِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا دُونَ سَأَمٍ أَوْ حَرَجٍ؛ لِأَنَّ التَّوْثِيقَ أَقْسَطُ عِنْدَ الخَالِقِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَبْعَدُ عَنِ الشَّكِّ، مَعَ تَيْسِيرِ التِّجَارَةِ الحَاضِرَةِ اليَوْمِيَّةِ بِرَفْعِ حَرَجِ الكِتَابَةِ عَنْهَا تَخْفِيفاً عَلَى الأَسْوَاقِ. كَمَا تَرْعَى الآيَةُ الضُّعَفَاءَ وَالسُّفَهَاءَ بِتَوْكِيلِ أَوْلِيَائِهِمْ بِالإِمْلَاءِ العَادِلِ، وَتُحَرِّمُ الإِضْرَارَ بِالكَاتِبِ وَالشَّهِيدِ اللَّذَيْنِ يُؤَدِّيَانِ رِسَالَةَ العَدْلِ شُكْراً لِنِعْمَةِ العِلْمِ. فَمَنْ ضَبَطَ مُعَامَلَاتِهِ بِالتَّوْثِيقِ وَالتَّقْوَى صَانَ مَالَهُ وَأُخُوَّتَهُ، بَيْنَمَا يَفْتَحُ التَّهَاوُنُ فِي الكِتَابَةِ ثَغَرَاتٍ لِلْخُصُومَةِ وَالفُسُوقِ.

الصَّدَى

سِجِلُّ القِسْطِ وَحِرَاسَةُ الذِّمَمِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قَلَمٌ عَادِلٌ يَخُطُّ الحُقُوقَ فَوْقَ الصَّحَائِفِ البيضَاءِ، فَيَحْمِي ثِقَةَ القُلُوبِ مِنْ عَوَاصِفِ النِّسْيَانِ وَيَطْرُدُ ظِلَالَ الرِّيبَةِ عَنْ سَاحَةِ المعَامَلَاتِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ أَنَّ التَّوْثِيقَ يَقْدَحُ فِي صِدْقِ الأُخُوَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الكِتَابَةَ وَالشَّهَادَةَ هُمَا السِّيَاجُ الَّذِي يُبْقِي المَوَدَّةَ صَافِيَةً لَا تُعَكِّرُهَا الظُّنُونُ. وَكَمْ تَسَاهَلْتُ قَدِيماً فِي تَدْوِينِ التَّفَاصِيلِ الصَّغِيرَةِ تَحَرُّجاً أَوْ سَأَماً، فَأَوْرَثَ التَّهَاوُنُ لَبْساً كَادَ يُفْسِدُ وُدّاً قَدِيماً وَيَزْرَعُ الشَّكَّ فِي النُّفُوسِ! أَتَأَمَّلُ الجُذُورَ الرَّاسِخَةَ تَحْتَ التُّرَابِ كَيْفَ تَشُدُّ الشَّجَرَةَ البَاسِقَةَ بِإِحْكَامٍ وَدِقَّةٍ، فَلَوْلَا تِلْكَ القَوَاعِدُ الخَفِيَّةُ لَمَا صَمَدَتِ الأَغْصَانُ المُثْمِرَةُ أَمَامَ تَقَلُّبَاتِ الفُصُولِ. فَمَا

أَعْظَمَ تَعْلِيمَ اللهِ العَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ حِينَ يُرْسِي قَوَاعِدَ العَدْلِ فِي الكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ وَيُيَسِّرُ التِّجَارَةَ الحَاضِرَةَ دُونَ عَنَتٍ أَوْ إِضْرَارٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَعَامَلَاتِي مِنْ عَفْوِيَّةٍ تَتْرُكُ الحُقُوقَ لِلصُّدْفَةِ إِلَى انْضِبَاطٍ حَكِيمٍ يَصُونُ الذِّمَمَ وَيَحْفَظُ القُلُوبَ مِنَ الِارْتِيَابِ. فَكُلُّ حَقٍّ يُتْرَكُ لِأَهْوَاءِ النِّسْيَانِ مَآلُهُ النِّزَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقِسْطِ اللهِ وَعِلْمِهِ الَّذِي يَهْدِي العِبَادَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 283 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مَرُونَةُ البَدَائِلِ التَّشْرِيعِيَّةِ عِنْدَ تَعَذُّرِ الكِتَابَةِ فِي السَّفَرِ وَإِعْلَاءُ قِيمَةِ الأَمَانَةِ وَنَزَاهَةِ الشَّهَادَةِ يُثْبِتَانِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الضَّمَانِ المَادِّيِّ وَالرَّقَابَةِ الإِيمَانِيَّةِ. فَإِذَا غَابَ الكَاتِبُ فِي الطَّرِيقِ شُرِعَ الرَّهْنُ المَقْبُوضُ لِحِفْظِ حَقِّ الدَّائِنِ، وَإِذَا تَعَامَلَ النَّاسُ بِالثِّقَةِ المُتَبَادَلَةِ دُونَ رَهْنٍ أَصْبَحَتِ الأَمَانَةُ مِيثَاقاً غَلِيظاً فِي عُنُقِ المُؤْتَمَنِ يُؤَدِّيهِ تَقْوَى لِرَبِّهِ، مَعَ تَحْرِيمِ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ الَّذِي يُدَنِّسُ القَلْبَ بِالإِثْمِ وَيُضَيِّعُ حُقُوقَ العِبَادِ أَمَامَ عَيْنِ العَلِيمِ. فَمَنْ أَدَّى الأَمَانَةَ وَأَقَامَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ طَهُرَ قَلْبُهُ وَبُورِكَ لَهُ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ كَاتِمُ الشَّهَادَةِ وَخَائِنُ الأَمَانَةِ ظُلْمَةَ الإِثْمِ فِي سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ الأَمَانَةِ وَطَهَارَةُ الشَّهَادَةِ

صَدَى ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

رَهْنٌ مَقْبُوضٌ يَحْفَظُ الحَقَّ فِي وحْشَةِ السَّفَرِ، وَأَمَانَةٌ مُودَعَةٌ فِي الضَّمِيرِ تَرْقُبُ السَّمَاءَ حِينَ تَغِيبُ الوَثَائِقُ وَالشُّهُودُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ غِيَابَ الرَّقِيبِ البَشَرِيِّ يُبِيحُ التَّهَاوُنَ فِي الحُقُوقِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ ثِقَةَ النَّاسِ بِي هِيَ أَثْقَلُ عَهْدٍ يَسْتَوْجِبُ الوَفَاءَ وَالتَّقْوَى. وَكَمْ تَرَدَّدَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عِنْدَ

أَدَاءِ شَهَادَةِ الحَقِّ خَشْيَةَ المَلَامَةِ أَوْ طَلَباً لِلسَّلَامَةِ، حَتَّى هَزَّنِي هٰذَا الوَعِيدُ الَّذِي يَجْعَلُ كِتْمَانَ الشَّهَادَةِ إِثْماً يَسْتَقِرُّ فِي القَلْبِ! أَتَأَمَّلُ المِرْآةَ الصَّافِيَةَ كَيْفَ تَعْكِسُ الصُّورَةَ بِأَمَانَةٍ وَصِدْقٍ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِذَا غَطَّاهَا الغُبَارُ وَالكِتْمَانُ فَقَدَتْ نَقَاءَهَا وَلَمْ تَعُدْ تَصْلُحُ لِهَدْيِ النَّاظِرِينَ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ العَلِيمِ بِأَعْمَالِنَا حِينَ يُيَسِّرُ لَنَا الرَّهْنَ عِنْدَ الحَاجَةِ وَيَرْفَعُ شَأْنَ الأَمَانَةِ وَالشَّهَادَةِ لِتَبْقَى القُلُوبُ نَقِيَّةً مِنَ الإِثْمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ذِمَّتِي مِنِ انْتِظَارٍ لِلْمُطَالَبَةِ القَانُونِيَّةِ إِلَى مُبَادَرَةٍ تَقِيَّةٍ تَرُدُّ الأَمَانَاتِ وَتُعْلِنُ الحَقَّ بِشَجَاعَةٍ. فَكُلُّ خِيَانَةٍ أَوْ كِتْمَانٍ يَطْمِسُ نُورَ القَلْبِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقٍ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 284 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

المِلْكِيَّةُ المطْلَقَةُ لِخَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِحَاطَتُهُ بِخَفَايَا النُّفُوسِ وَمُحَاسَبَتُهُ عَلَى النَّوَايَا المسْتَقِرَّةِ تَزْرَعُ فِي القَلْبِ المَهَابَةَ وَتُطَهِّرُ البَاطِنَ مِنَ الغِلِّ وَالخِدَاعِ. بَعْدَ بَيَانِ الأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ فِي البَيْعِ وَالرَّهْنِ وَالشَّهَادَةِ، يَنْتَقِلُ الوَحْيُ لِإِصْلَاحِ البَاطِنِ الَّذِي هُوَ مَنْبَعُ السُّلُوكِ؛ فَيُذَكِّرُ بِأَنَّ المالَ وَالكَوْنَ كُلَّهُ مِلْكٌ لِلهِ، وَأَنَّ مَا يَعْزِمُ عَلَيْهِ القَلْبُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ مَكْشُوفٌ أَمَامَهُ، مَعَ بَيَانِ سَعَةِ مَغْفِرَتِهِ لِمَنْ يَشَاءُ رَحْمَةً وَعَدَالَةِ عَذَابِهِ لِمَنْ يَشَاءُ حِكْمَةً. فَمَنْ طَهَّرَ سَرِيرَتَهُ قَبْلَ عَلَانِيَتِهِ نَالَ مَغْفِرَةَ المَلِكِ القَدِيرِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المَكَّارُ الَّذِي يُظْهِرُ الصَّلَاحَ وَيُضْمِرُ الفَسَادَ.

الصَّدَى

مُلْكِيَّةُ الكَوْنِ وَشَفَافِيَّةُ السَّرَائِرِ

صَدَى ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فَضَاءٌ وَاسِعٌ تَتَلَاشَى فِيهِ الأَسْتَارُ وَالحُجُبُ، فَتَبْدُو خَفَايَا الصُّدُورِ سَاطِعَةً كَالكَوَاكِبِ أَمَامَ مَالِكِ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاخْتِبَاءِ خَلْفَ جُدْرَانِ الكِتْمَانِ أَوْ تَزْيِينِ الظَّاهِرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ النِّيَّةَ الكَامِنَةَ فِي القَلْبِ هِيَ أَسَاسُ الحِسَابِ وَالمَغْفِرَةِ. وَكَمْ رَاقَبْتُ قَدِيماً أَفْعَالِي الظَّاهِرَةَ أَمَامَ الخَلْقِ وَتَرَكْتُ خَوَاطِرَ السُّوءِ تَعْبَثُ فِي دَاخِلِي، غَافِلاً عَنْ أَنَّ السَّمَاءَ تَطَّلِعُ عَلَى البَاطِنِ قَبْلَ الظَّاهِرِ! أَتَأَمَّلُ البَحْرَ الصَّافِيَ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ العَمُودِيَّةِ كَيْفَ تَظْهَرُ حَصَاهُ وَكُنُوزُهُ فِي أَعْمَاقِ القَاعِ بِوُضُوحٍ تَامٍّ لِمَنْ يَنْظُرُ مِنْ أَعْلَى، لَا تَحْجُبُهَا الأَمْوَاجُ وَلَا الظِّلَالُ. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ حِينَ يُذَكِّرُنَا بِمُلْكِهِ المُطْلَقِ ثُمَّ يَفْتَحُ أَبْوَابَ مَغْفِرَتِهِ لِتُطَمْئِنَ القُلُوبَ الوَجِلَةَ مِنْ دِقَّةِ الحِسَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِنَايَتِي بِنَفْسِي مِنْ تَجْمِيلٍ لِلصُّورَةِ الخَارِجِيَّةِ إِلَى تَزْكِيَةٍ عَمِيقَةٍ تَغْسِلُ البَاطِنَ مِنَ الحَسَدِ وَالخِدَاعِ. فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مِلْكٌ زَائِلٌ لِأَصْحَابِهِ المَجَازِيِّينَ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ القَدِيرِ مَالِكِ المُلْكِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 285 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ الإِيمَانِ الشَّامِلِ بِأَرْكَانِهِ الكُبْرَى وَالتَّسْلِيمُ المُطْلَقُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ مَعَ الِانْكِسَارِ وَطَلَبِ المَغْفِرَةِ تُمَثِّلُ قِمَّةَ النُّضْجِ الرُّوحِيِّ لِلْأُمَّةِ المُؤْمِنَةِ. حِينَ شَقَّ عَلَى بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَمْرُ المُحَاسَبَةِ عَلَى الخَوَاطِرِ فَبَادَرُوا إِلَى التَّسْلِيمِ الكَامِلِ قَائِلِينَ «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»، نَزَلَ هٰذَا الثَّنَاءُ السَّمَاوِيُّ لِيُعْلِنَ تَطَابُقَ إِيمَانِ الأُمَّةِ مَعَ إِيمَانِ الرَّسُولِ فِي التَّصْدِيقِ بِالخَالِقِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ وَجَمِيعِ الرُّسُلِ دُونَ تَفْرِقَةٍ أَوْ تَعَصُّبٍ. هٰذَا المِيثَاقُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ جَدَلِ المُكَابَرَةِ الَّذِي أَهْلَكَ الأُمَمَ السَّابِقَةَ، وَيَرْبِطُ الطَّاعَةَ بِطَلَبِ الغُفْرَانِ وَاسْتِحْضَارِ المَصِيرِ. فَمَنْ لَزِمَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَالتَّوَاضُعَ عِنْدَ الأَمْرِ نَالَ شَرَفَ الِاقْتِدَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَسَعَةَ الغُفْرَانِ، بَيْنَمَا يَضِلُّ مَنْ قَابَلَ الوَحْيَ بِالمِرَاءِ وَالِاعْتِرَاضِ.

الصَّدَى

نَشِيدُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَمِيثَاقُ النُّبُوَّةِ

صَدَى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

مَوْكِبٌ نُورَانِيٌّ يَتَقَدَّمُهُ الرَّسُولُ وَيَتْبَعُهُ المؤْمِنُونَ بِقُلُوبٍ مُوَحَّدَةٍ، تَهْتِفُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَتَطْلُبُ الغُفْرَانَ قَبْلَ يَوْمِ المصِيرِ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّرَدُّدِ أَوِ الِانْتِقَاءِ أَمَامَ أَوَامِرِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ التَّسْلِيمِ الحُرِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَالكُتُبِ دُونَ تَفْرِقَةٍ أَوْ جُحُودٍ. وَكَمْ أَرْهَقَتْنِي قَدِيماً كَثْرَةُ التَّسَاؤُلَاتِ الَّتِي تُؤَخِّرُ الِامْتِثَالَ، حَتَّى ذُقْتُ حَلَاوَةَ الطُّمَأْنِينَةِ في كَلِمَةِ «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» المشْفُوعَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ! أَتَأَمَّلُ السَّنَابِلَ المثْقَلَةَ بِالخَيْرِ في الحَقْلِ الفَسِيحِ كَيْفَ تَنْحَنِي جَمِيعُهَا في تَنَاغُمٍ وَسَلَامٍ كُلَّمَا هَبَّتْ عَلَيْهَا نَسَمَاتُ الصَّبَاحِ، فَلَا تَتَكَبَّرُ سُنْبُلَةٌ وَلَا تَشُذُّ عَنِ السِّرْبِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ القُلُوبِ الَّتِي يُقْرِنُ اللهُ إِيمَانَهَا بِإِيمَانِ رَسُولِهِ وَيَسْتَجِيبُ لِتَضَرُّعِهَا حِينَ تَهْتِفُ بِغُفْرَانِهِ وَتُقِرُّ بِأَنَّ إِلَيْهِ المصِيرَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عُبُودِيَّتِي مِنْ ثِقَلِ التَّكْلِيفِ إِلَى عِزَّةِ الِانْتِمَاءِ لِمَوْكِبِ النُّبُوَّةِ وَالرِّضَا. فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ يَعْصِي أَمْرَ السَّمَاءِ مَآلُهُ الخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ المرْجِعُ وَالمصِيرُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 286 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ التَّيْسِيرِ وَعَدَالَةِ التَّكْلِيفِ عَلَى قَدْرِ الوُسْعِ وَالطَّاقَةِ يَخْتِمُ أَطْوَلَ سُوَرِ القُرْآنِ بِبُشْرَى الرَّحْمَةِ وَرَفْعِ الآصَارِ وَالأَغْلَالِ عَنْ كَاهِلِ الإِنْسَانِ. بَعْدَ أَنْ بَادَرَ المؤْمِنُونَ بِالتَّسْلِيمِ الكَامِلِ، تَنَزَّلَتِ السَّمَاءُ بِرَحْمَتِهَا لِتُطَمْئِنَهُمْ أَنَّ الخَالِقَ لَا يُكَلِّفُ نَفْساً فَوْقَ طَاقَتِهَا، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَجْنِي ثَمَرَةَ كَسْبِهِ الحَسَنِ وَيَتَحَمَّلُ تَبِعَةَ اكْتِسَابِهِ السَّيِّئِ دُونَ تَحْمِيلِ أَحَدٍ وِزْرَ غَيْرِهِ، ثُمَّ تُلَقِّنُهُمْ أَجْمَعَ دَعَوَاتِ الِافْتِقَارِ لِرَفْعِ الحَرَجِ عَنِ النِّسْيَانِ وَالخَطَإِ وَاسْتِجْلَابِ العَفْوِ وَالمغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالنَّصْرِ. هٰذِهِ الخَاتِمَةُ البَدِيعَةُ تُحَرِّرُ

العَقْلَ مِنَ الوَسْوَسَةِ وَاليَأْسِ، وَتَجْعَلُ العَلَاقَةَ مَعَ المَوْلَى قَائِمَةً عَلَى الحُبِّ وَاليُسْرِ وَالتَّأْيِيدِ. فَمَنْ دَعَا رَبَّهُ بِهٰذِهِ الكَلِمَاتِ النُّورَانِيَّةِ مُوقِناً بِعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ نَالَ العَفْوَ وَالنَّصْرَ وَالسَّكِينَةَ، بَيْنَمَا يَشْقَى مَنْ حَمَّلَ نَفْسَهُ مَا لَمْ يُكَلِّفْهُ بِهِ الشَّارِعُ فَقَنَطَ مِنْ رَحْمَةِ مَوْلَاهُ.

الصَّدَى

رَحْمَةُ الوُسْعِ وَمِسْكُ الخِتَامِ

صَدَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

نَسَمَاتُ الرَّحْمَةِ تَهُبُّ فِي خِتَامِ السُّورَةِ لِتَرْفَعَ الأَثْقَالَ عَنْ كَاهِلِ البَشَرِ، وَتُعْلِنَ أَنَّ عَدْلَ السَّمَاءِ لَا يُكَلِّفُ رُوحاً فَوْقَ وُسْعِهَا وَطَاقَتِهَا. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ العَجْزِ أَمَامَ التَّكَالِيفِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَا أَمَرَ بِهِ الخَالِقُ هُوَ فِي مَقْدُورِي وَمَصْلَحَتِي، وَأَنَّ بَابَ العَفْوِ مَفْتُوحٌ لِخَطَئِي وَنِسْيَانِي. وَكَمْ أَثْقَلَتْ صَدْرِي قَدِيماً مَخَاوِفُ التَّقْصِيرِ وَهَفَوَاتُ البَشَرِيَّةِ، حَتَّى وَجَدْتُ فِي هٰذِهِ الدَّعَوَاتِ السَّبْعِ بَلْسَماً يَغْسِلُ الجِرَاحَ وَيَمْنَحُ القَلْبَ أَمَانَ الوِلَايَةِ وَالنَّصْرِ! أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ الصَّغِيرَ فِي الفَضَاءِ الوَاسِعِ كَيْفَ يَمْنَحُهُ الخَالِقُ جَنَاحَيْنِ عَلَى قَدْرِ جَسَدِهِ وَطَاقَتِهِ، فَلَا يُكَلِّفُهُ حَمْلَ الجِبَالِ بَلْ يُيَسِّرُ لَهُ التَّحْلِيقَ فِي النُّورِ وَالأَمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ مَوْلَانَا حِينَ يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نَبْتَهِلُ إِلَيْهِ لِيَعْفُوَ عَنَّا وَيَغْفِرَ لَنَا وَيَرْحَمَنَا وَيَنْصُرَنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ خَاتِمَةُ رِحْلَتِي مَعَ سُورَةِ البَقَرَةِ مِنْ رَهْبَةِ الحِسَابِ إِلَى أُنْسِ المُنَاجَاةِ وَطُمَأْنِينَةِ القَبُولِ. فَكُلُّ عَنَتٍ تَصْنَعُهُ الأَوْهَامُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ مَوْلَانَا وَنَصْرِهِ المُبِينِ.

سُورَة آلِ عِمْرَانَ

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١–١٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 1 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الم﴾

المَوْعِظَةُ

إِعْجَازُ البَيَانِ المِنْيِّ عَلَى الحُرُوفِ المقَطَّعَةِ يَهْدِمُ غُرُورَ العَقْلِ البَشَرِيِّ أَمَامَ عَظَمَةِ الوَحْيِ، إِذْ يَتَحَدَّى الفُصَحَاءَ وَالبُلَغَاءَ بِأَدَوَاتِ كَلَامِهِمُ الَّتِي يَنْطِقُونَ بِهَا كُلَّ يَوْمٍ فَيَعْجِزُونَ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ. هٰذَا الِاسْتِهْلَالُ النُّورَانِيُّ يُحَرِّرُ الفِكْرَ مِنْ وَهْمِ الإِحَاطَةِ بِكُلِّ الأَسْرَارِ، وَيَدْعُو القَلْبَ إِلَى التَّوَاضُعِ المَعْرِفِيِّ وَالإِنْصَاتِ الخَاشِعِ لِكَلَامِ السَّمَاءِ الَّذِي يَصْنَعُ مِنْ بَسِيطِ الحُرُوفِ مُعْجِزَةً خَالِدَةً تُحْيِي الضَّمَائِرَ وَتُقِيمُ الحُجَّةَ. فَمَنِ اسْتَقْبَلَ فَوَاتِحَ الكِتَابِ بِعَقْلٍ مُتَوَاضِعٍ وَقَلْبٍ يَقِظٍ أَدْرَكَ عَظَمَةَ المتَكَلِّمِ وَسُمُوَّ الرِّسَالَةِ، بَيْنَمَا يَتَعَثَّرُ المكابِرُ عِنْدَ أَوَّلِ حَرْفٍ فَيُحْرَمُ نُورَ الهِدَايَةِ وَالبَيَانِ.

الصَّدَى

سِرُّ الحُرُوفِ وَعَجْزُ البَيَانِ

صَدَى ﴿الم﴾

أَحْرُفٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَلَأْلَأُ فِي مَطْلَعِ السُّورَةِ كَالنُّجُومِ الثَّوَابِتِ، تَتَحَدَّى أَرْبَابَ الفَصَاحَةِ بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَبْجَدِيَّةٍ فَتُعْجِزُ العُقُولَ وَتُذْهِلُ الأَلْبَابَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الكِبْرِيَاءِ المَعْرِفِيِّ الَّذِي يَظُنُّ أَنَّهُ مَلَكَ نَاصِيَةَ الكَلَامِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ سِرَّ الإِعْجَازِ يَكْمُنُ فِي رُوحِ الوَحْيِ لَا فِي مُجَرَّدِ الرُّسُومِ وَالأَصْوَاتِ. وَكَمْ مَرَرْتُ قَدِيماً عَلَى الحُرُوفِ المأْلُوفَةِ دُونَ أَنْ أَتَأَمَّلَ كَيْفَ يَصُوغُ مِنْهَا الخَالِقُ نُوراً يَخْتَرِقُ حُجُبَ الغَفْلَةِ وَيُهَذِّبُ الوِجْدَانَ! أَتَأَمَّلُ التُّرَابَ البَسِيطَ وَالماءَ الصَّافِيَ اللَّذَيْنِ تَطَؤُهُمَا الأَقْدَامُ كُلَّ يَوْمٍ، كَيْفَ يُخْرِجُ مِنْهُمَا البَارِئُ أَزْهَاراً تَفُوقُ وَصْفَ الرَّسَّامِينَ وَثِمَاراً تَعْجِزُ عَنْ صُنْعِهَا مَصَانِعُ البَشَرِ. فَمَا أَعْظَمَ كَلَامَ اللهِ الَّذِي يَبْدَأُ بِحُرُوفٍ مُقَطَّعَةٍ لِيُوقِظَ الغَافِلِينَ وَيُعْلِنَ أَنَّ البَيَانَ الحَقَّ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ العَلِيمِ الحَكِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِفَوَاتِحِ السُّوَرِ مِنْ تَسَاؤُلٍ حَائِرٍ إِلَى خُشُوعٍ مُطْمَئِنٍّ يُسَلِّمُ بِعَظَمَةِ الخَالِقِ وَإِعْجَازِ كِتَابِهِ. فَكُلُّ بَلَاغَةٍ يَصْنَعُهَا البَشَرُ مَآلُهَا الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبَيَانِ اللهِ المعْجِزِ الخَالِدِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 2 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

المَوْعِظَةُ

تَرْسِيخُ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ وَالِاسْتِنَادُ إِلَى الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ يُحَرِّرَانِ القَلْبَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالأَسْبَابِ الفَانِيَةِ وَالقُوَى المَخْلُوقَةِ. تَكْرَارُ هٰذَا المِيثَاقِ العَظِيمِ فِي مَطْلَعِ آلِ عِمْرَانَ يُثَبِّتُ العَقِيدَةَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تَنْفِي الأُلُوهِيَّةَ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَتَرْبِطُ الإِنْسَانَ بِالحَيَاةِ المُطْلَقَةِ الَّتِي لَا يَعْتَرِيهَا فَنَاءٌ، وَالقَيُّومِيَّةِ الكَامِلَةِ الَّتِي تُدَبِّرُ شُؤُونَ الخَلْقِ دُونَ عَجْزٍ أَوْ غَفْلَةٍ. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تَمْنَحُ الرُّوحَ عِزَّةَ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ المَخْلُوقِينَ وَسَكِينَةَ اللُّجُوءِ إِلَى المَالِكِ الحَقِّ. فَمَنْ أَسْلَمَ قَلْبَهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ عَاشَ عَزِيزاً آمِناً لَا تُزَلْزِلُهُ العَوَاصِفُ، بَيْنَمَا يَضِيعُ مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ أَنْدَاداً تَفْنَى وَتَزُولُ.

الصَّدَى

وَحْدَانِيَّةُ الحَيِّ وَقَيُّومِيَّةُ الوُجُودِ

صَدَى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

قُطْبٌ نُورَانِيٌّ يَدُورُ حَوْلَهُ الوُجُودُ كُلُّهُ، تَسْتَمِدُّ مِنْهُ الكَائِنَاتُ حَيَاتَهَا وَثَبَاتَهَا، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ وَلَا قَائِمَ بِالأَمْرِ غَيْرُهُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاعْتِمَادِ عَلَى سَنَدٍ بَشَرِيٍّ ضَعِيفٍ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ قَلْبِي مُعَلَّقٌ بِالحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالقَيُّومِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ رُوحِي قَدِيماً بَيْنَ مَخَاوِفَ شَتَّى وَتَعَلُّقَاتٍ زَائِلَةٍ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي شَمْسُ التَّوْحِيدِ فَجَمَعَتْ شَتَاتِي فِي رُكْنٍ وَثِيقٍ! أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ المَرْفُوعَةَ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَالأَرْضَ المَمْدُودَةَ بِإِحْكَامٍ، كَيْفَ يَقُومُ كُلُّ ذٰلِكَ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَعَثَّرُ عَبْرَ تَعَاقُبِ الدُّهُورِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الحَيِّ القَيُّومِ الَّذِي تَخْضَعُ لَهُ الرِّقَابُ وَتَطْمَئِنُّ بِذِكْرِهِ القُلُوبُ المؤْمِنَةُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عُبُودِيَّتِي مِنْ تَشَتُّتٍ بَيْنَ أَبْوَابِ الخَلْقِ إِلَى تَوَجُّهٍ خَالِصٍ نَحْوَ المَلِكِ الحَقِّ. فَكُلُّ حَيَاةٍ مَخْلُوقَةٍ مَآلُهَا الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الحَيِّ القَيُّومِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 3 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ مَصْدَرِ الوَحْيِ السَّمَاوِيِّ وَتَصْدِيقُ القُرْآنِ لِأُصُولِ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ يُرْسِيَانِ مَنْهَجَ الإِيمَانِ الشَّامِلِ الَّذِي يَرَى فِي النُّبُوَّاتِ مَدْرَسَةً وَاحِدَةً تَتَكَاثَفُ أَنْوَارُهَا لِهِدَايَةِ البَشَرِيَّةِ. نُزُولُ الكِتَابِ بِالحَقِّ المجَرَّدِ يُقِيمُ الميزَانَ العَادِلَ الَّذِي يُصَدِّقُ مَا سَبَقَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَيُهَيْمِنُ عَلَيْهَا لِيَحْفَظَ جَوْهَرَ التَّوْحِيدِ مِنْ تَحْرِيفِ الغَالِينَ وَتَأْوِيلِ الجَاهِلِينَ. هٰذِهِ الرُّؤْيَةُ الكُلِّيَّةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّعَصُّبِ الضَّيِّقِ وَالقَطِيعَةِ التَّارِيخِيَّةِ، لِيُدْرِكَ أَنَّ دِينَ الخَالِقِ وَاحِدٌ فِي أَصْلِهِ وَغَايَتِهِ. فَمَنْ آمَنَ بِهٰذَا التَّكَامُلِ النُّورَانِيِّ نَالَ سَعَةَ الفَهْمِ وَنَقَاءَ اليَقِينِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ كُتُبِ السَّمَاءِ فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى وَالجُحُودِ.

الصَّدَى

تَكَامُلُ الكُتُبِ وَوَحْدَةُ المِشْكَاةِ

صَدَى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾

نُورٌ يَتَّصِلُ بِنُورٍ عَبْرَ مَسِيرَةِ الزَّمَانِ، فَيُصَدِّقُ الكِتَابُ الخَاتِمُ مَا سَبَقَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ لِيُتِمَّ بِنَاءَ الهِدَايَةِ فِي الأَرْضِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّنَاقُضِ بَيْنَ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ الخَالِقُ كَانَ مَنَارَةً تَهْدِي القُلُوبَ إِلَى صِرَاطِهِ المسْتَقِيمِ. وَكَمْ حَارَ فِكْرِي قَدِيماً أَمَامَ صِرَاعِ الأَتْبَاعِ الَّذِينَ مَزَّقُوا وَحْدَةَ الرِّسَالَةِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي بَصِيرَتِي حَقِيقَةُ التَّصْدِيقِ وَالهَيْمَنَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا القُرْآنُ! أَتَأَمَّلُ الفَجْرَ الأَوَّلَ كَيْفَ يُبَشِّرُ بِالضُّحَى، ثُمَّ تَأْتِي الشَّمْسُ السَّاطِعَةُ لِتُصَدِّقَ بُشْرَى الفَجْرِ وَتَعْمُرَ الكَوْنَ كُلَّهُ بِالضِّيَاءِ الكَامِلِ دُونَ أَنْ تُنْكِرَ أَصْلَ النُّورِ الأَوَّلِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ثُمَّ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِيُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى العَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِتَارِيخِ النُّبُوَّاتِ مِنْ جُزُرٍ مُتَبَاعِدَةٍ إِلَى نَهْرٍ وَاحِدٍ يَصُبُّ فِي بَحْرِ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى. فَكُلُّ تَحْرِيفٍ يَصْنَعُهُ البَشَرُ مَآلُهُ الِانْكِشَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكِتَابِ اللهِ المصَدِّقِ المهَيْمِنِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 4 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

المَوْعِظَةُ

وُضُوحُ الفُرْقَانِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ وَالنُّورِ وَالظَّلَامِ يُقِيمُ المَسْؤُولِيَّةَ الكَامِلَةَ عَلَى العُقُولِ بَعْدَ إِزَالَةِ كُلِّ لَبْسٍ أَوْ غُمُوضٍ. الكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ نَزَلَتْ هِدَايَةً لِلْبَشَرِ، ثُمَّ جَاءَ الفُرْقَانُ لِيَكُونَ المِعْيَارَ الحَاسِمَ الَّذِي تَتَمَايَزُ عِنْدَهُ القُلُوبُ؛ فَمَنْ جَحَدَ هٰذِهِ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ مِنْ عَزِيزٍ لَا يُغْلَبُ، ذِي انْتِقَامٍ عَادِلٍ مِمَّنْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِهِ. هٰذَا المِيزَانُ الصَّارِمُ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ التَّمَيُّعِ الفِكْرِيِّ الَّذِي يُسَوِّي بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ. فَمَنِ اهْتَدَى بِالفُرْقَانِ نَجَا مِنْ عَذَابِ السَّمَاءِ وَفَازَ بِالرَّشَادِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ الجَاحِدُ المُعَانِدُ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الفُرْقَانِ وَعِزَّةُ الجَبَّارِ

صَدَى ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

سَيْفٌ نُورَانِيٌّ يَفْصِلُ بِدِقَّةٍ بَيْنَ صَفَاءِ الحَقِّ وَكَدَرِ البَاطِلِ، فَيُبَدِّدُ غُيُومَ الشُّبُهَاتِ وَيُعْلِنُ عِزَّةَ الخَالِقِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَسَاوِي السُّبُلِ وَتَمَيُّعِ الحَقَائِقِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الفُرْقَانَ قَدْ أَقَامَ الحُجَّةَ وَرَسَمَ الحُدُودَ الفَاصِلَةَ بَيْنَ النَّجَاةِ وَالهَلَاكِ. وَكَمِ احْتَلَطَتْ عَلَيَّ قَدِيماً المَفَاهِيمُ فِي زِحَامِ الآرَاءِ البَشَرِيَّةِ، حَتَّى أَمْسَكْتُ بِمِيزَانِ الفُرْقَانِ فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ وَتَبَيَّنَ الطَّرِيقُ! أَتَأَمَّلُ المِحَكَّ الذَّهَبِيَّ الَّذِي يَمْتَحِنُ المَعَادِنَ النَّفِيسَةَ، فَيَكْشِفُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ زَيْفَ النُّحَاسِ المِطْلِيِّ وَيُظْهِرُ بَرِيقَ الذَّهَبِ الخَالِصِ دُونَ مُجَامَلَةٍ أَوْ مُحَابَاةٍ. فَمَا أَشَدَّ عِزَّةَ اللهِ وَانْتِقَامَهُ مِمَّنْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِهِ بَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ الهُدَى وَالفُرْقَانَ رَحْمَةً لِلنَّاسِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ بَصِيرَتِي مِنْ حَيْرَةٍ تَتَرَدَّدُ أَمَامَ المَتَشَابِهَاتِ إِلَى حَزْمٍ يَقِظٍ يَلْتَزِمُ الحَقَّ وَيَحْذَرُ مَصِيرَ الجَاحِدِينَ. فَكُلُّ جُحُودٍ يُعَانِدُ الفُرْقَانَ مَآلُهُ العَذَابُ الشَّدِيدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِزَّةِ اللهِ وَحُكْمِهِ العَادِلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 5 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

المَوْعِظَةُ

إِحَاطَةُ العِلْمِ الإِلٰهِيِّ بِكُلِّ ذَرَّةٍ تَتَحَرَّكُ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ أَوْ تَسْبَحُ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاءِ تَزْرَعُ فِي الضَّمِيرِ المُرَاقَبَةَ الدَّائِمَةَ وَتَمْنَحُ القَلْبَ الطُّمَأْنِينَةَ المُطْلَقَةَ. لَا تَغِيبُ عَنْ عِلْمِ الخَالِقِ خَاطِرَةٌ تَدُورُ فِي صَدْرٍ، وَلَا دَمْعَةٌ تَسْقُطُ فِي ظُلْمَةٍ، وَلَا مَكْرٌ يُحَاكُ فِي الخَفَاءِ؛ فَالْكَوْنُ كُلُّهُ مَكْشُوفٌ أَمَامَ بَصَرِهِ وَعِلْمِهِ المُحِيطِ. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تُحَرِّرُ المُؤْمِنَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ أَمَامَ البَشَرِ، وَتُطَمْئِنُ المَظْلُومَ أَنَّ أَنِينَهُ مَسْمُوعٌ وَحَقَّهُ مَحْفُوظٌ. فَمَنِ اسْتَحْضَرَ شُمُولَ عِلْمِ رَبِّهِ اسْتَقَامَ سِرُّهُ وَعَلَنُهُ، بَيْنَمَا يَخْدَعُ الغَافِلُ نَفْسَهُ حِينَ يَظُنُّ أَنَّ جُدْرَانَ الدُّنْيَا تَسْتُرُ خَفَايَاهُ عَنْ رَبِّ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

شَفَافِيَّةُ الوُجُودِ وَإِحَاطَةُ العَلِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

كَوْنٌ شَفَّافٌ كَالزُّجَاجِ النَّقِيِّ أَمَامَ عَيْنِ الخَالِقِ، لَا تَحْجُبُ فِيهِ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَلَا أَعْمَاقُ البِحَارِ وَلَا خَفَايَا الصُّدُورِ ذَرَّةً عَنْ عِلْمِهِ المُحِيطِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ السِّتْرِ الزَّائِفِ الَّذِي يُغْرِي النَّفْسَ بِالتَّهَاوُنِ فِي الخَلَوَاتِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ نَبْضَةٍ صَادِقَةٍ مَرْصُودَةٌ فِي السَّمَاءِ. وَكَمْ حَزِنْتُ قَدِيماً حِينَ غَابَ عَنِ الخَلْقِ صِدْقُ نِيَّتِي أَوْ خَفِيَتْ عَلَيْهِمْ تَضْحِيَتِي، حَتَّى أَرَاحَنِي يَقِينُ أَنَّ رَبَّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ! أَتَأَمَّلُ قَطْرَةَ النَّدَى الصَّغِيرَةَ المُخْتَبِئَةَ تَحْتَ وَرَقَةِ الشَّجَرِ فِي جَوْفِ الغَابَةِ الكَثِيفَةِ، كَيْفَ تَصِلُ إِلَيْهَا حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَتُبَخِّرُهَا بِدِقَّةٍ كَأَنَّهَا فِي وَسَطِ الصَّحْرَاءِ المَكْشُوفَةِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الَّذِي يُحِيطُ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ فَيُقِيمُ العَدْلَ وَيَرْعَى الخَلْقَ بِبَصِيرَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ خَلَوَاتِي مِنْ مَسَاحَةٍ لِلْغَفْلَةِ إِلَى مِحْرَابٍ لِلْإِخْلَاصِ وَالأُنْسِ بِمَعِيَّةِ الخَالِقِ. فَكُلُّ خَفَاءٍ يَتَوَهَّمُهُ البَشَرُ مَآلُهُ الِانْكِشَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ المُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 6 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

إِبْدَاعُ الخَلْقِ وَالتَّصْوِيرِ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ وَفْقَ المشِيئَةِ الحَكِيمَةِ يَهْدِمُ كِبْرِيَاءَ الإِنْسَانِ وَيُذَكِّرُهُ بِبِدَايَةِ تَكْوِينِهِ حِينَ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ صُورَةً وَلَا خِيَاراً. الخَالِقُ العَزِيزُ بِقُدْرَتِهِ وَالحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ هُوَ الَّذِي صَاغَ مَلَامِحَ البَشَرِ وَأَوْدَعَ فِيهِمْ أَسْرَارَ الحَيَاةِ وَالتَّنَوُّعِ، فَلَا يَحِقُّ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يَتَعَالَى بِجَمَالِهِ أَوْ قُوَّتِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا أَنْ يَزْدَرِيَ صُورَةً أَبْدَعَتْهَا يَدُ القُدْرَةِ. هٰذَا الشُّهُودُ الوِجْدَانِيُّ يُورِثُ الرِّضَا التَّامَّ بِقِسْمَةِ السَّمَاءِ وَالتَّوْحِيدَ الخَالِصَ لِلْمُصَوِّرِ البَارِئِ. فَمَنْ شَكَرَ نِعْمَةَ الخَلْقِ وَرَضِيَ بِتَصْوِيرِ رَبِّهِ نَالَ جَمَالَ الرُّوحِ وَسَكِينَةَ القَلْبِ، بَيْنَمَا يَشْقَى المَغْرُورُ بِشَكْلِهِ أَوِ السَّاخِطُ عَلَى خِلْقَتِهِ بِالتَّمَرُّدِ عَلَى حِكْمَةِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

الصَّدَى

إِبْدَاعُ الأَرْحَامِ وَرِضَا التَّصْوِيرِ

صَدَى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

أَنَامِلُ القُدْرَةِ تَنْسُجُ مَلَامِحَ الإِنْسَانِ فِي ظُلُمَاتِ الرَّحِمِ الثَّلَاثِ بِإِتْقَانٍ مُبْهِرٍ، فَتُخْرِجُ كُلَّ كَائِنٍ فِي صُورَةٍ فَرِيدَةٍ تَشْهَدُ بِعِزَّةِ البَارِئِ وَحِكْمَتِهِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِافْتِخَارِ بِالمَلَامِحِ أَوِ التَّبَرُّمِ بِالمَظَاهِرِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَفْصِيلٍ فِي وُجُودِي هُوَ اخْتِيَارٌ حَكِيمٌ مِنَ المصَوِّرِ العَلِيمِ. وَكَمْ قَارَنْتُ نَفْسِي قَدِيماً بِالآخَرِينَ فَأَرْهَقَنِي التَّطَلُّعُ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، حَتَّى أَبْصَرْتُ أَنَّ اللهَ صَوَّرَنِي كَيْفَ يَشَاءُ لِغَايَةٍ لَا يُؤَدِّيهَا غَيْرِي! أَتَأَمَّلُ زُهُورَ الحَدِيقَةِ المتَنَوِّعَةَ فِي أَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا وَعُطُورِهَا، كَيْفَ تَزْهُو كُلُّ زَهْرَةٍ بِصُورَتِهَا الَّتِي خُلِقَتْ عَلَيْهَا فَتُكْمِلُ لَوْحَةَ الجَمَالِ دُونَ أَنْ تَحْسُدَ الوَرْدَةُ اليَاسَمِينَ. فَمَا أَعْظَمَ إِبْدَاعَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي يُصَوِّرُنَا فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيُفْرِدُ كُلَّ نَفْسٍ بِبَصْمَةٍ لَا تَتَكَرَّرُ فِي العَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِذَاتِي مِنْ مُقَارَنَةٍ تُورِثُ القَلَقَ إِلَى رِضاً وَشُكْرٍ لِلْمُصَوِّرِ البَارِئِ. فَكُلُّ صُورَةٍ مَادِّيَّةٍ تَشِيخُ وَتَفْنَى، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ خَالِقِ الجَمَالِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 7 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

مَنْهَجِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ النُّصُوصِ القُرْآنِيَّةِ بِرَدِّ المُتَشَابِهِ إِلَى المحْكَمِ تَحْمِي العَقْلَ مِنَ الزَّيْغِ وَالتَّأْوِيلِ المُنْحَرِفِ الَّذِي يَصْنَعُ الفِتَنَ وَالفُرْقَةَ. التَّقْسِيمُ الرَّبَّانِيُّ لِلْكِتَابِ إِلَى آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ وَاضِحَةِ الدَّلَالَةِ هِيَ الأَصْلُ وَالمَرْجِعُ «أُمُّ الكِتَابِ»، وَآيَاتٍ مُتَشَابِهَاتٍ تَحْتَمِلُ وُجُوهاً لِتَكُونَ مَيْدَانَ ابْتِلَاءٍ وَتَدَبُّرٍ، يَفْضَحُ مَرْضَى القُلُوبِ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الأُصُولَ البَيِّنَةَ لِيَتَعَلَّقُوا بِالمُتَشَابِهِ إِثَارَةً لِلشُّبُهَاتِ. وَفِي المُقَابِلِ يَبْرُزُ أَدَبُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ وَأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُسَلِّمُونَ بِأَنَّ الكُلَّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ وَيَرُدُّونَ مَا اشْتَبَهَ إِلَى مَا أُحْكِمَ فِي تَوَاضُعٍ وَيَقِينٍ. فَمَنْ بَنَى فَهْمَهُ عَلَى مُحْكَمِ الكِتَابِ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي العِلْمِ وَالإِيمَانِ، بَيْنَمَا يَضِلُّ صَاحِبُ الزَّيْغِ فِي مَتَاهَاتِ التَّأْوِيلِ البَاطِلِ.

الصَّدَى

أُمُّ الكِتَابِ وَرُسُوخُ العُلَمَاءِ

صَدَى ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

قَوَاعِدُ رَاسِخَةٌ مِنَ المحْكَمَاتِ تَقُومُ عَلَيْهَا أَرْكَانُ الكِتَابِ، وَآفَاقٌ مِنَ المُتَشَابِهَاتِ تَمْتَحِنُ صَفَاءَ القُلُوبِ بَيْنَ رُسُوخِ العُلَمَاءِ وَزَيْغِ المفْتَتِنِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الجَدَلِ حَوْلَ الغَوَامِضِ الَّتِي تُثِيرُ الحَيْرَةَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ السَّلَامَةَ المعْرِفِيَّةَ تَكْمُنُ فِي الِاعْتِصَامِ بِأُمِّ الكِتَابِ وَالتَّسْلِيمِ لِحِكْمَةِ التَّنْزِيلِ. وَكَمْ حَامَتْ حَوْلَ فِكْرِي قَدِيماً تَسَاؤُلَاتٌ تُغْرِي بِالغَوْصِ فِي المتَشَابِهِ بَعِيداً عَنِ الأُصُولِ، حَتَّى أَرْسَى نِدَاءُ الرَّاسِخِينَ فِي قَلْبِي سَكِينَةَ «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا»! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الشَّامِخَ كَيْفَ يَرْتَكِزُ عَلَى قَاعِدَةٍ صَخْرِيَّةٍ عَرِيضَةٍ ثَابِتَةٍ فِي الأَرْضِ، بَيْنَمَا تُعَانِقُ قِمَمُهُ العَالِيَةُ السَّحَابَ وَالضَّبَابَ فَلَا تَهْتَزُّ أَرْكَانُهُ وَلَا تَمِيلُ صُخُورُهُ. فَمَا أَعْظَمَ مَنْهَجَ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ زَيْغَ البَاحِثِينَ عَنِ الفِتْنَةِ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ وَأُولِي الأَلْبَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي فِي الفَهْمِ مِنْ تَتَبُّعٍ لِلشُّبُهَاتِ إِلَى رُسُوخٍ عَقْلِيٍّ يَرُدُّ الفُرُوعَ إِلَى الأُصُولِ المحْكَمَةِ. فَكُلُّ تَأْوِيلٍ يَصْنَعُهُ الزَّيْغُ مَآلُهُ الفِتْنَةُ وَالضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَكِتَابِهِ المحْكَمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 8 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّضَرُّعُ الخَاشِعُ لِطَلَبِ الثَّبَاتِ عَلَى الهِدَايَةِ وَاسْتِجْلَابِ الرَّحْمَةِ اللُّدُنِّيَّةِ هُوَ سِلَاحُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ لِحِمَايَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الزَّيْغِ وَالغُرُورِ. إِدْرَاكُ العَقْلِ لِسُرْعَةِ تَقَلُّبِ القُلُوبِ بَيْنَ الهُدَى وَالضَّلَالِ يَدْفَعُ المؤْمِنَ إِلَى عَدَمِ الِاغْتِرَارِ بِعِلْمِهِ أَوْ طَاعَتِهِ، فَيَلْجَأُ إِلَى الوَهَّابِ الكَرِيمِ لِيُثَبِّتَ نُورَ الإِيمَانِ فِي صَدْرِهِ وَيَهَبَهُ رَحْمَةً خَاصَّةً تَعْصِمُهُ مِنَ الانْحِرَافِ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ. هٰذَا الدُّعَاءُ النُّورَانِيُّ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ العُجْبِ، وَيَرْبِطُ دَيْمُومَةَ الهِدَايَةِ بِفَضْلِ السَّمَاءِ وَعَطَائِهَا المتَجَدِّدِ. فَمَنْ دَاوَمَ عَلَى هٰذَا الِابْتِهَالِ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ حَفِظَ رَبُّهُ قَلْبَهُ مِنَ الزَّيْغِ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ رَحْمَتَهُ، بَيْنَمَا يَزِلُّ مَنِ اتَّكَلَ عَلَى ذَكَائِهِ وَنَسِيَ الِافْتِقَارَ إِلَى الوَهَّابِ.

الصَّدَى

ابْتِهَالُ الثَّبَاتِ وَرَحْمَةُ الوَهَّابِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

نِدَاءٌ خَاشِعٌ يَرْتَفِعُ مِنْ أَعْمَاقِ القُلُوبِ المؤْمِنَةِ لِيَحْرُسَ نِعْمَةَ الهِدَايَةِ مِنْ رِيَاحِ الزَّيْغِ، وَيَسْتَمْطِرَ رَحْمَةً لَدُنِّيَّةً مِنْ خَزَائِنِ الوَهَّابِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الأَمَانِ الذَّاتِيِّ عَلَى اسْتِقَامَتِي، وَأُدْرِكُ أَنَّ القَلْبَ رِيشَةٌ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ لَا يَثْبُتُ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَّا بِتَثْبِيتِ السَّمَاءِ. وَكَمْ خَشِيتُ قَدِيماً أَنْ تَنْزَلِقَ قَدَمِي بَعْدَ وُضُوحِ الرُّؤْيَةِ، حَتَّى وَجَدْتُ فِي هٰذِهِ الدَّعْوَةِ الجَامِعَةِ حِصْناً يَحْمِي اليَقِينَ وَيُجَدِّدُ الرَّحْمَةَ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ المنِيرَ فِي اللَّيْلِ العَاصِفِ كَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى يَدٍ حَانِيَةٍ تَحُوطُهُ وَتَمُدُّهُ بِالزَّيْتِ كُلَّ سَاعَةٍ لِيَبْقَى ضَوْؤُهُ سَاطِعاً لَا تُطْفِئُهُ الرِّيَاحُ العَاتِيَةُ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الوَهَّابِ الَّذِي يُلْهِمُ عِبَادَهُ هٰذَا الدُّعَاءَ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ الهِدَايَةِ وَيَغْمُرَهُمْ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي بِنَفْسِي مِنْ عُجْبٍ يَرْكَنُ إِلَى العِلْمِ إِلَى افْتِقَارٍ دَائِمٍ يَسْأَلُ الخَالِقَ الثَّبَاتَ وَالرَّحْمَةَ. فَكُلُّ هِدَايَةٍ لَا تَحْرُسُهَا السَّمَاءُ عُرْضَةٌ لِلزَّيْغِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الوَهَّابِ الكَرِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 9 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

المَوْعِظَةُ

اليَقِينُ القَاطِعُ بِيَوْمِ الجَمْعِ الأَكْبَرِ وَصِدْقِ الوَعْدِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ يُشَكِّلُ الضَّمَانَةَ الكُبْرَى لِاسْتِقَامَةِ العَقْلِ وَثَبَاتِ القَلْبِ فِي الدُّنْيَا. تَوَسُّلُ الرَّاسِخِينَ بِإِقْرَارِهِمْ بِحَقِيقَةِ البَعْثِ وَالحِسَابِ يُبْرِزُ أَنَّ الإِيمَانَ بِاليَوْمِ الآخِرِ هُوَ المِحْرَكُ الأَقْوَى لِطَلَبِ الهِدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَيْقَنَ أَنَّ الخَلَائِقَ سَتُجْمَعُ لِيَوْمٍ لَا شَكَّ فِيهِ أَعَدَّ العُدَّةَ لِذٰلِكَ اللِّقَاءِ وَاطْمَأَنَّ إِلَى عَدَالَةِ الميعَادِ. هٰذَا الرُّسُوخُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنَ الشُّكُوكِ الَّتِي تَبُثُّهَا المَادِّيَّةُ الجَاحِدَةُ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ كَلِمَةَ السَّمَاءِ أَصْدَقُ مِيعَادٍ فِي الوُجُودِ. فَمَنْ عَاشَ عَلَى يَقِينِ الجَمْعِ وَالِاسْتِعْدَادِ نَجَا يَوْمَ الحَشْرِ، بَيْنَمَا يُفَاجَأُ المُرْتَابُ بِوَعْدِ السَّمَاءِ حِينَ يَقَعُ الحَقُّ الَّذِي كَانَ بِهِ يَمْتَرِي.

الصَّدَى

مِيعَادُ الجَمْعِ وَصِدْقُ الوَعْدِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

مَوْعِدٌ كَوْنِيٌّ مَهِيبٌ تُطْوَى عِنْدَهُ المَسَافَاتُ وَالأَزْمَانُ، لِيَجْتَمِعَ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا تَأْجِيلَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّشَتُّتِ وَالضَّيَاعِ لِأَعْمَالِ البَشَرِ وَمَظَالِمِهِمْ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَحْفُوظٌ لِيَوْمِ الجَمْعِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ الخَالِقُ. وَكَمْ تَسَاءَلَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عَنْ مَصِيرِ الحُقُوقِ الضَّائِعَةِ وَالأَسْرَارِ المَدْفُونَةِ فِي التُّرَابِ، حَتَّى أَشْرَقَ فِي قَلْبِي نُورُ هٰذَا اليَقِينِ بِأَنَّ مِيعَادَ الحِسَابِ آتٍ لَا رَيْبَ فِيهِ! أَتَأَمَّلُ قَطَرَاتِ المَطَرِ المُتَنَاثِرَةَ فَوْقَ الجِبَالِ وَالوِدْيَانِ كَيْفَ تَتَجَمَّعُ فِي مَجَارٍ مَعْلُومَةٍ لِتَلْتَقِيَ كُلُّهَا فِي مَوْعِدٍ مُحَدَّدٍ عِنْدَ مَصَبِّ البَحْرِ الكَبِيرِ دُونَ أَنْ تَتَخَلَّفَ قَطْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَمَا أَعْظَمَ صِدْقَ اللهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ الميعَادَ وَيَجْمَعُ النَّاسَ لِيَوْمِ الفَصْلِ لِيُظْهِرَ عَدْلَهُ وَرَحْمَتَهُ لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْمُسْتَقْبَلِ مِنْ غُمُوضٍ يُثِيرُ الرَّيْبَ إِلَى يَقِينٍ رَاسِخٍ يَسْتَعِدُّ لِيَوْمِ اللِّقَاءِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ. فَكُلُّ مَوْعِدٍ يَقْطَعُهُ البَشَرُ قَدْ يَعْتَرِيهِ الخُلْفُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَعْدِ اللهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 10 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

سُقُوطُ الرِّهَانِ عَلَى التَّرْوَةِ وَالعِزْوَةِ البَشَرِيَّةِ عِنْدَ نُزُولِ العَذَابِ يَكْشِفُ بُطْلَانَ المَقَايِيسِ المادِّيَّةِ الَّتِي يَغْتَرُّ بِهَا الجَاحِدُونَ فِي الدُّنْيَا. الأَمْوَالُ الَّتِي كُنِزَتْ وَالأَوْلَادُ الَّذِينَ تَفَاخَرَ بِهِمُ الكَافِرُونَ لَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ شَيْئاً مِنْ عَدْلِ الخَالِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَلْ يَنْقَلِبُ أَصْحَابُ هٰذَا الغُرُورِ إِلَى حَطَبٍ وَوَقُودٍ تَشْتَعِلُ بِهِ النَّارُ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَصَدِّهِمْ عَنِ الحَقِّ. هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ عُبُودِيَّةِ المالِ وَالبَنِينَ، لِيَجْعَلَهُمَا وَسِيلَةً لِلطَّاعَةِ لَا سَنَداً يَغُرُّ صَاحِبَهُ عَنْ طَرِيقِ النَّجَاةِ. فَمَنْ سَخَّرَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ نَالَا بَرَكَةَ الشَّفَاعَةِ وَالنَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ المَغْرُورُ بِهِمَا دُونَ عَمَلٍ صَالِحٍ فِي نَارِ الحَسْرَةِ وَالعَذَابِ.

الصَّدَى

سَرَابُ المالِ وَالبَنِينَ وَوَقُودُ النَّارِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

حُصُونٌ مِنَ الرَّمْلِ يَبْنِيهَا الغَافِلُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ظَنّاً مِنْهُمْ أَنَّهَا تَحْمِيهِمْ مِنْ عَاصِفَةِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ، فَتَجْرِفُهَا الأَمْوَاجُ وَيُصْبِحُونَ وَقُوداً لِلنَّارِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاحْتِمَاءِ بِالكَثْرَةِ المادِّيَّةِ أَوِ العِزْوَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ عِنْدَ سَاعَةِ الحِسَابِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ القَلْبَ السَّلِيمَ وَحْدَهُ هُوَ طَوْقُ النَّجَاةِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً مُغْتَرِّينَ يَتَّكِئُونَ عَلَى خَزَائِنِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ كَأَنَّهُمْ مَلَكُوا الخُلُودَ، غَافِلِينَ عَنْ يَوْمٍ تَتَقَطَّعُ فِيهِ الأَسْبَابُ وَلَا يُغْنِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ! أَتَأَمَّلُ الهَشِيمَ اليَابِسَ المُتَرَاكِمَ فِي الصَّحْرَاءِ كَيْفَ يَظُنُّهُ الجَاهِلُ سَدّاً مَنِيعاً يَحْمِي مِنَ البَرْدِ، فَإِذَا مَسَّتْهُ شَرَارَةُ النَّارِ كَانَ هُوَ أَوَّلَ وَقُودٍ يَزِيدُ لَهِيبَهَا اشْتِعَالاً. فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ اللهِ فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُ أَمْوَالُهُ وَلَا أَوْلَادُهُ شَيْئاً وَصَارَ وَقُوداً لِلْجَحِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلنِّعَمِ مِنْ مَلَاذٍ أَتَّكِئُ عَلَيْهِ دُونَ الخَالِقِ إِلَى أَمَانَةٍ أَسْتَثْمِرُهَا فِي

طَاعَتِهِ وَرِضَاهُ. فَكُلُّ مَالٍ وَوَلَدٍ لَا يُقَرِّبُ إِلَى السَّمَاءِ مَآلُهُ التَّلَاشِي وَالحَسْرَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَمَلٍ صَالِحٍ يُنْجِي صَاحِبَهُ عِنْدَ اللهِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١١-٢٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 11 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

سُنَّةُ التَّارِيخِ الصَّارِمَةُ فِي أَخْذِ المكَذِّبِينَ بِذُنُوبِهِمْ تَهْدِمُ غُرُورَ القُوَّةِ المادِّيَّةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ فِي مَأْمَنٍ مِنْ قَدَرِ السَّمَاءِ. مَصِيرُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالأُمَمِ البَائِدَةِ الَّتِي قَابَلَتْ بَرَاهِينَ الحَقِّ بِالجُحُودِ وَالِاسْتِكْبَارِ لَمْ يَكُنْ حَادِثاً عَابِراً، بَلْ هُوَ قَانُونٌ كَوْنِيٌّ مُطَّرِدٌ يُؤَكِّدُ أَنَّ الذُّنُوبَ تَحْفِرُ قَبْرَ الحَضَارَاتِ مَهْمَا بَلَغَتْ مِنْ جَبَرُوتٍ وَعُمْرَانٍ. هٰذَا الوَعْيُ التَّارِيخِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِبَرِيقِ الطُّغَاةِ، وَيُوقِظُ الضَّمِيرَ لِإِدْرَاكِ أَنَّ الخَالِقَ شَدِيدُ العِقَابِ عِنْدَمَا تَسْتَحْكِمُ الغِوَايَةُ وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ التَّوْبَةِ. فَمَنِ اعْتَبَرَ بِمَصَارِعِ الغَابِرِينَ وَبَادَرَ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّقْوَى نَجَا مِنْ أَخْذِ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَسِيرُ المكَابِرُ عَلَى خُطَى فِرْعَوْنَ نَحْوَ نَفْسِ المصِيرِ المحْتُومِ.

الصَّدَى

سُنَنُ التَّارِيخِ وَمَصَارِعُ الغَابِرِينَ

صَدَى ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أَطْلَالُ الطُّغَاةِ الغَابِرِينَ تَنْتَصِبُ فِي ذَاكِرَةِ الزَّمَانِ كَالشَّوَاخِصِ الصَّامِتَةِ، تَرْوِي قِصَّةَ قُلُوبٍ تَحَجَّرَتْ أَمَامَ الآيَاتِ فَأَخَذَتْهَا عَاصِفَةُ العَدْلِ بِذُنُوبِهَا. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ القُوَّةَ المادِّيَّةَ تَعْصِمُ أَصْحَابَهَا مِنْ نَوَامِيسِ السَّمَاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِالحَقِّ هُوَ السُّمُّ الخَفِيُّ الَّذِي يُهْلِكُ الأُمَمَ وَالأَفْرَادَ. وَكَمِ انْبَهَرَتْ عَيْنِي قَدِيماً بِصُرُوحِ المسْتَكْبِرِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَكُوا الخُلُودَ، حَتَّى كَشَفَتْ لِي صَفَحَاتُ الوَحْيِ كَيْفَ انْهَارَتْ عُرُوشُهُمْ فِي لَحْظَةِ الحَقِّ! أَتَأَمَّلُ السَّدَّ العَالِيَ الَّذِي بُنِيَ

عَلَى رِمَالٍ مُتَحَرِّكَةٍ وَتَآكَلَتْ قَوَاعِدُهُ بِالمِيَاهِ الخَفِيَّةِ، كَيْفَ يَبْدُو شَامِخاً لِلنَّاظِرِينَ ثُمَّ يَنْهَارُ فَجْأَةً تَحْتَ ثِقَلِ التَّصَدُّعِ الدَّاخِلِيِّ. فَمَا أَشَدَّ عِقَابَ اللهِ لِمَنْ يُكَرِّرُ دَأْبَ آلِ فِرْعَوْنَ فِي جُحُودِ الآيَاتِ وَالإِصْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلتَّارِيخِ مِنْ سَرْدٍ لِلْأَحْدَاثِ المَاضِيَةِ إِلَى مِرْآةٍ حَيَّةٍ تُحَذِّرُ قَلْبِي مِنْ مَغَبَّةِ العِنَادِ وَالغَفْلَةِ. فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يَقُومُ عَلَى التَّكْذِيبِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسُنَّةِ اللهِ وَحُكْمِهِ العَادِلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 12 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

المَوْعِظَةُ

اليَقِينُ المسْبَقُ بِانْكِسَارِ البَاطِلِ فِي الدُّنْيَا وَسُوءِ مَصِيرِهِ فِي الآخِرَةِ يَمْنَحُ أَهْلَ الحَقِّ عِزَّةَ الِاسْتِعْلَاءِ الإِيمَانِيِّ فِي سَاعَاتِ الضَّعْفِ وَالِاسْتِضْعَافِ. الخِطَابُ القُرْآنِيُّ يُعْلِنُ بِحَزْمٍ لَا يَعْرِفُ التَّرَدُّدَ أَنَّ غَلَبَةَ الكَافِرِينَ عَارِضٌ مُؤَقَّتٌ سَيَنْقَلِبُ إِلَى هَزِيمَةٍ مُحَقَّقَةٍ فِي مَيْدَانِ الحَيَاةِ، ثُمَّ يَعْقُبُهُ الحَشْرُ المهِينُ إِلَى جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ بِئْسَ الفِرَاشُ وَالقَرَارُ. هٰذِهِ البِشَارَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ المؤْمِنَ مِنْ رَهْبَةِ المَوَازِينِ الظَّاهِرَةِ، لِيَثْبُتَ عَلَى مَبَادِئِهِ وَهُوَ يَرَى نِهَايَةَ الشَّوْطِ قَبْلَ انْقِضَائِهِ. فَمَنْ صَمَدَ مَعَ الحَقِّ وَأَيْقَنَ بِمَوْعُودِ السَّمَاءِ نَالَ شَرَفَ الغَلَبَةِ وَالنَّجَاةِ، بَيْنَمَا يَنْتَظِرُ المغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ انْكِسَارُ الدُّنْيَا وَبِئْسَ المهَادُ فِي الآخِرَةِ.

الصَّدَى

يَقِينُ الغَلَبَةِ وَبِئْسَ المهَادُ

صَدَى ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

صَوْتُ الحَقِّ يَصْدَعُ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ بِنَبْرَةِ اليَقِينِ القَاطِعِ، فَيُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ بِانْكِسَارِ البَاطِلِ فِي الدُّنْيَا وَحَشْرِ أَهْلِهِ إِلَى جَهَنَّمَ يَوْمَ اللِّقَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْكِسَارِ أَمَامَ صَخَبِ المكَذِّبِينَ وَانْتِفَاخِهِمْ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كَلِمَةَ السَّمَاءِ هِيَ العُلْيَا وَأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. وَكَمْ ضَاقَ صَدْرِي قَدِيماً عِنْدَمَا رَأَيْتُ البَاطِلَ يَنْتَفِشُ فِي السَّاحَةِ كَأَنَّهُ صَاحِبُ الكَلِمَةِ الأَخِيرَةِ، حَتَّى أَشْرَقَ فِي قَلْبِي وَعْدُ الغَلَبَةِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ! أَتَأَمَّلُ لَيْلَ الشِّتَاءِ الطَّوِيلَ كَيْفَ يَبْسُطُ سَوَادَهُ عَلَى الأَرْضِ كَأَنَّهُ لَنْ

يَنْقَشِعَ أَبَداً، ثُمَّ تَأْتِي طَلَائِعُ الفَجْرِ لِتَطْوِيَ ظُلْمَتَهُ فِي هُدُوءٍ وَيَقِينٍ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ اللَّيْلُ رَدَّ الضِّيَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ قُوَّةَ وَعْدِ اللهِ حِينَ يُعْلِنُ لِلْمُكَابِرِينَ أَنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ فِي الدُّنْيَا وَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ حَيْثُ بِئْسَ المِهَادُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِأَحْدَاثِ الوَاقِعِ مِنْ قَلَقٍ يَرْهَبُ جَوْلَةَ البَاطِلِ إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يَنْتَظِرُ وَعْدَ السَّمَاءِ. فَكُلُّ غَلَبَةٍ يَصْنَعُهَا الكُفْرُ مَآلُهَا الهَزِيمَةُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 13 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

المَوْعِظَةُ

قِرَاءَةُ البَرَاهِينِ المِيْدَانِيَّةِ بِعَيْنِ البَصِيرَةِ تَكْشِفُ أَنَّ النَّصْرَ هِبَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تَتَجَاوَزُ حِسَابَاتِ العَدَدِ وَالعُدَّةِ المادِّيَّةِ. مَشْهَدُ يَوْمِ بَدْرٍ حِينَ التَقَتِ الفِئَةُ المؤْمِنَةُ القَلِيلَةُ بِالجَيْشِ الجَرَّارِ وَقَلَبَ الخَالِقُ مَوَازِينَ الرُّؤْيَةِ فِي الأَعْيُنِ لِيُثَبِّتَ الصَّادِقِينَ وَيُؤَيِّدَهُمْ بِنَصْرِهِ يُقَدِّمُ دَرْساً بَلِيغاً لِأُولِي الأَبْصَارِ الَّذِينَ يَنْفُذُونَ إِلَى مَا وَرَاءَ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ. هٰذِهِ العِبْرَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الجُمُودِ أَمَامَ الأَرْقَامِ، لِيُدْرِكَ أَنَّ مَعِيَّةَ السَّمَاءِ وَصِدْقَ التَّوَجُّهِ لِلْخَالِقِ هُمَا العَامِلُ الحَاسِمُ فِي صِنَاعَةِ النَّصْرِ. فَمَنْ أَبْصَرَ يَدَ القُدْرَةِ وَرَاءَ الأَحْدَاثِ وَتَوَكَّلَ عَلَى مَوْلَاهُ نَالَ التَّأْيِيدَ وَالظَّفَرَ، بَيْنَمَا يَغْتَرُّ الأَعْمَى بِكَثْرَتِهِ فَيُسَاقُ إِلَى مَصْرَعِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ.

الصَّدَى

مِيزَانُ البَصِيرَةِ وَتَأْيِيدُ النَّصْرِ

صَدَى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

فِئَةٌ قَلِيلَةٌ تَتَدَرَّعُ بِاليَقِينِ فِي سَبِيلِ الخَالِقِ، وَجُمُوعٌ جَرَّارَةٌ تَتَبَدَّلُ أَمَامَهَا مَقَايِيسُ الرُّؤْيَةِ فَتَرَى القِلَّةَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً رَأْيَ العَيْنِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِسْلَامِ لِحِسَابَاتِ المادَّةِ الصَّمَّاءِ، وَأُبْصِرُ

أَنَّ القُدْرَةَ الإِلٰهِيَّةَ تَتَدَخَّلُ لِتُؤَيِّدَ الصَّادِقِينَ حِينَ تَنْقَطِعُ الأَسْبَابُ البَشَرِيَّةُ. وَكَمْ أَرْهَبَتْنِي قَدِيماً ضَخَامَةُ التَّحَدِّيَاتِ وَقِلَّةُ النَّاصِرِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي بَصِيرَتِي آيَةُ الفِئَتَيْنِ فَعَلِمْتُ أَنَّ النَّصْرَ يُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ! أَتَأَمَّلُ القَطْرَةَ الصَّغِيرَةَ مِنَ الضَّوْءِ الَّتِي تَنْفُذُ مِنْ شَقٍّ ضَيِّقٍ إِلَى غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ، كَيْفَ تَمْتَدُّ أَشِعَّتُهَا وَتَتَّسِعُ حَتَّى تَطْرُدَ سَوَادَ العَتْمَةِ وَتَمْلَأَ المَكَانَ بَهَاءً وَوُضُوحاً. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ فِي تَقَلُّبِ المَوَازِينِ عِبْرَةً نَاطِقَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ مِنْ خَوْفٍ يَحْسِبُ العَدَدَ إِلَى بَصِيرَةٍ تَرَى مَدَدَ الخَالِقِ وَتَأْيِيدَهُ. فَكُلُّ كَثْرَةٍ تَخْلُو مِنْ تَأْيِيدِ السَّمَاءِ مَآلُهَا الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنَصْرِ اللهِ الَّذِي يَهَبُهُ لِعِبَادِهِ المُخْلِصِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 14 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

المَوْعِظَةُ

فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَ زِينَةِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا المَغْرُوسَةِ فِي الفِطْرَةِ يُقِيمُ التَّوَازُنَ بَيْنَ الِانْتِفَاعِ المَشْرُوعِ بِالمَتَاعِ العَاجِلِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَى المَآبِ الأَبَدِيِّ عِنْدَ الخَالِقِ. القُرْآنُ لَا يُحَرِّمُ مَيْلَ النَّفْسِ الفِطْرِيَّ نَحْوَ الأُسْرَةِ وَالمَالِ وَالأَرْضِ، بَلْ يَضَعُهَا فِي حَجْمِهَا الحَقِيقِيِّ كَمَتَاعٍ مُؤَقَّتٍ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى العُمْرَانِ وَالطَّاعَةِ، ثُمَّ يَرْفَعُ هِمَّةَ العَاقِلِ إِلَى مَا هُوَ أَبْقَى وَأَجْمَلُ وَهُوَ حُسْنُ المَرْجِعِ فِي جِوَارِ الرَّحْمٰنِ. هٰذِهِ الرُّؤْيَةُ تُحَرِّرُ القَلْبَ مِنْ عُبُودِيَّةِ المَادَّةِ وَالِاسْتِغْرَاقِ فِي الزَّائِلِ، لِيَمْلِكَ الإِنْسَانُ الدُّنْيَا بِيَدِهِ دُونَ أَنْ تَسْكُنَ قَلْبَهُ. فَمَنْ جَعَلَ مَتَاعَ الدُّنْيَا مَطِيَّةً لِحُسْنِ المَآبِ فَازَ بِالسَّعَادَتَيْنِ، بَيْنَمَا يَشْقَى مَنْ حَبَسَ رُوحَهُ فِي قَنَاطِيرِ الذَّهَبِ وَنَسِيَ دَارَ القَرَارِ.

الصَّدَى

بَرِيقُ المَتَاعِ وَجَمَالُ المَآبِ
صَدَى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

لَوْحَةٌ مُزَخْرَفَةٌ بِأَلْوَانِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا تَجْذِبُ الأَبْصَارَ بِبَرِيقِ الذَّهَبِ وَالأَبْنَاءِ وَالحُرُوثِ، وَخَلْفَهَا أُفُقٌ نُورَانِيٌّ يَكْشِفُ عَنْ حُسْنِ المآبِ عِنْدَ الخَالِقِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَأْبِيدِ المَتَاعِ العَاجِلِ أَوِ الاسْتِغْرَاقِ فِي زِينَتِهِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ مَا عَلَى الأَرْضِ زَادٌ لِلْعُبُورِ لَا وَطَنٌ لِلْخُلُودِ. وَكَمْ تَعَلَّمَتْ نَفْسِي قَدِيماً بِزُخْرُفِ الأَشْيَاءِ وَقَنَاطِيرِهَا، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي هٰذِهِ المُقَابَلَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بَيْنَ مَتَاعٍ يَفْنَى وَمَآبٍ يَبْقَى فِي جِوَارِ الكَرِيمِ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَمُرُّ بِمَحَطَّةٍ خَضْرَاءَ مُزْهِرَةٍ فِي طَرِيقِهِ إِلَى وَطَنِهِ الأَصْلِيِّ، كَيْفَ يَسْتَظِلُّ بِأَشْجَارِهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا بِشُكْرٍ وَاعْتِدَالٍ دُونَ أَنْ يَنْسَى غَايَةَ رِحْلَتِهِ وَبَيْتَهُ الدَّائِمَ. فَمَا أَعْظَمَ تَوْجِيهَ اللهِ لِعِبَادِهِ حِينَ يَكْشِفُ لَهُمْ حَقِيقَةَ زِينَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَدْعُو قُلُوبَهُمْ إِلَى حُسْنِ المآبِ عِنْدَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتِي بِزِينَةِ الحَيَاةِ مِنْ تَعَلُّقٍ يَسْتَعْبِدُ القَلْبَ إِلَى انْتِفَاعٍ رَاشِدٍ يَشْكُرُ النِّعْمَةَ وَيَتَطَلَّعُ إِلَى الخُلُودِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ التَّلَاشِي وَالزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 15 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

المَوْعِظَةُ

المقَارَنَةُ العَقْلِيَّةُ بَيْنَ المتَاعِ المشُوبِ بِالنَّقْصِ وَالزَّوَالِ وَبَيْنَ النَّعِيمِ الصَّافِي الخَالِدِ تُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ الدَّنِيئَةِ وَتَرْتَقِي بِطُمُوحِهِ نَحْوَ الكَمَالِ. القُرْآنُ يُخَاطِبُ نَزْعَةَ التَّطَلُّعِ إِلَى الأَفْضَلِ فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، فَيَعْرِضُ عَلَى المتَّقِينَ بَدِيلاً يَفُوقُ كُلَّ خَيَالٍ: جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ بِخُلُودٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَأَزْوَاجاً مُطَهَّرَةً مِنَ الكَدَرِ، وَفَوْقَ ذٰلِكَ كُلِّهِ رِضْوَانٌ مِنَ الخَالِقِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ النَّعِيمِ، تَحْتَ نَظَرِ البَصِيرِ الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ هٰذَا الفَضْلَ. فَمَنْ آثَرَ رِضْوَانَ رَبِّهِ عَلَى زِينَةِ الدُّنْيَا ظَفِرَ بِالخَيْرِ الأَبَدِيِّ، بَيْنَمَا يَبْقَى المفْتُونُ بِالعَاجِلَةِ مَحْرُوماً مِنْ نَعِيمِ الأَبَدِ وَسَكِينَةِ الرِّضْوَانِ.

الصَّدَى

جَنَّاتُ الخُلُودِ وَتَاجُ الرِّضْوَانِ

صَدَى ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

نَبَأٌ سَمَاوِيٌّ يَفْتَحُ نَوَافِذَ الأَبَدِيَّةِ أَمَامَ القُلُوبِ المُشْتَاقَةِ، فَيَكْشِفُ عَنْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَرِضْوَانٍ يَغْمُرُ الأَرْوَاحَ بِنَعِيمٍ لَا يَزُولُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الاكْتِفَاءِ بِاللَّذَّاتِ المَحْدُودَةِ الَّتِي تَنْقَضِي بِسُرْعَةٍ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كَرَمَ السَّمَاءِ قَدْ أَعَدَّ لِأَهْلِ التَّقْوَى مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ. وَكَمْ انْشَغَلَتْ هِمَّتِي قَدِيماً بِالمُقَارَنَةِ بَيْنَ مَتَاعٍ زَائِلٍ وَآخَرَ مِثْلِهِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا النِّدَاءُ لِأَرْفَعَ بَصَرِي نَحْوَ جَنَّاتِ الخُلُودِ وَرِضْوَانِ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ قَطْرَةَ الماءِ المالِحَةِ فِي الحُفْرَةِ الصَّغِيرَةِ كَيْفَ تَتَبَخَّرُ تَحْتَ شَمْسِ الظَّهِيرَةِ فِي دَقَائِقَ، بَيْنَمَا يَتَدَفَّقُ النَّهْرُ العَذْبُ النَّابِعُ مِنْ قِمَمِ الجِبَالِ بِالحَيَاةِ وَالنَّقَاءِ دُونَ تَوَقُّفٍ أَوْ نَفَادٍ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ البَصِيرِ بِعِبَادِهِ حِينَ يُبَشِّرُ المُتَّقِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالأَزْوَاجِ المطَهَّرَةِ وَيُتَوِّجُهُمْ بِرِضْوَانِهِ الأَكْبَرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمُوحَاتِي مِنْ تَكَالُبٍ عَلَى ظِلَالِ الدُّنْيَا إِلَى شَوْقٍ صَادِقٍ يَسْعَى بِالتَّقْوَى نَحْوَ دَارِ الكَرَامَةِ. فَكُلُّ نَعِيمٍ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ الِانْقِطَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرِضْوَانِ اللهِ وَجَنَّاتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 16 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوَسُّلُ إِلَى الخَالِقِ بِصِدْقِ الإِيمَانِ لِاسْتِجْلَابِ المغْفِرَةِ وَالوِقَايَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ هُوَ مَسْلَكُ أَهْلِ التَّقْوَى الَّذِينَ يَعْرِفُونَ قَدْرَ نُفُوسِهِمْ وَسَعَةَ رَحْمَةِ مَوْلَاهُمْ. هٰؤُلَاءِ الصَّادِقُونَ لَا يَدَّعُونَ الكَمَالَ وَلَا يَغْتَرُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، بَلْ يَقِفُونَ بِأَدَبٍ وَانْكِسَارٍ مُعْتَرِفِينَ بِإِيمَانِهِمْ وَمُقِرِّينَ بِتَقْصِيرِهِمْ، فَيَطْلُبُونَ مَحْوَ الذُّنُوبِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ؛ إِذْ لَا نَعِيمَ يُرْجَى قَبْلَ السَّلَامَةِ مِنَ العَذَابِ. هٰذَا الأَدَبُ الدُّعَائِيُّ يُحَرِّرُ القَلْبَ مِنَ الغُرُورِ الرُّوحِيِّ، وَيَجْعَلُ الإِيمَانَ مِفْتَاحاً دَائِماً لِلتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ. فَمَنْ لَزِمَ هٰذَا النِّدَاءَ بِقَلْبٍ مُخْبِتٍ غَفَرَ رَبُّهُ ذُنُوبَهُ وَأَجَارَهُ مِنَ النَّارِ، بَيْنَمَا يَهْلِكُ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنِ الِاعْتِرَافِ بِذَنْبِهِ وَغَفَلَ عَنْ طَلَبِ النَّجَاةِ.

الصَّدَى

مِفْتَاحُ الإِيمَانِ وَنِدَاءُ المِغْفِرَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هَمْسٌ صَادِقٌ يَصْعَدُ مِنَ القُلُوبِ المِخْبِتَةِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، يَتَوَسَّلُ بِجَوْهَرِ الإِيمَانِ لِيَغْسِلَ أَدْرَانَ الذُّنُوبِ وَيُطْفِئَ لَهِيبَ النَّارِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ أَوِ التَّبَجُّحِ بِالطَّاعَاتِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ أَرْفَعَ مَقَامَاتِ العُبُودِيَّةِ هُوَ الِانْكِسَارُ بَيْنَ يَدَيِ الغَفَّارِ. وَكَمْ أَثْقَلَتْ كَاهِلِي قَدِيماً هَفَوَاتُ الطَّرِيقِ وَذُنُوبُ الغَفْلَةِ، حَتَّى وَجَدْتُ فِي هٰذِهِ الكَلِمَاتِ المَعْدُودَةِ طَوْقَ النَّجَاةِ الَّذِي يُعِيدُ لِلرُّوحِ طَهَارَتَهَا وَأَمَانَهَا! أَتَأَمَّلُ المِطَرَ النَّقِيَّ كَيْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِيَغْسِلَ غُبَارَ الأَرْضِ وَيُبَرِّدَ حَرَارَةَ الرَّمَالِ، فَتَعُودُ الطَّبِيعَةُ إِلَى نَقَائِهَا الأَوَّلِ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُعَلِّمُ المُتَّقِينَ كَيْفَ يَتَوَسَّلُونَ بِإِيمَانِهِمْ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَيَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُنَاجَاتِي مِنْ كَلِمَاتٍ عَابِرَةٍ إِلَى ابْتِهَالٍ خَاشِعٍ يَسْتَمْطِرُ العَفْوَ وَيَلُوذُ بِحِمَى الرَّحْمٰنِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ لَا يَغْسِلُهُ الِاسْتِغْفَارُ مَآلُهُ الوَبَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي تُنْجِي مِنَ النَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 17 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

المَوْعِظَةُ

مَنْظُومَةُ الفَضَائِلِ الإِيمَانِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ صَلَابَةِ الصَّبْرِ، وَنَقَاءِ الصِّدْقِ، وَخُشُوعِ القُنُوتِ، وَسَخَاءِ الإِنْفَاقِ، وَانْكِسَارِ الِاسْتِغْفَارِ فِي سَاعَةِ السَّحَرِ تَرْسُمُ المَلَامِحَ الكَامِلَةَ لِشَخْصِيَّةِ المُتَّقِينَ. التَّرْتِيبُ التَّرْبَوِيُّ البَدِيعُ فِي هٰذِهِ الآيَةِ يَبْدَأُ بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالبَلَاءِ، ثُمَّ الصِّدْقِ فِي النِّيَّةِ وَالقَوْلِ، فَالْقُنُوتِ وَالطَّاعَةِ الدَّائِمَةِ، ثُمَّ البَذْلِ لِنَفْعِ العِبَادِ، وَيُخْتَمُ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي وَقْتِ السَّحَرِ الَّذِي يَصْفُو فِيهِ القَلْبُ وَتُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِكَيْ لَا يَدْخُلَ العُجْبُ إِلَى نُفُوسِ العَابِدِينَ. فَمَنْ تَحَلَّى بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ الخَمْسِ بَلَغَ ذُرْوَةَ الكَمَالِ الرُّوحِيِّ وَنَالَ جَنَّاتِ الرِّضْوَانِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنِ اكْتَفَى بِدَعْوَى التَّقْوَى دُونَ تَحْقِيقِ أَرْكَانِهَا.

الصَّدَى

مَنَارَاتُ الفَضِيلَةِ وَنَسَمَاتُ الأَسْحَارِ

صَدَى ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾

خَمْسُ جَوَاهِرَ نُورَانِيَّةٍ تَتَلَأْلَأُ فِي تَاجِ المُتَّقِينَ؛ صَبْرٌ يَثْبُتُ أَمَامَ العَوَاصِفِ، وَصِدْقٌ يُضِيءُ الدُّرُوبَ، وَقُنُوتٌ يَخْشَعُ لِلْخَالِقِ، وَإِنْفَاقٌ يَرْوِي العَطْشَى، وَاسْتِغْفَارٌ يَتَنَفَّسُ فِي هَدْأَةِ الأَسْحَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِجَانِبٍ وَاحِدٍ مِنَ الطَّاعَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الكَمَالَ الإِيمَانِيَّ هُوَ تَنَاغُمُ السُّلُوكِ بَيْنَ الخَلْقِ وَالخَالِقِ وَخِتَامُ اللَّيْلِ بِالِانْكِسَارِ. وَكَمْ غَفَلْتُ قَدِيماً عَنْ بَرَكَةِ السَّحَرِ حِينَ تَسْكُنُ الأَصْوَاتُ وَتَصْفُو الأَرْوَاحُ لِلْمُنَاجَاةِ، فَضَيَّعْتُ أَعْذَبَ سَاعَاتِ القُرْبِ وَالغُفْرَانِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانَ المُتَكَامِلَ كَيْفَ يَجْتَمِعُ فِيهِ ثَبَاتُ الجُذُوعِ الصُّلْبَةِ وَعُذُوبَةُ الماءِ الجَارِي وَعِطْرُ الأَزْهَارِ الَّتِي تَتَفَتَّحُ عِنْدَ نَسَمَاتِ الفَجْرِ الأُولَى لِتَبُثَّ شَذَاهَا فِي الكَوْنِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ العِبَادِ الَّذِينَ يَصِفُهُمُ اللهُ بِالصَّبْرِ وَالصِّدْقِ وَالقُنُوتِ وَالإِنْفَاقِ ثُمَّ يَخْتِمُ مَنَاقِبَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي مِنْ أَعْمَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ إِلَى مَنْظُومَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَتُتَوَّجُ بِاسْتِغْفَارِ اللَّيْلِ. فَكُلُّ طَاعَةٍ تَخْلُو مِنَ الِانْكِسَارِ فِي السَّحَرِ قَدْ يَشُوبُهَا العُجْبُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقٍ يَرْعَاهُ اللهُ وَيَتَقَبَّلُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 18 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

الشَّهَادَةُ الكُبْرَى عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الخَالِقِ وَقِيَامِهِ بِالعَدْلِ المُطْلَقِ تَرْفَعُ مَقَامَ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ حِينَ يَقْرِنُ الخَالِقُ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ وَشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ. هٰذَا المِيثَاقُ الكَوْنِيُّ يَرْبِطُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ وَإِقَامَةِ القِسْطِ فِي الوُجُودِ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ العِلْمَ الحَقِيقِيَّ هُوَ الَّذِي يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَالتَّسْلِيمِ لِعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ، لَا العِلْمُ الجَافُّ الَّذِي يُورِثُ الكِبْرَ وَالجُحُودَ. هٰذِهِ الشَّهَادَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ، وَتُبْرِزُ شَرَفَ المَعْرِفَةِ حِينَ تَتَّصِلُ بِالسَّمَاءِ. فَمَنْ نَالَ العِلْمَ النَّافِعَ وَشَهِدَ بِالتَّوْحِيدِ

وَالعَدْلِ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ مَعَ المَلَائِكَةِ وَالأَبْرَارِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ الجَاحِدُ فِي هُوَّةِ الجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَلَوْ حَمَلَ أَسْفَاراً.

الصَّدَى

الشَّهَادَةُ العُظْمَى وَمِيزَانُ القِسْطِ

صَدَى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

شَهَادَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهَا فِي أَرْجَاءِ المَلَكُوتِ، يَشْهَدُ بِهَا الخَالِقُ لِنَفْسِهِ وَتُشَارِكُهُ المَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ بِأَنَّهُ الوَاحِدُ القَائِمُ بِالقِسْطِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ العِلْمِ الحَقِيقِيِّ وَالإِيمَانِ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَعْلَى شَرَفٍ يَنَالُهُ العَقْلُ البَشَرِيُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ شَاهِداً عَلَى عَدْلِ السَّمَاءِ وَتَوْحِيدِهَا. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً عُقُولاً تَاهَتْ فِي تَفَاصِيلِ المَادَّةِ فَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الصَّانِعِ العَزِيزِ الحَكِيمِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي قَلْبِي هٰذِهِ الآيَةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ العِلْمِ وَالتَّوْحِيدِ وَالعَدْلِ! أَتَأَمَّلُ المِيزَانَ الكَوْنِيَّ الدَّقِيقَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالقِسْطِ، كَيْفَ تَنْطِقُ كُلُّ نَجْمَةٍ فِيهِ وَكُلُّ زَهْرَةٍ بِوَحْدَانِيَّةِ المُبْدِعِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مَثِيلَ. فَمَا أَعْظَمَ تَكْرِيمَ اللهِ لِأُولِي العِلْمِ حِينَ يَقْرِنُ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ وَشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ عَلَى أَنَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ القَائِمُ بِالقِسْطِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رِحْلَتِي فِي طَلَبِ العِلْمِ مِنْ جَمْعٍ لِلْمَعْلُومَاتِ إِلَى شَهَادَةٍ حَيَّةٍ تُعَظِّمُ الخَالِقَ وَتُقِيمُ العَدْلَ. فَكُلُّ عِلْمٍ لَا يَهْدِي إِلَى التَّوْحِيدِ وَالقِسْطِ مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 19 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاسْتِسْلَامُ الخَالِصُ لِلْخَالِقِ وَالانْقِيَادُ لِشَرْعِهِ هُوَ الدِّينُ الوَحِيدُ المَقْبُولُ عِنْدَ السَّمَاءِ، وَقَدْ جَاءَ بِهِ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ لِتَوْحِيدِ البَشَرِيَّةِ تَحْتَ رَايَةِ التَّوْحِيدِ. القُرْآنُ يَفْضَحُ السَّبَبَ الحَقِيقِيَّ وراءَ تَفَرُّقِ أَهْلِ

الكِتَابِ وَتَنَازُعِهِمْ؛ فَلَمْ يَكُنْ خِلَافُهُمْ نَاتِجاً عَنْ جَهْلٍ أَوْ غُمُوضٍ فِي الرِّسَالَةِ، بَلْ نَشَأَ بَعْدَ وُصُولِ العِلْمِ اليَقِينِيِّ بِسَبَبِ البَغْيِ وَالحَسَدِ وَطَلَبِ الرِّئَاسَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ. هٰذَا التَّشْخِيصُ الدَّقِيقُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الانْخِدَاعِ بِالتَّبْرِيرَاتِ المَذْهَبِيَّةِ لِلْفُرْقَةِ، وَيُنْذِرُ كُلَّ مَنْ جَحَدَ آيَاتِ الحَقِّ بَعْدَ العِلْمِ بِأَنَّ الخَالِقَ سَرِيعُ الحِسَابِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُ بَاغٍ وَلَا مُعَانِدٌ. فَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِرَبِّهِ وَتَجَرَّدَ مِنَ البَغْيِ نَالَ القَبُولَ وَالنَّجَاةَ، بَيْنَمَا يَقَعُ المُفَرِّقُونَ البُغَاةُ تَحْتَ طَائِلَةِ الحِسَابِ السَّرِيعِ.

الصَّدَى

رَايَةُ الإِسْلَامِ وَفِتْنَةُ البَغْيِ

صَدَى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

صِرَاطٌ وَاحِدٌ نَقِيٌّ يَجْمَعُ الخَلْقَ عَلَى الِاسْتِسْلَامِ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَسُحُبٌ مُظْلِمَةٌ مِنَ البَغْيِ وَالهَوَى تُمَزِّقُ الصُّفُوفَ بَعْدَ أَنْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا شَمْسُ العِلْمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الِاخْتِلَافَ الدِّينِيَّ ثَمَرَةُ غُمُوضٍ فِي الوَحْيِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَمْرَاضَ القُلُوبِ مِنَ الكِبْرِ وَالأَنَانِيَّةِ هِيَ الَّتِي تَصْنَعُ الشِّقَاقَ بَعْدَ البَيِّنَةِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً عُقُولاً تَمْلِكُ المَعْرِفَةَ ثُمَّ تَنْحَرِفُ عَنِ الحَقِّ بِسَبَبِ التَّنَافُسِ عَلَى المَصَالِحِ العَاجِلَةِ، غَافِلَةً عَنْ سُرْعَةِ الحِسَابِ الإِلٰهِيِّ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ العَذْبَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَاطِنِ الأَرْضِ صَافِياً زُلَالاً، كَيْفَ يَتَعَكَّرُ مَاؤُهُ وَيَتَفَرَّقُ فِي أَوْحَالٍ شَتَّى حِينَ تَعْتَرِضُهُ الحَوَاجِزُ التُّرَابِيَّةُ الَّتِي يَضَعُهَا البَشَرُ فِي مَجْرَاهُ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ سَرِيعِ الحِسَابِ الَّذِي يُقَرِّرُ أَنَّ الدِّينَ عِنْدَهُ هُوَ الإِسْلَامُ وَيَفْضَحُ بَغْيَ المُتَفَرِّقِينَ بَعْدَ العِلْمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي مِنْ انْتِمَاءٍ شَكْلِيٍّ إِلَى اسْتِسْلَامٍ صَادِقٍ يَنْبُذُ البَغْيَ وَيَخْشَى سُرْعَةَ الحِسَابِ. فَكُلُّ خِلَافٍ يَصْنَعُهُ البَغْيُ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِدِينِ اللهِ الحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 20 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسْمُ الجَدَلِ العَقِيمِ بِإِعْلَانِ التَّسْلِيمِ الكَامِلِ لِلْخَالِقِ وَتَحْدِيدِ مَسْؤُولِيَّةِ الدَّاعِي فِي البَلَاغِ المُبِينِ دُونَ إِكْرَاهٍ أَوْ حُزْنٍ عَلَى إِعْرَاضِ المُعَانِدِينَ يُرْسِيَانِ مَنْهَجَ الدَّعْوَةِ الرَّاشِدَةِ. حِينَ يُجَادِلُ أَهْلُ البَاطِلِ لِإِطَالَةِ المِرَاءِ، يَأْتِي التَّوْجِيهُ النَّبَوِيُّ لِيُعْلِنَ إِسْلَامَ الوَجْهِ وَالقَلْبِ لِلهِ وَحْدَهُ، وَيَدْعُو الجَمِيعَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالأُمِّيِّينَ إِلَى هٰذَا السَّلَامِ الرُّوحِيِّ؛ فَإِنِ اسْتَجَابُوا فَقَدْ ظَفِرُوا بِالهِدَايَةِ لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ أَعْرَضُوا فَلَا يَحْمِلُ المُبَلِّغُ وِزْرَ عِنَادِهِمْ؛ لِأَنَّ الخَالِقَ بَصِيرٌ بِعِبَادِهِ وَأَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الهُدَى. هٰذِهِ الحِكْمَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاسْتِنْزَافِ فِي الخُصُومَاتِ الفِكْرِيَّةِ، وَتُبْرِزُ أَنَّ قِمَّةَ العِزَّةِ هِيَ إِسْلَامُ الوَجْهِ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ. فَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِرَبِّهِ وَأَدَّى أَمَانَةَ البَلَاغِ بِحِكْمَةٍ نَالَ سَكِينَةَ القَلْبِ وَبَرَاءَةَ الذِّمَّةِ، بَيْنَمَا يَتَحَمَّلُ المُتَوَلِّي عَاقِبَةَ إِعْرَاضِهِ أَمَامَ البَصِيرِ بِالعِبَادِ.

الصَّدَى

إِسْلَامُ الوَجْهِ وَأَمَانَةُ البَلَاغِ

صَدَى ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

وَجْهٌ مُشْرِقٌ يَتَّجِهُ بِكُلِّيَّتِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ فِي تَسْلِيمٍ خَالِصٍ، فَيَطْوِي صَفْحَةَ الجَدَلِ العَقِيمِ وَيُعْلِنُ بَلَاغَ الحَقِّ بِوُضُوحٍ وَسَلَامٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ هِدَايَةِ القُلُوبِ العَنِيدَةِ أَوِ الِاسْتِغْرَاقِ فِي خُصُومَاتٍ لَا تُثْمِرُ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ وَاجِبِي هُوَ البَلَاغُ المُبِينُ وَالتَّسْلِيمُ الصَّادِقُ. وَكَمِ اسْتَنْزَفْتُ طَاقَتِي قَدِيماً فِي مُحَاوَلَةِ إِقْنَاعِ مَنْ يُغْلِقُ عَيْنَيْهِ عَنِ الشَّمْسِ، حَتَّى أَرَاحَنِي هٰذَا المِيزَانُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ البَلَاغِ وَالهِدَايَةِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ العَابِرَةَ الَّتِي تُمْطِرُ بِمَائِهَا العَذْبِ فَوْقَ الأَرْضِ بِسَخَاءٍ وَصَفَاءٍ، فَمَنْ فَتَحَ حَقْلَهُ ارْتَوَى وَأَزْهَرَ، وَمَنْ أَغْلَقَ أَرْضَهُ بِالصُّخُورِ مَضَتِ السَّحَابَةُ فِي سَبِيلِهَا دُونَ أَنْ يَنَالَهَا حُزْنٌ أَوْ تَقْصِيرٌ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ البَصِيرِ بِالعِبَادِ حِينَ يُلَقِّنُ رَسُولَهُ وَأَتْبَاعَهُ كَلِمَةَ «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» لِتَكُونَ حِصْناً يَعْصِمُهُمْ مِنْ ضَجِيجِ المُجَادِلِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي فِي الحِوَارِ مِنْ جَدَلٍ يَبْحَثُ عَنِ الغَلَبَةِ إِلَى دَعْوَةٍ هَادِئَةٍ تُبَلِّغُ النُّورَ وَتَكِلُ القُلُوبَ إِلَى البَصِيرِ بِالعِبَادِ. فَكُلُّ جَدَلٍ يَقُومُ عَلَى العِنَادِ مَآلُهُ التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِسْلَامِ الوَجْهِ لِلهِ البَصِيرِ بِعِبَادِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 21 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

قُبْحُ البَغْيِ الَّذِي يَسْتَبِيحُ دِمَاءَ المُرْشِدِينَ، وَيَطْمِسُ أَنْوَارَ النَّبِيِّينَ وَالمُصْلِحِينَ، يَكْشِفُ عَنْ قُلُوبٍ تَحَجَّرَتْ أَمَامَ البُرْهَانِ، وَتَمَرَّدَتْ عَلَى شَرِيعَةِ الدَّيَّانِ. مِيزَانُ السَّمَاءِ لَا يُفَرِّقُ فِي الجَرِيمَةِ بَيْنَ مَنْ يَقْتُلُ رَسُولاً مُوحًى إِلَيْهِ، وَمَنْ يُخْمِدُ صَوْتَ مُصْلِحٍ يَأْمُرُ بِالقِسْطِ وَيُقِيمُ العَدْلَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ إِذْ كِلَاهُمَا يَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَيَزْرَعُ الظُّلْمَةَ فِي البِلَادِ. هٰذَا الوَعِيدُ الصَّارِمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ هَيْبَةِ الجَبَابِرَةِ المُتَسَلِّطِينَ، وَيُعْلِنُ بِتَهَكُّمٍ بَلِيغٍ بُشْرَى العَذَابِ الأَلِيمِ لِكُلِّ مَنْ يُحَارِبُ الحَقَّ وَيُطْفِئُ مَصَابِيحَ العَدَالَةِ. فَمَنْ نَصَرَ القِسْطَ وَحَمَى حَمَلَةَ الهُدَى فَازَ بِرِضَا الجَبَّارِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ قَتَلَةُ المُرْشِدِينَ خِزْيَ الدُّنْيَا وَعَذَابَ النَّارِ. [1]

الصَّدَى

دِمَاءُ القِسْطِ وَبُشْرَى العَذَابِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

مَصَابِيحُ نُورَانِيَّةٌ تَتَوَهَّجُ فِي ظُلْمَةِ الأَرْضِ لِتَهْدِيَ الحَائِرِينَ، وَسُيُوفٌ غَادِرَةٌ تَمْتَدُّ لِإِطْفَاءِ النُّورِ وَإِخْمَادِ صَوْتِ العَدْلِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ طَمْسَ الكَلِمَةِ الصَّادِقَةِ يُسْقِطُ الرِّسَالَةَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ دِمَاءَ الآمِرِينَ بِالقِسْطِ تَصِيرُ نُوراً يَفْضَحُ الطُّغْيَانَ وَيَسْتَجْلِبُ العَذَابَ الأَلِيمَ. وَكَمْ هَالَنِي قَدِيماً تَجَرُّؤُ البَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الإِصْلَاحِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ الوَحْيُ دَمَ المُصْلِحِ كَدَمِ النَّبِيِّ فِي قَدَاسَتِهِ وَحُرْمَتِهِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الصَّافِيَ الَّذِي يُحَاوِلُ البُغَاةُ رَدْمَهُ بِالصُّخُورِ وَالتُّرَابِ، كَيْفَ يَتَفَجَّرُ مَاؤُهُ مِنْ جَوَانِبَ شَتَّى لِيَرْوِيَ الأَرْضَ وَيَجْرِفَ الحَوَاجِزَ الَّتِي وَضَعُوهَا فِي طَرِيقِهِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ

الَّذِي يَرْصُدُ جَرَائِمَ الجَاحِدِينَ وَيُبَشِّرُ قَتَلَةَ النَّبِيِّينَ وَالآمِرِينَ بِالقِسْطِ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ لَا مَفَرَّ مِنْهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي مِنْ خَوْفٍ عَلَى مَصِيرِ الحَقِّ إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ بِأَنَّ السَّمَاءَ تَنْتَصِرُ لِأَوْلِيَائِهَا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ. فَكُلُّ طُغْيَانٍ يُحَارِبُ القِسْطَ مَآلُهُ الخُسْرَانُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَعَدْلِهِ الَّذِي يَسُودُ العَالَمِينَ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 22 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُطْلَانُ السَّعْيِ المَقْطُوعِ عَنِ الإِيمَانِ وَالعَدْلِ يَجْعَلُ صَرْحَ البَاطِلِ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، فَلَا تَبْقَى لَهُ ثَمَرَةٌ فِي العَاجِلَةِ وَلَا ذَخِيرَةٌ فِي الآجِلَةِ، مَهْمَا بَنَى أَصْحَابُهُ مِنْ مَظَاهِرِ البِرِّ الزَّائِفِ وَالصَّلَاحِ الخَادِعِ. حُبُوطُ الأَعْمَالِ هُوَ السُّقُوطُ الكَامِلُ لِكُلِّ جُهْدٍ لَمْ يُبْنَ عَلَى أَسَاسِ التَّوْحِيدِ وَاحْتِرَامِ حُرْمَةِ الدِّمَاءِ؛ إِذْ تَنْقَطِعُ عَنْ أَصْحَابِهِ كُلُّ أَسْبَابِ النُّصْرَةِ وَالإِغَاثَةِ يَوْمَ تُكْشَفُ السَّرَائِرُ وَتُوزَنُ المَقَاصِدُ. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِبَرِيقِ الإِنْجَازَاتِ المَادِّيَّةِ لِلظَّالِمِينَ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّ العُزْلَةَ وَالخِذْلَانَ هُمَا المَصِيرُ الحَتْمِيُّ لِكُلِّ مُعَانِدٍ أَثِيمٍ. فَمَنْ أَسَّسَ عَمَلَهُ عَلَى الإِيمَانِ وَالقِسْطِ نَالَ القَبُولَ وَالتَّأْيِيدَ، بَيْنَمَا يَقِفُ الظَّالِمُ وَحِيداً بِلَا نَصِيرٍ أَمَامَ رَمَادِ أَعْمَالِهِ المَحْبُوطَةِ. [1]

الصَّدَى

رَمَادُ السَّعْيِ وَوَحْشَةُ الخِذْلَانِ

صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

صُرُوحٌ مِنَ الدُّخَانِ تَتَلَاشَى فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ، فَلَا يَبْقَى مِنْهَا أَثَرٌ يُذْكَرُ فِي الدُّنْيَا وَلَا ظِلٌّ يَحْمِي أَصْحَابَهَا فِي الآخِرَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاغْتِرَارِ بِكَثْرَةِ الحَرَكَةِ وَالمَشَارِيعِ الَّتِي تَخْلُو مِنْ نُورِ الإِيمَانِ وَنَقَاءِ القَصْدِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ حُبُوطَ العَمَلِ هُوَ الفَقْرُ الأَبَدِيُّ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً جُهُوداً ضَخْمَةً تَبَخَّرَتْ كَالسَّرَابِ لِأَنَّهَا قَامَتْ عَلَى الظُّلْمِ وَالجُحُودِ، فَلَمْ تَجِدْ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ مَنْ يَنْصُرُهَا أَوْ يُغِيثُهَا! أَتَأَمَّلُ البِنَاءَ الشَّاهِقَ الَّذِي أُقِيمَ فَوْقَ جَلِيدٍ ذَائِبٍ تَحْتَ شَمْسِ الصَّيْفِ، كَيْفَ يَتَهَاوَى

بِكُلِّ زِينَتِهِ وَنُقُوشِهِ فِي أَعْمَاقِ الماءِ البَارِدِ دُونَ أَنْ يَمْلِكَ أَحَدٌ إِنْقَاذَهُ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُحْبِطُ أَعْمَالَ المُعْتَدِينَ فِي الدَّارَيْنِ وَيَتْرُكُهُمْ فِي سَاعَةِ الحِسَابِ بِلَا نَاصِرِينَ وَلَا شُفَعَاءَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِنَايَتِي بِسَعْيِي مِنْ حِرْصٍ عَلَى ضَخَامَةِ المُنْجَزِ الظَّاهِرِ إِلَى تَدْقِيقٍ صَارِمٍ فِي سَلَامَةِ الأَسَاسِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ. فَكُلُّ عَمَلٍ يُبْنَى عَلَى البَاطِلِ مَآلُهُ الحُبُوطُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَالِحٍ يَتَقَبَّلُهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 23 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّنَاقُضُ الصَّارِخُ بَيْنَ الِانْتِسَابِ لِلْعِلْمِ وَالكِتَابِ، وَبَيْنَ الفِرَارِ مِنْ حُكْمِ الوَحْيِ عِنْدَ تَعَارُضِهِ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالمَصَالِحِ، يَفْضَحُ زَيْفَ المُدَّعِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الدِّينَ شِعَاراً لَا مَنْهَجاً. إِعْرَاضُ هٰؤُلَاءِ عَنِ الِاحْتِكَامِ إِلَى كِتَابِ السَّمَاءِ رَغْمَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ يَكْشِفُ أَنَّ العِلْمَ المُجَرَّدَ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِالتَّجَرُّدِ لِلْحَقِّ وَالإِذْعَانِ لِلْعَدْلِ. هٰذَا المِشْهَدُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِانْبِهَارِ بِالأَلْقَابِ العِلْمِيَّةِ أَوِ المَوَارِيثِ الدِّينِيَّةِ لِمَنْ يُدِيرُونَ ظُهُورَهُمْ لِلْحَقِّ سَاعَةَ الفَصْلِ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ المِعْيَارَ هُوَ قَبُولُ حُكْمِ اللهِ فِي كُلِّ شَأْنٍ. فَمَنْ أَذْعَنَ لِكِتَابِ رَبِّهِ حَاكِماً وَمُهَيْمِناً نَالَ شَرَفَ الِاتِّبَاعِ وَالهُدَى، بَيْنَمَا يَسْقُطُ المُعْرِضُ المُتَوَلِّي فِي هُوَّةِ النِّفَاقِ وَالهَوَى. [1]

الصَّدَى

نِدَاءُ الكِتَابِ وَفِرَارُ المُعْرِضِينَ
صَدَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾
مِيزَانٌ نُورَانِيٌّ يُنْصَبُ لِلْفَصْلِ فِي الخُصُومَاتِ، فَتُدْعَى إِلَيْهِ العُقُولُ المُتَنَازِعَةُ، وَإِذَا بِفَرِيقٍ مِمَّنْ حَمَلُوا نَصِيباً مِنَ العِلْمِ يُدِيرُونَ ظُهُورَهُمْ فِي عِنَادٍ وَإِعْرَاضٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ حَمْلَ المَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ

يَكْفِي لِلنَّجَاةِ دُونَ انْقِيَادٍ عَمَلِيٍّ لِأَحْكَامِهَا، وَأُذْرِكُ أَنَّ مَحَكَّ الصِّدْقِ هُوَ الرِّضَا بِحُكْمِ الوَحْيِ وَلَوْ خَالَفَ هَوَى النَّفْسِ. وَكَمْ تَرَدَّدَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عِنْدَ نُصُوصٍ تَقْطَعُ مَصْلَحَةً عَاجِلَةً أَوْ تَكْسِرُ كِبْرِيَاءً خَفِيّاً، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا العِتَابُ الإِلٰهِيُّ لِلمُتَوَلِّينَ عَنْ كِتَابِ السَّمَاءِ! أَتَأَمَّلُ المريضَ الَّذِي يَحْمِلُ وَصْفَةَ الطَّبِيبِ الحَكِيمِ بِيَدِهِ وَيَعْرِفُ صِدْقَهَا، ثُمَّ يَشِيحُ بِوَجْهِهِ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافِي لِأَنَّ مَذَاقَهُ يُخَالِفُ شَهْوَتَهُ فَيَهْلِكُ وَالدَّوَاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَمَا أَشَدَّ خُسْرَانَ مَنْ يُدْعَى إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيَتَوَلَّى مُعْرِضاً عَنْ نُورِ الحَقِّ وَعَدَالَةِ التَّنْزِيلِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَلَاقَتِي بِالوَحْيِ مِنْ تَبَجُّحٍ بِالمِعْرِفَةِ إِلَى تَسْلِيمٍ خَاشِعٍ يَجْعَلُ كِتَابَ الخَالِقِ حَكَماً فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ. فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنْ حُكْمِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكِتَابِ اللهِ الحَاكِمِ العَادِلِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 24 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الأَمَانِيُّ الكَاذِبَةُ الَّتِي تُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ المَعَاصِي وَتَعِدُ أَصْحَابَهَا بِالنَّجَاةِ الرَّخِيصَةِ دُونَ عَمَلٍ هِيَ السُّمُّ الَّذِي يُخَدِّرُ الضَّمِيرَ وَيُجَرِّئُ الإِنْسَانَ عَلَى التَّمَرُّدِ وَالعِصْيَانِ. افْتِرَاءُ هٰؤُلَاءِ بِأَنَّ عَذَابَ النَّارِ لَنْ يَمَسَّهُمْ إِلَّا أَيَّاماً قَلَائِلَ كَانَ السَّبَبَ المُبَاشِرَ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْ حُكْمِ الكِتَابِ؛ إِذْ صَنَعُوا لِأَنْفُسِهِمْ دِيناً مُرَيَّفاً يَقُومُ عَلَى الِاتِّكَالِ الكَاذِبِ وَالِافْتِخَارِ بِالِانْتِسَابِ دُونَ اسْتِقَامَةٍ. هٰذَا الكَشْفُ القُرْآنِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ خُرَافَةِ التَّمَيُّزِ العِرْقِيِّ أَوِ الطَّائِفِيِّ أَمَامَ عَدْلِ الخَالِقِ، وَيُحَذِّرُ مِنَ الِاغْتِرَارِ بِالأَوْهَامِ الَّتِي تُزَيِّنُ التَّفْرِيطَ. فَمَنْ وَزَنَ مَصِيرَهُ بِعَدْلِ السَّمَاءِ وَعَمِلَ لِآخِرَتِهِ نَجَا مِنَ الغُرُورِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ المَغْرُورُ بِافْتِرَاءَاتِهِ فِي هُوَّةِ العَذَابِ الدَّائِمِ. [1]

الصَّدَى

خِدَاعُ الأَمَانِي وَسَرَابُ الأَيَّامِ المَعْدُودَاتِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

أَوْهَامٌ مُزَخْرَفَةٌ يَنْسِجُهَا الهَوَى لِيُطَمْئِنَ القُلُوبَ العَاصِيَةَ بِأَنَّ النَّارَ نُزْهَةٌ عَابِرَةٌ لِأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ،

فَيُغْرِقُهَا الغُرُورُ فِي بَحْرِ التَّفْرِيطِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاتِّكَالِ عَلَى العَنَاوِينِ وَالأَنْسَابِ دُونَ طَاعَةٍ صَادِقَةٍ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَخْطَرَ أَنْوَاعِ الضَّلَالِ أَنْ يَخْدَعَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِأَكَاذِيبَ يَنْسُبُهَا إِلَى الدِّينِ. وَكَمْ سَوَّلَتْ لِيَ النَّفْسُ قَدِيماً تَهْوِينَ الزَّلَّاتِ طَمَعاً فِي مَخَارِجَ وَهْمِيَّةٍ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا التَّحْذِيرُ الَّذِي يَفْضَحُ غُرُورَ المُفْتَرِينَ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَقْطَعُ الصَّحْرَاءَ المحْرِقَةَ بِلَا مَاءٍ وَلَا زَادٍ مُتَّكِئاً عَلَى حُلْمٍ كَاذِبٍ بِأَنَّ الوَاحَةَ عَلَى بُعْدِ خُطُوَاتٍ، فَيُدْرِكُهُ الهَلَاكُ فِي وَسَطِ الرِّمَالِ المُلْتَهِبَةِ وَهُوَ غَارِقٌ فِي سَرَابِهِ. فَمَا أَشَدَّ غَفْلَةَ مَنْ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَهَانَتْ عَلَيْهِمْ أَوَامِرُ اللهِ وَاسْتَخَفُّوا بِوَعِيدِ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَحَاسَبَتِي لِنَفْسِي مِنْ تَبْرِيرٍ يُهَوِّنُ الخَطَأَ إِلَى صِدْقٍ جَادٍّ يَتَخَلَّصُ مِنَ الأَمَانِي الفَارِغَةِ وَيَلْتَزِمُ الجَادَّةَ. فَكُلُّ افْتِرَاءٍ يُزَيِّنُ البَاطِلَ مَآلُهُ الفَضِيحَةُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 25 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُوَاجَهَةُ الأَوْهَامِ البَشَرِيَّةِ بِحَقِيقَةِ اليَوْمِ المَوْعُودِ تَهْدِمُ كُلَّ الصُّرُوحِ الكَاذِبَةِ الَّتِي بَنَاهَا المُفْتَرُونَ لِتَبْرِيرِ انْحِرَافِهِمْ وَطَمْأَنَةِ غَفْلَتِهِمْ. الِاسْتِفْهَامُ القُرْآنِيُّ المهَابُ يَضَعُ العَقْلَ أَمَامَ سَاعَةِ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى حِينَ تُجْمَعُ الخَلَائِقُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لَا شَكَّ فِيهِ، فَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ثَمَرَةَ كَسْبِهَا الحَقِيقِيِّ دُونَ ظُلْمٍ أَوْ مُحَابَاةٍ، فَتَتَبَخَّرُ حِينَهَا خُرَافَةُ الأَيَّامِ المَعْدُودَةِ وَتَنْكَشِفُ سَوْءَةُ الكَذِبِ. هٰذَا الإِنْذَارُ يُوقِظُ القَلْبَ مِنْ سُبَاتِ الأَمَانِي، وَيَرْبِطُ المَصِيرَ بِالكَسْبِ العَمَلِيِّ وَحْدَهُ أَمَامَ مِيزَانِ العَدْلِ المطْلَقِ. فَمَنْ أَعَدَّ لِيَوْمِ الجَمْعِ كَسْباً طَيِّباً نَجَا وَفَازَ بِالتَّوْفِيَةِ العَادِلَةِ، بَيْنَمَا يَقِفُ المغْتَرُّ بِأَمَانِيهِ مَشْدُوهاً أَمَامَ هَوْلِ الحِسَابِ. [1]

الصَّدَى

سَاعَةُ الجَمْعِ وَانْكِشَافُ الأَوْهَامِ

صَدَى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

صَيْحَةُ الحَقِّ تَخْتَرِقُ حُجُبَ الغُرُورِ لِتَسْأَلَ الغَافِلِينَ عَنْ حَالِهِمْ حِينَ يُجْمَعُونَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَتَتَهَاوَى أَمَامَ عَدْلِهِ كُلُّ الأَمَانِي الزَّائِفَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْقَشِعُ وَهْمُ الهُرُوبِ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ الفَرْدِيَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَتَقِفُ وَحِيدَةً لِتَسْتَوْفِيَ جَزَاءَ مَا كَسَبَتْ دُونَ أَنْ يُظْلَمَ أَحَدٌ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. وَكَمْ تَشَاغَلْتُ قَدِيماً بِالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي تُخَفِّفُ وَقْعَ الحِسَابِ، حَتَّى هَزَّنِي هٰذَا السُّؤَالُ الجَلِيلُ الَّذِي يَضَعُ النَّفْسَ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ عَدَالَةِ التَّوْفِيَةِ! أَتَأَمَّلُ الجَلِيدَ المُتَرَاكِمَ فِي قَاعِ الوَادِي المُظْلِمِ الَّذِي ظَنَّ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ صَخْرٌ صُلْبٌ يَدُومُ لِلْأَبَدِ، كَيْفَ يَذُوبُ وَيَتَلَاشَى فِي لَحَظَاتٍ حِينَ تَرْتَفِعُ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ. فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ يَوْمِ اللهِ الَّذِي تُجْمَعُ فِيهِ الخَلَائِقُ لِتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ بِقِسْطٍ لَا يَحِيفُ وَلَا يَظْلِمُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي مِنْ رُكُونٍ إِلَى الأَوْهَامِ إِلَى اسْتِعْدَادٍ صَادِقٍ يَزِنُ الكَسْبَ قَبْلَ يَوْمِ التَّوْفِيَةِ. فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ كَاذِبَةٍ مَآلُهَا التَّبَخُّرُ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ وَحُكْمِهِ الصَّادِقِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 26 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوْحِيدُ السِّيَاسِيُّ وَالكَوْنِيُّ الَّذِي يَرُدُّ مَقَالِيدَ المُلْكِ وَالعِزَّةِ وَالسُّلْطَانِ إِلَى مَالِكِ المُلْكِ وَحْدَهُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ ذُلِّ التَّعَلُّقِ بِأَرْبَابِ الدُّنْيَا وَالخَوْفِ مِنْ جَبَرُوتِهِمْ. المُلْكُ فِي الأَرْضِ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ يُؤْتِيهَا الخَالِقُ مَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً وَيَنْزِعُهَا مِمَّنْ يَشَاءُ عَدْلاً، وَالعِزَّةُ الحَقِيقِيَّةُ لَا تُنَالُ بِالِانْحِنَاءِ لِلْمَخْلُوقِينَ بَلْ بِالِاعْتِصَامِ بِمَنْ بِيَدِهِ الخَيْرُ كُلُّهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هٰذَا المِيثَاقُ النُّورَانِيُّ يَشْفِي القَلْبَ مِنَ اليَأْسِ عِنْدَ تَسَلُّطِ البَاطِلِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ الغُرُورِ عِنْدَ حُصُولِ التَّمْكِينِ. فَمَنْ طَلَبَ العِزَّ وَالخَيْرَ مِنْ مَالِكِ المُلْكِ نَالَ عِزَّةً لَا تَزُولُ، بَيْنَمَا يَذِلُّ مَنْ تَعَلَّقَ بِسُلْطَانِ المَخْلُوقِينَ حِينَ يُنْزَعُ مِنْهُمُ المُلْكُ فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ. [1]

الصَّدَى

تَدَاوُلُ المُلْكِ وَيَدُ الخَيْرِ المطْلَقِ

صَدَى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

عُرُوشٌ تَرْتَفِعُ وَعُرُوشٌ تَهْوِي بِأَمْرٍ وَاحِدٍ مِنْ مَالِكِ المُلْكِ، فَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ بِطَاعَتِهِ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ بِعِصْيَانِهِ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ الخَيْرِ كُلِّهِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ دَيْمُومَةِ السُّلْطَانِ البَشَرِيِّ أَوِ الخَوْفِ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي عَبْدٌ لِمَنْ يَمْلِكُ المُلْكَ وَيُصَرِّفُهُ بِقُدْرَتِهِ. وَكَمْ تَصَاغَرَتْ نَفْسِي قَدِيماً أَمَامَ أَصْحَابِ الجَاهِ وَالنُّفُوذِ ظَنّاً مِنِّي أَنَّ الخَيْرَ فِي أَيْدِيهِمْ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يُنْزَعُ المُلْكُ نَزْعاً فَلَا يَمْلِكُ المخْلُوقُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَ المسَخَّرَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَجْمَعُهُ الخَالِقُ فَوْقَ أَرْضٍ فَيُعِزُّهَا بِالغَيْثِ وَالخُضْرَةِ، ثُمَّ يَصْرِفُهُ عَنْهَا بِأَمْرِهِ فَتَعُودُ قَاحِلَةً صَامِتَةً لَا تَمْلِكُ اسْتِبْقَاءَ قَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ مَالِكِ المُلْكِ القَدِيرِ الَّذِي بِيَدِهِ الخَيْرُ كُلُّهُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ مَقَالِيدُ العِزَّةِ وَالتَّمْكِينِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ وِجْهَتِي فِي الطَّلَبِ وَالرَّجَاءِ مِنْ أَبْوَابِ الخَلْقِ الفَانِيَةِ إِلَى بَابِ المَلِكِ الحَقِّ الَّذِي لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ. فَكُلُّ مُلْكٍ يَمْلِكُهُ البَشَرُ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ مَالِكِ المُلْكِ القَدِيرِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 27 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

المَوْعِظَةُ

تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَانْبِثَاقُ الحَيَاةِ مِنْ رَحِمِ المَوْتِ يُقَدِّمَانِ البُرْهَانَ الكَوْنِيَّ المَلْمُوسَ عَلَى قُدْرَةِ الخَالِقِ عَلَى تَغْيِيرِ الأَحْوَالِ وَبَسْطِ الأَرْزَاقِ بِغَيْرِ حِسَابٍ. كَمَا يَتَدَاخَلُ النُّورُ فِي الظَّلَامِ فَيُبَدِّدُهُ بِتَدَرُّجٍ لَطِيفٍ، وَتَخْرُجُ النَّبْتَةُ الخَضْرَاءُ مِنَ البَذْرَةِ اليَابِسَةِ وَالمؤْمِنُ الحَيُّ مِنَ الصُّلْبِ الكَافِرِ، كَذٰلِكَ يُخْرِجُ المدَبِّرُ الفَرَجَ مِنْ قَلْبِ الشِّدَّةِ وَالعِزَّةَ مِنْ رَحِمِ الِاسْتِضْعَافِ. هٰذِهِ السُّنَّةُ الكَوْنِيَّةُ تَشْفِي العَقْلَ مِنَ القُنُوطِ أَمَامَ ظُلْمَةِ الوَاقِعِ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّ خَزَائِنَ الرِّزْقِ الإِلٰهِيِّ لَا تَخْضَعُ لِمَقَايِيسِ البَشَرِ المحْدُودَةِ.

فَمَنْ تَأَمَّلَ تَصْرِيفَ الكَوْنِ وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَتَحَ لَهُ أَبْوَابَ الفَرَجِ وَالرِّزْقِ الوَاسِعِ، بَيْنَمَا يَحْبِسُ اليَائِسُ نَفْسَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَيَغْفُلُ عَنْ حَتْمِيَّةِ الفَجْرِ. [1]

الصَّدَى

تَدَاخُلُ النُّورِ وَانْبِثَاقُ الحَيَاةِ

صَدَى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

خُيُوطُ النَّهَارِ تَتَسَلَّلُ بِرِفْقٍ إِلَى جَوْفِ اللَّيْلِ فَتُحِيلُهُ ضِيَاءً، وَنَبْضُ الحَيَاةِ يَنْبَجِسُ مِنْ صَمْتِ المَوْتِ لِيُعْلِنَ أَنَّ قُدْرَةَ الخَالِقِ لَا تَعْرِفُ المُسْتَحِيلَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ ثَبَاتِ الشَّدَائِدِ وَدَيْمُومَةِ الظَّلَامِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ مِحْنَةٍ تَحْمِلُ فِي أَحْشَائِهَا بَذْرَةَ الفَرَجِ وَالرِّزْقِ الوَاسِعِ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ لَيْلَ الكُرُوبِ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ النَّوَافِذِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يُولِجُ البَارِئُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَيُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ بِإِتْقَانٍ وَرَحْمَةٍ! أَتَأَمَّلُ البَيْضَةَ الصَّمَّاءَ السَّاكِنَةَ الَّتِي تَبْدُو كَالحَجَرِ المَيِّتِ، كَيْفَ تَنْشَقُّ بِأَمْرِ القُدْرَةِ عَنْ طَائِرٍ حَيٍّ يَنْتَفِضُ بِالحَرَكَةِ وَيُحَلِّقُ فِي الفَضَاءِ الوَاسِعِ مُسَبِّحاً بِحَمْدِ خَالِقِهِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يُصَرِّفُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَيُحْيِي المَوَاتَ وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا تَقْتِيرٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي عِنْدَ الأَزْمَاتِ مِنْ يَأْسٍ يَرَى الجُمُودَ إِلَى أَمَلٍ حَيٍّ يَتَرَقَّبُ وِلَادَةَ الفَجْرِ وَفَيْضَ العَطَاءِ. فَكُلُّ لَيْلٍ مُظْلِمٍ مَآلُهُ الِانْقِشَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الحَيِّ الرَّزَّاقِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 28 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

المَوْعِظَةُ

تَحْدِيدُ بُوصَلَةِ الوَلَاءِ وَالِانْتِمَاءِ الإِيمَانِيِّ يَحْفَظُ هُوِيَّةَ الأُمَّةِ وَتَمَاسُكَهَا مِنْ أَنْ تَذُوبَ فِي تَحَالُفَاتٍ تُنَاصِرُ أَعْدَاءَ العَقِيدَةِ عَلَى أَهْلِهَا. الشَّرِيعَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَضَعُ خَطّاً فَاصِلاً بَيْنَ البِرِّ وَالقِسْطِ المَشْرُوعِ مَعَ

المسَالِمِينَ، وَبَيْنَ المَوَالَاةِ وَالنُّصْرَةِ الَّتِي تُقَدِّمُ الكَافِرِينَ عَلَى المؤْمِنِينَ، فَتُعْلِنُ أَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ قَدْ قَطَعَ صِلَتَهُ بِالسَّمَاءِ، مَعَ مُرَاعَاةِ رُخْصَةِ التَّقِيَّةِ الظَّاهِرَةِ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ وَالخَوْفِ الشَّدِيدِ مَعَ ثَبَاتِ القَلْبِ عَلَى الإِيمَانِ. هٰذَا التَّحْذِيرُ المهِيبُ الَّذِي يُخَوِّفُ العِبَادَ مِنْ غَضَبِ الخَالِقِ نَفْسِهِ وَيُذَكِّرُهُمْ بِالمصِيرِ إِلَيْهِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ خِدَاعِ المصَالِحِ الضَّيِّقَةِ. فَمَنْ أَخْلَصَ وَلَاءَهُ لِرَبِّهِ وَلِإِخْوَانِهِ نَالَ عِزَّةَ الِانْتِمَاءِ وَأَمَانَ المصِيرِ، بَيْنَمَا يَنْقَطِعُ المتَمَلِّقُ لِأَعْدَاءِ دِينِهِ عَنْ وِلَايَةِ السَّمَاءِ وَيَخْسَرُ الدَّارَيْنِ. [1]

الصَّدَى

بُوصَلَةُ الوَلَاءِ وَهَيْبَةُ المصِيرِ

صَدَى ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

رَايَةٌ نَقِيَّةٌ تَتَمَيَّزُ بِهَا صُفُوفُ الإِيمَانِ، فَتَصُونُ القَلْبَ مِنْ تَمْيِيعِ الوَلَاءِ وَتُحَذِّرُهُ مِنْ قَطْعِ حِبَالِ الوَصْلِ مَعَ السَّمَاءِ طَلَباً لِحِمَايَةٍ زَائِفَةٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ البَحْثِ عَنِ العِزَّةِ وَالأَمَانِ فِي أَحْضَانِ المعَانِدِينَ لِلْحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ وِلَايَةَ المؤْمِنِينَ هِيَ الحِصْنُ الوَثِيقُ وَالرَّابِطَةُ الأَبْقَى. وَكَمْ أَغْرَتِ المصَالِحُ العَاجِلَةُ قَدِيماً بَعْضَ النُّفُوسِ بِمُدَاهَنَةِ البَاطِلِ عَلَى حِسَابِ أَهْلِ الإِيمَانِ، حَتَّى هَزَّهَا هٰذَا النِّدَاءُ الجَلِيلُ الَّذِي يُحَذِّرُ العِبَادَ مِنْ غَضَبِ الخَالِقِ نَفْسِهِ! أَتَأَمَّلُ الجَسَدَ الحَيَّ كَيْفَ تَتَضَامَنُ أَعْضَاؤُهُ وَتَتَوَحَّدُ خَلَايَاهُ لِحِمَايَةِ نَفْسِهِ مِنَ الدَّاءِ الغَرِيبِ، فَلَوْ انْحَازَ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى الجُرْثُومَةِ المهَاجِمَةِ لَانْقَطَعَ عَنْ شِرْيَانِ الحَيَاةِ وَهَلَكَ. فَمَا أَشَدَّ تَحْذِيرَ اللهِ لِعِبَادِهِ كَيْ يَصُونُوا وَلَاءَهُمُ الإِيمَانِيَّ وَيَتَّقُوا نَفْسَهُ العَلِيَّةَ قَبْلَ يَوْمِ المصِيرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَلَاقَاتِي وَتَحَالُفَاتِي مِنْ مَيْلٍ يَتْبَعُ بَرِيقَ القُوَّةِ المادِّيَّةِ إِلَى انْضِبَاطٍ يَقِظٍ يَحْفَظُ أُخُوَّةَ الدِّينِ وَيَخْشَى مَقَامَ الرَّبِّ. فَكُلُّ وَلَاءٍ يُقَدِّمُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ مَآلُهُ البَرَاءَةُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ المرْجِعُ وَالمصِيرُ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 29 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

تَطْهِيرُ سُوَيْدَاءِ القَلْبِ مِنْ بَقَايَا الوَلَاءِ لِلْبَاطِلِ عِنْدَ اسْتِعْمَالِ رُخْصَةِ التَّقِيَّةِ الظَّاهِرَةِ يُثْبِتُ أَنَّ الإِيمَانَ حَقِيقَةٌ بَاطِنِيَّةٌ لَا تَنْطَلِي فِيهَا الحِيَلُ عَلَى عَلَّامِ الغُيُوبِ. فَمَا يَكْتُمُهُ الصَّدْرُ مِنْ مَوَدَّةٍ أَوْ بُغْضٍ، وَمَا يُظْهِرُهُ اللِّسَانُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، كِلَاهُمَا مَكْشُوفٌ أَمَامَ عِلْمِ مَنْ يُحِيطُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَمْلِكُ القُدْرَةَ المطْلَقَةَ عَلَى مُحَاسَبَةِ الخَلْقِ وَمُجَازَاتِهِمْ. هٰذَا اليَقِينُ يَسُدُّ بَابَ النِّفَاقِ الَّذِي يَتَسَتَّرُ خَلْفَ الرُّخَصِ الشَّرْعِيَّةِ لِيُبْطِنَ مُوَالَاةَ الأَعْدَاءِ، وَيُرَبِّي الضَّمِيرَ عَلَى الصِّدْقِ الدَّاخِلِيِّ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ. فَمَنْ صَفَا قَلْبُهُ لِرَبِّهِ نَالَ رِعَايَةَ العَلِيمِ القَدِيرِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المكَّارُ الَّذِي يُخْفِي الخِيَانَةَ فِي صَدْرِهِ وَيَظُنُّ أَنَّهَا تَغِيبُ عَنْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. [1]

الصَّدَى

صَفَاءُ الصُّدُورِ وَقُدْرَةُ العَلِيمِ

صَدَى ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

أَعْمَاقُ الصُّدُورِ تَتَجَلَّى أَمَامَ بَصَرِ السَّمَاءِ كَصَفْحَةِ مَاءٍ رَقْرَاقٍ لَا تَسْتُرُ قَاعَهُ الظِّلَالُ، فَيَسْتَوِي عِنْدَ الخَالِقِ مَا كَتَمَتْهُ القُلُوبُ وَمَا نَطَقَتْ بِهِ الأَلْسِنَةُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاخْتِبَاءِ خَلْفَ المعَاذِيرِ الظَّاهِرَةِ لِتَبْرِيرِ مَيْلٍ قَلْبِيٍّ نَحْوَ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ السَّرِيرَةَ هِيَ مَحَلُّ نَظَرِ الرَّبِّ. وَكَمْ حَاوَلَتِ النَّفْسُ قَدِيماً أَنْ تَصْنَعَ لِنَفْسِهَا مَسَاحَةً سِرِّيَّةً بَعِيداً عَنِ المرَاقَبَةِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي عِلْمُ مَنْ يُحِيطُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ المدْفُونَةَ فِي أَعْمَاقِ التُّرْبَةِ المظْلِمَةِ تَحْتَ طَبَقَاتِ الأَرْضِ، كَيْفَ يَعْلَمُ الخَالِقُ مَوْضِعَهَا وَيَبْعَثُ إِلَيْهَا الدِّفْءَ وَالرُّطُوبَةَ بِقُدْرَتِهِ فَتَنْبُتُ وَتَشُقُّ طَرِيقَهَا نَحْوَ الضِّيَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ حِينَ يَكْشِفُ مَا فِي الصُّدُورِ وَيُحِيطُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِيُقِيمَ الحَقَّ فِي البَاطِنِ قَبْلَ الظَّاهِرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رَقَابَتِي لِذَاتِي مِنْ تَدْقِيقٍ فِي المظْهَرِ إِلَى تَطْهِيرٍ مُسْتَمِرٍّ لِخَوَاطِرِ القَلْبِ وَمُيُولِهِ. فَكُلُّ كِتْمَانٍ يُضْمِرُ السُّوءَ مَآلُهُ الِانْكِشَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَلِيمِ القَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 30 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

المَوْعِظَةُ

تَجَسُّدُ الأَعْمَالِ وَحُضُورُهَا المشْهُودُ يَوْمَ العَرْضِ الأَكْبَرِ يَضَعُ الإِنْسَانَ أَمَامَ نَتَائِجِ اخْتِيَارَاتِهِ وَجْهاً لِوَجْهٍ؛ فَيَسْتَبْشِرُ المحْسِنُ بِرُؤْيَةِ خَيْرِهِ حَاضِراً بَيْنَ يَدَيْهِ، بَيْنَمَا يَرْتَعِدُ المسِيءُ مِنْ قُبْحِ ذُنُوبِهِ حَتَّى يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَمَدٌ سَحِيقٌ مِنَ الزَّمَانِ وَالمكَانِ. وَفِي ذُرْوَةِ هٰذَا المشْهَدِ المهَابِ يَجْمَعُ الوَحْيُ بَيْنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الخَالِقِ نَفْسِهِ وَبَيْنَ إِثْبَاتِ رَأْفَتِهِ البَالِغَةِ بِعِبَادِهِ؛ إِذْ لَوْلَا رَأْفَتُهُ لَمَا أَنْذَرَهُمْ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ وَلَمَا فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ لِيَمْحُوا سَيِّئَاتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَجِدُوهَا مُحْضَرَةً. فَمَنْ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ وَالإِحْسَانِ فِي زَمَنِ الرَّأْفَةِ فَرِحَ بِصَحِيفَتِهِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، بَيْنَمَا يَتَمَنَّى الغَافِلُ المفَرِّطُ البُعْدَ عَنْ أَعْمَالِهِ حِينَ لَا يَنْفَعُ التَّمَنِّي. [1]

الصَّدَى

حُضُورُ الأَعْمَالِ وَرَأْفَةُ الإِنْذَارِ

صَدَى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾

مِرْآةُ الأَبَدِيَّةِ تَعْكِسُ كُلَّ مَا قَدَّمَتْهُ اليَدَانِ حَاضِراً لَا يَغِيبُ، فَيُعَانِقُ القَلْبُ ثِمَارَ خَيْرِهِ بِفَرَحٍ، وَيَفِرُّ المسِيءُ مِنْ ظِلِّ سَيِّئَاتِهِ مُتَمَنِّياً أَمَداً بَعِيداً لَا يُدْرَكُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الذُّنُوبَ تَتَلَاشَى بِمُرُورِ الأَيَّامِ دُونَ تَوْبَةٍ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ هُوَ كَائِنٌ حَيٌّ سَأَلْقَاهُ أَمَامِي يَوْمَ الحِسَابِ. وَكَمْ أَلْقَيْتُ قَدِيماً هَفَوَاتِي خَلْفَ ظَهْرِي ظَنّاً مِنِّي أَنَّ النِّسْيَانَ يَمْحُوهَا، حَتَّى هَزَّنِي مَشْهَدُ إِحْضَارِ الأَعْمَالِ وَرَأْفَةُ التَّحْذِيرِ المسْبَقِ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَ الَّذِي يَنْثُرُهُ الزَّارِعُ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يَغِيبُ عَنْهُ، كَيْفَ يَعُودُ فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ فَيَجِدُ ثِمَارَ القَمْحِ الطَّيِّبِ وَأَشْوَاكَ العَوْسَجِ المؤْذِي قَائِمَةً أَمَامَ عَيْنَيْهِ كَمَا زَرَعَهَا بِيَدِهِ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ بِعِبَادِهِ حِينَ يُحَذِّرُهُمْ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا لِيَغْسِلُوا سَيِّئَاتِهِمْ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَجِدُوهَا مُحْضَرَةً يَوْمَ القِيَامَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي مِنْ تَسَاهُلٍ فِي صَغَائِرِ السُّوءِ إِلَى مُبَادَرَةٍ صَادِقَةٍ تَسْتَبْدِلُ السَّيِّئَةَ بِالحَسَنَةِ قَبْلَ سَاعَةِ العَرْضِ. فَكُلُّ سُوءٍ لَا تَمْحُوهُ التَّوْبَةُ مَآلُهُ الحُضُورُ المخْزِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَأْفَةِ اللهِ وَخَيْرٍ يَتَقَبَّلُهُ بِفَضْلِهِ. [1]

مَوْعِظَةُ آيَةِ 31 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ المحَبَّةِ الصَّادِقَةِ لِخَالِقِ الأَكْوَانِ لَا يُقَاسُ بِمُجَرَّدِ الدَّعَاوَى وَالأَمَانِي، بَلْ بِالاِتِّبَاعِ الصَّادِقِ لِهَدْيِ النَّبِيِّ المصْطَفَى فِي كُلِّ شَأْنٍ وَأَوَانٍ. هٰذَا الشَّرْطُ النُّورَانِيُّ يَهْدِمُ أَوْهَامَ المتَنَطِّعِينَ وَأَدْعِيَاءَ العِشْقِ المزْعُومِ، وَيُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الاِبْتِدَاعِ وَالجُمُودِ وَالرُّسُومِ؛ إِذْ جَعَلَ السَّيْرَ عَلَى مَنْهَجِ النُّبُوَّةِ هُوَ الطَّرِيقَ الوَحِيدَ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ السَّمَاءِ وَتَطْهِيرِ الصَّحَائِفِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالأَدْرَانِ. فَمَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ بِإِخْلَاصٍ وَيَقِينٍ ظَفِرَ بِحُبِّ المَلِكِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المدَّعِي المخَالِفُ مَحْرُوماً مِنْ نُورِ القَبُولِ وَسَكِينَةِ النَّعِيمِ.

الصَّدَى

بُرْهَانُ المحَبَّةِ وَطَرِيقُ الاِتِّبَاعِ

صَدَى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بَوَّابَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَفْتَحُ مَسَالِكَ القُرْبِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَجْعَلُ اتِّبَاعَ النُّبُوَّةِ هُوَ الشَّاهِدَ الصَّادِقَ عَلَى حُبِّ الخَالِقِ وَالمفْتَاحَ الأَمِينَ لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الاِكْتِفَاءِ بِالمشَاعِرِ المجَرَّدَةِ أَوِ الشِّعَارَاتِ الرَّنَّانَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحُبَّ الحَقِيقِيَّ طَاعَةٌ وَاقْتِفَاءٌ لِأَثَرِ الحَبِيبِ. وَكَمْ رَدَّدَ اللِّسَانُ قَدِيماً دَعْوَى المحَبَّةِ بَيْنَمَا تَتَعَثَّرُ الخُطَى بَعِيداً عَنْ جَادَّةِ السُّنَّةِ وَالهَدْيِ القَوِيمِ! أَتَأَمَّلُ السَّارِيَ فِي الصَّحْرَاءِ المظْلِمَةِ كَيْفَ لَا يَبْلُغُ وَاحَةَ الأَمَانِ بِمُجَرَّدِ الشَّوْقِ إِلَيْهَا، بَلْ بِاتِّبَاعِ خُطَى الدَّلِيلِ الخَبِيرِ الَّذِي يَعْرِفُ مَسَالِكَ النَّجَاةِ وَيَجْتَنِبُهُ مَهَاوِيَ الهَلَاكِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ حِينَ يَجْعَلُ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ سَبَباً لِأَنْ يُحِبَّنَا وَيَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَحَبَّتِي لِلْخَالِقِ مِنْ عَاطِفَةٍ سَاكِنَةٍ إِلَى حَرَكَةٍ حَيَّةٍ تَقْتَفِي أَثَرَ النُّبُوَّةِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ. فَكُلُّ دَعْوَى حُبٍّ تَخْلُو مِنَ الاِتِّبَاعِ مَآلُهَا السَّرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَحَبَّةِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ الَّذِي يَسَعُ التَّائِبِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 32 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَلَازُمُ الطَّاعَةِ لِلْخَالِقِ وَالرَّسُولِ يُقِيمُ صَرْحَ الإِيمَانِ عَلَى الِانْقِيَادِ العَمَلِيّ، وَيَقْطَعُ دَابِرَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ أَمْرِ السَّمَاءِ وَبَلَاغِ النَّبِيّ. هٰذَا الأَمْرُ الحَاسِمُ يَرْفَعُ عَنِ العَقْلِ ضَبَابَ التَّأْوِيلِ الفَاسِدِ الَّذِي يَزْعُمُ الِاكْتِفَاءَ بِبَعْضِ الوَحْيِ دُونَ بَعْضٍ، وَيَضَعُ المُعْرِضِينَ أَمَامَ الحَقِيقَةِ المُرَّةِ؛ فَإِنَّ التَّوَلِّيَ عَنِ الطَّاعَةِ هُوَ بَوَّابَةُ الجُحُودِ الَّتِي تَحْرِمُ صَاحِبَهَا مَحَبَّةَ الرَّبِّ الوَدُودِ. فَمَنْ أَذْعَنَ لِطَاعَةِ مَوْلَاهُ وَنَبِيِّهِ نَالَ الرِّضَا وَالوِلَايَةَ وَالأَمَانَ، بَيْنَمَا يَبُوءُ المُتَوَلِّي المُعَانِدُ بِبُغْضِ السَّمَاءِ وَخُسْرَانِ المَآلِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ الطَّاعَةِ وَحِرْمَانُ المُعْرِضِينَ

صَدَى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ تَتَّحِدُ فِيهِ طَاعَةُ الخَالِقِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ فِي خَيْطٍ نُورَانِيّ لَا يَنْفَصِمُ، فَيُثْمِرُ الوِلَايَةَ لِلطَّائِعِينَ وَيَكْشِفُ حِرْمَانَ المُتَوَلِّينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ أَمْرِ السَّمَاءِ وَسُنَّةِ النُّبُوَّةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كَمَالَ العُبُودِيَّةِ يَتَحَقَّقُ بِالتَّسْلِيمِ الكَامِلِ لِكِلَيْهِمَا دُونَ انْتِقَاءٍ أَوْ تَرَدُّدٍ. وَكَمْ تَثَاقَلَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عَنْ بَعْضِ الأَوَامِرِ حِينَ غَلَبَهَا الكَسَلُ أَوِ الهَوَى، حَتَّى هَزَّهَا هٰذَا الإِنْذَارُ القَاطِعُ بِأَنَّ التَّوَلِّيَ يَسْلُبُ القَلْبَ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ وَهِيَ مَحَبَّةُ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ اليَانِعَ فِي الشَّجَرَةِ المُبَارَكَةِ كَيْفَ يَسْتَمِدُّ حَيَاتَهُ وَخُضْرَتَهُ مِنْ اتِّصَالِهِ بِالجِذْعِ وَالجُذُورِ مَعاً، فَإِنِ انْقَطَعَ عَنْ أَحَدِهِمَا ذَبُلَ وَجَفَّ وَسَقَطَ عَلَى التُّرَابِ. فَمَا أَشَدَّ خَسَارَةَ مَنْ يَتَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فَيُحْرَمَ مَحَبَّةَ الرَّحْمٰنِ الَّتِي هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اسْتِجَابَتِي لِلْأَوَامِرِ مِنْ تَكْلِيفٍ ثَقِيلٍ إِلَى رَغْبَةٍ صَادِقَةٍ تَطْلُبُ حُبَّ السَّمَاءِ وَتَخْشَى التَّوَلِّيَ. فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنِ الطَّاعَةِ مَآلُهُ الحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَاعَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ الَّتِي تَعْمُرُ المُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 33 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاصْطِفَاءُ الرَّبَّانِيُّ لِبُيُوتِ النُّبُوَّةِ وَالطَّهَارَةِ يُرْسِي قَانُونَ التَّفَاضُلِ القَائِمَ عَلَى الرِّسَالَةِ وَالصَّلَاحِ، لَا عَلَى الأَحْسَابِ الفَانِيَةِ وَالأَنْسَابِ المادِّيَّة. اخْتِيَارُ الخَالِقِ لِآدَمَ وَنُوحٍ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ يُبْرِزُ تَوَاصُلَ مَسِيرَةِ الهِدَايَةِ عَبْرَ الأَجْيَالِ، وَيُطَمْئِنُ العَقْلَ إِلَى أَنَّ الأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ صَفْوَةٍ يَحْمِلُونَ مَشَاعِلَ النُّورِ وَيُجَدِّدُونَ عَهْدَ التَّوْحِيدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. فَمَنِ اقْتَدَى بِسِيرَةِ المصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ نَالَ شَرَفَ الِانْتِسَابِ الرُّوحِيِّ إِلَى مَوْكِبِهِمْ، بَيْنَمَا يَخِيبُ مَنْ تَفَاخَرَ بِالنَّسَبِ المجَرَّدِ وَخَالَفَ مَنْهَجَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

الصَّدَى

مَوْكِبُ الِاصْطِفَاءِ وَشَرَفُ الرِّسَالَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

قِمَمٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَلَأْلَأُ فِي سَمَاءِ التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ، اصْطَفَاهَا الخَالِقُ مِنْ بَيْنِ العَالَمِينَ لِتَكُونَ مَنَارَاتِ هِدَايَةٍ وَطُهْرٍ تَتَوَارَثُ أَمَانَةَ التَّوْحِيدِ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِافْتِخَارِ بِالمَوَارِيثِ الدُّنْيَوِيَّةِ العَابِرَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الشَّرَفَ الحَقِيقِيَّ هُوَ اصْطِفَاءُ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَالإِيمَانِ. وَكَمْ بَحَثَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عَنْ قُدْوَاتٍ تُنِيرُ لَهَا وَحْشَةَ الطَّرِيقِ، حَتَّى وَجَدْتُ فِي هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ المبَارَكَةِ مِنْ آدَمَ وَنُوحٍ إِلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ أَنْقَى مَدْرَسَةٍ لِلرُّوحِ! أَتَأَمَّلُ الكَوَاكِبَ الدُّرِّيَّةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ كَيْفَ تَنْتَظِمُ فِي أَفْلَاكِهَا بِإِحْكَامٍ، فَيُسَلِّمُ كُلُّ كَوْكَبٍ نُورَهُ لِلْآخَرِ لِتَبْقَى السَّمَاءُ مُزْدَانَةً بِالضِّيَاءِ عَلَى مَرِّ العُصُورِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ صَفْوَةً طَاهِرَةً لِيُقِيمَ بِهِمُ الحُجَّةَ وَيَنْشُرَ الرَّحْمَةَ فِي العَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلتَّارِيخِ مِنْ قَصَصٍ لِلْمُلُوكِ وَالجَبَابِرَةِ إِلَى اقْتِدَاءٍ حَيٍّ بِأَهْلِ الِاصْطِفَاءِ وَالصَّلَاحِ. فَكُلُّ مَجْدٍ يَبْنِيهِ الهَوَى مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِاصْطِفَاءِ اللهِ وَرِسَالَتِهِ الخَالِدَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 34 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

وَحْدَةُ الجَوْهَرِ الإِيمَانِيّ وَتَوَاصُلُ البِرّ بَيْنَ الأُصُولِ وَالفُرُوعِ يُثْبِتَانِ أَنَّ صَلَاحَ الذُّرِّيَّةِ ثَمَرَةٌ لِطَهَارَةِ الغَرْسِ وَصِدْقِ التَّرْبِيَةِ. هٰذَا التَّلَاحُمُ النُّورَانِيُّ بَيْنَ أَجْيَالِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ يَدْعُو العَقْلَ إِلَى الاهْتِمَامِ بِبِنَاءِ الأُسْرَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَتَوَارَثُ القِيَمَ وَالفَضَائِلَ، مُسْتَحْضِراً أَنَّ السَّمِيعَ العَلِيمَ يَرْصُدُ دَعَوَاتِ الآبَاءِ وَنَوَايَا المُرَبِّينَ فَيُبَارِكُ فِي النَّسْلِ وَيَحْفَظُ العَقِبَ. فَمَنْ غَرَسَ التَّقْوَى فِي بَيْتِهِ وَسَأَلَ مَوْلَاهُ صَلَاحَ ذُرِّيَّتِهِ أَقَرَّ رَبُّهُ عَيْنَهُ بِعَقِبٍ طَيِّبٍ، بَيْنَمَا يَتَقَطَّعُ نَسَبُ الطَّاعَةِ حِينَ يُهْمِلُ المَرْءُ تَزْكِيَةَ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ.

الصَّدَى

غَرْسُ الطُّهْرِ وَتَوَاصُلُ الأَجْيَالِ

صَدَى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

شَجَرَةٌ طَيِّبَةٌ تَمْتَدُّ جُذُورُهَا فِي تُرْبَةِ الإِيمَانِ، فَتُخْرِجُ أَغْصَاناً نَضِرَةً يَحْمِلُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَتُثْمِرُ الصَّلَاحَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ صَلَاحَ الإِنْسَانِ يَنْتَهِي بِانْقِضَاءِ عُمْرِهِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ البَذْرَةَ الطَّيِّبَةَ تَظَلُّ تُنْبِتُ الخَيْرَ فِي الذُّرِّيَّةِ تَحْتَ عَيْنِ السَّمِيعِ العَلِيمِ. وَكَمْ قَلِقْتُ قَدِيماً عَلَى مُسْتَقْبَلِ الأَبْنَاءِ فِي عَالَمٍ تَتَلَاطَمُ فِيهِ الفِتَنُ، حَتَّى أَرَاحَنِي يَقِينُ أَنَّ صَلَاحَ الأَصْلِ وَصِدْقَ الدُّعَاءِ هُمَا الحِصْنُ الأَمْنَعُ لِلْفَرْعِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ الصَّافِيَ النَّابِعَ مِنْ قِمَّةِ الجَبَلِ كَيْفَ يَتَدَفَّقُ مَاؤُهُ العَذْبُ مِنْ مَجْرًى إِلَى مَجْرًى، فَكُلُّ جَدْوَلٍ يَسْتَمِدُّ نَقَاءَهُ وَعُذُوبَتَهُ مِنَ النَّبْعِ الأَوَّلِ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَحْفَظُ ذُرِّيَّةَ الصَّالِحِينَ وَيَصِلُ حِبَالَ الخَيْرِ بَيْنَ الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَسْؤُولِيَّتِي تِجَاهَ أُسْرَتِي مِنْ خَوْفٍ عَلَى الرِّزْقِ المَادِّيِّ إِلَى حِرْصٍ عَلَى غَرْسِ الإِيمَانِ الَّذِي يَبْقَى أَثَرُهُ فِي العَقِبِ. فَكُلُّ غَرْسٍ يَخْلُو مِنَ التَّقْوَى مَآلُهُ الذُّبُولُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَلَاحٍ يَرْعَاهُ اللهُ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 35 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

سُمُوُّ الهِمَّةِ فِي تَكْرِيسِ الأَبْنَاءِ لِخِدْمَةِ الدِّينِ وَالعِلْمِ، وَتَحْرِيرُهُمْ مِنْ رِقِّ الشَّهَوَاتِ وَأَغْلَالِ الدُّنْيَا، يُجَسِّدَانِ قِمَّةَ الإِخْلَاصِ التَّرْبَوِيِّ الَّذِي يَصْنَعُ العُظَمَاءَ. نَذْرُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ لِجَنِينِهَا قَبْلَ أَنْ يَرَى النُّورَ لِيَكُونَ خَالِصاً لِعِبَادَةِ المَوْلَى وَخِدْمَةِ بَيْتِهِ المُقَدَّسِ، مَعَ تَضَرُّعِهَا الخَاشِعِ لِطَلَبِ القَبُولِ مِنَ السَّمِيعِ العَلِيمِ، يُعَلِّمُ العَقْلَ أَنَّ أَغْلَى هَدِيَّةٍ يُقَدِّمُهَا الوَالِدَانِ لِلْأُمَّةِ هِيَ تَرْبِيَةُ جِيلٍ مُتَحَرِّرٍ مِنَ الهَوَى. فَمَنْ أَخْلَصَ نِيَّتَهُ فِي تَنْشِئَةِ وَلَدِهِ لِوَجْهِ رَبِّهِ تَقَبَّلَ مَوْلَاهُ نَذْرَهُ وَأَعْلَى شَأْنَهُ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ حَبَسَ أَبْنَاءَهُ فِي أَغْلَالِ الدُّنْيَا وَغَفَلَ عَنْ رِسَالَةِ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

نَذْرُ التَّحَرُّرِ وَمِحْرَابُ القَبُولِ

صَدَى ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

دَعْوَةٌ صَادِقَةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ قَلْبِ أُمٍّ مُخْلِصَةٍ، فَتُحَرِّرُ جَنِينَهَا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ دُنْيَوِيٍّ لِتَهَبَهُ خَالِصاً لِمِحْرَابِ العُبُودِيَّةِ وَالطُّهْرِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَطْوِيعِ الأَبْنَاءِ لِأَهْوَاءِ الدُّنْيَا وَمَطَامِعِهَا الضَّيِّقَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحُرِّيَّةَ الكُبْرَى هِيَ أَنْ يَتَحَرَّرَ الإِنْسَانُ لِخَالِقِهِ وَحْدَهُ. وَكَمْ حَصَرْتُ قَدِيماً آمَالِي فِي أَمَانٍ عَابِرَةٍ لَا تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الأَرْضِ، حَتَّى أَلْهَمَتْنِي امْرَأَةُ عِمْرَانَ كَيْفَ أَرْفَعُ نِيَّتِي إِلَى السَّمَاءِ وَأَطْلُبُ القَبُولَ مِنَ السَّمِيعِ العَلِيمِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الحَكِيمَ الَّذِي يَنْتَقِي أَجْوَدَ غَرْسَةٍ فِي بُسْتَانِهِ فَيُحَرِّرُهَا مِنَ الأَعْشَابِ الضَّارَّةِ وَيُفْرِدُهَا بِالعِنَايَةِ وَالسُّقْيَا لِتَكُونَ شَجَرَةً مُبَارَكَةً تَسْتَظِلُّ بِهَا الأَجْيَالُ. فَمَا أَعْظَمَ إِخْلَاصَ القُلُوبِ الَّتِي تَنْذِرُ أَغْلَى مَا تَمْلِكُ لِلهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ وَتَبْتَهِلُ إِلَيْهِ بِأَدَبٍ وَانْكِسَارٍ كَيْ يَتَقَبَّلَ مِنْهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَوَايَايَ فِي البَذْلِ وَالتَّرْبِيَةِ مِنْ حُظُوظٍ ذَاتِيَّةٍ إِلَى قُرْبَانٍ خَالِصٍ يَبْتَغِي قَبُولَ الخَالِقِ وَرِضَاهُ. فَكُلُّ نَذْرٍ يُشْرَكُ فِيهِ الهَوَى مَآلُهُ الرَّدُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِخْلَاصٍ يَتَقَبَّلُهُ اللهُ السَّمِيعُ العَلِيمُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 36 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّسْلِيمُ الرَّاضِي لِحِكْمَةِ الخَالِقِ عِنْدَمَا تَأْتِي الأَقْدَارُ عَلَى خِلَافِ التَّوَقُّعَاتِ البَشَرِيَّةِ يَكْشِفُ أَنَّ تَدْبِيرَ السَّمَاءِ أَعْظَمُ مِمَّا يَرْجُوهُ الإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ. حِينَ وَضَعَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ أُنْثَى وَكَانَتْ تَأْمُلُ ذَكَراً لِخِدْمَةِ المِعْبَدِ، أَعْلَنَ الوَحْيُ أَنَّ السَّمَاءَ أَعْلَمُ بِعَظَمَةِ هٰذِهِ المَوْلُودَةِ الَّتِي سَتَفُوقُ الذُّكُورَ بِطُهْرِهَا وَاصْطِفَائِهَا، ثُمَّ بَادَرَتِ الأُمُّ الصَّالِحَةُ بِتَحْصِينِ ابْنَتِهَا وَذُرِّيَّتِهَا بِالِاسْتِعَاذَةِ بِالخَالِقِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. هٰذَا المَوْقِفُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ عُقْدَةِ تَفْضِيلِ الذُّكُورِ عَلَى الإِنَاثِ، وَيُبْرِزُ أَنَّ الدُّعَاءَ الصَّادِقَ هُوَ الحِصْنُ الوَاقِي لِلْأَبْنَاءِ. فَمَنْ رَضِيَ بِقِسْمَةِ رَبِّهِ وَعَوَّذَ أَهْلَهُ بِحِمَى السَّمَاءِ بَارَكَ مَوْلَاهُ فِي نَسْلِهِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ سَخِطَ عَلَى المَقْدُورِ وَجَهِلَ حِكْمَةَ المُدَبِّرِ العَلِيمِ.

الصَّدَى

حِكْمَةُ المَقْدُورِ وَحِصْنُ الِاسْتِعَاذَةِ

صَدَى ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

جَوْهَرَةٌ فَرِيدَةٌ تَخْرُجُ إِلَى الحَيَاةِ عَلَى غَيْرِ مَا تَوَقَّعَتْهُ حِسَابَاتُ البَشَرِ، فَيُعْلِنُ الخَالِقُ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِشَأْنِهَا وَيُحِيطُهَا دُعَاءُ أُمِّهَا بِسِيَاجٍ يَعْصِمُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْكِسَارِ حِينَ تَجْرِي الأَقْدَارُ بِخِلَافِ مَا رَسَمْتُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ عَطَاءَ السَّمَاءِ أَجْمَلُ وَأَكْمَلُ مِمَّا تَطْلُبُهُ نَفْسِي القَاصِرَةُ. وَكَمْ حَزِنْتُ قَدِيماً عَلَى أَمْرٍ تَمَنَّيْتُهُ فَجَاءَ بِصُورَةٍ أُخْرَى، حَتَّى كَشَفَتِ الأَيَّامُ أَنَّ تَدْبِيرَ الخَالِقِ كَانَ يَحْمِلُ لِيَ الخَيْرَ الأَعْظَمَ! أَتَأَمَّلُ الصَّدَفَةَ المُلْقَاةَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ الَّتِي قَدْ يَحْسَبُهَا العَابِرُ صَغِيرَةً لَا تَفِي بِالمُرَادِ، فَإِذَا فُتِحَتْ تَلَأْلَأَتْ فِي جَوْفِهَا لُؤْلُؤَةٌ نَادِرَةٌ تَفُوقُ كُلَّ مَا فِي السُّوقِ مِنْ مَتَاعٍ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الَّذِي اسْتَجَابَ لِاسْتِعَاذَةِ أُمِّ مَرْيَمَ فَحَفِظَهَا وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَجَعَلَهَا

آيَةً لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلْأَقْدَارِ مِنْ تَرَقُّبٍ قَلِقٍ إِلَى رِضاً مُطْمَئِنٍّ يُحَصِّنُ النِّعَمَ بِالدُّعَاءِ وَيَثِقُ بِعِلْمِ الخَالِقِ. فَكُلُّ تَدْبِيرٍ بَشَرِيٍّ قَدْ يَشُوبُهُ القُصُورُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِكْمَةِ اللهِ وَحِفْظِهِ الَّذِي يَعْصِمُ أَوْلِيَاءَهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 37 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَمَرَةُ الإِخْلَاصِ الصَّادِقِ تَتَجَلَّى فِي حُسْنِ القَبُولِ الرَّبَّانِيِّ وَالرِّعَايَةِ الفَائِقَةِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ مَأْلُوفَ الأَسْبَابِ وَقُيُودَ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ. حِينَ صَدَقَتْ نِيَّةُ الأُمِّ، تَوَلَّى الخَالِقُ تَرْبِيَةَ مَرْيَمَ وَإِنْبَاتَهَا نَبَاتاً حَسَناً فِي الطُّهْرِ وَالعِفَّةِ، وَسَخَّرَ لَهَا نَبِيَّهُ زَكَرِيَّا كَفِيلاً وَمُرَبِّياً، وَأَجْرَى لَهَا الرِّزْقَ الهَنِيَّ فِي مِحْرَابِهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ مَنِ انْقَطَعَ لِطَاعَةِ مَوْلَاهُ كَفَاهُ رَبُّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ. هٰذِهِ الكَرَامَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ قَلَقِ الرِّزْقِ عِنْدَ التَّفَرُّغِ لِلْعِبَادَةِ وَالعِلْمِ. فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ بِقَلْبٍ نَقِيٍّ أَنْبَتَهُ مَوْلَاهُ نَبَاتاً حَسَناً وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، بَيْنَمَا يَشْقَى المُنْقَطِعُ عَنِ السَّمَاءِ فِي لُهَاثٍ دَائِمٍ خَلْفَ الأَسْبَابِ الفَانِيَةِ.

الصَّدَى

إِنْبَاتُ الطُّهْرِ وَرِزْقُ المِحْرَابِ

صَدَى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

زَهْرَةٌ نَقِيَّةٌ تَتَفَتَّحُ فِي ظِلِّ المِحْرَابِ بِرِعَايَةِ السَّمَاءِ، فَتَنْمُو فِي الطُّهْرِ وَالْعَفَافِ وَتَتَنَزَّلُ عَلَيْهَا أَرْزَاقُ الخَالِقِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا بِلَا حِسَابٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ حَصْرِ الرِّزْقِ فِي الطُّرُقِ المَأْلُوفَةِ وَالحِسَابَاتِ الضَّيِّقَةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ خَزَائِنَ السَّمَاءِ مَفْتُوحَةٌ لِأَهْلِ الصِّدْقِ وَالقُنُوتِ. وَكَمْ

قَلِقَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عَلَى مَعَاشِ الغَدِ حِينَ شَغَلَتْنِي الطَّاعَةُ عَنْ بَعْضِ السَّعْيِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ ثِمَارَ الجَنَّةِ فِي مِحْرَابِ مَرْيَمَ وَهِيَ تَنْطِقُ بِأَنَّ الرِّزْقَ مِنْ عِنْدِ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْتَةَ النَّادِرَةَ فِي أَعْلَى الجَبَلِ البَعِيدِ عَنْ أَيْدِي الفَلَّاحِينَ وَمَجَارِي الأَنْهَارِ، كَيْفَ يَسُوقُ إِلَيْهَا البَارِئُ سَحَائِبَ الفَجْرِ وَشُعَاعَ الشَّمْسِ فَتُثْمِرُ أَطْيَبَ الثِّمَارِ فِي صَمْتٍ وَسَكِينَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَتَقَبَّلُ الصَّادِقِينَ بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا تَقْتِيرٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي فِي العَطَاءِ مِنْ تَعَلُّقٍ بِالأَسْبَابِ المَادِّيَّةِ إِلَى يَقِينٍ مُطْمَئِنٍّ بِأَنَّ طَاعَةَ الخَالِقِ تَسْتَجْلِبُ أَرْزَاقَ الدَّارَيْنِ. فَكُلُّ رِزْقٍ يُطْلَبُ بِمَعْصِيَةِ السَّمَاءِ مَآلُهُ المَحْقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَطَاءِ اللهِ الَّذِي يَرْزُقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 38 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِثْمَارُ مَشَاهِدِ الكَرَامَةِ الإِلٰهِيَّةِ وَالأَزْمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ المُبَارَكَةِ لِإِحْيَاءِ الأَمَلِ وَرَفْعِ الدُّعَاءِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ سِجْنِ اليَأْسِ وَالمُسْتَحِيلِ. حِينَ رَأَى زَكَرِيَّا رِزْقَ السَّمَاءِ فِي مِحْرَابِ مَرْيَمَ رَغْمَ كِبَرِ سِنِّهِ وَعُقْمِ زَوْجِهِ، انْقَشَعَتْ عَنْ بَصِيرَتِهِ حُجُبُ الأَسْبَابِ العَادِيَّةِ، فَبَادَرَ فِي ذٰلِكَ المَقَامِ الشَّرِيفِ يَسْأَلُ مَوْلَاهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً تَحْمِلُ رِسَالَةَ النُّبُوَّةِ، مُوقِناً بِأَنَّ سَمِيعَ الدُّعَاءِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. هٰذَا الفِقْهُ الرُّوحِيُّ يُعَلِّمُ المُؤْمِنَ أَنْ يَغْتَنِمَ سَاعَاتِ التَّجَلِّي وَرُؤْيَةِ الصَّالِحِينَ لِيَطْلُبَ أَعْلَى المَطَالِبِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ. فَمَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ وَاغْتَنَمَ مَوَاطِنَ الإِجَابَةِ نَالَ هِبَاتِ السَّمَاءِ اللَّدُنِّيَّةَ، بَيْنَمَا يَحْبِسُ اليَائِسُ دُعَاءَهُ خَلْفَ قُضْبَانِ العَادَةِ وَالحِسَابِ.

الصَّدَى

شَرَارَةُ الأَمَلِ وَمِحْرَابُ الدُّعَاءِ

صَدَى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

لَحْظَةُ إِشْرَاقٍ نُورَانِيَّةٍ تَخْتَرِقُ جِدَارَ الشَّيْخُوخَةِ وَالعُقْمِ، فَيَرْتَفِعُ نِدَاءُ زَكَرِيَّا فِي المِحْرَابِ طَالِباً مِنَ الخَالِقِ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً تَحْمِلُ لِوَاءَ الهِدَايَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِسْلَامِ لِانْقِطَاعِ الأَسْبَابِ البَشَرِيَّةِ،

وَأُدْرِكُ أَنَّ رُؤْيَةَ فَضْلِ السَّمَاءِ عَلَى الغَيْرِ هِيَ دَعْوَةٌ مَفْتُوحَةٌ لِي كَيْ أَطْرُقَ بَابَ الكَرِيمِ. وَكَمْ حَبَسَتِ العُقُولُ قَدِيماً أَمَانِيَّهَا خَلْفَ أَسْوَارِ العَادَةِ وَالعَجْزِ، حَتَّى عَلَّمَنَا زَكَرِيَّا كَيْفَ نَسْأَلُ الهِبَاتِ اللُّدُنِّيَّةَ مِنْ سَمِيعِ الدُّعَاءِ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ اليَابِسَ فِي قَلْبِ الشِّتَاءِ القَارِسِ كَيْفَ يَرَى تَفَتُّحَ زَهْرَةٍ مُبَكِّرَةٍ بِجِوَارِهِ، فَتَسْرِي فِيهِ رُوحُ الحَيَاةِ وَيَسْتَقْبِلُ غَيْثَ السَّمَاءِ لِيُورِقَ وَيُثْمِرَ بَعْدَ طُولِ جَفَافٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ سَمِيعِ الدُّعَاءِ الَّذِي يُلْهِمُ أَوْلِيَاءَهُ الطَّلَبَ فِي سَاعَاتِ الرَّحْمَةِ لِيُعْطِيَهُمْ فَوْقَ مَا يَأْمُلُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُنَاجَاتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنْ تَرَدُّدٍ يَخْشَى العَوَائِقَ إِلَى يَقِينٍ حَيٍّ يَسْأَلُ الوَهَّابَ أَطْيَبَ العَطَايَا. فَكُلُّ يَأْسٍ تَصْنَعُهُ الأَسْبَابُ مَآلُهُ التَّبَدُّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ سَمِيعِ الدُّعَاءِ وَمُجِيبِ المُضْطَرِّينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 39 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

سُرْعَةُ الإِجَابَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلْمُقْبِلِينَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالمِحْرَابِ تَكْشِفُ أَنَّ الوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ هُوَ أَقْرَبُ الطُّرُقِ لِتَحْقِيقِ الآمَالِ وَنُزُولِ البِشَارَاتِ. لَمْ يَتَأَخَّرِ النِّدَاءُ السَّمَاوِيُّ عَنْ زَكَرِيَّا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، بَلْ زَفَّتْ إِلَيْهِ المَلَائِكَةُ بُشْرَى وَلَدٍ طَاهِرٍ اسْمُهُ يَحْيَى، جَمَعَ بَيْنَ التَّصْدِيقِ بِكَلِمَةِ الخَالِقِ عِيسَى، وَالسِّيَادَةِ فِي العِلْمِ وَالحِلْمِ، وَالعِفَّةِ الكَامِلَةِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَشَرَفِ النُّبُوَّةِ وَالصَّلَاحِ. هٰذَا العَطَاءُ الفَائِضُ يُبْرِزُ أَنَّ كَرَمَ السَّمَاءِ يَمْنَحُ العَبْدَ الصَّادِقَ أَضْعَافَ مَا سَأَلَ. فَمَنْ لَزِمَ مِحْرَابَ الصَّلَاةِ بِخُشُوعٍ وَيَقِينٍ نَزَلَتْ عَلَيْهِ بَشَائِرُ الفَرَجِ وَالتَّوْفِيقِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُعْرِضُ عَنِ الصَّلَاةِ مَحْرُوماً مِنْ أَنْوَارِ الإِجَابَةِ.

الصَّدَى

بُشْرَى المَلَائِكَةِ وَثَمَرَةُ المِحْرَابِ

صَدَى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ

اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

نِدَاءٌ مَلَائِكِيٌّ عَذْبٌ يَتَنَزَّلُ فِي سُكُونِ المِحْرَابِ عَلَى عَبْدٍ قَائِمٍ يُصَلِّي، فَيُزِفُّ إِلَيْهِ بُشْرَى يَحْيَى سَيِّداً وَعَفِيفاً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ طُولِ الِانْتِظَارِ وَبُعْدِ الفَرَجِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الصَّلَاةَ الخَاشِعَةَ هِيَ المِعْرَاجُ الَّذِي تَهْبِطُ عَلَيْهِ بَشَائِرُ السَّمَاءِ. وَكَمْ طَرَقَتِ النَّفْسُ قَدِيماً أَبْوَاباً شَتَّى بَحْثاً عَنِ السَّعَادَةِ وَالفَرَجِ، حَتَّى أَبْصَرَتْ كَيْفَ أَتَتِ البُشْرَى الكُبْرَى لِزَكَرِيَّا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابِهِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانَ المِسْقِيَّ بِمَاءِ السَّحَرِ كَيْفَ يَتَفَتَّحُ زَهْرُهُ فَجْأَةً عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ لِيَمْلَأَ الأَرْجَاءَ بِالعِطْرِ وَالبَهْجَةِ بَعْدَ صَبْرٍ طَوِيلٍ وَسُكُونٍ عَمِيقٍ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُبَشِّرُ عَبْدَهُ الصَّادِقَ بِنَبِيٍّ يَجْمَعُ السِّيَادَةَ وَالعِفَّةَ وَالتَّصْدِيقَ لِيَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَلَاتِي مِنْ أَدَاءٍ لِلْوَاجِبِ إِلَى مَوْعِدٍ مُشْرِقٍ أَتَلَقَّى فِيهِ طُمَأْنِينَةَ الرُّوحِ وَبَشَائِرَ القَبُولِ. فَكُلُّ بُشْرَى يَصْنَعُهَا البَشَرُ قَدْ تَتَخَلَّفُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبُشْرَى اللهِ الَّتِي يَزُفُّهَا لِعِبَادِهِ القَانِتِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 40 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

المَوْعِظَةُ

حَيْرَةُ العَقْلِ البَشَرِيِّ أَمَامَ انْقِطَاعِ الأَسْبَابِ المادِّيَّةِ تَتَبَدَّدُ أَمَامَ القَانُونِ الإِلٰهِيِّ المطْلَقِ: «كَذٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»، الَّذِي يَجْعَلُ المشِيئَةَ الرَّبَّانِيَّةَ فَوْقَ نَوَامِيسِ الطَّبِيعَةِ وَقُيُودِ العُمْرِ وَالجَسَدِ. تَعَجُّبُ زَكَرِيَّا مِنْ وِلَادَةِ الغُلَامِ مَعَ كِبَرِ سِنِّهِ وَعُقْمِ زَوْجَتِهِ لَمْ يَكُنْ شَكّاً فِي القُدْرَةِ، بَلْ دَهْشَةً لِعَظَمَةِ الخَلْقِ وَتَشَوُّقاً لِسَمَاعِ كَلِمَةِ الطُّمَأْنِينَةِ مِنَ السَّمَاءِ، فَجَاءَهُ الجَوَابُ القَاطِعُ لِيُقَرِّرَ أَنَّ الأَسْبَابَ لَا تَحْكُمُ الخَالِقَ بَلْ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الأَسْبَابَ وَيُعَطِّلُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. هٰذَا اليَقِينُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنَ اليَأْسِ أَمَامَ المعْضِلَاتِ المسْتَعْصِيَةِ. فَمَنْ أَوْكَلَ أَمْرَهُ لِمَشِيئَةِ رَبِّهِ القَادِرِ رَأَى المسْتَحِيلَ يَتَحَقَّقُ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المادِّيُّ مَحْبُوساً فِي سِجْنِ الأَسْبَابِ العَاجِزَةِ.

الصَّدَى

دَهْشَةُ البَشَرِ وَنَفَاذُ المشِيئَةِ

صَدَى ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

كَلِمَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَطْوِي حِسَابَاتِ السِّنِينَ وَقُيُودَ العُقْمِ، فَتُعْلِنُ فِي أَرْجَاءِ الوُجُودِ أَنَّ الخَالِقَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ دُونَ أَنْ تُقَيِّدَهُ أَسْبَابُ الأَرْضِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ خُضُوعِ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ لِمَقَايِيسِ الطَّبِيعَةِ المأْلُوفَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الأَسْبَابَ جُنُودٌ مُسَخَّرَةٌ تَنْقَادُ لِأَمْرِ الكَافِ وَالنُّونِ. وَكَمْ وَقَفَ عَقْلِي قَدِيماً مَذْهُولاً أَمَامَ الأَبْوَابِ المغْلَقَةِ وَالعَقَبَاتِ الصَّمَّاءِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ فِي صَدْرِي طُمَأْنِينَةُ هٰذَا الجَوَابِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَهْدِمُ كُلَّ مُسْتَحِيلٍ! أَتَأَمَّلُ الصَّخْرَةَ الصَّمَّاءَ فِي قَلْبِ الجَبَلِ القَاحِلِ كَيْفَ تَنْفَجِرُ فَجْأَةً بِأَمْرِ الخَالِقِ عَنْ عَيْنِ مَاءٍ عَذْبَةٍ تَتَدَفَّقُ بِالحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ فِي وَسَطِ الجَفَافِ دُونَ سَحَابٍ وَلَا مَطَرٍ. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فَيَهَبُ الغُلَامَ لِلشَّيْخِ الكَبِيرِ وَالمرْأَةِ العَاقِرِ لِيُظْهِرَ آيَاتِهِ لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ دَهْشَتِي أَمَامَ الصِّعَابِ مِنْ حَيْرَةٍ تُورِثُ التَّرَدُّدَ إِلَى تَسْلِيمٍ مُطْلَقٍ لِمَشِيئَةِ القَدِيرِ. فَكُلُّ عَجْزٍ تَفْرِضُهُ المادَّةُ مَآلُهُ التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٤١–٥٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 41 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

المَوْعِظَةُ

صَمْتُ اللِّسَانِ عَنْ كَلَامِ الأَنَامِ مَعَ انْطِلَاقِ الجَنَانِ بِذِكْرِ المَلِكِ العَلَّامِ يُجَسِّدُ أَرْقَى مَرَاتِبِ الشُّكْرِ عِنْدَ نُزُولِ البَشَائِرِ وَتَحَقُّقِ الآمَالِ. حِينَ طَلَبَ زَكَرِيَّا عَلَامَةً مَلْمُوسَةً تُؤْذِنُ بِبِدَايَةِ الوَعْدِ الإِلٰهِيِّ، جَعَلَ الخَالِقُ آيَتَهُ احْتِبَاسَ نُطْقِهِ عَنْ مُخَاطَبَةِ الخَلْقِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا إِشَارَةً وَرَمْزاً، مَعَ بَقَاءِ لِسَانِهِ رَطْباً طَلْقاً بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي العَشِيِّ وَالإِبْكَارِ؛ لِيَتَفَرَّغَ القَلْبُ فِي سَاعَةِ النِّعْمَةِ لِمُنَاجَاةِ المنْعِمِ دُونَ انْشِغَالٍ بِضَجِيجِ البَشَرِ. هٰذَا الأَدَبُ الرُّوحِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ بَطَرِ الفَرَحِ وَغَفْلَةِ الِاحْتِفَالِ

الأَجْوَفِ، وَيُعَلِّمُهُ أَنَّ صَمْتَ الخَلْوَةِ مَعَ التَّسْبِيحِ هُوَ أَوْفَى شُكْرٍ لِلْعَطَاءِ. فَمَنْ قَابَلَ نِعَمَ رَبِّهِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ دَامَتْ لَهُ المِنَّةُ وَزَادَ قُرْبُهُ، بَيْنَمَا يَنْقَطِعُ الغَافِلُ بِفَرْحَتِهِ عَنِ المُنْعِمِ فَيُحْرَمُ بَرَكَةَ الشُّكْرِ وَالمَزِيدِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ الصَّمْتِ وَتَسْبِيحُ الأَصِيلِ وَالبُكُورِ

صَدَى ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

سُكُونٌ مَهِيبٌ يُطْبِقُ عَلَى الشَّفَتَيْنِ عَنْ حَدِيثِ الخَلْقِ، وَنَبْضٌ دَافِقٌ يَنْطَلِقُ بِالذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ بَيْنَ العَشِيِّ وَالإِبْكَارِ شُكْراً لِمُجِيبِ الدُّعَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الشُّكْرَ يُقَاسُ بِضَجِيجِ الِاحْتِفَالِ أَوْ كَثْرَةِ الكَلَامِ مَعَ النَّاسِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الخَلْوَةَ الصَّامِتَةَ المَشْحُونَةَ بِالتَّسْبِيحِ هِيَ أَصْدَقُ عِرْفَانٍ بِالنِّعْمَةِ. وَكَمْ بَعْثَرْتُ قَدِيماً فَرْحَةَ الفَرَجِ فِي ثَرْثَرَةٍ تُفْقِدُ القَلْبَ حُضُورَهُ، حَتَّى أَلْهَمَتْنِي آيَةُ زَكَرِيَّا كَيْفَ أَصُومُ عَنْ كَلَامِ البَشَرِ لِأَتَفَرَّغَ لِمُنَاجَاةِ رَبِّ البَشَرِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الصَّافِيَ فِي جَوْفِ الجَبَلِ كَيْفَ يُغْلَقُ فَمُهُ عَنْ مَجَارِي التُّرَابِ وَالأَوْحَالِ فَيَتَجَمَّعُ مَاؤُهُ النَّقِيُّ فِي صَمْتٍ، ثُمَّ يَتَدَفَّقُ زُلَالاً عَذْباً نَحْوَ السَّمَاءِ فِي طُهْرٍ وَصَفَاءٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ لِنَبِيِّهِ حِينَ يَجْعَلُ صَمْتَهُ عَنِ النَّاسِ آيَةً لِلْوَعْدِ وَيَأْمُرُهُ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ عِنْدَ الغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ سَاعَاتُ النِّعْمَةِ فِي حَيَاتِي مِنْ انْشِغَالٍ بِالمَخْلُوقِينَ إِلَى خَلْوَةٍ نُورَانِيَّةٍ تَلْهَجُ بِحَمْدِ الخَالِقِ. فَكُلُّ فَرَحٍ يَخْلُو مِنَ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ مَآلُهُ الغَفْلَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِذِكْرِ اللهِ الَّذِي يَحْفَظُ النِّعَمَ وَيُبَارِكُهَا.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 42 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّكْرِيمُ السَّمَاوِيُّ لِلطُّهْرِ وَالعَفَافِ وَالِانْقِطَاعِ لِلْعِبَادَةِ يَرْفَعُ مَقَامَ الإِنْسَانِ فَوْقَ كُلِّ مَقَايِيسِ الأَرْضِ، فَيَجْعَلُهُ صَفْوَةً مُخْتَارَةً تَشْهَدُ لَهَا المَلَائِكَةُ بِالرِّفْعَةِ وَالنَّقَاءِ. نِدَاءُ المَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِالِاصْطِفَاءِ

الأَوَّلِ لِلْطَّاعَةِ وَالتَّطْهِيرِ مِنَ الأَدْرَانِ، ثُمَّ الِاصْطِفَاءِ الثَّانِي عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ لِتَكُونَ مَظْهَراً لِآيَةِ الخَلْقِ الكُبْرَى، يُبْرِزُ أَنَّ كَرَامَةَ المَرْأَةِ فِي الإِسْلَامِ تُنَالُ بِصَفَاءِ الرُّوحِ وَزَكَاةِ السُّلُوكِ. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ النَّظْرَةِ الدُّونِيَّةِ أَوِ المَادِّيَّةِ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّ التَّطَهُّرَ البَاطِنِيَّ وَالظَّاهِرِيَّ هُوَ شَرْطُ الِاحْتِيَارِ الإِلٰهِيِّ لِحَمْلِ الأَمَانَاتِ العُظْمَى. فَمَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ وَجَوَارِحَهُ لِرَبِّهِ اصْطَفَاهُ مَوْلَاهُ لِكَرَامَتِهِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ المَلَوَّثُ بِأَدْرَانِ الهَوَى عَنْ عَيْنِ الرِّعَايَةِ وَالِاجْتِبَاءِ.

الصَّدَى

تَاجُ الطُّهْرِ وَبُشْرَى الِاصْطِفَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أَجْنِحَةُ المَلَائِكَةِ تَحُفُّ مِحْرَابَ الطُّهْرِ، وَنِدَاءٌ نُورَانِيٌّ يُتَوِّجُ مَرْيَمَ بِتَاجِ الِاصْطِفَاءِ وَالنَّقَاءِ فَوْقَ نِسَاءِ العَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الخَلْوَةَ بِالطَّاعَةِ تَعْنِي النِّسْيَانَ وَالإِهْمَالَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ مَنْ طَهَّرَ سَرِيرَتَهُ لِلسَّمَاءِ ذَكَرَهُ المَلَأُ الأَعْلَى وَأَعْلَى مَقَامَهُ فِي الأَرْضِ. وَكَمْ بَحَثَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً عَنْ أَوْسِمَةِ الشَّرَفِ فِي مَجَالِسِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ، حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّ أَعْظَمَ شَرَفٍ هُوَ شَهَادَةُ المَلَائِكَةِ بِالطَّهَارَةِ وَالِاجْتِبَاءِ! أَتَأَمَّلُ زَهْرَةَ السَّوْسَنِ البَيْضَاءَ الَّتِي تَنْبُتُ فِي رُكْنٍ هَادِئٍ بَعِيداً عَنْ غُبَارِ الطُّرُقَاتِ، كَيْفَ يَحْفَظُهَا الخَالِقُ نَقِيَّةً نَاصِعَةً حَتَّى تَغْدُوَ رَمْزاً لِلْجَمَالِ وَالطُّهْرِ تَهْفُو إِلَيْهِ العُيُونُ وَالأَفْئِدَةُ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ الَّذِي يَصْطَفِي عِبَادَهُ الصَّادِقِينَ وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ لِيَجْعَلَهُمْ قُدْوَةً لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي مِنْ طَلَبٍ لِثَنَاءِ الخَلْقِ إِلَى حِرْصٍ دَائِمٍ عَلَى تَطْهِيرِ القَلْبِ لِيَسْتَحِقَّ نَظَرَ الرَّبِّ. فَكُلُّ رِفْعَةٍ تَخْلُو مِنَ الطَّهَارَةِ مَآلُهَا السُّقُوطُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِاصْطِفَاءِ اللهِ وَتَطْهِيرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 43 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُقَابَلَةُ النِّعَمِ العُظْمَى وَالِاصْطِفَاءِ الإِلٰهِيِّ بِمَزِيدٍ مِنَ القُنُوتِ وَالخُضُوعِ وَالِانْخِرَاطِ فِي صَفِّ العَابِدِينَ تَصُونُ القَلْبَ مِنَ الغُرُورِ وَالعُزْلَةِ. لَمْ يَكُنْ اصْطِفَاءُ مَرْيَمَ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ مَدْعَاةً لِتَرْكِ العَمَلِ أَوِ

التَّعَالِي عَلَى الخَلْقِ، بَلْ أَعْقَبَهُ الأَمْرُ المُبَاشِرُ بِإِطَالَةِ القُنُوتِ لِرَبِّهَا، وَالسُّجُودِ الخَاشِعِ لِجَلَالِهِ، وَالرُّكُوعِ مَعَ جَمَاعَةِ الرَّاكِعِينَ؛ لِيَجْتَمِعَ لَهَا صَفَاءُ الخَلْوَةِ وَبَرَكَةُ الجَمَاعَةِ. هٰذَا المِيزَانُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ الِاتِّكَالِ عَلَى المَنَاقِبِ دُونَ مُدَاوَمَةِ العِبَادَةِ. فَمَنْ زَادَ شُكْرُهُ وَسُجُودُهُ كُلَّمَا زَادَتْ نِعْمَةُ رَبِّهِ عَلَيْهِ رَسَخَتْ قَدَمُهُ فِي مَقَامِ القُرْبِ، بَيْنَمَا يَزِلُّ مَنِ اغْتَرَّ بِالكَرَامَةِ فَتَرَكَ القُنُوتَ وَفَارَقَ صَفَّ الرَّاكِعِينَ.

الصَّدَى

قُنُوتُ الشُّكْرِ وَمِحْرَابُ السُّجُودِ

صَدَى ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

جَبْهَةٌ تَهْوِي فِي مِحْرَابِ السُّجُودِ عِرْفَاناً بِالفَضْلِ، وَقَلْبٌ يَقْنُتُ لِرَبِّهِ فِي خُشُوعٍ دَائِمٍ وَيَرْكَعُ مَعَ جَمَاعَةِ العَابِدِينَ فِي تَوَاضُعٍ وَسَلَامٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الكَرَامَةَ تُغْنِي عَنْ مَشَقَّةِ العِبَادَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ أَعْلَى مَقَامَاتِ القُرْبِ هُوَ أَكْثَرُهَا سُجُوداً وَانْكِسَاراً بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ النِّعْمَةَ مَحَطَّةٌ لِلِاسْتِرَاحَةِ، حَتَّى عَلَّمَنِي نِدَاءُ السَّمَاءِ لِمَرْيَمَ أَنَّ الِاصْطِفَاءَ هُوَ البِدَايَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلْقُنُوتِ وَالسُّجُودِ! أَتَأَمَّلُ السُّنْبُلَةَ الممْتَلِئَةَ بِحَبَّاتِ القَمْحِ النَّاضِجَةِ فِي الحَقْلِ كَيْفَ تَزْدَادُ انْحِنَاءً وَتَوَاضُعاً نَحْوَ الأَرْضِ كُلَّمَا زَادَ خَيْرُهَا وَثِقَلُهَا، بَيْنَمَا تَنْتَصِبُ السُّنْبُلَةُ الفَارِغَةُ فِي شُمُوخٍ أَجْوَفَ تَعْبَثُ بِهِ الرِّيَاحُ. فَمَا أَعْظَمَ تَوْجِيهَ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ حِينَ يَأْمُرُهُمْ بِالقُنُوتِ وَالسُّجُودِ وَالرُّكُوعِ مَعَ الرَّاكِعِينَ لِتَبْقَى قُلُوبُهُمْ مَوْصُولَةً بِالأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مَعاً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي عِنْدَ نُزُولِ الفَضْلِ مِنْ فُتُورٍ يَرْكَنُ إِلَى العَطَاءِ إِلَى إِقْبَالٍ مُتَجَدِّدٍ يَزْدَادُ قُنُوتاً وَسُجُوداً. فَكُلُّ نِعْمَةٍ لَا تُثْمِرُ خُشُوعاً مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسُجُودٍ يُقَرِّبُ العَبْدَ مِنْ رَبِّهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 44 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

شَهَادَةُ الغَيْبِ الدَّقِيقَةِ عَلَى صِدْقِ النُّبُوَّةِ وَسُمُوِّ مَصْدَرِ القُرْآنِ تَهْدِمُ شُبُهَاتِ المكَذِّبِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الوَحْيَ أَسَاطِيرُ بَشَرِيَّةٌ. تَفْصِيلُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ التَّارِيخِيَّةِ الخَفِيَّةِ حِينَ تَنَافَسَ الأَحْبَارُ وَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ لِلِاقْتِرَاعِ عَلَى شَرَفِ كَفَالَةِ مَرْيَمَ وَاخْتَصَمُوا فِي ذٰلِكَ دُونَ أَنْ يَشْهَدَ النَّبِيُّ تِلْكَ الأَحْدَاثَ أَوْ يَقْرَأَهَا فِي كِتَابٍ، يُقِيمُ البُرْهَانَ القَاطِعَ عَلَى أَنَّ المتَكَلِّمَ هُوَ عَلَّامُ الغُيُوبِ. هٰذَا التَّذْكِيرُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الرَّيْبِ، وَيُبْرِزُ شَرَفَ التَّنَافُسِ فِي كَفَالَةِ الأَيْتَامِ وَالأَبْرَارِ. فَمَنْ صَدَّقَ بِأَنْبَاءِ الغَيْبِ وَسَارَعَ إِلَى كَفَالَةِ الخَيْرِ رَسَخَ يَقِينُهُ وَطَهُرَتْ نِيَّتُهُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المرْتَابُ أَسِيراً لِعِنَادِهِ رَغْمَ سُطُوعِ الأَدِلَّةِ.

الصَّدَى

أَقْلَامُ القُرْعَةِ وَبُرْهَانُ الغَيْبِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

مَشْهَدٌ تَارِيخِيٌّ يَطْوِي حُجُبَ الزَّمَانِ لِيَكْشِفَ عَنْ أَقْلَامٍ تُلْقَى فِي المَاءِ تَنَافُساً عَلَى كَفَالَةِ الطُّهْرِ، فَيَنْطِقُ بِهِ الوَحْيُ بُرْهَاناً سَاطِعاً عَلَى صِدْقِ النُّبُوَّةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ المَاضِيَ البَعِيدَ قَدْ طُمِسَتْ أَسْرَارُهُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كِتَابَ السَّمَاءِ هُوَ الشَّاهِدُ الأَمِينُ الَّذِي يَرْوِي دَقَائِقَ الغَيْبِ كَأَنَّهَا تُرَى رَأْيَ العَيْنِ. وَكَمْ أَدْهَشَتْنِي قَدِيماً دِقَّةُ التَّصْوِيرِ القُرْآنِيّ لِخَفَايَا التَّارِيخِ الَّتِي لَمْ تَشْهَدْهَا عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْهَا أُذُنٌ، حَتَّى رَسَخَ فِي قَلْبِي يَقِينُ عَظَمَةِ الوَحْيِ وَمَصْدَرِهِ! أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تُشْرِفُ مِنْ عَلْيَائِهَا عَلَى كُلِّ وِدْيَانِ الأَرْضِ وَجِبَالِهَا فِي آنٍ وَاحِدٍ، فَتَرَى حَرَكَةَ القَوَافِلِ فِي المشْرِقِ وَالمغْرِبِ دُونَ أَنْ يَحْجُبَهَا بُعْدُ المسَافَةِ أَوْ تَعَاقُبُ الأَزْمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ عِلْمَ اللهِ الَّذِي يُوحِي إِلَى رَسُولِهِ أَنْبَاءَ الغَيْبِ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ المؤْمِنِينَ وَيُقِيمَ الحُجَّةَ عَلَى المرْتَابِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِقَصَصِ القُرْآنِ مِنْ تَتَبُّعٍ لِلْأَحْدَاثِ إِلَى شُهُودٍ عَقْلِيٍّ يُعَظِّمُ عَلَّامَ الغُيُوبِ وَيَتَنَافَسُ فِي كَفَالَةِ الخَيْرِ. فَكُلُّ شُبْهَةٍ تُعَانِدُ بُرْهَانَ الغَيْبِ مَآلُهَا التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَحْيِ اللهِ الصَّادِقِ المبِينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 45 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَظَمَةُ الخَلْقِ بِالكَلِمَةِ الإِلٰهِيَّةِ وَتَشْرِيفُ المَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ بِالوَجَاهَةِ فِي الدَّارَيْنِ وَمَقَامِ القُرْبِ يُصَحِّحَانِ العَقَائِدَ المُنْحَرِفَةَ وَيُبْرِزَانِ قُدْرَةَ الخَالِقِ المُطْلَقَةِ. التَّبْشِيرُ المَلَائِكِيُّ لِمَرْيَمَ بِأَنَّ وَلَدَهَا مَخْلُوقٌ بِكَلِمَةِ «كُنْ» دُونَ أَبٍ يَهْدِمُ غُلُوَّ المؤَلِّهِينَ وَطَعْنَ المكَذِّبِينَ مَعاً؛ إِذْ نَسَبُهُ الوَحْيُ إِلَى أُمِّهِ مَرْيَمَ إِثْبَاتاً لِبَشَرِيَّتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِالوَجَاهَةِ وَالشَّرَفِ عِنْدَ الخَالِقِ وَالخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَبِكَوْنِهِ مِنَ المقَرَّبِينَ. هٰذَا المِيزَانُ العَقَدِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الخُرَافَةِ وَالجُحُودِ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ التَّوْحِيدِ وَعَظَّمَ رُسُلَ السَّمَاءِ دُونَ غُلُوٍّ نَالَ نَقَاءَ الإِيمَانِ وَوَجَاهَةَ التَّقْوَى، بَيْنَمَا يَضِلُّ الغَالِي وَالجَافِي فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى.

الصَّدَى

بُشْرَى الكَلِمَةِ وَوَجَاهَةُ المقَرَّبِينَ

صَدَى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

نُورٌ جَدِيدٌ يُشْرِقُ فِي مِحْرَابِ مَرْيَمَ بِبِشَارَةِ المَلَائِكَةِ، فَيُعْلِنُ عَنْ مِيلَادِ المَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَلِمَةً مِنَ الخَالِقِ وَوَجِيهاً فِي الدَّارَيْنِ مِنَ المقَرَّبِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الغُلُوِّ الَّذِي يَرْفَعُ المخْلُوقَ فَوْقَ مَقَامِ العُبُودِيَّةِ، وَوَهْمُ الجُحُودِ الَّذِي يَنْقُصُ قَدْرَ النُّبُوَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ التَّوْحِيدِ الصَّافِي. وَكَمْ تَاهَتِ العُقُولُ قَدِيماً بَيْنَ إِفْرَاطٍ يُؤَلِّهُ البَشَرَ وَتَفْرِيطٍ يَطْعَنُ فِي الطُّهْرِ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا البَيَانُ السَّمَاوِيُّ لِيَضَعَ كُلَّ حَقِيقَةٍ فِي مِيزَانِهَا العَادِلِ! أَتَأَمَّلُ النَّجْمَ السَّاطِعَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ يَتَلَأْلَأُ بِبَهَاءٍ وَوَجَاهَةٍ فَوْقَ الأَرْضِ، لٰكِنَّهُ يَظَلُّ مَخْلُوقاً خَاضِعاً لِأَمْرِ خَالِقِهِ الَّذِي أَبْدَعَ نُورَهُ وَرَفَعَ مَكَانَهُ فِي الفَلَكِ الأَعْلَى. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَصْطَفِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ وَيَمْنَحُهُ الوَجَاهَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَجْعَلُهُ مِنَ المقَرَّبِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى صَفَاءٍ نَقِيٍّ يُحِبُّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ وَيُفْرِدُ الخَالِقَ وَحْدَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ. فَكُلُّ غُلُوٍّ أَوْ جُحُودٍ مَآلُهُ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَتَوْحِيدِهِ الخَالِصِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 46 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

خَرْقُ النَّوَامِيسِ العَادِيَّةِ بِإِنْطَاقِ الرَّضِيعِ فِي المَهْدِ لِيَكُونَ بَرَاءَةً لِأُمِّهِ الطَّاهِرَةِ وَبُرْهَاناً عَلَى نُبُوَّتِهِ يَكْشِفُ أَنَّ الحِكْمَةَ وَالبَيَانَ هِبَةٌ سَمَاوِيَّةٌ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى تَقَدُّمِ السِّنِّ. كَلَامُ عِيسَى فِي مَهْدِ الطُّفُولَةِ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ كَكَلَامِهِ فِي مَرْحَلَةِ الكُهُولَةِ وَالنُّضْجِ، مَعَ تَنْوِيعِ سِيرَتِهِ بِانْتِسَابِهِ لِمَوْكِبِ الصَّالِحِينَ، يُؤَكِّدُ أَنَّ أَعْلَى مَرَاتِبِ الكَمَالِ الإِنْسَانِيِّ هِيَ الصَّلَاحُ الدَّائِمُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ بِتَبَدُّلِ الأَعْمَارِ. هٰذِهِ المُعْجِزَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ قُيُودِ الزَّمَنِ، وَتُبْرِزُ أَنَّ السَّمَاءَ تَدْفَعُ عَنْ أَوْلِيَائِهَا التُّهَمَ البَاطِلَةَ بِآيَاتٍ تُذْهِلُ العُقُولَ. فَمَنْ أَخْلَصَ صَلَاحَهُ لِرَبِّهِ أَجْرَى مَوْلَاهُ الحِكْمَةَ عَلَى لِسَانِهِ وَبَرَّأَ سَاحَتَهُ، بَيْنَمَا يَخْرَسُ المُفْتَرُونَ أَمَامَ سُطُوعِ البُرْهَانِ.

الصَّدَى

فَصَاحَةُ المَهْدِ وَمَوْكِبُ الصَّالِحِينَ

صَدَى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

مُعْجِزَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَنْطِقُ فِي مَهْدِ الطُّفُولَةِ بِفَصَاحَةِ الكُهُولَةِ، فَتُبَرِّئُ سَاحَةَ الطُّهْرِ وَتُعْلِنُ انْتِمَاءَ المَسِيحِ إِلَى مَوْكِبِ الصَّالِحِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ رَبْطِ الحِكْمَةِ وَالنُّورِ بِمُجَرَّدِ تَرَاكُمِ السِّنِينَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ الخَالِقَ يَهَبُ البَيَانَ وَالصَّلَاحَ لِمَنْ يَشَاءُ فِي أَيِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ الحَيَاةِ. وَكَمْ ظَنَنْتُ قَدِيماً أَنَّ الكَمَالَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَعْدَ طُولِ التَّجَارِبِ البَشَرِيَّةِ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يَنْطِقُ الرَّضِيعُ فِي المَهْدِ بِحُجَّةِ السَّمَاءِ الَّتِي تُسْكِتُ أَلْسِنَةَ المُفْتَرِينَ! أَتَأَمَّلُ النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَشُقُّ التُّرَابَ فِي أَوَّلِ الرَّبِيعِ كَيْفَ تَحْمِلُ فِي أَوْرَاقِهَا الغَضَّةِ نَفْسَ العِطْرِ وَالخَصَائِصِ الشَّافِيَةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا الشَّجَرَةُ الكَبِيرَةُ بَعْدَ عَشَرَاتِ السِّنِينَ. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ الَّتِي تُنْطِقُ عِيسَى فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَتَجْعَلُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ هُمْ صَفْوَةُ الخَلْقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمُوحَاتِي مِنْ تَعَلُّقٍ بِالمَنَاصِبِ وَالأَلْقَابِ إِلَى شَوْقٍ صَادِقٍ لِأَنْ أَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ مَرَاحِلِ عُمْرِي. فَكُلُّ مَجْدٍ يَخْلُو مِنَ الصَّلَاحِ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَلَاحٍ يَرْضَاهُ اللهُ وَيُبَارِكُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 47 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

المَوْعِظَةُ

قَانُونُ الإِيجَادِ الإِلٰهِيِّ بِالكَافِ وَالنُّونِ يَتَجَاوَزُ كُلَّ قَوَانِينِ الأَسْبَابِ البَشَرِيَّةِ، فَيُبْرِزُ أَنَّ الخَالِقَ لَا يَعْجِزُهُ إِبْدَاعُ الحَيَاةِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ كَمَا أَبْدَعَهَا مِنْ قَبْلُ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ. تَسَاؤُلُ مَرْيَمَ البَتُولِ عَنْ كَيْفِيَّةِ الوِلَادَةِ مَعَ كَمَالِ عِفَّتِهَا وَعَدَمِ مَسِيسِ البَشَرِ لَهَا يُجِيبُهُ الوَحْيُ بِقَاعِدَةِ الخَلْقِ المطْلَقَةِ: «كَذٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ»، فَأَمْرُهُ نَافِذٌ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ دُونَ مُعَانَاةٍ أَوْ تَوَقُّفٍ عَلَى وَسَائِطِ الطَّبِيعَةِ. هٰذَا اليَقِينُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الجُمُودِ المادِّيِّ، وَيَزْرَعُ فِي القَلْبِ طُمَأْنِينَةَ التَّسْلِيمِ لِقُدْرَةِ المُبْدِعِ. فَمَنْ أَيْقَنَ بِسُرْعَةِ نَفَاذِ أَمْرِ رَبِّهِ هَانَتْ فِي عَيْنِهِ كُلُّ الصِّعَابِ، بَيْنَمَا يَحْبِسُ المادِّيُّ عَقْلَهُ فِي سِجْنِ العَادَةِ فَيُنْكِرُ آيَاتِ القُدْرَةِ البَاهِرَةِ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الكَافِ وَالنُّونِ وَإِبْدَاعُ الخَلْقِ

صَدَى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَخْتَصِرُ مَسَافَاتِ الوُجُودِ بَيْنَ العَدَمِ وَالحَيَاةِ، فَتُعْلِنُ فِي مِحْرَابِ الطُّهْرِ أَنَّ الخَالِقَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ «كُنْ فَيَكُونُ». فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَقْيِيدِ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ بِأَسْبَابِ الأَرْضِ المأْلُوفَةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللهُ فَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ بِلَا عَنَاءٍ وَلَا تَأْخِيرٍ. وَكَمْ حَارَتْ بَصِيرَتِي قَدِيماً أَمَامَ الأَبْوَابِ الموصَدَةِ وَالطُّرُقِ المسْدُودَةِ، حَتَّى أَشْرَقَ فِي قَلْبِي نُورُ هٰذِهِ الحَقِيقَةِ الَّتِي تَهْدِمُ أَسْوَارَ المسْتَحِيلِ! أَتَأَمَّلُ الفَضَاءَ المظْلِمَ قَبْلَ انْبِلَاجِ الصُّبْحِ كَيْفَ يَبْدُو سَاكِناً لَا أَثَرَ فِيهِ لِلضِّيَاءِ، فَمَا إِنْ يَأْذَنَ الخَالِقُ لِلنُّورِ أَنْ يَكُونَ حَتَّى تَعْمُرَ الأَشِعَّةُ أَرْجَاءَ الكَوْنِ فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ دُونَ أَنْ يُعِينَهُ أَحَدٌ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُجْرِي قَضَاءَهُ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ لِيُظْهِرَ عَظَمَةَ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْأَمَانِي البَعِيدَةِ مِنْ يَأْسٍ يَنْظُرُ إِلَى ضَعْفِ الأَسْبَابِ

إِلَى يَقِينٍ يَلْجَأُ إِلَى مَنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ. فَكُلُّ سَبَبٍ بَشَرِيٍّ مَآلُهُ العَجْزُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقُدْرَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ النَّافِذِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 48 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَتْوِيجُ الرِّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ بِالعِلْمِ اللُّدُنِيِّ وَالحِكْمَةِ البَالِغَةِ وَالِاطِّلَاعِ الكَامِلِ عَلَى الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ يُبْرِزُ أَنَّ الهِدَايَةَ الحَقِيقِيَّةَ تَجْمَعُ بَيْنَ النَّصِّ المُنَزَّلِ وَالفَهْمِ الرَّاشِدِ. تَعْلِيمُ الخَالِقِ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الكِتَابَةَ وَالحِكْمَةَ الَّتِي تَضَعُ الأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَالتَّوْرَاةَ الَّتِي تَحْمِلُ الأَحْكَامَ، وَالإِنْجِيلَ الَّذِي يَبْعَثُ الرَّحْمَةَ وَالرُّوحَ، يُؤَكِّدُ تَكَامُلَ المَعْرِفَةِ الإِلٰهِيَّةِ فِي بِنَاءِ الإِنْسَانِ الصَّالِحِ. هٰذَا العَطَاءُ المَعْرِفِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الجَهْلِ وَالجُمُودِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ أَشْرَفَ المَوَاهِبِ هِيَ الَّتِي يُعَلِّمُهَا الرَّبُّ لِعِبَادِهِ. فَمَنْ طَلَبَ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ مِنْ مَصْدَرِهِمَا الأَعْلَى نَالَ نُورَ البَصِيرَةِ وَسَدَادَ القَوْلِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المَغْرُورُ بِمَعَارِفِهِ المَقْطُوعَةِ عَنِ الوَحْيِ فِي ظُلُمَاتِ الهَوَى.

الصَّدَى

تَعْلِيمُ السَّمَاءِ وَتَكَامُلُ الحِكْمَةِ

صَدَى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

نُورٌ مَعْرِفِيٌّ يَتَدَفَّقُ مِنَ المَلَإِ الأَعْلَى لِيُشْرِقَ فِي قَلْبِ المَسِيحِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ أَسْرَارِ الكِتَابِ وَبَصِيرَةِ الحِكْمَةِ وَشَرَائِعِ التَّوْرَاةِ وَرَحْمَةِ الإِنْجِيلِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الفَصْلِ بَيْنَ الحِفْظِ الظَّاهِرِ لِلنُّصُوصِ وَإِدْرَاكِ حِكْمَتِهَا العَمِيقَةِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ العِلْمَ الحَقَّ هُوَ الَّذِي يُورِثُ الحِكْمَةَ وَالرَّحْمَةَ مَعاً. وَكَمْ تَشَتَّتَ الفِكْرُ قَدِيماً بَيْنَ قُشُورِ المَعْلُومَاتِ الَّتِي لَا تُغْذِي الرُّوحَ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يُعَلِّمُ الخَالِقُ أَنْبِيَاءَهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ لِيُقِيمُوا المِيزَانَ العَادِلَ فِي الحَيَاةِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَظِيمَ الَّذِي تَلْتَقِي فِيهِ رَوَافِدُ عَذْبَةٌ مِنْ جِبَالٍ شَتَّى؛ رَافِدٌ يَحْمِلُ القُوَّةَ وَالنِّظَامَ، وَرَافِدٌ يَحْمِلُ الصَّفَاءَ وَالحَيَاةَ، فَيَتَكَوَّنُ مِنْ اجْتِمَاعِهِمَا نَهْرٌ مُبَارَكٌ يَرْوِي البِلَادَ وَالعِبَادَ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ الَّذِي يَهَبُ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ

الكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مَنَارَاتٍ تَهْدِي البَشَرِيَّةَ إِلَى صِرَاطِهِ المسْتَقِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رِحْلَتِي فِي المعْرِفَةِ مِنْ جَمْعٍ لِلْأَلْفَاظِ إِلَى طَلَبٍ لِلْحِكْمَةِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُصْلِحُ القَلْبَ وَالعَمَلَ. فَكُلُّ عِلْمٍ يَخْلُو مِنَ الحِكْمَةِ مَآلُهُ الجَفَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 49 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَأْيِيدُ الرُّسُلِ بِالمعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ المقْرُونَةِ بِـ«إِذْنِ اللهِ» يُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى المادِّيِّينَ وَيُثْبِتُ فِي آنٍ وَاحِدٍ أَنَّ القُدْرَةَ المطْلَقَةَ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ دُونَ شَرِيكٍ. تَكْرَارُ عِبَارَةِ «بِإِذْنِ اللهِ» عِنْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِي الطَّيْرِ الطِّينِيِّ، وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ المَوْتَى، وَالإِخْبَارِ بِالمغَيَّبَاتِ فِي البُيُوتِ، يَصُونُ التَّوْحِيدَ مِنَ الشِّرْكِ وَيُبْرِزُ أَنَّ النَّبِيَّ عَبْدٌ مَأْذُونٌ لَهُ يُجْرِي المَوْلَى عَلَى يَدَيْهِ الخَوَارِقَ لِتَلْيِينِ القُلُوبِ القَاسِيَةِ. هٰذِهِ الآيَاتُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الجُمُودِ أَمَامَ الأَسْبَابِ الطِّبِّيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ، وَتَدْعُوهُ لِلْإِيمَانِ الصَّادِقِ بَعْدَ قِيَامِ البُرْهَانِ. فَمَنِ اسْتَقْبَلَ آيَاتِ رَبِّهِ بِقَلْبٍ مُؤْمِنٍ انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِلْهُدَى، بَيْنَمَا يَعْمَى المعَانِدُ عَنِ النُّورِ وَلَوْ رَأَى المَوْتَى يَقُومُونَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ.

الصَّدَى

خَوَارِقُ الإِذْنِ الإِلٰهِيِّ وَسُطُوعُ الآيَاتِ

صَدَى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

طَيْرٌ مِنْ طِينٍ يَنْتَفِضُ بِالحَيَاةِ وَيُحَلِّقُ فِي الفَضَاءِ بِإِذْنِ الخَالِقِ، وَعُيُونٌ تُبْصِرُ النُّورَ وَمَوْتَى يَقُومُونَ بِأَمْرِ السَّمَاءِ لِتُقَامَ الحُجَّةُ عَلَى القُلُوبِ القَاسِيَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِقَوَانِينِ المادَّةِ

الصَّمَّاءِ أَوْ تَأْلِيهِ الوَسَائِطِ، وَأُبْصِرُ أَنَّ كُلَّ مُعْجِزَةٍ تَنْطِقُ بِـ«إِذْنِ اللَّهِ» لِتَرُدَّ الفَضْلَ وَالقُدْرَةَ إِلَى الوَاحِدِ الأَحَدِ. وَكَمْ تَحَجَّرَتْ عُقُولٌ قَدِيماً أَمَامَ البَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ لِأَنَّهَا أَغْلَقَتْ نَوَافِذَ الإِيمَانِ فِي صُدُورِهَا، حَتَّى كَشَفَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِالمُعْجِزَاتِ مَشْرُوطٌ بِصَفَاءِ القَلْبِ! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ المُنِيرَ الَّذِي يُوضَعُ فِي قَلْبِ الظُّلْمَةِ، كَيْفَ يَرَى نُورَهُ وَيَهْتَدِي بِضِيَائِهِ كُلُّ ذِي بَصَرٍ سَلِيمٍ، بَيْنَمَا يَظَلُّ مَنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عَنْ عَمْدٍ غَارِقاً فِي العَتْمَةِ يَتَعَثَّرُ فِي خُطَاهُ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُؤَيِّدُ رُسُلَهُ بِالآيَاتِ البَاهِرَاتِ بِإِذْنِهِ لِيُوقِظَ القُلُوبَ المُؤْمِنَةَ وَيُقِيمَ البُرْهَانَ عَلَى العَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْحَوَارِقِ وَالآيَاتِ مِنْ دَهْشَةٍ عَابِرَةٍ إِلَى تَعْظِيمٍ خَاشِعٍ لِقُدْرَةِ الخَالِقِ الَّذِي بِيَدِهِ الإِذْنُ وَالأَمْرُ. فَكُلُّ قُوَّةٍ مَخْلُوقَةٍ عَاجِزَةٌ بِلَا إِذْنِ السَّمَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِقُدْرَةِ اللهِ وَآيَاتِهِ البَيِّنَاتِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 50 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوَازُنُ التَّشْرِيعِيُّ بَيْنَ الثَّبَاتِ عَلَى أُصُولِ الوَحْيِ السَّابِقِ وَالتَّيْسِيرِ الرَّحِيمِ بِرَفْعِ بَعْضِ الآصَارِ وَالمحَرَّمَاتِ الَّتِي فُرِضَتْ عُقُوبَةً يُبْرِزُ مَرُونَةَ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَغَايَتَهَا الكُبْرَى فِي التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ. إِعْلَانُ المسِيحِ أَنَّهُ جَاءَ مُصَدِّقاً لِلتَّوْرَاةِ وَمُخَفِّفاً لِبَعْضِ التَّشْدِيدَاتِ الَّتِي أَرْهَقَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَعَ تَأْيِيدِهِ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ، يَدْعُو العُقُولَ إِلَى تَرْكِ الجُمُودِ وَالتَّعَصُّبِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِنِدَاءِ التَّقْوَى وَطَاعَةِ الرَّسُولِ. هٰذَا المَنْهَجُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ أَغْلَالِ التَّنَطُّعِ، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ كُلَّ تَيْسِيرٍ رَبَّانِيٍّ يَهْدِفُ إِلَى تَعْمِيقِ الخَشْيَةِ وَالِامْتِثَالِ. فَمَنْ قَبِلَ يُسْرَ الشَّرِيعَةِ وَاتَّقَى رَبَّهُ وَأَطَاعَ نَبِيَّهُ نَالَ الفَلَاحَ وَالرِّضَا، بَيْنَمَا يَشْقَى المتَعَنِّتُ الَّذِي يَرْفُضُ رَحْمَةَ التَّخْفِيفِ وَيُصِرُّ عَلَى الجُمُودِ وَالعِصْيَانِ.

الصَّدَى

يُسْرُ التَّخْفِيفِ وَنِدَاءُ التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ

صَدَى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ

مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

رَحْمَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تَفُكُّ بَعْضَ الأَغْلَالِ الثَّقِيلَةِ عَنِ النُّفُوسِ، فَتُصَدِّقُ أَصْلَ التَّوْرَاةِ وَتَفْتَحُ بَابَ التَّيْسِيرِ مَقْرُوناً بِوَصِيَّةِ التَّقْوَى وَالطَّاعَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ التَّشْدِيدَ وَالحِرْمَانَ هُمَا مِقْيَاسُ القُرْبِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تَرْفَعُ الآصَارَ عَنْ عِبَادِهَا لِتُعِينَهُمْ عَلَى التَّقْوَى وَالِامْتِثَالِ الصَّادِقِ. وَكَمْ تَمَسَّكَتْ عُقُولٌ قَدِيماً بِقُيُودٍ جَامِدَةٍ وَرَفَضَتْ رُخَصَ التَّيْسِيرِ كِبْراً وَعِنَاداً، فَضَيَّعَتْ رُوحَ الدِّينِ وَغَايَةَ الوَحْيِ! أَتَأَمَّلُ المِسَافِرَ المُثْقَلَ بِالأَحْمَالِ الحَدِيدِيَّةِ فِي الطَّرِيقِ الصَّاعِدِ نَحْوَ القِمَّةِ، كَيْفَ يَأْتِيهِ المُرْشِدُ الرَّحِيمُ فَيَضَعُ عَنْهُ بَعْضَ تِلْكَ الأَثْقَالِ لِيَخِفَّ سَيْرُهُ وَيَسْتَقِيمَ طَرِيقُهُ نَحْوَ الغَايَةِ المَنْشُودَةِ فِي أَمَانٍ وَسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ الَّذِي يُرْسِلُ رُسُلَهُ مُصَدِّقِينَ لِلْحَقِّ وَمُيَسِّرِينَ لِلْأَحْكَامِ لِيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى تَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اسْتِجَابَتِي لِلشَّرْعِ مِنْ تَكَلُّفٍ جَامِدٍ إِلَى طَاعَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ تَشْكُرُ التَّيْسِيرَ وَتَلْتَزِمُ التَّقْوَى. فَكُلُّ جُمُودٍ يَرْفُضُ رَحْمَةَ السَّمَاءِ مَآلُهُ الشَّقَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ الكِرَامِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٥١–٦٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 51 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

إِعْلَانُ العُبُودِيَّةِ الخَالِصَةِ لِلْخَالِقِ الوَاحِدِ وَالمُسَاوَاةُ البَشَرِيَّةُ أَمَامَ الرُّبُوبِيَّةِ الحَقَّةِ يَهْدِمَانِ كُلَّ أَصْنَامِ الغُلُوِّ وَالتَّأْلِيهِ، وَيَرْسُمَانِ مَعَالِمَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا تَبْدِيلَ. تَصْرِيحُ المَسِيحِ بِأَنَّ الخَالِقَ هُوَ رَبُّهُ وَرَبُّ الخَلْقِ جَمِيعاً يَقْطَعُ أَوْهَامَ المَغَالِينَ فِي حَقِّهِ، وَيَجْمَعُ النَّبِيَّ وَالأُمَّةَ فِي مِحْرَابِ الطَّاعَةِ وَالتَّذَلُّلِ لِلْمَلِكِ الجَلِيلِ؛ إِذْ لَا نَجَاةَ لِلْعُقُولِ مِنَ التِّيهِ وَالشِّرْكِ إِلَّا بِإِفْرَادِ الوَاحِدِ الأَحَدِ بِالعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ. فَمَنْ سَلَكَ هٰذَا الصِّرَاطَ القَوِيمَ وَوَحَّدَ مَوْلَاهُ نَالَ الهِدَايَةَ وَالفَلَاحَ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المُشْرِكُ المَغَالِي فِي ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ وَالجَحِيمِ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ التَّوْحِيدِ وَالصِّرَاطُ المسْتَقِيمُ

صَدَى ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

نِدَاءٌ صَافٍ كَنُورِ الفَجْرِ يُعْلِنُ عُبُودِيَّةَ الخَلْقِ جَمِيعاً لِرَبِّ العَالَمِينَ، فَيَمْحُو ضَبَابَ الغُلُوِّ وَيُشِيرُ إِلَى الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ الَّذِي يَقُودُ إِلَى الأَمَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّعَلُّقِ بِالْوَسَائِطِ أَوِ التَّقْدِيسِ الزَّائِفِ لِلْبَشَرِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي وَجَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ عِبَادٌ لِرَبٍّ وَاحِدٍ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَكَمْ تَشَعَّبَتْ بِالنَّاسِ قَدِيماً مَسَالِكُ الوَهْمِ وَالِابْتِدَاعِ حِينَ تَرَكُوا بَسَاطَةَ التَّوْحِيدِ وَوُضُوحَهُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الكَلِمَةُ الجَامِعَةُ لِتُرْشِدَ الحَائِرِينَ إِلَى الجَادَّةِ السَّوِيَّةِ! أَتَأَمَّلُ الطَّرِيقَ المسْتَقِيمَ المُمْتَدَّ بَيْنَ جَبَلَيْنِ شَاهِقَيْنِ نَحْوَ وَاحَةٍ خَضْرَاءَ، كَيْفَ يَسْلَمُ فِيهِ السَّائِرُ مِنَ التِّيهِ وَالمَهَاوِي مَا دَامَ مُلْتَزِماً وَسَطَهُ دُونَ أَنْ يَمِيلَ يَميناً أَوْ شِمَالاً. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي جَعَلَ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ هِيَ الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ الَّذِي يَجْمَعُ الأَنْبِيَاءَ وَالأَتْبَاعَ عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي مِنْ تَشَتُّتٍ بَيْنَ الأَفْكَارِ إِلَى اسْتِقَامَةٍ هَادِئَةٍ تُفْرِدُ الخَالِقَ بِالعُبُودِيَّةِ وَالخُضُوعِ. فَكُلُّ طَرِيقٍ يَحِيدُ عَنِ التَّوْحِيدِ مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 52 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اليَقَظَةُ الإِيمَانِيَّةُ عِنْدَ اسْتِشْعَارِ مَكْرِ المعَانِدِينَ وَاسْتِنْفَارُ القُلُوبِ الصَّادِقَةِ لِنُصْرَةِ دِينِ السَّمَاءِ يُبْرِزَانِ أَنَّ الحَقَّ يَحْتَاجُ إِلَى عَصَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ تَحْمِلُ لِوَاءَهُ وَتُدَافِعُ عَنْ بَقَائِهِ. حِينَ أَحَسَّ المسِيحُ تَصْمِيمَ الجَاحِدِينَ عَلَى الكُفْرِ وَالعُدْوَانِ، أَطْلَقَ نِدَاءَهُ الخَالِدَ: «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ»، فَبَادَرَ الحَوَارِيُّونَ الأَطْهَارُ بِالاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ مُعْلِنِينَ إِيمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ وَانْحِيَازَهُمُ الكَامِلَ لِصَفِّ الرِّسَالَةِ. هٰذَا المَوْقِفُ النَّبِيلُ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ السَّلْبِيَّةِ وَالتَّرَدُّدِ فِي سَاعَاتِ الحَسْمِ. فَمَنْ لَبَّى نِدَاءَ النُّصْرَةِ بِقَلْبٍ صَادِقٍ نَالَ شَرَفَ الحَوَارِيِّينَ وَثَنَاءَ القُرْآنِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المتَخَاذِلُ مَحْرُوماً مِنْ شَرَفِ الدِّفَاعِ عَنِ الحَقِّ وَالإِيمَانِ.

الصَّدَى

نِدَاءُ النُّصْرَةِ وَاسْتِجَابَةُ الحَوَارِيِّينَ

صَدَى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

صَيْحَةٌ نَبَوِيَّةٌ تَشُقُّ سُكُونَ الغَفْلَةِ عِنْدَ تَأَلُّبِ البَاطِلِ، فَتَسْتَجِيبُ لَهَا القُلُوبُ الصَّافِيَةُ بِشَجَاعَةٍ وَثَبَاتٍ مُعْلِنَةً أَنَّهَا أَنْصَارُ اللهِ وَجُنْدُ الإِسْلَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوُقُوفِ عَلَى الحِيَادِ عِنْدَمَا يُحَاصَرُ الحَقُّ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كَرَامَةَ الإِيمَانِ تَقْتَضِي الإِعْلَانَ الصَّرِيحَ عَنِ الِانْتِمَاءِ وَالنُّصْرَةِ. وَكَمْ تَرَدَّدَتْ أَقْدَامٌ قَدِيماً عِنْدَ سَمَاعِ نِدَاءِ التَّضْحِيَةِ حِينَ خَافَتْ سَطْوَةَ المُكَذِّبِينَ، حَتَّى أَلْهَمَنَا الحَوَارِيُّونَ كَيْفَ نَبِيعُ الخَوْفَ بِيَقِينِ الِاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ المُنِيرَ الَّذِي تُحَاصِرُهُ الرِّيَاحُ العَاتِيَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كَيْفَ تَتَقَدَّمُ أَيْدٍ أَمِينَةٌ لِتُحِيطَ بِهِ وَتُحْمِيَ شُعْلَتَهُ مِنَ الِانْطِفَاءِ حَتَّى يَبْقَى ضِيَاؤُهُ هَادِياً لِلسَّائِرِينَ فِي الظَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ القُلُوبِ الَّتِي تُجِيبُ نِدَاءَ النُّبُوَّةِ بِـ«نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» وَتَشْهَدُ بِإِسْلَامِهَا لِرَبِّ العَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي مِنْ تَصْدِيقٍ صَامِتٍ إِلَى نُصْرَةٍ فَاعِلَةٍ تَقِفُ فِي صَفِّ الرِّسَالَةِ بِثَبَاتٍ وَإِخْلَاصٍ. فَكُلُّ تَخَاذُلٍ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ مَآلُهُ الخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِأَنْصَارِ اللهِ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 53 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّوَسُّلُ إِلَى الخَالِقِ بِاجْتِمَاعِ الإِيمَانِ بِالوَحْيِ المُنَزَّلِ وَالِاتِّبَاعِ العَمَلِيِّ لِلرَّسُولِ يُؤَهِّلُ العَبْدَ لِنَيْلِ أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّزْكِيَةِ وَهِيَ الكِتَابَةُ فِي سِجِلِّ الشَّاهِدِينَ عَلَى الحَقِّ. الحَوَارِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِإِعْلَانِ النُّصْرَةِ أَمَامَ نَبِيِّهِمْ، بَلْ تَوَجَّهُوا بِقُلُوبِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُثْبِتَ أَسْمَاءَهُمْ مَعَ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ الشَّاهِدَةِ بِالعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ يَوْمَ القِيَامَةِ. هٰذَا الأَدَبُ الرُّوحِيُّ يَرْبِطُ بَيْنَ العَمَلِ المَيْدَانِيِّ وَالِابْتِهَالِ القَلْبِيِّ،

وَيُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ العُجْبِ بِالطَّاعَةِ. فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالِاتِّبَاعِ وَسَأَلَ مَوْلَاهُ شَرَفَ الشَّهَادَةِ كُتِبَ فِي دِيوَانِ الأَبْرَارِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الكِتَابِ وَالرَّسُولِ مِنْ سِجِلِّ الفَائِزِينَ.

الصَّدَى

سِجِلُّ الشَّاهِدِينَ وَمِيثَاقُ الِاتِّبَاعِ

صَدَى ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

دَعْوَةٌ خَاشِعَةٌ تَصْعَدُ مِنْ قُلُوبِ الحَوَارِيِّينَ إِلَى المَلَأِ الأَعْلَى، تَتَوَسَّلُ بِالإِيمَانِ وَالِاتِّبَاعِ لِتُكْتَبَ أَسْمَاؤُهُمْ فِي صَحِيفَةِ الشَّاهِدِينَ عَلَى الحَقِّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِالمَوَاقِفِ الظَّاهِرَةِ دُونَ رَفْعِهَا بِالدُّعَاءِ إِلَى السَّمَاءِ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَعْظَمَ وِسَامٍ يَرْجُوهُ المُؤْمِنُ هُوَ أَنْ يَكْتُبَهُ الخَالِقُ مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَكَمْ سَعَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً لِتَخْلِيدِ أَسْمَائِهَا فِي سِجِلَّاتِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ، حَتَّى عَلَّمَنَا الحَوَارِيُّونَ أَنَّ الخُلُودَ الحَقِيقِيَّ هُوَ الكِتَابَةُ فِي دِيوَانِ السَّمَاءِ! أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المُضِيئَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ الصَّافِيَةِ كَيْفَ تَشْهَدُ بِبَرِيقِهَا وَثَبَاتِهَا عَلَى عَظَمَةِ الخَالِقِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ طِيلَةَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ، فَتَبْقَى مَرْصُودَةً فِي أَفْلَاكِهَا بِعِنَايَةِ السَّمَاءِ وَتَقْدِيرِهَا. فَمَا أَعْظَمَ طُمُوحَ القُلُوبِ الصَّادِقَةِ حِينَ تَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكْتُبَهَا مَعَ الشَّاهِدِينَ بَعْدَ أَنْ آمَنَتْ بِمَا أَنْزَلَ وَاتَّبَعَتِ الرَّسُولَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَعْمَالِي مِنْ جُهُودٍ تَبْحَثُ عَنِ الذِّكْرِ بَيْنَ الخَلْقِ إِلَى طَاعَةٍ خَالِصَةٍ تَرْجُو القَبُولَ عِنْدَ الرَّبِّ. فَكُلُّ سِجِلٍّ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ الطَّيُّ وَالنِّسْيَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسِجِلِّ اللهِ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ الشَّاهِدِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 54 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

إِحَاطَةُ التَّدْبِيرِ الإِلٰهِيِّ بِمُؤَامَرَاتِ البَاطِلِ وَرَدُّ كَيْدِ الماكِرِينَ إِلَى نُحُورِهِمْ يَمْلَآنِ قَلْبَ المؤْمِنِ بِالثِّقَةِ وَالثَّبَاتِ فِي أَحْلَكِ سَاعَاتِ التَّآمُرِ وَالخِدَاعِ. حِينَ دَبَّرَ أَعْدَاءُ المسِيحِ مَكْرَهُمُ الخَفِيَّ لِقَتْلِهِ وَإِطْفَاءِ نُورِهِ، قَابَلَ الخَالِقُ مَكْرَهُمْ بِتَدْبِيرٍ أَحْكَمَ وَأَدَقَّ؛ فَأَنْجَى نَبِيَّهُ وَأَلْقَى الشَّبَهَ عَلَى الخَائِنِ لِيَقَعَ فِي الفَخِّ الَّذِي نَصَبَهُ، مُثْبِتاً أَنَّهُ خَيْرُ الماكِرِينَ وَأَقْدَرُ المدَبِّرِينَ. هٰذِهِ السُّنَّةُ الكَوْنِيَّةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ رُعْبِ

المؤَامَرَاتِ السِّرِّيَّةِ. فَمَنِ اعْتَصَمَ بِتَدْبِيرِ رَبِّهِ نَجَا مِنْ كَيْدِ الأَعْدَاءِ، بَيْنَمَا يَنْقَلِبُ مَكْرُ السَّيِّئِ عَلَى أَهْلِهِ فَيُهْلِكُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

الصَّدَى

خُيُوطُ المكْرِ وَإِحْكَامُ التَّدْبِيرِ

صَدَى ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

شِبَاكٌ خَفِيَّةٌ يَنْسِجُهَا الظَّالِمُونَ فِي الظَّلَامِ لِإِيقَاعِ أَهْلِ الحَقِّ، فَتَتَدَخَّلُ يَدُ القُدْرَةِ لِتَقْلِبَ السِّحْرَ عَلَى السَّاحِرِ وَتُعْلِنَ أَنَّ الخَالِقَ خَيْرُ الماكِرِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الخَوْفِ مِنْ مَكْرِ البَشَرِ وَدَهَاءِ المُتَآمِرِينَ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ تَدْبِيرَ السَّمَاءِ فَوْقَ كُلِّ تَدْبِيرٍ وَأَنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. وَكَمْ أَرَّقَتْ نَفْسِي قَدِيماً خُطَطُ الخُصُومِ وَحِيَلُهُمُ الماكِرَةُ، حَتَّى أَبْصَرْتُ كَيْفَ يَنْهَارُ كَيْدُ البَشَرِ أَمَامَ حِكْمَةِ مَنْ يُحِيطُ بِالبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ! أَتَأَمَّلُ العَنْكَبُوتَ الَّتِي تَنْسِجُ بَيْتَهَا الخَفِيَّ فِي زَاوِيَةِ الغُرْفَةِ ظَنّاً مِنْهَا أَنَّهَا أَحْكَمَتِ المِصْيَدَةَ، فَتَهُبُّ نَسْمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ لِتَقْتَلِعَ خُيُوطَهَا الوَاهِيَةَ وَتَكْشِفَ ضَعْفَهَا فِي لَحْظَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ خَيْرِ الماكِرِينَ الَّذِي يَحْفَظُ أَنْبِيَاءَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَيَرُدُّ كَيْدَ الخَائِنِينَ إِلَى صُدُورِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنْ قَلَقٍ يَحْسِبُ خُطُوَاتِ العَدُوِّ إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ بِتَدْبِيرِ الخَالِقِ الحَكِيمِ. فَكُلُّ مَكْرٍ يُحَاكُ ضِدَّ الحَقِّ مَآلُهُ البَوَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَدْبِيرِ اللهِ خَيْرِ الماكِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 55 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

كَرَامَةُ الرَّفْعِ الإِلٰهِيِّ وَالتَّطْهِيرِ مِنْ أَدْرَانِ المكَذِّبِينَ، مَعَ بَقَاءِ العُلُوِّ الحُجِّيِّ وَالرُّوحِيِّ لِأَتْبَاعِ الحَقِّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، تُبْرِزُ أَنَّ السَّمَاءَ تَصُونُ أَنْبِيَاءَهَا مِنَ الإِهَانَةِ وَتَحْفَظُ رِسَالَتَهُمْ مِنَ الِانْدِثَارِ. بُشْرَى الخَالِقِ لِعِيسَى بِاسْتِيفَاءِ أَجَلِهِ وَرَفْعِهِ إِلَى مَقَامِ الكَرَامَةِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ جِوَارِ الكَافِرِينَ، ثُمَّ جَعْلِ أَتْبَاعِهِ

الصَّادِقِينَ فَوْقَ الجَاحِدِينَ بِالحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ حَتَّى السَّاعَةِ، تَضَعُ حَدّاً لِكُلِّ شَكٍّ فِي نُصْرَةِ السَّمَاءِ، وَتُرْجِئُ الفَصْلَ النِّهَائِيَّ فِي الخِلَافَاتِ الدِّينِيَّةِ إِلَى مَحْكَمَةِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ يَوْمَ المَرْجِعِ. فَمَنِ اتَّبَعَ نُورَ النُّبُوَّةِ بِصِدْقٍ نَالَ الرِّفْعَةَ وَالطَّهَارَةَ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ المُتَنَازِعُونَ بِالبَاطِلِ عِنْدَمَا يَحْكُمُ الدَّيَّانُ بَيْنَ العِبَادِ.

الصَّدَى

رِفْعَةُ الطُّهْرِ وَمَحْكَمَةُ المَرْجِعِ

صَدَى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِعْرَاجٌ نُورَانِيٌّ يَرْفَعُ المَسِيحَ إِلَى جِوَارِ السَّمَاءِ مُطَهَّراً مِنْ أَذَى الجَاحِدِينَ، وَوَعْدٌ خَالِدٌ يَجْعَلُ أَتْبَاعَ الحَقِّ فَوْقَ البَاطِلِ حَتَّى يَوْمِ الدِّينِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الطُّغَاةَ يَمْلِكُونَ النِّهَايَةَ لِقِصَّةِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُصْلِحِينَ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ الرَّفْعَ وَالتَّطْهِيرَ وَالحُكْمَ الأَخِيرَ بِيَدِ مَالِكِ المُلْكِ. وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ قَدِيماً فِي تَشَابُكِ الخِلَافَاتِ وَتَعَدُّدِ الدَّعَاوَى حَوْلَ الرِّسَالَاتِ، حَتَّى أَرَاحَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ المَرْجِعَ إِلَى الخَالِقِ لِيَفْصِلَ بِعَدْلِهِ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ البَشَرُ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ النَّقِيَّةَ الَّتِي تَرْتَفِعُ مِنْ فَوْقِ أَوْحَالِ الأَرْضِ نَحْوَ طَبَقَاتِ السَّمَاءِ العُلْيَا، فَتَتَطَهَّرُ مِنْ كُلِّ كَدَرٍ وَتَظَلُّ مُحَلِّقَةً فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ فَوْقَ الغُبَارِ وَالظِّلَالِ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ لِنَبِيِّهِ عِيسَى حِينَ يَرْفَعُهُ إِلَيْهِ وَيُطَهِّرُهُ وَيَجْعَلُ أَتْبَاعَهُ الصَّادِقِينَ فِي عُلُوٍّ دَائِمٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ بَصِيرَتِي مِنْ انْشِغَالٍ بِجَدَلِ المُخْتَلِفِينَ إِلَى ثَبَاتٍ عَلَى أَصْلِ التَّوْحِيدِ انْتِظَاراً لِحُكْمِ العَدْلِ. فَكُلُّ خِلَافٍ يَصْنَعُهُ الهَوَى مَآلُهُ الفَصْلُ العَادِلُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالحُكْمُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 56 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

شُمُولُ العُقُوبَةِ الإِلٰهِيَّةِ لِلْجَاحِدِينَ فِي الدَّارَيْنِ يُثْبِتُ أَنَّ الكُفْرَ بِالحَقِّ يُورِثُ الشَّقَاءَ وَالقَلَقَ وَالخِزْيَ فِي العَاجِلَةِ قَبْلَ العَذَابِ الأَبَدِيِّ فِي الآجِلَةِ. بَيَانُ مَصِيرِ المُكَذِّبِينَ لِعِيسَى وَلِسَائِرِ الرُّسُلِ يَكْشِفُ أَنَّ

نَعِيمَهُمُ الدُّنْيَوِيَّ الظَّاهِرَ لَيْسَ إِلَّا عِطَاءً لِعَذَابٍ دَاخِلِيٍّ مِنَ الحَيْرَةِ وَالخَوْفِ وَالنَّكَبَاتِ، ثُمَّ يَصِلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى العَذَابِ الشَّدِيدِ دُونَ أَنْ يَجِدُوا نَصِيراً يُدَافِعُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الحِسَابِ. هٰذَا الحُكْمُ الصَّارِمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الاِغْتِرَارِ بِرَفَاهِيَةِ الكَافِرِينَ. فَمَنْ آمَنَ وَاسْتَقَامَ سَلِمَ مِنْ شَقَاءِ الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ الجَاحِدُ عَذَابَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَقِفُ وَحِيداً بِلَا نَاصِرِينَ.

الصَّدَى

شَقَاءُ الدَّارَيْنِ وَعُزْلَةُ الجَاحِدِينَ

صَدَى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ عَاصِفَةٌ لَا تَهْدَأُ تُلَاحِقُ القُلُوبَ الجَاحِدَةَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّقَاءِ وَالخِزْيِ، ثُمَّ تَسُوقُهَا فِي الآخِرَةِ إِلَى عَذَابٍ شَدِيدٍ لَا نَاصِرَ فِيهِ وَلَا شَفِيعَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الكُفْرَ يَمْنَحُ أَصْحَابَهُ رَاحَةَ البَالِ أَوْ نَجَاةَ الدُّنْيَا، وَأُدْرِكُ أَنَّ البُعْدَ عَنِ الخَالِقِ هُوَ الجَحِيمُ المُعَجَّلُ قَبْلَ الجَحِيمِ المُؤَجَّلِ. وَكَمْ ظَنَّ النَّاظِرُ قَدِيماً أَنَّ ضَحِكَاتِ المُعْرِضِينَ دَلِيلٌ عَلَى سَعَادَتِهِمْ، حَتَّى كَشَفَ الوَحْيُ عَنْ عَذَابِهِمُ الشَّدِيدِ فِي الدَّارَيْنِ وَعُزْلَتِهِمُ التَّامَّةِ عَنْ كُلِّ نَصِيرٍ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ الَّتِي قُطِعَتْ جُذُورُهَا عَنْ مَجْرَى المَاءِ العَذْبِ، كَيْفَ تَبْدُو أَوْرَاقُهَا خَضْرَاءَ لِأَيَّامٍ قَلَائِلَ ثُمَّ يَسْرِي فِيهَا الجَفَافُ وَالتَّشَقُّقُ فِي صَمْتٍ حَتَّى تَتَحَوَّلَ إِلَى حَطَبٍ يَابِسٍ تَلْتَهِمُهُ النِّيرَانُ دُونَ أَنْ يُغِيثَهَا أَحَدٌ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُعَذِّبُ الكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَتْرُكُهُمْ بِلَا نَاصِرِينَ لِجُحُودِهِمْ وَعِنَادِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِأَحْوَالِ المُعْرِضِينَ مِنَ انْخِدَاعٍ بِالمَظَاهِرِ إِلَى شَفَقَةٍ وَيَقَظَةٍ تَحْمِي قَلْبِي مِنْ مَصِيرِهِمْ. فَكُلُّ جُحُودٍ لِآيَاتِ السَّمَاءِ مَآلُهُ العَذَابُ وَالخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَعَدْلِهِ القَائِمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 57 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاقْتِرَانُ الوَثِيقُ بَيْنَ صِدْقِ الإِيمَانِ وَصَلَاحِ العَمَلِ يَضْمَنُ لِلْعَبْدِ اسْتِيفَاءَ أَجْرِهِ كَامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ خَزَائِنِ الكَرِيمِ الَّذِي لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ. هٰذِهِ البِشَارَةُ المُقَابِلَةُ لِعَذَابِ الجَاحِدِينَ تُرَسِّخُ

قَانُونَ العَدَالَةِ الإِلٰهِيَّةِ؛ فَكَمَا لَا يُفْلِتُ المسِيءُ مِنْ جَزَائِهِ، لَا يُبْخَسُ المؤْمِنُ العَامِلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ ثَوَابِهِ، مَعَ التَّذْكِيرِ الحَاسِمِ بِأَنَّ الخَالِقَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَبْخَسُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ أَوْ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ وَالعِصْيَانِ. هٰذَا التَّوَازُنُ يُحَرِّرُ القَلْبَ مِنَ القَلَقِ عَلَى ثَمَرَةِ السَّعْيِ. فَمَنْ آمَنَ وَأَحْسَنَ العَمَلَ وَاجْتَنَبَ الظُّلْمَ نَالَ مَحَبَّةَ السَّمَاءِ وَتَوْفِيَةَ الأَجْرِ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ الظَّالِمُ نَفْسَهُ مِنْ وِدِّ الرَّحْمٰنِ وَرِضَاهُ.

الصَّدَى

تَوْفِيَةُ الأُجُورِ وَبُغْضُ الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

مِيزَانٌ ذَهَبِيٌّ يَزِنُ الإِيمَانَ وَالعَمَلَ الصَّالِحَ بِالدِّقَّةِ وَالوَفَاءِ، فَيُعْطِي المحْسِنِينَ أُجُورَهُمْ كَامِلَةً وَيُعْلِنُ بُغْضَ السَّمَاءِ لِكُلِّ ظَالِمٍ بَاغٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ السَّعْيَ الصَّادِقَ قَدْ يَضِيعُ فِي زِحَامِ الحَيَاةِ وَظُلْمِ البَشَرِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ المِلكَ الكَرِيمَ يَتَوَلَّى تَوْفِيَةَ الأُجُورِ بِنَفْسِهِ. وَكَمْ انْكَسَرَتْ خَوَاطِرُ العَامِلِينَ قَدِيماً حِينَ بَخَسَهُمُ النَّاسُ حُقُوقَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ الَّتِي تَضْمَنُ الوَفَاءَ الكَامِلَ وَتَرْفُضُ الظُّلْمَ بِكُلِّ صُوَرِهِ! أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ الكَرِيمَةَ الَّتِي يَزْرَعُهَا الفَلَّاحُ بِعَرَقِهِ وَإِخْلَاصِهِ، كَيْفَ تَحْفَظُ كُلَّ بَذْرَةٍ أُودِعَتْ فِيهَا ثُمَّ تَرُدُّهَا لَهُ مَحْصُولاً وَافِراً لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ، بَيْنَمَا تَلْفِظُ الصُّخُورُ القَاسِيَةُ كُلَّ مَا يُلْقَى عَلَيْهَا بِلَا ثَمَرٍ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُوَفِّي المؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ أُجُورَهُمْ وَيُعْلِنُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ فِي أَرْضِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي فِي العَمَلِ مِنْ طَلَبٍ لِلتَّقْدِيرِ العَاجِلِ إِلَى إِتْقَانٍ مُسْتَمِرٍّ يَنْتَظِرُ التَّوْفِيَةَ مِنَ الكَرِيمِ وَيَبْتَعِدُ عَنْ كُلِّ ظُلْمٍ. فَكُلُّ ظُلْمٍ مَآلُهُ البُغْضُ وَالزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ وَثَوَابِهِ الَّذِي يُوَفِّيهِ لِلصَّالِحِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 58 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

تَوْثِيقُ القَصَصِ القُرْآنِيّ بِصِفَةِ «الذِّكْرِ الحَكِيمِ» يَرْفَعُهُ فَوْقَ السَّرْدِ التَّارِيخِيّ المجَرَّدِ، لِيَجْعَلَهُ مَنْهَجاً تَرْبَوِيّاً وَقَانُوناً مُحْكَماً يَهْدِي البَشَرِيَّةَ في كُلّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. تِلَاوَةُ أَخْبَارِ المسِيحِ وَالحَوَارِيّينَ وَمَكْرِ المكَذّبِينَ عَلَى النَّبِيّ الخَاتَمِ تُؤَكِّدُ أَنَّ هٰذَا الكِتَابَ هُوَ المرْجِعُ الحَكِيمُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الحَقّ وَالبَاطِلِ، وَيُذَكِّرُ الغَافِلِينَ بِحَقَائِقِ التَّوْحِيدِ وَالعَدْلِ بِأُسْلُوبٍ بَالِغِ الحِكْمَةِ وَالإِتْقَانِ. هٰذَا التَّعْظِيمُ لِلْوَحْيِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّشَتُّتِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ البَشَرِيَّةِ المتَنَاقِضَةِ. فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى الذِّكْرِ الحَكِيمِ تَدَبُّراً وَعَمَلاً اهْتَدَى إِلَى الحَقِيقَةِ الصَّافِيَةِ، بَيْنَمَا يَضِلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ في ظُلُمَاتِ الظَّنّ وَالهَوَى.

الصَّدَى

تِلَاوَةُ الآيَاتِ وَنُورُ الذِّكْرِ الحَكِيمِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾

نَغَمٌ سَمَاوِيٌّ يَتْلُو الحَقَائِقَ النَّاصِعَةَ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ، فَيُزِيلُ رُكَامَ التَّحْرِيفِ عَنْ تَارِيخِ النُّبُوَّةِ وَيُقَدِّمُ لِلْعُقُولِ ذِكْراً حَكِيماً لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الحَيْرَةِ أَمَامَ اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ البَشَرِيَّةِ حَوْلَ سِيرَةِ المسِيحِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ القُرْآنَ هُوَ القَوْلُ الفَصْلُ وَالذِّكْرُ الحَكِيمُ. وَكَمْ تَاهَتِ الأَفْهَامُ قَدِيماً في أَوْدِيَةِ الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ تِلَاوَةُ الوَحْيِ لِتَضَعَ النِّقَاطَ عَلَى الحُرُوفِ وَتُعِيدَ لِلْقَلْبِ طُمَأْنِينَةَ اليَقِينِ! أَتَأَمَّلُ الميزَانَ الذَّهَبِيَّ الدَّقِيقَ الَّذِي وُضِعَ في يَدِ الصَّائِغِ الخَبِيرِ، كَيْفَ يَفْصِلُ بَيْنَ الذَّهَبِ الخَالِصِ وَالشَّوَائِبِ المغْشُوشَةِ بِحِكْمَةٍ وَثَبَاتٍ لَا يَقْبَلُ الجَدَلَ أَوِ الشَّكَّ. فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ اللهِ الَّذِي يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِهِ مِنَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ لِيُبَصِّرَنَا بِالحَقّ وَيَعْصِمَ عُقُولَنَا مِنَ الزَّلَلِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْقُرْآنِ مِنْ سَمَاعٍ عَابِرٍ إِلَى اسْتِنَارَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَرَى في كُلّ آيَةٍ حِكْمَةً تُنِيرُ الحَيَاةَ. فَكُلُّ كَلَامٍ بَشَرِيٍّ قَدْ يَعْتَرِيهِ النَّقْصُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِذِكْرِ اللهِ الحَكِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 59 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

المَوْعِظَةُ

المقَارَنَةُ العَقْلِيَّةُ الدَّامِغَةُ بَيْنَ خَلْقِ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَخَلْقِ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ تَهْدِمُ حُجَّةَ المؤَلِّهِينَ لِلْمَسِيحِ مِنْ أَسَاسِهَا وَتُقِيمُ البُرْهَانَ السَّاطِعَ عَلَى بَشَرِيَّتِهِ. فَإِذَا كَانَتْ وِلَادَةُ عِيسَى بِدُونِ أَبٍ تَدْعُو العُقُولَ القَاصِرَةَ إِلَى ادِّعَاءِ الأُلُوهِيَّةِ لَهُ، فَإِنَّ خَلْقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ بِدُونِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ بِكَلِمَةِ «كُنْ فَيَكُونُ» أَعْجَبُ فِي مَقَايِيسِ البَشَرِ وَمَعَ ذٰلِكَ أَجْمَعَ الجَمِيعُ عَلَى عُبُودِيَّةِ آدَمَ وَبَشَرِيَّتِهِ. هٰذَا القِيَاسُ البُرْهَانِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الخُرَافَةِ وَالتَّنَاقُضِ الفِكْرِيِّ. فَمَنْ أَعْمَلَ عَقْلَهُ وَقَبِلَ بُرْهَانَ السَّمَاءِ رَسَخَ تَوْحِيدُهُ وَصَفَتْ عَقِيدَتُهُ، بَيْنَمَا يَبْقَى المعَانِدُ غَارِقاً فِي تَنَاقُضِ أَوْهَامِهِ رَغْمَ وُضُوحِ المِثَالِ.

الصَّدَى

قِيَاسُ الخَلْقِ وَبُرْهَانُ التُّرَابِ

صَدَى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ نَاصِعَةٌ تَهْدِمُ صُرُوحَ الغُلُوِّ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَقْرِنُ خَلْقَ عِيسَى بِخَلْقِ آدَمَ الَّذِي أُبْدِعَ مِنْ تُرَابٍ بِكَلِمَةِ «كُنْ فَيَكُونُ». فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِخَوَارِقِ الخَلْقِ لِتَأْلِيهِ المخْلُوقِينَ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنَ التُّرَابِ إِلَى الأَنْبِيَاءِ هُوَ أَثَرٌ لِأَمْرِ الكَافِ وَالنُّونِ. وَكَمْ تَحَيَّرَتْ عُقُولٌ قَدِيماً أَمَامَ مِيلَادِ المسِيحِ فَنَسِيَتْ مِيلَادَ أَبِيهِمْ آدَمَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ وَلَا أُمٌّ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا المثَلُ القُرْآنِيُّ لِيُوقِظَ الفِطْرَةَ وَيُفْحِمَ المجَادِلِينَ! أَتَأَمَّلُ صَانِعَ الفَخَّارِ المَاهِرَ الَّذِي يَصْنَعُ إِنَاءً بَدِيعاً مِنْ طِينِ الأَرْضِ بِدُونِ قَالَبٍ سَابِقٍ، ثُمَّ يَصْنَعُ إِنَاءً آخَرَ بِقَالَبٍ وَاحِدٍ، فَكِلَاهُمَا مَصْنُوعٌ خَاضِعٌ لِقُدْرَةِ الصَّانِعِ وَلَا يَمْلِكُ أَحَدُهُمَا صِفَةَ الخَالِقِ. فَمَا أَعْظَمَ بَيَانَ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَهُ كَمَثَلِ آدَمَ لِيَرُدَّ البَشَرِيَّةَ كُلَّهَا إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى بُنْيَانٍ عَقْلِيٍّ رَاسِخٍ لَا تَهُزُّهُ شُبُهَاتُ المغَالِينَ وَلَا تَأْوِيلَاتُ الجَاهِلِينَ. فَكُلُّ مَخْلُوقٍ مَآلُهُ العُبُودِيَّةُ وَالفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الخَالِقِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 60 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَبَاتُ الحَقِيقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَاسْتِقْلَالُهَا عَنْ جَدَلِ المكَذِّبِينَ وَشُكُوكِ المرْتَابِينَ يَمْنَحُ القَلْبَ المؤْمِنَ يَقِيناً لَا يَتَزَعْزَعُ أَمَامَ كَثْرَةِ المخَالِفِينَ. بَعْدَ إِقَامَةِ الحُجَّةِ البَالِغَةِ فِي شَأْنِ المسِيحِ، يَأْتِي هٰذَا الإِعْلَانُ القَاطِعُ لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الحَقَّ المطْلَقَ هُوَ مَا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ العَلِيمِ، وَيَنْهَى العَقْلَ عَنِ الِانْزِلَاقِ إِلَى دَائِرَةِ الشَّكِّ وَالِامْتِرَاءِ الَّتِي تُفْقِدُ الرُّوحَ سَكِينَتَهَا وَيَقِينَهَا. هٰذَا الحَسْمُ النُّورَانِيُّ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ تَأْثِيرِ الضُّغُوطِ الفِكْرِيَّةِ وَالتَّشْكِيكَاتِ العَابِرَةِ. فَمَنْ تَمَسَّكَ بِالحَقِّ النَّازِلِ مِنْ رَبِّهِ وَنَبَذَ الشَّكَّ عَاشَ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَثَبَاتٍ، بَيْنَمَا يَتَمَزَّقُ المِمْتَرِي الشَّاكُّ فِي حَيْرَةٍ دَائِمَةٍ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ.

الصَّدَى

صَخْرَةُ اليَقِينِ وَطَرْدُ الشُّكُوكِ

صَدَى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

صَخْرَةٌ شَامِخَةٌ تَتَكَسَّرُ عَلَيْهَا أَمْوَاجُ الشَّكِّ وَالمِرَاءِ، فَتُعْلِنُ فِي أَرْجَاءِ الكَوْنِ أَنَّ الحَقَّ نَازِلٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ لَا يَعْتَرِيهِ رَيْبٌ وَلَا تَبْدِيلٌ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاهْتِزَازِ أَمَامَ كَثْرَةِ المجَادِلِينَ وَالمشَكِّكِينَ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ الحَقَّ ثَابِتٌ بِمَصْدَرِهِ السَّمَاوِيِّ وَلَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ أَهْلُ الأَرْضِ جَمِيعاً. وَكَمْ حَامَتْ حَوْلَ العُقُولِ قَدِيماً غُيُومُ التَّرَدُّدِ عِنْدَمَا كَثُرَ الضَّجِيجُ حَوْلَ الحَقَائِقِ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا الأَمْرُ الحَاسِمُ لِيَقْطَعَ دَابِرَ الشَّكِّ وَالِامْتِرَاءِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الرَّاسِخَ فِي عُرْضِ البَحْرِ المتَلَاطِمِ كَيْفَ تَضْرِبُهُ الأَمْوَاجُ العَاتِيَةُ لَيْلَ نَهَارَ وَتُحِيطُ بِهِ الرَّغْوَةُ وَالضَّبَابُ، فَلَا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ بَلْ يَظَلُّ مَنَارَةً ثَابِتَةً يَهْتَدِي بِهَا البَحَّارَةُ فِي الظَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ يَقِينَ اللهِ الَّذِي يُثَبِّتُ قَلْبَ رَسُولِهِ وَالمؤْمِنِينَ بِأَنَّ الحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المِمْتَرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي مِنْ تَأَثُّرٍ بِآرَاءِ البَشَرِ إِلَى رُسُوخٍ مُطْلَقٍ يَسْتَنِدُ إِلَى وَحْيِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ شَكٍّ يُعَانِدُ الحَقَّ مَآلُهُ التَّلَاشِي، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ الثَّابِتِ المبِينِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٦١–٧٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 61 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسْمُ اللِّدَدِ فِي الخُصُومَةِ الدِّينِيَّةِ عِنْدَ اسْتِيفَاءِ البَرَاهِينِ العَقْلِيَّةِ، وَالِاحْتِكَامُ إِلَى مَحْكَمَةِ السَّمَاءِ بِالمُبَاهَلَةِ وَالِابْتِهَالِ، يُبْرِزَانِ قُوَّةَ اليَقِينِ الَّذِي لَا يَخْشَى عَوَاقِبَ الحَقِّ وَلَا يَتَرَدَّدُ أَمَامَ المُعَانِدِينَ. حِينَ تَنْتَهِي الحُجَجُ المَنْطِقِيَّةُ وَيُصِرُّ المُجَادِلُ عَلَى العِنَادِ بَعْدَ وُصُولِ العِلْمِ، يُرْشِدُ الوَحْيُ إِلَى إِحْضَارِ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنَ الأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَالأَنْفُسِ فِي مَشْهَدٍ مَهِيبٍ لِيَبْتَهِلَ الجَمِيعُ بِإِنْزَالِ لَعْنَةِ الخَالِقِ عَلَى الكَاذِبِ المُفْتَرِي؛ إِذْ لَا يُقْدِمُ عَلَى هٰذَا الرِّهَانِ الخَطِيرِ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى يَقِينٍ مُطْلَقٍ مِنْ صِدْقِ دَعْوَتِهِ. هٰذَا المَنْهَجُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاسْتِنْزَافِ فِي جَدَلٍ لَا طَائِلَ وَرَاءَهُ، وَيَفْضَحُ زَيْفَ المُدَّعِينَ الَّذِينَ يَهْرُبُونَ عِنْدَ مِحَكِّ الصِّدْقِ. فَمَنْ أَسَّسَ قَوْلَهُ عَلَى العِلْمِ وَالصِّدْقِ وَقَفَ ثَابِتاً أَمَامَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، بَيْنَمَا يَنْكَشِفُ الكَاذِبُ وَيَتَرَاجَعُ خَائِفاً عِنْدَ سَاعَةِ المُبَاهَلَةِ.

الصَّدَى

مِحَكُّ المُبَاهَلَةِ وَشَجَاعَةُ اليَقِينِ

صَدَى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

سَاحَةٌ مَهِيبَةٌ تَتَجَرَّدُ فِيهَا القُلُوبُ مِنْ زَخْرَفِ الجَدَلِ، فَيُقْدِمُ الصَّادِقُ بِأَهْلِهِ وَنَفْسِهِ لِيَبْتَهِلَ إِلَى السَّمَاءِ أَنْ تَحُلَّ اللَّعْنَةُ عَلَى الكَاذِبِ المُفْتَرِي. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ إِطَالَةِ المِرَاءِ مَعَ أَهْلِ العِنَادِ بَعْدَ قِيَامِ البُرْهَانِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ الصِّدْقَ يَمْنَحُ صَاحِبَهُ شَجَاعَةَ المُوَاجَهَةِ الكَامِلَةِ أَمَامَ الدَّيَّانِ. وَكَمْ تَطَاوَلَتْ أَلْسِنَةٌ قَدِيماً بِالدَّعَاوَى العَرِيضَةِ فِي مَجَالِسِ الكَلَامِ، فَلَمَّا دُعِيَتْ إِلَى مِيزَانِ المُبَاهَلَةِ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهَا وَنَكَصَتْ عَلَى أَعْقَابِهَا! أَتَأَمَّلُ النَّارَ المُلْتَهِبَةَ الَّتِي يُعْرَضُ عَلَيْهَا الذَّهَبُ الخَالِصُ وَالزَّيْفُ المِطْلِيُّ، كَيْفَ يَتَقَدَّمُ الذَّهَبُ إِلَيْهَا بِثَبَاتٍ فَيَزْدَادُ بَرِيقاً وَنَقَاءً، بَيْنَمَا يَذُوبُ الزَّيْفُ وَيَحْتَرِقُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ لَهِيبَهَا. فَمَا أَعْظَمَ يَقِينَ اللهِ الَّذِي يُلْهِمُ رَسُولَهُ دَعْوَةَ المُجَادِلِينَ إِلَى الِابْتِهَالِ لِيَفْضَحَ كَذِبَ المُعَانِدِينَ وَيُثَبِّتَ أَقْدَامَ الصَّادِقِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي عِنْدَ اشْتِدَادِ الخُصُومَةِ مِنْ تَكْرَارٍ

لِلْحُجَجِ المسْتَهْلَكَةِ إِلَى ثِقَةٍ هَادِئَةٍ تَكِلُ الفَصْلَ إِلَى عَدْلِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ كَذِبٍ يَتَسَتَّرُ خَلْفَ الجَدَلِ مَآلُهُ الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقٍ يَرْعَاهُ اللهُ وَيَنْصُرُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 62 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

المَوْعِظَةُ

صَفَاءُ السَّرْدِ القُرْآنِيّ الَّذِي يَرْوِي حَقَائِقَ التَّارِيخِ بِمِيزَانِ الصِّدْقِ وَالعَدْلِ، وَيَرُدُّ الأَمْرَ كُلَّهُ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ، يُطَهِّرُ العُقُولَ مِنْ أَوْهَامِ الأَسَاطِيرِ وَشَوَائِبِ الشِّرْكِ. بَعْدَ بَيَانِ قِصَّةِ المسِيحِ وَمُبَاهَلَةِ المعَانِدِينَ، يُعْلِنُ الوَحْيُ أَنَّ هٰذَا البَيَانَ هُوَ القَصَصُ الحَقُّ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ تَحْرِيفٌ وَلَا هَوًى، وَيُقَرِّرُ القَاعِدَةَ الكُبْرَى لِلْوُجُودِ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا الخَالِقُ العَزِيزُ فِي قُدْرَتِهِ، الحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَشْرِيعِهِ. هٰذَا الحَسْمُ العَقَدِيُّ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ التَّشَتُّتِ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ البَشَرِيَّةِ المتَنَاقِضَةِ. فَمَنْ أَخَذَ الحَقَائِقَ مِنْ مَشْكَاةِ القَصَصِ الحَقِّ وَوَحَّدَ العَزِيزَ الحَكِيمَ نَالَ طُمَأْنِينَةَ اليَقِينِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ مَنْ تَعَلَّقَ بِالأَسَاطِيرِ فِي ظُلُمَاتِ الرَّيْبِ وَالضَّلَالِ.

الصَّدَى

القَصَصُ الحَقُّ وَعِزَّةُ التَّوْحِيدِ

صَدَى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

نَبْعٌ صَافٍ يَرْوِي التَّارِيخَ بِمِيزَانِ الصِّدْقِ المجَرَّدِ، فَيُزِيلُ غُبَارَ الأَوْهَامِ وَيُعْلِنُ فِي أَرْجَاءِ الكَوْنِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا العَزِيزُ الحَكِيمُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِارْتِيَابِ فِي صِحَّةِ الأَنْبَاءِ السَّمَاوِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كِتَابَ الخَالِقِ هُوَ الشَّاهِدُ الأَصْدَقُ عَلَى مَسِيرَةِ البَشَرِ. وَكَمْ حَامَتْ حَوْلَ العُقُولِ قَدِيماً أَقَاوِيلُ مُتَضَارِبَةٌ تَخْلِطُ الحَقَّ بِالبَاطِلِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتُقَرِّرَ أَنَّ هٰذَا هُوَ القَصَصُ الحَقُّ الَّذِي يَهْدِي إِلَى التَّوْحِيدِ! أَتَأَمَّلُ المِرْآةَ المِصْقُولَةَ بِإِتْقَانٍ كَيْفَ تَعْكِسُ مَلَامِحَ الوُجُوهِ كَمَا هِيَ بِدِقَّةٍ وَوُضُوحٍ، بَيْنَمَا تُشَوِّهُ المرَايَا المعْوَجَّةُ صُوَرَ الأَشْيَاءِ وَتُغَيِّرُ أَحْجَامَهَا. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي يَقُصُّ عَلَيْنَا الحَقَّ وَيُرْسِي فِي قُلُوبِنَا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الخَالِصَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي

لِلْوَحْيِ مِنْ تَأَمُّلٍ فِي المَاضِي إِلَى يَقِينٍ حَيٍّ يُعَظِّمُ الوَاحِدَ الأَحَدَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ. فَكُلُّ رِوَايَةٍ تُخَالِفُ القَصَصَ الحَقَّ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 63 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

فَضْحُ الحَقِيقَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ الحَقِّ بَعْدَ وُضُوحِ البُرْهَانِ وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ يُثْبِتُ أَنَّ التَّوَلِّيَ لَيْسَ مُجَرَّدَ رَأْيٍ فِكْرِيٍّ عَابِرٍ، بَلْ هُوَ إِفْسَادٌ فِي الأَرْضِ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ. حِينَ يَنْكُصُ المجَادِلُ عَنِ المبَاهَلَةِ وَيُدِيرُ ظَهْرَهُ لِلْقَصَصِ الحَقِّ، يَكْشِفُ الوَحْيُ أَنَّ الخَالِقَ عَلِيمٌ بِحَقِيقَةِ هٰؤُلَاءِ المفْسِدِينَ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ عِنَادَهُمْ بِالمعَاذِيرِ وَيَنْشُرُونَ الشُّبُهَاتِ بَيْنَ النَّاسِ. هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِادِّعَاءَاتِ الإِصْلَاحِ الَّتِي يَرْفَعُهَا المتَوَلُّونَ عَنْ شَرْعِ السَّمَاءِ. فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى الحَقِّ وَأَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ نَالَ تَزْكِيَةَ مَوْلَاهُ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المعْرِضُ المفْسِدُ أَمَامَ العَلِيمِ بِالسَّرَائِرِ وَالنَّوَايَا.

الصَّدَى

إِعْرَاضُ العِنَادِ وَإِحَاطَةُ العَلِيمِ بِالمفْسِدِينَ

صَدَى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

خُطُوَاتٌ مُتَرَاجِعَةٌ تَفِرُّ مِنْ نُورِ الحُجَّةِ السَّاطِعَةِ، فَتَكْشِفُ عَنْ قُلُوبٍ تَأْبَى الإِصْلَاحَ وَتَخْتَارُ طَرِيقَ الإِفْسَادِ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الحَقِّ بَعْدَ قِيَامِ الدَّلِيلِ مَوْقِفٌ بَرِيءٌ، وَأُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَوَلٍّ عَنْ نُورِ السَّمَاءِ هُوَ فَسَادٌ يُعَكِّرُ صَفْوَ الحَيَاةِ. وَكَمْ تَزَيَّنَ المعْرِضُونَ قَدِيماً بِشِعَارَاتِ الحِكْمَةِ وَالسَّلَامَةِ عِنْدَمَا هَرَبُوا مِنْ مَحَكِّ الصِّدْقِ، حَتَّى هَتَكَ الوَحْيُ أَسْتَارَهُمْ وَسَمَّاهُمْ بِالمفْسِدِينَ! أَتَأَمَّلُ اليَنْبُوعَ الصَّافِيَ الَّذِي يَعْرِضُ مَاءَهُ العَذْبَ لِإِحْيَاءِ الأَرْضِ القَاحِلَةِ، فَمَنْ سَدَّ مَجْرَاهُ بِالحِجَارَةِ وَأَدَارَ ظَهْرَهُ لَهُ لَمْ يَكُنْ مُحَايِداً بَلْ كَانَ مُفْسِداً حَرَمَ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ مِنْ أَسْبَابِ الحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ. فَمَا أَشَدَّ رَقَابَةَ اللهِ العَلِيمِ بِالمفْسِدِينَ الَّذِي يَرْصُدُ كُلَّ تَوَلٍّ عَنْ دِينِهِ وَيُحْصِي كُلَّ صَدٍّ عَنْ سَبِيلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي مِنْ حُسْنِ ظَنٍّ سَاذَجٍ بِكُلِّ مُعْرِضٍ إِلَى بَصِيرَةٍ تُمَيِّزُ بَيْنَ السَّاعِي

لِلْإِصْلَاحِ وَالمتَوَلِّي المفْسِدِ. فَكُلُّ إِعْرَاضٍ عَنْ حَقِّ السَّمَاءِ مَآلُهُ الفَسَادُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَحُكْمِهِ العَادِلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 64 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الدَّعْوَةُ العَالَمِيَّةُ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ وَتَحْرِيرِ الإِنْسَانِ مِنْ عُبُودِيَّةِ البَشَرِ وَالأَحْبَارِ وَالطَّوَاغِيتِ تُقِيمُ أَعْدَلَ مِيثَاقٍ لِلْحِوَارِ وَالِاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيّ. النِّدَاءُ القُرْآنِيُّ يَدْعُو أَهْلَ الكِتَابِ إِلَى الكَلِمَةِ العَادِلَةِ الَّتِي تَتَّفِقُ عَلَيْهَا الفِطَرُ وَالشَّرَائِعُ: إِفْرَادُ الخَالِقِ بِالعِبَادَةِ، وَنَبْذُ الشِّرْكِ الجَلِيِّ وَالخَفِيِّ، وَإِسْقَاطُ رُبُوبِيَّةِ البَشَرِ الَّذِينَ يُحِلُّونَ الحَرَامَ وَيُحَرِّمُونَ الحَلَالَ مِنْ دُونِ السَّمَاءِ؛ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْ هٰذَا المِيثَاقِ الحُرِّ، فَلْيُعْلِنِ المؤْمِنُونَ إِسْلَامَهُمْ وَثَبَاتَهُمْ عَلَى الحَقِّ بِعِزَّةٍ وَوُضُوحٍ. هٰذَا المَنْهَجُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ العَمْيَاءِ لِلْمَخْلُوقِينَ. فَمَنْ لَبَّى نِدَاءَ الكَلِمَةِ السَّوَاءِ تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ البَشَرِ وَفَازَ بِعُبُودِيَّةِ رَبِّ العَالَمِينَ، بَيْنَمَا يَبْقَى المتَوَلِّي أَسِيراً لِأَرْبَابٍ مُتَفَرِّقِينَ يَسْتَعْبِدُونَ عَقْلَهُ وَوِجْدَانَهُ.

الصَّدَى

الكَلِمَةُ السَّوَاءُ وَتَحْرِيرُ الإِنْسَانِ

صَدَى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مِيثَاقُ الحُرِّيَّةِ الكُبْرَى يَرْتَفِعُ فَوْقَ أَصْنَامِ البَشَرِ، فَيَدْعُو العُقُولَ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ تَجْعَلُ العُبُودِيَّةَ لِلهِ وَحْدَهُ وَتُحَطِّمُ رُبُوبِيَّةَ المخْلُوقِينَ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّقْدِيسِ الأَعْمَى لِلرِّجَالِ وَالمؤَارِيثِ الَّتِي تُنَازِعُ السَّمَاءَ حَقَّ التَّشْرِيعِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي حُرٌّ لَا أَخْضَعُ إِلَّا لِرَبِّ العَالَمِينَ. وَكَمْ رَزَحَتْ أُمَمٌ قَدِيماً تَحْتَ نِيرِ أَرْبَابٍ مِنَ البَشَرِ يَأْمُرُونَهُمْ بِالمعْصِيَةِ فَيُطِيعُونَهُمْ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا النِّدَاءُ النُّورَانِيُّ لِيُعِيدَ لِلْإِنْسَانِ كَرَامَتَهُ وَحُرِّيَّتَهُ! أَتَأَمَّلُ الأَشْجَارَ البَاسِقَةَ في الغَابَةِ الحُرَّةِ كَيْفَ تَتَّجِهُ جَمِيعُهَا بِأَغْصَانِهَا نَحْوَ

شَمْسِ السَّمَاءِ الوَاحِدَةِ لِتَسْتَمِدَّ مِنْهَا الضِّيَاءَ وَالحَيَاةَ، فَلَا تَنْحَنِي شَجَرَةٌ لِأُخْرَى وَلَا تَسْتَعْبِدُهَا بِظِلِّهَا. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَدْعُو أَهْلَ الكِتَابِ إِلَى الكَلِمَةِ السَّوَاءِ وَيَأْمُرُ أَوْلِيَاءَهُ بِالثَّبَاتِ عَلَى الإِسْلَامِ إِنْ تَوَلَّى المعْرِضُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عُبُودِيَّتِي مِنْ خُضُوعٍ لِأَهْوَاءِ الخَلْقِ إِلَى تَحَرُّرٍ كَامِلٍ فِي مِحْرَابِ الوَاحِدِ الأَحَدِ. فَكُلُّ رُبُوبِيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي لَهُ المُلْكُ وَالأَمْرُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 65 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاحْتِكَامُ إِلَى المَنْطِقِ التَّارِيخِيِّ السَّلِيمِ وَالتَّسَلْسُلِ الزَّمَنِيِّ لِلْأَحْدَاثِ يَهْدِمُ الدَّعَاوَى الطَّائِفِيَّةَ البَاطِلَةَ الَّتِي تَحْتَكِرُ أَنْبِيَاءَ السَّمَاءِ. حِينَ تَنَازَعَ أَهْلُ الكِتَابِ فِي نِسْبَةِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ إِلَى اليَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ، أَيْقَظَ القُرْآنُ عُقُولَهُمْ بِحَقِيقَةٍ تَارِيخِيَّةٍ بَدِيهِيَّةٍ؛ وَهِيَ أَنَّ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لَمْ يَنْزِلَا إِلَّا بَعْدَ زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ بِقُرُونٍ، فَكَيْفَ يُنْسَبُ الأَصْلُ السَّابِقُ إِلَى الفَرْعِ اللَّاحِقِ؟! هٰذَا الحِوَارُ العَقْلِيُّ المُبْهِرُ يُحَرِّرُ الفِكْرَ مِنَ التَّعَصُّبِ الأَعْمَى الَّذِي يَقْفِزُ فَوْقَ الحَقَائِقِ وَالتَّارِيخِ. فَمَنْ أَعْمَلَ عَقْلَهُ وَاحْتَرَمَ مَنْطِقَ الزَّمَانِ أَدْرَكَ وَحْدَةَ دِينِ الأَنْبِيَاءِ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المتَعَصِّبُ بِتَنَاقُضِ حُجَّتِهِ وَعَجْزِ تَفْكِيرِهِ.

الصَّدَى

مَنْطِقُ الزَّمَانِ وَوَحْدَةُ الخَلِيلِ

صَدَى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

سُؤَالٌ عَقْلِيٌّ نَاصِعٌ يَخْتَرِقُ غُيُومَ التَّعَصُّبِ الطَّائِفِيِّ، فَيُذَكِّرُ المتَنَازِعِينَ بِأَنَّ الخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ بِدُهُورٍ فَكَيْفَ يُحْتَكَرُ لِطَائِفَةٍ جَاءَتْ مِنْ بَعْدِهِ؟! فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ المِرَاءِ الَّذِي يُغَالِطُ البَدِيهِيَّاتِ التَّارِيخِيَّةَ نُصْرَةً لِلْهَوَى، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ العَقْلَ السَّلِيمَ هُوَ أَوَّلُ شَاهِدٍ عَلَى صِدْقِ الوَحْيِ. وَكَمْ شَوَّهَتِ العَصَبِيَّةُ قَدِيماً حَقَائِقَ الزَّمَانِ وَالمكَانِ لِتَصْنَعَ لِنَفْسِهَا أَمْجَاداً وَهْمِيَّةً، حَتَّى قَرَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَبْوَابَ العُقُولِ بِنِدَاءِ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»! أَتَأَمَّلُ الجِذْعَ الرَّاسِخَ

لِلشَّجَرَةِ العَتِيقَةِ الَّتِي نَبَتَتْ فِي فَجْرِ الزَّمَانِ، كَيْفَ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ بَعْدَ سِنِينَ طِوَالٍ أَغْصَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ، فَهَلْ يَعْقِلُ ذُو لُبٍّ أَنْ يَدَّعِيَ غُصْنٌ حَدِيثٌ أَنَّ الجِذْعَ الأَوَّلَ قَدْ نَبَتَ مِنْهُ؟! فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ البَالِغَةَ الَّتِي تَرُدُّ المجَادِلِينَ إِلَى بَدِيهِيَّاتِ العَقْلِ وَالتَّارِيخِ لِتَكْشِفَ بُطْلَانَ دَعَاوَاهُمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي فِي النَّقْدِ وَالحِوَارِ مِنْ جَدَلٍ عَاطِفِيٍّ إِلَى بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ رَصِينٍ يَحْتَرِمُ التَّارِيخَ وَالمَنْطِقَ. فَكُلُّ دَعْوَى تُخَالِفُ العَقْلَ وَالتَّارِيخَ مَآلُهَا السُّقُوطُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ وَبَيَانِهِ المبِينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 66 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الانْضِبَاطُ المعْرِفِيُّ وَالوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ العِلْمِ الحَقِيقِيِّ دُونَ الخَوْضِ فِي المجْهُولِ بِالظَّنِّ وَالهَوَى هُمَا أَسَاسُ النَّزَاهَةِ العَقْلِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ. التَّوْبِيخُ القُرْآنِيُّ لِمَنْ جَادَلُوا فِي شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَضَعُ مَنْهَجاً ذَهَبِيّاً لِلْبَحْثِ وَالحِوَارِ؛ فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا يَعْلَمُ كَانَ لَهُ عُذْرٌ فِي النِّقَاشِ، أَمَّا الخَوْضُ فِيمَا لَا عِلْمَ لِلْإِنْسَانِ بِهِ فَهُوَ تَجَاوُزٌ لِلْحَدِّ وَافْتِئَاتٌ عَلَى الحَقِيقَةِ الَّتِي يَعْلَمُهَا الخَالِقُ وَحْدَهُ. هٰذَا التَّأْدِيبُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ آفَةِ الثَّرْثَرَةِ الفِكْرِيَّةِ وَادِّعَاءِ الإِحَاطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ عِلْمِهِ وَأَرْجَعَ مَا جَهِلَهُ إِلَى عَلَّامِ الغُيُوبِ سَلِمَ مِنَ الزَّلَلِ وَنَالَ الحِكْمَةَ، بَيْنَمَا يَهْوِي المتَعَالِمُ فِي حُفَرِ الجَهْلِ وَالفِتْنَةِ.

الصَّدَى

حُدُودُ المعْرِفَةِ وَآفَةُ المجَادَلَةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

صَدَى ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

سِيَاجٌ عَقْلِيٌّ رَصِينٌ يَفْصِلُ بَيْنَ نُورِ العِلْمِ اليَقِينِيِّ وَظُلُمَاتِ الخَوْضِ فِي المجْهُولِ، فَيُعْلِنُ فِي أَرْجَاءِ المعْرِفَةِ أَنَّ الخَالِقَ يَعْلَمُ وَالبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الجُرْأَةِ عَلَى الكَلَامِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ

دُونَ بُرْهَانٍ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ التَّوَاضُعِ المَعْرِفِيّ الَّذِي يَقُولُ «لَا أَعْلَمُ» حِينَ يَغِيبُ الدَّلِيلُ. وَكَمْ أَوْقَعَتِ الجُرْأَةُ عَلَى القَوْلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ قَدِيماً أَصْحَابَهَا فِي مَتَاهَاتِ الكَذِبِ وَالتَّضْلِيلِ، حَتَّى أَرْسَى الوَحْيُ هٰذَا المِيزَانَ الدَّقِيقَ لِحِمَايَةِ العُقُولِ مِنَ الشَّطَطِ! أَتَأَمَّلُ البَحَّارَ الحَكِيمَ الَّذِي يُبْحِرُ بِسَفِينَتِهِ فِي المِيَاهِ الَّتِي يَعْرِفُ أَعْمَاقَهَا وَمَسَالِكَهَا بِبُوصَلَةِ العِلْمِ، ثُمَّ يَقِفُ بِوَرَعٍ عِنْدَ حُدُودِ اللُّجَجِ المَجْهُولَةِ الَّتِي لَا يَمْلِكُ لَهَا خَرِيطَةً وَلَا دَلِيلاً كَيْ لَا يَهْلِكَ وَيُهْلِكَ مَنْ مَعَهُ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ لِلْعُقُولِ حِينَ يَنْهَاهَا عَنِ المَحَاجَّةِ فِيمَا لَيْسَ لَهَا بِهِ عِلْمٌ وَيَرُدُّ الحَقَائِقَ كُلَّهَا إِلَى عِلْمِهِ المُحِيطِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي فِي الكَلَامِ مِنْ اندِفَاعٍ يَخُوضُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَى انْضِبَاطٍ يَقِظٍ يَزِنُ الكَلِمَةَ بِمِيزَانِ العِلْمِ وَالتَّقْوَى. فَكُلُّ جَدَلٍ يَقُومُ عَلَى الجَهْلِ مَآلُهُ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ الَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 67 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَبْرِئَةُ خَلِيلِ الرَّحْمٰنِ مِنْ دَعَاوَى التَّحَزُّبِ الدِّينِيّ وَتَحْدِيدُ هُوِيَّتِهِ الحَقِيقِيَّةِ فِي الحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ وَالإِسْلَامِ الخَالِصِ يُعِيدَانِ لِلتَّوْحِيدِ نَقَاءَهُ وَصَفَاءَهُ. نَفْيُ اليَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالشِّرْكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِثْبَاتُ كَوْنِهِ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ إِلَى الحَقِّ، مُسْلِماً مُنْقَاداً لِرَبِّ العَالَمِينَ، يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ ضِيقِ التَّسْمِيَاتِ الطَّائِفِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ بَعْدَهُ، وَيَجْمَعُ البَشَرِيَّةَ عَلَى فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ النَّقِيِّ. هٰذَا الحَسْمُ السَّمَاوِيُّ يُبْرِزُ أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ دِينُ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً. فَمَنِ اقْتَدَى بِحَنِيفِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَسْلَمَ لِرَبِّهِ نَجَا مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّعَصُّبِ، بَيْنَمَا يَضِلُّ مَنْ نَسَبَ إِلَى الأَنْبِيَاءِ مَا بَرَّأَهُمُ الوَحْيُ مِنْهُ.

الصَّدَى

فِطْرَةُ الحَنِيفِيَّةِ وَبَرَاءَةُ الخَلِيلِ

صَدَى ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

رَايَةٌ بَيْضَاءُ تَرْفَعُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ غُبَارَ التَّحَزُّبِ وَالتَّسْمِيَاتِ الحَادِثَةِ، لِتُعْلِنَ أَنَّهُ كَانَ حَنِيفاً مَائِلاً

إِلَى الحَقِّ وَمُسْلِماً خَالِصاً لِرَبِّ العَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْغِلَاقِ فِي قَوَالِبَ طَائِفِيَّةٍ تُمَزِّقُ وَحْدَةَ الدِّينِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الِانْتِمَاءِ إِلَى مِلَّةِ التَّوْحِيدِ الصَّافِي الَّتِي لَا تَعْرِفُ الشِّرْكَ وَلَا التَّنَازُعَ. وَكَمْ حاوَلَتِ الأَهْوَاءُ قَدِيماً أَنْ تَسْحَبَ خَلِيلَ الرَّحْمٰنِ إِلَى دَائِرَتِهَا الضَّيِّقَةِ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا البَيَانُ القَاطِعُ لِيُبَرِّئَ سَاحَتَهُ وَيَرُدَّهُ إِلَى نُورِ الإِسْلَامِ وَالحَنِيفِيَّةِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْعَ الأَوَّلَ الصَّافِيَ فِي أَعْلَى الجَبَلِ قَبْلَ أَنْ تَتَفَرَّعَ مِنْهُ الجَدَاوِلُ فِي السُّهُولِ وَتَخْتَلِطَ بِأَلْوَانِ التُّرْبَةِ المخْتَلِفَةِ، كَيْفَ يَبْقَى ذٰلِكَ النَّبْعُ عَذْباً نَقِيّاً فِي مَصْدَرِهِ الأَعْلَى لَا يَنْتَسِبُ إِلَى طِينِ الوَادِي وَلَا إِلَى أَوْحَالِ الطَّرِيقِ. فَمَا أَعْظَمَ تَبْرِئَةَ اللهِ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ يُثْبِتُ لَهُ الحَنِيفِيَّةَ وَالإِسْلَامَ وَيَنْفِي عَنْهُ الشِّرْكَ وَالتَّحَزُّبَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى حَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ تَمِيلُ عَنْ كُلِّ بَاطِلٍ وَتَسْتَقِيمُ عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ. فَكُلُّ انْتِسَابٍ يُخَالِفُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ مَآلُهُ التِّيهُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِدِينِ اللهِ الحَنِيفِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 68 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِعْيَارُ القُرْبِ الحَقِيقِيِّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ هُوَ الِاتِّبَاعُ الصَّادِقُ لِمَنْهَجِهِمْ فِي التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ، لَا مُجَرَّدُ دَعْوَى القَرَابَةِ الجَسَدِيَّةِ أَوِ الِانْتِمَاءِ التَّارِيخِيِّ الجَافِّ. بَعْدَ نَفْيِ احْتِكَارِ المتَعَصِّبِينَ لِإِبْرَاهِيمَ، يُقَرِّرُ الوَحْيُ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِوَلَايَتِهِ وَقُرْبِهِ هُمُ السَّابِقُونَ الَّذِينَ سَارُوا عَلَى هَدْيِهِ فِي زَمَانِهِ، ثُمَّ النَّبِيُّ الخَاتَمُ مُحَمَّدٌ وَالمؤْمِنُونَ بِهِ الَّذِينَ أَحْيَوْا مِلَّةَ التَّوْحِيدِ كَمَا جَاءَ بِهَا الخَلِيلُ، مُتَوِّجاً ذٰلِكَ بِبُشْرَى وِلَايَةِ الخَالِقِ لِلْمُؤْمِنِينَ. هٰذَا القَانُونُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ عُقْدَةِ الأَنْسَابِ وَالأَحْسَابِ. فَمَنِ اتَّبَعَ مَنْهَجَ الأَنْبِيَاءِ نَالَ شَرَفَ القُرْبِ مِنْهُمْ وَوِلَايَةَ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَنْقَطِعُ المخَالِفُ عَنْهُمْ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ نَسَباً.

الصَّدَى

قَرَابَةُ الِاتِّبَاعِ وَوِلَايَةُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

رَابِطَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَجَاوَزُ صِلَاتِ الطِّينِ وَالدَّمِ، فَتَجْعَلُ اتِّبَاعَ المَنْهَجِ هُوَ مِقْيَاسَ القُرْبِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ وَتُنَوِّجُ المؤْمِنِينَ بِوِلَايَةِ الرَّحْمٰنِ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الاكْتِفَاءِ بِالانْتِسَابِ الشَّكْلِيِّ لِتُرَاثِ الصَّالِحِينَ دُونَ الاقْتِدَاءِ بِأَفْعَالِهِمْ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أُخُوَّةَ الإِيمَانِ هِيَ أَقْوَى وَشِيجَةٍ في الوُجُودِ. وَكَمْ تَفَاخَرَتْ أَقْوَامٌ قَدِيماً بِقَرَابَةِ النَّسَبِ مِنْ أَنْبِيَاءِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا تُحَارِبُ رِسَالَتَهُمْ، حَتَّى أَسْقَطَ الوَحْيُ دَعْوَاهُمْ وَأَثْبَتَ الوَلَايَةَ لِأَهْلِ الاتِّبَاعِ وَالإِيمَانِ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ المُتَّقِدَ الَّذِي تُقْتَبَسُ مِنْهُ شُعْلَةٌ نَقِيَّةٌ لِتُضِيءَ مِصْبَاحاً آخَرَ في مَكَانٍ بَعِيدٍ، كَيْفَ يَكُونُ ذٰلِكَ المِصْبَاحُ البَعِيدُ أَوْلَى بِالنُّورِ وَأَقْرَبَ إِلَى السِّرَاجِ الأَوَّلِ مِنْ مِصْبَاحٍ مُجَاوِرٍ لَهُ في المكَانِ وَلٰكِنَّهُ مُنْطَفِئٌ بَارِدٌ يَرْفُضُ الاقْتِبَاسَ. فَمَا أَعْظَمَ بِشَارَةَ اللهِ وَلِيّ المؤْمِنِينَ الَّذِي يَجْمَعُ النَّبِيَّ الخَاتَمَ وَأَتْبَاعَهُ الصَّادِقِينَ في مَوْكِبِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ بِرَابِطَةِ الاتِّبَاعِ وَاليَقِينِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي مِنْ تَفَاخُرٍ بِالمَوَارِيثِ إِلَى حِرْصٍ دَائِمٍ عَلَى الاتِّبَاعِ الصَّادِقِ لِأَنَالَ وِلَايَةَ السَّمَاءِ. فَكُلُّ قَرَابَةٍ تَخْلُو مِنَ الاتِّبَاعِ مَآلُهَا الانْقِطَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوِلَايَةِ اللهِ الَّتِي تَحُفُّ المؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 69 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

كُشِفَتْ مَكْنُونَاتُ الصُّدُورِ وَأَمَانِي أَهْلِ التَّضْلِيلِ لِتَكُونَ دِرْعاً وَاقِياً يَحْمِي وَعْيَ المؤْمِنِينَ مِنَ الانْخِدَاعِ بِبَرِيقِ الشُّبُهَاتِ وَدَعَوَاتِ التَّشْكِيكِ. تَمَنِّي طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِضْلَالَ المؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ لَا يَضُرُّ الثَّابِتِينَ عَلَى الوَحْيِ شَيْئاً، بَلْ يَرْتَدُّ وَبَالُهُ وَإِثْمُهُ عَلَى نُفُوسِ المضِلِّينَ أَنْفُسِهِمْ الَّذِينَ يَزْدَادُونَ ضَلَالاً وَوِزْراً دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِهَلَاكِ ذَوَاتِهِمْ. هٰذَا التَّبْصِيرُ الرَّبَّانِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ السَّذَاجَةِ الفِكْرِيَّةِ، وَيَزْرَعُ في القَلْبِ اليَقَظَةَ وَالثِّقَةَ بِحِفْظِ السَّمَاءِ. فَمَنِ اعْتَصَمَ بِالوَحْيِ وَحَذِرَ مَكْرَ المضِلِّينَ حَفِظَ إِيمَانَهُ وَعَقْلَهُ، بَيْنَمَا يَحْفِرُ المضِلُّ قَبْرَ نَفْسِهِ بِيَدِهِ وَهُوَ غَارِقٌ في غَفْلَتِهِ وَعَمَاهُ.

الصَّدَى

أَمَانِي التَّضْلِيلِ وَارْتِدَادُ الوَبَالِ

صَدَى ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ سِهَامٌ مَسْمُومَةٌ تَتَمَنَّى القُلُوبُ الحَاقِدَةُ أَنْ تُصِيبَ بِهَا يَقِينَ المؤْمِنِينَ، فَتَرْتَدُّ فِي صَمْتٍ لِتَسْتَقِرَّ فِي صُدُورِ أَصْحَابِهَا دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِهَلَاكِهِمْ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الغَفْلَةِ عَنْ نَوَايَا المشَكِّكِينَ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ نُورَ الهِدَايَةِ مَحْفُوظٌ بِرِعَايَةِ الخَالِقِ وَلَنْ تَطَالَهُ أَمَانِي المضِلّينَ. وَكَمْ تَظَاهَرَتْ أَلْسِنَةٌ قَدِيماً بِالنُّصْحِ وَالإِرْشَادِ وَهِيَ تُضْمِرُ الرَّغْبَةَ فِي إِزَاغَةِ القُلُوبِ عَنْ صِرَاطِهَا، حَتَّى كَشَفَ الوَحْيُ سَرَائِرَهُمْ وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ! أَتَأَمَّلُ مَنْ يَرْمِي الرَّمَادَ وَالتُّرَابَ فِي وَجْهِ الرِّيحِ العَاتِيَةِ لِيُعْمِيَ عُيُونَ السَّائِرِينَ عَلَى الطَّرِيقِ المنِيرِ، كَيْفَ تَرُدُّ الرِّيحُ ذٰلِكَ الغُبَارَ إِلَى عَيْنَيْهِ هُوَ فَيُصَابُ بِالعَمَى وَيَتَعَثَّرُ فِي خُطَاهُ بَيْنَمَا يَمْضِي السَّائِرُونَ فِي نُورِهِمْ بِسَلَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَكْشِفُ لَهُمْ أَمَانِي المضِلّينَ وَيُطَمْئِنُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّ كَيْدَ البَاطِلِ يَرْتَدُّ عَلَى أَهْلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي الفِكْرِيَّةُ مِنْ تَأَثُّرٍ بِشُبُهَاتِ العَابِثِينَ إِلَى حِصْنٍ وَاعٍ يَحْمِي الإِيمَانَ وَيُشْفِقُ عَلَى الغَافِلِينَ. فَكُلُّ سَعْيٍ لِإِضْلَالِ الخَلْقِ مَآلُهُ هَلَاكُ النَّفْسِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهُدَى اللهِ الَّذِي يَعْصِمُ المؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 70 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مُوَاجَهَةُ الضَّمِيرِ الإِنْسَانِيّ بِتَنَاقُضِ الجُحُودِ مَعَ الشَّهَادَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالمعْرِفَةِ اليَقِينِيَّةِ يُقِيمُ الحُجَّةَ الدَّامِغَةَ عَلَى كُلِّ مَنْ يُنْكِرُ الحَقَّ وَهُوَ يَعْرِفُ صِدْقَهُ. التَّسَاؤُلُ القُرْآنِيُّ المبَاشِرُ الَّذِي يُخَاطِبُ أَهْلَ الكِتَابِ مُسْتَنْكِراً كُفْرَهُمْ بِآيَاتِ السَّمَاءِ وَصِفَاتِ النَّبِيِّ الخَاتَمِ رَغْمَ شَهَادَتِهِمْ بِوُجُودِهَا فِي كُتُبِهِمْ، يَكْشِفُ أَنَّ الكُفْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ صُوَرِهِ لَيْسَ غِيَاباً لِلْمَعْرِفَةِ، بَلْ هُوَ كِبْرٌ وَعِنَادٌ يَقْمَعُ صَوْتَ الحَقِيقَةِ فِي الدَّاخِلِ. هٰذَا العِتَابُ البَلِيغُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ خِدَاعِ التَّبْرِيرَاتِ الفَلْسَفِيَّةِ لِلْجُحُودِ. فَمَنْ أَنْصَفَ شَهَادَةَ عَقْلِهِ وَفِطْرَتِهِ وَآمَنَ بِآيَاتِ رَبِّهِ نَجَا مِنْ ظُلْمَةِ التَّنَاقُضِ، بَيْنَمَا يَظَلُّ الجَاحِدُ مُعَذَّباً بِشَهَادَةِ نَفْسِهِ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ.

الصَّدَى

تَنَاقُضُ الجُحُودِ وَشَهَادَةُ الضَّمِيرِ

صَدَى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

نِدَاءٌ يَقْرَعُ أَبْوَابَ الضَّمَائِرِ المكابِرَة، فَيَسْأَلُهَا عَنْ سِرِّ هٰذَا الجُحُودِ الغَرِيبِ لِآيَاتِ السَّمَاءِ بَيْنَمَا تَشْهَدُ عُقُولُهُمْ وَكُتُبُهُمْ بِصِدْقِهَا وَوُضُوحِهَا. في أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الإِنْكَارَ يُبْرِئُ صَاحِبَهُ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ حِينَ تَقُومُ البَيِّنَةُ، وَأُدْرِكُ أَنَّ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ أَنْ يُكَذِّبَ اللِّسَانُ مَا يَشْهَدُ بِهِ القَلْبُ وَالعَقْلُ. وَكَمْ حَاوَلَ الهَوَى قَدِيماً أَنْ يُطْفِئَ صَوْتَ الشَّهَادَةِ الدَّاخِلِيَّةِ في صُدُورِ المعَانِدِينَ نُصْرَةً لِلْجَاهِ أَوِ التَّقْلِيدِ، حَتَّى فَضَحَ الوَحْيُ هٰذَا التَّنَاقُضَ الصَّارِخَ بِسُؤَالٍ يَهْزُّ الكِيَانَ! أَتَأَمَّلُ مَنْ يَقِفُ في رَابِعَةِ النَّهَارِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ الَّتِي تَغْمُرُ عَيْنَيْهِ بِالضِّيَاءِ وَالدِّفْءِ، ثُمَّ يَصْرُخُ بِمِلْءِ فِيهِ مُنْكِراً وُجُودَ الشَّمْسِ بَيْنَمَا تَشْهَدُ كُلُّ خَلِيَّةٍ في جَسَدِهِ بِحَرَارَتِهَا وَنُورِهَا. فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ عَلَى المكَذِّبِينَ حِينَ يُوَاجِهُهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِآيَاتِهِ مَعَ شَهَادَتِهِمُ اليَقِينِيَّةِ بِصِدْقِهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي مِنْ جَدَلٍ مَعَ المعَانِدِينَ إِلَى مُصَالَحَةٍ صَادِقَةٍ مَعَ فِطْرَتِي تَجْعَلُ لِسَانِي وَسُلُوكِي مُطَابِقَيْنِ لِشَهَادَةِ الحَقِّ في قَلْبِي. فَكُلُّ كُفْرٍ يُعَانِدُ الشَّهَادَةَ مَآلُهُ الخِزْيُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِآيَاتِ اللهِ السَّاطِعَةِ المبِينَةِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٧١–٨٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 71 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَرِيمَةُ التَّلْبِيسِ الَّتِي تَخْلِطُ صَفَاءَ الحَقِّ بِكَدَرِ البَاطِلِ، وَكِتْمَانُ الحَقَّائِقِ السَّاطِعَةِ عَنْ عِلْمٍ وَتَعَمُّدٍ، تُحَوِّلُ العُلَمَاءَ مِنْ مَنَارَاتٍ لِلْهُدَى إِلَى حُجُبٍ تَصُدُّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ السَّمَاءِ. الخِطَابُ القُرْآنِيُّ يَفْضَحُ أَسَالِيبَ التَّضْلِيلِ الَّتِي تَدُسُّ الزَّيْفَ في ثَوْبِ الحَقِيقَةِ لِتُوهِمَ العُقُولَ السَّاذَجَةَ، وَتُخْفِي البَرَاهِينَ القَاطِعَةَ نُصْرَةً لِلْهَوَى وَالمصَالِحِ الضَّيِّقَةِ. هٰذَا العِتَابُ البَلِيغُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الانْخِدَاعِ

بِالمزِيجِ المشْبُوهِ، وَيُوجِبُ عَلَى أَهْلِ المعْرِفَةِ الصَّدْعَ بِالحَقِّ النَّقِيِّ دُونَ تَشْوِيهٍ أَوْ إِخْفَاءٍ. فَمَنْ جَلَا الحَقَّ صَافِياً وَبَلَّغَهُ بِأَمَانَةٍ نَالَ شَرَفَ الهِدَايَةِ وَالبَيَانِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ الملَبِّسُ الكَاتِمُ وِزْرَ ضَلَالِهِ وَضَلَالِ مَنِ اغْتَرَّ بِتَزْوِيرِهِ.

الصَّدَى

خَلْطُ التَّلْبِيسِ وَجَرِيمَةُ الكِتْمَانِ

صَدَى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

غُبَارٌ كَثِيفٌ يُنْثَرُ فَوْقَ مِرْآةِ الحَقِيقَةِ لِيُشَوِّهَ صَفَاءَهَا، وَأَيْدٍ تَسْدِلُ السِّتَارَ عَلَى المِصْبَاحِ المنِيرِ عَنْ عِلْمٍ وَعَمْدٍ لِيَتَعَثَّرَ السَّائِرُونَ فِي الظَّلَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَجْمِيلِ البَاطِلِ بِبَعْضِ كَلِمَاتِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّلْبِيسَ أَشَدُّ فَتْكاً بِالعُقُولِ مِنَ البَاطِلِ الصَّرِيحِ الَّذِي تَنْفِرُ مِنْهُ الفِطَرُ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً أَقْوَالاً تَتَزَيَّنُ بِثَوْبِ الصِّدْقِ وَهِيَ تَحْمِلُ السُّمَّ فِي أَحْشَائِهَا، حَتَّى هَزَّنِي هٰذَا النِّدَاءُ الَّذِي يَسْتَنْكِرُ التَّلْبِيسَ وَالكِتْمَانَ مَعَ وُجُودِ العِلْمِ! أَتَأَمَّلُ السَّاقِيَ الخَائِنَ الَّذِي يَمْزُجُ كَأْسَ الماءِ العَذْبِ بِقَطَرَاتٍ مِنَ السُّمِّ الزُّعَافِ ثُمَّ يُخْفِي الدَّوَاءَ الشَّافِيَ عَنِ العَطْشَى، فَيَشْرَبُ النَّاسُ الهَلَاكَ وَهُمْ يَظُنُّونَهُ الحَيَاةَ وَالرِّيَّ. فَمَا أَشَدَّ جُرْمَ مَنْ يَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَيَكْتُمُونَ نُورَ اللهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَوُضُوحَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي فِي الكَلِمَةِ مِنْ مُجَامَلَةٍ تَخْلِطُ الأَوْرَاقَ إِلَى نَزَاهَةٍ صَافِيَةٍ تَفْصِلُ الحَقَّ عَنِ البَاطِلِ وَتُعْلِنُهُ بِوُضُوحٍ. فَكُلُّ تَلْبِيسٍ وَكِتْمَانٍ مَآلُهُ الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ النَّاصِعِ المبِينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 72 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

كَشْفُ المؤَامَرَاتِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَتَّخِذُ الإِيمَانَ الظَّاهِرَ وَسِيلَةً لِإِحْدَاثِ الرِّدَّةِ وَالتَّشْكِيكِ يُحَصِّنُ وَعْيَ المؤْمِنِينَ ضِدَّ أَلَاعِيبِ المنَافِقِينَ وَالمتَلَوِّنِينَ. تَدْبِيرُ تِلْكَ الطَّائِفَةِ بِإِظْهَارِ التَّصْدِيقِ أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ

إِعْلَانِ الكُفْرِ آخِرَهُ لِيُوهِمُوا البُسَطَاءَ أَنَّهُمْ وَجَدُوا عَيْباً فِي الدِّينِ الجَدِيدِ يَكْشِفُ أَنَّ أَعْدَاءَ الحَقِّ يَسْتَغِلُّونَ تَقَلُّبَ المَوَاقِفِ لِزَعْزَعَةِ الثَّابِتِينَ. هٰذَا الفَضْحُ السَّمَاوِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاهْتِزَازِ أَمَامَ رِدَّةِ المُرْتَدِّينَ أَوْ تَرَاجُعِ المُتَلَوِّنِينَ، لِيُدْرِكَ أَنَّ الحَقَّ لَا يُقَاسُ بِمَوَاقِفِ العَابِثِينَ. فَمَنْ بَنَى يَقِينَهُ عَلَى البُرْهَانِ ثَبَتَ فِي وَجْهِ الحِيَلِ، بَيْنَمَا يَنْخَدِعُ السَّاذَجُ بِتَمْثِيلِيَّاتِ التَّلَوُّنِ فَيَضِلُّ سَبِيلَ الرَّشَادِ.

الصَّدَى

مَكْرُ التَّلَوُّنِ وَحِصْنُ الثَّبَاتِ

صَدَى ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

أَفْنِعَةٌ زَائِفَةٌ تُرْتَدَى عِنْدَ شُرُوقِ الصَّبَاحِ ثُمَّ تُخْلَعُ عِنْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، فِي مَكِيدَةٍ خَبِيثَةٍ تَبْتَغِي زَلْزَلَةَ اليَقِينِ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّأَثُّرِ بِتَرَاجُعِ المُتَذَبْذِبِينَ أَوْ انْسِحَابِ المُدَّعِينَ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الحَقَّ ثَابِتٌ بِذَاتِهِ وَلَا يَضُرُّهُ مَكْرُ المُتَلَوِّنِينَ. وَكَمْ حَاوَلَتِ الحِيَلُ قَدِيماً أَنْ تَزْرَعَ الشَّكَّ فِي النُّفُوسِ عَبْرَ إِظْهَارِ الدُّخُولِ فِي الحَقِّ ثُمَّ الخُرُوجِ مِنْهُ بِضَجِيجٍ مُفْتَعَلٍ، حَتَّى فَضَحَ الوَحْيُ هٰذِهِ اللُّعْبَةَ قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِيَ عَلَى أَحَدٍ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الشَّامِخَ كَيْفَ يَقِفُ بِنَفْسِ الشُّمُوخِ وَالرُّسُوخِ فِي وَجْهِ النَّهَارِ وَفِي آخِرِهِ، فَلَا يَزِيدُهُ إِقْبَالُ الطُّيُورِ عَلَيْهِ صَبَاحاً عَظَمَةً وَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَبَاتِهِ رَحِيلُهَا عَنْهُ مَسَاءً. فَمَا أَعْظَمَ حِفْظَ اللهِ لِعِبَادِهِ حِينَ يَكْشِفُ لَهُمْ مُؤَامَرَاتِ المُتَلَوِّنِينَ فِي الخَفَاءِ لِيَزْدَادُوا بَصِيرَةً وَثَبَاتاً عَلَى دِينِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي مِنْ تَأَثُّرٍ بِتَقَلُّبَاتِ البَشَرِ إِلَى رُسُوخٍ عَمِيقٍ يَسْتَنِدُ إِلَى بُرْهَانِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ مَكْرٍ يَتَلَاعَبُ بِالإِيمَانِ مَآلُهُ الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ الثَّابِتِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 73 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسَرَاتُ الحَسَدِ وَالعَصَبِيَّةِ الطَّائِفِيَّةِ الَّتِي تَحْتَكِرُ النُّبُوَّةَ وَالفَضْلَ تَتَحَطَّمُ أَمَامَ الحَقِيقَةِ الكُبْرَى: «إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ» وَ«إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ». تَوَاصِي المُتَعَصِّبِينَ بِعَدَمِ تَصْدِيقِ أَيِّ هِدَايَةٍ تَأْتِي مِنْ خَارِجِ دَائِرَتِهِمْ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَنَالَ غَيْرُهُمْ شَرَفَ الوَحْيِ وَالمحَاجَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُجِيبُهُ القُرْآنُ بِتَقْرِيرِ سِيَادَةِ الخَالِقِ المطْلَقَةِ عَلَى خَزَائِنِ الهِدَايَةِ وَالفَضْلِ؛ إِذْ لَا يَمْلِكُ بَشَرٌ أَنْ يَحْجُرَ عَلَى رَحْمَةِ الوَاسِعِ العَلِيمِ أَوْ يَمْنَعَ عَطَاءَهُ عَمَّنِ اصْطَفَاهُ. هٰذَا الحَسْمُ النُّورَانِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ ضِيقِ الأَنَانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. فَمَنْ سَلَّمَ بِأَنَّ الهُدَى وَالفَضْلَ بِيَدِ مَوْلَاهُ سَلِمَ صَدْرُهُ مِنَ الحَسَدِ وَاهْتَدَى لِلْحَقِّ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ الحَاسِدُ بِنَارِ غَيْظِهِ وَعَطَاءُ السَّمَاءِ يَتَدَفَّقُ عَلَى الصَّادِقِينَ.

الصَّدَى

سِيَادَةُ الهُدَى وَخَزَائِنُ الفَضْلِ الوَاسِعِ

صَدَى ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أَسْوَارٌ ضَيِّقَةٌ يَبْنِيهَا الحَسَدُ لِيَحْبِسَ رَحْمَةَ السَّمَاءِ فِي طَائِفَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَهْدِمُهَا نِدَاءُ الحَقِّ مُعْلِناً أَنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ احْتِكَارِ الفَضِيلَةِ أَوِ الضِّيقِ بِعَطَاءِ الخَالِقِ لِلْآخَرِينَ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الرِّضَا بِتَقْسِيمِ الوَاسِعِ العَلِيمِ الَّذِي لَا تَنْفَدُ خَزَائِنُهُ. وَكَمْ أَعْمَى الحَسَدُ قَدِيماً عُيُونَ المُتَعَصِّبِينَ عَنْ رُؤْيَةِ النُّورِ لِأَنَّهُ أَشْرَقَ فِي غَيْرِ دِيَارِهِمْ، فَحَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ضِيَائِهِ بِسَبَبِ كِبْرِهِمْ وَغَيْظِهِمْ! أَتَأَمَّلُ المطَرَ الغَزِيرَ الَّذِي تَسُوقُهُ الرِّيَاحُ بِأَمْرِ البَارِئِ فَوْقَ الأَرَاضِي الوَاسِعَةِ، فَهَلْ يَمْلِكُ أَهْلُ وَادٍ وَاحِدٍ أَنْ يَحْبِسُوا السَّحَابَ فِي سَمَائِهِمْ وَيَمْنَعُوا غَيْثَهُ عَنْ بَقِيَّةِ البِلَادِ وَالعِبَادِ؟! فَمَا أَعْظَمَ سَعَةَ اللهِ وَعِلْمَهُ حِينَ يَرُدُّ عَلَى المُتَعَصِّبِينَ بِأَنَّ الهُدَى وَالفَضْلَ بِيَدِهِ وَحْدَهُ يُؤْتِيهِمَا مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِنِعَمِ السَّمَاءِ مِنْ ضِيقٍ يَحْسُبُ العَطَاءَ مَحْدُوداً إِلَى رَحَابَةٍ تَفْرَحُ بِفَضْلِ الخَالِقِ الوَاسِعِ العَلِيمِ. فَكُلُّ حَسَدٍ يُعَانِدُ قِسْمَةَ السَّمَاءِ مَآلُهُ الحَسْرَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ الَّذِي يَسَعُ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 74 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّفْوِيضُ المطْلَقُ لِحِكْمَةِ الِاخْتِصَاصِ الرَّبَّانِيّ بِالنُّبُوَّةِ وَالهِدَايَةِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاعْتِرَاضِ عَلَى أَقْدَارِ السَّمَاءِ، وَيَمْلَأُ القَلْبَ بِالتَّعْظِيمِ لِذِي الفَضْلِ العَظِيمِ. اخْتِصَاصُ الخَالِقِ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ الكُبْرَى لَيْسَ مُحَابَاةً عَشْوَائِيَّةً، بَلْ هُوَ اصْطِفَاءٌ صَادِرٌ عَنْ عِلْمٍ مُحِيطٍ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَفَضْلٍ عَظِيمٍ لَا يُحَدُّ بِقُيُودٍ وَلَا يُقَاسُ بِمَقَايِيسِ البَشَرِ. هٰذِهِ الحَقِيقَةُ تَزْرَعُ فِي الرُّوحِ الأَمَلَ الدَّائِمَ فِي نَيْلِ نَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ وَالِاجْتِبَاءِ عَبْرَ الصِّدْقِ وَالإِقْبَالِ عَلَى المَوْلَى. فَمَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِذِي الفَضْلِ العَظِيمِ وَتَعَرَّضَ لِنَفَحَاتِهِ نَالَ حَظَّهُ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ المُعْتَرِضُ السَّاخِطُ نَفْسَهُ مِنْ خَيْرَاتِ السَّمَاءِ وَعَطَايَاهَا.

الصَّدَى

نَفَحَاتُ الِاخْتِصَاصِ وَذُو الفَضْلِ العَظِيمِ

صَدَى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

سَحَابَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَنَزَّلُ بِرَحْمَةٍ خَاصَّةٍ عَلَى قُلُوبٍ اصْطَفَاهَا الخَالِقُ، فَتُغْنِيهَا بِفَضْلِهِ العَظِيمِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاعْتِرَاضِ عَلَى تَفَاوُتِ العَطَايَا وَالمَوَاهِبِ بَيْنَ الخَلْقِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَا عِنْدَ السَّمَاءِ هُوَ مَحْضُ فَضْلٍ وَكَرَمٍ مِنْ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ. وَكَمْ تَطَلَّعْتُ عَيْنِي قَدِيماً إِلَى مَوَاهِبِ النَّاسِ بِحَيْرَةٍ، حَتَّى أَرَاحَتْنِي هٰذِهِ الآيَةُ القَصِيرَةُ العَمِيقَةُ الَّتِي تَرُدُّ الِاخْتِصَاصَ كُلَّهُ إِلَى مَشِيئَةِ الرَّحْمٰنِ وَسَعَةِ فَضْلِهِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الشَّامِخَ الَّذِي يَخْتَصُّهُ البَارِئُ بِتَفَجُّرِ عَيْنِ مَاءٍ عَذْبَةٍ مِنْ بَيْنِ صُخُورِهِ الصَّمَّاءِ، فَتَصِيرُ تِلْكَ العَيْنُ مَصْدَرَ حَيَاةٍ وَرِيٍّ لِلْجَبَلِ وَلِكُلِّ مَا حَوْلَهُ مِنَ السُّهُولِ وَالوِدْيَانِ بِفَضْلٍ إِلٰهِيٍّ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ رَدَّهُ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ جُودِهِ لِلسَّائِلِينَ الصَّادِقِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أُمنِيَاتِي مِنْ تَعَلُّقٍ بِالأَسْبَابِ القَاصِرَةِ إِلَى ابْتِهَالٍ خَاشِعٍ يَسْأَلُ ذَا الفَضْلِ العَظِيمِ أَنْ يَخُصَّنِي بِرَحْمَتِهِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ بَشَرِيٍّ مَآلُهُ النَّفَادُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ العَظِيمِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 75 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاعْتِدَالُ القُرْآنِيُّ فِي الحُكْمِ عَلَى النَّاسِ دُونَ تَعْمِيمٍ جَائِرٍ يُبْرِزُ نَزَاهَةَ الوَحْيِ فِي الإِشَادَةِ بِأَهْلِ الأَمَانَةِ وَفَضْحِ الخَائِنِينَ الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ سَرِقَةَ المخَالِفِينَ بِفَتَاوَى زَائِفَةٍ. القُرْآنُ يُنْصِفُ الأُمَنَاءَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ يَرُدُّونَ القِنْطَارَ العَظِيمَ بِأَمَانَةٍ وَوَفَاءٍ، وَيَكْشِفُ فِي المقَابِلِ خِيَانَةَ مَنْ يَجْحَدُ الدِّينَارَ الوَاحِدَ إِلَّا بِالمُلَازَمَةِ وَالمطَالَبَةِ، مُبَيِّناً أَنَّ سَبَبَ انْحِرَافِهِمْ هُوَ عَقِيدَتُهُمُ الفَاسِدَةُ الَّتِي تَسْتَبِيحُ أَمْوَالَ غَيْرِهِمْ بِدَعْوَى أَنَّهُمْ «أُمِّيُّونَ» لَا حُرْمَةَ لَهُمْ، وَهٰذَا افْتِرَاءٌ وَكَذِبٌ صَرِيحٌ عَلَى شَرِيعَةِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ. هٰذَا المِيزَانُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّعْمِيمِ الأَعْمَى وَيُحَرِّمُ اسْتِبَاحَةَ حُقُوقِ البَشَرِ تَحْتَ أَيِّ ذَرِيعَةٍ دِينِيَّةٍ أَوْ طَائِفِيَّةٍ. فَمَنْ صَانَ الأَمَانَةَ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ نَالَ شَهَادَةَ الصِّدْقِ وَالعَدْلِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ الخَائِنُ المفْتَرِي وِزْرَ السَّرِقَةِ وَالكَذِبِ عَلَى السَّمَاءِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الإِنْصَافِ وَحُرْمَةُ الأَمَانَةِ

صَدَى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

مِيزَانٌ نُورَانِيٌّ يَزِنُ البَشَرَ بِأَفْعَالِهِمْ لَا بِالتَّعْمِيمِ الجَائِرِ، فَيُكْرِمُ أَمِينَ القِنْطَارِ بِثَنَاءِ الصِّدْقِ وَيَفْضَحُ خَائِنَ الدِّينَارِ الَّذِي يَسْتَبِيحُ الحُقُوقَ بِالكَذِبِ عَلَى السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الحُكْمِ الجَمَاعِيِّ الَّذِي يَظْلِمُ الأَبْرِيَاءَ بِذَنْبِ الخَائِنِينَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الأَمَانَةَ قِيمَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ عُظْمَى تَصُونُ حُقُوقَ النَّاسِ جَمِيعاً بِلَا تَمْيِيزٍ. وَكَمْ بَرَّرَتِ الأَهْوَاءُ قَدِيماً أَكْلَ أَمْوَالِ المخَالِفِينَ بِتَأْوِيلَاتٍ مَا أَنْزَلَ الخَالِقُ بِهَا سُلْطَاناً، حَتَّى هَتَكَ الوَحْيُ أَسْتَارَ هٰذَا الافْتِرَاءِ وَأَعْلَنَ أَنَّهُ كَذِبٌ صَرِيحٌ عَلَى اللهِ! أَتَأَمَّلُ كِفَّتَيِ المِيزَانِ العَادِلِ كَيْفَ تَرْتَفِعُ إِحْدَاهُمَا بِثِقَلِ الذَّهَبِ الخَالِصِ وَلَوْ كَانَ فِي يَدِ غَرِيبٍ، وَتَهْوِي الأُخْرَى بِخِفَّةِ الزَّيْفِ وَلَوْ تَزَيَّنَ بِأَلْقَابِ الدِّينِ وَالعِلْمِ. فَمَا أَعْظَمَ إِنْصَافَ اللهِ الَّذِي يَحْفَظُ

حَقَّ الأَمِينِ وَيَفْضَحُ كَذِبَ مَنِ اسْتَبَاحَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَهُوَ يَعْلَمُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي فِي المِعَامَلَاتِ إِلَى مَبْدَأٍ ثَابِتٍ يَرُدُّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا مَهْمَا احْتَلَفَتْ أَدْيَانُهُمْ أَوْ أَوْطَانُهُمْ. فَكُلُّ خِيَانَةٍ تَتَسَتَّرُ بِالدِّينِ مَآلُهَا الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ وَأَمَانَتِهِ الَّتِي تَصُونُ الخَلْقَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 76 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الوَفَاءُ بِالعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ المَقْرُونُ بِتَقْوَى الخَالِقِ هُوَ الطَّرِيقُ المَضْمُونُ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ السَّمَاءِ وَإِبْطَالِ كُلِّ دَعَاوَى الِاسْتِبَاحَةِ وَالتَّحَلُّلِ مِنَ الحُقُوقِ. كَلِمَةُ «بَلَى» القَاطِعَةُ تَرُدُّ عَلَى كَذِبِ مَنْ زَعَمُوا أَنْ لَا سَبِيلَ عَلَيْهِمْ فِي ظُلْمِ الآخَرِينَ، لِتُقَرِّرَ قَانُونَ العَدْلِ الأَخْلَاقِيِّ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ مُطَالَبٌ بِالوَفَاءِ بِعَهْدِهِ مَعَ رَبِّهِ وَمَعَ خَلْقِهِ، وَمَنْ التَزَمَ هٰذَا الوَفَاءَ بِتَقْوَى وَإِخْلَاصٍ نَالَ أَعْظَمَ وِسَامٍ فِي الوُجُودِ وَهُوَ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لِلْمُتَّقِينَ. هٰذَا المَبْدَأُ يُحَرِّرُ الضَّمِيرَ مِنَ الِازْدِوَاجِيَّةِ الأَخْلَاقِيَّةِ. فَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى رَبَّهُ أَحَبَّهُ مَوْلَاهُ وَبَارَكَ حَيَاتَهُ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ نَاقِضُ العُهُودِ وِدَّ السَّمَاءِ وَثِقَةَ الأَرْضِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ الوَفَاءِ وَتَاجُ المَحَبَّةِ

صَدَى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

كَلِمَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَهْدِمُ مَعَاذِيرَ الخَائِنِينَ، وَتَرْفَعُ لِوَاءَ الوَفَاءِ وَالتَّقْوَى لِتَتَوَّجَ أَصْحَابَهُ بِأَغْلَى وِسَامٍ فِي الكَوْنِ: مَحَبَّةِ الرَّبِّ لِلْمُتَّقِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّفْرِقَةِ فِي الوَفَاءِ بَيْنَ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ أَوْ مُوَافِقٍ وَمُخَالِفٍ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ العَهْدَ مَسْؤُولِيَّةٌ مُقَدَّسَةٌ تَحْرُسُهَا التَّقْوَى. وَكَمْ تَنَاقَلَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً عَنْ أَدَاءِ العُهُودِ حِينَ غَابَتِ المَصْلَحَةُ العَاجِلَةُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ الَّتِي تَرْبِطُ الوَفَاءَ بِمَحَبَّةِ الخَالِقِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الرَّاسِخَ الَّذِي يَفِي بِعَهْدِ الثَّبَاتِ لِلْأَرْضِ فَيَحْفَظُ تَوَازُنَهَا فِي كُلِّ الفُصُولِ، كَيْفَ تُكْرِمُهُ السَّمَاءُ بِالغَيْثِ وَالثُّلُوجِ وَتَجْعَلُ مِنْ قِمَمِهِ مَنْبَعاً لِلْأَنْهَارِ الَّتِي تَسْقِي البِلَادَ وَتُحْيِي الحَيَاةَ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُحِبُّ المُتَّقِينَ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعُهُودِهِمْ وَيَصُونُونَ أَمَانَاتِهِمْ فِي السِّرِّ

وَالعَلَنِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَتِي وَوَعْدِي إِلَى مِيثَاقٍ شَرِيفٍ أُوفِي بِهِ طَمَعاً فِي مَحَبَّةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ نَقْضٍ لِلْعَهْدِ مَآلُهُ البُغْضُ وَالخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي تَغْمُرُ المُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 77 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سُقُوطُ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ الَّتِي تَبِيعُ عَهْدَ الخَالِقِ وَالأَيْمَانَ المُغَلَّظَةَ بِحُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِي يُورِثُ أَقْسَى أَنْوَاعِ الحِرْمَانِ وَالإِهَانَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ. كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ وَرِئَاسَةٍ هُوَ «ثَمَنٌ قَلِيلٌ» تَافِهٌ حِينَ يُقَارَنُ بِخُسْرَانِ النَّصِيبِ فِي الآخِرَةِ؛ إِذْ يُعَاقَبُ نَاقِضُ العَهْدِ وَالحَالِفُ الكَاذِبُ بِعُقُوبَاتٍ أَرْبَعٍ تَخْلَعُ القُلُوبَ: انْعِدَامُ النَّصِيبِ مِنَ الخَيْرِ، وَحِرْمَانُ كَلَامِ الرَّبِّ، وَإِعْرَاضُ نَظَرِ الرَّحْمَةِ عَنْهُ، وَعَدَمُ التَّزْكِيَةِ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ، مَعَ العَذَابِ الأَلِيمِ. هٰذَا الوَعِيدُ المَهَابُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ جَشَعِ المَادَّةِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِالأَيْمَانِ. فَمَنْ صَانَ عَهْدَ مَوْلَاهُ وَلَمْ يَبِعْ دِينَهُ بِعَرَضٍ زَائِلٍ نَالَ النَّظَرَ وَالتَّزْكِيَةَ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ بَائِعُ دِينِهِ الدَّارَيْنِ فِي صَفْقَةٍ بَائِسَةٍ.

الصَّدَى

صَفْقَةُ الخُسْرَانِ وَحِرْمَانُ النَّظَرِ وَالتَّزْكِيَةِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

مِيزَانٌ مَهِيبٌ يَكْشِفُ تَفَاهَةَ حُطَامِ الدُّنْيَا كُلِّهِ أَمَامَ عَهْدِ السَّمَاءِ، فَيُعْلِنُ أَنَّ مَنْ بَاعَ يَمِينَهُ وَمِيثَاقَهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ فَقَدْ خَسِرَ نَصِيبَهُ فِي الآخِرَةِ وَحُرِمَ كَلَامَ الرَّبِّ وَنَظْرَهُ وَتَزْكِيَتَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ المَكَاسِبَ المَادِّيَّةَ المُقْتَطَعَةَ بِالأَيْمَانِ الكَاذِبَةِ تَبْنِي مُسْتَقْبَلاً أَوْ تَجْلِبُ سَعَادَةً، وَتَسْتَقِرُّ رَهْبَةُ الحِرْمَانِ الأَبَدِيِّ يَوْمَ اللِّقَاءِ. وَكَمْ غَرَّتِ الدُّنْيَا قَدِيماً أَصْحَابَ الأَطْمَاعِ فَحَلَفُوا بِاسْمِ الخَالِقِ كَذِباً لِيَقْتَطِعُوا حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَوْ مُعَاهَدٍ، غَافِلِينَ عَنْ يَوْمٍ يُعْرِضُ فِيهِ الرَّحْمٰنُ عَنْهُمْ فَلَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ! أَتَأَمَّلُ التَّاجِرَ الأَحْمَقَ الَّذِي يَبِيعُ جَوْهَرَةً لَا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ تَضِيءُ لَهُ قَصْرَهُ الأَبَدِيَّ مُقَابِلَ حَفْنَةٍ مِنْ تُرَابٍ تَذْرُوهَا الرِّيحُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى بَابِ بَيْتِهِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَحْرِمُ نَاقِضِي العَهْدِ مِنْ كَلَامِهِ وَنَظَرِهِ وَتَزْكِيَتِهِ وَيُعِدُّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً جَزَاءَ اسْتِخْفَافِهِمْ بِاسْمِهِ وَمِيثَاقِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْطَتِي فِي اليَمِينِ وَالعَهْدِ إِلَى تَعْظِيمٍ خَاشِعٍ يَرَى الدُّنْيَا كُلَّهَا ثَمَناً قَلِيلاً لَا يَسْتَحِقُّ التَّفْرِيطَ فِي رِضَا الخَالِقِ. فَكُلُّ كَسْبٍ يَأْتِي بِنَقْضِ العَهْدِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ وَرِضْوَانِهِ الَّذِي يَفُوزُ بِهِ الصَّادِقُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 78 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّلَاعُبُ اللُّغَوِيُّ وَتَحْرِيفُ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ لِإِيهَامِ النَّاسِ بِأَنَّ أَهْوَاءَ البَشَرِ هِيَ شَرِيعَةُ السَّمَاءِ يُمَثِّلُ أَخْطَرَ أَنْوَاعِ التَّزْوِيرِ الدِّينِيِّ وَالفِكْرِيِّ. كَشْفُ القُرْآنِ لِهٰذَا الفَرِيقِ الَّذِينَ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالنُّطْقِ وَالتَّأْوِيلِ لِيُلْصِقُوا بِكِتَابِ الخَالِقِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، ثُمَّ يَنْسُبُونَ أَكَاذِيبَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ عَنْ عَمْدٍ وَعِلْمٍ، يُحَصِّنُ وَعْيَ الأُمَّةِ ضِدَّ التَّحْرِيفِ المَعْنَوِيِّ وَاللَّفْظِيِّ. هٰذَا الفَضْحُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاسْتِسْلَامِ لِلتَّأْوِيلَاتِ المُتَكَلَّفَةِ الَّتِي تَلْوِي أَعْنَاقَ النُّصُوصِ، وَيَدْعُو لِلرُّجُوعِ إِلَى صَفَاءِ الوَحْيِ المُبِينِ. فَمَنْ أَدَّى النَّصَّ بِأَمَانَةٍ وَفَهِمَهُ بِاسْتِقَامَةٍ نَالَ شَرَفَ الصِّدْقِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ مُحَرِّفُ الكَلِمِ وِزْرَ الكَذِبِ المُتَعَمَّدِ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ.

الصَّدَى

الْتِوَاءُ الأَلْسِنَةِ وَنَقَاءُ التَّنْزِيلِ
صَدَى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
أَلْسِنَةٌ مُعْوَجَّةٌ تَلْوِي حُرُوفَ الكِتَابِ وَمَعَانِيَهُ لِتَصُوغَ مِنْ أَهْوَائِهَا قَوْلاً تَنْسُبُهُ زُوراً إِلَى السَّمَاءِ،

فَيَنْزِلُ الوَحْيُ لِيَهْتِكَ التَّزْوِيرَ وَيُبْرِئَ كَلَامَ الخَالِقِ مِنِ افْتِرَائِهِمْ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْخِدَاعِ بِالتَّلَاعُبِ اللُّغَوِيِّ الَّذِي يَصْنَعُ فَتَاوَى عَلَى مَقَاسِ المِطَامِعِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ التَّثَبُّتِ وَالرُّجُوعِ إِلَى نُورِ النَّصِّ الصَّافِي. وَكَمْ حَاوَلَ المحَرِّفُونَ قَدِيماً أَنْ يُغَيِّرُوا مَلَامِحَ الحَقِيقَةِ بِلَيِّ الأَلْسِنَةِ وَتَحْرِيفِ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، حَتَّى كَشَفَ القُرْآنُ زَيْفَهُمْ بِعِبَارَاتٍ تَقْرَعُ الآذَانَ وَتُوقِظُ القُلُوبَ! أَتَأَمَّلُ الماءَ الزُّلَالَ الَّذِي يَنْبَعُ صَافِياً مِنْ صَخْرَةِ الجَبَلِ، كَيْفَ يُحَاوِلُ العَابِثُونَ تَمْرِيرَهُ فِي قَنَوَاتٍ مُلْتَوِيَةٍ مَطْلِيَّةٍ بِالأَصْبَاغِ لِيُوهِمُوا النَّاسَ أَنَّ ذٰلِكَ اللَّوْنَ المتَعَكِّرَ هُوَ طَبِيعَةُ النَّبْعِ الأَصْلِيِّ. فَمَا أَشَدَّ جُرْمَ مَنْ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَرَاءَةَ الوَحْيِ مِنْ قَوْلِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي فِي النَّقْلِ وَالفَهْمِ إِلَى وَرَعٍ شَدِيدٍ يَخْشَى أَنْ يَنْسُبَ إِلَى الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. فَكُلُّ تَحْرِيفٍ يَصْنَعُهُ الهَوَى مَآلُهُ الِانْكِشَافُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكَلَامِ اللهِ المحْفُوظِ مِنَ التَّبْدِيلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 79 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

رِسَالَةُ الأَنْبِيَاءِ وَالعُلَمَاءِ الحَقِيقِيَّةُ تَقُومُ عَلَى تَعْبِيدِ الخَلْقِ لِخَالِقِهِمْ وَبِنَاءِ الجِيلِ الرَّبَّانِيِّ، لَا عَلَى اسْتِعْبَادِ الأَتْبَاعِ وَتَقْدِيسِ الذَّوَاتِ. القُرْآنُ يُنَزِّهُ كُلَّ نَبِيٍّ آتَاهُ السَّمَاءُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ عَنْ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ لِعِبَادَتِهِ مِنْ دُونِ الخَالِقِ، بَلْ غَايَتُهُ العُظْمَى هِيَ تَرْبِيَةُ العُقُولِ بِتَعْلِيمِ الكِتَابِ وَدِرَاسَتِهِ لِيَكُونُوا «رَبَّانِيِّينَ» حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ عَامِلِينَ يَرْبِطُونَ النَّاسَ بِرَبِّهِمْ وَحْدَهُ. هٰذَا المِعْيَارُ يَهْدِمُ كَهَنُوتَ الِاسْتِئْثَارِ الدِّينِيِّ وَتَأْلِيهِ القَادَةِ وَالمرَبِّينَ. فَمَنْ عَلَّمَ الكِتَابَ وَدَرَسَهُ لِيَصْنَعَ عِبَاداً لِهِ رَبَّانِيِّينَ نَالَ شَرَفَ الوِرَاثَةِ النَّبَوِيَّةِ، بَيْنَمَا يَنْحَرِفُ مَنْ يَسْتَعْبِدُ النَّاسَ بِاسْمِ الدِّينِ عَنْ مَنْهَجِ جَمِيعِ المرْسَلِينَ.

الصَّدَى

تَرْبِيَةُ الرَّبَّانِيِّينَ وَبَرَاءَةُ النُّبُوَّةِ

صَدَى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن

دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ مَنَارَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَرْسُمُ الغَايَةَ الأَسْمَى لِلْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ؛ فَلَيْسَ النَّبِيُّ وَلَا العَالِمُ صَنَماً يُعْبَدُ مِنْ دُونِ السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ مُرَبٍّ يَأْخُذُ بِأَيْدِي النَّاسِ لِيَكُونُوا رَبَّانِيِّينَ خَالِصِينَ لِلْوَاحِدِ الأَحَدِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَقْدِيسِ الأَشْخَاصِ أَوِ التَّعَلُّقِ بِالْوَسَائِطِ البَشَرِيَّةِ دُونَ الخَالِقِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ ثَمَرَةَ دِرَاسَةِ الكِتَابِ هِيَ الرَّبَّانِيَّةُ الصَّادِقَةُ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ وَالتَّوْحِيدِ. وَكَمْ حَوَّلَتِ الأَهْوَاءُ قَدِيماً بَعْضَ المُتَصَدِّرِينَ إِلَى أَرْبَابٍ يُطَاعُونَ فِي مَعْصِيَةِ السَّمَاءِ، حَتَّى أَعْلَنَ القُرْآنُ بَرَاءَةَ النُّبُوَّةِ مِنْ كُلِّ اسْتِعْبَادٍ لِلْبَشَرِ! أَتَأَمَّلُ المُعَلِّمَ الحَكِيمَ الَّذِي يُوقِدُ شَمْعَةً فِي الظَّلَامِ لِيُرِيَ تَلَامِيذَهُ شَمْسَ النَّهَارِ السَّاطِعَةَ وَيَفْتَحَ لَهُمْ نَوَافِذَ السَّمَاءِ، فَلَا يَحْبِسُ أَبْصَارَهُمْ فِي ذَاتِهِ بَلْ يَدُلُّهُمْ عَلَى مَصْدَرِ النُّورِ الأَعْظَمِ. فَمَا أَعْظَمَ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي تَدْعُو حَمَلَةَ الكِتَابِ وَدَارِسِيهِ إِلَى أَنْ يَكُونُوا رَبَّانِيِّينَ يَرْبِطُونَ الخَلْقَ بِخَالِقِهِمْ وَحْدَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتِي بِالعِلْمِ وَالعُلَمَاءِ مِنْ تَبَعِيَّةٍ عَمْيَاءَ إِلَى تَرْبِيَةٍ رَبَّانِيَّةٍ تَزْدَادُ قُرْباً مِنَ الرَّبِّ كُلَّمَا ازْدَادَتْ دِرَاسَةً لِكِتَابِهِ. فَكُلُّ تَقْدِيسٍ لِلْبَشَرِ مَآلُهُ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 80 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِحَالَةُ أَنْ يَأْمُرَ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنَ السَّمَاءِ بِعِبَادَةِ المَلَائِكَةِ أَوِ الأَنْبِيَاءِ تُؤَكِّدُ أَنَّ كُلَّ شِرْكٍ يُنْسَبُ إِلَى الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ هُوَ نَقْضٌ لِجَوْهَرِ النُّبُوَّةِ وَرِدَّةٌ عَنِ الإِسْلَامِ الفِطْرِيِّ. التَّسَاؤُلُ الِاسْتِنْكَارِيُّ البَلِيغُ: «أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» يَكْشِفُ التَّنَاقُضَ المُطْلَقَ بَيْنَ مَهَمَّةِ الرَّسُولِ الَّذِي بُعِثَ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الكُفْرِ إِلَى الإِسْلَامِ وَبَيْنَ الدَّعْوَةِ إِلَى اتِّخَاذِ المَخْلُوقِينَ أَرْبَاباً مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُمْ مِنَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ أَوِ النَّبِيِّينَ المُصْطَفَيْنَ. هٰذَا الحَسْمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ شِرْكِ التَّوَسُّلِ البَاطِلِ وَتَأْلِيهِ الصَّالِحِينَ. فَمَنْ أَفْرَدَ رَبَّهُ بِالأُلُوهِيَّةِ وَنَزَّهَ المَلَائِكَةَ وَالأَنْبِيَاءَ عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ حَفِظَ إِسْلَامَهُ، بَيْنَمَا يَرْتَدُّ مَنِ اتَّخَذَ المَخْلُوقِينَ أَرْبَاباً إِلَى ظُلُمَاتِ الكُفْرِ بَعْدَ نُورِ الإِسْلَامِ.

الصَّدَى

تَنْزِيهُ الرِّسَالَةِ وَعِصْمَةُ التَّوْحِيدِ

صَدَى ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ حِصْنٌ نُورَانِيٌّ يَصُونُ جَنَابَ التَّوْحِيدِ مِنْ أَنْ يُدَنَّسَ بِاتِّخَاذِ المَلَائِكَةِ أَوِ النَّبِيِّينَ أَرْبَاباً، فَيُعْلِنُ أَنَّ الرِّسَالَةَ جَاءَتْ لِتُحَرِّرَ العُقُولَ مِنَ الكُفْرِ لَا لِتُعِيدَهَا إِلَيْهِ بَعْدَ الإِسْلَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِغَاثَةِ بِالمَخْلُوقِينَ أَوْ إِشْرَاكِهِمْ فِي خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ المَلَائِكَةَ وَالأَنْبِيَاءَ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً. وَكَمْ زَيَّنَ الشَّيْطَانُ قَدِيماً لِلْغَافِلِينَ تَقْدِيسَ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلَائِكَةِ حَتَّى صَيَّرَهُمْ أَرْبَاباً يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ الخَالِقِ، فَجَاءَ هٰذَا السُّؤَالُ القَاطِعُ لِيُوقِظَ العُقُولَ مِنْ سُبَاتِ الشِّرْكِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِيرَ الأَمِينَ الَّذِي يُرْسِلُهُ المَلِكُ العَظِيمُ لِيَدْعُوَ الرَّعِيَّةَ إِلَى طَاعَةِ سَيِّدِهِمْ وَوَلِيِّ نِعْمَتِهِمْ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَدْعُوَ ذٰلِكَ السَّفِيرُ النَّاسَ إِلَى التَّمَرُّدِ عَلَى المَلِكِ وَتَنْصِيبِهِ هُوَ مَلِكاً مِنْ دُونِهِ؟! فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ الَّتِي تُنَزِّهُ النُّبُوَّةَ عَنِ الأَمْرِ بِالشِّرْكِ وَتَصُونُ عَقِيدَةَ المُسْلِمِينَ مِنْ أَنْ تَنْقَلِبَ إِلَى كُفْرٍ بَعْدَ الإِيمَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى تَوْحِيدٍ خَالِصٍ يُجِلُّ المَلَائِكَةَ وَالأَنْبِيَاءَ وَيُفْرِدُ الخَالِقَ وَحْدَهُ بِالعِبَادَةِ وَالدُّعَاءِ. فَكُلُّ شِرْكٍ يَتَسَتَّرُ بِحُبِّ الصَّالِحِينَ مَآلُهُ الكُفْرُ وَالبَوَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِتَوْحِيدِ اللهِ الخَالِصِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٨١–٩٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 81 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

المِيثَاقُ الكَوْنِيُّ الغَلِيظُ الَّذِي أَخَذَهُ الخَالِقُ عَلَى جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ بِالإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ الخَاتَمِ وَنُصْرَتِهِ يُرْسِي قَانُونَ وَحْدَةِ الرِّسَالَةِ وَتَجَرُّدِ العُقُولِ لِلْحَقِّ دُونَ عَصَبِيَّةٍ أَوْ جُمُودٍ. تَعَهُّدُ النَّبِيِّينَ المُكَرَّمِينَ

بِمُؤَازَرَةِ الرَّسُولِ المصَدِّقِ لِمَا مَعَهُمْ، مَعَ إِشْهَادِ السَّمَاءِ عَلَى هٰذَا الإِقْرَارِ العَظِيمِ، يَهْدِمُ جُدْرَانَ التَّحَزُّبِ الدِّينِيِّ وَيُثْبِتُ أَنَّ نُصْرَةَ الحَقِّ المتَجَدِّدِ هِيَ الوَفَاءُ الحَقِيقِيُّ لِعَهْدِ الأَوَّلِينَ. هٰذَا المشْهَدُ المهِيبُ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ أَسْرِ الِانْغِلَاقِ عَلَى المَوْرُوثِ حِينَ يَظْهَرُ البُرْهَانُ السَّاطِعُ، وَيُبْرِزُ أَنَّ كُلَّ مَنْ ادَّعَى اتِّبَاعَ نَبِيٍّ سَابِقٍ فَهُوَ مُلْزَمٌ بِمِيثَاقِ نَبِيِّهِ فِي تَصْدِيقِ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ. فَمَنْ وَفَى بِمِيثَاقِ النُّبُوَّةِ وَنَصَرَ الحَقَّ نَالَ شَرَفَ الشَّهَادَةِ وَالوَفَاءِ، بَيْنَمَا يَنْقُضُ المعَانِدُ عَهْدَ أَنْبِيَائِهِ قَبْلَ أَنْ يَجْحَدَ رِسَالَةَ نَبِيِّهِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ النُّبُوَّاتِ وَشَهَادَةُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

مَوْكِبٌ نُورَانِيٌّ يَجْمَعُ أَنْبِيَاءَ السَّمَاءِ فِي مِيثَاقٍ وَاحِدٍ، فَيُقِرُّونَ جَمِيعاً بِالإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الخَاتَمِ وَنُصْرَتِهِ تَحْتَ شَهَادَةِ الخَالِقِ الجَلِيلِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّنَافُسِ بَيْنَ الرِّسَالَاتِ أَوِ التَّعَصُّبِ لِفَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ دُونَ سَائِرِ الوَحْيِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ إِخْوَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَيُبَشِّرُ سَابِقُهُمْ بِلَاحِقِهِمْ. وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ قَدِيماً فِي تَفْسِيرِ انْغِلَاقِ الأَتْبَاعِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ حِينَ أَشْرَقَتْ شَمْسُ الرِّسَالَةِ الخَاتِمَةِ، حَتَّى كَشَفَ هٰذَا الميثَاقُ العَظِيمُ أَنَّهُمْ خَانُوا عَهْدَ أَنْبِيَائِهِمْ أَنْفُسِهِمْ! أَتَأَمَّلُ حَمَلَةَ المشَاعِلِ فِي طَرِيقِ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ كَيْفَ يُسَلِّمُ كُلُّ حَامِلٍ مِشْعَلَهُ لِمَنْ بَعْدَهُ بِفَرَحٍ وَوُدٍّ وَمُؤَازَرَةٍ، لِيَبْقَى النُّورُ مُتَّصِلاً حَتَّى يَبْلُغَ المَوْكِبُ غَايَتَهُ المنْشُودَةَ عِنْدَ مَطْلَعِ الفَجْرِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي أَخَذَ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ عَلَى الإِيمَانِ وَالنُّصْرَةِ وَأَشْهَدَ نَفْسَهُ العَلِيَّةَ عَلَى هٰذَا العَهْدِ المتِينِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْحَقِّ مِنْ انْغِلَاقٍ ضَيِّقٍ إِلَى رَحَابَةٍ تُؤْمِنُ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ الخَالِقُ وَتَنْصُرُ رِسَالَتَهُ الخَاتِمَةَ. فَكُلُّ عَصَبِيَّةٍ تَنْقُضُ مِيثَاقَ النُّبُوَّةِ مَآلُهَا الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِشَهَادَةِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ الصَّادِقِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 82 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الخُرُوجُ عَنْ دَائِرَةِ الطَّاعَةِ وَنَقْضُ المِيثَاقِ السَّمَاوِيِّ بَعْدَ وُضُوحِ الحُجَّةِ وَقِيَامِ الشَّهَادَةِ يُوصِمُ صَاحِبَهُ بِالفِسْقِ وَالتَّمَرُّدِ عَلَى شَرِيعَةِ الخَالِقِ. التَّوَلِّي عَنِ الإِيمَانِ وَالنُّصْرَةِ بَعْدَ أَخْذِ العَهْدِ الغَلِيظِ لَيْسَ مُجَرَّدَ تَقْصِيرٍ عَابِرٍ، بَلْ هُوَ انْسِلَاخٌ كَامِلٌ عَنْ طَرِيقِ الهِدَايَةِ وَانْحِرَافٌ عَنْ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي اجْتَمَعَ عَلَيْهَا المُرْسَلُونَ. هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ يُحَرِّرُ الضَّمِيرَ مِنَ التَّهَاوُنِ فِي نَقْضِ المَوَاثِيقِ الإِيمَانِيَّةِ، وَيُذَكِّرُ بِأَنَّ الفِسْقَ الحَقِيقِيَّ هُوَ الإِعْرَاضُ عَنْ أَمْرِ السَّمَاءِ بَعْدَ الإِقْرَارِ وَالعِلْمِ. فَمَنْ ثَبَتَ عَلَى العَهْدِ وَلَمْ يَتَوَلَّ نَالَ وَصْفَ الإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ، بَيْنَمَا يَسْقُطُ المُعْرِضُ المُتَوَلِّي فِي هُوَّةِ الفِسْقِ وَالخُرُوجِ عَنِ الجَادَّةِ.

الصَّدَى

إِعْرَاضُ التَّوَلِّي وَوَصْمَةُ الفِسْقِ

صَدَى ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

خُطُوَاتٌ شَارِدَةٌ تَخْرُجُ عَنْ سِيَاجِ المِيثَاقِ بَعْدَ انْعِقَادِهِ، فَتَخْلَعُ رِدَاءَ الطَّاعَةِ وَتَخْتَارُ طَرِيقَ الفِسْقِ وَالتَّمَرُّدِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ نَقْضَ العُهُودِ السَّمَاوِيَّةِ أَمْرٌ هَيِّنٌ يُمْكِنُ تَبْرِيرُهُ بِالأَعْذَارِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّوَلِّيَ بَعْدَ البَيَانِ هُوَ الخُرُوجُ الصَّرِيحُ عَنْ طَاعَةِ الدَّيَّانِ. وَكَمْ زَلَّتْ أَقْدَامٌ قَدِيماً عَنِ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ حِينَ اسْتَخَفَّتْ بِثِقَلِ المِيثَاقِ وَتَوَلَّتْ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ، فَسَقَطَتْ فِي مَهَاوِي الفِسْقِ وَالضَّيَاعِ! أَتَأَمَّلُ الحَبَّةَ الطَّيِّبَةَ الَّتِي أُودِعَتْ فِي التُّرْبَةِ الرَّطْبَةِ لِتَنْبُتَ وَتُثْمِرَ، كَيْفَ تَخْرُجُ عَنْ قِشْرَتِهَا بِفَسَادٍ وَتَعَفُّنٍ فَلَا تَصْعَدُ نَحْوَ النُّورِ بَلْ تَتَحَلَّلُ فِي الظُّلْمَةِ وَتَفْقِدُ قُدْرَتَهَا عَلَى الحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ. فَمَا أَشَدَّ حَسْمَ اللهِ حِينَ يَحْكُمُ بِالفِسْقِ عَلَى كُلِّ مَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ المِيثَاقِ الغَلِيظِ وَأَعْرَضَ عَنِ الهُدَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي مِنْ تَسَاهُلٍ فِي الوَفَاءِ بِالعَهْدِ إِلَى حِرْصٍ دَائِمٍ يَصُونُ الإِيمَانَ مِنْ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ التَّوَلِّي وَالفِسْقُ. فَكُلُّ خُرُوجٍ عَنْ مِيثَاقِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِطَاعَةِ اللهِ وَثَبَاتِ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 83 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الِاسْتِنْكَارُ الكَوْنِيُّ عَلَى شُذُوذِ الإِنْسَانِ المعَانِدِ عَنْ سُنَّةِ الوُجُودِ كُلِّهِ يُوقِظُ العَقْلَ لِيَرَى انْسِجَامَ الكَوْنِ فِي الِاسْتِسْلَامِ لِخَالِقِهِ. فَجَمِيعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مِنَ المَلَائِكَةِ وَالأَفْلَاكِ وَالمَخْلُوقَاتِ قَدْ أَسْلَمَتْ لِأَمْرِ الخَالِقِ وَخَضَعَتْ لِسُلْطَانِهِ طَوْعاً بِالِاخْتِيَارِ وَالإِيمَانِ، أَوْ كَرْهاً بِالخُضُوعِ لِقَوَانِينِ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ وَالبَعْثِ؛ فَكَيْفَ يَبْغِي الإِنْسَانُ دِيناً غَيْرَ دِينِ الفِطْرَةِ وَالكَوْنِ وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى رَبِّهِ لَا مَحَالَةَ؟! هٰذَا الحِوَارُ الكَوْنِيُّ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ العُزْلَةِ وَالشُّذُوذِ، وَيَدْعُوهَا لِلِانْدِمَاجِ الطَّوْعِيِّ فِي تَسْبِيحِ الوُجُودِ وَطَاعَتِهِ قَبْلَ سَاعَةِ الرُّجُوعِ. فَمَنْ أَسْلَمَ طَوْعاً نَالَ شَرَفَ الانْسِجَامِ مَعَ الكَوْنِ وَرِضَا الخَالِقِ، بَيْنَمَا يَشْقَى المتَمَرِّدُ بِعِنَادِهِ ثُمَّ يَرْجِعُ كَرْهاً إِلَى مَوْلَاهُ.

الصَّدَى

تَسْبِيحُ الأَكْوَانِ وَشُذُوذُ المعَانِدِينَ

صَدَى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ نَشِيدٌ كَوْنِيٌّ عَظِيمٌ تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهُ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، حَيْثُ تَسْجُدُ الكَائِنَاتُ كُلُّهَا لِخَالِقِهَا طَوْعاً وَكَرْهاً، فَيَبْدُو المعْرِضُ عَنْ دِينِ السَّمَاءِ نَشَازاً غَرِيباً فِي سِمْفُونِيَّةِ الوُجُودِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِقْلَالِ الزَّائِفِ عَنْ نَوَامِيسِ الخَالِقِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ إِسْلَامَ وَجْهِي لِلهِ طَوْعاً هُوَ قِمَّةُ الحُرِّيَّةِ وَالانْسِجَامِ مَعَ الفِطْرَةِ. وَكَمْ شَقِيَ المتَمَرِّدُونَ قَدِيماً حِينَ حَاوَلُوا السَّبْحَ عَكْسَ تَيَّارِ الكَوْنِ المنْقَادِ لِرَبِّهِ، فَأَرْهَقُوا أَرْوَاحَهُمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْهِ رَاغِمِينَ! أَتَأَمَّلُ الكَوَاكِبَ السَّابِحَةَ فِي الفَضَاءِ الفَسِيحِ كَيْفَ تَدُورُ فِي أَفْلَاكِهَا بِخُضُوعٍ وَسَلَامٍ طَوْعاً لِأَمْرِ بَارِئِهَا، فَلَا يَشِذُّ كَوْكَبٌ عَنْ مَسَارِهِ وَلَا يَتَمَرَّدُ نَجْمٌ عَلَى قَانُونِ السَّمَاءِ لِكَيْ لَا يَخْتَرِقَ وَيَتَلَاشَى فِي الفَضَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الَّذِي أَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الخَلَائِقُ كُلُّهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي لِرَبِّي إِلَى انْسِجَامٍ عَذْبٍ مَعَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ يَسْبِقُ سَاعَةَ الرُّجُوعِ. فَكُلُّ دِينٍ يُبْتَغَى غَيْرَ دِينِ السَّمَاءِ مَآلُهُ التِّيهُ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ المرْجِعُ وَالمآبُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 84 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَالَمِيَّةُ الإِيمَانِ الإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَحْتَضِنُ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ بِلَا تَمْيِيزٍ أَوْ جُحُودٍ يُرْسِي أَشْمَلَ دُسْتُورٍ لِلتَّسَامُحِ الرُّوحِيِّ وَوَحْدَةِ الأَصْلِ الدِّينِيِّ. إِعْلَانُ المؤْمِنِينَ تَصْدِيقَهُمْ بِالخَالِقِ وَبِالوَحْيِ المَنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمُوسَى وَعِيسَى وَسَائِرِ النَّبِيِّينَ دُونَ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فِي أَصْلِ الرِّسَالَةِ، مَعَ تَتْوِيجِ ذٰلِكَ بِالإِسْلَامِ الخَالِصِ لِرَبِّ العَالَمِينَ، يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ آفَةِ الِانْتِقَاءِ وَالتَّعَصُّبِ الَّتِي وقعَ فِيهَا المحَرِّفُونَ حِينَ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ. فَمَنْ وَحَّدَ التَّصْدِيقَ بِجَمِيعِ المرْسَلِينَ وَأَسْلَمَ لِرَبِّهِ نَالَ سَعَةَ الأُفُقِ وَسَلَامَةَ الدِّينِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المفَرِّقُ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ مَحْرُوماً مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ.

الصَّدَى

رِحَابُ النُّبُوَّاتِ وَمِيثَاقُ عَدَمِ التَّفْرِقَةِ

صَدَى ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مَائِدَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَجْمَعُ أَنْوَارَ الوَحْيِ كُلِّهِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَالأَسْبَاطِ إِلَى مُوسَى وَعِيسَى وَخَاتَمِ المرْسَلِينَ، فَتُعْلِنُ عَقِيدَةً نَقِيَّةً لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ نَبِيٍّ وَنَبِيٍّ وَتُسْلِمُ الوَجْهَ لِرَبِّ العَالَمِينَ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ القَطِيعَةِ أَوِ التَّنَاقُضِ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ دِينِي هُوَ الدِّينُ الجَامِعُ الَّذِي يَحْفَظُ قَدْرَ كُلِّ نَبِيٍّ وَيُصَدِّقُ كُلَّ كِتَابٍ أُنْزِلَ بِالحَقِّ. وَكَمْ مَزَّقَتِ العَصَبِيَّةُ قَدِيماً قُلُوبَ النَّاسِ فَجَعَلَتْهُمْ يُؤْمِنُونَ بِنَبِيٍّ وَيَجْحَدُونَ آخَرَ، حَتَّى أَرْسَى القُرْآنُ هٰذَا المِيزَانَ العَادِلَ الَّذِي يَجْمَعُ الشَّتَاتَ فِي رِحَابِ الإِسْلَامِ! أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ الَّتِي تَحْتَضِنُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ جَمِيعاً فِي فَضَاءٍ وَاحِدٍ، فَلَا تُنْكِرُ ضَوْءَ نَجْمٍ وَلَا تَحْجُبُ نُورَ قَمَرٍ، بَلْ تَجْمَعُهَا كُلَّهَا لِتُضِيءَ لِلْخَلْقِ طَرِيقَ الهِدَايَةِ وَالأَمَانِ. فَمَا أَعْظَمَ سَعَةَ الإِسْلَامِ الَّذِي يُعَلِّمُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِجَمِيعِ النَّبِيِّينَ دُونَ تَفْرِقَةٍ وَأَنْ نَكُونَ لِلهِ مُسْلِمِينَ!

هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى أُفُقٍ رَحْبٍ يُجِلُّ كُلَّ رَسُولٍ وَيَعْتَصِمُ بِحَبْلِ التَّوْحِيدِ الوَاحِدِ. فَكُلُّ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ رُسُلِ السَّمَاءِ مَآلُهَا الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِدِينِ اللهِ الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ المُرْسَلُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 85 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَسْمُ مَعَايِيرِ القَبُولِ عِنْدَ الخَالِقِ بِإِقْرَارِ أَنَّ الإِسْلَامَ وَالِاسْتِسْلَامَ لِشَرْعِ السَّمَاءِ هُوَ الطَّرِيقُ الوَحِيدُ لِلنَّجَاةِ يَقْطَعُ أَوْهَامَ التَّمَيُّعِ العَقَدِيِّ وَالمجَامَلَةِ عَلَى حِسَابِ الحَقِّ. بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ الوَحْيُ سَعَةَ الإِسْلَامِ وَتَصْدِيقَهُ لِجَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ، يُقَرِّرُ القَاعِدَةَ الصَّارِمَةَ بِأَنَّ كُلَّ مَنْهَجٍ أَوْ دِينٍ يَبْتَغِيهِ الإِنْسَانُ بَعِيداً عَنِ الِانْقِيَادِ لِرَبِّ العَالَمِينَ وَلِرِسَالَةِ الخَاتَمِ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَيَنْتَهِي بِهِ المطَافُ فِي الآخِرَةِ إِلَى الخُسْرَانِ المبِينِ. هٰذَا الحَسْمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الحَيْرَةِ بَيْنَ الأَدْيَانِ المحَرَّفَةِ وَالفَلْسَفَاتِ البَشَرِيَّةِ. فَمَنْ أَسْلَمَ لِرَبِّهِ وَالتَزَمَ دِينَهُ الحَقَّ نَالَ القَبُولَ وَالفَلَاحَ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنِ اسْتَبْدَلَ بِشَرْعِ السَّمَاءِ مَنَاهِجَ البَشَرِ الفَانِيَةَ.

الصَّدَى

مِيزَانُ القَبُولِ وَحَسْرَةُ الخَاسِرِينَ

صَدَى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

بَوَّابَةٌ وَاحِدَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَفْتَحُ طَرِيقَ القَبُولِ إِلَى جَنَّاتِ الخُلُودِ، وَكُلُّ مَسْلَكٍ سِوَاهَا يَنْتَهِي بِالسَّائِرِ فِيهِ إِلَى الرَّدِّ وَالخُسْرَانِ يَوْمَ اللِّقَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَسَاوِي المَنَاهِجِ البَشَرِيَّةِ مَعَ وَحْيِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ اليَقِينِ بِأَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ عُمْلَةُ النَّجَاةِ الوَحِيدَةُ المقْبُولَةُ عِنْدَ الدَّيَّانِ. وَكَمْ تَاهَتْ عُقُولٌ قَدِيماً فِي اخْتِرَاعِ طُرُقٍ وَمَذَاهِبَ تُرْضِي أَهْوَاءَهَا بَعِيداً عَنْ شَرْعِ الخَالِقِ، فَضَيَّعَتْ أَعْمَارَهَا فِي سَعْيٍ مَرْدُودٍ لَا يُغْنِي عَنْهَا شَيْئاً! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَقْصِدُ قَصْرَ المِلِكِ العَظِيمِ حَامِلاً بِيَدِهِ مَفَاتِيحَ مَصْنُوعَةً مِنْ طِينٍ وَخَشَبٍ صَنَعَهَا بِنَفْسِهِ وَتَرَكَ المِفْتَاحَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ المِلِكُ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ الأَبْوَابُ وَيَعُودُ خَاسِراً مَخْذُولاً. فَمَا أَعْظَمَ وُضُوحَ حُكْمِ اللهِ الَّذِي يُقَرِّرُ أَنَّ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَسَيَكُونُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يَعْتَزُّ بِالإِسْلَامِ وَيَحْمَدُ الخَالِقَ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ. فَكُلُّ دِينٍ يُخَالِفُ شَرْعَ السَّمَاءِ مَآلُهُ الرَّدُّ وَالخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِسْلَامِ اللهِ المَقْبُولِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 86 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِرْمَانُ نُورِ الهِدَايَةِ عَنِ القُلُوبِ الَّتِي انْتَكَسَتْ إِلَى الظُّلْمَةِ بَعْدَ أَنْ أَبْصَرَتِ النُّورَ وَشَهِدَتْ بِصِدْقِ النُّبُوَّةِ وَعَايَنَتِ البَيِّنَاتِ يُعَدُّ جَزَاءً عَادِلاً لِظُلْمِهَا وَعِنَادِهَا. الهِدَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ نِعْمَةٌ عَزِيزَةٌ تُمْنَحُ لِمَنْ يَطْلُبُهَا بِصِدْقٍ وَيَصُونُهَا بِالشُّكْرِ؛ أَمَّا مَنْ جَحَدَ بَعْدَ اليَقِينِ وَكَفَرَ بَعْدَ الإِيمَانِ وَالشَّهَادَةِ فَقَدْ أَغْلَقَ نَوَافِذَ قَلْبِهِ بِيَدِهِ وَظَلَمَ نَفْسَهُ أَشَدَّ الظُّلْمِ، فَيَكِلُهُ الخَالِقُ إِلَى ظُلْمَتِهِ وَلَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ. هٰذَا التَّحْذِيرُ يُحَرِّرُ النَّفْسَ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالِانْتِكَاسَةِ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ. فَمَنْ حَافَظَ عَلَى إِيمَانِهِ وَشَكَرَ نِعْمَةَ البَيِّنَاتِ زَادَهُ رَبُّهُ هُدًى، بَيْنَمَا يُحْرَمُ المُرْتَدُّ الظَّالِمُ مِنْ تَوْفِيقِ السَّمَاءِ وَتَتَرَاكَمُ عَلَيْهِ الظُّلُمَاتُ.

الصَّدَى

انْتِكَاسَةُ البَصِيرَةِ وَحِرْمَانُ الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

سُؤَالٌ مَهِيبٌ يَكْشِفُ خَطَرَ الِانْتِكَاسِ بَعْدَ الإِيمَانِ وَالشَّهَادَةِ، فَيُبَيِّنُ أَنَّ مَنْ أَطْفَأَ نُورَ البَيِّنَاتِ فِي صَدْرِهِ بِعِنَادِهِ فَقَدْ حَرَمَ نَفْسَهُ هِدَايَةَ السَّمَاءِ بِظُلْمِهِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ البَقَاءَ عَلَى الهِدَايَةِ مَضْمُونٌ دُونَ رِعَايَةٍ وَمُجَاهَدَةٍ، وَتَسْتَقِرُّ رَهْبَةُ التَّفْرِيطِ فِي نِعْمَةِ اليَقِينِ بَعْدَ وُضُوحِ البُرْهَانِ. وَكَمْ رَأَيْتُ قَدِيماً عُيُوناً أَبْصَرَتِ الشَّمْسَ ثُمَّ أَغْلَقَتْ أَجْفَانَهَا كِبْراً وَحَسَداً فَتَعَثَّرَتْ فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ وَلَمْ تَجِدْ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهَا! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ المُنِيرَ الَّذِي أُوقِدَ فِي غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ فَأَرَى صَاحِبَهُ كُلَّ مَا حَوْلَهُ

بِوُضُوحٍ، ثُمَّ عَمَدَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ إِلَى كَسْرِ المِصْبَاحِ بِيَدِهِ وَإِرَاقَةِ زَيْتِهِ، فَكَيْفَ يَنْتَظِرُ النُّورَ بَعْدَ أَنْ حَطَّمَ مَصْدَرَ الضِّيَاءِ بِظُلْمِهِ وَسَفَهِهِ؟! فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِنَايَتِي بِإِيمَانِي إِلَى حِرَاسَةٍ يَقِظَةٍ تَشْكُرُ البَيِّنَاتِ وَتَخْشَى الانْتِكَاسَ. فَكُلُّ كُفْرٍ بَعْدَ اليَقِينِ مَآلُهُ الضَّلَالُ وَالحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهُدَى اللهِ الَّذِي يَمْنَحُهُ لِلْقُلُوبِ الصَّادِقَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 87 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الإِجْمَاعُ الكَوْنِيُّ عَلَى طَرْدِ المُرْتَدِّينَ الجَاحِدِينَ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ وَوِدِّ الأَرْضِ يُبْرِزُ فَدَاحَةَ جَرِيمَةِ الجُحُودِ بَعْدَ العِلْمِ وَالشَّهَادَةِ. فَاللَّعْنَةُ الَّتِي تَتَوَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الخَالِقِ الجَلِيلِ، ثُمَّ مِنَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، ثُمَّ مِنَ البَشَرِ أَجْمَعِينَ، تَكْشِفُ أَنَّ خِيَانَةَ الحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ تُسْقِطُ الإِنْسَانَ مِنْ عَيْنِ الكَوْنِ كُلِّهِ وَتُورِثُهُ الطَّرْدَ وَالوَحْشَةَ الأَبَدِيَّةَ. هٰذَا الجَزَاءُ الرَّادِعُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالِارْتِدَادِ عَنِ الحَقِّ إِرْضَاءً لِلنَّاسِ؛ إِذْ يَنْقَلِبُ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ مَعَ المَلَائِكَةِ لِإِدَانَةِ الخَائِنِ لِعَهْدِ رَبِّهِ. فَمَنْ ثَبَتَ عَلَى الحَقِّ نَالَ رَحْمَةَ الخَالِقِ وَثَنَاءَ المَلَائِكَةِ وَالأَبْرَارِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ المُرْتَدُّ الظَّالِمُ لَعْنَةَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

الصَّدَى

إِجْمَاعُ اللُّعْنَةِ وَعُزْلَةُ الطَّرِيدِ

صَدَى ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

صَرْخَةُ إِدَانَةٍ كَوْنِيَّةٌ تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَتُطْرَدُ القُلُوبُ المُرْتَدَّةُ مِنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ وَتُطَارِدُهَا لَعْنَةُ المَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ التَّنَازُلَ عَنِ الحَقِّ يَجْلِبُ مَوَدَّةَ الخَلْقِ أَوْ سَلَامَةَ الدُّنْيَا، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ مَنْ أَسْخَطَ السَّمَاءَ جَعَلَ الخَالِقُ الكَوْنَ كُلَّهُ خَصْماً لَهُ. وَكَمْ ظَنَّ المُرْتَدُّونَ قَدِيماً أَنَّهُمْ بِعَوْدَتِهِمْ إِلَى البَاطِلِ سَيَكْسَبُونَ رِضَا قَوْمِهِمْ، فَإِذَا بِهِمْ يَحْصُدُونَ لَعْنَةَ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ الَّذِي انْفَصَلَ عَنِ الشَّجَرَةِ المُبَارَكَةِ بِخِيَانَةٍ وَجُحُودٍ،

كَيْفَ تَنْبِذُهُ التُّرْبَةُ الطَّيِّبَةُ وَتُعْرِضُ عَنْهُ الطُّيُورُ السَّابِحَةُ فِي السَّمَاءِ، فَيَبْقَى مُلْقًى عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ تَدُوسُهُ الأَقْدَامُ وَتَذْرُوهُ الرِّيَاحُ فِي وَحْشَةٍ وَذُلٍّ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ جَزَاءَ الجَاحِدِينَ بَعْدَ البَيِّنَةِ لَعْنَتَهُ وَلَعْنَةَ المَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي إِلَى التَّمَسُّكِ بِالحَقِّ وَلَوْ كَرِهَ الخَلْقُ؛ لِأَنَّ رِضَا السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ مَحَبَّةَ الوُجُودِ. فَكُلُّ رِدَّةٍ عَنِ الحَقِّ مَآلُهَا الطَّرْدُ وَاللَّعْنَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي تَغْمُرُ الثَّابِتِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 88 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَبَدِيَّةُ العُقُوبَةِ وَانْقِطَاعُ الرَّجَاءِ فِي التَّخْفِيفِ أَوِ الإِمْهَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرْزَانِ حَتْمِيَّةَ اغْتِنَامِ زَمَنِ الدُّنْيَا قَبْلَ انْغِلَاقِ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ. فَالخُلُودُ فِي اللَّعْنَةِ وَالعَذَابِ دُونَ لَحْظَةِ رَاحَةٍ يُخَفَّفُ فِيهَا الأَلَمُ، وَدُونَ إِنْظَارٍ لِتَقْدِيمِ مَعْذِرَةٍ أَوْ تَدَارُكِ تَوْبَةٍ، يَهْزُّ القُلُوبَ الغَافِلَةَ لِتُدْرِكَ أَنَّ الآخِرَةَ دَارُ جَزَاءٍ لَا دَارُ امْتِحَانٍ. هٰذَا الوَعِيدُ الصَّارِمُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّسْوِيفِ القَاتِلِ الَّذِي يُؤَجِّلُ الأَوْبَةَ إِلَى مَا بَعْدَ المَوْتِ. فَمَنْ بَادَرَ بِالإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ نَجَا مِنَ الخُلُودِ فِي العَذَابِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُفَرِّطُ المُصِرُّ أَسِيراً لِعَذَابٍ دَائِمٍ لَا يُخَفَّفُ وَلَا يُؤَجَّلُ.

الصَّدَى

سِجْنُ الخُلُودِ وَانْقِطَاعُ الإِمْهَالِ

صَدَى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

أَبْوَابٌ مُوصَدَةٌ لَا تُفْتَحُ لِمُعْتَذِرٍ، وَعَذَابٌ مُقِيمٌ لَا يَعْرِفُ التَّخْفِيفَ وَلَا الإِمْهَالَ فِي دَارٍ انْقَضَى فِيهَا زَمَنُ العَمَلِ وَالمُهْلَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ سَاعَاتِ الحِسَابِ تَمْلِكُ فُسْحَةً لِلتَّرَاجُعِ أَوِ الِاسْتِدْرَاكِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ كُلَّ لَحْظَةٍ فِي الدُّنْيَا هِيَ الفُرْصَةُ الوَحِيدَةُ لِلنَّجَاةِ. وَكَمْ سَوَّفَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً فِي إِصْلَاحِ مَسَارِهَا طَمَعاً فِي غَدٍ مَجْهُولٍ، غَافِلَةً عَنْ سَاعَةٍ لَا يُخَفَّفُ فِيهَا العَذَابُ وَلَا يُنْظَرُ فِيهَا المُقَصِّرُونَ! أَتَأَمَّلُ المُسَافِرَ الَّذِي أُعْطِيَ مُهْلَةً كَافِيَةً لِإِصْلَاحِ سَفِينَتِهِ عَلَى الشَّاطِئِ

قَبْلَ الإِبْحَارِ فَتَهَاوَنَ وَضَيَّعَ الوَقْتَ فِي اللَّهْوِ، فَلَمَّا دَاهَمَتْهُ العَاصِفَةُ فِي عُرْضِ اللُّجَّةِ لَمْ يَجِدْ مِينَاءً يَأْوِي إِلَيْهِ وَلَا مُهْلَةً يَسْتَدْرِكُ بِهَا مَا فَاتَ. فَمَا أَشَدَّ هَيْبَةَ عَدْلِ اللهِ حِينَ يَقْضِي بِالخُلُودِ فِي العَذَابِ عَلَى الجَاحِدِينَ دُونَ تَخْفِيفٍ أَوْ إِنْظَارٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامِي فِي الدُّنْيَا مِنْ تَأْجِيلٍ لِلتَّوْبَةِ إِلَى مُسَارَعَةٍ جَادَّةٍ تَغْتَنِمُ زَمَنَ الإِمْهَالِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ. فَكُلُّ تَسْوِيفٍ عَنْ طَاعَةِ السَّمَاءِ مَآلُهُ النَّدَمُ الأَبَدِيُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي يُدْرِكُهَا المُبَادِرُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 89 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سَعَةُ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تَفْتَحُ بَابَ العَوْدَةِ وَالتَّوْبَةِ حَتَّى لِمَنْ سَقَطَ فِي هُوَّةِ الرِّدَّةِ وَالجُحُودِ مَتى أَتْبَعَ نَدَمَهُ بِالإِصْلَاحِ العَمَلِيِّ تَهْدِمُ جُدْرَانَ اليَأْسِ وَالقُنُوطِ. هٰذَا الِاسْتِثْنَاءُ الرَّحِيمُ بَعْدَ ذٰلِكَ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ يُبْرِزُ أَنَّ بَابَ الغَفُورِ الرَّحِيمِ يَظَلُّ مَفْتُوحاً فِي الدُّنْيَا أَمَامَ كُلِّ تَائِبٍ صَادِقٍ يَمْحُو أَثَرَ إِفْسَادِهِ بِالإِصْلَاحِ وَتَجْدِيدِ العَهْدِ مَعَ مَوْلَاهُ. هٰذَا التَّوَازُنُ البَدِيعُ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالرَّجَاءِ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ الَّتِي تُقَنِّطُ العُصَاةَ مِنَ المَغْفِرَةِ. فَمَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ مَا أَفْسَدَ وَجَدَ رَبَّهُ غَفُوراً رَحِيماً يَقْبَلُ الأَوْبَةَ وَيَمْحُو الزَّلَّةَ، بَيْنَمَا يَهْلِكُ مَنِ اسْتَمَرَّ فِي عِنَادِهِ وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الرَّجَاءِ.

الصَّدَى

بَوَّابَةُ التَّوْبَةِ وَغَيْثُ الغَفُورِ الرَّحِيمِ

صَدَى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

نَافِذَةٌ مِنَ النُّورِ تَنْفَتِحُ فِي قَلْبِ الظَّلَامِ لِتَنْتَشِلَ الغَرْقَى فِي لُجَجِ الذُّنُوبِ، فَتُبَشِّرَ كُلَّ مَنْ تَابَ وَأَصْلَحَ بِأَنَّ الخَالِقَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَمْحُو مَا سَلَفَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ القُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ مَهْمَا عَظُمَتِ الهَفَوَاتُ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ المَقْرُونَةَ بِالإِصْلَاحِ تَغْسِلُ الصَّحَائِفَ وَتُعِيدُ لِلرُّوحِ بَرَاءَتَهَا. وَكَمْ أَثْقَلَ اليَأْسُ قَدِيماً قُلُوباً زَلَّتْ عَنِ الطَّرِيقِ فَظَنَّتْ أَنْ لَا عَوْدَةَ لَهَا، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الآيَةُ كَالغَيْثِ المُحْيِي لِلْأَرْضِ المَيْتَةِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانَ الَّذِي احْتَرَقَتْ أَغْصَانُهُ بِسَبَبِ

إِهْمَالِ صَاحِبِهِ، كَيْفَ يَعُودُ إِلَيْهِ البُسْتَانِيُّ نَادِماً فَيُزِيلُ الرَّمَادَ وَيَغْرِسُ البُذُورَ مِنْ جَدِيدٍ وَيَسْقِيهَا بِالمَاءِ العَذْبِ، فَتُكْرِمُهُ السَّمَاءُ بِغَيْثٍ رَحِيمٍ يُعِيدُ لِلْبُسْتَانِ خُضْرَتَهُ وَثِمَارَهُ أَجْمَلَ مِمَّا كَانَ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ وَيُبَارِكُ سَعْيَ المصْلِحِينَ بَعْدَ الضَّلَالِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي عِنْدَ الزَّلَلِ مِنْ انْكِسَارٍ يُورِثُ القُنُوطَ إِلَى أَوْبَةٍ سَرِيعَةٍ تُصْلِحُ الفَسَادَ وَتَطْمَعُ فِي المَغْفِرَةِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ تَمْحُوهُ التَّوْبَةُ وَالإِصْلَاحُ مَآلُهُ الغُفْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 90 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الإِصْرَارُ عَلَى الجُحُودِ وَالتَّمَادِي فِي الكُفْرِ بَعْدَ الإِيمَانِ حَتَّى تَتَغَلَّفَ القُلُوبُ بِالرَّانِ وَتَبْلُغَ سَاعَةَ الِاحْتِضَارِ يُغْلِقُ أَبْوَابَ القَبُولِ وَيُثْبِتُ وَصْفَ الضَّلَالِ المبِينِ. هٰذَا الحُكْمُ العَادِلُ يَفْصِلُ بَيْنَ التَّائِبِ المصْلِحِ الَّذِي يُبَادِرُ بِالأَوْبَةِ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ، وَبَيْنَ مَنِ ازْدَادَ كُفْراً وَعِنَاداً طِيلَةَ حَيَاتِهِ فَلَمْ يَتَذَكَّرِ التَّوْبَةَ إِلَّا عِنْدَ غَرْغَرَةِ المَوْتِ وَمُعَايَنَةِ العَذَابِ؛ إِذْ تَكُونُ تَوْبَتُهُ حِينَهَا تَوْبَةَ اضْطِرَارٍ لَا تَوْبَةَ اخْتِيَارٍ فَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ. هٰذَا التَّحْذِيرُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ خِدَاعِ التَّمَادِي فِي المعَاصِي اتِّكَالاً عَلَى تَوْبَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ عِنْدَ سَكَرَاتِ المَوْتِ. فَمَنْ أَسْرَعَ بِالتَّوْبَةِ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ قُبِلَتْ أَوْبَتُهُ، بَيْنَمَا يَمُوتُ المتَمَادِي فِي كُفْرِهِ مَرْدُودَ التَّوْبَةِ غَارِقاً فِي الضَّلَالِ.

الصَّدَى

تَمَادِي الجُحُودِ وَانْغِلَاقُ القَبُولِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

قُلُوبٌ تَتَدَحْرَجُ فِي هَاوِيَةِ الجُحُودِ وَتَزْدَادُ كُفْراً يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّى تَصِلَ إِلَى سَاعَةِ الغَرْغَرَةِ، فَتُغْلَقَ دُونَهَا أَبْوَابُ القَبُولِ وَتُكْتَبَ فِي دِيوَانِ الضَّالِّينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الأَمَانِ عِنْدَ التَّمَادِي فِي الخَطِيئَةِ بِدَعْوَى أَنَّ التَّوْبَةَ مُمْكِنَةٌ عِنْدَ نِهَايَةِ العُمْرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ إِصْرَارٍ عَلَى البَاطِلِ

يُقَسِّي القَلْبَ وَيُسْلِمُهُ إِلَى الضَّلَالِ. وَكَمْ خُدِعَ المسْرِفُونَ قَدِيماً بِطُولِ الأَمَلِ فَازْدَادُوا كُفْراً وَعِنَاداً حَتَّى فُوجِئُوا بِمَلَكِ المَوْتِ فَنَطَقُوا بِتَوْبَةٍ لَا تُقْبَلُ وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً! أَتَأَمَّلُ الحَدِيدَ الصُّلْبَ الَّذِي يُتْرَكُ فِي المَاءِ المَالِحِ أَعْوَاماً طِوَالاً دُونَ تَنْظِيفٍ أَوْ صِيَانَةٍ، كَيْفَ يَتَآكَلُ جَوْهَرُهُ بِالصَّدَإِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّى يَتَفَتَّتَ وَيَصِيرَ تُرَاباً لَا يَنْفَعُ مَعَهُ الصَّقْلُ وَلَا يُعِيدُهُ الإِصْلَاحُ إِلَى صَلَابَتِهِ الأُولَى. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ حِينَ يَرُدُّ تَوْبَةَ مَنِ ازْدَادُوا كُفْراً بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ المبِينِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي مِنْ تَهَاوُنٍ بِتَرَاكُمِ الذُّنُوبِ إِلَى مُبَادَرَةٍ فَوْرِيَّةٍ تَغْسِلُ القَلْبَ أَوَّلاً بِأَوَّلٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَحْكِمَ فِيهِ الرَّانُ. فَكُلُّ تَمَادٍ فِي الكُفْرِ مَآلُهُ الضَّلَالُ وَالرَّدُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ وَتَوْبَةٍ صَادِقَةٍ تُدْرِكُ صَاحِبَهَا فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (٩١–١٠٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 91 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَرِيقُ المعَادِنِ النَّفِيسَةِ وَسَطْوَةُ الخَزَائِنِ المكْنُوزَةِ يَتَبَخَّرَانِ كَالسَّرَابِ عِنْدَ عَتَبَةِ المَوْتِ، حِينَ تَنْطَوِي صَحِيفَةُ الإِمْهَالِ وَيُسْدَلُ السِّتَارُ عَلَى مَسْرَحِ الِاخْتِيَارِ. كُلُّ مَا تَحْمِلُهُ الأَرْضُ مِنْ تِبْرٍ وَعَسْجَدٍ يَعْدُو حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ لَا تُفْتَدَى بِهَا رُوحٌ أَغْلَقَتْ نَوَافِذَهَا دُونَ نُورِ الحَقِيقَةِ حَتَّى انْقَضَى الأَجَلُ، فَلَا تَجِدُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ شَفِيعاً يُجِيرُهَا وَلَا نَصِيراً يُغِيثُهَا مِنْ أَلِيمِ المآلِ. تِلْكَ العَاقِبَةُ تَكْشِفُ زَيْفَ الأَوْهَامِ الَّتِي تَرْهَنُ الأَبَدِيَّةَ لِحُطَامٍ يَفْنَى، وَتُوقِظُ البَصِيرَةَ لِتَسْتَبْدِلَ بِزُخْرُفِ الطِّينِ عُمْلَةَ اليَقِينِ الَّتِي لَا تَبُورُ. فَمَنِ ادَّخَرَ لِسَاعَةِ الرَّحِيلِ نَقَاءَ السَّرِيرَةِ وَصِدْقَ الإِقْبَالِ نَجَا مِنْ وَحْشَةِ الخِذْلَانِ، بَيْنَمَا تَهْوِي صُرُوحُ الذَّهَبِ تَحْتَ أَقْدَامِ المفَرِّطِينَ حِينَ يَحِلُّ القَضَاءُ.

الصَّدَى

سَرَابُ الذَّهَبِ وَانْغِلَاقُ الفِدَاءِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

تِلَالٌ مِنَ الذَّهَبِ المَكْنُوزِ تَتَلَاشَى كَالهَبَاءِ أَمَامَ بَوَّابَةِ الأَبَدِيَّةِ، فَلَا تَفْتَدِي نَفْساً مَاتَتْ عَلَى الجُحُودِ وَلَا تَدْفَعُ عَنْهَا أَلِيمَ العَذَابِ وَوَحْشَةَ الخِذْلَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاحْتِمَاءِ بِالثَّرْوَةِ وَالمَتَاعِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الأَنْفَاسِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ فِي زَمَنِ الحَيَاةِ هُوَ الكَنْزُ الوَحِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ قِيمَةَ النَّجَاةِ. وَكَمْ جَرَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً خَلْفَ بَرِيقِ الأَصْفَرِ الرَّنَّانِ ظَنّاً مِنْهَا أَنَّهُ يَشْتَرِي كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى أَيْقَظَهَا هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ بِأَنَّ مِلْءَ الأَرْضِ ذَهَباً لَا يُقْبَلُ فِدَاءً بَعْدَ المَوْتِ!

أَتَأَمَّلُ الغَرِيقَ فِي أَعْمَاقِ المحِيطِ المظْلِمِ الَّذِي يَتَشَبَّثُ بِصُنْدُوقٍ ثَقِيلٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالجَوَاهِرِ، كَيْفَ يَكُونُ ذٰلِكَ الكَنْزُ نَفْسُهُ هُوَ الثِّقَلَ الَّذِي يَسْحَبُهُ إِلَى القَاعِ وَيَمْنَعُهُ مِنَ الصُّعُودِ نَحْوَ الهَوَاءِ وَالحَيَاةِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَرُدُّ فِدْيَةَ الذَّهَبِ مِمَّنْ مَاتُوا عَلَى الكُفْرِ وَيُعِدُّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً بِلَا نَاصِرٍ وَلَا مُغِيثٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْمَالِ مِنْ مَلَاذٍ أَتَّكِئُ عَلَيْهِ إِلَى زَادٍ أُقَدِّمُهُ بَيْنَ يَدَيَّ قَبْلَ أَنْ تُطْوَى الصَّحَائِفُ. فَكُلُّ ذَهَبٍ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ مَآلُهُ التُّرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَعَمَلٍ صَالِحٍ يُنْجِي صَاحِبَهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 92 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

ذُرْوَةُ السُّمُوِّ الرُّوحِيِّ لَا تُبْلَغُ بِفُتَاتِ المَائِدَةِ وَلَا بِمَا زَهِدَتْ فِيهِ العُيُونُ وَالأَيْدِي، بَلْ بِكَسْرِ صَنَمِ الأَثَرَةِ وَإِخْرَاجِ نَفَائِسِ المحْبُوبَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا شِغَافُ القُلُوبِ. مِيزَانُ البِرِّ الأَعْلَى يَمْتَحِنُ صِدْقَ التَّحَرُّرِ مِنْ رِقِّ الأَشْيَاءِ؛ فَحِينَ تَسْخُو النَّفْسُ بِأَثْمَنِ مَا تَمْلِكُ تَتَفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ المَلَكُوتِ، وَيَتَوَلَّى بَصَرُ العَلِيمِ رَصْدَ كُلِّ ذَرَّةٍ بُذِلَتْ فِي صَمْتٍ وَإِخْلَاصٍ لِيُضَاعِفَ أَثَرَهَا فِي مَوَازِينِ الخُلُودِ. تِلْكَ العَقَبَةُ النُّورَانِيَّةُ تَفْرِزُ أَهْلَ العَزَائِمِ الصَّادِقَةِ عَنْ أَسْرَى الشُّحِّ وَالتَّقْتِيرِ. فَمَنْ جَادَ بِأَحَبِّ مَا لَدَيْهِ

ارْتَقَى إِلَى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ وَنَالَ عِلْمَ الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَظَلُّ الشَّحِيحُ مَحْبُوساً دُونَ القِمَّةِ مَا دَامَ يَسْتَبْقِي النَّفِيسَ لِذَاتِهِ وَيُقَدِّمُ الرَّدِيءَ لِغَيْرِهِ.

الصَّدَى

قِمَّةُ البِرِّ وَإِيثَارُ المحْبُوبِ

صَدَى ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

قِمَّةٌ شَامِخَةٌ مِنَ البِرِّ تَتَلَأْلَأُ فَوْقَ سَحَابِ الأَنَانِيَّةِ، فَلَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ حَرَّرَ قَلْبَهُ مِنْ أَسْرِ المحْبُوبَاتِ وَجَادَ بِأَغْلَى مَا يَمْلِكُ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ بُلُوغِ الكَمَالِ بِإِخْرَاجِ مَا لَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ العَطَاءَ الصَّادِقَ هُوَ الَّذِي يُلامِسُ شِغَافَ القَلْبِ فَيُطَهِّرُهُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالفَانِي. وَكَمْ حَامَتِ الخُطَى قَدِيماً حَوْلَ سَفْحِ الجَبَلِ تَظُنُّ أَنَّهَا بَلَغَتِ الذُّرْوَةَ بِبَذْلِ اليَسِيرِ الزَّائِدِ، حَتَّى نَادَى هٰذَا المِيزَانُ الدَّقِيقُ بِأَنَّ البِرَّ لَا يُنَالُ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا نُحِبُّ! أَتَأَمَّلُ الغَوَّاصَ المَاهِرَ الَّذِي يَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ البَحْرِ لِيَسْتَخْرِجَ أَجْمَلَ لُؤْلُؤَةٍ تَتَلَأْلَأُ فِي صَدَفَتِهَا، ثُمَّ يَبْسُطُ كَفَّهُ بِسَخَاءٍ وَرِضاً لِيُهْدِيَهَا لِمَنْ يُحِبُّ دُونَ أَنْ يَسْتَبْقِيَ لِنَفْسِهِ إِلَّا فَرَحَةَ العَطَاءِ وَنَقَاءَ السَّرِيرَةِ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ العَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ حِينَ يَرْفَعُ هِمَمَ عِبَادِهِ إِلَى مَقَامِ البِرِّ وَيُحْصِي كُلَّ نَفَقَةٍ خَرَجَتْ مِنْ صَمِيمِ الحُبِّ وَالإِيثَارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ صَدَقَتِي مِنْ بَذْلٍ لِلْفَائِضِ إِلَى إِيثَارٍ نَبِيلٍ يَنْتَقِي الأَجْوَدَ وَالأَحَبَّ طَمَعاً فِي مَقَامِ الأَبْرَارِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَسْتَبْقِي النَّفِيسَ لِلْهَوَى يَقْصُرُ عَنِ القِمَّةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبِرٍّ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيَتَقَبَّلُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 93 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الأَصْلُ فِي خَيْرَاتِ الأَرْضِ وَطَيِّبَاتِهَا هُوَ الإِبَاحَةُ وَاليُسْرُ، وَلَمْ تَكُنِ الآصَارُ وَالمحَرَّمَاتُ إِلَّا عَوَارِضَ طَارِئَةً بَدَأَتْ بِاجْتِهَادٍ شَخْصِيٍّ مِنْ يَعْقُوبَ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَاةِ، ثُمَّ اتَّسَعَتْ عُقُوبَةً لِبَغْيٍ

اللاحِقِينَ وَظُلْمِهِمْ. حِينَ حَاوَلَ المكَابِرُونَ التَّشْكِيكَ فِي شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ بِدَعْوَى إِبَاحَةِ مَا كَانَ مُحَرَّماً عَلَيْهِمْ، وَاجَهَهُمُ الوَحْيُ بِالتَّحَدِّي المعْرِفِيّ الصَّارِخِ الَّذِي يَدْعُوهُمْ لِفَتْحِ أَسْفَارِهِمْ وَتِلَاوَةِ الحَقِيقَةِ المكْتُوبَةِ فِيهَا؛ لِيَنْكَشِفَ أَنَّ التَّحْرِيمَ كَانَ اسْتِثْنَاءً تَارِيخِيّاً لَا أَصْلاً أَزَلِيّاً. تِلْكَ المواجَهَةُ تَهْدِمُ جُدْرَانَ التَّزْوِيرِ الَّتِي تَخْتَبِئُ خَلْفَ النُّصُوصِ المطْوِيَّةِ. فَمَنِ احْتَكَمَ إِلَى المصَادِرِ الصَّادِقَةِ وَأَقَرَّ بِالأَصْلِ الطَّيِّبِ انْجَلَتْ عَنْ بَصِيرَتِهِ الشُّبُهَاتُ، بَيْنَمَا يَبْهَتُ المفْتَرِي حِينَ يُطَالَبُ بِبُرْهَانِ الكِتَابِ الَّذِي يَدَّعِي الِانْتِسَابَ إِلَيْهِ.

الصَّدَى

أَصْلُ الحِلِّ وَتَحَدِّي الكِتَابِ

صَدَى ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

مَائِدَةٌ وَاسِعَةٌ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بَسَطَهَا الخَالِقُ لِلْخَلْقِ بِالأَصْلِ وَاليُسْرِ، وَسِتَارٌ مَطْوِيٌّ يَكْشِفُهُ التَّحَدِّي القُرْآنِيُّ حِينَ يُطَالِبُ المجَادِلِينَ بِتِلَاوَةِ التَّوْرَاةِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ التَّحْرِيمَ وَالتَّضْيِيقَ هُمَا القَاعِدَةُ فِي شَرَائِعِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحِلَّ هُوَ الأَصْلُ وَأَنَّ التَّشْدِيدَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَارِضاً لِحِكْمَةٍ أَوْ عُقُوبَةٍ. وَكَمْ تَسَتَّرَ المغَالِطُونَ قَدِيماً خَلْفَ نُصُوصٍ يُخْفُونَهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ لِيُمَرِّرُوا أَوْهَامَهُمْ، حَتَّى أَسْقَطَ الوَحْيُ أَقْنِعَتَهُمْ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى قِرَاءَةِ كِتَابِهِمْ عَلَى المَلَإِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَ العَذْبَ الَّذِي جَرَى مُبَاحاً لِكُلِّ شَارِبٍ مُنْذُ فَجْرِ الحَيَاةِ، كَيْفَ وَضَعَ بَعْضُ السَّائِرِينَ عَلَى ضِفَّتِهِ حَاجِزاً صَغِيراً لِأَنْفُسِهِمْ ثُمَّ زَعَمَ أَبْنَاؤُهُمْ بَعْدَ قُرُونٍ أَنَّ النَّهْرَ كُلَّهُ كَانَ مَمْنُوعاً عَلَى البَشَرِ مُنْذُ الأَزَلِ. فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ الدَّامِغَةَ الَّتِي تَرُدُّ الشُّبُهَاتِ إِلَى نُصُوصِ التَّوْرَاةِ نَفْسِهَا لِتَفْضَحَ كَذِبَ المدَّعِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَرِيقَتِي فِي البَحْثِ إِلَى رُجُوعٍ صَادِقٍ لِلْأُصُولِ البَيِّنَةِ دُونَ خَوْفٍ مِنْ جَدَلِ المزَوِّرِينَ. فَكُلُّ دَعْوَى تَخْشَى التَّثَبُّتَ مَآلُهَا السُّقُوطُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ السَّاطِعِ المبِينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 94 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

الإِصْرَارُ عَلَى احْتِلَاقِ الأَكَاذِيبِ وَنِسْبَتِهَا إِلَى شَرِيعَةِ السَّمَاءِ بَعْدَ انْكِشَافِ الحَقَائِقِ وَقِيَامِ البَرَاهِينِ يَضَعُ صَاحِبَهُ فِي ذُرْوَةِ الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ. فَالافْتِرَاءُ عَلَى الخَالِقِ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ أَوْ تَحْلِيلِ الحَرَامِ بَعْدَ وُضُوحِ الدَّلِيلِ لَيْسَ زَلَّةَ لِسَانٍ عَابِرَةً، بَلْ هُوَ تَجَرُّؤٌ عَلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَضْلِيلٌ لِلْخَلْقِ عَنْ صِرَاطِ الرَّشَادِ. تِلْكَ الوَصْمَةُ القَاطِعَةُ تُحَصِّنُ العُقُولَ مِنَ الجُرْأَةِ عَلَى القَوْلِ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ بُرْهَانٍ، وَتُبْرِزُ أَنَّ أَقْبَحَ الظُّلْمِ هُوَ تَزْوِيرُ كَلَامِ الدَّيَّانِ. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ حُدُودِ الصِّدْقِ وَنَزَّهَ شَرْعَ رَبِّهِ عَنِ الهَوَى نَجَا مِنْ مَهَاوِي الظُّلْمِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ المُفْتَرِي المِعَانِدُ وِزْرَ كَذِبِهِ وَظُلْمِهِ يَوْمَ الحِسَابِ.

الصَّدَى

جُرْأَةُ الافْتِرَاءِ وَوَصْمَةُ الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

قَلَمٌ مُزَوِّرٌ يَخُطُّ الكَذِبَ بَعْدَ انْبِلَاجِ الصُّبْحِ، فَيُصْدِرُ الوَحْيُ حُكْمَهُ القَاطِعَ بِأَنَّ كُلَّ مَنِ افْتَرَى عَلَى الخَالِقِ بَعْدَ البَيَانِ فَهُوَ فِي قِمَّةِ الظَّالِمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّسَاهُلِ فِي نِسْبَةِ الآرَاءِ الشَّخْصِيَّةِ إِلَى شَرْعِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ التَّوَقُّفِ الوَرِعِ عِنْدَ حُدُودِ الدَّلِيلِ. وَكَمْ جَرَّتِ العَصَبِيَّةُ قَدِيماً أَصْحَابَهَا إِلَى احْتِلَاقِ الأَقَاوِيلِ بَعْدَ انْقِطَاعِ حُجَّتِهِمْ، فَسَقَطُوا فِي حَمْأَةِ الظُّلْمِ المِبِينِ! أَتَأَمَّلُ مَنْ يَرَى الحُدُودَ المَرْسُومَةَ بِحِجَارَةِ النُّورِ عَلَى حَافَّةِ الطَّرِيقِ الآمِنِ، ثُمَّ يَتَعَمَّدُ نَقْلَ تِلْكَ الحِجَارَةِ إِلَى حَافَّةِ الهَاوِيَةِ لِيُوهِمَ السَّائِرِينَ أَنَّ ذٰلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ المَأْمُونُ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ خِيَانَةِ الأَمَانَةِ وَظُلْمِ العِبَادِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَسِمُ المُفْتَرِينَ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ بَعْدَ وُضُوحِ الحُجَّةِ وَقِيَامِ البُرْهَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَتِي إِلَى مِيزَانٍ دَقِيقٍ يَخْشَى الكَذِبَ عَلَى السَّمَاءِ أَكْثَرَ مِنْ خَشْيَتِهِ مِنَ النَّارِ. فَكُلُّ افْتِرَاءٍ بَعْدَ البَيَانِ مَآلُهُ الخِزْيُ وَالظُّلْمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقِ اللهِ وَحُكْمِهِ العَادِلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 95 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

إِعْلَانُ صِدْقِ الخَالِقِ المطْلَقِ وَانْكِشَافُ كَذِبِ المفْتَرِينَ يُمَهِّدَانِ الطَّرِيقَ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الفِطْرَةِ الأُولَى وَالمِلَّةِ الإِبْرَاهِيمِيَّةِ الحَنِيفَةِ الَّتِي تَبْرَأُ مِنْ كُلِّ شِرْكٍ وَتَحْرِيفٍ. حِينَ تَتَهَاوَى حُجَجُ المجَادِلِينَ أَمَامَ البُرْهَانِ التَّارِيخِيِّ وَالعَقْلِيِّ، يَرْتَفِعُ نِدَاءُ الحَقِّ: «صَدَقَ اللَّهُ»، لِيَدْعُوَ العُقُولَ الحَائِرَةَ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ المائِلَةِ عَنِ الأَهْوَاءِ وَالأَصْنَامِ إِلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ؛ إِذْ هُوَ المنْهَجُ الَّذِي يَجْمَعُ النَّقَاءَ وَالسَّمَاحَةَ وَالبَرَاءَةَ مِنَ الشِّرْكِ. تِلْكَ الدَّعْوَةُ تَنْتَشِلُ الإِنْسَانَ مِنْ تِيهِ الخِلَافَاتِ الحَادِثَةِ إِلَى صَفَاءِ المنْبَعِ الأَصِيلِ. فَمَنْ صَدَّقَ رَبَّهُ وَسَارَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِ وَجَدَ الطُّمَأْنِينَةَ وَالهُدَى، بَيْنَمَا يَتِيهُ المعْرِضُ فِي أَوْدِيَةِ الشِّرْكِ وَالِابْتِدَاعِ.

الصَّدَى

صِدْقُ التَّنْزِيلِ وَنِدَاءُ المِلَّةِ الحَنِيفَةِ

صَدَى ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

صَيْحَةُ اليَقِينِ تَعْلُو فَوْقَ رُكَامِ الأَكَاذِيبِ لِتُعْلِنَ فِي أَرْجَاءِ الكَوْنِ أَنْ «صَدَقَ اللَّهُ»، وَتَدْعُوَ القُلُوبَ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الحَنِيفِ البَرِيءِ مِنَ الشِّرْكِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ البَحْثِ عَنِ الحَقِيقَةِ فِي الطُّرُقِ المعْوَجَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الِانْتِمَاءِ إِلَى المِلَّةِ الحَنِيفَةِ السَّمْحَةِ الَّتِي تَسْتَقِيمُ عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ. وَكَمْ تَعِبَتِ الأَرْوَاحُ قَدِيماً فِي مُلَاحَقَةِ الأَوْهَامِ الَّتِي صَنَعَهَا المحَرِّفُونَ، حَتَّى أَشْرَقَ هٰذَا النِّدَاءُ لِيَرُدَّهَا إِلَى نَبْعِ إِبْرَاهِيمَ الصَّافِي الَّذِي لَمْ يُدَنَّسْ بِشِرْكٍ قَطُّ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ التَّائِهَ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ تَشَعَّبَتْ فِيهَا المسَالِكُ المظْلِمَةُ، كَيْفَ يَخْرُجُ فَجْأَةً إِلَى طَرِيقٍ وَاسِعٍ مُنِيرٍ يَمْتَدُّ مُسْتَقِيماً نَحْوَ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ فَتَسْتَرِيحُ قَدَمَاهُ وَيَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ. فَمَا أَعْظَمَ صِدْقَ اللهِ الَّذِي يَهْدِي الحَائِرِينَ إِلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَيُطَهِّرُ عُقُولَهُمْ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى حَنِيفِيَّةٍ نَقِيَّةٍ تَشْهَدُ بِصِدْقِ الخَالِقِ وَتَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ شَرِيكٍ. فَكُلُّ قَوْلٍ يُخَالِفُ كَلَامَ السَّمَاءِ مَآلُهُ البُطْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقِ اللهِ وَمِلَّتِهِ الحَنِيفَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 96 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَرَاقَةُ البَيْتِ العَتِيقِ فِي بَكَّةَ وَأَسْبَقِيَّتُهُ التَّارِيخِيَّةُ وَالرُّوحِيَّةُ عَلَى سَائِرِ المَعَابِدِ وَالمَسَاجِدِ تُؤَكِّدُ أَنَّ قِبْلَةَ الإِسْلَامِ هِيَ المَرْكَزُ الأَوَّلُ لِلتَّوْحِيدِ فِي الأَرْضِ. كَوْنُ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِعِبَادَةِ الخَالِقِ وَحْدَهُ، مَعَ مَا أَوْدَعَهُ البَارِئُ فِيهِ مِنْ بَرَكَةٍ دَائِمَةٍ وَهِدَايَةٍ شَامِلَةٍ لِلْعَالَمِينَ، يُبْطِلُ مَزَاعِمَ مَنِ اعْتَرَضُوا عَلَى تَحْوِيلِ القِبْلَةِ إِلَيْهِ، وَيَجْمَعُ قُلُوبَ البَشَرِ حَوْلَ مَثَابَةٍ وَاحِدَةٍ تَشْهَدُ عَلَى وَحْدَةِ الرِّسَالَةِ مُنْذُ فَجْرِ الخَلِيقَةِ. ذٰلِكَ الرُّسُوخُ التَّارِيخِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ شُبُهَاتِ التَّشْكِيكِ فِي أَصَالَةِ القِبْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ. فَمَنْ وَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ البَيْتِ العَتِيقِ اتَّصَلَ بِأَقْدَمِ مِحْرَابٍ لِلتَّوْحِيدِ وَنَالَ البَرَكَةَ وَالهُدَى، بَيْنَمَا يَبْقَى المُعْرِضُ عَنْهُ مَحْرُوماً مِنْ نُورِ القِبْلَةِ الجَامِعَةِ.

الصَّدَى

البَيْتُ العَتِيقُ وَمَنَارَةُ الهُدَى

صَدَى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

مِحْرَابُ الأَرْضِ الأَوَّلُ يَنْتَصِبُ فِي وَادِي بَكَّةَ مُتَوَّجاً بِالبَرَكَةِ وَالنُّورِ، لِيَكُونَ قِبْلَةً جَامِعَةً وَهِدَايَةً خَالِدَةً لِلْعَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِارْتِيَابِ فِي أَصَالَةِ القِبْلَةِ وَعَرَاقَتِهَا، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي أَتَّجِهُ فِي صَلَاتِي إِلَى أَوَّلِ بَيْتٍ أُسِّسَ عَلَى التَّوْحِيدِ الخَالِصِ فِي تَارِيخِ البَشَرِيَّةِ. وَكَمْ تَشَتَّتَتْ قِبَلُ النَّاسِ قَدِيماً فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ حِينَ هَجَرُوا المَنْبَعَ الأَوَّلَ، حَتَّى رَدَّهُمُ الوَحْيُ إِلَى البَيْتِ المُبَارَكِ الَّذِي تَهْفُو إِلَيْهِ الأَفْئِدَةُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ! أَتَأَمَّلُ النَّجْمَ القُطْبِيَّ الأَوَّلَ الَّذِي رَفَعَهُ البَارِئُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ لِيَكُونَ مَرْجِعاً ثَابِتاً تَدُورُ حَوْلَهُ الأَفْلَاكُ وَيَهْتَدِي بِهِ كُلُّ مُسَافِرٍ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ دُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ مَوْضِعُهُ مُنْذُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ. فَمَا أَعْظَمَ بَرَكَةَ اللهِ الَّذِي جَعَلَ البَيْتَ الَّذِي بِبَكَّةَ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ وَمَنَارَةَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ وِجْهَتِي فِي العِبَادَةِ إِلَى ارْتِبَاطٍ رُوحِيٍّ عَمِيقٍ بِأَصْلِ التَّوْحِيدِ وَقِبْلَةِ الأَنْبِيَاءِ. فَكُلُّ قِبْلَةٍ يُحْدِثُهَا البَشَرُ مَآلُهَا التَّغْيِيرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِبَيْتِ اللهِ المُبَارَكِ العَتِيقِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 97 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

اجْتِمَاعُ الآيَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الشَّاهِدَةِ كَمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، مَعَ السَّكِينَةِ وَالأَمَانِ الشَّامِلِ لِكُلِّ دَاخِلٍ إِلَى الحَرَمِ، يُوجِبُ عَلَى القَادِرِينَ أَدَاءَ فَرِيضَةِ الحَجِّ تَلْبِيَةً لِحَقِّ الخَالِقِ وَشُكْراً لِنِعَمِهِ. فَالْحَجُّ إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ هُوَ رِحْلَةُ التَّجَرُّدِ وَالوَحْدَةِ الَّتِي تَسْقُطُ فِيهَا الفَوَارِقُ البَشَرِيَّةُ لِيَقِفَ الجَمِيعُ عِباداً لِمَلِكٍ وَاحِدٍ، مَعَ رَبْطِ التَّكْلِيفِ بِالِاسْتِطَاعَةِ تَيْسِيراً وَرَحْمَةً، وَإِعْلَانِ الغِنَى الإِلٰهِيِّ المطْلَقِ عَنْ طَاعَةِ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ هٰذِهِ الفَرِيضَةَ أَوْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ السَّمَاءِ. ذٰلِكَ التَّوَازُنُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّسْوِيفِ عِنْدَ القُدْرَةِ، وَيُبْرِزُ أَنَّ نَفْعَ الطَّاعَةِ يَعُودُ لِلْعَبْدِ نَفْسِهِ. فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ عَنْ اسْتِطَاعَةٍ وَإِخْلَاصٍ نَالَ الأَمَانَ وَالمَغْفِرَةَ، بَيْنَمَا لَا يَضُرُّ الجَاحِدُ المانِعُ إِلَّا نَفْسَهُ لِأَنَّ الخَالِقَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ.

الصَّدَى

مَقَامُ الخَلِيلِ وَأَمَانُ الحَرَمِ وَغِنَى الخَالِقِ

صَدَى ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

أَثَرُ أَقْدَامِ الخَلِيلِ يَبْقَى شَاهِداً حَيّاً فِي البَيْتِ الحَرَامِ، وَظِلُّ الأَمَانِ يَعْمُرُ كُلَّ مَنْ لَاذَ بِرِحَابِهِ، فَتَتَوَجَّهُ القُلُوبُ المسْتَطِيعَةُ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ عِرْفَاناً بِحَقِّ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الطَّاعَةَ تَزِيدُ فِي مُلْكِ الخَالِقِ أَوْ أَنَّ التَّقْصِيرَ يَنْقُصُ مِنْ جَلَالِهِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الحَجَّ رِحْلَةُ تَطْهِيرٍ وَأَمَانٍ أَحْتَاجُ إِلَيْهَا أَنَا لِأَنْجُو. وَكَمْ أَخَّرَتِ المشَاغِلُ قَدِيماً بَعْضَ القَادِرِينَ عَنْ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ البَيْتِ العَتِيقِ، غَافِلِينَ عَنْ أَنَّ الوُقُوفَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ هُوَ عَوْدَةٌ إِلَى فِطْرَةِ الأَمَانِ وَالتَّوْحِيدِ! أَتَأَمَّلُ الوَاحَةَ الآمِنَةَ فِي قَلْبِ الصَّحْرَاءِ المضْطَرِبَةِ كَيْفَ تَحْتَضِنُ كُلَّ عَابِرٍ دَخَلَهَا فَتَمْنَحُهُ السَّكِينَةَ وَالرِّيَّ وَالسَّلَامَ، فَمَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهَا عِنْدَ القُدْرَةِ ارْتَوَتْ رُوحُهُ وَأَمِنَ خَوْفُهُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا كِبْراً لَمْ يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ لِأَنَّ الوَاحَةَ غَنِيَّةٌ بِمَائِهَا عَنِ العَاطِشِينَ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ الَّذِي أَوْدَعَ فِي بَيْتِهِ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ وَالأَمَانَ وَدَعَا المسْتَطِيعِينَ إِلَى حَجِّهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ

فَرِيضَةُ الحَجِّ فِي قَلْبِي إِلَى شَوْقٍ صَادِقٍ يَسْتَعِدُّ لِلسَّبِيلِ عِنْدَ الِاسْتِطَاعَةِ وَيَخْشَى جُحُودَ النِّعْمَةِ. فَكُلُّ جُحُودٍ لِحَقِّ السَّمَاءِ مَآلُهُ الحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 98 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

اسْتِحْضَارُ الشَّهَادَةِ الإِلٰهِيَّةِ المحِيطَةِ بِكُلِّ مَا تَقْتَرِفُهُ الأَيْدِي وَتُضْمِرُهُ القُلُوبُ يُوقِظُ الضَّمِيرَ الغَافِلَ مِنْ سُبَاتِ الجُحُودِ وَالعِنَادِ. المواجهَةُ السَّمَاوِيَّةُ لِأَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ وَالشَّوَاهِدَ القَائِمَةَ تَضَعُهُمْ أَمَامَ حَقِيقَةِ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ فِي الصَّدِّ وَالتَّشْكِيكِ لَيْسَتْ غَائِبَةً عَنْ رَقَابَةِ الخَالِقِ، بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْهَا وَمُحْصٍ لِتَفَاصِيلِهَا لِيُجَازِيَهُمْ بِهَا يَوْمَ الحِسَابِ. تِلْكَ الشَّهَادَةُ المطْلَقَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ وَهْمِ الإِفْلَاتِ مِنَ المسْؤُولِيَّةِ عِنْدَ تَعْمِيَةِ الحَقَائِقِ. فَمَنْ رَاقَبَ شَهَادَةَ رَبِّهِ عَلَى عَمَلِهِ أَقْبَلَ عَلَى الآيَاتِ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّعْظِيمِ، بَيْنَمَا يَغْرَقُ الجَاحِدُ فِي ظُلُمَاتِهِ وَأَعْمَالُهُ مَرْصُودَةٌ عِنْدَ الشَّهِيدِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ.

الصَّدَى

رَقَابَةُ الشَّهِيدِ وَسُقُوطُ الجُحُودِ

صَدَى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾

عَيْنٌ سَمَاوِيَّةٌ لَا تَنَامُ تَرْصُدُ كُلَّ حَرَكَةٍ وَتُحْصِي كُلَّ صَدٍّ عَنِ الحَقِّ، فَتَسْأَلُ الجَاحِدِينَ فِي دهْشَةٍ وَاسْتِنْكَارٍ: لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الخَالِقِ وَهُوَ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ؟! فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِخْفَاءِ عَنِ الرَّقِيبِ الأَعْلَى عِنْدَ إِنْكَارِ الحَقَائِقِ أَوْ تَعْطِيلِهَا، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ أَقُومُ بِهِ يَجْرِي تَحْتَ شَهَادَةِ السَّمَاءِ. وَكَمْ ظَنَّ المعَانِدُونَ قَدِيماً أَنَّ جُحُودَهُمْ لِلْآيَاتِ سَيَطْوِي ذِكْرَهَا وَيُخْفِي أَثَرَ تَآمُرِهِمْ، حَتَّى قَرَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَسْمَاعَهُمْ بِأَنَّ الخَالِقَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ! أَتَأَمَّلُ الكَاتِبَ الخَائِنَ الَّذِي يَقِفُ فِي قَاعَةِ المِلِكِ المهِيبَةِ أَمَامَ عَرْشِهِ وَيُمَزِّقُ رِسَالَةَ المِلِكِ بِيَدَيْهِ ظَانّاً أَنَّ أَحَداً لَا يَرَاهُ بَيْنَمَا عَيْنَا المِلِكِ مُصَوَّبَتَانِ إِلَيْهِ تَرْصُدَانِ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ. فَمَا أَشَدَّ حُجَّةَ اللهِ الشَّهِيدِ

عَلَى مَا يَعْمَلُ العِبَادُ حِينَ يَسْتَنْكِرُ كُفْرَهُمْ بِآيَاتِهِ السَّاطِعَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي فِي كُلِّ تَصَرُّفٍ إِلَى شُعُورٍ حَيٍّ بِأَنَّنِي أَعْمَلُ تَحْتَ نَظَرِ الشَّهِيدِ الرَّقِيبِ. فَكُلُّ جُحُودٍ يَتَخَفَّى عَنِ الخَلْقِ مَكْشُوفٌ لِلسَّمَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الشَّهِيدِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 99 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قُبْحُ التَّعَدِّي الَّذِي لَا يَكْتَفِي بِالضَّلَالِ الذَّاتِيّ، بَلْ يَسْعَى لِإِغْلَاقِ الطَّرِيقِ أَمَامَ السَّائِرِينَ نَحْوَ النُّورِ وَتَشْوِيهِ اسْتِقَامَةِ الشَّرِيعَةِ، يَكْشِفُ عَنْ عَدَاوَةٍ سَافِرَةٍ لِلْهِدَايَةِ وَالحَقّ. اسْتِنْكَارُ الوَحْيِ عَلَى مَنْ يَصُدُّونَ المؤْمِنِينَ عَنْ سَبِيلِ الرَّشَادِ وَيَلْتَمِسُونَ لَهَا الِاعْوِجَاجَ بِالشُّبُهَاتِ وَالتَّضْلِيلِ رَغْمَ شَهَادَتِهِمْ بِصِدْقِهَا، يُنْذِرُ كُلَّ قَاطِعِ طَرِيقٍ فِكْرِيٍّ أَوْ أَخْلَاقِيٍّ بِأَنَّ الخَالِقَ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ مَكْرِهِمْ وَسَعْيِهِمْ فِي الإِفْسَادِ. تِلْكَ المَوَاجَهَةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الِانْخِدَاعِ بِحَمَلَاتِ التَّشْوِيهِ الَّتِي تَسْتَهْدِفُ صَفَاءَ الدِّينِ. فَمَنْ فَتَحَ الطَّرِيقَ لِلْخَلْقِ نَحْوَ رَبِّهِمْ نَالَ أَجْرَ الدَّلَالَةِ عَلَى الخَيْرِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ الصَّادُّ عَنْ سَبِيلِ السَّمَاءِ وِزْرَهُ وَأَوْزَارَ مَنْ أَضَلَّهُمْ أَمَامَ الدَّيَّانِ الَّذِي لَا يَغْفُلُ.

الصَّدَى

قُطَّاعُ الطَّرِيقِ وَتَشْوِيهُ الِاسْتِقَامَةِ

صَدَى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

حَوَاجِزُ مُظْلِمَةٌ يَضَعُهَا المضِلُّونَ فِي الطَّرِيقِ المسْتَقِيمِ لِيَصُدُّوا السَّائِرِينَ عَنْ سَبِيلِ الهِدَايَةِ، وَيُشَوِّهُوا نَقَاءَهَا بِالشُّبُهَاتِ بَيْنَمَا تَشْهَدُ عُقُولُهُمْ بِاسْتِقَامَتِهَا وَصِدْقِهَا. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ مُحَاوَلَاتِ تَشْوِيهِ الحَقِّ تَمُرُّ دُونَ رَصْدٍ أَوْ حِسَابٍ، وَتَسْتَقِرُّ يَقْظَةُ أَنَّ الخَالِقَ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ كُلِّ مَنْ يَبْغِي لِسَبِيلِهِ العِوَجَ. وَكَمْ حَاوَلَتْ أَيْدٍ قَدِيماً أَنْ تَطْمِسَ مَعَالِمَ الصِّرَاطِ المسْتَقِيمِ وَتَضَعَ العَقَبَاتِ أَمَامَ

القُلُوبِ المُقْبِلَةِ عَلَى النُّورِ، حَتَّى هَدَّدَهَا هٰذَا النِّدَاءُ بِأَنَّ السَّمَاءَ تَرْصُدُ كُلَّ صَدٍّ وَتَضْلِيلٍ! أَتَأَمَّلُ المُرْشِدَ الحَائِرَ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَ مَدْخَلِ الطَّرِيقِ المُنِيرِ المُؤَدِّي إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ، فَيُغَيِّرُ اللُّوحَاتِ الدَّالَّةَ وَيَضَعُ الأَشْوَاكَ فِي المَمَرِّ لِيَصْرِفَ المُسَافِرِينَ نَحْوَ المَهَاوِي المُظْلِمَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ صِدْقَ الطَّرِيقِ الأَوَّلِ. فَمَا أَشَدَّ إِنْذَارَ اللهِ لِلصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ حِينَ يُقَرِّرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ مِنْ تَشْوِيهٍ وَإِضْلَالٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رِسَالَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى دَلِيلٍ أَمِينٍ يُمَهِّدُ الطَّرِيقَ لِلنَّاسِ نَحْوَ رَبِّهِمْ وَيُزِيلُ العَقَبَاتِ عَنْ دَرْبِهِمْ. فَكُلُّ سَعْيٍ لِتَعْوِيجِ سَبِيلِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الفَشَلُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 100 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

الحَذَرُ الوَاعِي مِنَ الِاسْتِسْلَامِ الفِكْرِيِّ لِلْمُشَكِّكِينَ وَالحَاسِدِينَ يُمَثِّلُ الدِّرْعَ الأَوَّلَ لِحِمَايَةِ الإِيمَانِ مِنَ التَّرَاجُعِ وَالِارْتِدَادِ. النِّدَاءُ الإِلٰهِيُّ لِأَهْلِ الإِيمَانِ يُنَبِّهُهُمْ إِلَى أَنَّ طَاعَةَ الفِرَقِ الحَاقِدَةِ الَّتِي تَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ الهِدَايَةِ عَنْهُمْ تَقُودُ تَدْرِيجِيّاً إِلَى سَلْبِ اليَقِينِ وَالرُّجُوعِ إِلَى ظُلُمَاتِ الكُفْرِ بَعْدَ نُورِ الإِيمَانِ. ذٰلِكَ التَّنْبِيهُ التَّرْبَوِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ التَّبَعِيَّةِ السَّاذَجَةِ لِكُلِّ دَعْوَةٍ تَصْدُرُ عَنْ غَيْرِ مَشْكَاةِ الوَحْيِ، وَيَغْرِسُ فِي القَلْبِ مَنَاعَةً فِكْرِيَّةً تَزِنُ الأَفْكَارَ بِمِيزَانِ القُرْآنِ. فَمَنِ اعْتَصَمَ بِحَبْلِ رَبِّهِ وَلَمْ يُطِعِ المُضِلِّينَ حَفِظَ إِيمَانَهُ وَعِزَّتَهُ، بَيْنَمَا يَنْزَلِقُ المُسْتَسْلِمُ لِوَسَاوِسِ الخُصُومِ إِلَى هَاوِيَةِ الرِّدَّةِ وَالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

مَنَاعَةُ اليَقِينِ وَحَذَرُ التَّبَعِيَّةِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

نِدَاءُ حِرَاسَةٍ يَقِظٌ يَقْرَعُ أَبْوَابَ القُلُوبِ المُؤْمِنَةِ لِيُحَذِّرَهَا مِنْ طَاعَةِ المُشَكِّكِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ سَلْبَ نُورِ الإِيمَانِ وَرَدَّ العُقُولِ إِلَى ظُلُمَاتِ الكُفْرِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الثِّقَةِ العَمْيَاءِ فِي كُلِّ مَنْ يَدَّعِي

النُّصْحَ وَهُوَ يُضْمِرُ العَدَاوَةَ لِلْحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ يَقْظَةُ أَنَّ الإِيمَانَ جَوْهَرَةٌ ثَمِينَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى حِرَاسَةٍ دَائِمَةٍ مِنَ اللُّصُوصِ الفِكْرِيِّينَ. وَكَمْ جَرَّتِ الطَّاعَةُ غَيْرُ الوَاعِيَةِ قَدِيماً بَعْضَ الغَافِلِينَ إِلَى التَّشَكُّكِ وَالتَّرَاجُعِ حَتَّى كَادُوا يَفْقِدُونَ أَغْلَى مَا يَمْلِكُونَ، فَأَدْرَكَتْهُمْ رَحْمَةُ الوَحْيِ بِهَذَا التَّحْذِيرِ المبِينِ! أَتَأَمَّلُ حَارِسَ البُسْتَانِ المثْمِرِ الَّذِي يُحِيطُ أَشْجَارَهُ بِسِيَاجٍ مَتِينٍ، فَلَا يَفْتَحُ البَابَ لِغَرِيبٍ يَحْمِلُ الفَأْسَ بِيَدِهِ وَيَتَظَاهَرُ بِالرَّغْبَةِ فِي تَقْلِيمِ الأَغْصَانِ بَيْنَمَا يَنْوِي قَطْعَ الجُذُورِ وَإِهْلَاكَ الزَّرْعِ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ لِأَهْلِ الإِيمَانِ حِينَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ طَاعَةِ فَرِيقٍ مِنَ المضِلِّينَ كَيْ لَا يَرُدُّوهُمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ كَافِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي الفِكْرِيَّةُ إِلَى مَنَاعَةٍ صُلْبَةٍ تَزِنُ كُلَّ فِكْرَةٍ بِمِيزَانِ الوَحْيِ وَلَا تُسَلِّمُ قِيَادَهَا لِلْمُشَكِّكِينَ. فَكُلُّ طَاعَةٍ لِأَهْلِ الضَّلَالِ مَآلُهَا الانْتِكَاسُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِإِيمَانٍ يَحْرُسُهُ اللهُ وَيُثَبِّتُهُ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٠١-١١٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 101 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْعٌ عَذْبٌ يَتَدَفَّقُ بَيْنَ الرِّمَالِ العَطْشَى، وَنَجْمٌ سَاطِعٌ يَشُقُّ أَسْتَارَ الدُّجَى، فَأَيُّ عَيْنٍ تَغْمِضُ جَفْنَيْهَا وَالضِّيَاءُ يَغْمُرُ الأَرْجَاءَ، وَأَيُّ رُوحٍ تَضِلُّ الطَّرِيقَ وَمَشْعَلُ النُّبُوَّةِ يَهْدِي السَّارِينَ فِي البَيْدَاءِ؟! تِلَاوَةُ السَّمَاءِ تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهَا فِي الآذَانِ، وَحَبْلُ الوِلَايَةِ يَتَدَلَّى مِنَ المَلَكُوتِ لِيَشُدَّ أَزْرَ الجَنَانِ، فَمَنْ عَقَدَ كَفَّهُ بِعُرْوَةِ الخَالِقِ انْكَشَفَتْ لَهُ مَعَالِمُ الجَادَّةِ السَّوِيَّةِ، وَأَمِنَ عَثَرَاتِ الدُّرُوبِ المِلتَوِيَةِ. فَمَنْ أَلْقَى مَرَاسِيَهُ فِي مِينَاءِ الِاعْتِصَامِ نَجَا مِنْ عَوَاصِفِ التِّيهِ وَالضَّيَاعِ، بَيْنَمَا تَتَقَاذَفُ الأَمْوَاجُ مَنْ أَفْلَتَ الحَبْلَ المتِينَ وَآثَرَ الظَّلَامَ عَلَى الشُّعَاعِ.

الصَّدَى

مِشْعَلُ النُّبُوَّةِ وَحَبْلُ الِاعْتِصَامِ

صَدَى ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ

إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ضِيَاءٌ سَمَاوِيٌّ يَغْمُرُ القُلُوبَ بِتِلَاوَةِ الآيَاتِ وَوُجُودِ الرَّسُولِ، فَيُبَدِّدُ غُيُومَ التَّرَدُّدِ وَيَمُدُّ حَبْلَ الِاعْتِصَامِ نَحْوَ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الوَحْشَةِ وَالحَيْرَةِ فِي مَتَاهَاتِ الحَيَاةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كِتَابَ الخَالِقِ يَتْلُو عَلَيَّ الحَقَائِقَ كُلَّ حِينٍ لِيَشُدَّ أَزْرَ يَقِينِي. وَكَمْ تَشَتَّتَ الفِكْرُ قَدِيماً عِنْدَمَا غَفَلَ عَنْ حَبْلِ السَّمَاءِ المَمْدُودِ، حَتَّى أَيْقَظَنِي هٰذَا التَّسَاؤُلُ الجَلِيلُ الَّذِي يَجْعَلُ الِاعْتِصَامَ بِالخَالِقِ هُوَ عَيْنَ الهِدَايَةِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ فِي عُرْضِ البَحْرِ المُضْطَرِبِ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا الأَنْوَاءُ، كَيْفَ تَجِدُ مَنَارَةً سَاطِعَةً عَلَى الشَّاطِئِ وَحَبْلاً وَثِيقاً يَشُدُّهَا إِلَى المِينَاءِ الآمِنِ، فَمَا إِنْ يَتَمَسَّكْ بِهِ الرُّبَّانُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ رِحْلَتُهُ وَيَسْلَمَ مِنَ الغَرَقِ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَجْعَلُ آيَاتِهِ وَرَسُولَهُ سِيَاجاً يَعْصِمُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَيَهْدِي كُلَّ مُعْتَصِمٍ بِهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي مِنْ تَعَلُّقٍ بِقُوَّتِي القَاصِرَةِ إِلَى اعْتِصَامٍ دَائِمٍ بِحَبْلِ اللهِ المَتِينِ. فَكُلُّ سَنَدٍ غَيْرُ حَبْلِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الِانْقِطَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 102 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِرَاسَةُ السِّرَاجِ المُتَّقِدِ مِنْ هُبُوبِ الرِّيَاحِ العَاتِيَةِ تَقْتَضِي يَقَظَةً لَا تَغْفُو، وَتَوَقِّياً يَصُونُ الجَنَانَ مِنْ أَنْ تَخْدِشَ صَفَاءَهُ شَوَائِبُ الهَوَى. فَالرِّحْلَةُ فِي مَفَازَةِ العُمْرِ لَا يُؤْمَنُ فِيهَا المُنْتَهَى إِلَّا بِمُلَازَمَةِ الجَادَّةِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ وَنَفَسٍ؛ إِذْ تَطْوِي المَنِيَّةُ بِسَاطَ الأَيَّامِ عَلَى غِرَّةٍ، فَيَخْرُجُ المَرْءُ مِنَ الدَّارِ الفَانِيَةِ عَلَى الهَيْئَةِ الَّتِي أَلِفَتْهَا رُوحُهُ وَسَكَنَ إِلَيْهَا قَلْبُهُ. تِلْكَ المَهَابَةُ تُحِيلُ الأَنْفَاسَ المَعْدُودَةَ إِلَى مِحْرَابٍ دَائِمِ الحُضُورِ، وَتَجْعَلُ الثَّبَاتَ عَلَى الِاسْتِسْلَامِ زَاداً لِسَاعَةِ العُبُورِ. فَمَنْ أَلِفَ التَّقْوَى فِي سَاعَاتِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ خُتِمَتْ صَحِيفَتُهُ بِالإِسْلَامِ وَالنَّجَاةِ، بَيْنَمَا يَخْتَطِفُ الرَّحِيلُ المُفَاجِئُ مَنْ بَعْثَرَ أَيَّامَهُ فِي الغَفْلَةِ وَالتَّسْوِيفِ.

الصَّدَى

سِيَاجُ التَّقْوَى وَحُسْنُ الخِتَامِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

نِدَاءٌ مَهِيبٌ يَرْسُمُ مِيثَاقَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ، فَيُوقِظُ القَلْبَ لِتَقْوَى الخَالِقِ حَقَّ تُقَاتِهِ وَيَدْعُوهُ لِلثَّبَاتِ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَنْقَضِيَ الأَنْفَاسُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّرَاخِي فِي مَسِيرَةِ الطَّاعَةِ بِحُجَّةِ طُولِ العُمْرِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ الخَاتِمَةَ الحَسَنَةَ هِيَ ثَمَرَةُ الِاسْتِقَامَةِ الدَّائِمَةِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ. وَكَمْ غَفَلَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً عَنْ فَجْأَةِ الأَجَلِ فَسَوَّفَتْ فِي التَّوْبَةِ وَالتَّقْوَى، حَتَّى قَرَعَتْ هٰذِهِ الوَصِيَّةُ أَبْوَابَ الضَّمَائِرِ بِأَلَّا نَمُوتَ إِلَّا وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ! أَتَأَمَّلُ حَارِسَ البُسْتَانِ اليَقِظَ الَّذِي يَتَعَاهَدُ أَشْجَارَهُ بِالسُّقْيَا وَالحِمَايَةِ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَلَا يَتْرُكُها لِلْجَفَافِ وَلَا لِلْآفَاتِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، لِكَيْ تَظَلَّ مُورِقَةً مُثْمِرَةً فِي أَيِّ سَاعَةٍ يَأْتِي فِيهَا صَاحِبُ البُسْتَانِ لِقِطَافِ الثِّمَارِ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُرْشِدُ أَهْلَ الإِيمَانِ إِلَى حَقِّ التَّقْوَى وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى سَاعَةِ اللِّقَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامِي إِلَى مَرَاقَبَةٍ صَادِقَةٍ تَحْرُسُ الإِيمَانَ فِي كُلِّ نَفَسٍ رَجَاءَ حُسْنِ الخِتَامِ. فَكُلُّ حَيَاةٍ تَخْلُو مِنَ التَّقْوَى مَآلُهَا الحَسْرَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُحْسِنُ خَاتِمَةَ المُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 103 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خُيُوطٌ مُتَنَاثِرَةٌ كَانَتْ تُمَزِّقُهَا رِيَاحُ الضَّغِينَةِ وَتَسُوقُهَا نَحْوَ جُرُفٍ هَارٍ مِنْ لَهِيبِ الهَلَاكِ، فَأَدْرَكَتْهَا يَدُ اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ لِتَنْسِجَ مِنْ شَتَاتِهَا حَبْلاً مَتِيناً يَرْبِطُ الأَرْوَاحَ بِعَرْشِ السَّمَاءِ وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ القُلُوبِ فِي مِحْرَابِ الأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ. فَالِاجْتِمَاعُ حَوْلَ مَشْكَاةِ الوَحْيِ هُوَ السِّيَاجُ الَّذِي يَعْصِمُ الصُّفُوفَ مِنَ التَّشَرْذُمِ وَالِانْهِيَارِ، وَيُحَوِّلُ نَارَ العَدَاوَةِ القَدِيمَةِ إِلَى بَرْدٍ وَسَلَامٍ وَوِدٍّ يَغْمُرُ الدِّيَارَ. ذٰلِكَ التَّأْلِيفُ العَجِيبُ يَشْهَدُ بِأَنَّ القُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. فَمَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِ

الوَحْدَةِ وَشَكَرَ نِعْمَةَ الإِنْقَاذِ مِنَ الهَاوِيَةِ نَالَ عِزَّةَ التَّلَاحُمِ وَالهُدَى، بَيْنَمَا يَهْوِي المُفَرِّقُونَ المُتَنَازِعُونَ إِلَى شَفَا حُفْرَةِ النَّارِ الَّتِي أُنْقِذُوا مِنْهَا.

الصَّدَى

حَبْلُ الوَحْدَةِ وَمِعْجِزَةُ التَّأْلِيفِ

صَدَى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

حَبْلٌ نُورَانِيٌّ يَمْتَدُّ مِنَ السَّمَاءِ لِتَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الأَيْدِي المُتَآخِيَةُ، فَتَنْطَفِئُ نِيرَانُ العَدَاوَةِ القَدِيمَةِ وَتُشْرِقُ شَمْسُ الأُخُوَّةِ فَوْقَ قُلُوبٍ كَانَتْ عَلَى حَافَةِ الهَلَاكِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْغِلَاقِ عَلَى العَصَبِيَّاتِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي تُغَذِّي الشِّقَاقَ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ أُخُوَّةَ الإِيمَانِ هِيَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ أَلَّفَ بِهَا الخَالِقُ بَيْنَ الأَرْوَاحِ. وَكَمْ مَزَّقَتِ الضَّغَائِنُ قَدِيماً أَوْصَالَ المُجْتَمَعَاتِ حَتَّى أَوْقَفَتْهَا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، فَجَاءَ نُورُ الوَحْيِ لِيَغْسِلَ الصُّدُورَ وَيَجْعَلَ الأَعْدَاءَ إِخْوَاناً مُتَحَابِّينَ! أَتَأَمَّلُ الجِمَارَ المُتَوَهِّجَةَ المُتَفَرِّقَةَ فِي الرَّمَادِ كَيْفَ تَحْرِقُ كُلَّ مَا حَوْلَهَا وَتَنْفُثُ الدُّخَانَ، فَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا غَيْثٌ عَذْبٌ مِنَ السَّمَاءِ أَطْفَأَ لَهِيبَهَا وَحَوَّلَ تِلْكَ الأَرْضَ السَّوْدَاءَ إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ تَتَعَانَقُ فِيهَا الأَزْهَارُ وَالأَشْجَارُ فِي سَلَامٍ وَوِئَامٍ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ الَّذِي أَلَّفَ بَيْنَ القُلُوبِ بِنِعْمَتِهِ وَأَنْقَذَ العِبَادَ مِنْ شَفَا حُفْرَةِ النَّارِ وَبَيَّنَ لَهُمْ آيَاتِهِ لِيَهْتَدُوا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتِي بِإِخْوَانِي إِلَى حِرْصٍ دَائِمٍ عَلَى التَّلَاحُمِ وَنَبْذِ الفُرْقَةِ. فَكُلُّ تَفَرُّقٍ عَنْ حَبْلِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الضَّعْفُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَحْدَةٍ يُبَارِكُهَا اللهُ وَيَرْعَاهَا.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 104 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مَنَارَاتُ الهِدَايَةِ تَنْتَصِبُ عَلَى شَوَاطِئِ الحَيَاةِ المتَلَاطِمَةِ لِتُرْشِدَ السُّفُنَ الحَائِرَةَ إِلَى مَرَاسِي النَّجَاةِ، فَتُوقِظَ الغَافِلِينَ بِنِدَاءِ الخَيْرِ وَتَصُونَ صَفَاءَ المجْتَمَعِ مِنْ أَنْ تُعَكِّرَهُ أَوْحَالُ الفَسَادِ. فَبَقَاءُ الحَيَاةِ فِي الأَرْضِ مَرْهُونٌ بِوُجُودِ ثُلَّةٍ يَقِظَةٍ تَحْمِلُ مَشَاعِلَ البِنَاءِ وَالإِصْلَاحِ، تَجْذِبُ النُّفُوسَ إِلَى الفَضِيلَةِ بِالحِكْمَةِ وَالرِّفْقِ، وَتَسُدُّ مَنَافِذَ الرَّذِيلَةِ بِالحَزْمِ وَالعَدْلِ، لِتَبْقَى الفِطْرَةُ نَقِيَّةً تَتَنَفَّسُ هَوَاءَ الصَّلَاحِ. ذٰلِكَ الدَّوْرُ الرِّسَالِيُّ هُوَ سِرُّ البَقَاءِ وَتَاجُ الفَلَاحِ. فَمَنْ نَهَضَ بِأَمَانَةِ الدَّعْوَةِ لِلْخَيْرِ وَالأَمْرِ بِالمعْرُوفِ كُتِبَ فِي دِيوَانِ المفْلِحِينَ، بَيْنَمَا تَغْرَقُ السَّفِينَةُ حِينَ يَصْمُتُ المرْشِدُونَ وَيَعْبَثُ المفْسِدُونَ.

الصَّدَى

مَنَارَاتُ الإِصْلَاحِ وَتَاجُ الفَلَاحِ

صَدَى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

طَائِفَةٌ مُبَارَكَةٌ تَرْفَعُ مَشَاعِلَ النُّورِ فِي وَسَطِ المجْتَمَعِ، فَتَدْعُو إِلَى الخَيْرِ وَتُحْيِي المعْرُوفَ وَتَدْفَعُ المنْكَرَ لِتَنَالَ بِذٰلِكَ وِسَامَ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْكِفَاءِ عَلَى صَلَاحِ الذَّاتِ مَعَ إِهْمَالِ إِصْلَاحِ المحِيطِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الخَيْرِ هِيَ صِمَامُ الأَمَانِ الَّذِي يَحْفَظُ السَّفِينَةَ مِنَ الغَرَقِ. وَكَمْ تَصَوَّرَ البَعْضُ قَدِيماً أَنَّ السُّكُوتَ عَنِ المنْكَرِ يَجْلِبُ الرَّاحَةَ وَالسَّلَامَةَ، حَتَّى كَشَفَ الوَحْيُ أَنَّ الفَلَاحَ الحَقِيقِيَّ مَحْصُورٌ فِي الآمِرِينَ بِالمعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ المنْكَرِ! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الأَمِينَ الَّذِي يَتَفَقَّدُ أَشْجَارَ الحَدِيقَةِ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسْقِي الأَغْصَانَ الطَّيِّبَةَ وَيُزِيلُ الأَعْشَابَ الضَّارَّةَ الَّتِي تَلْتَفُّ حَوْلَ الجُذُورِ، فَتَبْقَى الحَدِيقَةُ يَانِعَةً مُثْمِرَةً تَبْهَجُ النَّاظِرِينَ وَتُطْعِمُ السَّائِلِينَ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ الأُمَّةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الخَيْرِ وَتَأْمُرُ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المنْكَرِ فَيَشْهَدُ لَهَا اللهُ بِالفَلَاحِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ إِيجَابِيَّتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى بِنَاءٍ مُسْتَمِرٍّ يَنْشُرُ الخَيْرَ بِرِفْقٍ وَيُقَاوِمُ الفَسَادَ بِحِكْمَةٍ. فَكُلُّ سُكُوتٍ عَنِ المنْكَرِ مَآلُهُ الخَرَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَلَاحِ اللهِ الَّذِي يَهَبُهُ لِلْمُصْلِحِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 105 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

التَّشَرْذُمُ بَعْدَ سُطُوعِ البَيِّنَاتِ وَتَمْزِيقُ الوَحْدَةِ بَعْدَ وُضُوحِ المَعَالِمِ يُشْبِهُ عَمَّى الحَيَارِيَّاً يَقُودُ أَصْحَابَهُ إِلَى مَهَاوِي الهَلَاكِ وَالعَذَابِ العَظِيمِ. فَالخِلَافُ الَّذِي يَنْشَأُ عَنِ البَغْيِ وَالأَهْوَاءِ بَعْدَ قِيَامِ الحُجَجِ القَاطِعَةِ يَهْدِمُ البُنْيَانَ الَّذِي أَقَامَتْهُ السَّمَاءُ، وَيُعِيدُ القُلُوبَ إِلَى جَاهِلِيَّةِ التَّنَاحُرِ وَالشِّقَاقِ، مِمَّا يَسْتَوْجِبُ أَقْسَى العُقُوبَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. تِلْكَ المِرْآةُ التَّارِيخِيَّةُ تَكْشِفُ مَصِيرَ الغَابِرِينَ لِتَكُونَ عِبْرَةً تَصُونُ الصَّفَّ مِنْ أَنْ يَتَكَرَّرَ فِيهِ دَاءُ التَّمَزُّقِ. فَمَنِ اعْتَبَرَ بِمَصَارِعِ المُتَفَرِّقِينَ وَاجْتَمَعَ عَلَى البَيِّنَاتِ سَلِمَ مِنَ العَذَابِ العَظِيمِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ دُعَاةُ الشِّقَاقِ الخِزْيَ وَالعُقُوبَةَ.

الصَّدَى

نَذِيرُ التَّشَرْذُمِ وَعَذَابُ المُتَفَرِّقِينَ

صَدَى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

صَرْخَةُ تَحْذِيرٍ تَهُزُّ الضَّمَائِرَ مِنْ تَكْرَارِ مَأْسَاةِ الغَابِرِينَ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بَعْدَ سُطُوعِ البَيِّنَاتِ، فَحَصَدُوا بِشِقَاقِهِمْ عَذَاباً عَظِيماً لَا يُرَدُّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الخِلَافَ وَالتَّنَازُعَ بَعْدَ وُضُوحِ الحَقِّ أَمْرٌ هَيِّنٌ يُغْتَفَرُ، وَتَسْتَقِرُّ رَهْبَةُ أَنَّ تَمْزِيقَ الوَحْدَةِ جَرِيمَةٌ تَسْتَجْلِبُ غَضَبَ السَّمَاءِ. وَكَمْ هَوَتْ أُمَمٌ قَدِيماً مِنْ قِمَمِ العِزِّ إِلَى حَضِيضِ الذُّلِّ وَالعَذَابِ حِينَ اسْتَبْدَلَتْ بِاجْتِمَاعِهَا عَلَى البَيِّنَاتِ تَنَازُعاً يَخْدِمُ الأَهْوَاءَ وَالأَطْمَاعَ! أَتَأَمَّلُ الجِدَارَ المَتِينَ المَبْنِيَّ مِنَ الحِجَارَةِ الصُّلْبَةِ المُتَلَاحِمَةِ الَّتِي يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضاً فَيَصُدُّ العَوَاصِفَ وَالسُّيُولَ، كَيْفَ يَتَحَوَّلُ إِلَى رُكَامٍ مُبَعْثَرٍ تَدُوسُهُ الأَقْدَامُ حِينَ تَتَفَكَّكُ أَحْجَارُهُ وَيَتَبَاعَدُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ. فَمَا أَشَدَّ تَحْذِيرَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ كَيْ لَا يَتَفَرَّقُوا وَلَا يَخْتَلِفُوا بَعْدَ البَيِّنَاتِ فَيَنَالَهُمْ ذٰلِكَ العَذَابُ العَظِيمُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي إِلَى حِرَاسَةٍ صَارِمَةٍ تَرْفُضُ التَّحَزُّبَ وَالتَّمَزُّقَ وَتَعْتَصِمُ بِالبَيِّنَاتِ. فَكُلُّ شِقَاقٍ بَعْدَ البَيَانِ مَآلُهُ العَذَابُ العَظِيمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِوَحْدَةِ اللهِ وَدِينِهِ القَوِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 106 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

انْكِشَافُ السَّرَائِرِ عَلَى صَفَحَاتِ الوُجُوهِ يَوْمَ العَرْضِ الأَكْبَرِ يَفْضَحُ مَا كَانَتْ تُخْفِيهِ الصُّدُورُ مِنْ نُورِ الإِخْلَاصِ أَوْ ظُلْمَةِ الجُحُودِ. فَبَيَاضُ الوُجُوهِ هُوَ إِشْرَاقَةُ البَهْجَةِ وَالرِّضَا لِأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ، بَيْنَمَا يَكْسُو السَّوَادُ وَالكَآبَةُ وُجُوهَ المُرْتَدِّينَ وَالمُفَرِّقِينَ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ الإِيمَانِ كُفْراً وَشِقَاقاً، فَيُوَاجَهُونَ بِالتَّقْرِيعِ الأَلِيمِ وَيَذُوقُونَ مَرَارَةَ العَذَابِ جَزَاءَ جُحُودِهِمْ. ذٰلِكَ التَّمَايُزُ المَشْهُودُ يَهُزُّ الوِجْدَانَ لِيُدْرِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ فِي الدُّنْيَا يَرْسُمُ مَلَامِحَ الوَجْهِ فِي الآخِرَةِ. فَمَنْ صَفَتْ سَرِيرَتُهُ أَشْرَقَ وَجْهُهُ بِنُورِ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَكْسُو الظَّلَامُ مَلَامِحَ مَنِ انْتَكَسَ بَعْدَ الهِدَايَةِ وَآثَرَ الكُفْرَ.

الصَّدَى

إِشْرَاقُ الوُجُوهِ وَظُلْمَةُ الِانْتِكَاسِ

صَدَى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

صَحِيفَةُ الوُجُوهِ تَنْطِقُ بِالحَقِيقَةِ يَوْمَ الحَشْرِ، فَتُشْرِقُ وُجُوهُ الصَّادِقِينَ بَيَاضاً وَبَهْجَةً، وَتَكْتَسِي وُجُوهُ المُنْتَكِسِينَ سَوَاداً وَخِزْياً وَهُمْ يُسَاقُونَ لِذَوْقِ العَذَابِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ السَّرَائِرَ المَكْتُومَةَ تَبْقَى خَفِيَّةً وَلَا تَظْهَرُ آثَارُهَا عَلَى الظَّاهِرِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ نُورَ الإِيمَانِ أَوْ ظُلْمَةَ الكُفْرِ سَتَتَجَلَّى عَلَى الجِبَاهِ. وَكَمْ تَجَمَّلَتْ وُجُوهٌ قَدِيماً فِي الدُّنْيَا بِزِينَةِ النِّفَاقِ وَالِادِّعَاءِ، غَافِلَةً عَنْ يَوْمٍ تَسْوَدُّ فِيهِ مَلَامِحُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَيُقَالُ لَهُمْ ذُوقُوا العَذَابَ! أَتَأَمَّلُ المَعَادِنَ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَى لَهِيبِ النَّارِ الشَّدِيدَةِ، كَيْفَ يَزْدَادُ الذَّهَبُ الخَالِصُ بَيَاضاً وَلَمَعَاناً كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الحَرَارَةُ، بَيْنَمَا يَسْوَدُّ الرَّصَاصُ الرَّدِيءُ وَيَتَفَحَّمُ فَيَظْهَرُ قُبْحُهُ وَزَيْفُهُ أَمَامَ العُيُونِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَيُفْضَحُ أَهْلُ الِانْتِكَاسِ وَيَذُوقُونَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِنَايَتِي إِلَى تَنْوِيرِ قَلْبِي بِاليَقِينِ لِيُشْرِقَ وَجْهِي يَوْمَ العَرْضِ الأَكْبَرِ. فَكُلُّ كُفْرٍ بَعْدَ الإِيمَانِ مَآلُهُ السَّوَادُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِنُورِ اللهِ الَّذِي يُبَيِّضُ وُجُوهَ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 107 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

انْغِمَاسُ الأَرْوَاحِ المشْرِقَةِ فِي بَحْرِ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ الوَاسِعَةِ يُتَوِّجُ رِحْلَةَ الثَّبَاتِ وَالوَحْدَةِ بِأَبَدِيَّةِ النَّعِيمِ وَالسَّلَامِ. فَبَيَاضُ الوُجُوهِ يَوْمَ القِيَامَةِ هُوَ عُنْوَانُ البِشَارَةِ الَّتِي تَنْقُلُ المؤْمِنِينَ إِلَى جَنَّاتِ الرَّحْمَةِ حَيْثُ لَا خَوْفٌ يَعْتَرِيهِمْ وَلَا زَوَالٌ يُهَدِّدُ سَعَادَتَهُمْ؛ إِذْ تَغْمُرُهُمْ رَحْمَةُ الخَالِقِ كَمَا يَغْمُرُ الضِّيَاءُ الكَوْنَ فِي وضحِ النَّهَارِ، فَيَخْلُدُونَ فِيهَا فِي أُنْسٍ لَا يَنْقَطِعُ وَنَعِيمٍ لَا يَبِيدُ. تِلْكَ البِشَارَةُ تُشْعِلُ فِي القُلُوبِ شَوْقَ اللِّقَاءِ وَتُهَوِّنُ مَشَقَّةَ الثَّبَاتِ فِي الدُّنْيَا. فَمَنْ حَافَظَ عَلَى بَيَاضِ سَرِيرَتِهِ وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِ رَبِّهِ سَكَنَ فِي رَحْمَةِ مَوْلَاهُ خَالِداً مُخَلَّداً، بَيْنَمَا يُحْرَمُ المعْرِضُ مِنْ هٰذَا المقَامِ الكَرِيمِ.

الصَّدَى

رِيَاضُ الرَّحْمَةِ وَخُلُودُ المشْرِقِينَ

صَدَى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أَنْوَارٌ سَاطِعَةٌ تَتَلَأْلَأُ عَلَى وُجُوهِ الأَبْرَارِ، فَتَحْتَضِنُهُمْ رَحْمَةُ الخَالِقِ فِي جَنَّاتِ الخُلُودِ حَيْثُ السَّلَامُ الدَّائِمُ وَالنَّعِيمُ المقِيمُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّعَبِ مِنْ مَشَقَّةِ الطَّرِيقِ فِي الدُّنْيَا، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ صَبْرٍ عَلَى الطَّاعَةِ سَيُثْمِرُ بَيَاضاً فِي الوَجْهِ وَخُلُوداً فِي رَحْمَةِ الرَّحْمٰنِ. وَكَمْ تَاقَتِ الرُّوحُ قَدِيماً إِلَى مَقَامٍ آمِنٍ لَا يُكَدِّرُهُ خَوْفٌ وَلَا يَقْطَعُهُ فَنَاءٌ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتُبَشِّرَ المشْرِقِينَ بِالخُلُودِ فِي رَحْمَةِ اللهِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْتَةَ الصَّابِرَةَ الَّتِي تَحَمَّلَتْ بَرْدَ الشِّتَاءِ وَعَاصِفَ الرِّيَاحِ فِي صَمْتٍ وَثَبَاتٍ، كَيْفَ يَأْتِي الرَّبِيعُ المزْهِرُ لِيَغْمُرَهَا بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ وَالنَّدَى العَذْبِ فَتَتَفَتَّحُ أَزْهَارُهَا البَيْضَاءُ وَتَنْعَمُ بِالحَيَاةِ وَالبَهَاءِ فِي رِحَابِ البُسْتَانِ الفَسِيحِ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ الَّذِي يُدْخِلُ أَصْحَابَ الوُجُوهِ المبْيَضَّةِ فِي رَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ وَيَجْعَلُهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانِيَّ إِلَى سَعْيٍ دَائِمٍ يُبَيِّضُ صَحِيفَتِي بِالصَّالِحَاتِ رَجَاءَ الخُلُودِ فِي رَحْمَةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ نَعِيمٍ فَانٍ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي يَخْلُدُ فِيهَا المؤْمِنُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 108 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَزَاهَةُ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ وَبَرَاءَةُ الخَالِقِ مِنْ إِرَادَةِ الظُّلْمِ لِأَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ تُؤَكِّدَانِ أَنَّ كُلَّ عَذَابٍ يَحِلُّ بِالمكَذِّبِينَ هُوَ ثَمَرَةُ كَسْبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، لَا جَوْراً مِنَ الدَّيَّانِ. فَتِلَاوَةُ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ بِالحَقِّ المجَرَّدِ تَقْطَعُ أَعْذَارَ المقَصِّرِينَ وَتُقِيمُ الحُجَّةَ عَلَى العَالَمِينَ؛ إِذْ أَرْسَلَ الرَّحْمٰنُ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ لِيُنْقِذَ البَشَرَ مِنَ الهَلَاكِ لَا لِيُعَذِّبَهُمْ، فَهُوَ الغَنِيُّ عَنْ عَذَابِهِمْ وَالعَادِلُ فِي حُكْمِهِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. ذٰلِكَ التَّنْزِيهُ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِأَقْدَارِ السَّمَاءِ. فَمَنْ قَبِلَ تِلَاوَةَ الحَقِّ وَسَلَّمَ لِعَدْلِ رَبِّهِ نَالَ الهِدَايَةَ وَالأَمَانَ، بَيْنَمَا يَظْلِمُ الجَاحِدُ نَفْسَهُ بِيَدِهِ ثُمَّ يَلْقَى جَزَاءَ عَمَلِهِ بِالقِسْطِ المطْلَقِ.

الصَّدَى

تِلَاوَةُ الحَقِّ وَتَنْزِيهُ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ

صَدَى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾

حُرُوفٌ نُورَانِيَّةٌ تَتْلُو الحَقَّ المجَرَّدَ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ، فَتُعْلِنُ فِي أَرْجَاءِ الكَوْنِ بَرَاءَةَ الخَالِقِ مِنْ إِرَادَةِ الظُّلْمِ لِأَيِّ مَخْلُوقٍ فِي العَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِارْتِيَابِ فِي عَدَالَةِ الأَقْدَارِ أَوْ قَسْوَةِ الجَزَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ الرَّحْمٰنَ لَا يَظْلِمُ أَحَداً وَلَا يُرِيدُ لِعِبَادِهِ إِلَّا الخَيْرَ وَالهُدَى. وَكَمْ أَلْقَتِ النُّفُوسُ الظَّالِمَةُ قَدِيماً تَبِعَةَ شَقَائِهَا عَلَى الأَقْدَارِ، حَتَّى قَطَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ كُلَّ عُذْرٍ بِإِثْبَاتِ أَنَّ اللهَ لَا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ! أَتَأَمَّلُ الشَّمْسَ المنِيرَةَ الَّتِي تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا الصَّافِيَةَ لِتَهْدِيَ العُيُونَ وَتُنْضِجَ الثِّمَارَ، فَهَلْ تُرِيدُ الشَّمْسُ إِيذَاءَ مَنْ يَحْدِقُ فِيهَا بِعِنَادٍ حَتَّى يَعْمَى بَصَرُهُ، أَمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمُخَالَفَةِ سُنَّةِ النُّورِ وَالحِكْمَةِ؟! فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَتْلُو آيَاتِهِ بِالحَقِّ لِيُبَصِّرَ العِبَادَ وَيُنَزِّهَ ذَاتَهُ العَلِيَّةَ عَنْ إِرَادَةِ الظُّلْمِ لِلْعَالَمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِأَحْكَامِ السَّمَاءِ إِلَى تَسْلِيمٍ مُطْمَئِنٍّ يَرَى العَدْلَ وَالرَّحْمَةَ فِي كُلِّ قَضَاءٍ. فَكُلُّ ظُلْمٍ يَصْنَعُهُ البَشَرُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ الَّذِي يُحِيطُ بِالعَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 109 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

المَوْعِظَةُ

المُلْكِيَّةُ المطْلَقَةُ لِأَرْجَاءِ الكَوْنِ وَمَرْجِعِيَّةُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى المَلِكِ الحَقِّ تَقْطَعُ أَطْمَاعَ المتَنَازِعِينَ فِي الأَرْضِ وَتُرِيحُ القُلُوبَ مِنَ القَلَقِ عَلَى المصِيرِ. فَمَنْ يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِلْكاً حَقِيقِيّاً لَا يَحْتَاجُ إِلَى ظُلْمِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ فِي الوُجُودِ عَنْ تَدْبِيرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَإِلَيْهِ تَصِيرُ عَوَاقِبُ الأُمُورِ كُلِّهَا لِيَفْصِلَ فِيهَا بِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ. ذٰلِكَ اليَقِينُ الكَوْنِيُّ يُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ الخَوْفِ عَلَى المسْتَقْبَلِ أَوِ التَّعَلُّقِ بِمَالِكِينَ مَجَازِيِّينَ يَفْنَوْنَ وَيَزُولُونَ. فَمَنْ رَدَّ أُمُورَهُ كُلَّهَا إِلَى مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَجَدَ السَّكِينَةَ وَالكِفَايَةَ، بَيْنَمَا يَضْطَرِبُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ مَقَالِيدَ الحَيَاةِ بِيَدِ المخْلُوقِينَ.

الصَّدَى

مُلْكِيَّةُ المَلَكُوتِ وَمَرْجِعُ الأُمُورِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

قَبْضَةُ المُلْكِ المطْلَقِ تُحِيطُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فِي سَكِينَةٍ وَجَلَالٍ، وَخُيُوطُ الأَقْدَارِ كُلُّهَا تَعُودُ إِلَى مَرْجِعِهَا الأَوَّلِ عِنْدَ المَلِكِ الحَقِّ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْشِغَالِ بِتَدْبِيرِ المخْلُوقِينَ أَوِ الخَوْفِ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الأَيَّامِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الوُجُودِ مِلْكٌ لِرَبِّي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ عَوَاقِبُ الأُمُورِ. وَكَمْ أَرْهَقَتِ النَّفْسَ قَدِيماً حِسَابَاتُ الأَرْضِ المتَشَابِكَةُ وَصِرَاعَاتُهَا العَابِرَةُ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ الكُبْرَى لِتَرُدَّ القَلْبَ إِلَى مَالِكِ المُلْكِ! أَتَأَمَّلُ البَحْرَ المحِيطَ الَّذِي تَمْلِكُ أَمْوَاجُهُ المِيَاهَ كُلَّهَا، كَيْفَ تَخْرُجُ مِنْهُ السُّحُبُ لِتَسْقِيَ الجِبَالَ وَالسُّهُولَ ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ القَطَرَاتِ وَالأَنْهَارِ فِي نِهَايَةِ المطَافِ إِلَى أَحْضَانِ ذٰلِكَ البَحْرِ الكَبِيرِ دُونَ أَنْ يَضِيعَ مِنْهَا شَيْءٌ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ كُلُّهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي إِلَى تَفْوِيضٍ هَادِئٍ يَسْلَمُ الأَمْرَ لِصَاحِبِهِ وَيَطْمَئِنُّ لِحُسْنِ المآلِ. فَكُلُّ مِلْكٍ فِي الأَرْضِ عَارِيَةٌ زَائِلَةٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 110 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خَيْرِيَّةُ الأُمَّةِ الرِّسَالِيَّةِ لَيْسَتْ شَرَفاً مَوْرُوثاً بِالأَنْسَابِ وَلَا دَعْوَى جَوْفَاءَ بِلَا عَمَلٍ، بَلْ هِيَ مَسْؤُولِيَّةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ وَحَضَارِيَّةٌ أُخْرِجَتْ لِنَفْعِ النَّاسِ كَافَّةً عَبْرَ إِقَامَةِ المَعْرُوفِ وَدَفْعِ المُنْكَرِ وَالإِيمَانِ الصَّادِقِ بِالخَالِقِ. تَقْدِيمُ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ فِي الذِّكْرِ يُبْرِزُ أَنَّهُمَا السِّيَاجُ الَّذِي يَحْفَظُ الإِيمَانَ وَيُثْبِتُ جَدَارَةَ الشَّهَادَةِ عَلَى العَالَمِينَ، مَعَ الإِنْصَافِ القُرْآنِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ القِلَّةِ المؤْمِنَةِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَبَيْنَ الأَكْثَرِيَّةِ الفَاسِقَةِ الَّتِي أَعْرَضَتْ عَنْ خَيْرِ الدَّارَيْنِ. تِلْكَ الشَّهَادَةُ السَّمَاوِيَّةُ تُحَرِّرُ العَقْلَ مِنَ السَّلْبِيَّةِ وَالِانْعِزَالِ، وَتَدْعُوهُ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِ الإِصْلَاحِ العَالَمِيِّ. فَمَنْ حَقَّقَ شُرُوطَ الخَيْرِيَّةِ بِالإِيمَانِ وَالإِصْلَاحِ اسْتَحَقَّ وِسَامَ الأَفْضَلِيَّةِ، بَيْنَمَا تَفْقِدُ الأُمَّةُ رِيَادَتَهَا حِينَ تُعَطِّلُ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَتَرْكَنُ إِلَى الفَسَادِ.

الصَّدَى

وِسَامُ الخَيْرِيَّةِ وَرِسَالَةُ الإِصْلَاحِ

صَدَى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

مِشْعَلٌ نُورَانِيٌّ تُخْرِجُهُ السَّمَاءُ لِهِدَايَةِ البَشَرِيَّةِ، فَيُتَوِّجُ هٰذِهِ الأُمَّةَ بِتَاجِ الخَيْرِيَّةِ مَا دَامَتْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بِرَبِّ العَالَمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِافْتِخَارِ بِالِانْتِسَابِ دُونَ النُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الخَيْرِيَّةَ تَكْلِيفٌ عَالَمِيٌّ لِإِسْعَادِ النَّاسِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَكَمْ تَغَنَّتِ الأَلْسِنَةُ قَدِيماً بِشَرَفِ الخَيْرِيَّةِ وَهِيَ غَافِلَةٌ عَنْ شُرُوطِهَا الثَّلَاثَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الأُمَّةَ قَائِدَةً لِلْخَيْرِ وَالحَقِّ! أَتَأَمَّلُ المَنَارَةَ الشَّامِخَةَ الَّتِي أُقِيمَتْ عَلَى رَأْسِ الجَبَلِ لِتُضِيءَ الوَادِيَ كُلَّهُ لِلْمُسَافِرِينَ، كَيْفَ تَسْتَمِدُّ قِيمَتَهَا وَشَرَفَهَا مِنْ ضَوْئِهَا المُتَّصِلِ الَّذِي يَبُثُّ الأَمَانَ وَيَطْرُدُ

الظَّلَامَ، فَإِنِ انْطَفَأَ سِرَاجُهَا أَصْبَحَتْ حَجَراً صَامِتاً لَا يَهْتَدِي بِهِ أَحَدٌ. فَمَا أَعْظَمَ تَكْرِيمَ اللهِ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ حِينَ يَجْعَلُهَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ بِإِيمَانِهَا وَأَمْرِهَا بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيِهَا عَنِ المُنْكَرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هُوِيَّتِي إِلَى رِسَالَةٍ حَيَّةٍ تَنْفَعُ الخَلْقَ وَتُقِيمُ العَدْلَ وَالإِيمَانَ. فَكُلُّ خَيْرِيَّةٍ تَخْلُو مِنَ الإِصْلَاحِ وَالإِيمَانِ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرِسَالَةِ اللهِ الَّتِي تُحْيِي العَالَمِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١١١-١٢٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 111 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

زَبَدٌ يَطْفُو فَوْقَ سَطْحِ البَحْرِ ثُمَّ يَذْهَبُ جُفَاءً، وَصَخَبٌ يَتَعَالَى فِي الأُفُقِ ثُمَّ يَتَبَدَّدُ فِي الفَضَاءِ؛ فَمَا كَيْدُ العَابِثِينَ أَمَامَ رُسُوخِ الحَقِّ إِلَّا كَشَوْكَةٍ تَخْدِشُ الثَّوْبَ وَلَا تَبْلُغُ الفُؤَادَ، أَوْ كَسَحَابَةِ صَيْفٍ تَمُرُّ عَابِرَةً بِلَا رَعْدٍ وَلَا إِمْدَادٍ. فَالرُّعْبُ المَكْتُومُ فِي صُدُورِ المعَانِدِينَ يَهْزِمُهُمْ قَبْلَ انْطِلَاقِ السِّهَامِ، وَيُدِيرُ ظُهُورَهُمْ عِنْدَ احْتِدَامِ الزِّحَامِ، فَيَفِرُّونَ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ بِلَا نَصِيرٍ يُجِيرُهُمْ وَلَا جَنَاحٍ يُطِيرُ بِهِمْ. فَمَنِ اسْتَنَدَ إِلَى رُكْنِ السَّمَاءِ المَتِينِ هَانَ فِي عَيْنِهِ صَخَبُ المُتَرَبِّصِينَ، بَيْنَمَا تَتَهَاوَى صُفُوفُ البَاطِلِ خَاوِيَةً تَتَقَطَّعُ بِهَا الأَسْبَابُ فِي كُلِّ حِينٍ.

الصَّدَى

زَبَدُ الأَذَى وَانْكِسَارُ الأَدْبَارِ

صَدَى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾

صَخَبٌ يَتَكَسَّرُ عَلَى صَخْرَةِ اليَقِينِ كَالأَمْوَاجِ الوَاهِيَةِ، فَلَا يَبْلُغُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا أَذًى عَابِراً يَزُولُ، وَيُوَلِّي المعْتَدُونَ أَدْبَارَهُمْ بِلَا نَصِيرٍ وَلَا مُغِيثٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَضْخِيمِ قُوَّةِ الخُصُومِ أَوِ الخَوْفِ مِنْ صِيَاحِهِمْ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الضَّرَرَ الحَقِيقِيَّ بِيَدِ الخَالِقِ وَحْدَهُ. وَكَمْ أَرْهَبَتِ النُّفُوسَ قَدِيماً ظِلَالُ البَاطِلِ المَتَطَاوِلَةُ عِنْدَ الغُرُوبِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ الَّتِي تَكْشِفُ خَوَرَ المعَانِدِينَ وَانْهِيَارَهُمْ عِنْدَ المواجهَةِ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الأَشَمَّ الَّذِي تَهُبُّ عَلَيْهِ رِيَاحُ الخَرِيفِ مُحَمَّلَةً بِالغُبَارِ وَالأَوْرَاقِ

اليَابِسَةِ، كَيْفَ لَا تَنَالُ مِنْ شُمُوخِهِ إِلَّا صَوْتاً عَابِراً يَمُرُّ فَوْقَ صُخُورِهِ ثُمَّ تَنْكَسِرُ الرِّيَاحُ وَتَتَلَاشَى فِي الوِدْيَانِ السَّحِيقَةِ. فَمَا أَعْظَمَ تَثْبِيتَ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ حِينَ يُطَمْئِنُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّ أَعْدَاءَهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُمْ إِلَّا أَذًى يَسِيراً وَسَيُوَلُّونَ الأَدْبَارَ مَخْذُولِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي مِنْ قَلَقٍ يَحْسِبُ كَيْدَ الخَلْقِ إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يَأْنَسُ بِوَعْدِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ عُدْوَانٍ يَخْلُو مِنْ نُصْرَةِ الخَالِقِ مَآلُهُ الفِرَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ النَّاصِرِ المعِينِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 112 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خَيْمَةٌ مِنَ الصَّغَارِ تَضْرِبُ أَطْنَابَهَا فَوْقَ رُؤُوسِ المعْتَدِينَ أَيْنَمَا حَلُّوا وَارْتَحَلُوا، وَغِشَاوَةٌ مِنَ المسْكَنَةِ تَسْكُنُ نُفُوسَهُمْ فَلَا تُفَارِقُهُمْ وَلَوْ تَظَاهَرُوا بِالعِزَّةِ وَتَدَرَّعُوا؛ فَلَا مَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ وَهْدَةِ الهَوَانِ إِلَّا بِعَهْدٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ جِوَارٍ مِنَ الأَنَامِ، بَعْدَ أَنْ بَاءُوا بِغَضَبِ الدَّيَّانِ جَزَاءَ جُحُودِ الآيَاتِ وَاسْتِبَاحَةِ دِمَاءِ المرْسَلِينَ وَتَجَاوُزِ الحُدُودِ بِالعِصْيَانِ. فَالذُّلُّ الحَقِيقِيُّ لَيْسَ قَيْداً فِي الأَقْدَامِ بَلْ هُوَ طَبْعٌ يَخْتِمُ عَلَى القُلُوبِ حِينَ تَتَمَرَّدُ عَلَى شَرِيعَةِ السَّلَامِ. فَمَنْ صَانَ آيَاتِ رَبِّهِ وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ العُدْوَانِ كَسَاهُ مَوْلَاهُ رِدَاءَ العِزَّةِ وَالأَمَانِ، بَيْنَمَا تَطْوِي الذِّلَّةُ وَالمِسْكَنَةُ مَنِ اسْتَحَلَّ المحَارِمَ وَعَصَى الرَّحْمٰنَ.

الصَّدَى

خَيْمَةُ الذِّلَّةِ وَعَاقِبَةُ العُدْوَانِ

صَدَى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

ظِلٌّ ثَقِيلٌ مِنَ الذِّلَّةِ وَالمِسْكَنَةِ يُطَارِدُ القُلُوبَ العَاصِيَةَ أَيْنَمَا وُجِدَتْ، فَلَا تَسْتَقِرُّ إِلَّا فِي جِوَارِ عَهْدٍ

مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ذِمَّةٍ مِنَ البَشَرِ بَعْدَ أَنْ اسْتَجْلَبَتْ غَضَبَ الخَالِقِ بِالجُحُودِ وَالعُدْوَانِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ العِزَّةَ تُنَالُ بِالغَلَبَةِ المادِّيَّةِ مَعَ مُحَارَبَةِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الصَّغَارَ الدَّاخِلِيَّ هُوَ قَدَرُ مَنْ يَعْتَدِي عَلَى حُدُودِ السَّمَاءِ. وَكَمْ تَزَيَّنَتْ قُوًى قَدِيماً بِالمظَاهِرِ الخَادِعَةِ وَهِيَ تَحْمِلُ فِي أَعْمَاقِهَا مَسْكَنَةَ الخَوْفِ وَالعُزْلَةِ بِسَبَبِ عِصْيَانِهَا وَاعْتِدَائِهَا! أَتَأَمَّلُ الغُرَابَ الَّذِي يَسْرِقُ رِيشَ الطَّاوُوسِ المُلَوَّنَ لِيَتَبَاهَى بِهِ فَوْقَ الأَغْصَانِ، كَيْفَ يَظَلُّ صَوْتُهُ المُنْكَرُ وَطَبْعُهُ الجَشِعُ يَفْضَحَانِ ذِلَّتَهُ وَمَسْكَنَتَهُ أَيْنَمَا حَلَّ وَطَارَ فَلَا يَأْنَسُ بِهِ طَيْرٌ وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ بُسْتَانٌ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَضْرِبُ الذِّلَّةَ وَالمسْكَنَةَ عَلَى مَنْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِهِ وَيَعْتَدُونَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِزَّتِي إِلَى انْضِبَاطٍ يَقِظٍ يَخْشَى العِصْيَانَ وَيَلْتَزِمُ حُدُودَ العَدْلِ. فَكُلُّ عُدْوَانٍ عَلَى حَقِّ السَّمَاءِ مَآلُهُ الصَّغَارُ وَالغَضَبُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِزَّةِ اللهِ الَّتِي يَهَبُهَا لِلطَّائِعِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 113 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نُجُومٌ مُتَلَأْلِئَةٌ تَبْزُغُ فِي كَبِدِ الظَّلَامِ فَتُبَدِّدُ وَحْشَةَ اللَّيْلِ البَهِيمِ، وَأَزْهَارٌ نَقِيَّةٌ تَتَفَتَّحُ بَيْنَ الأَشْوَاكِ فَتَنْشُرُ عَبَقَ الطُّهْرِ وَالتَّسْلِيمِ؛ فَلَيْسَ الخَلْقُ جَمِيعاً فِي كِفَّةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا تَسْتَوِي السَّرَائِرُ فِي مِيزَانِ العَدْلِ القَوِيمِ. فَفِي جَوْفِ السُّكُونِ تَنْتَصِبُ أَقْدَامٌ قَانِتَةٌ تَتْلُو كَلِمَاتِ النُّورِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَتَهْوِي جِبَاهُهَا سَاجِدَةً لِذِي الجَلَالِ، فَتُشْرِقُ أَرْوَاحُهَا بِالسَّكِينَةِ وَيَرْتَفِعُ ذِكْرُهَا فِي المَلَكُوتِ الأَعْلَى فَوْقَ رُكَامِ الضَّلَالِ. فَمَنْ أَحْيَا لَيْلَهُ بِالتِّلَاوَةِ وَالسُّجُودِ نَالَ وِسَامَ الإِنْصَافِ وَالقَبُولِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الغَافِلُ غَارِقاً فِي سُبَاتِهِ مَحْرُوماً مِنْ أُنْسِ المُنَاجَاةِ وَنَفَحَاتِ الوُصُولِ.

الصَّدَى

إِنْصَافُ المِيزَانِ وَمَحَارِيبُ اللَّيْلِ

صَدَى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أَنْوَارٌ خَاشِعَةٌ تَتَوَهَّجُ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ، فَتُعْلِنُ عَدَالَةَ السَّمَاءِ الَّتِي لَا تَظْلِمُ الصَّادِقِينَ وَلَا تُسَوِّي

بَيْنَ القَانِتِينَ السَّاجِدِينَ وَبَيْنَ الجَاحِدِينَ المعْرِضِينَ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخَلْطِ الجَائِرِ بَيْنَ المسِيءِ وَالمحْسِنِ تَحْتَ عُنْوَانٍ وَاحِدٍ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ سَجْدَةٍ خَالِصَةٍ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مَحْفُوظَةٌ عِنْدَ الدَّيَّانِ. وَكَمْ تَغْفُلُ الأَعْيُنُ قَدِيماً عَنْ صَفْوَةٍ مُخْبِتَةٍ تَعْمُرُ أَوْقَاتَ السَّحَرِ بِالتِّلَاوَةِ وَالخُشُوعِ، حَتَّى أَنْصَفَهُمُ الوَحْيُ وَخَلَّدَ ذِكْرَهُمْ في كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ! أَتَأَمَّلُ الحَقْلَ الوَاسِعَ الَّذِي غَطَّتْهُ الأَعْشَابُ اليَابِسَةُ في الظَّاهِرِ، كَيْفَ يَنْفُذُ نَظَرُ البُسْتَانِيِّ الخَبِيرِ إِلَى قَلْبِهِ فَيَرَى سَنَابِلَ خَضْرَاءَ نَضِرَةً تَشْرَبُ نَدَى اللَّيْلِ وَتَنْحَنِي بِثِقَلِ حَبَّاتِهَا شُكْراً لِلسَّمَاءِ فَيَرْعَاهَا وَيُكْرِمُهَا. فَمَا أَعْظَمَ إِنْصَافَ اللهِ الَّذِي يَشْهَدُ لِتِلْكَ الأُمَّةِ القَائِمَةِ الَّتِي تَتْلُو آيَاتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهِيَ سَاجِدَةٌ لِجَلَالِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ لَيَالِيَّ إِلَى مَحَارِيبَ لِلتِّلَاوَةِ وَالسُّجُودِ تَطْلُبُ نَظَرَ الخَالِقِ وَرِضَاهُ. فَكُلُّ تَعْمِيمٍ يَبْخَسُ الصَّالِحِينَ مَآلُهُ الرَّدُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَدْلِ اللهِ الَّذِي يُكْرِمُ السَّاجِدِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 114 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

جَدَاوِلُ رَفْرَاقَةٌ تَتَدَفَّقُ بِالعُذُوبَةِ فَتُحْيِي مَوَاتَ القِفَارِ، وَخُيُولٌ مُسْرِعَةٌ تَتَسَابَقُ في مَيَادِينِ البِرِّ قَبْلَ انْقِضَاءِ النَّهَارِ؛ فَهٰكَذَا تَتَكَامَلُ جَوَاهِرُ الإِيمَانِ حِينَ تَصْدُقُ العَقِيدَةُ بِالمبْدَإِ وَالمعَادِ، وَتَنْتَصِبُ الرَّايَةُ لِإِحْيَاءِ المعْرُوفِ وَدَفْعِ الفَسَادِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ الأَرْوَاحُ في مُسَارَعَةٍ شَغُوفَةٍ لِاغْتِنَامِ الخَيْرَاتِ دُونَ تَبَاطُؤٍ أَوْ تَرَدُّدٍ. فَالوُصُولُ إِلَى مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ لَا يَتَحَقَّقُ بِالأَمَانِي السَّاكِنَةِ، بَلْ بِالْمُبَادَرَةِ السَّرِيعَةِ لِكُلِّ بَابٍ مِنَ الإِحْسَانِ يَتَفَتَّحُ. فَمَنْ سَابَقَ الخُطَى نَحْوَ الخَيْرَاتِ وَأَقَامَ المعْرُوفَ كُتِبَ في سِجِلِّ الصَّالِحِينَ، بَيْنَمَا يَتَخَلَّفُ المتَبَاطِئُ في رَكْبِ الغَافِلِينَ وَيَفُوتُهُ مَوْسِمُ الحَصَادِ.

الصَّدَى

مِضْمَارُ الخَيْرَاتِ وَوِسَامُ الصَّالِحِينَ

صَدَى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

مَوْكِبٌ مُتَسَابِقٌ يَنْطَلِقُ فِي مَيَادِينِ البِرِّ بِقُلُوبٍ مُؤْمِنَةٍ بِالخَالِقِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَيُحْيِي المَعْرُوفَ وَيَدْفَعُ المُنْكَرَ وَيُسَارِعُ فِي الخَيْرَاتِ لِيَنَالَ شَرَفَ الصَّلَاحِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّرَاخِي وَالتَّأْجِيلِ عِنْدَ سُنُوحِ فُرَصِ العَطَاءِ وَالإِصْلَاحِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الصَّالِحِينَ هُمْ أَهْلُ المُبَادَرَةِ الَّذِينَ لَا يَنْتَظِرُونَ الغَدَ لِفِعْلِ الخَيْرِ. وَكَمْ فَوَّتَ التَّرَدُّدُ قَدِيماً عَلَى النُّفُوسِ مَوَاسِمَ الرِّبْحِ الرُّوحِيِّ حِينَ مَشَتْ بِبُطْءٍ نَحْوَ الطَّاعَةِ، بَيْنَمَا يَرْكُضُ السَّابِقُونَ فِي مِضْمَارِ الخَيْرَاتِ! أَتَأَمَّلُ النَّحْلَةَ النَّشِيطَةَ عِنْدَ انْبِلَاجِ الصَّبَاحِ كَيْفَ تُسَارِعُ بِأَجْنِحَتِهَا نَحْوَ الرِّيَاضِ المُزْهِرَةِ قَبْلَ أَنْ تَجِفَّ قَطَرَاتُ النَّدَى عَنِ البَتَلَاتِ، فَتَجْمَعُ أَطْيَبَ الرَّحِيقِ وَتَصْنَعُ شَهْداً شَافِياً يُبَارَكُ فِيهِ. فَمَا أَعْظَمَ شَهَادَةَ اللهِ لِهَؤُلَاءِ المُبَادِرِينَ حِينَ يَجْمَعُ لَهُمُ الإِيمَانَ وَالإِصْلَاحَ وَالمُسَارَعَةَ فِي الخَيْرَاتِ ثُمَّ يُتَوِّجُهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى مُسَابَقَةٍ شَغُوفَةٍ تَغْتَنِمُ كُلَّ خَيْرٍ قَبْلَ فَوَاتِهِ. فَكُلُّ تَبَاطُؤٍ عَنِ البِرِّ مَآلُهُ الحَسْرَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصَلَاحٍ يَتَقَبَّلُهُ اللهُ وَيُخَلِّدُهُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 115 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَطَرَاتُ الغَيْثِ الصَّغِيرَةُ تَحْفَظُهَا أَعْمَاقُ الأَرْضِ الكَرِيمَةِ لِتُفَجِّرَ مِنْهَا يَنَابِيعَ الحَيَاةِ، وَأَنْفَاسُ الإِحْسَانِ المَسْتُورَةُ يَرْعَاهَا الدَّيَّانُ فَلَا يَضِيعُ مِنْهَا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي سِجِلِّ النَّجَاةِ. فَلَا جُحُودَ لِجُهْدٍ بُذِلَ بِصِدْقٍ وَلَا بَخْسَ لِسَعْيٍ خَرَجَ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ؛ إِذْ يُحْصِي العَلِيمُ خَفَايَا التَّقْوَى فِي الصُّدُورِ، وَيَرُدُّ ثَمَرَةَ الخَيْرِ مُضَاعَفَةً يَوْمَ تُكْشَفُ السَّرَائِرُ وَتُوزَنُ الأُمُورُ. فَمَنْ غَرَسَ خَيْراً وَلَوْ كَانَ يَسِيراً وَجَدَ ثَمَرَتَهُ مَوْفُورَةً عِنْدَ العَلِيمِ، بَيْنَمَا يَنْدَمُ مَنِ اسْتَقَلَّ العَطَاءَ فَأَمْسَكَ يَدَهُ عَنِ التَّقْدِيمِ.

الصَّدَى

حِفْظُ المَعْرُوفِ وَإِحَاطَةُ العَلِيمِ بِالمُتَّقِينَ

صَدَى ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

صَحِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ لَا تَغْفُلُ عَنْ أَصْغَرِ فِعْلٍ مِنَ الخَيْرِ، فَتَحْفَظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ وَالجُحُودِ تَحْتَ رِعَايَةِ العَلِيمِ بِأَهْلِ التَّقْوَى. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ المَعْرُوفَ الصَّغِيرَ أَوِ الجُهْدَ المِسْتُورَ قَدْ يَذْهَبُ سُدًى فِي زِحَامِ الحَيَاةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كَرَمَ السَّمَاءِ لَا يَجْحَدُ حَسَنَةً وَاحِدَةً. وَكَمْ تَرَدَّدَتِ اليَدُ قَدِيماً عَنْ بَذْلِ اليَسِيرِ ظَنّاً مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَتْرُكُ أَثَراً، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ الَّتِي تَضْمَنُ حِفْظَ كُلِّ خَيْرٍ وَتَقْدِيرَهُ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي تَسْقُطُ فِي تُرْبَةِ الوَادِي الخَصْبِ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، كَيْفَ تَحْتَضِنُهَا الأَرْضُ بِأَمَانَةٍ وَتُغَذِّيهَا بِالمَاءِ وَالمَعَادِنِ حَتَّى تَصِيرَ شَجَرَةً وَارِفَةَ الظِّلَالِ تَشْهَدُ بِبَرَكَةِ تِلْكَ البَذْرَةِ الأُولَى. فَمَا أَعْظَمَ وَفَاءَ اللهِ العَلِيمِ بِالمُتَّقِينَ الَّذِي لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ أَيُّ خَيْرٍ يَفْعَلُهُ العِبَادُ بَلْ يُضَاعِفُهُ لَهُمْ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَطَايَايَ إِلَى سَحَابٍ دَائِمٍ يَفْعَلُ الخَيْرَ كَبِيرَهُ وَصَغِيرَهُ بِثِقَةٍ وَيَقِينٍ. فَكُلُّ خَيْرٍ يُبْذَلُ لِلْخَالِقِ مَحْفُوظٌ لَا يُجْحَدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِلْمِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ لِلْمُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 116 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

فَنَاطِيرُ الذَّهَبِ المَكْنُوزَةُ وَعِزْوَةُ البَنِينَ المَفْخُورَةُ تَتَهَاوَى كَالجِدَارِ المُنْهَارِ عِنْدَ هُبُوبِ عَاصِفَةِ العَدْلِ الإِلٰهِيِّ، فَلَا تَرُدُّ سَهْماً مِنَ القَضَاءِ وَلَا تَفْتَحُ بَاباً لِلنَّجَاةِ. فَحِينَ يَتَّخِذُ المَرْءُ الثَّرَاءَ وَالكَثْرَةَ أَوْثَاناً يَتَّكِئُ عَلَيْهَا دُونَ خَالِقِهِ، تَنْقَلِبُ تِلْكَ الزِّينَةُ حَسْرَةً وَخِذْلَاناً يَوْمَ تُقْطَعُ الأَسْبَابُ وَيُحْشَرُ الجَاحِدُونَ إِلَى مُقَامِ النَّارِ الخَالِدِ الَّذِي لَا انْفِكَاكَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ. فَمَنْ سَخَّرَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ جَعَلَهُمَا جِسْراً إِلَى الجَنَّةِ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ المَغْرُورُ بِهِمَا فِي نَارٍ خَالِدَةٍ لَا يُغْنِي عَنْهُ فِيهَا شَفِيعٌ وَلَا عَشِيرٌ.

الصَّدَى

وَقُودُ الغُرُورِ وَخُلُودُ الجَحِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

أَصْنَامٌ وَهْمِيَّةٌ مِنَ المالِ وَالبَنِينَ يَحْتَمِي بِهَا الجَاحِدُونَ فِي الدُّنْيَا، فَتَتَبَخَّرُ كَالدُّخَانِ يَوْمَ الحِسَابِ وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ خُلُودَ النَّارِ وَمَصِيرَ الهَلَاكِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِقْوَاءِ بِالثَّرْوَةِ وَالكَثْرَةِ البَشَرِيَّةِ أَمَامَ قُدْرَةِ الخَالِقِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الإِيمَانَ الصَّادِقَ هُوَ الدِّرْعُ الوَحِيدُ الَّذِي يَقِي مِنَ النَّارِ. وَكَمْ تَبَاهَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً بِخَزَائِنِهَا وَأَبْنَائِهَا ظَنّاً مِنْهَا أَنَّهَا مَلَكَتْ مَفَاتِيحَ الأَمَانِ، حَتَّى هَزَّهَا هٰذَا الحُكْمُ القَاطِعُ بِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ الخَالِدُونَ فِيهَا! أَتَأَمَّلُ البَيْتَ المِبْنِيَّ مِنْ أَعْوَادِ القَصَبِ اليَابِسِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ صَاحِبُهُ بِأَكْوَامٍ مِنَ القَشِّ وَالحَطَبِ ظَنّاً مِنْهُ أَنَّهَا تَحْمِيهِ مِنْ لَهِيبِ الحَرِيقِ، فَمَا إِنْ تَقْتَرِبُ النَّارُ حَتَّى تَلْتَهِمَ تِلْكَ الأَكْوَامَ وَتُحِيلَ البَيْتَ وَصَاحِبَهُ إِلَى رَمَادٍ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُبْطِلُ غُرُورَ الكَافِرِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَيَجْعَلُهُمْ أَصْحَابَ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَتِي بِالمالِ وَالأَهْلِ إِلَى رِعَايَةٍ تَرْبِطُهُمْ بِطَاعَةِ السَّمَاءِ لِيَكُونُوا زَاداً لِلنَّجَاةِ لَا سَبَباً لِلْغَفْلَةِ. فَكُلُّ كَثْرَةٍ تَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ مَآلُهَا الهَلَاكُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَنَعِيمِهِ الَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 117 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَسَاتِينُ العَطَاءِ المسْقِيَّةُ بِمَاءِ الرِّيَاءِ وَالكُفْرِ تَهَبُّ عَلَيْهَا عَاصِفَةٌ هَوْجَاءُ ذَاتُ بَرْدٍ قَارِسٍ وَنَارٍ لَافِحَةٍ، فَتُحِيلُ خُضْرَتَهَا هَشِيماً مُحْتَرِقاً فِي سَاعَةِ الحَصَادِ؛ فَكَذٰلِكَ أَمْوَالُ الجَاحِدِينَ الَّتِي أَنْفَقُوهَا صَدّاً عَنِ الحَقِّ أَوْ تَفَاخُراً بَيْنَ الخَلْقِ، تَتَبَدَّدُ ثَمَرَتُهَا وَتَغْدُو حَسْرَةً عَلَى أَصْحَابِهَا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ ظُلْمِ أَنْفُسِهِمْ وَإِفْسَادِ مَقَاصِدِهِمْ. فَمَنْ أَخْلَصَ بَذْلَهُ لِوَجْهِ رَبِّهِ نَمَا حَرْثُهُ وَأَثْمَرَ فِي الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا تَجْتَاحُ رِيحُ الصِّرِّ المهْلِكَةُ زَرْعَ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ وَالعِنَادِ.

الصَّدَى

رِيحُ الصِّرِّ وَهَلَاكُ الحَرْثِ

صَدَى ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

حَقْلٌ يَانِعٌ يَتَرَقَّبُ أَصْحَابُهُ مَوْسِمَ الحَصَادِ، فَتَجْتَاحُهُ رِيحٌ عَاصِفَةٌ تَحْمِلُ البَرْدَ القَاتِلَ وَالنَّارَ المحْرِقَةَ، فَتَتْرُكُهُ هَشِيماً يَابِساً بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاغْتِرَارِ بِعَطَاءٍ مَادِّيٍّ يَقُومُ عَلَى الكُفْرِ أَوْ مُحَارَبَةِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ صَلَاحَ النِّيَّةِ وَالإِيمَانِ هُمَا المَاءُ الَّذِي يَحْيَا بِهِ حَرْثُ الإِحْسَانِ. وَكَمْ بَذَلَ المنْكِرُونَ قَدِيماً أَمْوَالاً طَائِلَةً لِيَبْنُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذِكْراً أَوْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ السَّمَاءِ، فَجَاءَتْ رِيحُ العَدْلِ لِتُهْلِكَ زَرْعَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَجْنُوا مِنْهُ ثَمَرَةً وَاحِدَةً! أَتَأَمَّلُ الزَّارِعَ المغْتَرَّ الَّذِي يَبْذُرُ حُبُوبَهُ فِي أَرْضٍ مَالِحَةٍ مَسْمُومَةٍ وَيَسْقِيهَا بِمَاءٍ أُجَاجٍ ثُمَّ يَنْتَظِرُ السَّنَابِلَ الذَّهَبِيَّةَ، فَمَا إِنْ تَهُبَّ رِيحُ السَّمُومِ حَتَّى تَتَحَوَّلَ أَعْوَادُهُ اليَابِسَةُ إِلَى غُبَارٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهُ أَحَدٌ بَلْ هُوَ الَّذِي ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسُوءِ الخْتِيَارِهِ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ العِبَادَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ يُهْلِكُونَ حَرْثَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِنَايَتِي فِي الإِنْفَاقِ إِلَى تَطْهِيرِ الجُذُورِ بِالإِيمَانِ وَالإِخْلَاصِ لِيَسْلَمَ حَرْثِي مِنْ رِيحِ الصِّرِّ. فَكُلُّ بَذْلٍ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ مَآلُهُ الهَلَاكُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعَمَلٍ يَحْفَظُهُ اللهُ وَيُنَمِّيهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 118 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِصْنُ الأَسْرَارِ وَصُنْدُوقُ القَلْبِ لَا يُفْتَحُ إِلَّا لِأَهْلِ الأَمَانَةِ وَالوَلَاءِ الصَّادِقِ؛ فَمَنْ أَدْخَلَ الأَفَاعِيَ إِلَى جَوْفِ دَارِهِ وَأَطْلَعَ الحَاقِدِينَ عَلَى خَفَايَا أَسْرَارِهِ فَقَدْ سَلَّمَ عُنُقَهُ لِمَنْ لَا يُقَصِّرُ فِي إِيقَاعِ الفَسَادِ وَالخَبَالِ بِهِ. فَالغَيْظُ المكْتُومُ فِي الصُّدُورِ تَفْضَحُهُ فَلَتَاتُ الأَلْسِنَةِ وَنَبَرَاتُ الكَلَامِ، وَمَا يَسْتُرُهُ الجَنَانُ مِنَ العَدَاوَةِ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ مِمَّا يَبُوحُ بِهِ اللِّسَانُ، فَبَصِيرَةُ العَاقِلِ تَقْرَأُ العَلَامَاتِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي شِبَاكِ

الغَدْرِ وَالخِذْلَانِ. فَمَنْ صَانَ سِرَّهُ عَنِ الدُّخَلَاءِ وَائْتَمَنَ أَهْلَ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ حَفِظَ كِيَانَهُ وَدِينَهُ، بَيْنَمَا يَجْنِي السَّاذَجُ المُفَرِّطُ فِي أَسْرَارِهِ مَرَارَةَ الخِيَانَةِ وَالعَنَتِ.

الصَّدَى

صُنْدُوقُ الأَسْرَارِ وَفَلَتَاتُ البَغْضَاءِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أَبْوَابٌ حَصِينَةٌ تَحْمِي خَفَايَا الصَّفِّ مِنَ الدُّخَلَاءِ، فَتُحَذِّرُ القُلُوبَ اليَقِظَةَ مِنْ ائْتِمَانِ مَنْ يَتَمَنَّوْنَ لَهَا العَنَتَ وَالخَبَالَ وَتَفْضَحُ أَلْسِنَتُهُمْ بَغْضَاءَ صُدُورِهِمْ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ السَّذَاجَةِ الَّتِي تَبُوحُ بِالأَسْرَارِ لِكُلِّ مُتَمَلِّقٍ يُظْهِرُ الوُدَّ وَيُضْمِرُ الكَيْدَ، وَتَسْتَقِرُّ يَقْظَةُ العَقْلِ الَّذِي يَقْرَأُ الدَّلَالَاتِ وَيَحْفَظُ الخُصُوصِيَّةَ. وَكَمْ جَرَّتِ الثِّقَةُ المُفْرِطَةُ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا قَدِيماً أَصْحَابَهَا إِلَى مَهَاوِي الغَدْرِ وَالفَسَادِ، حَتَّى أَيْقَظَ الوَحْيُ البَصَائِرَ بِبَيَانِ الآيَاتِ لِأَهْلِ العَقْلِ! أَتَأَمَّلُ البُرَكَانَ الخَامِدَ فِي الظَّاهِرِ الَّذِي تَتَصَاعَدُ مِنْ فُوَّهَتِهِ أَدْخِنَةٌ خَفِيفَةٌ وَشَرَارَاتٌ عَابِرَةٌ تَكْشِفُ عَنِ الحِمَمِ المُلْتَهِبَةِ المَكْتُومَةِ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ، فَلَا يَقْتَرِبُ مِنْهُ ذُو لُبٍّ وَلَا يَبْنِي بَيْتَهُ عَلَى حَافَتِهِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَغْضَاءَ الخُصُومِ وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ لِيَعْقِلُوا وَيَحْذَرُوا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِلَاقَاتِي إِلَى بَصِيرَةٍ وَاعِيَةٍ تَضَعُ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي مَوْضِعِهِ وَتَحْفَظُ الأَسْرَارَ عِنْدَ أَهْلِ الأَمَانَةِ. فَكُلُّ بِطَانَةٍ تُضْمِرُ الخَبَالَ مَآلُهَا الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحِفْظِ اللهِ وَتَدْبِيرِهِ لِأَوْلِيَائِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 119 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

المَوْعِظَةُ

نَقَاءُ الفِطْرَةِ المُؤْمِنَةِ الَّتِي تَفِيضُ بِالمَوَدَّةِ وَتُؤْمِنُ بِالكُتُبِ كُلِّهَا يُقَابِلُهُ تَلَوُّنُ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَبْتَسِمُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَيَعَضُّونَ أَنَامِلَهُمْ غَيْظاً فِي الخَلَاءِ كُلَّمَا رَأَوْا تَلَاحُمَ الصَّفِّ وَنَمَاءَ العَطَاءِ. فَالغَيْظُ الحَاقِدُ

نَارٌ دَاخِلِيَّةٌ تَأْكُلُ صَاحِبَهَا قَبْلَ أَنْ تَمَسَّ غَيْرَهُ، وَصَاحِبُ القَلْبِ السَّلِيمِ يَمْضِي فِي نُورِهِ مُطْمَئِنّاً إِلَى أَنَّ عَلَّامَ الغُيُوبِ يُحِيطُ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَيُبْطِلُ كَيْدَ الحَاسِدِينَ. فَمَنْ صَفَا قَلْبُهُ وَآمَنَ بِالحَقِّ كُلِّهِ سَمَا فَوْقَ أَحْقَادِ المتَلَوِّنِينَ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ الحَاسِدُ بِنَارِ غَيْظِهِ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ بِالسَّرَائِرِ.

الصَّدَى

سَلَامَةُ الصُّدُورِ وَنَارُ الغَيْظِ

صَدَى ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قُلُوبٌ صَافِيَةٌ تَحْمِلُ المَوَدَّةَ وَتُؤْمِنُ بِالكِتَابِ كُلِّهِ، وَوُجُوهٌ مُتَلَوِّنَةٌ تَتَظَاهَرُ بِالإِيمَانِ عِنْدَ اللِّقَاءِ ثُمَّ تَحْتَرِقُ بِنَارِ الغَيْظِ فِي الخَلَوَاتِ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ بِذَاتِ الصُّدُورِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ مُقَابَلَةِ الحِقْدِ بِالحِقْدِ أَوِ الِانْشِغَالِ بِأَحْقَادِ المتَلَوِّنِينَ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ نَقَاءَ قَلْبِي وَشُمُولَ إِيمَانِي هُمَا سِرُّ قُوَّتِي وَطُمَأْنِينَتِي. وَكَمْ أَخْفَتِ الأَقْنِعَةُ قَدِيماً عَدَاوَةً تَغْلِي فِي الصُّدُورِ وَتَعَضُّ الأَنَامِلَ كَمَداً مِنْ نَجَاحِ الصَّادِقِينَ، حَتَّى هَتَكَ الوَحْيُ أَسْتَارَهَا وَأَعْلَنَ أَنَّ غَيْظَهُمْ سَيَقْتُلُهُمْ! أَتَأَمَّلُ الجَمْرَةَ الملْتَهِبَةَ المحْبُوسَةَ فِي إِنَاءٍ حَدِيدِيٍّ مُغْلَقٍ تَحْتَ المطَرِ، كَيْفَ تَأْكُلُ نَفْسَهَا وَتَتَحَوَّلُ إِلَى رَمَادٍ أَسْوَدَ فِي دَاخِلِ الإِنَاءِ بَيْنَمَا تَزْدَادُ الرِّيَاضُ الخَضْرَاءُ حَوْلَهَا نَضَارَةً وَبَهَاءً تَحْتَ قَطَرَاتِ الغَيْثِ العَذْبِ. فَمَا أَعْظَمَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ حِينَ يَكْشِفُ تَلَوُّنَ المنَافِقِينَ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَ المؤْمِنِينَ بِالحَقِّ كُلِّهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُوحِي إِلَى سَكِينَةٍ تَعْلُو فَوْقَ الحَسَدِ وَتَثِقُ بِعِلْمِ الخَالِقِ. فَكُلُّ غَيْظٍ يَحْمِلُهُ الحَاسِدُ يَقْتُلُ صَاحِبَهُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَلِيمِ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 120 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

المَوْعِظَةُ

قَلْبٌ يَكْتَئِبُ عِنْدَ إِشْرَاقِ النِّعْمَةِ عَلَى غَيْرِهِ وَيَرْقُصُ طَرَباً عِنْدَ نُزُولِ البَلَاءِ بِهِ هُوَ مِرْآةُ العَدَاوَةِ المَتَأَصِّلَةِ الَّتِي لَا يُجْدِي مَعَهَا التَّمَلُّقُ وَلَا يُطْفِئُهَا التَّنَازُلُ. غَيْرَ أَنَّ حِصْنَ الصَّبْرِ الجَمِيلِ وَدِرْعَ التَّقْوَى الوَثِيقِ يُبْطِلَانِ مَفْعُولَ كُلِّ مَكْرٍ وَيَجْعَلَانِ سِهَامَ الخُصُومِ تَرْتَدُّ خَائِبَةً دُونَ أَنْ تَخْدِشَ صَفْوَ اليَقِينِ؛ إِذْ يُحِيطُ سُلْطَانُ الخَالِقِ وَعِلْمُهُ بِكُلِّ مَا يَحُوكُهُ المَاكِرُونَ فِي الظَّلَامِ. فَمَنْ تَدَرَّعَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى أَبْطَلَ رَبُّهُ عَنْهُ كَيْدَ الأَعْدَاءِ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ الحَاقِدُونَ فِي دَائِرَةِ إِحَاطَةِ الجَبَّارِ وَتَدْبِيرِهِ القَاهِرِ.

الصَّدَى

دِرْعُ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَإِحَاطَةُ القَدِيرِ

صَدَى ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

مِيزَانٌ دَقِيقٌ يَكْشِفُ سَرِيرَةَ العَدُوِّ بَيْنَ حُزْنِهِ لِلنِّعْمَةِ وَفَرَحِهِ بِالبَلِيَّةِ، وَيُقَدِّمُ لِلْقَلْبِ المؤْمِنِ دِرْعَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى الَّذِي يُبْطِلُ كُلَّ كَيْدٍ تَحْتَ إِحَاطَةِ الخَالِقِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخَوْفِ مِنْ تَدْبِيرِ الحَاسِدِينَ وَتَرَبُّصِهِمْ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ صَبْرِي وَتَقْوَايَ هُمَا السُّورُ المَنِيعُ الَّذِي لَا يَخْتَرِقُهُ كَيْدُ مَخْلُوقٍ. وَكَمْ أَرَّقَتْ نَفْسِي قَدِيماً شَمَاتَةُ الشَّامِتِينَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، حَتَّى أَرَاحَتْنِي هٰذِهِ الوَصْفَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى حِصْناً لَا يَضُرُّ مَعَهُ كَيْدُ الأَعْدَاءِ شَيْئاً! أَتَأَمَّلُ القَلْعَةَ الشَّامِخَةَ المَبْنِيَّةَ مِنْ صُخُورِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فَوْقَ قِمَّةِ الجَبَلِ، كَيْفَ يُحِيطُ بِهَا الأَعْدَاءُ فِي الوَادِي فَيَحْزَنُونَ كُلَّمَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَيَفْرَحُونَ كُلَّمَا مَرَّتْ بِهَا غَيْمَةٌ، بَيْنَمَا أَهْلُ القَلْعَةِ فِي أَمَانٍ وَطُمَأْنِينَةٍ لِأَنَّ سُلْطَانَ المَلِكِ يُحِيطُ بِالوَادِي وَمَنْ فِيهِ. فَمَا أَعْظَمَ حِفْظَ اللهِ المحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ حِينَ يَعْصِمُ الصَّابِرِينَ المَتَّقِينَ مِنْ كَيْدِ الخُصُومِ وَمَكْرِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قُوَّتِي عِنْدَ المِحَنِ إِلَى صَبْرٍ ثَابِتٍ وَتَقْوَى خَالِصَةٍ تَثِقُ بِإِحَاطَةِ الخَالِقِ. فَكُلُّ كَيْدٍ يُحَاكُ ضِدَّ المَتَّقِينَ مَآلُهُ البُطْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ المحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٢١-١٣٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 121 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

نَسِيمُ الفَجْرِ يُوقِظُ العَزَائِمَ الرَّاسِخَةَ لِتَخْرُجَ مِنْ دِفْءِ المَنَازِلِ إِلَى مَيَادِينِ البَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ، حَيْثُ تَنْتَظِمُ الصُّفُوفُ كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ فَيُوضَعُ كُلُّ سَيْفٍ فِي مَوْضِعِهِ وَكُلُّ قَدَمٍ فِي مَقْعَدِهَا الأَمِينِ. فَالنَّصْرُ لَا يُنَالُ بِالأَمَانِي العَابِرَةِ فِي أَرْوِقَةِ الكَسَلِ، بَلْ بِالتَّخْطِيطِ الدَّقِيقِ الَّذِي يَرْصُدُ السَّمِيعُ العَلِيمُ خَفَايَا نَوَايَاهُ وَهَمَسَاتِ رِجَالِهِ. فَمَنْ بَكَّرَ بِخُطَاهُ نَحْوَ مَوَاطِنِ الثَّبَاتِ وَأَحْسَنَ التَّدْبِيرَ أَحَاطَتْهُ عِنَايَةُ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَتَعَثَّرُ المُتَثَاقِلُ فِي فَوْضَى التَّرَدُّدِ وَالتَّأْخِيرِ.

الصَّدَى

بُكُورُ العَزِيمَةِ وَتَرْتِيبُ الصُّفُوفِ

صَدَى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فَجْرٌ مُبَارَكٌ تَخْرُجُ فِيهِ القِيَادَةُ الرَّاشِدَةُ لِتُرَتِّبَ الصُّفُوفَ وَتَضَعَ كُلَّ مُقَاتِلٍ فِي مَقْعَدِهِ، تَحْتَ رِعَايَةِ السَّمِيعِ العَلِيمِ بِالنَّوَايَا وَالهَمَسَاتِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاتِّكَالِ عَلَى العَفْوِيَّةِ وَالفَوْضَى عِنْدَ المَوَاقِفِ الكُبْرَى، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ إِتْقَانَ الأَسْبَابِ وَتَنْظِيمَ الصَّفِّ هُمَا عُنْوَانُ الصِّدْقِ. وَكَمْ ضَاعَتْ قَدِيماً فُرَصٌ ثَمِينَةٌ حِينَ غَابَ البُكُورُ وَالنِّظَامُ عَنِ المَيْدَانِ، حَتَّى أَرْسَى هٰذَا المَشْهَدُ النَّبَوِيُّ قَاعِدَةَ الجِدِّ وَالإِتْقَانِ! أَتَأَمَّلُ قَائِدَ البُنَاةِ المَاهِرَ الَّذِي يَغْدُو مَعَ تَبَاشِيرِ الصَّبَاحِ لِيَضَعَ كُلَّ حَجَرٍ صُلْبٍ فِي مَكَانِهِ المُنَاسِبِ مِنَ الحِصْنِ المَنِيعِ، فَيَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً فِي تَنَاغُمٍ بَدِيعٍ يَصُدُّ العَوَاصِفَ وَالسُّيُولَ. فَمَا أَعْظَمَ رَقَابَةَ اللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي يَرْصُدُ حَرَكَةَ العَامِلِينَ وَيُبَارِكُ خُطَى المُكَرِّرِينَ فِي سَبِيلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَرَكَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى بُكُورٍ نَشِيطٍ وَتَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ يَسْتَحْضِرُ سَمْعَ الخَالِقِ وَعِلْمَهُ. فَكُلُّ فَوْضَى تَخْلُو مِنَ النِّظَامِ مَآلُهَا التَّعَثُّرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 122 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاحُ الخَوَرِ قَدْ تَهُبُّ عَلَى أَطْرَافِ الصَّفِّ فَتَهُمُّ القُلُوبُ بِالِانْكِسَارِ وَالتَّرَاجُعِ عِنْدَ احْتِدَامِ الخَطْبِ وَتَزَاحُمِ الأَخْطَارِ، غَيْرَ أَنَّ يَدَ الوِلَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ تَمْتَدُّ فِي اللَّحْظَةِ الحَاسِمَةِ لِتُثَبِّتَ الأَقْدَامَ المُرْتَعِدَةَ وَتَنْشِلَ الأَرْوَاحَ مِنْ وَهْدَةِ الفَشَلِ وَالِانْهِيَارِ. فَالْعِصْمَةُ مِنَ السُّقُوطِ لَا تُنَالُ بِصَلَابَةِ السَّوَاعِدِ وَحْدَهَا، بَلْ بِالِاعْتِمَادِ الكَامِلِ عَلَى الوَلِيِّ النَّاصِرِ الَّذِي يَرْبِطُ عَلَى الجَنَانِ عِنْدَ الِاضْطِرَابِ. فَمَنْ أَلْقَى حِمْلَهُ عَلَى مَوْلَاهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ثَبَّتَهُ رَبُّهُ عِنْدَ الزَّلَلِ، بَيْنَمَا يَهْوِي مَنِ اتَّكَلَ عَلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ عِنْدَ أَوَّلِ هَزَّةٍ.

الصَّدَى

لُطْفُ الوِلَايَةِ وَطَوْقُ التَّوَكُّلِ

صَدَى ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

هَزَّةٌ عَابِرَةٌ تَمُرُّ بِبَعْضِ القُلُوبِ فَتَهُمُّ بِالتَّرَاجُعِ وَالفَشَلِ، فَتُدْرِكُهَا عِنَايَةُ الخَالِقِ بِوِلَايَتِهِ لِتُثَبِّتَ أَقْدَامَهَا وَتُرْشِدَ المُؤْمِنِينَ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ العِصْمَةِ الذَّاتِيَّةِ مِنَ الضَّعْفِ البَشَرِيِّ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ وِلَايَةَ الرَّحْمٰنِ هِيَ الَّتِي تَحْمِينِي مِنَ السُّقُوطِ حِينَ تَضْطَرِبُ النَّفْسُ. وَكَمْ اقْتَرَبَتِ القَدَمُ قَدِيماً مِنْ حَافَةِ التَّرَدُّدِ وَالانْسِحَابِ أَمَامَ عَاصِفَةِ الخَوْفِ، فَلَمْ يُنْقِذْهَا إِلَّا لُطْفُ الوَلِيِّ الكَرِيمِ وَتَوَكُّلُ القَلْبِ عَلَيْهِ! أَتَأَمَّلُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الَّذِي يَمْشِي فِي طَرِيقٍ وَعِرٍ فَتَتَعَثَّرُ خُطَاهُ وَيَهُمُّ بِالسُّقُوطِ عَلَى الصُّخُورِ، كَيْفَ تَمْتَدُّ يَدُ أَبِيهِ الرَّحِيمِ فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ لِتُمْسِكَ بِكَفِّهِ وَتُقِيمَ صُلْبَهُ حَتَّى يَمْضِيَ فِي طَرِيقِهِ آمِناً مُطْمَئِنّاً. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ وَلِيِّ المُؤْمِنِينَ الَّذِي يَحْفَظُ عِبَادَهُ مِنَ الفَشَلِ وَيَأْمُرُهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حِينٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي عِنْدَ الضَّعْفِ إِلَى تَوَكُّلٍ صَادِقٍ يَلُوذُ بِوِلَايَةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ قُوَّةٍ تَخْلُو مِنَ التَّوَكُّلِ مَآلُهَا الفَشَلُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَلِيِّ المُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 123 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

ذِكْرَى الغَيْثِ الَّذِي أَحْيَا الأَرْضَ المَيْتَةَ وَالنُّورِ الَّذِي شَقَّ أَسْتَارَ الدُّجَى فِي سَاعَةِ الِانْكِسَارِ وَالقِلَّةِ تَبْعَثُ فِي الأَرْوَاحِ يَقَظَةَ العِرْفَانِ وَالمَهَابَةِ. فَحِينَ تَضِيقُ الحَلَقَاتُ وَتَشِحُّ الأَسْبَابُ، يَتَنَزَّلُ المَدَدُ مِنَ المَلَكُوتِ لِيَقْلِبَ المَوَازِينَ وَيَصْنَعَ مِنْ رَحِمِ الضَّعْفِ مَلْحَمَةَ الظَّفَرِ وَالغَلَبَةِ، فَيَكُونُ القَيْدُ الحَقِيقِيُّ لِلنِّعْمَةِ هُوَ مِحْرَابَ التَّقْوَى وَالشُّكْرِ الَّذِي يَصُونُ العَطَاءَ مِنَ الزَّوَالِ. فَمَنْ قَيَّدَ نِعَمَ رَبِّهِ بِالتَّقْوَى وَالشُّكْرِ دَامَ لَهُ النَّصْرُ وَالتَّمْكِينُ، بَيْنَمَا يَسْلُبُ البَطَرُ وَالنِّسْيَانُ مَنْ أَدْبَرَ عَنِ الشُّكْرِ بَعْدَ التَّأْيِيدِ.

الصَّدَى

مَلْحَمَةُ بَدْرٍ وَقَيْدُ الشُّكْرِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

تَارِيخٌ نُورَانِيٌّ يَشْهَدُ بِأَنَّ النَّصْرَ هِبَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَنْزِلُ فِي سَاعَةِ الضَّعْفِ وَالقِلَّةِ، فَتُوجِبُ عَلَى القُلُوبِ تَقْوَى الخَالِقِ وَشُكْرَ نِعْمَتِهِ الكُبْرَى. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاغْتِرَارِ بِالكَثْرَةِ وَالعُدَّةِ المَادِّيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ التَّأْيِيدَ يَأْتِي حِينَ تَنْكَسِرُ النَّفْسُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا. وَكَمْ نَسِيَتِ القُلُوبُ قَدِيماً أَيَّامَ الِافْتِقَارِ بَعْدَ أَنْ غَمَرَهَا الرَّخَاءُ وَالظَّفَرُ، حَتَّى أَيْقَظَهَا هٰذَا التَّذْكِيرُ الَّذِي يَرْبِطُ النَّصْرَ بِالتَّقْوَى وَالشُّكْرِ! أَتَأَمَّلُ السُّنْبُلَةَ الضَّعِيفَةَ الَّتِي نَبَتَتْ فِي أَرْضٍ قَاحِلَةٍ وَقَدْ أَوْشَكَتْ عَلَى الذُّبُولِ، كَيْفَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا البَارِئُ سَحَابَةً مُبَارَكَةً أَحْيَتْ عُودَهَا وَأَثْقَلَتْهَا بِالحَبِّ، فَانْحَنَتْ شُكْراً لِلسَّمَاءِ وَتَمَسَّكَتْ بِتُرْبَتِهَا لِئَلَّا تَقْتَلِعَهَا الرِّيحُ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ الَّذِي نَصَرَ عِبَادَهُ بِبَدْرٍ وَهُمْ أَذِلَّةٌ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى التَّقْوَى لِيُحَقِّقُوا مَقَامَ الشُّكْرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ذَاكِرَتِي لِلنِّعَمِ إِلَى تَقْوَى يَقِظَةٍ تَشْكُرُ المُنْعِمَ فِي كُلِّ حَالٍ. فَكُلُّ نَصْرٍ يَخْلُو مِنَ الشُّكْرِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ الَّذِي يَزِيدُ الشَّاكِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 124 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُشْرَى التَّأْيِيدِ المَلَائِكِيِّ تَسْكُبُ بَرْدَ السَّكِينَةِ عَلَى القُلُوبِ المُضْطَرِبَةِ، فَتُبَدِّدُ وَحْشَةَ القِلَّةِ بِجُنُودِ السَّمَاءِ الَّتِي تَتَنَزَّلُ بِأَمْرِ الخَالِقِ لِتَشُدَّ أَزْرَ الصَّادِقِينَ. فَمَا ضَاقَتْ أَرْضٌ بِأَهْلِ الحَقِّ إِلَّا اتَّسَعَتْ لَهُمْ

أَبْوَابُ المَلَكُوتِ بِمَدَدٍ لَا تَرَاهُ أَعْيُنُ المكَابِرِينَ وَلَا تَقْوَى عَلَى صَدِّهِ جُمُوعُ البَاطِلِ، لِيَسْتَقِرَّ فِي الجَنَانِ أَنَّ كِفَايَةَ الرَّبِّ تَغْنِي عَنْ كُلِّ سَنَدٍ مَادِّيٍّ. فَمَنِ اطْمَأَنَّ إِلَى كِفَايَةِ رَبِّهِ وَمَدَدِهِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ وَزَالَ خَوْفُهُ، بَيْنَمَا يَضْطَرِبُ مَنْ حَصَرَ رُؤْيَتَهُ فِي مَقَايِيسِ الطِّينِ وَأَغْفَلَ جُنُودَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

الصَّدَى

سَكِينَةُ البُشْرَى وَمَدَدُ السَّمَاءِ

صَدَى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ أَجْنِحَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَهْبِطُ مِنَ المَلَأِ الأَعْلَى بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، فَتَمْلَأُ الصُّدُورَ طُمَأْنِينَةً وَتُعْلِنُ كِفَايَةَ الخَالِقِ لِأَوْلِيَائِهِ الصَّادِقِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَحْدَةِ وَالعُزْلَةِ فِي مَوَاطِنِ التَّحَدِّي، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تُمِدُّ الصَّابِرِينَ بِجُنُودٍ لَا تُقْهَرُ. وَكَمْ أَرْهَقَتِ النَّفْسَ قَدِيماً حِسَابَاتُ النَّقْصِ وَالضَّعْفِ، حَتَّى أَشْرَقَ هٰذَا النِّدَاءُ النَّبَوِيُّ الَّذِي يَسْأَلُ القُلُوبَ: أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ مَدَدُ رَبِّكُمْ مِنَ المَلَائِكَةِ؟! أَتَأَمَّلُ القَلْعَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي يُحَاصِرُهَا الظَّلَامُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، كَيْفَ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهَا أَشِعَّةُ الفَجْرِ بِآلَافِ الخُيُوطِ الذَّهَبِيَّةِ فَتَطْرُدُ الوَحْشَةَ وَتَمْلَأُ أَرْكَانَهَا بِالأَمَانِ وَالبَهْجَةِ دُونَ ضَجِيجٍ وَلَا عَنَاءٍ. فَمَا أَعْظَمَ كِفَايَةَ اللهِ الَّذِي يُمِدُّ المُؤْمِنِينَ بِالمَلَائِكَةِ المُنْزَلِينَ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَهُمْ وَيُنْجِزَ لَهُمْ وَعْدَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى ثِقَةٍ مُطْلَقَةٍ بِكِفَايَةِ الرَّبِّ وَمَدَدِهِ. فَكُلُّ عَجْزٍ تَظُنُّهُ العُيُونُ مَآلُهُ التَّبَدُّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الكَافِي النَّاصِرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 125 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِفْتَاحُ الخَزَائِنِ السَّمَاوِيَّةِ وَتَضَاعُفُ المَدَدِ مَرْهُونٌ بِثَبَاتِ الصَّبْرِ وَصَفَاءِ التَّقْوَى عِنْدَ مُفَاجَأَةِ الأَخْطَارِ وَهُجُومِ العَوَاصِفِ. فَكُلَّمَا اشْتَدَّتِ الهَجْمَةُ وَتَسَارَعَتِ الأَحْدَاثُ، اتَّسَعَتْ دَائِرَةُ العَطَاءِ الإِلٰهِيِّ لِتَزِيدَ المَدَدَ إِلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ المعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِسِيمَا النُّصْرَةِ وَالبَأْسِ؛ جَزَاءً

وِفَاقاً لِقُلُوبٍ لَمْ تَضْعُفْ لِمَا أَصَابَهَا وَلَمْ تَتَخَلَّ عَنْ تَقْوَاهَا فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ. فَمَنْ صَبَرَ وَاتَّقَى عِنْدَ هُجُومِ المِحَنِ ضَاعَفَ رَبُّهُ لَهُ التَّأْيِيدَ وَالكَرَامَةَ، بَيْنَمَا يُحْرَمُ الجَزُوعُ المُفَرِّطُ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ عِنْدَ انْقِطَاعِ الأَسْبَابِ.

الصَّدَى

شَرْطُ الصَّبْرِ وَتَضَاعُفُ المَدَدِ

صَدَى ﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾

خَمْسَةُ آلَافٍ مِنَ المَلَائِكَةِ المسَوِّمِينَ تَتَأَهَّبُ لِلنُّزُولِ كُلَّمَا اشْتَدَّتِ العَاصِفَةُ، بِشَرْطٍ وَاحِدٍ يُفْتَحُ بِهِ بَابُ السَّمَاءِ: صَبْرٌ يَثْبُتُ وَتَقْوَى تَصُونُ القَلْبَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الشِّدَّةَ المتَلَاحِقَةَ تَعْنِي التَّخَلِّيَ وَالخِذْلَانَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ تَعَاظُمَ البَلَاءِ يَسْتَجْلِبُ تَضَاعُفَ المَدَدِ عِنْدَ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى. وَكَمْ جَزِعَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً عِنْدَ تَوَالِي الصَّدَمَاتِ فَأَغْلَقَتْ بِجَزَعِهَا مَنَافِذَ الغَوْثِ، حَتَّى كَشَفَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى هُمَا مِغْنَاطِيسُ المَدَدِ السَّمَاوِيِّ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي تَثْبُتُ بِأَشْرِعَتِهَا المتِينَةِ فِي وَجْهِ الرِّيحِ العَاتِيَةِ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ رُبَّانُهَا رَبَاطَةَ جَأْشِهِ، كَيْفَ تَتَحَوَّلُ تِلْكَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ نَفْسُهَا إِلَى قُوَّةٍ دَافِعَةٍ تَحْمِلُ السَّفِينَةَ بِسُرْعَةٍ مُضَاعَفَةٍ نَحْوَ شَاطِئِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُضَاعِفُ المَدَدَ بِالمَلَائِكَةِ المسَوِّمِينَ لِأَهْلِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى عِنْدَ اشْتِدَادِ الخَطْبِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَاقِفِي عِنْدَ الأَزَمَاتِ إِلَى صَبْرٍ جَمِيلٍ وَتَقْوَى رَاسِخَةٍ تَسْتَمْطِرُ نَصْرَ السَّمَاءِ. فَكُلُّ جَزَعٍ عِنْدَ الشِّدَّةِ مَآلُهُ الحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُمِدُّ الصَّابِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 126 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

المَوْعِظَةُ

تَصْحِيحُ بُوصَلَةِ القَلْبِ كَيْ لَا يَتَعَلَّقَ بِالْوَسَائِطِ وَالأَسْبَابِ وَيَغْفُلَ عَنْ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ يُرْسِي التَّوْحِيدَ الخَالِصَ فِي مَيَادِينِ الصِّرَاعِ وَالبِنَاءِ. فَنُزُولُ المَلَائِكَةِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بُشْرَى تَشْرَحُ الصُّدُورَ

وَسَكِينَةً تُثَبِّتُ الجَنَانَ، أَمَّا حَقِيقَةُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ فَهِيَ مَحْضُ عَطَاءٍ مِنْ عِنْدِ العَزِيزِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، الحَكِيمِ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ أَمْرٍ فِي مَوْضِعِهِ الأَقْوَمِ. فَمَنْ عَلَّقَ رَجَاءَهُ بِالخَالِقِ وَحْدَهُ دُونَ الوَسَائِطِ صَفَا تَوْحِيدُهُ وَنَالَ النَّصْرَ المُبِينَ، بَيْنَمَا يَضِلُّ مَنِ انْبَهَرَ بِالأَسْبَابِ وَنَسِيَ مَالِكَ المُلْكِ العَزِيزَ الحَكِيمَ.

الصَّدَى

تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ وَمَصْدَرُ النَّصْرِ

صَدَى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

مِيزَانٌ نُورَانِيٌّ يَرُدُّ القُلُوبَ مِنْ التَّعَلُّقِ بِالأَسْبَابِ وَالمَلَائِكَةِ إِلَى التَّوَكُّلِ الخَالِصِ عَلَى الخَالِقِ، فَيُعْلِنُ أَنَّ المَدَدَ بُشْرَى وَطُمَأْنِينَةٌ وَأَنَّ النَّصْرَ لَا يَأْتِي إِلَّا مِنْ عِنْدِ العَزِيزِ الحَكِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاعْتِمَادِ عَلَى الوَسَائِطِ الظَّاهِرَةِ أَوِ الخَفِيَّةِ دُونَ مُسَبِّبِهَا، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ نَصْرٍ وَفَرَجٍ هُوَ مَحْضُ إِرَادَةِ الرَّبِّ العَزِيزِ الحَكِيمِ. وَكَمْ تَعَلَّقَتِ الأَبْصَارُ قَدِيماً بِالمَظَاهِرِ وَالْوَسَائِلِ فَنَسِيَتْ أَنَّهَا مُجَرَّدُ بَشَائِرَ تَطْمَئِنُّ بِهَا النُّفُوسُ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا الحَصْرُ القَاطِعُ لِيُصَحِّحَ وِجْهَةَ القَلْبِ! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ الزُّجَاجِيَّ الشَّفَّافَ الَّذِي يَحْمِلُ النُّورَ فِي الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ، كَيْفَ يَكُونُ الزُّجَاجُ وَسِيلَةً لِطُمَأْنِينَةِ العَيْنِ وَحِمَايَةِ الشُّعْلَةِ، بَيْنَمَا يَظَلُّ الضِّيَاءُ وَالحَرَارَةُ نَابِعَيْنِ مِنْ جَوْهَرِ النَّارِ المَوْقُودَةِ بِأَمْرِ الخَالِقِ لَا مِنْ جِرْمِ الزُّجَاجِ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ الَّذِي يَجْعَلُ المَدَدَ بُشْرَى لِطُمَأْنِينَةِ القُلُوبِ وَيَحْصُرُ النَّصْرَ فِي قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى تَوْحِيدٍ صَافٍ يَأْخُذُ بِالأَسْبَابِ لِلْطُّمَأْنِينَةِ وَيُعَلِّقُ القَلْبَ بِالخَالِقِ وَحْدَهُ. فَكُلُّ سَبَبٍ يَخْلُو مِنْ إِذْنِ السَّمَاءِ مَآلُهُ العَجْزُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 127 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حِكْمَةُ القَدَرِ الإِلٰهِيّ في مَيَادِينِ المدَافَعَةِ تَنْفُذُ إِلَى أَعْمَاقِ الصُّفُوفِ المعَانِدَةِ لِتَقْطَعَ دَابِرَ رُؤُوسِ البَاطِلِ بِالهَلَاكِ وَالِاسْتِئْصَالِ، أَوْ تَرُدَّهُمْ مَكْبُوتِينَ بِالغَيْظِ وَالحَسْرَةِ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الخَيْبَةِ وَالِانْكِسَارِ. فَلَا مَخْرَجَ لِلْجَاحِدِينَ مِنْ دَائِرَةِ القَهْرِ الإِلٰهِيّ؛ إِذْ إِمَّا أَنْ يَتَهَاوَى طَرَفٌ مِنْهُمْ صَرْعَى في سَاحَةِ الحَقِّ، وَإِمَّا أَنْ يَعُودَ البَاقُونَ مُثْقَلِينَ بِالخِزْيِ وَالذُّلِّ بَعْدَ أَنْ تَبَخَّرَتْ أَمَانِيهِمْ في إِطْفَاءِ النُّورِ. فَمَنْ وَقَفَ في صَفِّ الحَقِّ شَهِدَ انْكِسَارَ البَاطِلِ وَخَيْبَتَهُ، بَيْنَمَا يَتَقَلَّبُ المعَانِدُ بَيْنَ القَطْعِ وَالكَبْتِ وَسُوءِ المنْقَلَبِ.

الصَّدَى

قَطْعُ البَاطِلِ وَخَيْبَةُ المنْقَلَبِ

صَدَى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾

سَيْفُ القَدَرِ يَمْتَدُّ لِيَقْطَعَ دَابِرَ الطُّغْيَانِ أَوْ يَرُدَّ أَهْلَهُ مَكْبُوتِينَ بِالغَيْظِ وَالخَيْبَةِ، فَتَنْكَسِرُ شَوْكَةُ البَاطِلِ وَتَتَبَدَّدُ أَحْلَامُ المعْتَدِينَ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ البَاطِلَ يَخْرُجُ مِنْ مَعَارِكِهِ مَعَ الحَقِّ سَالِماً غَانِماً، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ عَاقِبَتَهُ مَحْصُورَةٌ بَيْنَ الهَلَاكِ وَالخَيْبَةِ. وَكَمْ تَطَاوَلَتْ أَعْنَاقُ الجَاحِدِينَ قَدِيماً بِالكِبْرِ وَالتَّهْدِيدِ قَبْلَ المواجهَةِ، ثُمَّ انْقَلَبُوا خَائِبِينَ يَحْمِلُونَ عَارَ الهَزِيمَةِ وَانْكِسَارَ القُلُوبِ! أَتَأَمَّلُ السَّيْلَ الجَارِفَ المتَعَكِّرَ الَّذِي يَنْدَفِعُ بِصَخَبٍ وَزَبَدٍ لِيَغْمُرَ الحِصْنَ المبْنِيَّ عَلَى الصَّخْرِ، كَيْفَ يَتَكَسَّرُ جُزْءٌ مِنْهُ عَلَى الجُدْرَانِ الصُّلْبَةِ وَيَتَبَدَّدُ في الشِّعَابِ بَيْنَمَا يَرْتَدُّ البَاقِي مُنْحَسِراً خَائِباً إِلَى الحُفَرِ المنْخَفِضَةِ دُونَ أَنْ يَبْلُغَ مُرَادَهُ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يَقْطَعُ طَرَفاً مِنَ الكَافِرِينَ أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ بِقُدْرَتِهِ وَعَدْلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِصِرَاعِ الحَقِّ وَالبَاطِلِ إِلَى يَقِينٍ بِانْكِسَارِ المعْتَدِينَ في كُلِّ حَالٍ. فَكُلُّ جَمْعٍ يُحَارِبُ السَّمَاءَ مَآلُهُ الخَيْبَةُ وَالبَوَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِحَقِّ اللهِ الظَّاهِرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 128 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

تَفْرِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ بِمَقَالِيدِ الهِدَايَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالعَذَابِ يُجَرِّدُ النُّفُوسَ البَشَرِيَّةَ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُرْوَةَ النُّبُوَّةِ مِنْ أَيِّ سُلْطَانٍ عَلَى أَقْدَارِ الخَلْقِ وَمَصَائِرِهِمْ. فَحِينَ تَثُورُ عَاطِفَةُ البَشَرِ أَمَامَ جِرَاحِ المَيْدَانِ فَتَتَمَنَّى اسْتِئْصَالَ المُعْتَدِينَ، يَتَنَزَّلُ البَيَانُ السَّمَاوِيُّ لِيُقَرِّرَ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ المَلِكِ الحَقِّ وَحْدَهُ؛ فَقَدْ يَفْتَحُ لِبَعْضِ هٰؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ بَابَ التَّوْبَةِ فَيَغْدُونَ أَنْصَاراً لِلْحَقِّ، وَقَدْ يُنْزِلُ بِآخَرِينَ العَذَابَ العَادِلَ لِظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. فَمَنْ سَلَّمَ مَقَالِيدَ الحُكْمِ عَلَى العِبَادِ لِرَبِّهِ صَفَتْ رُوحُهُ مِنَ الانْفِعَالِ وَالتَّعَجُّلِ، بَيْنَمَا يَضِيقُ أُفُقُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُقَيِّدَ مَشِيئَةَ السَّمَاءِ بِحُدُودِ عَاطِفَتِهِ.

الصَّدَى

تَفْرِيدُ الأَمْرِ وَسَعَةُ المَشِيئَةِ

صَدَى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾

مِيزَانٌ نُورَانِيٌّ يَرُدُّ مَقَالِيدَ الأَقْدَارِ كُلَّهَا إِلَى الخَالِقِ وَحْدَهُ، فَيُقَرِّرُ أَنَّ التَّوْبَةَ وَالعَذَابَ بِيَدِ المَلِكِ الجَلِيلِ الَّذِي يَعْلَمُ مَآلَاتِ القُلُوبِ وَعَوَاقِبَ الظَّالِمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِعْجَالِ فِي الحُكْمِ عَلَى النَّاسِ أَوِ اليَأْسِ مِنْ هِدَايَةِ المُعَانِدِينَ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ التَّسْلِيمِ لِمَشِيئَةِ الرَّبِّ الَّذِي يُقَلِّبُ القُلُوبَ كَيْفَ يَشَاءُ. وَكَمْ تَعَجَّلَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً فِي تَمَنِّي الهَلَاكِ لِخُصُومٍ شَاءَ الخَالِقُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ حِينٍ فَيَصِيرُوا مِنْ خِيرَةِ المُؤْمِنِينَ! أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ الَّذِي يَرَى الشَّوْكَةَ اليَابِسَةَ فِي حَقْلِهِ فَيَهُمُّ بِاقْتِلَاعِهَا وَحَرْقِهَا غَضَباً، بَيْنَمَا يَعْلَمُ البُسْتَانِيُّ الخَبِيرُ أَنَّ تِلْكَ الشَّجَيْرَةَ تَحْمِلُ فِي جُذُورِهَا بَذْرَةَ ثَمَرٍ نَادِرٍ سَتُزْهِرُ حِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهَا غَيْثُ الرَّحْمَةِ فِي مَوْعِدِهِ المَقْدُورِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ الأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ فَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ أَوْ يُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ بِعَدْلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَاطِفَتِي عِنْدَ الأَذَى إِلَى تَفْوِيضٍ هَادِئٍ يَكِلُ مَصِيرَ الخَلْقِ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ. فَكُلُّ حُكْمٍ بَشَرِيٍّ قَدْ يَعْتَرِيهِ القُصُورُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 129 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

إِحَاطَةُ المُلْكِ الإِلٰهِيِّ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ تَجْعَلُ المَغْفِرَةَ وَالعَذَابَ تَصَرُّفاً خَالِصاً لِلْمَالِكِ الحَقِّ الَّذِي يَغْلِبُ جُودُهُ وَرَحْمَتُهُ كُلَّ حَدٍّ. فَمَنْ يَمْلِكُ الكَوْنَ كُلَّهُ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ حِينَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ بِفَضْلِهِ أَوْ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ، مَعَ تَتْوِيجِ هٰذَا المُلْكِ العَظِيمِ بِصِفَتَيِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لِتَبْقَى أَبْوَابُ الرَّجَاءِ مَفْتُوحَةً أَمَامَ القُلُوبِ الوَجِلَةِ. فَمَنْ لَاذَ بِرَحْمَةِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ وَاعْتَرَفَ بِمُلْكِهِ وَسِعَتْهُ المَغْفِرَةُ، بَيْنَمَا يَحْرِمُ المُسْتَكْبِرُ نَفْسَهُ مِنْ نَفَحَاتِ الفَضْلِ وَالرِّضْوَانِ.

الصَّدَى

مَلَكُوتُ السَّمَاءِ وَفَيْضُ الغَفُورِ الرَّحِيمِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بَحْرٌ وَاسِعٌ مِنَ المُلْكِ وَالرَّحْمَةِ يُحِيطُ بِالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَيَغْفِرُ الخَالِقُ لِمَنْ يَشَاءُ بِكَرَمِهِ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ، وَتَغْلِبُ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاعْتِرَاضِ عَلَى تَصَرُّفِ المَالِكِ فِي مُلْكِهِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الرَّجَاءِ فِي مَغْفِرَةِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. وَكَمْ ضَاقَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً بِحِسَابَاتِهَا المَحْدُودَةِ عَنْ إِدْرَاكِ سَعَةِ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الخَاتِمَةُ النُّورَانِيَّةُ الَّتِي تَشْهَدُ بِأَنَّ الخَالِقَ غَفُورٌ رَحِيمٌ! أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الرَّحْبَةَ الَّتِي تَظِلُّ البَرَّ وَالبَحْرَ وَالجِبَالَ وَالوِدْيَانَ بِمُلْكٍ وَاحِدٍ، كَيْفَ تُرْسِلُ غَيْثَهَا الرَّحِيمَ فَيَغْسِلُ غُبَارَ الأَرْضِ وَيُحْيِي مَوَاتَهَا بِلُطْفٍ وَكَرَمٍ يَفُوقُ كُلَّ تَقْدِيرٍ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ مَغْفِرَتِهِ لِلتَّائِبِينَ الصَّادِقِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي إِلَى رَجَاءٍ مُطْمَئِنٍّ يَعْتَرِفُ بِالمُلْكِ لِلْخَالِقِ وَيَطْمَعُ فِي مَغْفِرَتِهِ. فَكُلُّ مُلْكٍ غَيْرُ مُلْكِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَفُورِ الرَّحِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 130 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَارُ الجَشَعِ الَّتِي تَلْتَهِمُ عَرَقَ المضْطَرِّينَ وَتُضَاعِفُ الأَثْقَالَ عَلَى كَوَاهِلِ المعْسِرِينَ تَهْدِمُ أَرْكَانَ التَّرَاحُمِ وَتَزْرَعُ الحِقْدَ وَالدَّمَارَ فِي أَوْصَالِ الحَيَاةِ. فَالزِّيَادَةُ الرِّبَوِيَّةُ المتَرَاكِمَةُ الَّتِي تَمْتَصُّ دِمَاءَ الفُقَرَاءِ دُونَ جُهْدٍ وَلَا مُخَاطَرَةٍ تَسْلُبُ المالَ بَرَكَتَهُ وَتُحِيلُهُ سُمّاً يَقْتُلُ طُمَأْنِينَةَ القَلْبِ، بَيْنَمَا يَفْتَحُ التَّوَقِّي وَالعَفَافُ بَوَّابَةَ الفَلَاحِ الحَقِيقِيِّ الَّذِي يَبْنِي العُمْرَانَ وَيُزَكِّي الوِجْدَانَ. فَمَنْ طَهَّرَ كَسْبَهُ مِنْ دَنَسِ الرِّبَا وَاتَّقَى مَوْلَاهُ ظَفِرَ بِالبَرَكَةِ وَالفَلَاحِ، بَيْنَمَا يَغْرَقُ آكِلُ السُّحْتِ فِي ظُلُمَاتِ الجَشَعِ وَالمحْقِ وَالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

جَشَعُ الأَضْعَافِ وَبَوَّابَةُ الفَلَاحِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ نِدَاءٌ رَحِيمٌ يَكُفُّ أَيْدِي الجَشَعِ عَنِ امْتِصَاصِ دِمَاءِ المحْتَاجِينَ بِالرِّبَا المضَاعَفِ، وَيَدْعُو القُلُوبَ إِلَى تَقْوَى الخَالِقِ لِتَنَالَ الفَلَاحَ الحَقِيقِيَّ فِي الدَّارَيْنِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ تَضَخُّمَ الأَرْقَامِ بِاسْتِغْلَالِ حَاجَةِ المعْسِرِينَ يَصْنَعُ غِنًى أَوْ أَمَاناً، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الفَلَاحَ ثَمَرَةُ التَّقْوَى وَطَهَارَةِ الكَسْبِ. وَكَمْ أَغْرَتِ المطَامِعُ قَدِيماً أَصْحَابَ الأَمْوَالِ بِمُضَاعَفَةِ الدُّيُونِ عَلَى العَاجِزِينَ حَتَّى مَحَقَتْ بَرَكَةَ أَمْوَالِهِمْ وَأَفْسَدَتْ قُلُوبَهُمْ! أَتَأَمَّلُ الطُّفَيْلِيَّ الخَبِيثَ الَّذِي يَلْتَفُّ حَوْلَ سَاقِ الشَّجَرَةِ المثْمِرَةِ لِيَمْتَصَّ عُصَارَتَهَا وَيَتَضَخَّمَ عَلَى حِسَابِ ذُبُولِهَا، كَيْفَ يَنْتَهِي بِهِ الأَمْرُ إِلَى الهَلَاكِ وَالجَفَافِ حِينَ تَمُوتُ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَ يَعْتَاشُ عَلَى ضَعْفِهَا، بَيْنَمَا تَنْمُو الأَشْجَارُ المتَعَاوِنَةُ فِي الغَابَةِ المبَارَكَةِ بِسَلَامٍ وَخُضْرَةٍ دَائِمَةٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يَنْهَى المؤْمِنِينَ عَنْ أَكْلِ الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَيُوَجِّهُهُمْ إِلَى التَّقْوَى لِيُفْلِحُوا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُعَامَلَاتِي المالِيَّةُ إِلَى عَفَافٍ وَتَقْوَى تَبْحَثُ عَنِ الفَلَاحِ وَالبَرَكَةِ. فَكُلُّ مَالٍ يَنْمُو بِالرِّبَا مَآلُهُ المحْقُ وَالفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَلَاحِ اللهِ الَّذِي يَهَبُهُ لِلْمُتَّقِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٣١–١٤٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 131 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

أُتُونٌ مُسْتَعِرٌ تَتَلَظَّى جِمَارُهُ فِي أَعْمَاقِ المِآلِ، يُنْذِرُ شَرَرُهُ المِتطَايِرُ كُلَّ مَنْ أَرْخَى العِنَانَ لِجَشَعِهِ وَمَالَ؛ فَلَيْسَتْ تِلْكَ النَّارُ شَبَحاً عَابِراً يُخِيفُ الأَبْصَارَ ثُمَّ يَزُولُ، بَلْ هِيَ حَقِيقَةٌ مَخْلُوقَةٌ تَنْتَظِرُ مَنْ جَحَدَ النِّعْمَةَ وَاسْتَبَاحَ الحَرَامَ وَتَرَدَّى فِي الهَاوِيَةِ دُونَ عُقُولٍ. فَحِينَ يَتَوَقَّى السَّائِرُ لَهِيبَ الجَحِيمِ بِتَرْكِ السُّحْتِ وَالطُّغْيَانِ، تَنْكَسِرُ حِدَّةُ الشَّهَوَاتِ فِي صَدْرِهِ وَتَنْقَادُ جَوَارِحُهُ لِطَاعَةِ الدَّيَّانِ. فَمَنْ نَصَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ سِيَاجاً مِنَ التَّقْوَى سَلِمَ مِنْ سَعِيرِهَا، بَيْنَمَا يَنْدَفِعُ الغَافِلُ المتَهَاوِنُ إِلَى جَحِيمٍ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَتَغْلِقُ أَبْوَابُهَا عَلَى أَسِيرِهَا.

الصَّدَى

لَهِيبُ الوَعِيدِ وَسِيَاجُ التَّقْوَى

صَدَى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

نَذِيرٌ مَهِيبٌ يَرْسُمُ مَشْهَدَ النَّارِ المعَدَّةِ لِلْكَافِرِينَ، فَيُوقِظُ القُلُوبَ لِتَبْنِيَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجَحِيمِ سِيَاجاً مَتِيناً مِنَ التَّقْوَى وَطَاعَةِ السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِهَانَةِ بِعَوَاقِبِ الجَشَعِ وَالمعَاصِي، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ النَّارَ حَقِيقَةٌ قَائِمَةٌ لَا يَدْفَعُهَا إِلَّا التَّوَقِّي الصَّادِقُ. وَكَمْ غَفَلَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً عَنْ حَرَارَةِ الوَعِيدِ حِينَ انْغَمَسَتْ فِي لَذَّاتٍ عَابِرَةٍ تَجُرُّ إِلَى الهَلَاكِ، حَتَّى أَيْقَظَهَا هٰذَا النِّدَاءُ الصَّارِمُ الَّذِي يَأْمُرُ بِاتِّقَاءِ النَّارِ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَسِيرُ فِي لَيْلٍ مُظْلِمٍ نَحْوَ حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ تَتَأَجَّجُ فِي قَاعِهَا النِّيرَانُ، كَيْفَ يَنْجُو مِنَ السُّقُوطِ فِيهَا حِينَ يَرَى وَهَجَهَا مِنْ بَعِيدٍ فَيُغَيِّرُ مَسَارَهُ وَيَلْتَزِمُ الجَادَّةَ الآمِنَةَ بِيَقَظَةٍ وَحَذَرٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ الَّذِي يُحَذِّرُ عِبَادَهُ مِنَ النَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ لِيَصُونُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّقْوَى وَالإِيمَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي إِلَى حِصْنٍ وَاعٍ يَتَّقِي أَسْبَابَ العَذَابِ وَيَلْتَزِمُ طَرِيقَ النَّجَاةِ. فَكُلُّ تَهَاوُنٍ أَمَامَ الوَعِيدِ مَآلُهُ النَّدَمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُنْجِي المتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 132 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَطَرَاتُ النَّدَى العَذْبَةُ تَتَنَزَّلُ عَلَى الأَرْضِ الخَاضِعَةِ لِأَمْرِ السَّمَاءِ، وَبَابُ الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ يُفْتَحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ لِمَنْ أَلْقَى مَقَالِيدَ نَفْسِهِ فِي مِحْرَابِ الطَّاعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ. فَلَيْسَتِ الطَّاعَةُ قَيْداً يُثْقِلُ كَاهِلَ السَّائِرِينَ، بَلْ هِيَ الجَنَاحُ الَّذِي يَرْفَعُ الأَرْوَاحَ إِلَى أُفُقِ الرَّحْمَةِ الإِلٰهِيَّةِ الَّتِي تَغْسِلُ الأَوْصَابَ وَتُبَدِّلُ الخَوْفَ أَمْناً وَسَلَاماً. فَمَنْ أَذْعَنَ لِوَحْيِ رَبِّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ غَمَرَتْهُ سَحَائِبُ الرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ، بَيْنَمَا يَبْقَى العَاصِي المُعْرِضُ فِي جَفَافِ القَسْوَةِ وَالحِرْمَانِ.

الصَّدَى

جَنَاحُ الطَّاعَةِ وَسَحَائِبُ الرَّحْمَةِ

صَدَى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

بَوَّابَةُ الرَّحْمَةِ تَنْفَتِحُ أَمَامَ القُلُوبِ الطَّائِعَةِ، فَتَجْعَلُ الِانْقِيَادَ لِأَمْرِ الخَالِقِ وَهَدْيِ الرَّسُولِ هُوَ السَّبِيلَ الأَقْرَبَ لِنَيْلِ رَحْمَةِ السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الأَوَامِرَ الشَّرْعِيَّةَ تَضْيِيقٌ عَلَى النَّفْسِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الطَّاعَةَ هِيَ المِفْتَاحُ الَّذِي يَسْتَجْلِبُ رَحْمَةَ الرَّحْمٰنِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَكَمْ بَحَثَتِ الأَرْوَاحُ قَدِيماً عَنِ الطُّمَأْنِينَةِ وَالرَّحْمَةِ بَعِيداً عَنْ مِحْرَابِ الطَّاعَةِ فَلَمْ تَجِدْ إِلَّا القَلَقَ وَالضَّيَاعَ، حَتَّى أَرْشَدَهَا الوَحْيُ إِلَى هٰذَا الطَّرِيقِ الوَاضِحِ! أَتَأَمَّلُ النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَسْتَسْلِمُ بِأَوْرَاقِهَا لِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ وَقَطَرَاتِ المَطَرِ النَّازِلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، كَيْفَ تَغْمُرُهَا الرَّحْمَةُ الإِلٰهِيَّةُ بِالنُّمُوِّ وَالخُضْرَةِ وَالإِزْهَارِ دُونَ عَنَاءٍ أَوْ تَكَلُّفٍ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الَّذِي يَرْبِطُ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ بِالفَوْزِ بِرَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي إِلَى شَوْقٍ عَذْبٍ يَلْتَمِسُ رَحْمَةَ الخَالِقِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ. فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ تَحْجُبُ الرَّحْمَةَ عَنِ القَلْبِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِرَحْمَةِ اللهِ الَّتِي تَسَعُ الطَّائِعِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 133 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِضْمَارُ الخُلُودِ قَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهُ وَتَلَأْلَأَتْ فِي أُفُقِهِ جَنَّةٌ يَتَّسِعُ عَرْضُهَا لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَلَا مَجَالَ لِخُطًى مُتَثَاقِلَةٍ تَتَلَفَّتُ إِلَى الوَرَاءِ وَمَغْفِرَةُ الرَّبِّ تُنَادِي السَّابِقِينَ. فَحِينَ يَتَحَرَّرُ الجَنَانُ مِنْ

قُيُودِ التَّسْوِيفِ وَيَنْطَلِقُ كَالسَّهْمِ نَحْوَ رِيَاضِ الغُفْرَانِ، تَتَصَاغَرُ فِي عَيْنِهِ كُلُّ مَبَاهِجِ الطِّينِ أَمَامَ رَحَابَةِ النَّعِيمِ المُعَدِّ لِأَهْلِ التَّقْوَى وَالإِحْسَانِ. فَمَنْ أَطْلَقَ عِنَانَ عَزِيمَتِهِ فِي سِبَاقِ المَغْفِرَةِ سَكَنَ جَنَّةً لَا يُحَدُّ عَرْضُهَا، بَيْنَمَا يَبْقَى المُتَقَاعِسُ مَحْبُوساً فِي سِجْنِ الدُّنْيَا الضَّيِّقِ وَيَفُوتُهُ الفَوْزُ الكَبِيرُ.

الصَّدَى

سِبَاقُ المَغْفِرَةِ وَرَحَابَةُ الجَنَّةِ

صَدَى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

نِدَاءُ انْطِلَاقٍ يَهُزُّ الأَرْوَاحَ لِتُسَابِقَ الرِّيحَ نَحْوَ مَغْفِرَةِ الرَّبِّ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، أُعِدَّتْ لِتَكُونَ دَارَ خُلُودٍ لِلْمُتَّقِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّبَاطُؤِ فِي أَعْمَالِ البِرِّ أَوِ الِانْشِغَالِ بِزَوَايَا الدُّنْيَا الضَّيِّقَةِ، وَتَسْتَقِرُّ هِمَّةُ المسَارَعَةِ نَحْوَ فَضَاءِ الجَنَّةِ الرَّحْبِ. وَكَمْ تَثَاقَلَتِ الأَقْدَامُ قَدِيماً عَنْ مَيَادِينِ التَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ، حَتَّى أَشْعَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ فِي القُلُوبِ حَمَاسَةَ السِّبَاقِ نَحْوَ المَغْفِرَةِ وَالجِنَانِ!

أَتَأَمَّلُ الجَوَادَ الأَصِيلَ الَّذِي أُطْلِقَ عِنَانُهُ فِي مَيْدَانٍ فَسِيحٍ يَمْتَدُّ إِلَى الأُفُقِ البَعِيدِ، كَيْفَ يَطْوِي الأَرْضَ طَيّاً بِنَشَاطٍ وَعَزِيمَةٍ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الغُبَارِ المتَصَاعِدِ خَلْفَهُ لِأَنَّ عَيْنَيْهِ مُعَلَّقَتَانِ بِرَوْضَةِ الفَوْزِ فِي نِهَايَةِ المِضْمَارِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَدْعُو عِبَادَهُ إِلَى المسَارَعَةِ لِمَغْفِرَتِهِ وَيُبَشِّرُهُمْ بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَيَّامِي إِلَى مُبَادَرَةٍ سَرِيعَةٍ تَغْتَنِمُ كُلَّ طَاعَةٍ وَتَوْبَةٍ طَمَعاً فِي الجَنَّةِ. فَكُلُّ تَقَاعُسٍ عَنِ المَغْفِرَةِ مَآلُهُ الحِرْمَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِجَنَّةِ اللهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 134 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَهْرُ الجُودِ لَا يَجِفُّ مَاؤُهُ عِنْدَ شُحِّ السَّحَابِ، وَقَلْبُ الحَلِيمِ لَا تَطْغَى نَارُ غَضَبِهِ عَلَى نُورِ الصَّوَابِ؛ فَتِلْكَ مَلَامِحُ أَهْلِ الجِنَانِ الَّذِينَ يَبْسُطُونَ أَكُفَّهُمْ بِالعَطَاءِ فِي سَاعَاتِ الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَيَبْتَلِعُونَ جَمْرَ الغَيْظِ فِي صُدُورِهِمْ حِينَ تَثُورُ الفِتْنَةُ، ثُمَّ يَرْتَقُونَ بِأَرْوَاحِهِمْ إِلَى عَفْوٍ جَمِيلٍ يَمْحُو أَثَرَ الإِسَاءَةِ وَيَزْرَعُ المَوَدَّةَ، فَيَتَوَّجُهُمُ المَلِكُ الجَلِيلُ بِوِسَامِ المَحَبَّةِ لِلْمُحْسِنِينَ. فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ سَخَاءِ اليَدِ وَحِلْمِ

الصَّدْرِ وَسَمَاحَةِ العَفْوِ نَالَ مَحَبَّةَ الرَّحْمٰنِ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ البَخِيلُ الغَضُوبُ بِنَارِ شُحِّهِ وَانْتِقَامِهِ وَيُحْرَمُ مَنَازِلَ المحْسِنِينَ.

الصَّدَى

مَنَازِلُ الإِحْسَانِ وَتَاجُ المحَبَّةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

أَرْبَعُ مَنَارَاتٍ نُورَانِيَّةٍ تَرْسُمُ شَخْصِيَّةَ المتَّقِينَ؛ إِنْفَاقٌ يَفِيضُ فِي اليُسْرِ وَالعُسْرِ، وَكَظْمٌ يُطْفِئُ جَمْرَ الغَيْظِ، وَعَفْوٌ يَغْسِلُ الإِسَاءَةَ، وَإِحْسَانٌ يَسْتَجْلِبُ مَحَبَّةَ الخَالِقِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ رَبْطِ العَطَاءِ بِالْغِنَى أَوِ الِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ بِالِانْتِقَامِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ كَظْمَ الغَيْظِ وَالعَفْوَ عَنِ النَّاسِ هُمَا أَعْلَى مَرَاتِبِ القُوَّةِ وَالإِحْسَانِ. وَكَمْ أَزْهَقَ الغَضَبُ قَدِيماً قُلُوباً انْدَفَعَتْ لِلِانْتِصَارِ لِذَاتِهَا فَفَقَدَتْ سَكِينَتَهَا، حَتَّى أَشْرَفَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتُعَلِّمَنَا أَنَّ مَحَبَّةَ الخَالِقِ تَنْتَظِرُ المحْسِنِينَ! أَتَأَمَّلُ شَجَرَةَ الصَّنْدَلِ العَطِرَةَ الَّتِي تَضْرِبُهَا الفَأْسُ الحَادَّةُ فَتَجْرَحُ سَاقَهَا، كَيْفَ لَا تَنْفُثُ سُمّاً وَلَا شَوْكاً بَلْ تَكْظِمُ أَلَمَهَا وَتُعَطِّرُ نَصْلَ الفَأْسِ الَّذِي جَرَحَهَا بِأَطْيَبِ الرَّوَائِحِ الزَّكِيَّةِ فَتَسْتَحِقُّ ثَنَاءَ البُسْتَانِ وَأَهْلِهِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُحِبُّ المحْسِنِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَيَكْظِمُونَ الغَيْظَ وَيَعْفُونَ عَنِ النَّاسِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَخْلَاقِي إِلَى سَخَاءٍ دَائِمٍ وَحِلْمٍ رَاسِخٍ يَطْلُبُ مَحَبَّةَ السَّمَاءِ. فَكُلُّ شُحٍّ وَانْتِقَامٍ مَآلُهُ الوَحْشَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي تَغْمُرُ المحْسِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 135 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْضُ الحَيَاةِ فِي القَلْبِ المؤْمِنِ لَا يَعْنِي العِصْمَةَ مِنَ العَثَرَاتِ فِي طَرِيقِ التُّرَابِ، بَلْ يَعْنِي اليَقَظَةَ السَّرِيعَةَ الَّتِي تَنْتَفِضُ عِنْدَ الزَّلَّةِ فَتَذْكُرُ جَلَالَ الرَّبِّ وَتَلُوذُ بِبَابِ الِاسْتِغْفَارِ. فَحِينَ يَسْقُطُ السَّائِرُ

فِي وَهْدَةِ الخَطِيئَةِ أَوْ ظُلْمِ النَّفْسِ، يُسْرِعُ بِغَسْلِ صَحِيفَتِهِ بِدُمُوعِ التَّوْبَةِ وَيُقْلِعُ عَنِ الذَّنْبِ دُونَ إِصْرَارٍ وَلَا عِنَادٍ، مُوقِناً أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَحْوَ الذُّنُوبِ وَسَتْرَ العُيُوبِ إِلَّا الغَفَّارُ الوَاحِدُ. فَمَنْ بَادَرَ بِالذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَتَرَكَ الإِصْرَارَ عَادَ نَقِيّاً كَيَوْمِ وِلَادَتِهِ، بَيْنَمَا يُهْلِكُ الإِصْرَارُ عَلَى المَعْصِيَةِ مَنْ اسْتَمْرَأَ الظَّلَامَ وَنَسِيَ مَقَامَ رَبِّهِ.

الصَّدَى

يَقَظَةُ التَّائِبِينَ وَبَابُ الغَفَّارِ

صَدَى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

بَرْقٌ نُورَانِيٌّ يَشُقُّ ظُلْمَةَ الزَّلَّةِ فِي القَلْبِ الحَيِّ، فَيُوقِظُهُ لِذِكْرِ الخَالِقِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالإِقْلَاعِ الفَوْرِيِّ عَنِ الذَّنْبِ يَقِيناً بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ اليَأْسِ بَعْدَ الوُقُوعِ فِي الخَطِيئَةِ أَوْ تَبْرِيرِ الِاسْتِمْرَارِ فِيهَا، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كَرَامَةَ المُتَّقِي تَكْمُنُ فِي سُرْعَةِ الرُّجُوعِ وَعَدَمِ الإِصْرَارِ. وَكَمْ حَاوَلَ الشَّيْطَانُ قَدِيماً أَنْ يَحْبِسَ المُذْنِبَ فِي وَحْلِ الخَطِيئَةِ بِدَعْوَى أَنَّهُ قَدْ سَقَطَ فَلَا فَرْقَ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتَفْتَحَ بَابَ الغَفَّارِ أَمَامَ كُلِّ مُنْكَسِرٍ! أَتَأَمَّلُ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ النَّاصِعَ الَّذِي تَسْقُطُ عَلَيْهِ قَطْرَةٌ مِنَ الطِّينِ أَثْنَاءَ المَسِيرِ، كَيْفَ يُبَادِرُ صَاحِبُهُ فَوْراً إِلَى غَسْلِهَا بِالمَاءِ الصَّافِي قَبْلَ أَنْ تَجِفَّ وَتَتَغَلْغَلَ فِي النَّسِيجِ، فَيَعُودُ الثَّوْبُ نَقِيّاً كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ بِسُوءٍ قَطُّ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ الَّذِي لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ سِوَاهُ حِينَ يَجْعَلُ التَّائِبِينَ المُسْتَغْفِرِينَ غَيْرَ المُصِرِّينَ فِي صُفُوفِ المُتَّقِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَثَرَاتِي إِلَى أَوْبَةٍ سَرِيعَةٍ تَذْكُرُ الخَالِقَ وَتَسْتَغْفِرُهُ بِلَا إِصْرَارٍ. فَكُلُّ إِصْرَارٍ عَلَى الذَّنْبِ مَآلُهُ الهَلَاكُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 136 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَمَرَةُ المجَاهَدَةِ الصَّادِقَةِ تَتَدَلَّى قُطُوفُهَا الدَّانِيَةُ فِي دَارِ الكَرَامَةِ؛ حَيْثُ تَمْحُو مَغْفِرَةُ الرَّبِّ آثَارَ التَّقْصِيرِ، وَتَفْتَحُ جَنَّاتُ الخُلُودِ أَنْهَارَهَا الرَّقْرَاقَةَ لِتَسْقِيَ أَرْوَاحاً تَعِبَتْ فِي طَرِيقِ الِاسْتِقَامَةِ. فَلَيْسَ الجَزَاءُ الأَوْفَى حُلْماً بَعِيدَ المَنَالِ، بَلْ هُوَ وَعْدٌ صَادِقٌ وَنِعْمَ الأَجْرُ لِكُلِّ عَامِلٍ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي الإِنْفَاقِ وَالحِلْمِ وَالِاسْتِغْفَارِ. فَمَنْ أَحْسَنَ العَمَلَ فِي أَيَّامِ الإِمْهَالِ نَالَ المَغْفِرَةَ وَالخُلُودَ فِي الجِنَانِ، بَيْنَمَا يَبْقَى البَطَّالُ الغَافِلُ صِفْرَ اليَدَيْنِ عِنْدَ تَوْزِيعِ الأُجُورِ.

الصَّدَى

قُطُوفُ الجِنَانِ وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ

صَدَى ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

تَاجٌ نُورَانِيٌّ يُتَوَّجُ رُؤُوسَ العَامِلِينَ الصَّادِقِينَ، فَيَجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ مَغْفِرَةٍ تَمْحُو الذُّنُوبَ وَجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَى الأَبَدِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِثْقَالِ لِتَكَالِيفِ الطَّاعَةِ وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ جُهْدٍ يُبْذَلُ فِي مَرْضَاةِ الخَالِقِ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لَا يَنْقَطِعُ. وَكَمْ شَقِيَ البَشَرُ قَدِيماً فِي كَدْحٍ دُنْيَوِيٍّ يَنْتَهِي بِالفَنَاءِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ لِتُعْلِنَ أَنَّ جَنَّاتِ الخُلُودِ هِيَ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ! أَتَأَمَّلُ الفَلَّاحَ الصَّابِرَ الَّذِي غَرَسَ أَشْجَارَ الفَاكِهَةِ وَسَقَاهَا بِعَرَقِهِ وَصَبْرِهِ طِيلَةَ الفُصُولِ، كَيْفَ يَدْخُلُ بُسْتَانَهُ فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ فَيَجِدُ الظِّلَالَ الوَارِفَةَ وَالأَنْهَارَ الجَارِيَةَ وَالثِّمَارَ اليَانِعَةَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَنْسَى تَعَبَ الأَيَّامِ المَاضِيَةِ. فَمَا أَعْظَمَ جُودَ اللهِ الَّذِي يُجَازِي المُتَّقِينَ بِمَغْفِرَةٍ مِنْهُ وَجَنَّاتٍ خَالِدَةٍ وَيَشْهَدُ بِأَنَّهُ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي فِي العَمَلِ الصَّالِحِ إِلَى نَشَاطٍ مُبْهِجٍ يَرَى نَعِيمَ الجَنَّةِ فِي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ. فَكُلُّ أَجْرٍ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ النَّفَادُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِجَنَّةِ اللهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْعَامِلِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 137 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَطْلَالُ الدِّيَارِ الخَاوِيَةِ وَبَقَّايَا الحَضَارَاتِ المُنْدَثِرَةِ تَنْطِقُ بِصَمْتٍ مَهِيبٍ عَنْ قَوَانِينَ الكَوْنِ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تُحَابِي جَبَّاراً وَلَا تَتَبَدَّلُ لِأَهْوَاءِ المُكَذِّبِينَ. فَالنَّظَرُ المُتَأَمِّلُ فِي مَسَارِ التَّارِيخِ يَكْشِفُ أَنَّ السُّنَنَ الإِلٰهِيَّةَ تَسِيرُ بِانْضِبَاطٍ دَقِيقٍ، فَتَمْهِلُ الظَّالِمِينَ حِيناً ثُمَّ تَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ لِتَكُونَ مَصَارِعُهُمْ مَدْرَسَةً مَفْتُوحَةً لِلْعُقَلَاءِ السَّائِرِينَ. فَمَنْ قَرَأَ عِبَرَ التَّارِيخِ بِعَيْنِ البَصِيرَةِ اتَّعَظَ بِمَصِيرِ الغَابِرِينَ وَاسْتَقَامَ، بَيْنَمَا يَسِيرُ الغَافِلُ فَوْقَ رُفَاتِ المُكَذِّبِينَ وَهُوَ يُكَرِّرُ جُحُودَهُمْ دُونَ اعْتِبَارٍ.

الصَّدَى

مَدْرَسَةُ التَّارِيخِ وَسُنَنُ العَاقِبَةِ

صَدَى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

صَفَحَاتٌ مَفْتُوحَةٌ فِي كِتَابِ الأَرْضِ تَرْوِي قِصَصَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَتَدْعُو العُقُولَ إِلَى السَّيْرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي عَاقِبَةِ المُكَذِّبِينَ الَّذِينَ طَوَتْهُمْ سُنَنُ الخَالِقِ الثَّابِتَةُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الأَحْدَاثَ تَجْرِي بِالمِصَادَفَةِ أَوْ أَنَّ الطُّغْيَانَ يَمْلِكُ الخُلُودَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ سُنَنَ السَّمَاءِ لَا تَتَخَلَّفُ فِي إِهْلَاكِ المُعَانِدِينَ. وَكَمْ مَرَّتِ الأَقْدَامُ قَدِيماً عَلَى قُصُورِ الجَبَابِرَةِ المُنْهَارَةِ دُونَ أَنْ تَقْرَأَ رِسَالَةَ الهَلَاكِ المَكْتُوبَةِ عَلَى حِجَارَتِهَا، حَتَّى أَمَرَ الوَحْيُ بِالسَّيْرِ وَالنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ! أَتَأَمَّلُ المُسَافِرَ الحَكِيمَ الَّذِي يَمُرُّ فِي طَرِيقِهِ بِحُطَامِ السُّفُنِ الغَارِقَةِ عَلَى الصُّخُورِ الحَادَّةِ، كَيْفَ يَتَأَمَّلُ مَوْضِعَ انْكِسَارِهَا وَيَدْرُسُ سَبَبَ غَرَقِهَا فَيُغَيِّرُ دَفَّةَ سَفِينَتِهِ نَحْوَ المَمَرِّ الآمِنِ لِيَنْجُوَ مِنْ نَفْسِ المَصِيرِ. فَمَا أَعْظَمَ تَوْجِيهَ اللهِ لِلْعِبَادِ حِينَ يَدْعُوهُمْ لِلسَّيْرِ فِي الأَرْضِ وَالنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ المُكَذِّبِينَ لِيَهْتَدُوا بِسُنَنِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْأَحْدَاثِ إِلَى بَصِيرَةٍ تَقْرَأُ العَوَاقِبَ وَتَلْتَزِمُ سُنَنَ النَّجَاةِ. فَكُلُّ تَكْذِيبٍ لِسُنَنِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الِانْدِثَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِسُنَّةِ اللهِ الَّتِي لَنْ تَجِدَ لَهَا تَبْدِيلاً.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 138 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

شَمْسُ الوَحْيِ تُرْسِلُ أَشِعَّتَهَا لِتُضِيءَ الآفَاقَ لِلْبَشَرِ أَجْمَعِينَ، غَيْرَ أَنَّ زُهُورَ الهِدَايَةِ وَثِمَارَ الموْعِظَةِ لَا تَتَفَتَّحُ إِلَّا فِي التُّرْبَةِ النَّقِيَّةِ الَّتِي أَلَانَتْهَا التَّقْوَى وَالخَشْيَةُ. فَالْقُرْآنُ يُقِيمُ الحُجَّةَ وَالبَيَانَ الوَاضِحَ عَلَى كُلِّ ذِي عَقْلٍ وَسَمْعٍ، ثُمَّ يَخُصُّ أَهْلَ التَّقْوَى بِنُورِ الإِرْشَادِ وَبَلْسَمِ الموْعِظَةِ الَّتِي تَشْفِي الصُّدُورَ وَتُقَوِّمُ السُّلُوكَ. فَمَنْ هَيَّأَ قَلْبَهُ بِالتَّقْوَى ارْتَوَى مِنْ هُدَى الكِتَابِ وَمَوْعِظَتِهِ، بَيْنَمَا يَقِفُ القَاسِي المعْرِضُ أَمَامَ البَيَانِ السَّاطِعِ كَالصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعاً وَلَا تُمْسِكُ مَاءً.

الصَّدَى

شَمْسُ البَيَانِ وَرَوْضَةُ المتَّقِينَ

صَدَى ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

نُورٌ سَاطِعٌ يَكْشِفُ الحَقَائِقَ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَغَيْثٌ رَحِيمٌ يَهْدِي قُلُوبَ المتَّقِينَ وَيَعِظُهُمْ بِأَبْلَغِ الكَلِمَاتِ وَأَصْدَقِ العِبَرِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ عَدَمَ انْتِفَاعِ الغَافِلِينَ بِالقُرْآنِ يَعُودُ لِغُمُوضٍ فِي النَّصِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ البَيَانَ وَاضِحٌ لِلْجَمِيعِ وَلٰكِنَّ الهُدَى وَالموْعِظَةَ ثَمَرَةُ التَّقْوَى فِي القَلْبِ. وَكَمْ تَلَتِ الأَلْسِنَةُ قَدِيماً آيَاتِ الكِتَابِ فَمَرَّتْ عَلَى القُلُوبِ القَاسِيَةِ كَالمَاءِ عَلَى الصَّخْرِ الأَمْلَسِ، بَيْنَمَا أَحْيَتْ قُلُوبَ المتَّقِينَ فَأَثْمَرَتْ خُشُوعاً وَعَمَلاً! أَتَأَمَّلُ المطَرَ العَذْبَ الَّذِي يَهْطِلُ بِسَخَاءٍ فَوْقَ الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ وَالصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، كَيْفَ يَكُونُ بَياناً لِلْجَمِيعِ وَلٰكِنَّ الأَرْضَ الطَّيِّبَةَ المتَهَيِّئَةَ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَشْرَبُ مَاءَهُ فَتَهْتَزُّ وَتَرْبُو وَتُنْبِتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ اللهِ الَّذِي جَعَلَ كِتَابَهُ بَياناً لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِأَهْلِ التَّقْوَى وَالإِيمَانِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قِرَاءَتِي لِلْقُرْآنِ إِلَى تَهْيِئَةٍ دَائِمَةٍ لِقَلْبِي بِالتَّقْوَى لِيَنَالَ نُورَ الهُدَى وَالموْعِظَةِ. فَكُلُّ قَلْبٍ يَخْلُو مِنَ التَّقْوَى يُحْرَمُ ثَمَرَةَ الوَحْيِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكِتَابِ اللهِ الَّذِي يَهْدِي المتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 139 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

رَايَةُ العِزَّةِ الإِيمَانِيَّةِ تَرْتَفِعُ شَامِخَةً فَوْقَ رُكَامِ الجِرَاحِ وَغُبَارِ الِانْكِسَارِ العَابِرِ، فَتَنْفُضُ عَنِ العَزَائِمِ غُبَارَ الوَهَنِ وَعَنِ الصُّدُورِ سَحَائِبَ الحُزْنِ وَالأَسَى. فَعُلُوُّ أَهْلِ الإِيمَانِ لَيْسَ مُرْتَهَناً بِغَلَبَةٍ عَاجِلَةٍ أَوْ مَظْهَرٍ زَائِلٍ، بَلْ هُوَ عُلُوٌّ فِي المَبْدَإِ وَالعَقِيدَةِ وَالمَصِيرِ وَالوِلَايَةِ مَا دَامَ نَبْضُ الإِيمَانِ يَسْرِي فِي العُرُوقِ وَيُضِيءُ الجَنَانَ. فَمَنْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ نَفَضَ عَنْ نَفْسِهِ الضَّعْفَ وَالحُزْنَ وَعَاشَ عَزِيزاً فَوْقَ البَاطِلِ، بَيْنَمَا يَنْهَارُ مَنِ اسْتَسْلَمَ لِلْوَهَنِ وَنَسِيَ مَكَانَتَهُ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ.

الصَّدَى

تَاجُ العُلُوِّ وَنَفْضُ الوَهَنِ وَالحُزْنِ

صَدَى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

بَلْسَمٌ سَمَاوِيٌّ يَمْسَحُ جِرَاحَ القُلُوبِ المؤْمِنَةِ بَعْدَ الِابْتِلَاءِ، فَيَنْهَاهَا عَنِ الضَّعْفِ وَالحُزْنِ وَيُتَوِّجُهَا بِوِسَامِ العُلُوِّ الأَبَدِيِّ مَا دَامَ الإِيمَانُ يَسْكُنُ أَرْكَانَهَا. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الانْكِسَارِ أَمَامَ العَثَرَاتِ العَارِضَةِ أَوِ التَّرَاجُعِ المؤَقَّتِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي أَعْلَى بِإِيمَانِي وَعَقِيدَتِي وَمَصِيرِي مِنْ كُلِّ قُوَى الطُّغْيَانِ. وَكَمْ أَثْقَلَتِ الجِرَاحُ قَدِيماً كَوَاهِلَ السَّائِرِينَ فَكَادَ الوَهَنُ أَنْ يُقْعِدَهُمْ عَنِ المسِيرِ، حَتَّى رَفَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ رُؤُوسَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ بِنِدَاءِ «وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ»! أَتَأَمَّلُ النَّسْرَ الشَّامِخَ الَّذِي أَصَابَتْهُ رِيحٌ عَاصِفَةٌ فَأَسْقَطَتْ بَعْضَ رِيشِهِ وَأَنْزَلَتْهُ قَلِيلاً نَحْوَ الوَادِي، كَيْفَ يَنْفُضُ عَنْ جَنَاحَيْهِ غُبَارَ السُّقُوطِ وَيَنْطَلِقُ مُحَلِّقاً فِي كَبِدِ السَّمَاءِ فَوْقَ السَّحَابِ لِأَنَّ جَوْهَرَهُ خُلِقَ لِلْقِمَمِ لَا لِلْقِيعَانِ. فَمَا أَعْظَمَ تَثْبِيتَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الوَهَنِ وَالحُزْنِ وَيُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُمُ الأَعْلَوْنَ بِإِيمَانِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُوحِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى شُمُوخٍ إِيمَانِيٍّ يَرْفُضُ الضَّعْفَ وَيَثِقُ بِالعَاقِبَةِ. فَكُلُّ انْكِسَارٍ عَارِضٍ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِعِزَّةِ اللهِ الَّتِي يَهَبُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 140 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

عَجَلَةُ الأَيَّامِ تَدُورُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ بَيْنَ نَصْرٍ وَابْتِلَاءٍ وَسَرَّاءَ وَضَرَّاءَ، لِتُمَحِّصَ مَعَادِنَ النُّفُوسِ وَتُفْرِزَ الصَّادِقِينَ عَنِ المدَّعِينَ فِي مَيَادِينِ التَّضْحِيَةِ وَالبَلَاءِ. فَالْجِرَاحُ الَّتِي تَمَسُّ أَهْلَ الحَقِّ قَدْ مَسَّ مِثْلُهَا أَهْلَ البَاطِلِ، غَيْرَ أَنَّ جِرَاحَ المؤْمِنِينَ تَرْفَعُهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ المكَرَّمِينَ وَتَشْهَدُ لَهُمْ بِثَبَاتِ اليَقِينِ، بَيْنَمَا تَسُوقُ جِرَاحُ الظَّالِمِينَ أَصْحَابَهَا إِلَى الخِزْيِ وَبُغْضِ رَبِّ العَالَمِينَ. فَمَنْ صَبَرَ عَلَى تَدَاوُلِ الأَيَّامِ وَأَثْبَتَ صِدْقَ إِيمَانِهِ نَالَ شَرَفَ الِاصْطِفَاءِ وَالشَّهَادَةِ، بَيْنَمَا يَهْوِي الظَّالِمُ المغْتَرُّ بِجَوْلَتِهِ العَابِرَةِ إِلَى مَصْرَعِ البُغْضِ وَالهَلَاكِ.

الصَّدَى

تَدَاوُلُ الأَيَّامِ وَاصْطِفَاءُ الشُّهَدَاءِ

صَدَى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

مِيزَانٌ كَوْنِيٌّ يُفَسِّرُ تَقَلُّبَ الأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ، فَيُهَوِّنُ أَلَمَ الجِرَاحِ وَيَكْشِفُ عَنِ الحِكْمَةِ العُظْمَى فِي تَمْحِيصِ المؤْمِنِينَ وَاصْطِفَاءِ الشُّهَدَاءِ وَفَضْحِ بُغْضِ السَّمَاءِ لِلظَّالِمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِغْرَابِ مِنْ تَأَخُّرِ النَّصْرِ أَوْ إِصَابَةِ الصَّالِحِينَ بِالأَذَى، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ تَدَاوُلَ الأَيَّامِ هُوَ مِحَكُّ الصِّدْقِ الَّذِي يُمَيِّزُ الذَّهَبَ الخَالِصَ مِنَ التُّرَابِ. وَكَمْ ظَنَّ الظَّالِمُونَ قَدِيماً أَنَّ جَوْلَتَهُمُ العَابِرَةَ دَلِيلٌ عَلَى رِضَا السَّمَاءِ عَنْهُمْ، حَتَّى قَطَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَوْهَامَهُمْ بِأَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ! أَتَأَمَّلُ كِيرَ الصَّائِغِ المَاهِرِ الَّذِي يُدْخِلُ قِطْعَةَ الذَّهَبِ الخَامِ إِلَى النَّارِ المُلْتَهِبَةِ لِتُصْهَرَ وَتُقَلَّبَ، فَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ الحُرُّ إِهَانَةً لِلذَّهَبِ بَلْ تَمْحِيصاً لِيُزِيلَ عَنْهُ الشَّوَائِبَ وَيَصْطَفِيَهُ لِتَاجِ المَلِكِ، بَيْنَمَا تَتَحَوَّلُ الحِجَارَةُ الرَّدِيئَةُ فِي النَّارِ نَفْسِهَا إِلَى رَمَادٍ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُدَاوِلُ الأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ لِيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ وَيَتَّخِذَ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ مُكَرَّمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلِابْتِلَاءِ إِلَى تَسْلِيمٍ حَكِيمٍ يَرَى فِي كُلِّ جُرْحٍ تَزْكِيَةً وَاصْطِفَاءً. فَكُلُّ جَوْلَةٍ لِلظَّالِمِينَ مَآلُهَا الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُكْرِمُ الشُّهَدَاءَ وَالمؤْمِنِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٤١-١٥٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 141 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بُوتَقَةُ النَّارِ تُطَهِّرُ التِّبْرَ النَّفِيسَ مِنْ شَوَائِبِ الطِّينِ، وَعَاصِفَةُ البَلَاءِ تَمْحَقُ بُنْيَانَ الجُحُودِ مِنْ أَسَاسِهِ المهِينِ؛ فَمَا تَدَاوُلُ الأَيَّامِ إِلَّا مِصْفَاةٌ لِأَرْوَاحِ الصَّادِقِينَ كَيْ تَزْدَادَ بَرِيقاً وَنَقَاءً، وَمِقْرَعَةٌ تَسْتَأْصِلُ شَأْفَةَ المكَابِرِينَ بَعْدَ اسْتِدْرَاجٍ وَإِمْهَالٍ وَابْتِلَاءٍ. فَمَنْ صَبَرَ فِي بُوتَقَةِ التَّمْحِيصِ خَرَجَ نَقِيّاً كَالجَوْهَرِ المكْنُونِ، بَيْنَمَا يَتَلَاشَى بَرِيقُ الجَاحِدِينَ فِي هَاوِيَةِ المحْقِ وَالفَنَاءِ.

الصَّدَى

بُوتَقَةُ التَّمْحِيصِ وَمَحْقُ الجُحُودِ

صَدَى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

نَارٌ هَادِئَةٌ تُصَفِّي مَعْدِنَ الإِيمَانِ مِنْ أَدْرَانِ الغَفْلَةِ، وَعَاصِفَةٌ صَارِمَةٌ تَمْحَقُ بُنْيَانَ الكُفْرِ مِنْ جُذُورِهِ حَتَّى يَتَلَاشَى كَالهَبَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الشَّدَائِدَ تَأْتِي لِتُضْعِفَ صَفَّ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كُلَّ مِحْنَةٍ هِيَ تَطْهِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبِدَايَةُ فَنَاءٍ لِلْمُعَانِدِينَ. وَكَمْ ظَنَّ المنْكِرُونَ قَدِيماً أَنَّ انْتِفَاشَهُمْ فِي السَّاحَةِ بَقَاءٌ وَتَمْكِينٌ، حَتَّى كَشَفَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَنَّ ذٰلِكَ هُوَ سَبِيلُ المحْقِ وَالِاسْتِئْصَالِ! أَتَأَمَّلُ السُّنْبُلَةَ الذَّهَبِيَّةَ الَّتِي تَمُرُّ تَحْتَ مِدْرَسِ الحَصَادِ وَرِيَاحِ التَّذْرِيَةِ، كَيْفَ يَتَطَايَرُ القَشُّ الخَفِيفُ وَالتِّبْنُ الجَافُّ لِيَتَبَدَّدَ فِي الفَضَاءِ وَيُمْحَقَ أَثَرُهُ، بَيْنَمَا تَبْقَى الحَبَّةُ الصُّلْبَةُ صَافِيَةً نَقِيَّةً تَصْلُحُ لِلْغِذَاءِ وَالنَّمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُمَحِّصُ المؤْمِنِينَ بِالِابْتِلَاءِ لِيَرْفَعَ قَدْرَهُمْ وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ بِعَدْلِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْمِحَنِ إِلَى رِضاً وَتَسْلِيمٍ يَرَى فِي التَّمْحِيصِ كَرَامَةً وَاصْطِفَاءً. فَكُلُّ جَبَرُوتٍ يَقُومُ عَلَى الكُفْرِ مَآلُهُ المحْقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُنَقِّي المؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 142 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قِمَمُ الخُلُودِ لَا تُرْتَقَى بِأَمَانٍ حَالِمَةٍ تَفْتَرِشُ الوَسَائِدَ، وَلَا تُفْتَحُ أَبْوَابُ النَّعِيمِ إِلَّا بِمَفَاتِيحِ المجَاهَدَةِ الصَّادِقَةِ وَالصَّبْرِ العَنِيدِ عَلَى الشَّدَائِدِ. فَمَيْدَانُ الحَيَاةِ هُوَ السَّاحَةُ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا صِدْقُ الدَّعْوَى مِنْ زَيْفِ اللِّسَانِ، حِينَ تَتَلَاطَمُ الأَمْوَاجُ وَتُخْتَبَرُ العَزَائِمُ فِي مَوَاطِنِ البَذْلِ وَالثَّبَاتِ وَالكِتْمَانِ. فَمَنْ قَدَّمَ مَهْرَ الجَنَّةِ جِهَاداً وَصَبْراً وَجَدَ أَبْوَابَهَا مُشْرَعَةً لِقُدُومِهِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الحَالِمُ المتَقَاعِسُ خَلْفَ أَسْوَارِ الأَوْهَامِ يَنْتَظِرُ حَصَاداً بِلَا بَذْرٍ وَلَا سُقْيَا.

الصَّدَى

مَهْرُ الجَنَّةِ وَمِحَكُّ الصَّابِرِينَ

صَدَى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ تَسَاؤُلٌ مَهِيبٌ يُوقِظُ العَزَائِمَ الغَافِلَةَ مِنْ أَحْلَامِ الدَّعَةِ، فَيُقَرِّرُ أَنَّ دُخُولَ الجَنَّةِ مَرْهُونٌ بِظُهُورِ صِدْقِ المجَاهِدِينَ وَثَبَاتِ الصَّابِرِينَ فِي مَيْدَانِ الِابْتِلَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ نَيْلِ الدَّرَجَاتِ العُلَا بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّي دُونَ مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَالهَوَى، وَتَسْتَقِرُّ عَزِيمَةُ البَذْلِ وَالصَّبْرِ كَثَمَنٍ عَادِلٍ لِدَارِ الخُلُودِ. وَكَمْ تَصَوَّرَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً أَنَّ طَرِيقَ النَّعِيمِ مَفْرُوشٌ بِالوُرُودِ بِلَا أَشْوَاكٍ وَلَا عَقَبَاتٍ، حَتَّى قَرَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَبْوَابَ الضَّمَائِرِ بِحَقِيقَةِ الِامْتِحَانِ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَرْغَبُ فِي بُلُوغِ القَصْرِ الشَّامِخِ فَوْقَ قِمَّةِ الجَبَلِ، كَيْفَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَصِلَ إِلَى أَبْوَابِهِ المفْتُوحَةِ إِلَّا إِذَا صَعِدَ المنْحَدَرَاتِ الصَّخْرِيَّةَ وَصَبَرَ عَلَى حَرِّ الشَّمْسِ وَبَرْدِ الرِّيَاحِ حَتَّى تَشْهَدَ لَهُ خُطَاهُ بِالصِّدْقِ وَالجَدَارَةِ. فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يَبْتَلِي عِبَادَهُ لِيَظْهَرَ فِي الوَاقِعِ عِلْمُهُ بِالمجَاهِدِينَ وَالصَّابِرِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ جَنَّتَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي إِلَى صَبْرٍ جَمِيلٍ وَجِهَادٍ مُسْتَمِرٍّ يَبْذُلُ المهْرَ الغَالِيَ لِلْجَنَّةِ. فَكُلُّ أُمْنِيَةٍ تَخْلُو مِنَ الصَّبْرِ وَالجِهَادِ مَآلُهَا الخَيْبَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِجَنَّةِ اللهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلصَّابِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 143 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَمَاسَةُ الرَّخَاءِ وَأَمَانِي المجَالِسِ تَتَبَخَّرُ عِنْدَمَا تَكْشِفُ الحَقِيقَةُ عَنْ أَنْيَابِهَا وَتَقْتَرِبُ سَاعَةُ المواجهَةِ المشْهُودَةِ؛ فَبَيْنَ صَخَبِ الكَلِمَاتِ فِي أَوْقَاتِ السَّلَامَةِ وَبَيْنَ صَمْتِ الثَّبَاتِ عِنْدَ لَمَعَانِ السُّيُوفِ بَوْنٌ شَاسِعٌ لَا يَعْبُرُهُ إِلَّا أَهْلُ البَصِيرَةِ المؤْزُونَةِ. فَتَمَنِّي البَلَاءِ قَبْلَ نُزُولِهِ غُرُورٌ يُورِثُ الدَّهْشَةَ وَالِارْتِبَاكَ حِينَ تَقَعُ الوَاقِعَةُ أَمَامَ العُيُونِ، بَيْنَمَا تَكْمُنُ العَافِيَةُ فِي سُؤَالِ السَّلَامَةِ مَعَ التَّأَهُّبِ الصَّادِقِ لِلثَّبَاتِ عِنْدَ حُلُولِ القَضَاءِ. فَمَنْ وَزَنَ قَوْلَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ وَسَأَلَ مَوْلَاهُ الثَّبَاتَ نَجَا مِنَ الِانْكِسَارِ، بَيْنَمَا يَبْهَتُ المتَسَرِّعُ بِأَمَانِيهِ حِينَ يَرَى هَوْلَ الحَقِيقَةِ رَأْيَ العَيْنِ.

الصَّدَى

حَمَاسَةُ الرَّخَاءِ وَصَدْمَةُ اللِّقَاءِ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

مِرْآةٌ صَادِقَةٌ تَكْشِفُ الفَرْقَ بَيْنَ أَمَانِي اللِّسَانِ فِي أَوْقَاتِ الأَمَانِ وَبَيْنَ ثَبَاتِ الجَنَانِ حِينَ تَحْضُرُ سَاعَةُ اللِّقَاءِ وَتَرَى العُيُونُ هَوْلَ المؤْقِفِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِانْدِفَاعِ العَاطِفِيِّ الَّذِي يَتَمَنَّى الشَّدَائِدَ قَبْلَ أَوَانِهَا دُونَ اسْتِعْدَادٍ حَقِيقِيٍّ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ سُؤَالِ العَافِيَةِ مَعَ التَّضَرُّعِ لِلثَّبَاتِ عِنْدَ الِابْتِلَاءِ. وَكَمْ أَطْلَقَتِ الأَلْسِنَةُ قَدِيماً وُعُوداً عَرِيضَةً فِي مَجَالِسِ الرَّاحَةِ، فَلَمَّا دَنَا الخَطْبُ وَرَأَتْهُ العُيُونُ تَزَلْزَلَتِ الأَقْدَامُ وَذَهَلَتِ العُقُولُ! أَتَأَمَّلُ السَّابِحَ الَّذِي يَقِفُ عَلَى الشَّاطِئِ الهَادِئِ فَيَتَمَنَّى هُبُوبَ العَاصِفَةِ وَارْتِفَاعَ الأَمْوَاجِ لِيُظْهِرَ مَهَارَتَهُ، فَمَا إِنْ تَتَلَاطَمُ اللُّجَجُ الجَبَلِيَّةُ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ حَتَّى يَبْهَتَ وَيَتَرَاجَعَ عَنْ تَمَنِّيهِ، بَيْنَمَا يَسْأَلُ السَّابِحُ العَاقِلُ رَبَّهُ السَّلَامَةَ وَيُعِدُّ عُدَّتَهُ لِلثَّبَاتِ إِنْ هَاجَ البَحْرُ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ لِعِبَادِهِ حِينَ يُذَكِّرُهُمْ بِأَمَانِيهِمُ السَّابِقَةِ عِنْدَمَا رَأَوُا المؤْتَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ لِيُهَذِّبَ نُفُوسَهُمْ مِنَ الغُرُورِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتٍ إِلَى تَوَاضُعٍ صَادِقٍ يَسْأَلُ السَّمَاءَ العَافِيَةَ وَالثَّبَاتَ. فَكُلُّ دَعْوَى تَخْلُو مِنَ الِاسْتِعْدَادِ مَآلُهَا الذُّهُولُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُثَبِّتُ القُلُوبَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 144 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

خُلُودُ الرِّسَالَةِ وَبَقَاءُ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ يَرْفَعَانِ بُنْيَانَ الإِيمَانِ فَوْقَ أَشْخَاصِ الحَمَلَةِ وَالرُّسُلِ مَهْمَا عَلَا مَقَامُهُمْ وَسَمَا قَدْرُهُمْ؛ فَالنَّبِيُّ هُوَ المِشْكَاةُ الَّتِي تَحْمِلُ النُّورَ وَسَتَمْضِي كَمَا مَضَى المُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلُ، أَمَّا النُّورُ نَفْسُهُ فَهُوَ بَاقٍ بِبَقَاءِ مُرْسِلِهِ الجَلِيلِ. فَالِارْتِدَادُ عَلَى الأَعْقَابِ عِنْدَ غِيَابِ القَائِدِ يَكْشِفُ أَنَّ التَّعَلُّقَ كَانَ بِالبَشَرِ لَا بِرَبِّ البَشَرِ، وَلَا يَنْقُصُ نُكُوصُ المُنْقَلِبِينَ مِنْ مُلْكِ السَّمَاءِ ذَرَّةً، بَيْنَمَا يَفُوزُ الثَّابِتُونَ الشَّاكِرُونَ بِأَوْفَى جَزَاءٍ. فَمَنْ عَبَدَ الحَيَّ الدَّائِمَ وَشَكَرَ نِعْمَةَ البَلَاغِ اسْتَقَامَتْ خُطَاهُ بَعْدَ رَحِيلِ الهُدَاةِ، بَيْنَمَا يَهْوِي مَنْ رَبَطَ دِينَهُ بِحَيَاةِ مَخْلُوقٍ إِلَى هَاوِيَةِ النُّكُوصِ وَالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

بَقَاءُ الرِّسَالَةِ وَغِنَى الحَيِّ الدَّائِمِ

صَدَى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

نِدَاءٌ يَهُزُّ القُلُوبَ لِيُحَرِّرَ العَقِيدَةَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالأَشْخَاصِ وَيَرْبِطَهَا بِالخَالِقِ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، فَمُحَمَّدٌ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَالرِّسَالَةُ بَاقِيَةٌ بِبَقَاءِ السَّمَاءِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْكِسَارِ عِنْدَ غِيَابِ الرُّمُوزِ وَالقَادَةِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ الدِّينَ مَحْفُوظٌ بِرَبِّهِ وَأَنَّ الثَّبَاتَ هُوَ أَسْمَى مَرَاتِبِ الشُّكْرِ. وَكَمْ تَزَلْزَلَتْ عُقُولٌ قَدِيماً عِنْدَمَا أَرْجَفَ المُرْجِفُونَ بِمَوْتِ النَّبِيِّ حَتَّى كَادَتْ تَنْقَلِبُ عَلَى أَعْقَابِهَا، فَجَاءَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتُعِيدَ التَّوَازُنَ وَتُثَبِّتَ الشَّاكِرِينَ! أَتَأَمَّلُ السَّاقِيَ الأَمِينَ الَّذِي حَفَرَ القَنَاةَ لِيُوصِلَ مَاءَ النَّبْعِ الجَبَلِيِّ العَذْبِ إِلَى القَرْيَةِ العَطْشَى ثُمَّ انْقَضَى أَجَلُهُ وَرَحَلَ، فَهَلْ يَتْرُكُ أَهْلُ القَرْيَةِ المَاءَ الجَارِيَ وَيَعُودُونَ إِلَى شُرْبِ الأَوْحَالِ بَعْدَ رَحِيلِهِ، أَمْ يَشْكُرُونَ نِعْمَةَ الخَالِقِ الَّذِي أَجْرَى النَّبْعَ وَيَثْبُتُونَ عَلَى الِارْتِوَاءِ مِنْهُ؟! فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُثَبِّتُ قُلُوبَ عِبَادِهِ بِأَنَّ الرِّسَالَةَ بَاقِيَةٌ وَيَعِدُ الشَّاكِرِينَ بِأَعْظَمِ الجَزَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عَقِيدَتِي إِلَى ثَبَاتٍ رَاسِخٍ يَعْبُدُ الحَيَّ القَيُّومَ وَيَشْكُرُ نِعْمَةَ النُّبُوَّةِ دُونَ نُكُوصٍ. فَكُلُّ انْقِلَابٍ عَلَى الأَعْقَابِ لَا يَضُرُّ السَّمَاءَ شَيْئاً، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَجْزِي الشَّاكِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 145 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

سِجِلُّ الآجَالِ مَخْتُومٌ بِيَدِ القَدَرِ فَلَا يَتَقَدَّمُ نَفَسٌ عَنْ مِيعَادِهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ أَجَلِهِ المَحْتُومِ، فَلَا يَزِيدُ الجُبْنُ فِي العُمْرِ لَحْظَةً وَلَا تَنْقُصُ الشَّجَاعَةُ مِنْهُ خُطْوَةً؛ وَفِي سَاحَةِ السَّعْيِ تَتَبَايَنُ النَّوَايَا بَيْنَ نَفْسٍ تَحْبِسُ هِمَّتَهَا فِي حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِي، وَنَفْسٍ تُحَلِّقُ بِأَشْوَاقِهَا نَحْوَ خُلُودِ الآخِرَةِ وَجَزَاءِ الشَّاكِرِينَ. فَمَنْ وَثِقَ بِأَجَلِهِ المَكْتُوبِ وَصَرَفَ هِمَّتَهُ لِلدَّارِ البَاقِيَةِ ظَفِرَ بِالأَمَانِ وَالجَزَاءِ الأَوْفَى، بَيْنَمَا يَخْسَرُ مَنْ بَاعَ الأَبَدِيَّةَ بِعَرَضٍ زَائِلٍ وَفَرَّ مِنَ القَدَرِ إِلَى القَدَرِ.

الصَّدَى

سِجِلُّ الآجَالِ وَبُوصَلَةُ الهِمَمِ

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾

مِيثَاقٌ مَكْتُوبٌ يَحْفَظُ الأَنْفَاسَ إِلَى أَجَلِهَا المَعْلُومِ بِإِذْنِ الخَالِقِ، وَمِيزَانٌ دَقِيقٌ يُعْطِي كُلَّ سَاعٍ ثَمَرَةَ نِيَّتِهِ بَيْنَ عَرَضِ الدُّنْيَا وَخُلُودِ الآخِرَةِ، ثُمَّ يُتَوِّجُ الشَّاكِرِينَ بِالجَزَاءِ الأَكْبَرِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الخَوْفِ مِنَ المَوْتِ قَبْلَ الأَجَلِ أَوِ الحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا عَلَى حِسَابِ الآخِرَةِ، وَتَسْتَقِرُّ شَجَاعَةُ أَنَّ الأَجَلَ مَحْفُوظٌ وَأَنَّ الِاخْتِيَارَ فِي النِّيَّةِ وَالهِمَّةِ. وَكَمْ جَبُنَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً طَلَباً لِلْبَقَاءِ فَمَاتَتْ فِي فِرَاشِهَا، بَيْنَمَا أَقْبَلَ الشُّجْعَانُ عَلَى المَخَاطِرِ فَعَاشُوا أَعِزَّاءَ وَفَازُوا بِثَوَابِ الآخِرَةِ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ الَّذِي قُدِّرَ لَهُ زَيْتٌ يَكْفِيهِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ عَوَاصِفُ اللَّيْلِ إِطْفَاءَهُ قَبْلَ انْقِضَاءِ زَيْتِهِ المَقْدُورِ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِي وِجْهَةِ ضَوْئِهِ: أَيُضِيءُ الطَّرِيقَ إِلَى قَصْرِ المَلِكِ الأَبَدِيِّ أَمْ يَنْحَصِرُ فِي زَاوِيَةٍ ضَيِّقَةٍ تَزُولُ مَعَ الصَّبَاحِ؟! فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يَكْتُبُ الآجَالَ بِإِذْنِهِ وَيُعْطِي كُلَّ قَلْبٍ مَا أَرَادَ وَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ هِمَّتِي إِلَى شَجَاعَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ تَطْلُبُ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَتَشْكُرُ مَوْلَاهَا. فَكُلُّ ثَوَابٍ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَثَوَابِ الآخِرَةِ الَّذِي يَنَالُهُ الشَّاكِرُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 146 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَوَافِلُ الرَّبَّانِيّينَ عَبْرَ الدُّهُورِ تَمْضِي فِي مَوْكِبِ النُّبُوَّةِ بِثَبَاتِ الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ؛ فَلَا تَكْسِرُ الجِرَاحُ عَزَائِمَهُمْ وَلَا يَتَسَرَّبُ الوَهَنُ إِلَى أَرْوَاحِهِمْ وَلَا تَنْحَنِي جِبَاهُهُمْ لِسَطْوَةِ الطُّغْيَانِ، بَلْ تَزْدَادُ قُلُوبُهُمْ صَلَابَةً كُلَّمَا اشْتَدَّ البَلَاءُ فِي سَبِيلِ السَّمَاءِ، فَيَنَالُونَ أَغْلَى وِسَامٍ فِي الوُجُودِ وَهُوَ مَحَبَّةُ الخَالِقِ لِلصَّابِرِينَ. فَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِ الرِّبِّيِّينَ بِلَا وَهَنٍ وَلَا اسْتِكَانَةٍ أَحَبَّهُ الرَّحْمٰنُ وَأَعْلَى شَأْنَهُ، بَيْنَمَا يَتَسَاقَطُ الضُّعَفَاءُ المُسْتَسْلِمُونَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ عِنْدَ أَوَّلِ ابْتِلَاءٍ.

الصَّدَى

قَوَافِلُ الرِّبِّيِّينَ وَوِسَامُ المَحَبَّةِ

صَدَى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

مَوْكِبٌ عَظِيمٌ مِنَ الرِّبِّيِّينَ الصَّادِقِينَ يَسِيرُ خَلْفَ الأَنْبِيَاءِ عَبْرَ التَّارِيخِ، فَلَا يَهِنُ لِلْجِرَاحِ وَلَا يَضْعُفُ أَمَامَ العَدُوِّ وَلَا يَسْتَكِينُ لِلْخُضُوعِ، فَيَتَوِّجُهُ الخَالِقُ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّابِرِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَحْدَةِ فِي طَرِيقِ الِابْتِلَاءِ أَوِ التَّبْرِيرِ لِلِاسْتِسْلَامِ عِنْدَ الأَلَمِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ الِانْتِمَاءِ إِلَى مَدْرَسَةِ الرِّبِّيِّينَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ جِرَاحَهُمْ بِشُمُوخٍ وَثَبَاتٍ. وَكَمْ أَثْبَتَتْ صَفَحَاتُ التَّارِيخِ قَدِيماً أَنَّ الصَّلَابَةَ الرُّوحِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَصْنَعُ الخُلُودَ وَتَسْتَجْلِبُ مَحَبَّةَ الرَّحْمٰنِ! أَتَأَمَّلُ شَجَرَةَ الأَرْزِ العَتِيقَةَ فَوْقَ قِمَمِ الجِبَالِ الشَّاهِقَةِ كَيْفَ تَضْرِبُهَا الثُّلُوجُ وَالرِّيَاحُ العَاتِيَةُ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ فَتُكْسَرُ بَعْضُ أَغْصَانِهَا وَتُجْرَحُ قِشْرَتُهَا، وَلٰكِنَّهَا لَا تَهِنُ وَلَا تَنْحَنِي بَلْ تَزْدَادُ جُذُورُهَا رُسُوخاً فِي الصَّخْرِ وَتَبْقَى شَامِخَةً تَحْتَ رِعَايَةِ السَّمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ تَكْرِيمَ اللهِ لِلصَّابِرِينَ حِينَ يَشْهَدُ لِلرِّبِّيِّينَ بِعَدَمِ الوَهَنِ وَالضَّعْفِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَيُعْلِنُ مَحَبَّتَهُ

لَهُمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قُوَّتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى صَبْرٍ عَزِيزٍ لَا يَهِنُ وَلَا يَسْتَكِينُ طَمَعاً فِي مَحَبَّةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ اسْتِكَانَةٍ لِلْبَاطِلِ مَآلُهَا الذُّلُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي تَعْمُرُ الصَّابِرِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 147 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِحْرَابُ الِافْتِقَارِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيِ الخَالِقِ هُوَ مَصْدَرُ الصَّلَابَةِ الَّتِي تَحَلَّى بِهَا الرَّبِّيُّونَ فِي مَيَادِينِ البَذْلِ؛ فَلَمْ تَكُنْ شَجَاعَتُهُمْ غُرُوراً بِسَوَاعِدِهِمْ وَلَا ادِّعَاءً لِلْكَمَالِ فِي أَنْفُسِهِمْ، بَلْ كَانَتْ تَضَرُّعاً صَادِقاً يَبْدَأُ بِطَلَبِ المَغْفِرَةِ لِلذُّنُوبِ وَتَجَاوُزِ الحُدُودِ، ثُمَّ يَسْأَلُ تَثْبِيتَ الأَقْدَامِ عِنْدَ الزَّلَلِ وَالنَّصْرَ عَلَى المعَانِدِينَ. فَمَنْ قَدَّمَ الِاسْتِغْفَارَ وَالتَّوَاضُعَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ ثَبَتَتْ قَدَمُهُ وَأُيِّدَ بِنَصْرِ السَّمَاءِ، بَيْنَمَا يَخْذُلُ الغُرُورُ مَنْ نَسِيَ ذُنُوبَهُ وَاعْتَمَدَ عَلَى قُوَّتِهِ.

الصَّدَى

ابْتِهَالُ الرَّبِّيِّينَ وَمِفْتَاحُ الثَّبَاتِ
صَدَى ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾
نِدَاءٌ خَاشِعٌ يَرْتَفِعُ مِنْ أَعْمَاقِ الصَّابِرِينَ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ، فَيَجْمَعُ بَيْنَ الِاعْتِرَافِ بِالذُّنُوبِ وَالإِسْرَافِ وَبَيْنَ طَلَبِ التَّثْبِيتِ وَالنَّصْرِ مِنَ المَلِكِ القَدِيرِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ دُونَ الِاسْتِغْفَارِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ مَحْوَ الذُّنُوبِ هُوَ أَوَّلُ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ وَالنَّصْرِ. وَكَمْ ظَنَّ البَعْضُ قَدِيماً أَنَّ سَاعَاتِ المواجهَةِ تَحْتَاجُ إِلَى التَّبَجُّحِ وَالفَخْرِ، حَتَّى عَلَّمَنَا الرَّبِّيُّونَ أَنَّ سِلَاحَ القُلُوبِ الصَّادِقَةِ هُوَ الِانْكِسَارُ وَالِاسْتِغْفَارُ! أَتَأَمَّلُ المقَاتِلَ الحَكِيمَ الَّذِي يَقِفُ عَلَى أَرْضٍ زَلِقَةٍ أَمَامَ العَدُوِّ، كَيْفَ يَبْدَأُ أَوَّلاً بِتَنْظِيفِ حِذَائِهِ مِنَ الوَحْلِ الثَّقِيلِ وَتَثْبِيتِ قَدَمَيْهِ فِي الصَّخْرِ الصُّلْبِ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ سَيْفَهُ، فَيَقِفُ كَالطَّوْدِ الأَشَمِّ وَلَا تَزِلُّ بِهِ القَدَمُ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَمَا

أَعْظَمَ فِقْهَ الرِّبِّيِّينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللهَ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ وَالإِسْرَافِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلُوهُ تَثْبِيتَ الأَقْدَامِ وَالنَّصْرَ عَلَى الكَافِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُنَاجَاتِي عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى اسْتِغْفَارٍ صَادِقٍ يَمْحُو العَوَائِقَ وَيَسْتَجْلِبُ الثَّبَاتَ وَالنَّصْرَ. فَكُلُّ قُوَّةٍ تَثْقُلُ بِالذُّنُوبِ مَآلُهَا التَّعَثُّرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَمُثَبِّتِ الأَقْدَامِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 148 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

سَحَائِبُ الجُودِ الإِلٰهِيِّ تَهْطِلُ بِالعَطَاءِ المُزْدَوِجِ عَلَى قُلُوبِ الرِّبِّيِّينَ الصَّابِرِينَ، فَتَمْنَحُهُمْ عِزَّةَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَالذِّكْرِ الجَمِيلِ فِي الدَّارِ الفَانِيَةِ، ثُمَّ تَدَّخِرُ لَهُمْ حُسْنَ الثَّوَابِ وَنَعِيمَ الرِّضْوَانِ فِي الدَّارِ البَاقِيَةِ، مُتَوِّجَةً سِيرَتَهُمْ بِوِسَامِ المَحَبَّةِ لِلْمُحْسِنِينَ. فَمَنْ أَحْسَنَ الصَّبْرَ وَالدُّعَاءَ وَالثَّبَاتَ جَمَعَ لَهُ مَوْلَاهُ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، بَيْنَمَا يَخْسَرُ المُتَقَاعِسُ نَعِيمَ الدَّارَيْنِ وَيُحْرَمُ مَنَازِلَ المُحْسِنِينَ.

الصَّدَى

عَطَاءُ الدَّارَيْنِ وَمَحَبَّةُ المُحْسِنِينَ

صَدَى ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

بِشَارَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَتَوَّجُ رِحْلَةَ الصَّبْرِ وَالِابْتِهَالِ، فَتَجْمَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ عِزِّ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الآخِرَةِ وَتُكَلِّلُهُمْ بِمَحَبَّةِ الخَالِقِ لِلْمُحْسِنِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّعَارُضِ بَيْنَ عِزَّةِ الدُّنْيَا وَفَوْزِ الآخِرَةِ لِأَهْلِ الصِّدْقِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كَرَمَ السَّمَاءِ يَمْنَحُ الصَّادِقِينَ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ. وَكَمْ ظَنَّ المَادِّيُّونَ قَدِيماً أَنَّ التَّمَسُّكَ بِالمَبَادِئِ يَحْرِمُ صَاحِبَهُ مِنْ خَيْرَاتِ الحَيَاةِ، حَتَّى كَشَفَتْ هٰذِهِ الآيَةُ أَنَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ يُسَاقَانِ مَعاً لِلْمُحْسِنِينَ! أَتَأَمَّلُ الشَّجَرَةَ المُبَارَكَةَ المَغْرُوسَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ العَذْبِ كَيْفَ تَمْنَحُ أَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا الظِّلَّ الوَارِفَ وَالثِّمَارَ اليَانِعَةَ وَالجَمَالَ البَاهِرَ لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهَا، ثُمَّ تَبْقَى جُذُورُهَا حَيَّةً مُتَّصِلَةً بِمَاءِ الخُلُودِ لِتُزْهِرَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ بِأَجْمَلَ مِمَّا كَانَتْ. فَمَا أَعْظَمَ جُودَ اللهِ الَّذِي يُؤْتِي الصَّابِرِينَ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَيُعْلِنُ مَحَبَّتَهُ لِلْمُحْسِنِينَ! هٰكَذَا

تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي إِلَى إِحْسَانٍ مُتْقَنٍ يَجْمَعُ خَيْرَ العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ. فَكُلُّ عَطَاءٍ يَخْلُو مِنَ الإِحْسَانِ مَآلُهُ النَّقْصُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُكْرِمُ المحْسِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 149 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَذِيرُ اليَقَظَةِ يَقْرَعُ أَبْوَابَ القُلُوبِ عِنْدَ تَعَالِي أَصْوَاتِ المثَبِّطِينَ وَالمرْجِفِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ السَّائِرِينَ إِلَى التَّرَاجُعِ عَنْ قِمَمِ الحَقِّ نَحْوَ قِيعَانِ الجَاهِلِيَّةِ وَالضَّلَالِ. فَالِاسْتِجَابَةُ لِوَسَاوِسِ الجَاحِدِينَ فِي سَاعَاتِ الِانْكِسَارِ العَابِرِ تَسْلُبُ الرُّوحَ نُورَ الهِدَايَةِ وَتَرُدُّهَا خَاسِرَةً لِلدَّارَيْنِ بَعْدَ أَنْ ذَاقَتْ حَلَاوَةَ اليَقِينِ وَالأَمَانِ. فَمَنْ صَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ نَعِيقِ المضِلِّينَ وَمَضَى قُدُماً نَحْوَ رَبِّهِ حَفِظَ إِيمَانَهُ وَفَوْزَهُ، بَيْنَمَا يَنْقَلِبُ مَنْ أَطَاعَ الخُصُومَ خَاسِراً مَخْذُولاً لَا يَمْلِكُ دُنْياً وَلَا آخِرَةً.

الصَّدَى

صَيْحَةُ الحِرَاسَةِ وَفَخُّ النُّكُوصِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ نِدَاءٌ مَهِيبٌ يَحْرُسُ صُفُوفَ الإِيمَانِ فِي سَاعَاتِ الِابْتِلَاءِ، فَيُحَذِّرُ العُقُولَ مِنْ طَاعَةِ الكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ لِرَدِّ المؤْمِنِينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ لِيَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِمَاعِ لِتَشْكِيكَاتِ الأَعْدَاءِ أَوْ نَصَائِحِهِمُ المسْمُومَةِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ طَاعَتَهُمْ هِيَ بَوَّابَةُ الخُسْرَانِ المبِينِ. وَكَمْ حَاوَلَ المرْجِفُونَ قَدِيماً اسْتِغْلَالَ جِرَاحِ المِيْدَانِ لِيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى العَوْدَةِ لِلْبَاطِلِ، حَتَّى هَتَكَ الوَحْيُ مَكْرَهُمْ وَحَذَّرَ مِنْ عَاقِبَةِ طَاعَتِهِمْ! أَتَأَمَّلُ المتَسَلِّقَ الَّذِي قَطَعَ شَوْطاً كَبِيراً نَحْوَ قِمَّةِ الجَبَلِ الشَّامِخِ حَيْثُ الشَّمْسُ وَالهَوَاءُ النَّقِيُّ، فَيُنَادِيهِ الوَاقِفُونَ فِي الوَادِي المظْلِمِ المِلِيءِ بِالمسْتَنْقَعَاتِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ بِدَعْوَى الرَّاحَةِ، فَإِنْ أَطَاعَهُمْ وَنَزَلَ عَلَى عَقِبَيْهِ خَسِرَ القِمَّةَ وَغَرِقَ فِي الوَحْلِ وَالظَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ طَاعَةِ الكَافِرِينَ كَيْ لَا يَرُدُّوهُمْ عَلَى

أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقَظَتِي إِلَى ثَبَاتٍ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الوَرَاءِ وَلَا يُصْغِي لِوَسَاوِسِ المضِلِّينَ. فَكُلُّ تَرَاجُعٍ عَنْ طَرِيقِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَحْفَظُ الثَّابِتِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 150 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

شَمْسُ الوِلَايَةِ الحَقَّةِ تُبَدِّدُ كُلَّ ظِلَالِ التَّبَعِيَّةِ لِلْمَخْلُوقِينَ، وَتَسْكُبُ فِي الأَرْوَاحِ عِزَّةَ الِاسْتِغْنَاءِ بِمَوْلَى المَوَالِي وَخَيْرِ النَّاصِرِينَ. فَمَنْ كَانَ مَالِكُ المُلْكِ وَلِيَّهُ وَحَافِظَهُ فَمَا حَاجَتُهُ إِلَى سَنَدٍ بَشَرِيٍّ يَفْنَى أَوْ حَلِيفٍ يَغْدِرُ وَيَتَخَلَّى عِنْدَ الشِّدَّةِ؛ إِذْ تَكْفِيهِ وِلَايَةُ السَّمَاءِ الَّتِي تَقْهَرُ كُلَّ جَبَّارٍ وَتَنْتَصِرُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ. فَمَنْ أَوَى إِلَى كَنَفِ مَوْلَاهُ وَاعْتَزَّ بِنُصْرَتِهِ أَمِنَ الخِذْلَانَ وَظَفِرَ بِالتَّأْيِيدِ، بَيْنَمَا يَضِيعُ مَنِ ابْتَغَى النَّصْرَ مِنْ دُونِهِ فِي مَتَاهَاتِ الذُّلِّ وَالوَحْشَةِ.

الصَّدَى

عِزَّةُ الوِلَايَةِ وَخَيْرُ النَّاصِرِينَ

صَدَى ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾

إِعْلَانٌ نُورَانِيٌّ يَمْلَأُ الصُّدُورَ شُمُوخاً وَطُمَأْنِينَةً، فَيَقْطَعُ حِبَالَ التَّعَلُّقِ بِالخَلْقِ وَيُعْلِنُ أَنَّ الخَالِقَ هُوَ مَوْلَى المؤْمِنِينَ وَخَيْرُ النَّاصِرِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِافْتِقَارِ إِلَى حِمَايَةِ البَشَرِ أَوْ تَحَالُفَاتِ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّنِي فِي كَنَفِ المَلِكِ الحَقِّ الَّذِي لَا يُخْذَلُ وَلِيُّهُ وَلَا يُغْلَبُ جُنْدُهُ. وَكَمْ بَحَثَ الضُّعَفَاءُ قَدِيماً عَنْ نَصِيرٍ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا السَّرَابَ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الكَلِمَةُ الجَامِعَةُ لِتُغْنِيَ القُلُوبَ بِوِلَايَةِ السَّمَاءِ! أَتَأَمَّلُ الغُصْنَ الصَّغِيرَ المَوْصُولَ بِجِذْعِ الشَّجَرَةِ العِمْلَاقَةِ الرَّاسِخَةِ فِي أَعْمَاقِ الأَرْضِ، كَيْفَ يَسْتَمِدُّ مِنْهَا القُوَّةَ وَالغِذَاءَ وَالحِمَايَةَ أَمَامَ العَوَاصِفِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى عُكَّازٍ خَشَبِيٍّ يَابِسٍ يُسْنِدُهُ لِأَنَّ وِلَايَةَ الجِذْعِ الكَبِيرِ تَكْفِيهِ وَتَحْمِيهِ. فَمَا أَعْظَمَ شَرَفَ المؤْمِنِينَ حِينَ يَشْهَدُ لَهُمُ اللهُ بِأَنَّهُ مَوْلَاهُمْ وَأَنَّهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ عِزَّتِي وَطُمَأْنِينَتِي إِلَى اعْتِصَامٍ

خَالِصٍ بِمَوْلَايَ وَنَاصِرِي. فَكُلُّ نَصِيرٍ غَيْرُ الخَالِقِ مَآلُهُ العَجْزُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ مَوْلَى المؤْمِنِينَ وَخَيْرِ النَّاصِرِينَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٥١-١٦٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 151 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاحُ الفَزَعِ تَعْصِفُ بِأَرْكَانِ الصُّدُورِ الخَاوِيَةِ مِنْ نُورِ التَّوْحِيدِ، فَتُحِيلُ جَبَرُوتَ المتَكَبِّرِينَ هَشِيماً يُرْعِدُهُ صَوْتُ الخَطْوِ وَتُفْزِعُهُ الظِّلَالُ فِي البَيْدَاءِ. فَحِينَ يَتَّخِذُ الجَنَانُ أَنْدَاداً وَهْمِيَّةً لَا تَمْلِكُ حُجَّةً مِنَ السَّمَاءِ وَلَا سُلْطَاناً فِي الأَرْضِ، يَتَسَلَّلُ الوَهَنُ إِلَى أَعْمَاقِهِ قَبْلَ لِقَاءِ السُّيُوفِ، وَتَنْفَتِحُ أَمَامَهُ أَبْوَابُ السَّعِيرِ الَّتِي تَأْوِي كُلَّ ظَالِمٍ تَنَكَّبَ الجَادَّةَ وَأَعْرَضَ عَنِ البُرْهَانِ. فَمَنْ أَفْرَدَ مَوْلَاهُ بِالتَّعْظِيمِ سَكَنَتِ الطُّمَأْنِينَةُ أَرْكَانَ رُوحِهِ وَأَمِنَ كُلَّ خَوْفٍ، بَيْنَمَا يَتَقَلَّبُ المشْرِكُ بَيْنَ رُعْبِ العَاجِلَةِ وَنَارِ الآجِلَةِ الَّتِي هِيَ بِئْسَ المقَرُّ وَالمثْوَى.

الصَّدَى

رُعْبُ الشِّرْكِ وَبِئْسَ المثْوَى

صَدَى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾

سِهَامٌ خَفِيَّةٌ مِنَ الرُّعْبِ تَنْفُذُ إِلَى صُدُورِ الجَاحِدِينَ فَتُزَلْزِلُ حُصُونَهُمْ مِنْ دَاخِلِهَا، جَزَاءَ إِشْرَاكِهِمْ بِالخَالِقِ أَوْهَاماً لَمْ يَنْزِلْ بِهَا سُلْطَانٌ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسُوقُهُمْ إِلَى النَّارِ حَيْثُ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ القُوَّةَ الظَّاهِرَةَ لِأَهْلِ البَاطِلِ تَمْنَحُهُمُ الأَمَانَ الدَّاخِلِيَّ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ التَّوْحِيدَ الخَالِصَ هُوَ يَنْبُوعُ الشَّجَاعَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. وَكَمْ أَرْهَبَتِ الأَبْصَارَ قَدِيماً دُرُوعُ المسْتَكْبِرِينَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ فِي أَعْمَاقِهِمْ قُلُوباً مُرْتَعِدَةً قَدْ قَذَفَتِ السَّمَاءُ فِيهَا الرُّعْبَ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ! أَتَأَمَّلُ البَيْتَ

الزُّجَاجِيَّ الهَشَّ الَّذِي بُنِيَ عَلَى رِمَالٍ مُتَحَرِّكَةٍ بِلَا أَسَاسٍ صُلْبٍ، كَيْفَ يَرْتَجِفُ وَيَتَصَدَّعُ مِنْ دَاخِلِهِ عِنْدَ أَدْنَى هَزَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ العَاصِفَةُ، فَيَنْهَارُ عَلَى أَصْحَابِهِ وَيُصْبِحُ رُكَاماً مُحْتَرِقاً. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُلْقِي الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ المشْرِكِينَ وَيَجْعَلُ النَّارَ مَأْوَى الظَّالِمِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي إِلَى تَوْحِيدٍ صَافٍ يَطْرُدُ الخَوْفَ وَيَأْوِي إِلَى كَنَفِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ شِرْكٍ يَخْلُو مِنَ السُّلْطَانِ مَآلُهُ الرُّعْبُ وَالنَّارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 152 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَوَابَةُ الظَّفَرِ تَنْفَتِحُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا حِينَ تَتَوَحَّدُ الكَلِمَةُ وَيَصْفُو القَصْدُ، ثُمَّ تَرْتَدُّ مُغْلَقَةً حِينَ يَتَسَلَّلُ التَّنَازُعُ إِلَى الصَّفِّ وَتَزِيغُ الأَبْصَارُ نَحْوَ بَرِيقِ الغَنَائِمِ قَبْلَ انْقِضَاءِ المهَمَّةِ. فَمَا تَأَخَّرَ النَّصْرُ يَوْماً لِقُوَّةِ العَدُوِّ، بَلْ لِفَشَلِ العَزِيمَةِ وَعِصْيَانِ التَّوْجِيهِ عِنْدَ لَمَعَانِ حُطَامِ الدُّنْيَا أَمَامَ العُيُونِ؛ غَيْرَ أَنَّ سَحَائِبَ العَفْوِ الإِلٰهِيِّ تُدْرِكُ المؤْمِنِينَ بَعْدَ الِابْتِلَاءِ لِتُعِيدَ إِلَيْهِمْ تَوَازُنَهُمْ وَتَغْمُرَهُمْ بِفَضْلِ السَّمَاءِ. فَمَنْ حَفِظَ ثَغْرَهُ وَلَمْ يَبِعْ نَصْرَهُ بِعَرَضِ الدُّنْيَا دَامَ لَهُ التَّمْكِينُ، بَيْنَمَا يَذُوقُ المتَنَازِعُونَ مَرَارَةَ الِانْصِرَافِ ثُمَّ يُدْرِكُهُمْ لُطْفُ العَفْوِ وَالفَضْلِ إِذَا آبُوا إِلَى الرَّشَادِ.

الصَّدَى

تَصَدُّعُ الثَّغْرِ وَغَيْثُ العَفْوِ الرَّبَّانِيّ

صَدَى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

مِرْآةٌ تَرْبَوِيَّةٌ تَكْشِفُ سُنَّةَ النَّصْرِ وَالهَزِيمَةِ؛ فَوَعْدُ السَّمَاءِ صَادِقٌ حِينَ يَسْتَقِيمُ الصَّفُّ، فَإِذَا تَسَلَّلَ

التَّنَازُعُ وَالعِصْيَانُ وَبَرِيقُ الدُّنْيَا تَحَوَّلَ الظَّفَرُ إِلَى ابْتِلَاءٍ يَغْسِلُهُ عَفْوُ الخَالِقِ ذِي الفَضْلِ عَلَى المؤْمِنِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ إِسْنَادِ الإِخْفَاقِ إِلَى الظُّرُوفِ الخَارِجِيَّةِ دُونَ التَّفْتِيشِ عَنْ خَلَلِ النِّيَّةِ وَالطَّاعَةِ فِي الدَّاخِلِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ حِرَاسَةِ الثَّغْرِ مِنَ التَّنَازُعِ وَحُبِّ الدُّنْيَا. وَكَمْ ضَاعَتْ ثِمَارُ الجُهْدِ قَدِيماً عِنْدَ نِهَايَةِ الشَّوْطِ حِينَ التَفَتَتِ العُيُونُ إِلَى الغَنِيمَةِ قَبْلَ تَمَامِ الفَتْحِ، فَأَدْرَكَتْهَا رَحْمَةُ العَفْوِ بَعْدَ الدَّرْسِ القَاسِي! أَتَأَمَّلُ السَّدَّ المتِينَ الَّذِي يَحْجِزُ الطُّوفَانَ العَارِمَ بِنَجَاحٍ وَقُوَّةٍ، كَيْفَ يَتَصَدَّعُ حِينَ يَتْرُكُ حُرَّاسُهُ مَوَاقِعَهُمْ جَرْياً خَلْفَ أَسْمَاكٍ صَغِيرَةٍ تَلْمَعُ عَلَى الشَّاطِئِ، فَتَنْدَفِعُ المِيَاهُ مِنَ الثَّغْرَةِ المتْرُوكَةِ لِتُوقِظَهُمْ بِالِابْتِلَاءِ ثُمَّ يُعِينُهُمُ المِلِكُ الرَّحِيمُ بِعَفْوِهِ عَلَى إِعَادَةِ البِنَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللهِ عَلَى المؤْمِنِينَ حِينَ يُعَلِّمُهُمْ أَسْبَابَ النَّصْرِ وَيَعْفُو عَنْ زَلَّاتِهِمْ بَعْدَ الِابْتِلَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَخْطَائِي إِلَى دُرُوسٍ تَزِيدُنِي ثَبَاتاً عَلَى الطَّاعَةِ وَإِرَادَةً لِلْآخِرَةِ. فَكُلُّ تَنَازُعٍ وَعِصْيَانٍ مَآلُهُ التَّرَاجُعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِفَضْلِ اللهِ وَعَفْوِهِ الَّذِي يَشْمَلُ المؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 153 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاحُ الذُّعْرِ تَعْصِفُ بِالأَقْدَامِ المتَفَرِّقَةِ فَتَتَسَلَّقُ الشِّعَابَ دُونَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَى الوَرَاءِ وَصَوْتُ الهُدَى يُنَادِيهَا لِلثَّبَاتِ وَالِاصْطِفَافِ؛ فَيَتَنَزَّلُ دَوَاءُ السَّمَاءِ المرُّ فِي صُورَةِ غَمٍّ يَعْقُبُهُ غَمٌّ، لِيَغْسِلَ مِنْ أَعْمَاقِ الصُّدُورِ حَسْرَةَ الغَنَائِمِ الفَائِتَةِ وَأَلَمَ الجِرَاحِ الحَادِثَةِ. فَالأَلَمُ الأَعْظَمُ يُنْسِي القَلْبَ أَوْجَاعَهُ الصَّغِيرَةَ، وَيُعِيدُ تَرْتِيبَ الأَوْلَوِيَّاتِ فِي الوِجْدَانِ حَتَّى تَتَصَاغَرَ الدُّنْيَا كُلُّهَا أَمَامَ سَلَامَةِ الدِّينِ وَالقِيَادَةِ، تَحْتَ رَقَابَةِ الخَبِيرِ بِخَفَايَا الأَعْمَالِ. فَمَنْ أَصْغَى لِنِدَاءِ الثَّبَاتِ وَتَدَاوَى بِحِكْمَةِ الِابْتِلَاءِ زَالَ عَنْهُ حُزْنُ الفَائِتِ، بَيْنَمَا يَتَمَزَّقُ الفَارُّ المعْرِضُ بَيْنَ غَمِّ الهَزِيمَةِ وَضَيَاعِ البُوصَلَةِ.

الصَّدَى

نِدَاءُ الثَّبَاتِ وَحِكْمَةُ الغَمِّ المُتَتَابِعِ

صَدَى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

تَدْبِيرٌ رَبَّانِيٌّ لَطِيفٌ يُعَالِجُ جِرَاحَ النُّفُوسِ بِغَمٍّ يَطْرُدُ غَمّاً، فَيُذْهِبُ عَنِ القُلُوبِ حَسْرَةَ الغَنِيمَةِ الفَائِتَةِ وَأَلَمَ البَلَاءِ النَّازِلِ، وَيَرُدُّهَا إِلَى صَوْتِ الرَّسُولِ تَحْتَ عَيْنِ الخَبِيرِ بِالأَعْمَالِ. في أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الآلَامَ المُتَلَاحِقَةَ تَأْتِي لِتُحَطِّمَ الرُّوحَ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ بَعْضَ الغُمُومِ دَوَاءٌ يُنْسِي القَلْبَ تَعَلُّقَهُ بِمَا فَاتَهُ مِنَ الدُّنْيَا. وَكَمْ جَزِعَتِ النَّفْسُ قَدِيماً عِنْدَ تَوَالِي الكُرُوبِ قَبْلَ أَنْ تُبْصِرَ كَيْفَ يَصْرِفُ الخَالِقُ بِالمِحْنَةِ الكُبْرَى حُزْنَ المَطَامِعِ الصَّغِيرَةِ! أَتَأَمَّلُ الطَّبِيبَ الحَكِيمَ الَّذِي يَرَى مَرِيضاً يَبْكِي عَلَى ضَيَاعِ مَتَاعٍ رَخِيصٍ في طَرِيقٍ مُوحِشٍ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ السِّبَاعُ، فَيُوقِظُهُ الطَّبِيبُ بِصَيْحَةٍ شَدِيدَةٍ تُنْسِيهِ ذٰلِكَ المَتَاعَ الزَّائِلَ لِيُسْرِعَ في النَّجَاةِ بِحَيَاتِهِ وَسَلَامَةِ جَسَدِهِ. فَمَا أَعْظَمَ لُطْفَ اللهِ الخَبِيرِ بِمَا نَعْمَلُ حِينَ يُدَاوِي قُلُوبَ عِبَادِهِ بِالغَمِّ بَعْدَ الغَمِّ لِكَيْلَا يَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَهُمْ وَلَا مَا أَصَابَهُمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْكُرُوبِ إِلَى تَسْلِيمٍ يَرَى فِيهَا تَطْهِيراً مِنَ التَّعَلُّقِ بِالفَانِي. فَكُلُّ حُزْنٍ عَلَى الدُّنْيَا مَآلُهُ التَّبَدُّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الخَبِيرِ بِخَفَايَا الصُّدُورِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 154 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

المَوْعِظَةُ

نَسَائِمُ السَّكِينَةِ تَهْبِطُ مِنَ السَّمَاءِ في قَلْبِ العَاصِفَةِ فَتُغْشِي عُيُونَ الصَّادِقِينَ بِنُعَاسِ الأَمَانِ، بَيْنَمَا تَتَقَلَّبُ قُلُوبُ المُرْتَابِينَ عَلَى جَمْرِ الأَنَانِيَّةِ وَظُنُونِ الجَاهِلِيَّةِ الَّتِي تَحْسَبُ أَنَّ الجُدْرَانَ تَرُدُّ المَنِيَّةَ أَوْ أَنَّ التَّدْبِيرَ بِيَدِ البَشَرِ. فَالْأَمْرُ كُلُّهُ مُفَوَّضٌ لِلهِ وَحْدَهُ، وَالمَضَاجِعُ المَكْتُوبَةُ تَسْتَدْعِي أَصْحَابَهَا وَلَوْ

تَحَصَّنُوا فِي البُرُوجِ المشَيَّدَةِ، وَمَا تِلْكَ الهَزَّاتُ إِلَّا مِصْفَاةٌ تَكْشِفُ مَكْنُونَاتِ الصُّدُورِ وَتُمَحِّصُ مَا فِي القُلُوبِ تَحْتَ نَظَرِ العَلِيمِ بِذَاتِ الصُّدُورِ. فَمَنْ أَسْلَمَ قَلْبَهُ لِقَدَرِ رَبِّهِ نَامَ قَرِيرَ العَيْنِ فِي لُجَّةِ الخَطَرِ، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ سَيِّئُ الظَّنِّ بِوَسَاوِسِهِ وَلَوْ كَانَ فِي أَمْنِ بَيْتِهِ.

الصَّدَى

نُعَاسُ السَّكِينَةِ وَمِصْفَاةُ القُلُوبِ

صَدَى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

مَشْهَدٌ عَجِيبٌ يَفْصِلُ بَيْنَ قُلُوبٍ تَغْمُرُهَا السَّكِينَةُ فَتَنَامُ آمِنَةً فِي سَاحَةِ الخَطَرِ، وَقُلُوبٍ يُمَزِّقُهَا القَلَقُ وَسُوءُ الظَّنِّ بِالخَالِقِ فَتَتَوَهَّمُ أَنَّ الهُرُوبَ يُغَيِّرُ القَدَرَ المكْتُوبَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الأَمَانَ يَكْمُنُ فِي البُيُوتِ المغْلَقَةِ أَوْ تَدْبِيرِ النَّفْسِ القَاصِرَةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ وَأَنَّ المضَاجِعَ مَكْتُوبَةٌ لَا مَفَرَّ مِنْهَا. وَكَمْ أَرَّقَتِ الأَوْهَامُ قَدِيماً عُقُولاً ظَنَّتْ بِرَبِّهَا ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ حِينَ شَغَلَتْهَا أَنَانِيَّتُهَا عَنْ حِكْمَةِ التَّمْحِيصِ وَالِابْتِلَاءِ! أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ المؤْمِنَ بِفِطْرَتِهِ الَّذِي يَغْفُو بِسَلَامٍ فِي عُشِّهِ فَوْقَ الغُصْنِ المتَأَرْجِحِ فِي لَيْلَةٍ عَاصِفَةٍ لِأَنَّهُ يَثِقُ بِخَالِقِهِ، بَيْنَمَا يَرْتَجِفُ الثَّعْلَبُ الماكِرُ فِي جُحْرِهِ المظْلِمِ تَحْتَ الأَرْضِ مِنْ وَهْمِ الخَطَرِ حَتَّى يَخْرُجَ بِقَدَمَيْهِ إِلَى مَصْرَعِهِ المكْتُوبِ. فَمَا أَعْظَمَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ حِينَ يُنْزِلُ الأَمَنَةَ عَلَى الصَّادِقِينَ وَيُمَحِّصُ مَا فِي القُلُوبِ بِالِابْتِلَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي إِلَى حُسْنِ ظَنٍّ دَائِمٍ بِرَبِّي يَسْتَقْبِلُ الأَقْدَارَ بِسَكِينَةٍ. فَكُلُّ ظَنٍّ جَاهِلِيٍّ مَآلُهُ القَلَقُ وَالفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَلِيمِ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 155 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَغَرَاتُ الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ فِي جِدَارِ النَّفْسِ هِيَ المَنَافِذُ الخَفِيَّةُ الَّتِي يَتَسَلَّلُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ لِيُزِلَّ الأَقْدَامَ فِي سَاعَاتِ الحَسْمِ وَالِامْتِحَانِ. فَمَا سَقَطَتْ قَدَمٌ فِي مَيْدَانِ الثَّبَاتِ إِلَّا بِسَبَبِ هَفْوَةٍ مَضَتْ وَمَعْصِيَةٍ كُسِبَتْ فَأَضْعَفَتْ حِصْنَ اليَقِينِ، غَيْرَ أَنَّ يَدَ الغَفُورِ الحَلِيمِ تَمْتَدُّ بِالعَفْوِ وَالسَّتْرِ لِتَنْتَشِلَ المُنْكَسِرِينَ مِنْ وَحْشَةِ الخِزْيِ وَتُعِيدَ إِلَيْهِمْ أَمَلَ الصُّعُودِ. فَمَنْ سَدَّ مَنَافِذَ الشَّيْطَانِ بِالطَّاعَةِ وَتَدَارَكَ زَلَّتَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَجَدَ رَبَّهُ غَفُوراً حَلِيماً، بَيْنَمَا يَتَمَادَى الغَافِلُ فِي تَرَاكُمِ الذُّنُوبِ حَتَّى تُسْلِمَهُ إِلَى الخِذْلَانِ يَوْمَ اللِّقَاءِ.

الصَّدَى

ثَغْرَةُ الكَسْبِ وَغَيْثُ الغَفُورِ الحَلِيمِ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

بَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ تَكْشِفُ سِرَّ الِانْزِلَاقِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، فَتُبَيِّنُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَغِلُّ بَعْضَ الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ لِيُزِلَّ الأَقْدَامَ، ثُمَّ تَعْمُرُ السَّمَاءُ التَّائِبِينَ بِعَفْوِ الغَفُورِ الحَلِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الذَّنْبَ الصَّغِيرَ يَمُرُّ دُونَ أَثَرٍ عَلَى ثَبَاتِي فِي المَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقْظَةُ تَنْقِيَةِ الكَسْبِ لِسَدِّ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ مَعَ الطَّمَعِ فِي حِلْمِ الخَالِقِ وَمَغْفِرَتِهِ. وَكَمْ تَعَثَّرَتْ أَقْدَامٌ قَدِيماً فِي سَاعَةِ الِامْتِحَانِ بِسَبَبِ هَفَوَاتٍ خَفِيَّةٍ لَمْ تُغْسَلْ بِالتَّوْبَةِ، فَأَدْرَكَهَا حِلْمُ السَّمَاءِ وَغُفْرَانُهَا! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الَّتِي أُهْمِلَ فِيهَا شَقٌّ صَغِيرٌ فِي أَسْفَلِهَا أَثْنَاءَ الإِبْحَارِ فِي المِيَاهِ الهَادِئَةِ، كَيْفَ تَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ الرِّيَاحُ وَالأَمْوَاجُ عِنْدَ هُبُوبِ العَاصِفَةِ فَتُغْرِقُهَا، لَوْلَا أَنَّ رُبَّانَ المِينَاءِ الحَلِيمَ يَمُدُّ لَهَا حِبَالَ الإِنْقَاذِ وَيَعْفُو عَنْ تَقْصِيرِ مَلَّاحِيهَا لِيُعِيدُوا بِنَاءَهَا بِإِتْقَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَأْفَةَ اللهِ الغَفُورِ الحَلِيمِ الَّذِي يَكْشِفُ لِعِبَادِهِ سَبَبَ الزَّلَلِ وَيَغْمُرُهُمْ بِعَفْوِهِ الكَرِيمِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ يَقْظَتِي إِلَى تَطْهِيرٍ دَائِمٍ لِلْكَسْبِ وَالسُّلُوكِ مَعَ حُسْنِ الرَّجَاءِ فِي الغَفُورِ الحَلِيمِ. فَكُلُّ ذَنْبٍ يُتْرَكُ بِلَا تَوْبَةٍ مَآلُهُ الِاسْتِزْلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَفُورِ الحَلِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 156 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

جَمْرُ الحَسْرَةِ يَأْكُلُ صُدُورَ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَرْبِطُونَ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ بِالأَسْفَارِ وَالمَيَادِينِ، فَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ القُعُودَ فِي الدِّيَارِ يَعْصِمُ مِنَ المَنِيَّةِ وَيُطِيلُ الأَعْمَارَ. فَمَقَالِيدُ الإِحْيَاءِ وَالإِمَاتَةِ بِيَدِ القَيُّومِ وَحْدَهُ تَحْتَ نَظَرِ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ؛ فَمَنْ أَيْقَنَ بِذٰلِكَ بَرَدَ قَلْبُهُ بِالتَّسْلِيمِ وَسَلِمَ مِنْ نِيرَانِ «لَوْ» الَّتِي تُمَزِّقُ أَرْوَاحَ المُتَشَكِّكِينَ وَتَجْعَلُ حَيَاتَهُمْ سِجْناً مِنَ النَّدَمِ وَالأَوْهَامِ. فَمَنْ فَوَّضَ أَمْرَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ لِمُحْيِي العِظَامِ عَاشَ عَزِيزاً آمِناً، بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ المُنْكِرُ لِلْقَدَرِ بِحَسْرَةِ القَلْبِ دُونَ أَنْ يَرُدَّ قَضَاءً أَوْ يُؤَخِّرَ أَجَلاً.

الصَّدَى

نَارُ الحَسْرَةِ وَقَبْضَةُ المُحْيِي المُمِيتِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

حِكْمَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَطْرُدُ وَسَاوِسَ الحَسْرَةِ عَنْ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ، فَتُحَذِّرُهُمْ مِنْ مَنْطِقِ الجَاحِدِينَ الَّذِينَ يَتَحَسَّرُونَ عَلَى الرَّاحِلِينَ وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ البَقَاءَ عِنْدَهُمْ كَانَ سَيَمْنَعُ المَوْتَ، بَيْنَمَا الخَالِقُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ بِمَا نَعْمَلُ بَصِيرٌ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاعْتِرَاضِ عَلَى أَسْبَابِ الرَّحِيلِ أَوْ لَوْمِ النَّفْسِ عَلَى أَقْدَارِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ الحَيَاةَ وَالمَوْتَ بِيَدِ البَصِيرِ الحَكِيمِ. وَكَمْ عَذَّبَتْ كَلِمَةُ «لَوْ» قَدِيماً قُلُوباً غَفَلَتْ عَنْ قَدَرِ الخَالِقِ فَجَعَلَهَا اللهُ حَسْرَةً مُقِيمَةً فِي صُدُورِهِمْ! أَتَأَمَّلُ السِّرَاجَ الَّذِي يَحْمِلُهُ المسَافِرُ فِي طَرِيقِهِ فَيَنْطَفِئُ عِنْدَ نَفَادِ زَيْتِهِ فِي نُقْطَةٍ مَعْلُومَةٍ مِنَ الدَّرْبِ، فَيَظُنُّ الجَاهِلُ أَنَّ السِّرَاجَ لَوْ بَقِيَ فِي البَيْتِ لَمَا انْطَفَأَ، غَافِلاً عَنْ أَنَّ الزَّيْتَ المُقْدُورَ لَهُ كَانَ سَيَنْفَدُ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ وَلَوْ وُضِعَ فِي أَحْصَنِ مَكَانٍ. فَمَا أَعْظَمَ رَحْمَةَ اللهِ البَصِيرِ بِالْعِبَادِ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيَشْفِي صُدُورَ المُؤْمِنِينَ مِنْ حَسَرَاتِ الجَاهِلِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْأَقْدَارِ إِلَى رِضاً وَتَسْلِيمٍ

يَطْرُدُ الحَسْرَةَ وَيَثِقُ بِحِكْمَةِ المحْيِي المِمِيتِ. فَكُلُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى القَدَرِ مَآلُهُ الحَسْرَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 157 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

كِفَّةُ الخُلُودِ تَرْجَحُ بِمَا لَا يُقَاسُ فَوْقَ رُكَامِ الطِّينِ وَبَرِيقِ الدَّنَانِيرِ، فَتُبَدِّلُ مَفْهُومَ الرِّبْحِ وَالخَسَارَةِ فِي مَوَازِينِ العُقُولِ البَصِيرَةِ. فَالرَّحِيلُ فِي سَبِيلِ السَّمَاءِ قَتْلاً أَوْ مَوْتاً لَيْسَ فَقْداً لِلْحَيَاةِ وَلَا حِرْمَاناً مِنَ المَتَاعِ، بَلْ هُوَ عُبُورٌ مَيْمُونٌ إِلَى مَغْفِرَةٍ تَمْحُو الزَّلَّاتِ وَرَحْمَةٍ تَغْمُرُ الرُّوحَ بِنَعِيمٍ يَفُوقُ كُلَّ مَا يَجْمَعُهُ المُفْتُونُونَ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ. فَمَنْ آثَرَ مَغْفِرَةَ رَبِّهِ وَرَحْمَتَهُ عَلَى مَكْنُوزَاتِ الأَرْضِ رَبِحَ الصَّفْقَةَ الكُبْرَى، بَيْنَمَا يَفْنَى جَمْعُ الغَافِلِينَ وَيَبْقَوْنَ أَسْرَى التُّرَابِ وَالفَنَاءِ.

الصَّدَى

مِيزَانُ المِغْفِرَةِ وَتَفَاهَةُ المِكْنُوزَاتِ

صَدَى ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

مِيزَانٌ ذَهَبِيٌّ يَكْشِفُ القِيمَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِلْوُجُودِ، فَيُعْلِنُ أَنَّ مَغْفِرَةَ الخَالِقِ وَرَحْمَتَهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُهُ البَشَرُ مِنْ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْبِهَارِ بِثَرَوَاتِ الدُّنْيَا أَوِ الحُزْنِ عَلَى فَوَاتِهَا عِنْدَ البَذْلِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ عَطَاءَ السَّمَاءِ لَا يُقَارَنُ بِحُطَامِ الأَرْضِ. وَكَمْ شَقِيَ الجَامِعُونَ قَدِيماً فِي تَكْدِيسِ المَالِ الَّذِي يَتْرُكُونَهُ خَلْفَهُمْ عِنْدَ المَوْتِ، بَيْنَمَا يَخْرُجُ الصَّادِقُونَ بِمَغْفِرَةِ الرَّبِّ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي تَصْحَبُهُمْ إِلَى الأَبَدِ! أَتَأَمَّلُ الغَوَّاصَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَعْمَاقِ البَحْرِ حَامِلاً جَوْهَرَةً نَادِرَةً تَكْفِيهِ وَتُسْعِدُهُ مَدَى الحَيَاةِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَنْ يَجْمَعُونَ الأَصْدَافَ الفَارِغَةَ وَالحَصَى المُلَوَّنَ عَلَى الشَّاطِئِ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ جَوْهَرَتَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُبَشِّرُ السَّائِرِينَ فِي سَبِيلِهِ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي تَفُوقُ كُلَّ مَتَاعِ الدُّنْيَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ

هِمَّتِي إِلَى طَلَبِ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ فَوْقَ كُلِّ مَكْسَبٍ فَانٍ. فَكُلُّ مَا يَجْمَعُهُ الخَلْقُ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 158 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَوَّابَةُ الرَّحِيلِ مَهْمَا تَعَدَّدَتْ مَسَالِكُهَا بَيْنَ فِرَاشِ المَوْتِ أَوْ سَاحَةِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهَا تَفْضِي بِالسَّائِرِينَ جَمِيعاً إِلَى سَاحَةِ الحَشْرِ الكُبْرَى بَيْنَ يَدَيِ الدَّيَّانِ. فَلَا مَفَرَّ لِهَارِبٍ وَلَا ضَيَاعَ لِمَبْذُولٍ؛ إِذْ تَجْتَمِعُ الخَلَائِقُ كُلُّهَا عِنْدَ مَلِكِ المُلْكِ لِيُوفِيَ كُلَّ نَفْسٍ مَا قَدَّمَتْ وَيَكْشِفَ حَقِيقَةَ السَّرَائِرِ وَالأَعْمَالِ. فَمَنْ أَعَدَّ لِسَاعَةِ الحَشْرِ صَحِيفَةً نَقِيَّةً اسْتَبْشَرَ بِاللِّقَاءِ، بَيْنَمَا يَقِفُ المُتَهَرِّبُ مِنَ البَذْلِ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ مَنْ فَرَّ مِنْ طَاعَتِهِ وَيَحْصُدُ الخِذْلَانَ.

الصَّدَى

وَحْدَةُ المَصِيرِ وَسَاحَةُ الحَشْرِ

صَدَى ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾

حَقِيقَةٌ قَاطِعَةٌ تَطْوِي كُلَّ المَسَافَاتِ وَتُبَدِّدُ كُلَّ المَعَاذِيرِ، فَسَوَاءٌ انْقَضَى الأَجَلُ بِالمَوْتِ أَوْ بِالقَتْلِ، فَإِنَّ المَصِيرَ الوَاحِدَ هُوَ الحَشْرُ إِلَى الخَالِقِ الجَلِيلِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ البُعْدَ عَنْ مَوَاطِنِ البَذْلِ يُنْجِي مِنَ الوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّيَّانِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ الِاسْتِعْدَادِ لِسَاعَةِ الحَشْرِ الَّتِي لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا أَحَدٌ. وَكَمْ حَاوَلَ الجُبَنَاءُ قَدِيماً أَنْ يَشْتَرُوا البَقَاءَ بِالتَّخَاذُلِ، فَمَاتُوا كَمَا يَمُوتُ الشُّجْعَانُ ثُمَّ حُشِرَ الجَمِيعُ إِلَى مَلِكٍ وَاحِدٍ لِيُحَاسَبَ كُلٌّ عَلَى اخْتِيَارِهِ! أَتَأَمَّلُ الجَدَاوِلَ وَالأَنْهَارَ المُتَعَدِّدَةَ الَّتِي تَسِيرُ فِي الأَرْضِ فِي مَسَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، بَعْضُهَا يَشُقُّ الصُّخُورَ بِقُوَّةٍ وَنَقَاءٍ، وَبَعْضُهَا يَتَلَوَّى فِي الوِهَادِ الرَّاكِدَةِ، كَيْفَ تَصُبُّ جَمِيعُهَا فِي نِهَايَةِ المِطَافِ فِي مُحِيطٍ وَاحِدٍ كَبِيرٍ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ قَطْرَةُ مَاءٍ وَاحِدَةٌ. فَمَا أَعْظَمَ تَذْكِيرَ اللهِ لِلْعِبَادِ بِأَنَّهُمْ مَهْمَا مَاتُوا أَوْ قُتِلُوا فَإِلَيْهِ يُحْشَرُونَ لِيَنَالَ كُلٌّ

جَزَاءَهُ العَادِلَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ خُطُوَاتِي إِلَى اسْتِقَامَةٍ شُجَاعَةٍ تَسْتَعِدُّ لِلْحَشْرِ بِأَشْرَفِ الأَعْمَالِ. فَكُلُّ طَرِيقٍ فِي الحَيَاةِ مَآلُهُ الحَشْرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ الَّذِي إِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمآبُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 159 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

نَسَائِمُ الرَّحْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ تُلَيِّنُ الجَنَانَ فَتَجْعَلُهُ مَغْنَاطِيساً يَجْذِبُ الأَرْوَاحَ المِكْلُومَةَ وَيُؤَلِّفُ القُلُوبَ حَوْلَ مِشْكَاةِ الهُدَى؛ إِذْ تَنْفِرُ الفِطَرُ مِنَ القَسْوَةِ وَالفَظَاظَةِ كَمَا تَنْفِرُ الطُّيُورُ مِنْ صَخَبِ العَوَاصِفِ. فَدُسْتُورُ القِيَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَقُومُ عَلَى العَفْوِ الَّذِي يَمْحُو الزَّلَّاتِ، وَالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي يَطْلُبُ التَّزْكِيَةَ لِلْأَتْبَاعِ، وَالمشَاوَرَةِ الَّتِي تَسْتَخْرِجُ نُورَ العُقُولِ، ثُمَّ العَزِيمَةِ المَاضِيَةِ الَّتِي تَتَوَكَّلُ عَلَى المَلِكِ القَدِيرِ لِتَنَالَ وِسَامَ المَحَبَّةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ. فَمَنْ أَلَانَ جَانِبَهُ بِالرَّحْمَةِ وَشَاوَرَ وَتَوَكَّلَ اجْتَمَعَتْ حَوْلَهُ القُلُوبُ وَأَحَبَّهُ الرَّحْمٰنُ، بَيْنَمَا يَبْقَى الفَظُّ الغَلِيظُ وَحِيداً فِي عُزْلَةِ جَفَائِهِ بَعْدَ أَنْ يَنْفَضَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ.

الصَّدَى

رَحْمَةُ اللِّينِ وَدُسْتُورُ الشُّورَى وَالتَّوَكُّلِ

صَدَى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ لَوْحَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَرْسُمُ مَعَالِمَ القِيَادَةِ وَالأَخْلَاقِ الرَّفِيعَةِ؛ رَحْمَةٌ تُلَيِّنُ القَلْبَ، وَعَفْوٌ يَغْسِلُ الأَخْطَاءَ، وَاسْتِغْفَارٌ يَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَشُورَى تَحْتَرِمُ العُقُولَ، وَتَوَكُّلٌ يَسْتَجْلِبُ مَحَبَّةَ الخَالِقِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الحَزْمَ يَعْنِي الغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ عَلَى النَّاسِ عِنْدَ التَّقْصِيرِ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ اللِّينَ النَّابِعَ مِنْ رَحْمَةِ السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ القُلُوبَ وَيَبْنِي الثِّقَةَ. وَكَمْ فَرَّقَتِ الفَظَاظَةُ قَدِيماً صُفُوفاً كَانَتْ مُجْتَمِعَةً، حَتَّى أَرْسَى الوَحْيُ هٰذَا المَنْهَجَ الرَّحِيمَ الَّذِي يُتَوَّجُ بِالتَّوَكُّلِ وَمَحَبَّةِ اللهِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ! أَتَأَمَّلُ النَّسِيمَ

العَلِيلَ الَّذِي يَمُرُّ بِرِفْقٍ عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ المُتَعَبَةِ بَعْدَ العَاصِفَةِ، كَيْفَ يُدَاعِبُ أَوْرَاقَهَا فَتَمِيلُ إِلَيْهِ بِحُبٍّ وَسَلَامٍ وَتَجْتَمِعُ حَوْلَهُ الطُّيُورُ مُغَرِّدَةً، بَيْنَمَا تَكْسِرُ الرِّيحُ الهَوْجَاءُ الغَلِيظَةُ الأَغْصَانَ وَتُبَدِّدُ الطُّيُورَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ لِنَبِيِّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يَجْعَلُ الرَّحْمَةَ وَالعَفْوَ وَالشُّورَى وَالتَّوَكُّلَ أَسَاسَ الاجْتِمَاعِ وَمِفْتَاحَ مَحَبَّتِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُعَامَلَتِي مَعَ النَّاسِ إِلَى لِينٍ رَحِيمٍ وَعَفْوٍ جَمِيلٍ وَتَوَكُّلٍ صَادِقٍ يَطْلُبُ مَحَبَّةَ الرَّحْمٰنِ. فَكُلُّ فَظَاظَةٍ تَخْلُو مِنَ الرَّحْمَةِ مَآلُهَا التَّفَرُّقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي تَعْمُرُ المُتَوَكِّلِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 160 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِيزَانُ الغَلَبَةِ وَالخِذْلَانِ مُعَلَّقٌ بِعَرْشِ السَّمَاءِ لَا بِحِسَابَاتِ الأَرْضِ وَمَوَازِينِ البَشَرِ؛ فَمَنْ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ التَّأْيِيدِ الإِلٰهِيِّ انْكَسَرَتْ أَمَامَهُ كُلُّ قُوَى الطُّغْيَانِ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَنْ فِي الأَقْطَارِ، وَمَنْ أَدَارَتِ السَّمَاءُ عَنْهُ نُصْرَتَهَا لِعِصْيَانِهِ وَغُرُورِهِ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ حَلِيفٌ وَلَا جَيْشٌ جَرَّارٌ. فَالنَّجَاةُ كُلُّ النَّجَاةِ فِي إِفْرَادِ المَلِكِ الحَقِّ بِالتَّوَكُّلِ وَالِاعْتِصَامِ لِاسْتِجْلَابِ مَدَدِهِ الَّذِي لَا يُقْهَرُ. فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى مَوْلَاهُ وَاسْتَنْصَرَ بِهِ فَلَا غَالِبَ لَهُ فِي الوُجُودِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المَخْذُولُ المُعْرِضُ عَنْ رَبِّهِ عَاجِزاً مَكْسُوراً لَا يَجِدُ لَهُ نَصِيراً مِنْ دُونِهِ.

الصَّدَى

قَانُونُ النُّصْرَةِ وَمَلَاذُ التَّوَكُّلِ

صَدَى ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قَاعِدَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَخْتَصِرُ مَوَازِينَ القُوَّةِ كُلَّهَا؛ فَنَصْرُ الخَالِقِ يَجْعَلُ العَبْدَ عَزِيزاً لَا يُغْلَبُ، وَخِذْلَانُهُ يَتْرُكُ المَخْلُوقَ ضَعِيفاً لَا يَنْتَصِرُ، فَلَا مَلَاذَ لِلْقُلُوبِ إِلَّا التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ

الِاعْتِمَادِ عَلَى سَنَدِ البَشَرِ أَوِ الخَوْفِ مِنْ تَحَالُفَاتِ الأَعْدَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ نُصْرَةَ السَّمَاءِ هِيَ الحِصْنُ الَّذِي لَا يُقْهَرُ. وَكَمْ تَاهَتْ أَبْصَارٌ قَدِيماً فِي حِسَابِ القُوَى المادِّيَّةِ فَنَسِيَتْ أَنَّ بِيَدِ الخَالِقِ مَفَاتِيحَ النَّصْرِ وَالخِذْلَانِ، حَتَّى أَيْقَظَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ لِتُرْجِعَ التَّوَكُّلَ كُلَّهُ إِلَى اللهِ! أَتَأَمَّلُ السَّفِينَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي تَسِيرُ فِي عُرْضِ المحِيطِ المتَلَاطِمِ وَقَدْ هَبَّتْ لَهَا رِيحٌ مُسَخَّرَةٌ مِنْ عِنْدِ البَارِئِ تَدْفَعُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَانٍ نَحْوَ الميناءِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ كُلُّ أَمْوَاجِ البَحْرِ أَنْ تَغْلِبَهَا، بَيْنَمَا تَقِفُ السَّفِينَةُ العِمْلَاقَةُ عَاجِزَةً مَخْذُولَةً تَتَقَاذَفُهَا الصُّخُورُ حِينَ تَنْقَطِعُ عَنْهَا رِيحُ السَّمَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ قُدْرَةَ اللهِ الَّذِي إِنْ يَنْصُرْ عِبَادَهُ فَلَا غَالِبَ لَهُمْ وَإِنْ يَخْذُلْهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي إِلَى تَوَكُّلٍ خَالِصٍ يَعْتَصِمُ بِالخَالِقِ وَيَرْجُو نُصْرَتَهُ. فَكُلُّ قُوَّةٍ يَخْذُلُهَا اللهُ مَآلُهَا الِانْكِسَارُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ النَّاصِرِ الَّذِي يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ المؤْمِنُونَ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٦١–١٧٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 161 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

مِشْكَاةُ النُّبُوَّةِ مُنَزَّهَةٌ عَنْ دَنَسِ الخِيَانَةِ وَأَدْرَانِ الطَّمَعِ المكْتُومِ، فَلَا يَتَسَرَّبُ إِلَى أَثْوَابِ الطُّهْرِ غُبَارُ الغُلُولِ وَلَا تَمْتَدُّ يَدُ الأَمَانَةِ إِلَى حَقٍّ مَسْلُوبٍ. فَمَا اخْتَلَسَتْهُ الأَيْدِي فِي ظُلْمَةِ الخَفَاءِ سَيَتَجَسَّدُ عَاراً وَثِقْلاً يَحْمِلُهُ الخَائِنُ عَلَى ظَهْرِهِ يَوْمَ تُكْشَفُ السَّرَائِرُ وَتُوزَنُ المقَاصِدُ؛ حَيْثُ يُوَفَّى كُلُّ سَاعٍ ثَمَرَةَ كَسْبِهِ الحَقِيقِيِّ فِي مَحْكَمَةِ العَدْلِ الَّتِي لَا تَحِيفُ وَلَا تَظْلِمُ. فَمَنْ طَهَّرَ كَفَّهُ مِنَ الغُلُولِ وَأَدَّى الأَمَانَةَ لِأَهْلِهَا مَشَى خَفِيفَ الظَّهْرِ يَوْمَ العَرْضِ، بَيْنَمَا يَنُوءُ الخَائِنُ بِثِقْلِ مَا سَرَقَ أَمَامَ العَالَمِينَ.

الصَّدَى

تَنْزِيهُ الأَمَانَةِ وَثِقْلُ الغُلُولِ

صَدَى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

نُورٌ نَقِيٌّ يُنَزِّهُ مَقَامَ النُّبُوَّةِ عَنْ كُلِّ خِيَانَةٍ وَغُلُولٍ، وَيَرْسُمُ مَشْهَداً مَهِيبًا لِيَوْمِ القِيَامَةِ حِينَ يَأْتِي كُلُّ خَائِنٍ حَامِلاً عَلَى عَاتِقِهِ مَا سَرَقَهُ فِي الخَفَاءِ، لِتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ بِعَدْلٍ لَا يَظْلِمُ أَحَداً. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ الأَمْوَالَ المخْتَلَسَةَ أَوِ الحُقُوقَ المخْفِيَّةَ تُطْوَى فِي سِجِلِّ النِّسْيَانِ، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ أُخِذَتْ بِغَيْرِ حَقٍّ سَتُفْضَحُ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ. وَكَمْ ظَنَّ الخَائِنُونَ قَدِيماً أَنَّ سِتَارَ اللَّيْلِ وَغَفْلَةَ الرُّقَبَاءِ يَحْمِيَانِ مَا غَلُّوهُ مِنَ المالِ العَامِّ أَوْ حُقُوقِ العِبَادِ، حَتَّى هَزَّهُمْ هٰذَا الوَعِيدُ الصَّارِمُ! أَتَأَمَّلُ اللِّصَّ الَّذِي يَسْرِقُ صَخْرَةً ثَقِيلَةً مِنَ الحَدِيدِ المصْهُورِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَيُخْفِيهَا تَحْتَ ثِيَابِهِ ظَانّاً أَنَّهُ قَدْ رَبِحَ كَنْزاً، فَمَا إِنْ يُشْرِقَ الصَّبَاحُ حَتَّى تُحْرِقَ تِلْكَ الصَّخْرَةُ جَسَدَهُ وَتَفْضَحَ سَرِقَتَهُ أَمَامَ النَّاسِ فَلَا يَسْتَطِيعُ الفِرَارَ بِهَا وَلَا التَّخَلُّصَ مِنْ ثِقْلِهَا. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُنَزِّهُ أَنْبِيَاءَهُ عَنِ الغُلُولِ وَيَجْعَلُ كُلَّ خَائِنٍ يَأْتِي بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيُوَفَّى كَسْبَهُ بِالقِسْطِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي إِلَى وَرَعٍ شَدِيدٍ يَصُونُ الحُقُوقَ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ. فَكُلُّ غُلُولٍ يُخْفَى فِي الدُّنْيَا مَآلُهُ الفَضِيحَةُ فِي الآخِرَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَادِلِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 162 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْعٌ صَافٍ يَسِيرُ فِي رِيَاضِ الرِّضْوَانِ فَيُزْهِرُ بِالطُّهْرِ وَالنَّمَاءِ، وَسَيْلٌ مُعَكَّرٌ يَنْحَدِرُ فِي أَوْدِيَةِ السَّخَطِ فَيَصُبُّ فِي أُتُونِ الهَلَاكِ وَالفَنَاءِ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي مِيزَانِ العُقُولِ وَمَقَايِيسِ السَّمَاءِ مَنْ جَعَلَ رِضَا الرَّبِّ قِبْلَةً لِخُطَاهُ، وَمَنْ عَادَ مُثْقَلاً بِغَضَبِ الدَّيَّانِ لِيَسْكُنَ جَحِيماً هِيَ بِئْسَ المآلُ وَالمصِيرُ؟! فَمَنْ جَعَلَ رِضْوَانَ مَوْلَاهُ غَايَتَهُ الكُبْرَى ارْتَقَى إِلَى جِنَانِ القُرْبِ وَالأَمَانِ، بَيْنَمَا يَهْوِي مَنْ آثَرَ سَخَطَ الخَالِقِ إِلَى مَصِيرٍ بَئِيسٍ لَا مَخْرَجَ مِنْهُ وَلَا مُجِيرَ.

الصَّدَى

مِيزَانُ الرِّضْوَانِ وَهَاوِيَةُ السَّخَطِ

صَدَى ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

فَارِقٌ عَظِيمٌ بَيْنَ رُوحٍ تَسِيرُ خَلْفَ رِضْوَانِ الخَالِقِ فَتَنَالُ السَّكِينَةَ وَالجَنَّةَ، وَرُوحٍ تَعُودُ مُثْقَلَةً بِسَخَطِ الرَّحْمٰنِ فَتَسْكُنُ جَهَنَّمَ حَيْثُ بِئْسَ المَصِيرُ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّسْوِيَةِ بَيْنَ أَهْلِ الأَمَانَةِ وَأَهْلِ الخِيَانَةِ، وَتَسْتَقِرُّ بُوصَلَةُ القَلْبِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ رِضْوَانِ السَّمَاءِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. وَكَمْ انْحَرَفَتْ خُطًى قَدِيماً عَنْ مَرْضَاةِ الرَّبِّ طَلَباً لِحُظُوظٍ دُنْيَوِيَّةٍ عَابِرَةٍ، فَبَاءَتْ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوًى بَئِيسٍ! أَتَأَمَّلُ طَرِيقَيْنِ يَفْتَرِقَانِ عِنْدَ مَطْلَعِ الفَجْرِ؛ طَرِيقٌ صَاعِدٌ نَحْوَ قِمَّةٍ خَضْرَاءَ تَغْمُرُهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الدَّافِئَةِ وَتَنْبُعُ فِيهَا الأَنْهَارُ العَذْبَةُ، وَطَرِيقٌ مُنْحَدِرٌ نَحْوَ وَادٍ سَحِيقٍ مَلِيءٍ بِالدُّخَانِ وَالحِمَمِ المُلْتَهِبَةِ، فَهَلْ يَسْتَوِي السَّائِرُ فِي النُّورِ وَالأَمَانِ مَعَ الهَاوِي فِي الظُّلْمَةِ وَالنِّيرَانِ؟! فَمَا أَعْظَمَ حِكْمَةَ اللهِ الَّذِي يُقِيمُ الفَرْقَ البَيِّنَ بَيْنَ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ وَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ وَسَكَنَ جَهَنَّمَ بِئْسَ المَصِيرُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اختِيَارَاتِي كُلُّهَا إِلَى تَحَرٍّ دَائِمٍ لِمَا يُرْضِي الخَالِقَ وَيُبْعِدُ عَنْ سَخَطِهِ. فَكُلُّ سَخَطٍ مِنَ السَّمَاءِ مَآلُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَرِضْوَانِهِ الأَكْبَرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 163 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سُلَّمُ المَقَامَاتِ يَرْتَقِي بِأَهْلِ الإِيمَانِ إِلَى أَعَالِي الجِنَانِ بِقَدْرِ إِخْلَاصِهِمْ وَصِدْقِ سَعْيِهِمْ، وَدَرَكَاتُ الهَوَانِ تَهْوِي بِأَهْلِ الطُّغْيَانِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ بِقَدْرِ جُحُودِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ. فَلَيْسَ الخَلْقُ فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ المَلِكِ الحَقِّ؛ إِذْ يُبْصِرُ الخَبِيرُ كُلَّ حَرَكَةٍ وَنِيَّةٍ، فَيَضَعُ كُلَّ نَفْسٍ فِي الدَّرَجَةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّهَا بِعَدْلٍ دَقِيقٍ لَا يُخْطِئُ المِقْدَارَ وَلَا يَظْلِمُ العَامِلِينَ. فَمَنْ ضَاعَفَ جُهْدَهُ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ فِي العِلِّيِّينَ، بَيْنَمَا يَنْحَدِرُ المُفَرِّطُ المُسِيءُ إِلَى دَرَكَاتِ الخُسْرَانِ تَحْتَ نَظَرِ البَصِيرِ بِالأَعْمَالِ.

الصَّدَى

سُلَّمُ الدَّرَجَاتِ وَرَقَابَةُ البَصِيرِ

صَدَى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَةٌ تَرْتَفِعُ بِالصَّادِقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَتَهْبِطُ بِالمعَانِدِينَ فِي دَرَكَاتِ الجَحِيمِ، تَحْتَ عَيْنِ البَصِيرِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ أَعْمَالِ العِبَادِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الرِّضَا بِأَدْنَى القَلِيلِ مِنَ الطَّاعَةِ أَوِ التَّسَاهُلِ فِي صَغَائِرِ الأَعْمَالِ، وَتَسْتَقِرُّ هِمَّةُ الِارْتِقَاءِ فِي الدَّرَجَاتِ العُلَا بِإِتْقَانِ العَمَلِ وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ. وَكَمْ تَشَابَهَتِ الأَعْمَالُ قَدِيماً فِي أَعْيُنِ النَّاسِ فَرَفَعَ الخَالِقُ بَعْضَهَا إِلَى أَعْلَى العِلِّيِّينَ بِصِدْقِ صَاحِبِهَا، وَأَسْقَطَ بَعْضَهَا لِفَسَادِ قَصْدِهِ! أَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المتَلَأْلِئَةَ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ كَيْفَ تَتَفَاوَتُ فِي ارْتِفَاعِهَا وَضِيَائِهَا؛ فَمِنْهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يَسْبَحُ فِي الأُفُقِ الأَعْلَى وَيَهْدِي السَّارِينَ بِنُورِهِ السَّاطِعِ، وَمِنْهَا نَجْمٌ خَافِتٌ يَقْبَعُ فِي أَدْنَى السَّمَاءِ، وَكُلٌّ مِنْهَا مَرْصُودٌ فِي مَكَانِهِ بِحِكْمَةِ الخَالِقِ البَصِيرِ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ البَصِيرِ بِمَا يَعْمَلُ العِبَادُ حِينَ يَجْعَلُهُمْ دَرَجَاتٍ عِنْدَهُ بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي إِلَى سَعْيٍ مُتْقَنٍ يَتَطَلَّعُ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ عِنْدَ البَصِيرِ. فَكُلُّ عَمَلٍ يُرْصَدُ بِدِقَّةٍ وَلَا يَضِيعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ البَصِيرِ بِالْعِبَادِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 164 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

المَوْعِظَةُ

غَيْثُ المِنَّةِ الكُبْرَى يَهْطِلُ عَلَى القُلُوبِ الجَدْبَاءِ حِينَ يَبْعَثُ السَّمَاءُ فِيهَا رَسُولاً مِنْ جِنْسِهَا يَشْعُرُ بِآلَامِهَا وَيُخَاطِبُ فِطْرَتَهَا بِلِسَانٍ مُبِينٍ. فَتِلَاوَةُ الآيَاتِ تَفْتَحُ نَوَافِذَ النُّورِ عَلَى العُقُولِ، وَالتَّزْكِيَةُ تَغْسِلُ الأَرْوَاحَ مِنْ أَدْرَانِ الجَاهِلِيَّةِ وَالرَّذِيلَةِ، وَتَعْلِيمُ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَبْنِي صَرْحَ المَعْرِفَةِ الرَّاشِدَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتِ البَشَرِيَّةُ تَتَخَبَّطُ فِي ظُلُمَاتِ التِّيهِ وَالضَّلَالِ. فَمَنْ قَبِلَ هٰذِهِ المِنَّةَ وَانْقَادَ لِتَزْكِيَةِ الوَحْيِ وَحِكْمَتِهِ خَرَجَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، بَيْنَمَا يَبْقَى المُعْرِضُ غَارِقاً فِي ضَلَالِهِ القَدِيمِ وَيَجْحَدُ أَعْظَمَ نِعَمِ الدَّيَّانِ.

الصَّدَى

المِنَّةُ العُظْمَى وَمَدْرَسَةُ التَّزْكِيَةِ وَالحِكْمَةِ

صَدَى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

نِعْمَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تَعْمُرُ الوُجُودَ بِالنُّورِ وَالرَّحْمَةِ، حِينَ يَبْعَثُ الخَالِقُ فِي المُؤْمِنِينَ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمُ الآيَاتِ وَيُزَكِّي أَرْوَاحَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ بَعْدَ طُولِ الضَّلَالِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِغْنَاءِ بِالعَقْلِ المجَرَّدِ عَنْ مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الشُّكْرِ لِلْخَالِقِ عَلَى مِنَّةِ البَعْثَةِ الَّتِي أَنْقَذَتِ البَشَرِيَّةَ مِنَ التِّيهِ. وَكَمْ تَخَبَّطَتِ العُقُولُ قَدِيماً فِي ظُلُمَاتِ الأَوْهَامِ وَالخُرَافَاتِ قَبْلَ أَنْ تَتَنَزَّلَ عَلَيْهَا آيَاتُ التَّزْكِيَةِ وَالحِكْمَةِ فَتُعِيدَ صِيَاغَةَ الإِنْسَانِ! أَتَأَمَّلُ الأَرْضَ القَاحِلَةَ المتَشَقِّقَةَ الَّتِي غَطَّاهَا الشَّوْكُ وَالظَّلَامُ فِي لَيْلٍ طَوِيلٍ، كَيْفَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا البَارِئُ شَمْساً مُشْرِقَةً وَغَيْثاً طَهُوراً فَغَسَلَ أَدْرَانَهَا وَأَنْبَتَ فِيهَا أَزْهَارَ الحِكْمَةِ وَثِمَارَ الفَضِيلَةِ حَتَّى صَارَتْ جَنَّةً تَبْهَجُ النَّاظِرِينَ. فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عَلَى المؤْمِنِينَ بِبَعْثَةِ رَسُولِهِ الَّذِي يَتْلُو الآيَاتِ وَيُزَكِّي النُّفُوسَ وَيُعَلِّمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى تَلْمَذَةٍ صَادِقَةٍ فِي مَدْرَسَةِ الرَّسُولِ تَطْلُبُ التَّزْكِيَةَ وَالحِكْمَةَ. فَكُلُّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ عَنْ هَدْيِ النُّبُوَّةِ مَآلُهُ الضَّلَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِمِنَّةِ اللهِ وَنُورِ رِسَالَتِهِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 165 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِرْآةُ المصَارَحَةِ تَضَعُ النَّفْسَ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ جُذُورِ البَلَاءِ؛ فَمَا نَزَلَتْ مُصِيبَةٌ بِسَاحَةِ القَوْمِ بَعْدَ أَنْ أَذَاقُوا خُصُومَهُمْ ضِعْفَهَا إِلَّا بِثَمَرَةِ مَا جَنَتْهُ أَيْدِيهِمْ مِنْ تَنَازُعٍ وَمُخَالَفَةٍ لِأَمْرِ القِيَادَةِ وَمَيْلٍ نَحْوَ حُطَامِ الدُّنْيَا. فَالِاسْتِغْرَابُ الدَّهْشُ عِنْدَ نُزُولِ القَضَاءِ يَتَبَدَّدُ حِينَ تَعْتَرِفُ الرُّوحُ بِتَقْصِيرِهَا وَتُوقِنُ بِأَنَّ القَدِيرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُجْرِي سُنَنَهُ العَادِلَةَ لِيُوقِظَ الغَافِلِينَ وَيُهَذِّبَ السَّائِرِينَ. فَمَنْ فَتَّشَ فِي

دَاخِلِهِ عَنْ أَسْبَابِ التَّعَثُّرِ وَأَصْلَحَ خَلَلَهُ عَادَ إِلَيْهِ التَّأْيِيدُ، بَيْنَمَا يَظَلُّ المُنْكِرُ لِأَخْطَائِهِ أَسِيراً لِلْحَيْرَةِ وَالتَّسَاؤُلِ بِلَا جَوَابٍ.

الصَّدَى

مِرْآةُ المِصَارَحَةِ وَسُنَّةُ القَدِيرِ

صَدَى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

مُوَاجَهَةٌ صَادِقَةٌ تَقْطَعُ حَيْرَةَ النُّفُوسِ عِنْدَ نُزُولِ المِحَنِ، فَتُذَكِّرُهَا بِأَنَّهَا أَصَابَتْ مِنْ قَبْلُ ضِعْفَ هٰذِهِ المُصِيبَةِ وَتَكْشِفُ أَنَّ سَبَبَ مَا جَرَى هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهَا، تَحْتَ قُدْرَةِ الخَالِقِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ إِلقَاءِ اللُّومِ عَلَى الأَقْدَارِ أَوِ الخُصُومِ عِنْدَ الفَشَلِ، وَتَسْتَقِرُّ شَجَاعَةُ الِاعْتِرَافِ بِالخَطَإِ الذَّاتِيِّ لِإِصْلَاحِ المَسَارِ. وَكَمْ تَسَاءَلَتِ العُقُولُ قَدِيماً بِدَهْشَةٍ عَنْ سِرِّ التَّرَاجُعِ بَعْدَ الظَّفَرِ وَهِيَ تَتَجَاهَلُ مَا اقْتَرَفَتْهُ مِنَ المُخَالَفَةِ، حَتَّى جَاءَ هٰذَا الجَوَابُ القَاطِعُ: «قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ»! أَتَأَمَّلُ البُسْتَانِيَّ الَّذِي حَصَدَ فِي العَامِ المَاضِي مَحْصُولاً وَفِيراً ثُمَّ أَهْمَلَ سُقْيَا أَشْجَارِهِ وَتَرَكَ أَبْوَابَ الحَدِيقَةِ مَفْتُوحَةً لِلْوُحُوشِ، فَلَمَّا ذَبُلَتْ أَغْصَانُهُ وَقَفَ يَصْرُخُ مُتَعَجِّباً مِنْ أَيْنَ جَاءَ هٰذَا الخَرَابُ، فَيُجِيبُهُ صَوْتُ الحِكْمَةِ بِأَنَّ ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَإِهْمَالِهِ. فَمَا أَعْظَمَ تَرْبِيَةَ اللهِ القَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حِينَ يُعَلِّمُ عِبَادَهُ مُحَاسَبَةَ أَنْفُسِهِمْ عِنْدَ المَصَائِبِ لِيَسْتَقِيمُوا عَلَى أَمْرِهِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي عِنْدَ الإِخْفَاقِ إِلَى مُرَاجَعَةٍ صَادِقَةٍ لِذَاتِي تَثِقُ بِقُدْرَةِ الخَالِقِ. فَكُلُّ مَعْصِيَةٍ تَجُرُّ وَبَالَهَا عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ القَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 166 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

قَبْضَةُ الإِذْنِ الإِلٰهِيِّ تُحِيطُ بِكُلِّ مَا يَجْرِي فِي مَيَادِينِ الِامْتِحَانِ، فَلَا يَتَحَرَّكُ سَهْمٌ وَلَا يَسْقُطُ جَرِيحٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِ المَلِكِ الحَكِيمِ؛ لِيَتَمَيَّزَ فِي الوَاقِعِ المَشْهُودِ مَعْدِنُ الإِيمَانِ الصَّادِقِ الَّذِي يَثْبُتُ عِنْدَ الهَزَّةِ،

عَنْ قُشُورِ الِادِّعَاءِ الَّتِي تَتَطَايَرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ. فَبَيْنَ كَسْبِ العَبْدِ الَّذِي جَلَبَ السَّبَبَ وَبَيْنَ إِذْنِ الرَّبِّ الَّذِي أَجْرَى القَدَرَ، تَتَجَلَّى حِكْمَةُ الفَرْزِ وَالتَّمْحِيصِ لِتَظْهَرَ حَقِيقَةُ الصَّادِقِينَ. فَمَنْ سَلَّمَ لِإِذْنِ رَبِّهِ وَثَبَتَ عَلَى يَقِينِهِ نَالَ شَهَادَةَ الإِيمَانِ، بَيْنَمَا يَنْكَشِفُ زَيْفُ المُدَّعِي عِنْدَ انْعِقَادِ غُبَارِ المَيْدَانِ.

الصَّدَى

قَبْضَةُ الإِذْنِ وَفَرْزُ الصَّادِقِينَ

صَدَى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

حِكْمَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَجْمَعُ بَيْنَ العَدْلِ وَالقَدَرِ، فَتُقَرِّرُ أَنَّ مَا أَصَابَ الصَّفَّ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَانَ بِإِذْنِ الخَالِقِ لِيُظْهِرَ حَقِيقَةَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الأَحْدَاثَ تَخْرُجُ عَنْ سَيْطَرَةِ السَّمَاءِ أَوْ تَجْرِي بِغَيْرِ حِكْمَةٍ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُنِي يَقَعُ بِإِذْنِ اللهِ لِيَمْتَحِنَ صِدْقَ إِيمَانِي. وَكَمْ حَارَتِ العُقُولُ قَدِيماً أَمَامَ تَسَلُّطِ البَاطِلِ فِي بَعْضِ الجَوَلَاتِ، حَتَّى أَرَاحَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ ذٰلِكَ بِإِذْنِ اللهِ لِتَمْيِيزِ الخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ! أَتَأَمَّلُ المِغْنَاطِيسَ القَوِيَّ الَّذِي يُمَرَّرُ فَوْقَ كُومَةٍ مِنَ التُّرَابِ المَخْلُوطِ بِبُرَادَةِ الحَدِيدِ النَّقِيَّةِ، كَيْفَ تَنْجَذِبُ إِلَيْهِ ذَرَّاتُ الحَدِيدِ الصَّادِقَةُ وَتَلْتَصِقُ بِهِ بِقُوَّةٍ وَثَبَاتٍ، بَيْنَمَا يَبْقَى التُّرَابُ الهَشُّ فِي الأَسْفَلِ لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَرْتَفِعُ فَيَتَمَيَّزُ المَعْدِنُ الأَصِيلُ عَنِ الغُبَارِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يُجْرِي الأَقْدَارَ بِإِذْنِهِ لِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَيَرْفَعَ دَرَجَاتِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلِابْتِلَاءِ إِلَى تَسْلِيمٍ لِإِذْنِ الخَالِقِ وَثَبَاتٍ يُثْبِتُ صِدْقَ الإِيمَانِ. فَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي الكَوْنِ مَحْكُومٌ بِإِذْنِ السَّمَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ الَّذِي يُكْرِمُ المُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 167 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

سِتَارُ النِّفَاقِ يَتَمَزَّقُ عِنْدَ نِدَاءِ التَّضْحِيَةِ وَالدِّفَاعِ، فَتُدْلِي الأَلْسِنَةُ المُلْتَوِيَةُ بِمَعَاذِيرَ بَارِدَةٍ تَسْتُرُ الجُبْنَ وَالخِذْلَانَ بِدَعْوَى الحِكْمَةِ وَالعِلْمِ بِفُنُونِ القِتَالِ. فَحِينَ يَتَخَلَّفُ المُرْجِفُونَ عَنْ نُصْرَةِ الحَقِّ وَحِمَايَةِ الدِّيَارِ، تَقْتَرِبُ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ حَمْأَةِ الكُفْرِ أَكْثَرَ مِنِ اقْتِرَابِهَا مِنْ نُورِ الإِيمَانِ، وَتَنْطِقُ أَفْوَاهُهُمْ بِزُخْرُفٍ يُخَالِفُ مَا تَكْتُمُهُ صُدُورُهُمْ مِنْ عَدَاوَةٍ وَرَيْبٍ تَحْتَ عَيْنِ العَلِيمِ بِالخَفَايَا. فَمَنْ طَابَقَ لِسَانُهُ قَلْبَهُ وَنَهَضَ لِنُصْرَةِ دِينِهِ صَدَقَ إِيمَانُهُ، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ المُنَافِقُ بِمَعَاذِيرِهِ الوَاهِيَةِ وَيَكْشِفُ السَّتَّارُ مَا كَانَ يَكْتُمُ فِي جَنَانِهِ.

الصَّدَى

سُقُوطُ الأَقْنِعَةِ وَفَضِيحَةُ النِّفَاقِ

صَدَى ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾

مَحَكٌّ صَارِمٌ يُسْقِطُ أَقْنِعَةَ المُنَافِقِينَ عِنْدَ سَاعَةِ الجِدِّ وَالدِّفَاعِ، فَيُظْهِرُ تَنَاقُضَ أَفْوَاهِهِمُ المَسْئُولَةِ مَعَ قُلُوبِهِمُ الخَاوِيَةِ تَحْتَ رَقَابَةِ الخَالِقِ الأَعْلَمِ بِمَا يَكْتُمُونَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْخِدَاعِ بِالمَعَاذِيرِ المُنَمَّقَةِ الَّتِي تُبَرِّرُ الخِذْلَانَ فِي سَاعَاتِ الحَاجَةِ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ صِدْقَ الإِيمَانِ يَظْهَرُ فِي المُبَادَرَةِ لَا فِي كَثْرَةِ التَّبْرِيرِ. وَكَمْ تَزَيَّنَتْ أَلْسِنَةٌ قَدِيماً بِشِعَارَاتِ الوَلَاءِ وَهِيَ تُخْفِي فِي صُدُورِهَا الكُفْرَ وَالتَّخَاذُلَ، حَتَّى هَتَكَ الوَحْيُ أَسْتَارَهَا وَفَضَحَ كَذِبَهَا! أَتَأَمَّلُ الجَوْزَةَ الفَارِغَةَ المَسْوُسَةَ الَّتِي تَبْدُو مِنْ خَارِجِهَا صُلْبَةً سَلِيمَةً كَسَائِرِ الثِّمَارِ، فَمَا إِنْ تُضْرَبَ بِمِطْرَقَةِ الِامْتِحَانِ حَتَّى تَتَهَشَّمَ قِشْرَتُهَا وَيَخْرُجَ مِنْ جَوْفِهَا الغُبَارُ الأَسْوَدُ وَالفَرَاغُ المُوحِشُ فَيَتَبَيَّنَ زَيْفُهَا لِلْعُيُونِ. فَمَا أَعْظَمَ إِحَاطَةَ عِلْمِ اللهِ بِمَا يَكْتُمُ المُنَافِقُونَ حِينَ يَكْشِفُ تَخَاذُلَهُمْ وَقُرْبَهُمْ مِنَ الكُفْرِ يَوْمَ اللِّقَاءِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ سَرِيرَتِي إِلَى صِدْقٍ نَقِيٍّ يُطَابِقُ فِيهِ اللِّسَانُ الجَنَانَ وَيَنْهَضُ لِنُصْرَةِ الحَقِّ. فَكُلُّ نِفَاقٍ يَتَسَتَّرُ بِالمَعَاذِيرِ مَآلُهُ الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الأَعْلَمِ بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 168 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

صَلَفُ القَاعِدِينَ المُتَخَاذِلِينَ الَّذِينَ يَتَشَقَّوْنَ بِرَحِيلِ الشُّهَدَاءِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ القُعُودَ مَعَهُمْ كَانَ سَيَمْنَعُ المَوْتَ يَتَحَطَّمُ أَمَامَ التَّحَدِّي الكَوْنِيّ الدَّامِغ: «فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». فَلَوْ كَانَ التَّخَاذُلُ يَصُدُّ المَنِيَّةَ أَوْ يُطِيلُ الأَعْمَارَ لَخَلَدَ الجُبَنَاءُ فِي دِيَارِهِمْ وَلَمَا ذَاقَ قَاعِدٌ كَأْسَ المَوْتِ أَبَداً؛ غَيْرَ أَنَّ الأَجَلَ سَهْمٌ نَافِذٌ يُدْرِكُ الهَارِبَ فِي مَخْبَئِهِ كَمَا يُدْرِكُ المُقْبِلَ فِي مَيْدَانِهِ. فَمَنْ أَيْقَنَ بِأَنَّ المَوْتَ لَا يُدْفَعُ بِالقُعُودِ آثَرَ مِيتَةَ العِزِّ وَالشَّهَادَةِ، بَيْنَمَا يَبْهَتُ المُتَخَاذِلُ المَغْرُورُ عَاجِزاً عَنْ دَفْعِ الفَنَاءِ عَنْ نَفْسِهِ.

الصَّدَى

تَحَدِّي المَنِيَّةِ وَبُطْلَانُ حُجَّةِ القَاعِدِينَ

صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

بُرْهَانٌ سَاطِعٌ يُفْحِمُ المُتَخَاذِلِينَ القَاعِدِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ طَاعَتَهُمْ فِي القُعُودِ تَمْنَعُ القَتْلَ، فَيَتَحَدَّاهُمُ الوَحْيُ أَنْ يَدْفَعُوا المَوْتَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الحِرْصَ عَلَى الحَيَاةِ وَالهُرُوبَ مِنَ المَوَاقِفِ يَصْنَعَانِ الخُلُودَ، وَتَسْتَقِرُّ شَجَاعَةُ أَنَّ المَوْتَ آتٍ لَا مَحَالَةَ فَلْيَكُنْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَسَبِيلِهِ. وَكَمْ تَبَجَّحَ القَاعِدُونَ قَدِيماً بِحِكْمَةِ الجُبْنِ وَسَلَامَةِ العَافِيَةِ، حَتَّى أَسْكَتَهُمْ هٰذَا التَّحَدِّي القَاطِعُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ مَخْلُوقٌ رَدَّهُ! أَتَأَمَّلُ الأَوْرَاقَ الخَرِيفِيَّةَ عَلَى الشَّجَرَةِ العَالِيَةِ كَيْفَ تَظُنُّ وَرَقَةٌ مُنْزَوِيَةٌ فِي جَوْفِ الأَغْصَانِ بَعِيداً عَنِ الرِّيحِ أَنَّ انْزِوَاءَهَا سَيُبْقِيهَا خَضْرَاءَ إِلَى الأَبَدِ بَيْنَمَا تَسْقُطُ الأَوْرَاقُ المُوَاجِهَةُ لِلنَّسِيمِ، فَمَا إِنْ يَحِلَّ مَوْعِدُ الخَرِيفِ المَقْدُورُ حَتَّى تَصْفَرَّ تِلْكَ الوَرَقَةُ المُنْزَوِيَةُ وَتَسْقُطَ عَلَى التُّرَابِ كَمَا سَقَطَتْ أَخَوَاتُهَا دُونَ أَنْ تَمْلِكَ دَفْعَ الذُّبُولِ عَنْ نَفْسِهَا. فَمَا أَعْظَمَ حُجَّةَ اللهِ عَلَى المُتَخَاذِلِينَ حِينَ يَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَدْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ المَوْتَ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي إِلَى إِقْبَالٍ شُجَاعٍ يَبْحَثُ عَنْ شَرَفِ العَمَلِ وَالمَصِيرِ لَا عَنْ وَهْمِ البَقَاءِ. فَكُلُّ قُعُودٍ يَخْشَى المَوْتَ لَا يَمْنَعُ الأَجَلَ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 169 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

انْقِشَاعُ غِشَاوَةِ الطِّينِ عَنْ أَبْصَارِ الغَافِلِينَ يَكْشِفُ أَنَّ السُّقُوطَ فِي مَيَادِينِ الشَّهَادَةِ لَيْسَ فَنَاءً وَلَا انْطِفَاءً، بَلْ هُوَ وِلَادَةٌ نُورَانِيَّةٌ فِي جِوَارِ المَلِكِ الحَقِّ حَيْثُ الحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ وَالرِّزْقُ الهَنِيءُ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ. فَالْأَجْسَادُ الَّتِي تَوَارَتْ تَحْتَ التُّرَابِ قَدْ أَطْلَقَتْ أَرْوَاحَهَا حُرَّةً طَلِيقَةً تَسْرَحُ فِي رِيَاضِ الكَرَامَةِ عِنْدَ رَبِّهَا، فَتَنْعَمُ بِالقُرْبِ وَالعَطَاءِ فِي حِينٍ يَحْسَبُهَا الجَاهِلُونَ قَدْ طَوَاهَا العَدَمُ وَالنِّسْيَانُ. فَمَنْ قَدَّمَ رُوحَهُ رَخِيصَةً فِي سَبِيلِ مَوْلَاهُ ظَفِرَ بِحَيَاةِ الخُلُودِ وَالرِّزْقِ الأَبَدِيِّ، بَيْنَمَا يَعِيشُ الخَائِفُ مِنَ البَذْلِ مَيْتَ القَلْبِ وَإِنْ مَشَى فَوْقَ الأَرْضِ.

الصَّدَى

وِلَادَةُ الشُّهَدَاءِ وَحَيَاةُ الجِوَارِ

صَدَى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

إِعْلَانٌ سَمَاوِيٌّ يَهْدِمُ وَهْمَ المَوْتِ وَالفَنَاءِ، فَيُبَشِّرُ أَنَّ الشُّهَدَاءَ فِي سَبِيلِ الخَالِقِ أَحْيَاءٌ حَيَاةً حَقِيقِيَّةً عِنْدَ رَبِّهِمْ يَتَنَعَّمُونَ بِأَطْيَبِ الأَرْزَاقِ وَأَعْلَى مَقَامَاتِ القُرْبِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ النَّظْرَةِ المَادِّيَّةِ القَاصِرَةِ الَّتِي تَرَى القَتْلَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ نِهَايَةً وَخَسَارَةً، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الشَّهَادَةَ هِيَ البِدَايَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. وَكَمْ حَزِنَتِ العُيُونُ قَدِيماً عَلَى فِرَاقِ الأَبْطَالِ وَهِيَ غَافِلَةٌ عَنْ نَعِيمِهِمْ فِي جِوَارِ الرَّحْمٰنِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الآيَةُ لِتُصَحِّحَ مَفْهُومَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ! أَتَأَمَّلُ البَذْرَةَ الَّتِي تُدْفَنُ فِي بَطْنِ الأَرْضِ المُظْلِمَةِ فَيَحْسَبُهَا العَابِرُ قَدْ مَاتَتْ وَانْتَهَى أَمْرُهَا، كَيْفَ تَنْشَقُّ فِي الخَفَاءِ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ تَصْعَدُ نَحْوَ الضِّيَاءِ وَتُثْمِرُ فِي بُسْتَانِ المَلِكِ أَطْيَبَ الثِّمَارِ وَتَرْتَوِي مِنْ أَعْذَبِ الأَنْهَارِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَجْعَلُ الشُّهَدَاءَ فِي سَبِيلِهِ أَحْيَاءً عِنْدَهُ يُرْزَقُونَ وَيُكْرَمُونَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلتَّضْحِيَةِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ إِلَى شَوْقٍ لِلْحَيَاةِ العُلْيَا عِنْدَ الرَّبِّ. فَكُلُّ مَوْتٍ فِي سَبِيلِ السَّمَاءِ هُوَ حَيَاةٌ وَخُلُودٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ الحَيِّ الَّذِي يُكْرِمُ الشُّهَدَاءَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 170 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

غَمْرَةُ البَهْجَةِ السَّمَاوِيَّةِ تَمْلَأُ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي جِوَارِ المَلِكِ الكَرِيمِ، فَيَفْرَحُونَ بِمَا أَفَاضَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَطَاءٍ وَتَكْرِيمٍ، وَتَطِيرُ بِشَارَاتُهُمْ نَحْوَ إِخْوَانِهِمُ السَّائِرِينَ عَلَى الدَّرْبِ مِنْ خَلْفِهِمْ لِتُزِيلَ عَنْ صُدُورِهِمْ رَهْبَةَ المُسْتَقْبَلِ وَحُزْنَ الفِرَاقِ. فَلَا خَوْفٌ يَعْتَرِي السَّالِكِينَ طَرِيقَ البَذْلِ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنَ الأَهْوَالِ، وَلَا حُزْنٌ يُكَدِّرُ أَرْوَاحَهُمْ عَلَى مَا خَلَّفُوهُ وَرَاءَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالمَالِ. فَمَنْ سَارَ عَلَى أَثَرِ الصَّادِقِينَ اسْتَبْشَرَ بِالأَمَانِ الأَبَدِيِّ وَالفَرَحِ المُقِيمِ، بَيْنَمَا يَظَلُّ المُتَقَاعِسُ مَحْرُوماً مِنْ بُشْرَى السَّابِقِينَ وَنَعِيمِ الجِوَارِ.

الصَّدَى

بَهْجَةُ الفَضْلِ وَبُشْرَى اللَّاحِقِينَ

صَدَى ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

فَرَحٌ نُورَانِيٌّ يَغْمُرُ قُلُوبَ الشُّهَدَاءِ بِمَا أَعْطَاهُمُ الخَالِقُ مِنْ فَضْلِهِ، فَيَسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يَسِيرُونَ عَلَى دَرْبِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ بِأَنْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَحْشَةِ فِي طَرِيقِ الِاسْتِقَامَةِ وَالتَّضْحِيَةِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ السَّابِقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ الصَّادِقِينَ بِالبُشْرَى وَالأَمَانِ. وَكَمْ أَخَافَتِ الدُّنْيَا قَدِيماً عُقُولاً مِنْ مَجْهُولِ الغَدِ وَمَرَارَةِ الفَقْدِ، حَتَّى أَرْسَلَتْ هٰذِهِ الآيَةُ نَسَائِمَ البُشْرَى مِنْ عَالَمِ الخُلُودِ لِتُطَمْئِنَ السَّائِرِينَ! أَتَأَمَّلُ طَلَائِعَ القَافِلَةِ الَّتِي عَبَرَتِ النَّهْرَ العَظِيمَ وَوَصَلَتْ إِلَى قَصْرِ المَلِكِ الكَرِيمِ حَيْثُ الضِّيَافَةُ وَالبَهْجَةُ وَالنُّورُ، كَيْفَ يَقِفُونَ عَلَى الشُّرُفَاتِ العَالِيَةِ فَرِحِينَ بِمَا نَالُوا وَيُلَوِّحُونَ بِأَيْدِيهِمْ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يَعْبُرُونَ الجِسْرَ أَنْ أَقْبِلُوا بِسَلَامٍ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا حُزْنٌ. فَمَا أَعْظَمَ جُودَ اللهِ الَّذِي يَمْلَأُ قُلُوبَ الشُّهَدَاءِ فَرَحاً

بِفَضْلِهِ وَيَجْعَلُهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِاللَّاحِقِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَسِيرَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى عُبُورٍ مُطْمَئِنٍّ لَا يَخَافُ وَلَا يَحْزَنُ طَمَعاً فِي اللِّحَاقِ بِالصَّادِقِينَ. فَكُلُّ خَوْفٍ وَحُزْنٍ يَتَبَدَّدُ أَمَامَ بُشْرَى السَّمَاءِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِهِ وَفَضْلِهِ العَظِيمِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٧١-١٨٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 171 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

بَشَائِرُ النِّعْمَةِ السَّمَاوِيَّةِ وَفَيْضُ الكَرَمِ المُتَتَابِعُ تَعْمُرُ أَرْوَاحَ الصَّادِقِينَ فِي جِوَارِ المَلِكِ الحَقِّ، فَتَتَلَأْلَأُ فِي أُفُقِ الخُلُودِ حَقِيقَةُ الوَفَاءِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي لَا يَبْخَسُ عَامِلاً جُهْدَهُ وَلَا يُضِيعُ لِمُؤْمِنٍ أَجْرَهُ. فَمَا قُدِّمَ فِي دَارِ الفَنَاءِ مِنْ بَذْلٍ وَتَضْحِيَةٍ مَحْفُوظٌ فِي خَزَائِنِ البَقَاءِ، تَنْمُو ثَمَرَتُهُ وَتَتَضَاعَفُ بَرَكَتُهُ حَتَّى تَغْدُوَ سُرُوراً دَائِماً وَنَعِيماً لَا يَنْقَطِعُ. فَمَنْ أَوْدَعَ سَعْيَهُ عِنْدَ الوَفِيِّ الكَرِيمِ أَبْشَرَ بِالنِّعْمَةِ وَالفَضْلِ، بَيْنَمَا يَبْقَى الغَافِلُ المُتَرَدِّدُ مَحْرُوماً مِنْ أَجْرِ الصَّادِقِينَ وَبَهْجَةِ اللِّقَاءِ.

الصَّدَى

بَشَائِرُ الفَضْلِ وَوَفَاءُ الخَالِقِ

صَدَى ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

نَسَائِمُ البُشْرَى تَتَوَالَى عَلَى أَرْوَاحِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّادِقِينَ بِمَا أَفَاضَهُ الخَالِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ وَفَضْلٍ، مُؤَكِّدَةً أَنَّ سَعْيَ الإِيمَانِ مَحْفُوظٌ لَا يَضِيعُ عِنْدَ الدَّيَّانِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ القَلَقِ عَلَى ثَمَرَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ أَوِ التَّضْحِيَةِ المَسْتُورَةِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ كَرَمَ السَّمَاءِ أَوْفَى مِنْ كُلِّ تَقْدِيرٍ بَشَرِيٍّ. وَكَمْ تَخَوَّفَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً مِنْ ضَيَاعِ الجُهْدِ فِي طَرِيقِ البَذْلِ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ البِشَارَةُ الَّتِي تَضْمَنُ حِفْظَ الأَجْرِ وَمُضَاعَفَةَ الفَضْلِ! أَتَأَمَّلُ التَّاجِرَ الأَمِينَ الَّذِي يَبْعَثُ بِبِضَاعَتِهِ النَّفِيسَةِ عَبْرَ البَحْرِ إِلَى مَلِكٍ كَرِيمٍ، فَيَصِلُهُ الخَبَرُ اليَقِينُ بِوُصُولِ القَافِلَةِ سَالِمَةً وَتَضَاعُفِ رِبْحِهَا فِي خَزَائِنِ المَلِكِ الَّذِي لَا يُضِيعُ حَقَّ عَامِلٍ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بَهْجَةً وَاطْمِئْنَاناً. فَمَا أَعْظَمَ وَفَاءَ اللهِ الَّذِي يَغْمُرُ عِبَادَهُ بِالنِّعْمَةِ

وَالفَضْلِ وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طَاعَتِي إِلَى سَعْيٍ مُطْمَئِنٍّ يَثِقُ بِحِفْظِ السَّمَاءِ وَوَعْدِهَا الصَّادِقِ. فَكُلُّ جُهْدٍ لِغَيْرِ الخَالِقِ مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَحْفَظُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 172 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

نُهُوضُ العَزَائِمِ الجَرِيحَةِ لِتَلْبِيَةِ نِدَاءِ السَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ تَلْتَئِمَ الكُلُومُ وَيَجِفَّ الدَّمُ يُسَطِّرُ أَصْدَقَ مَلَاحِمِ الوَلَاءِ وَالثَّبَاتِ. فَحِينَ يَتَسَاقَطُ الضُّعَفَاءُ عِنْدَ أَوَّلِ أَلَمٍ وَيَرْكَنُونَ إِلَى الرَّاحَةِ وَالأَعْذَارِ، تَنْتَفِضُ أَرْوَاحُ المحْسِنِينَ المتَّقِينَ لِتُجِيبَ دَاعِيَ الحَقِّ رَغْمَ الجِرَاحِ وَالإِرْهَاقِ، فَتَنَالَ بِذٰلِكَ وِسَامَ الإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى وَالأَجْرَ العَظِيمَ الَّذِي لَا يُدْرَكُ فِي أَوْقَاتِ الرَّخَاءِ. فَمَنْ نَهَضَ لِطَاعَةِ مَوْلَاهُ وَبِهِ جِرَاحُ البَلَاءِ ظَفِرَ بِالأَجْرِ العَظِيمِ، بَيْنَمَا يَقْعُدُ المتَثَاقِلُ أَسِيراً لِأَوْجَاعِهِ وَيَفُوتُهُ شَرَفُ الِاسْتِجَابَةِ.

الصَّدَى

نُهُوضُ الجِرَاحِ وَوِسَامُ الِاسْتِجَابَةِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

بُطُولَةٌ صَامِتَةٌ تَنْهَضُ فِيهَا الأَقْدَامُ الجَرِيحَةُ لِتُلَبِّيَ نِدَاءَ الخَالِقِ وَالرَّسُولِ بَعْدَ أَنْ أَصَابَهَا القَرْحُ، فَتَسْتَحِقُّ بِإِحْسَانِهَا وَتَقْوَاهَا أَجْراً عَظِيماً مِنَ المَلِكِ الكَرِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِسْلَامِ لِلتَّعَبِ أَوِ التَّوَقُّفِ عَنِ البَذْلِ بَعْدَ الصَّدَمَاتِ وَالجِرَاحِ، وَتَسْتَقِرُّ عَزِيمَةُ أَنَّ الِاسْتِجَابَةَ فِي سَاعَةِ الأَلَمِ هِيَ أَعْلَى مَا يُقَدَّمُ لِلسَّمَاءِ. وَكَمْ بَحَثَتِ النُّفُوسُ قَدِيماً عَنْ مَعَاذِيرَ لِلرَّاحَةِ عِنْدَ أَدْنَى تَعَبٍ، حَتَّى أَشْرَقَتْ سِيرَةُ هٰؤُلَاءِ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا بِجِرَاحِهِمْ لِيُثْبِتُوا صِدْقَ الإِيمَانِ! أَتَأَمَّلُ الجَوَادَ الأَصِيلَ الَّذِي أَصَابَتْهُ السِّهَامُ فِي المَيْدَانِ فَأَدْمَتْ جَنْبَيْهِ، كَيْفَ يَنْتَفِضُ عِنْدَ سَمَاعِ نِدَاءِ فَارِسِهِ مِنْ جَدِيدٍ فَيَنْطَلِقُ بِكُلِّ مَا بَقِيَ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ وَوَفَاءٍ لِيُتِمَّ الشَّوْطَ وَيَبْلُغَ الغَايَةَ المَنْشُودَةَ فَيُكْرِمَهُ سَيِّدُهُ بِأَجْمَلِ

الرِّعَايَةِ وَالتَّقْدِيرِ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يُثْنِي عَلَى الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ وَلِرَسُولِهِ بَعْدَ القَرْحِ وَيُعِدُّ لِلْمُحْسِنِينَ المُتَّقِينَ أَجْراً عَظِيماً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ آلامِي إِلَى دَافِعٍ لِلِاسْتِجَابَةِ السَّرِيعَةِ لِأَمْرِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ قُعُودٍ بَعْدَ الجِرَاحِ مَآلُهُ الفُتُورُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُوفِي الأَجْرَ العَظِيمَ لِلْمُتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 173 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاحُ الإِرْجَافِ وَالتَّهْوِيلِ الَّتِي يَبُثُّهَا المُنْهَزِمُونَ لِزَرْعِ الرُّعْبِ فِي الصُّدُورِ تَتَحَوَّلُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ اليَقِينِ إِلَى وَقُودٍ يُشْعِلُ جَذْوَةَ الإِيمَانِ وَيَزِيدُهَا اتِّقَاداً. فَحِينَ تَتَعَالَى الأَصْوَاتُ مُحَذِّرَةً مِنْ جُمُوعِ الطُّغْيَانِ وَحُشُودِ البَاطِلِ، يَلُوذُ الجَنَانُ الصَّادِقُ بِحِصْنِ الكِفَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ وَيُنْطِقُ اللِّسَانَ بِكَلِمَةِ التَّفْوِيضِ الكُبْرَى: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، فَتَتَقَزَّمُ أَمَامَ عَظَمَةِ الوَكِيلِ كُلُّ قُوَى الأَرْضِ وَحُشُودِهَا. فَمَنِ اكْتَفَى بِرَبِّهِ وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيْهِ زَادَ إِيمَانُهُ وَانْكَسَرَ عَدُوُّهُ، بَيْنَمَا يَذُوبُ قَلْبُ المُرْجِفِ خَوْفاً مِنْ أَوْهَامِ البَشَرِ وَنَسِيَ قُوَّةَ القَهَّارِ.

الصَّدَى

رِيَاحُ التَّهْوِيلِ وَحِصْنُ الوَكِيلِ
صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾
صَيْحَةُ إِيمَانٍ شَامِخَةٌ تَصُدُّ حَمَلَاتِ التَّخْوِيفِ وَالإِرْجَافِ، فَكُلَّمَا حَذَّرَهُمُ النَّاسُ مِنْ حُشُودِ الأَعْدَاءِ ازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ يَقِيناً وَنَطَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِأَعْظَمِ كَلِمَةِ تَوَكُّلٍ: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاهْتِزَازِ أَمَامَ الأَخْبَارِ المُفْزِعَةِ أَوْ تَضْخِيمِ قُوَّةِ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ كِفَايَةَ الخَالِقِ تَغْنِي عَنْ كُلِّ سَنَدٍ وَتَرُدُّ كُلَّ كَيْدٍ. وَكَمْ أَسْقَطَتْ شَائِعَاتُ الخَوْفِ قَدِيماً قُلُوباً ضَعِيفَةً قَبْلَ اللِّقَاءِ، بَيْنَمَا زَادَتِ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ثَبَاتاً وَيَقِيناً بِرَبِّهِمْ! أَتَأَمَّلُ الجَبَلَ الرَّاسِخَ الَّذِي تَتَجَمَّعُ حَوْلَ سَفْحِهِ

غُيُومٌ سَوْدَاءُ كَثِيفَةٌ وَرِيَاحٌ صَاخِبَةٌ تَظُنُّ أَنَّهَا سَتَقْتَلِعُهُ مِنْ مَكَانِهِ، كَيْفَ يَبْقَى رَأْسُهُ الشَّامِخُ فَوْقَ السَّحَابِ مُتَّصِلاً بِشَمْسِ السَّمَاءِ السَّاطِعَةِ فَلَا تَزِيدُهُ تِلْكَ الزَّوَابِعُ إِلَّا ثَبَاتاً وَاطْمِئْنَاناً بِأَنَّ خَالِقَهُ يَكْفِيهِ وَيَحْمِيهِ. فَمَا أَعْظَمَ قُوَّةَ القُلُوبِ الَّتِي تَقُولُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فَيَزْدَادُ إِيمَانُهَا وَتَنْكَسِرُ شَوْكَةُ أَعْدَائِهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي عِنْدَ التَّهْدِيدِ إِلَى تَفْوِيضٍ مُطْلَقٍ يَكْتَفِي بِاللهِ وَكِيلاً. فَكُلُّ جَمْعٍ يَتَحَدَّى السَّمَاءَ مَآلُهُ التَّبَدُّدُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ حَسْبِ المؤْمِنِينَ وَنِعْمَ الوَكِيلِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 174 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾

المَوْعِظَةُ

ثَمَرَةُ التَّفْوِيضِ الصَّادِقِ لِلْوَكِيلِ الكَرِيمِ تَتَجَلَّى فِي انْقِلَابِ المَوَازِينِ لِصَالِحِ الصَّابِرِينَ؛ فَيَعُودُونَ مِنْ مَيَادِينِ التَّخْوِيفِ مُتَوَّجِينَ بِنِعْمَةِ الأَمَانِ وَفَضْلِ السَّمَاءِ، لَمْ يَمْسَسْهُمْ أَذًى مِنْ كَيْدِ الخُصُومِ وَلَا شَرٌّ مِنْ حُشُودِ البَاطِلِ، وَقَدْ حَازُوا أَغْلَى غَايَةٍ يَسْعَى إِلَيْهَا العَابِدُونَ وَهِيَ اتِّبَاعُ رِضْوَانِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ. فَمَنْ صَدَقَ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى مَوْلَاهُ عَادَ غَانِماً بِالنِّعْمَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالرِّضْوَانِ، بَيْنَمَا يَتَبَدَّدُ كَيْدُ المخَوِّفِينَ فِي الفَضَاءِ بِلَا أَثَرٍ وَلَا سُلْطَانٍ.

الصَّدَى

غَنِيمَةُ التَّوَكُّلِ وَتَاجُ الرِّضْوَانِ

صَدَى ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عَاقِبَةٌ نُورَانِيَّةٌ تَشْهَدُ بِصِدْقِ الوَكِيلِ مَعَ عِبَادِهِ، حِينَ يَعُودُونَ مِنْ مَوَاطِنِ الخَطَرِ مُتَوَّجِينَ بِالنِّعْمَةِ وَالفَضْلِ وَالسَّلَامَةِ التَّامَّةِ مِنَ السُّوءِ، وَقَدْ فَازُوا بِاتِّبَاعِ رِضْوَانِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى طَاعَةِ السَّمَاءِ فِي وَقْتِ الخَوْفِ يُؤَدِّي إِلَى الهَلَاكِ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ التَّوَكُّلَ الصَّادِقَ هُوَ طَرِيقُ السَّلَامَةِ وَالعَافِيَةِ وَالرِّضَا. وَكَمْ خَشِيَتِ العُقُولُ قَدِيماً مِنْ عَوَاقِبِ الثَّبَاتِ فَخَسِرَتِ الأَمَانَ، بَيْنَمَا انْقَلَبَ المتَوَكِّلُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الشُّجَاعَ الَّذِي عَبَرَ الوَادِيَ المظْلِمَ مُتَوَكِّلاً عَلَى رَبِّهِ رَغْمَ تَحْذِيرِ الخَائِفِينَ مِنَ الوُحُوشِ وَالسُّيُولِ،

كَيْفَ خَرَجَ إِلَى الضِّفَّةِ الأُخْرَى مُشْرِقَ الوَجْهِ سَالِمَ الجَسَدِ يَحْمِلُ هَدَايَا المِلكِ وَرِضَاهُ دُونَ أَنْ تَمَسَّ ثَوْبَهُ شَوْكَةٌ وَاحِدَةٌ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ الَّذِي يَحْفَظُ المُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ وَيَرُدُّهُمْ بِنِعْمَةٍ وَفَضْلٍ وَرِضْوَانٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ خُطُوَاتِي إِلَى إِقْبَالٍ آمِنٍ يَثِقُ بِحِفْظِ الوَكِيلِ وَيَطْلُبُ رِضْوَانَهُ. فَكُلُّ خَوْفٍ يُعَانِدُ التَّوَكُّلَ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 175 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

حَقِيقَةُ الرُّعْبِ المَبْثُوثِ فِي الآفَاقِ تَنْكَشِفُ أَمَامَ نُورِ البَصِيرَةِ؛ فَمَا تِلْكَ التَّهْوِيلَاتُ إِلَّا وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُضَخِّمُ صُورَةَ أَوْلِيَائِهِ فِي أَعْيُنِ الغَافِلِينَ لِيَشُلَّ عَزَائِمَهُمْ عَنِ المَسِيرِ. فَمَنْ عَرَفَ ضَعْفَ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَهَشَاشَةَ أَوْلِيَائِهِ انْتَزَعَ مِنْ صَدْرِهِ رَهْبَةَ المَخْلُوقِينَ، وَأَفْرَدَ مَلِكَ المُلْكِ وَحْدَهُ بِالخَشْيَةِ وَالتَّعْظِيمِ عُنْوَاناً لِصِدْقِ الإِيمَانِ وَنَقَاءِ التَّوْحِيدِ. فَمَنْ أَفْرَدَ رَبَّهُ بِالخَوْفِ تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الجَبَابِرَةِ وَالمُرْجِفِينَ، بَيْنَمَا يَظَلُّ مَنْ خَافَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ أَسِيراً لِلْوَهْمِ وَالذُّلِّ مَحْرُوماً مِنْ كَمَالِ اليَقِينِ.

الصَّدَى

كَشْفُ الوَسْوَاسِ وَتَوْحِيدُ الخَشْيَةِ

صَدَى ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

بَصِيرَةٌ نَافِذَةٌ تَهْتِكُ سِتَارَ التَّهْوِيلِ الشَّيْطَانِيِّ، فَتَكْشِفُ أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يُعَظِّمُ أَوْلِيَاءَهُ فِي القُلُوبِ الضَّعِيفَةِ، وَتَأْمُرُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْزِعُوا خَوْفَ الخَلْقِ وَيُفْرِدُوا الخَالِقَ وَحْدَهُ بِالخَشْيَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الرَّهْبَةِ مِنْ أَهْلِ البَاطِلِ وَمَكْرِهِمْ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ أَنَّ الخَوْفَ عِبَادَةٌ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِرَبِّ العَالَمِينَ. وَكَمْ صَنَعَ الوَهْمُ قَدِيماً مِنْ أَصْنَامِ الخَوْفِ فِي العُقُولِ حَتَّى أَقْعَدَهَا عَنِ الحَقِّ، فَجَاءَ هٰذَا الحَسْمُ السَّمَاوِيُّ لِيُحَطِّمَ تِلْكَ الأَصْنَامَ بِكَلِمَةِ «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ»! أَتَأَمَّلُ الظِّلَّ الطَّوِيلَ لِحَشَرَةٍ صَغِيرَةٍ يَنْعَكِسُ عَلَى الجِدَارِ فِي عَتْمَةِ اللَّيْلِ فَيَظُنُّهُ الطِّفْلُ وَحْشاً عِمْلَاقاً يَسُدُّ الطَّرِيقَ، فَمَا

إِنْ يُشْرِقَ نُورُ الصَّبَاحِ حَتَّى يَتَبَدَّدَ ذٰلِكَ الظِّلُّ الوَهْمِيُّ وَتَظْهَرَ الحَشَرَةُ الضَّعِيفَةُ عَلَى حَقِيقَتِهَا الهَشَّةِ. فَمَا أَعْظَمَ تَحْرِيرَ اللهِ لِقُلُوبِ المؤْمِنِينَ حِينَ يَكْشِفُ لَهُمْ تَخْوِيفَ الشَّيْطَانِ وَيَأْمُرُهُمْ بِخَشْيَتِهِ وَحْدَهُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ شَجَاعَتِي إِلَى حُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ لَا تَخْشَى إِلَّا الخَالِقَ الجَلِيلَ. فَكُلُّ خَوْفٍ مِنْ غَيْرِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الذُّلُّ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الخَشْيَةَ وَالتَّعْظِيمَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 176 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

سَكِينَةُ القَلْبِ الدَّاعِي إِلَى الحَقِّ تَصْفُو حِينَ يُدْرِكُ أَنَّ تَهَافُتَ الجَاحِدِينَ عَلَى الكُفْرِ لَا يَثْلِمُ مِنْ جَلَالِ السَّمَاءِ شَيْئاً وَلَا يُنْقِصُ مِنْ سُلْطَانِ المَلِكِ الحَقِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. فَمَا هٰذَا الِانْدِفَاعُ المَحْمُومُ نَحْوَ البَاطِلِ إِلَّا خِذْلَانٌ قَدَّرَهُ الدَّيَّانُ لِقُلُوبٍ أَبَتِ الهُدَى وَآثَرَتِ العَمَى، كَيْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا صِفْرَ اليَدَيْنِ بِلَا نَصِيبٍ فِي دَارِ النَّعِيمِ وَلِتَلْقَى عَذَاباً عَظِيماً يَلِيقُ بِعِنَادِهَا. فَمَنِ اطْمَأَنَّ إِلَى غِنَى رَبِّهِ وَعَدْلِهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى تَسَارُعِ المُعْرِضِينَ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ المُسَارِعُ فِي الكُفْرِ الحِرْمَانَ الأَبَدِيَّ وَالعَذَابَ العَظِيمَ.

الصَّدَى

غِنَى السَّمَاءِ وَخِذْلَانُ المُسَارِعِينَ فِي الكُفْرِ

صَدَى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بَلْسَمٌ نُورَانِيٌّ يَمْسَحُ الحُزْنَ عَنْ قَلْبِ النَّبِيِّ وَالمؤْمِنِينَ عِنْدَ رُؤْيَةِ تَسَارُعِ الجَاحِدِينَ فِي الكُفْرِ، فَيُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا الخَالِقَ شَيْئاً وَأَنَّ ذٰلِكَ خِذْلَانٌ يَحْرِمُهُمْ حَظَّ الآخِرَةِ وَيُورِثُهُمُ العَذَابَ العَظِيمَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الأَسَى المُمِضِّ عَلَى إِعْرَاضِ المعَانِدِينَ أَوْ تَكَالُبِهِمْ عَلَى البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ يَحْصُدُ ثَمَرَةَ اخْتِيَارِهِ تَحْتَ عَدْلِ الخَالِقِ الغَنِيِّ. وَكَمْ حَزِنَتْ قُلُوبُ الصَّالِحِينَ

قَدِيماً حِينَ رَأَتِ النَّاسَ يَرْكُضُونَ نَحْوَ الهَلَاكِ وَهُمْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى النَّجَاةِ، حَتَّى أَرَاحَتْهُمْ هٰذِهِ الآيَةُ بِحَقِيقَةِ غِنَى السَّمَاءِ وَعَدَالَةِ الجَزَاءِ! أَتَأَمَّلُ المِلِكَ الكَرِيمَ الَّذِي أَعَدَّ قَصْراً عَظِيماً وَمَائِدَةً مَمْدُودَةً لِضُيُوفِهِ وَدَعَاهُمْ إِلَى السَّعَادَةِ وَالأَمَانِ، فَيَرْكُضُ بَعْضُ الجَاهِلِينَ بِسُرْعَةٍ نَحْوَ الصَّحْرَاءِ القَاحِلَةِ وَيُلْقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي حُفَرِ النَّارِ، فَهَلْ يَضُرُّ رَكْضُهُمْ ذٰلِكَ مَمْلَكَةَ المِلِكِ شَيْئاً أَمْ أَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنَ الكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ؟! فَمَا أَعْظَمَ تَسْلِيَةَ اللهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ المسَارِعِينَ فِي الكُفْرِ لَنْ يَضُرُّوا السَّمَاءَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي إِلَى ثَبَاتٍ هَادِئٍ لَا يَحْزَنُ لِتَسَارُعِ الغَافِلِينَ وَيَحْمَدُ الخَالِقَ عَلَى نِعْمَةِ الهِدَايَةِ. فَكُلُّ جُحُودٍ مَآلُهُ الحِرْمَانُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 177 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

صَفْقَةُ السَّفَهِ الخَاسِرَةِ الَّتِي تَبِيعُ نُورَ اليَقِينِ وَجَوْهَرَةَ الإِيمَانِ بِظُلُمَاتِ الجُحُودِ وَحُطَامِ الطُّغْيَانِ لَا تَمَسُّ كَمَالَ الخَالِقِ وَلَا تَنْقُصُ مِنْ عَظَمَتِهِ، بَلْ يَعُودُ وَبَالُهَا وَخَسَارَتُهَا عَلَى المِمَدِّلِ الجَاهِلِ الَّذِي اسْتَبْدَلَ العَذَابَ الأَلِيمَ بِالنَّعِيمِ المقِيمِ. فَالْإِيمَانُ هُوَ الرِّبْحُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ العَبْدُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَمَنْ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ طَمَعاً فِي سَرَابِ الكُفْرِ فَقَدْ حَكَمَ عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّقَاءِ الأَبَدِيِّ. فَمَنْ صَانَ جَوْهَرَةَ إِيمَانِهِ وَلَمْ يَبِعْهَا بِأَثْمَانِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ رَبِحَ الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ بَائِعُ الإِيمَانِ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَضُرُّ مَوْلَاهُ شَيْئاً.

الصَّدَى

صَفْقَةُ السَّفَهِ وَخَسَارَةُ المسْتَبْدِلِينَ

صَدَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

مِيزَانٌ يَفْضَحُ غَبَاءَ الصَّفْقَةِ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ ظُلْمَةَ الكُفْرِ بِنُورِ الإِيمَانِ، فَتُقَرِّرُ أَنَّ هٰذَا الِاسْتِبْدَالَ لَا يَضُرُّ الخَالِقَ شَيْئاً وَإِنَّمَا يَجْلِبُ لِصَاحِبِهِ العَذَابَ الأَلِيمَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ التَّنَازُلَ عَنْ

ثَوَابِتِ الإِيمَانِ لِكَسْبِ رِضَا الدُّنْيَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةً، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ الإِيمَانَ أَغْلَى مَا أَمْلِكُ وَلَا يُسَاوِيهِ كَنْزٌ فِي الوُجُودِ. وَكَمْ باعَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً نُورَ الفِطْرَةِ وَالهِدَايَةِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ مِنَ المَتَاعِ الزَّائِلِ، فَلَمْ تَضُرَّ إِلَّا أَنْفُسَهَا وَحَصَدَتْ عَذَاباً أَلِيماً! أَتَأَمَّلُ التَّاجِرَ المَغْبُونَ الَّذِي يَمْلِكُ تَاجاً مُرَصَّعاً بِالجَوَاهِرِ النَّادِرَةِ الَّتِي تَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ السَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ، فَيَذْهَبُ بِسَفَهِهِ لِيَبِيعَهُ مُقَابِلَ كُومَةٍ مِنَ الرَّمَادِ الأَسْوَدِ وَالجَمْرِ المُلْتَهِبِ الَّذِي يُحْرِقُ يَدَيْهِ وَيُدَمِّرُ حَيَاتَهُ بَيْنَمَا يَبْقَى التَّاجُ غَالِياً نَفِيساً لَا يَنْقُصُ قَدْرُهُ بِجَهْلِ البَائِعِ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يُبَيِّنُ أَنَّ مُشْتَرِي الكُفْرِ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا السَّمَاءَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حِرَاسَتِي لِإِيمَانِي إِلَى تَمَسُّكٍ شَدِيدٍ يَرْفُضُ كُلَّ مُسَاوَمَةٍ عَلَى الدِّينِ. فَكُلُّ اسْتِبْدَالٍ لِلْإِيمَانِ مَآلُهُ العَذَابُ الأَلِيمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَنِيِّ عَنِ العَالَمِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 178 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

المَوْعِظَةُ

إِرْخَاءُ الحَبْلِ لِلطَّاغِينَ وَتَدَفُّقُ النِّعَمِ المَادِّيَّةِ عَلَى المُعَانِدِينَ لَيْسَ كَرَامَةً مِنَ السَّمَاءِ وَلَا رِضاً عَنِ الفَسَادِ، بَلْ هُوَ اسْتِدْرَاجٌ خَفِيٌّ يَزْدَادُ بِهِ الظَّالِمُ إِثْماً وَطُغْيَاناً حَتَّى تَكْتَمِلَ صَحِيفَةُ جَرَائِمِهِ فَيَأْخُذَهُ الجَبَّارُ أَخْذَةً تَكْسِرُ كِبْرِيَاءَهُ بِعَذَابٍ مُهِينٍ. فَعَيْنُ البَصِيرَةِ لَا تَنْخَدِعُ بِطُولِ الإِمْهَالِ وَلَا بِبَرِيقِ الِاسْتِدْرَاجِ؛ إِذْ تَعْلَمُ أَنَّ تَأْخِيرَ العُقُوبَةِ مَعَ الإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ المَكْرِ الإِلٰهِيِّ بِالمُتَكَبِّرِينَ. فَمَنْ بَادَرَ بِالتَّوْبَةِ فِي زَمَنِ الإِمْهَالِ نَجَا مِنْ فِتْنَةِ الِاسْتِدْرَاجِ، بَيْنَمَا يَغْرَقُ المَغْرُورُ بِالنِّعَمِ فِي آثَامِهِ حَتَّى يَهْوِيَ إِلَى عَذَابٍ مُهِينٍ يُذِلُّ شُمُوخَهُ الزَّائِفَ.

الصَّدَى

فِتْنَةُ الإِمْهَالِ وَعَذَابُ الِاسْتِدْرَاجِ
صَدَى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

حَقِيقَةٌ مَهِيبَةٌ تَكْشِفُ سِرَّ طُولِ العُمْرِ وَتَدَفُّقِ النِّعَمِ عَلَى الجَاحِدِينَ، فَتُقَرِّرُ أَنَّ ذٰلِكَ الإِمْهَالَ لَيْسَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ اسْتِدْرَاجٌ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَيَسْتَحِقُّوا عَذَاباً مُهِيناً يُحَطِّمُ كِبْرِيَاءَهُمْ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاغْتِرَارِ بِتَأَخُّرِ العُقُوبَةِ عِنْدَ المُعْصِيَةِ أَوِ الانْبِهَارِ بِرَفَاهِيَةِ الظَّالِمِينَ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ التَّوْبَةِ السَّرِيعَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ الإِمْهَالُ إِلَى اسْتِدْرَاجٍ. وَكَمْ ظَنَّ المُتَجَبِّرُونَ قَدِيماً أَنَّ سَلَامَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا دَلِيلٌ عَلَى مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ الخَالِقِ، حَتَّى أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ العَذَابُ المُهِينُ بَعْدَ أَنِ امْتَلَأَتْ كَأْسُ آثَامِهِمْ! أَتَأَمَّلُ الطَّائِرَ الجَشِعَ الَّذِي يَدْخُلُ قَفَصَ الصَّيَّادِ المَفْتُوحَ وَيَرَى الحُبُوبَ مَنْثُورَةً بِسَخَاءٍ فِي الدَّاخِلِ، فَيَظُنُّ لِغَبَائِهِ أَنَّ الصَّيَّادَ يُكْرِمُهُ وَيُحِبُّهُ، فَيَظَلُّ يَأْكُلُ وَيَتَوَغَّلُ فِي أَعْمَاقِ القَفَصِ حَتَّى يُغْلَقَ البَابُ الحَدِيدِيُّ عَلَيْهِ فَجْأَةً فَيَقَعَ فِي الأَسْرِ وَالهَوَانِ. فَمَا أَشَدَّ مَكْرَ اللهِ بِالجَاحِدِينَ حِينَ يُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ثُمَّ يُذِيقُهُمْ عَذَاباً مُهِيناً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلنِّعَمِ إِلَى شُكْرٍ وَتَوْبَةٍ تَخْشَى الِاسْتِدْرَاجَ وَتَلْزَمُ الطَّاعَةَ. فَكُلُّ إِمْهَالٍ يَخْلُو مِنَ التَّوْبَةِ مَآلُهُ الإِهَانَةُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَزِيزِ المُقْتَدِرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 179 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

مِصْفَاةُ الِابْتِلَاءِ وَالتَّمْحِيصِ سُنَّةٌ لَا تَتَخَلَّفُ لِتَنْقِيَةِ صَفِّ الإِيمَانِ وَفَصْلِ الجَوْهَرِ الطَّيِّبِ عَنْ خَبَثِ النِّفَاقِ وَالِادِّعَاءِ؛ إِذْ لَمْ يَجْعَلِ الخَالِقُ الغَيْبَ مَكْشُوفاً لِأَعْيُنِ البَشَرِ لِيَعْرِفُوا السَّرَائِرَ، بَلْ نَصَبَ مَوَازِينَ الأَحْدَاثِ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ المُجْتَبَيْنَ لِتَنْكَشِفَ المَعَادِنُ فِي سَاحَةِ العَمَلِ وَالِامْتِحَانِ. فَمَنْ صَدَقَ فِي إِيمَانِهِ بِالخَالِقِ وَرُسُلِهِ وَتَدَرَّعَ بِالتَّقْوَى نَالَ الأَجْرَ العَظِيمَ وَثَبَتَ فِي صَفِّ الطَّيِّبِينَ، بَيْنَمَا يَتَسَاقَطُ الخَبِيثُ عِنْدَ هَزَّةِ الغِرْبَالِ وَيُفْضَحُ زَيْفُهُ أَمَامَ العَالَمِينَ.

الصَّدَى

غِرْبَالُ التَّمْيِيزِ وَنَقَّاءُ الطَّيِّبِينَ

صَدَى ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

حِكْمَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَكْشِفُ سِرَّ تَتَابُعِ الِابْتِلَاءَاتِ، فَتُقَرِّرُ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تَتْرُكُ الصَّفَّ مَخْلُوطاً حَتَّى تُمَيِّزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ عَبْرَ مَوَاقِفِ العَمَلِ، مَعَ تَجْدِيدِ الدَّعْوَةِ لِلْإِيمَانِ بِالخَالِقِ وَرُسُلِهِ وَالتَّقْوَى الَّتِي تَضْمَنُ الأَجْرَ العَظِيمَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّبَرُّمِ مِنْ تَكْرَارِ الِاخْتِبَارَاتِ أَوِ التَّطَلُّعِ إِلَى مَعْرِفَةِ غَيْبِ النَّاسِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الِابْتِلَاءَ هُوَ الغِرْبَالُ العَادِلُ الَّذِي يُبْقِي الطَّيِّبَ وَيُسْقِطُ الخَبِيثَ. وَكَمْ اخْتَلَطَ قَدِيماً الصَّادِقُونَ بِالمُنَافِقِينَ فِي أَوْقَاتِ الرَّخَاءِ، حَتَّى جَاءَتِ المِحَنُ لِتَكْشِفَ السَّرَائِرَ وَتُثَبِّتَ أَهْلَ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى! أَتَأَمَّلُ المِزَارِعَ الحَكِيمَ الَّذِي يَجْمَعُ حَصَادَ القَمْحِ المِخْلُوطَ بِالأَشْوَاكِ وَالتُّرَابِ وَالحَصَى، كَيْفَ يَضَعُهُ فِي الغِرْبَالِ وَيَهُزُّهُ بِقُوَّةٍ لِتَسْقُطَ الشَّوَائِبُ الخَبِيثَةُ إِلَى الأَسْفَلِ وَتَبْقَى الحَبَّاتُ الطَّيِّبَةُ نَقِيَّةً صَافِيَةً فِي الأَعْلَى تَصْلُحُ لِلْبَذْرِ وَالعَطَاءِ. فَمَا أَعْظَمَ تَدْبِيرَ اللهِ الَّذِي يَمِيزُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعِدُ المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ بِأَجْرٍ عَظِيمٍ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُؤْيَتِي لِلِامْتِحَانَاتِ إِلَى حِرْصٍ عَلَى أَنْ أَكُونَ مِنَ الطَّيِّبِينَ بِالإِيمَانِ وَالتَّقْوَى. فَكُلُّ خَبِيثٍ يَتَسَتَّرُ فِي الصَّفِّ مَآلُهُ السُّقُوطُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُكْرِمُ الطَّيِّبِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 180 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

قُيُودُ الشُّحِّ الَّتِي تَقْبِضُ الأَكُفَّ عَنِ البَذْلِ وَالعَطَاءِ تَنْقَلِبُ يَوْمَ الحَشْرِ أَطْوَاقاً مِنَ النَّارِ وَالعَذَابِ تَلْتَفُّ حَوْلَ أَعْنَاقِ البُخَلَاءِ، فَتَخْنُقُ أَنْفَاسَهُمْ بِمَا مَنَعُوهُ مِنْ حَقِّ السَّمَاءِ وَالفُقَرَاءِ. فَمَا تِلْكَ الخَزَائِنُ المَكْنُوزَةُ إِلَّا وَدَائِعُ عَابِرَةٌ سَتَعُودُ فِي نِهَايَةِ المِطَافِ إِلَى مَالِكِهَا الأَوَّلِ الَّذِي لَهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، بَيْنَمَا يَبْقَى وِزْرُ البُخْلِ وَشَرُّهُ مُلَازِماً لِصَاحِبِهِ تَحْتَ رَقَابَةِ الخَبِيرِ بِخَفَايَا

الأَعْمَالِ. فَمَنْ أَطْلَقَ يَدَهُ بِالجُودِ وَأَدَّى حَقَّ مَالِهِ نَجَا مِنْ طَوْقِ الشُّحِّ وَنَالَ البَرَكَةَ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ البَخِيلُ ثَرْوَتَهُ طَوْقاً يُعَذَّبُ بِهِ يَوْمَ يَرِثُ الدَّيَّانُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

الصَّدَى

طَوْقُ البُخْلِ وَمِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

صَدَى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

حَقِيقَةٌ مَهِيبَةٌ تَكْشِفُ سُوءَ عَاقِبَةِ الشُّحِّ، فَتُقَرِّرُ أَنَّ المالَ المَمْنُوعَ عَنْ حَقِّ اللهِ شَرٌّ عَلَى صَاحِبِهِ سَيُطَوَّقُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَتُذَكِّرُ بِأَنَّ مِيرَاثَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِلْخَالِقِ الخَبِيرِ بِالأَعْمَالِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ إِمْسَاكَ المالِ وَكَنْزَهُ يَحْفَظُ الغِنَى أَوْ يَجْلِبُ الأَمَانَ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ البُخْلَ قَيْدٌ يَخْنُقُ صَاحِبَهُ فِي الآخِرَةِ بَعْدَ أَنْ يَتْرُكَ مَالَهُ لِغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا. وَكَمْ ظَنَّ البُخَلاءُ قَدِيماً أَنَّهُمْ أَذْكِيَاءُ حِينَ حَبَسُوا فَضْلَ السَّمَاءِ فِي خَزَائِنِهِمْ، حَتَّى أَنْذَرَتْهُمْ هٰذِهِ الآيَةُ بِذٰلِكَ الطَّوْقِ الثَّقِيلِ يَوْمَ القِيَامَةِ! أَتَأَمَّلُ المسَافِرَ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى رَقَبَتِهِ سِلْسِلَةً ثَقِيلَةً مِنَ الحَدِيدِ الصَّدِئِ وَيَرْفُضُ أَنْ يَفُكَّهَا أَوْ يُنْفِقَ مِنْهَا فِي الطَّرِيقِ ظَانّاً أَنَّ ثِقَلَهَا زِينَةٌ لَهُ، فَمَا إِنْ يَصِلَ إِلَى النَّهْرِ العَظِيمِ الَّذِي يَجِبُ عُبُورُهُ حَتَّى تَكُونَ تِلْكَ السِّلْسِلَةُ نَفْسُهَا هِيَ الطَّوْقَ الَّذِي يَخْنُقُهُ وَيُغْرِقُهُ فِي القَاعِ بَيْنَمَا يَعْبُرُ المُنْفِقُونَ خِفَافاً آمِنِينَ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الخَبِيرِ بِمَا نَعْمَلُ الَّذِي لَهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيُطَوِّقُ البُخَلاءَ بِمَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الحِسَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْمَالِ إِلَى سَخَاءٍ يَقِظٍ يُؤَدِّي حَقَّ الفَضْلِ قَبْلَ أَنْ يَعُودَ المِيرَاثُ كُلُّهُ لِخَالِقِهِ. فَكُلُّ بُخْلٍ مَآلُهُ الطَّوْقُ وَالعَذَابُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي لَهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٨١–١٩٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 181 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

المَوْعِظَةُ

وَقَاحَةُ الأَلْسِنَةِ المتَطَاوِلَةِ عَلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ تَتَبَخَّرُ أَمَامَ رَقَابَةِ السَّمِيعِ العَلِيمِ الَّذِي تَرْصُدُ أَقْلَامُهُ كُلَّ هَمْسَةٍ وَجُرْأَةٍ، فَتَجْمَعُ بَيْنَ سُوءِ الأَدَبِ مَعَ الخَالِقِ وَتَارِيخِ السَّفْكِ لِدِمَاءِ المرْسَلِينَ فِي صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَضِيعُ. فَمَا تَبَجَّحَ بِهِ المتَكَبِّرُونَ مِنْ غِنًى زَائِفٍ يَنْقَلِبُ حَسْرَةً وَهَوَاناً حِينَ تُفْتَحُ السِّجِلَّاتُ المكْتُوبَةُ وَيُدْفَعُونَ إِلَى أُتُونِ الحَرِيقِ جَزَاءَ اسْتِهْزَائِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ. فَمَنْ أَدَّبَ لِسَانَهُ مَعَ مَوْلَاهُ وَاعْتَرَفَ بِفَقْرِهِ إِلَى الغَنِيِّ الحَمِيدِ نَجَا مِنْ مَهَاوِي السَّعِيرِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ المتَطَاوِلُ المسْتَكْبِرُ ذَوْقَ الحَرِيقِ وَسُوءَ المصِيرِ.

الصَّدَى

سِجِلُّ الوَقَاحَةِ وَذَوْقُ الحَرِيقِ

صَدَى ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

صَحَائِفُ سَمَاوِيَّةٌ تَرْصُدُ تَطَاوُلَ الأَلْسِنَةِ وَتُحْصِي جَرَائِمَ القَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَتُعْلِنُ أَنَّ سَمْعَ الخَالِقِ مُحِيطٌ بِكُلِّ كَلِمَةٍ وَأَنَّ عَذَابَ الحَرِيقِ يَنْتَظِرُ المسْتَكْبِرِينَ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاسْتِهَانَةِ بِالكَلِمَاتِ العَابِرَةِ أَوِ التَّجَرُّؤِ عَلَى أَحْكَامِ السَّمَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ كُلَّ نُطْقٍ يَخْرُجُ مِنَ الفَمِ يُكْتَبُ فِي دِيوَانِ الحِسَابِ. وَكَمْ أَطْلَقَتِ الغَفْلَةُ قَدِيماً عِبَارَاتٍ تَحْمِلُ الكِبْرَ وَالِاسْتِهْزَاءَ، فَكَانَتْ وَقُوداً لِنَارٍ لَا تَنْطَفِئُ يَوْمَ اللِّقَاءِ! أَتَأَمَّلُ المجْنُونَ الَّذِي يَقِفُ أَمَامَ النَّهْرِ العَظِيمِ الفَائِضِ بِالحَيَاةِ وَهُوَ يَحْمِلُ كُوباً صَغِيراً مِنَ الماءِ العَكِرِ فَيَصْرُخُ مُتَبَاهِياً بِأَنَّهُ غَنِيٌّ وَالنَّهْرُ فَقِيرٌ، فَيَرْصُدُهُ حُرَّاسُ المِلْكِ وَيَسْحِلُونَ جَهْلَهُ وَعُدْوَانَهُ حَتَّى يَحِلَّ بِهِ العِقَابُ الأَلِيمُ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَسْمَعُ قَوْلَ المسْتَكْبِرِينَ وَيَكْتُبُ جَرَائِمَهُمْ ثُمَّ يُذِيقُهُمْ عَذَابَ الحَرِيقِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَلْفَاظِي إِلَى أَدَبٍ خَاشِعٍ يَعْتَرِفُ بِفَقْرِهِ إِلَى الغَنِيِّ الحَمِيدِ. فَكُلُّ كِبْرٍ عَلَى السَّمَاءِ مَآلُهُ الحَرِيقُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الغَنِيِّ الحَمِيدِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 182 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

المَوْعِظَةُ

ثِمَارُ الحَصَادِ فِي سَاحَةِ الجَزَاءِ تَنْبُتُ مِنَ البُذُورِ الَّتِي غَرَسَتْهَا الأَيْدِي فِي أَرْضِ الدُّنْيَا؛ فَلَا جَوْرَ فِي مِيزَانِ الدَّيَّانِ وَلَا حَيْفَ فِي قَضَاءِ الرَّحْمٰنِ، بَلْ هُوَ العَدْلُ المطْلَقُ الَّذِي يَرُدُّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ صَنِيعَهَا بِالقِسْطِ المبِينِ. فَحِينَ يَتَجَرَّعُ الجَاحِدُ مَرَارَةَ الحَرِيقِ يَنْطِقُ الوَاقِعُ بِأَنَّ كَفَّيْهِ هُمَا اللَّتَانِ أَوْقَدَتَا تِلْكَ النَّارَ وَجَمَعَتَا حَطَبَهَا بَعْدَ أَنْ تَنَزَّهَ المِلكُ الجَلِيلُ عَنْ ظُلْمِ العَبِيدِ. فَمَنْ غَرَسَ أَعْمَالَ البِرِّ وَالطَّاعَةِ جَنَى ثَمَرَةَ النَّعِيمِ وَالرِّضْوَانِ، بَيْنَمَا يَحْصُدُ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

الصَّدَى

حَصَادُ الأَيْدِي وَتَنْزِيهُ الدَّيَّانِ

صَدَى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

حَقِيقَةٌ قَاطِعَةٌ تَقْطَعُ أَعْذَارَ المقَصِّرِينَ وَتُبْرِئُ سَاحَةَ القَدَرِ، فَتُعْلِنُ أَنَّ العَذَابَ هُوَ ثَمَرَةُ مَا قَدَّمَتْهُ الأَيْدِي وَأَنَّ الخَالِقَ مُنَزَّهٌ عَنْ ظُلْمِ العَبِيدِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ إِلْقَاءِ اللُّومِ عَلَى الظُّرُوفِ أَوِ الأَقْدَارِ عِنْدَ نُزُولِ البَلَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ مَسْؤُولِيَّةُ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ أُقَدِّمُهُ اليَوْمَ هُوَ البَذْرَةُ الَّتِي سَأَحْصُدُهَا غَداً. وَكَمْ حَاوَلَتِ النُّفُوسُ الجَاحِدَةُ قَدِيماً أَنْ تَتَنَصَّلَ مِنْ جَرَائِمِهَا، حَتَّى أَسْكَتَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ بِبَيَانِ عَدْلِ السَّمَاءِ وَتَبِعَةِ العَمَلِ! أَتَأَمَّلُ الزَّارِعَ الَّذِي بَذَرَ الشَّوْكَ وَالحَنْظَلَ فِي حَقْلِهِ بِيَدَيْهِ وَسَقَاهُ طِيلَةَ العَامِ، كَيْفَ يَجِدُ فِي مَوْسِمِ الحَصَادِ غَابَةً مِنَ الأَشْوَاكِ تَجْرَحُ جَسَدَهُ وَثِمَاراً مُرَّةً تَحْرِقُ حَلْقَهُ، فَيُدْرِكُ أَنَّ الأَرْضَ لَمْ تَظْلِمْهُ وَإِنَّمَا رَدَّتْ إِلَيْهِ مَا غَرَسَتْهُ يَدَاهُ. فَمَا أَعْظَمَ عَدْلَ اللهِ الَّذِي لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ وَيُجَازِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهَا! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَفْعَالِي إِلَى غَرْسٍ طَيِّبٍ يَبْحَثُ عَنْ حَصَادِ النَّجَاةِ وَالسَّلَامِ. فَكُلُّ سُوءٍ يَجْنِيهِ المرْءُ هُوَ مِنْ صُنْعِ يَدَيْهِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ العَادِلِ الحَكِيمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 183 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَقْنِعَةُ الشُّرُوطِ التَّعْجِيزِيَّةِ الَّتِي يَخْتَلِقُهَا المعَانِدُونَ لِتَبْرِيرِ جُحُودِهِمْ تَتَهَاوَى أَمَامَ شَهَادَةِ التَّارِيخِ الدَّامِغَةِ؛ إِذْ تَفْضَحُ صَفَحَاتُ الماضِي أَنَّهُمْ قَتَلُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاؤُوهُمْ بِالبَيِّنَاتِ البَاهِرَةِ وَبِالقُرْبَانِ الَّذِي تَأْكُلُهُ النَّارُ عَيْنِهِ. فَمَنْ كَانَتْ عِلَّتُهُ فِي الكِبْرِ وَالهَوَى لَمْ تُغْنِ عَنْهُ المعْجِزَاتُ المادِّيَّةُ وَلَا الشَّوَاهِدُ السَّمَاوِيَّةُ، بَلْ يَنْقَلِبُ حِقْدُهُ سَيْفاً يُطَارِدُ الهُدَاةَ وَيُطْفِئُ أَنْوَارَ البَيَانِ. فَمَنْ طَلَبَ الحَقَّ بِصِدْقٍ كَفَاهُ البُرْهَانُ الوَاضِحُ وَانْقَادَ لِلْهُدَى، بَيْنَمَا يَفْتَضِحُ كَذِبُ المتَعَنِّتِ حِينَ يُوَاجَهُ بِتَنَاقُضِ أَفْعَالِهِ مَعَ شُرُوطِهِ وَدَعَاوَاهُ.

الصَّدَى

شُرُوطُ العِنَادِ وَفَضِيحَةُ التَّارِيخِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ نَاصِعَةٌ تَهْدِمُ مَعَاذِيرَ المكابِرِينَ الَّذِينَ يَشْتَرِطُونَ آيَاتٍ خَاصَّةً لِلْإِيمَانِ، فَتُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ رُسُلاً قَدْ جَاؤُوهُمْ بِالبَيِّنَاتِ وَبِذٰلِكَ القُرْبَانِ فَقَتَلُوهُمْ، مِمَّا يَفْضَحُ كَذِبَهُمْ وَعِنَادَهُمْ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْخِدَاعِ بِالمبَرِّرَاتِ الوَهْمِيَّةِ الَّتِي يَضَعُهَا الهَوَى أَمَامَ قَبُولِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ حَقِيقَةُ أَنَّ الإِيمَانَ يَحْتَاجُ إِلَى قَلْبٍ صَادِقٍ لَا إِلَى شُرُوطٍ تَعْجِيزِيَّةٍ. وَكَمْ اخْتَلَقَ المعَانِدُونَ قَدِيماً عَقَبَاتٍ زَائِفَةً لِلْهَرَبِ مِنَ الِاتِّبَاعِ، حَتَّى أَسْكَتَهُمُ الوَحْيُ بِسُؤَالِ الصِّدْقِ وَالتَّارِيخِ! أَتَأَمَّلُ المرِيضَ المعَانِدَ الَّذِي يَرْفُضُ الدَّوَاءَ الشَّافِيَ بِحُجَّةِ أَنَّهُ يُرِيدُهُ فِي إِنَاءٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَيُذَكِّرُهُ الطَّبِيبُ بِأَنَّ أَطِبَّاءَ قَدْ جَاؤُوهُ مِنْ قَبْلُ بِالدَّوَاءِ فِي إِنَاءِ الذَّهَبِ فَكَسَرَ الإِنَاءَ وَطَرَدَ الأَطِبَّاءَ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الشِّفَاءَ وَيُحِبُّ المرَضَ. فَمَا أَعْظَمَ بُرْهَانَ اللهِ الَّذِي يُفْحِمُ المكَذِّبِينَ بِتَنَاقُضِ تَارِيخِهِمْ مَعَ دَعَاوَاهُمْ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ اسْتِجَابَتِي لِلْحَقِّ إِلَى تَجَرُّدٍ صَادِقٍ يَقْبَلُ البُرْهَانَ دُونَ تَعَنُّتٍ. فَكُلُّ شَرْطٍ يَصْنَعُهُ الهَوَى مَآلُهُ الفَضِيحَةُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِصِدْقِ اللهِ وَحُجَّتِهِ البَالِغَةِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 184 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

المَوْعِظَةُ

نَسِيمُ التَّسْلِيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِ الرِّسَالَةِ غُبَارَ الجُحُودِ وَأَلَمَ التَّكْذِيبِ، فَيَرْبِطُ قَافِلَةَ الهِدَايَةِ الحَاضِرَةِ بِمَوْكِبِ الأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ قُوبِلُوا بِالإِنْكَارِ رَغْمَ سُطُوعِ البَيِّنَاتِ وَحِكْمَةِ الزُّبُرِ وَإِشْرَاقِ الكِتَابِ المُنِيرِ. فَلَيْسَ إِعْرَاضُ الجَاحِدِينَ دَلِيلاً عَلَى خَفَاءِ الحَقِّ أَوْ ضَعْفِ الحُجَّةِ، بَلْ هُوَ سُنَّةُ التَّدَافُعِ بَيْنَ نُورِ السَّمَاءِ وَظُلُمَاتِ الأَهْوَاءِ عَبْرَ العُصُورِ. فَمَنْ تَأَسَّى بِصَبْرِ المُرْسَلِينَ وَثَبَتَ عَلَى الكِتَابِ المُنِيرِ هَانَ عَلَيْهِ جُحُودُ المُكَذِّبِينَ، بَيْنَمَا يَضِيقُ صَدْرُ مَنْ ظَنَّ أَنَّ طَرِيقَ الدَّعْوَةِ خَالٍ مِنَ العَقَبَاتِ وَالإِنْكَارِ.

الصَّدَى

مَوْكِبُ الرُّسُلِ وَنُورُ الكِتَابِ المُنِيرِ

صَدَى ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾

تَسْلِيَةٌ سَمَاوِيَّةٌ دَافِئَةٌ تُخَفِّفُ أَلَمَ التَّكْذِيبِ عَنْ قَلْبِ النَّبِيِّ وَالدُّعَاةِ إِلَى الحَقِّ، فَتُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّ رُسُلاً كِرَاماً مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاؤُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالكُتُبِ المُنِيرَةِ فَقُوبِلُوا بِالجُحُودِ وَالإِنْكَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الوَحْشَةِ أَوِ الشَّكِّ عِنْدَ إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنِ الحَقِّ الوَاضِحِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ الِاقْتِدَاءِ بِمَوْكِبِ الأَنْبِيَاءِ الصَّابِرِينَ. وَكَمْ حَزِنَتِ القُلُوبُ الصَّادِقَةُ قَدِيماً حِينَ رَأَتِ البُرْهَانَ السَّاطِعَ يُقَابَلُ بِالتَّكْذِيبِ، حَتَّى أَرَاحَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ بِأَنَّ ذٰلِكَ دَأْبُ المِعَانِدِينَ مَعَ كُلِّ كِتَابٍ مُنِيرٍ! أَتَأَمَّلُ حَامِلَ المِشْعَلِ الوَهَّاجِ الَّذِي يَسِيرُ فِي لَيْلٍ مُظْلِمٍ لِيَهْدِيَ أَهْلَ القَرْيَةِ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ فَيُغْلِقُونَ نَوَافِذَهُمْ وَيُنْكِرُونَ ضَوْءَهُ، فَيَتَذَكَّرُ أَنَّ حَمَلَةَ المِشَاعِلِ مِنْ قَبْلِهِ قَدْ لَقُوا نَفْسَ الجُحُودِ فَيَمْضِي فِي طَرِيقِهِ مُطْمَئِنّاً لِأَنَّ نُورَ المِشْعَلِ حَقٌّ فِي ذَاتِهِ وَلَوْ أَنْكَرَهُ العُمْيَانُ. فَمَا أَعْظَمَ تَثْبِيتَ اللهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ التَّكْذِيبَ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ لَا تَنَالُ مِنْ إِشْرَاقِ الكِتَابِ المُنِيرِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ رُوحِي عِنْدَ الإِنْكَارِ إِلَى صَبْرٍ وَاعْتِزَازٍ بِالبَيِّنَاتِ وَالكِتَابِ المُنِيرِ. فَكُلُّ تَكْذِيبٍ لِلنُّورِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِكِتَابِ اللهِ المُنِيرِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 185 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

المَوْعِظَةُ

كَأْسُ المَنِيَّةِ دَائِرَةٌ عَلَى كُلِّ ذِي رُوحٍ فَلَا يَنْجُو مِنْ تَجَرُّعِهَا جَبَّارٌ وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا مَخْلُوقٌ، لِتُطْوَى بِهَا صَحِيفَةُ الدَّارِ الفَانِيَةِ الَّتِي لَيْسَتْ إِلَّا مَتَاعاً خَادِعاً يَغُرُّ العُيُونَ بِبَرِيقِهِ الزَّائِلِ. فَمِقْيَاسُ الفَوْزِ الحَقِيقِيِّ لَا يُقَاسُ بِمَا جُمِعَ فِي الأَرْضِ مِنْ زُخْرُفٍ، بَلْ بِتِلْكَ اللَّحْظَةِ الفَاصِلَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ تُزَحْزَحُ القَدَمُ عَنْ حَافَةِ الجَحِيمِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ الجَنَّةِ؛ فَهُنَاكَ يَتَحَقَّقُ الظَّفَرُ الأَبَدِيُّ وَيُوفَّى العَامِلُونَ أُجُورَهُمْ كَامِلَةً بِلَا نُقْصَانٍ. فَمَنْ زَهِدَ فِي مَتَاعِ الغُرُورِ وَسَعَى لِزَحْزَحَةِ نَفْسِهِ عَنِ النَّارِ فَازَ الفَوْزَ العَظِيمَ، بَيْنَمَا يَنْخَدِعُ المَفْتُونُ بِالدُّنْيَا حَتَّى يَفْجَأَهُ المَوْتُ وَيَخْسَرَ المَآلَ.

الصَّدَى

كَأْسُ المَنِيَّةِ وَحَقِيقَةُ الفَوْزِ الأَكْبَرِ

صَدَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

حَقِيقَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَهُزُّ الكِيَانَ وَتُعِيدُ تَرْتِيبَ المَوَازِينِ؛ فَكُلُّ نَفْسٍ سَتَذُوقُ المَوْتَ لَا مَحَالَةَ، وَالفَوْزُ الحَقِيقِيُّ هُوَ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْنَمَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مَتَاعُ غُرُورٍ زَائِلٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِانْغِمَاسِ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا أَوْ قِيَاسِ النَّجَاحِ بِحُطَامِهَا الفَانِي، وَتَسْتَقِرُّ بُوصَلَةُ الخُلُودِ الَّتِي تَرَى الفَوْزَ الوَحِيدَ فِي العُبُورِ الآمِنِ إِلَى الجَنَّةِ. وَكَمْ غَرَّتِ الدُّنْيَا قَدِيماً عُقُولاً فَأَنْسَتْهَا كَأْسَ المَوْتِ وَسَاعَةَ تَوْفِيَةِ الأُجُورِ، حَتَّى أَيْقَظَهَا هٰذَا البَيَانُ الخَالِدُ الَّذِي يَكْشِفُ زَيْفَ الغُرُورِ!

أَتَأَمَّلُ المُسَافِرَ الَّذِي يَرْكَبُ قِطَاراً سَرِيعاً يَمُرُّ بِهِ عَلَى قُرَى مَرْسُومَةٍ بِأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ خَادِعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى المَحَطَّةِ الأَخِيرَةِ حَيْثُ القَصْرُ الأَبَدِيُّ أَوِ الهَاوِيَةُ السَّحِيقَةُ، فَيُدْرِكُ العَاقِلُ أَنَّ تِلْكَ الرُّسُومَ مَتَاعُ غُرُورٍ يَمُرُّ فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ فَلَا يَنْشَغِلُ بِهَا عَنِ الِاسْتِعْدَادِ لِمَحَطَّةِ الخُلُودِ وَالفَوْزِ. فَمَا أَعْظَمَ تَذْكِيرَ اللهِ لِلْبَشَرِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَأَنَّ الفَوْزَ هُوَ الزَّحْزَحَةُ عَنِ النَّارِ وَدُخُولُ الجَنَّةِ!

هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ غَايَتِي فِي الحَيَاةِ إِلَى سَعْيٍ دَائِمٍ لِلْفَوْزِ الأَكْبَرِ دُونَ انْخِدَاعٍ بِمَتَاعِ الغُرُورِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ دُنْيَوِيٍّ مَآلُهُ الفَنَاءُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَنَعِيمِ الجَنَّةِ الَّذِي يَفُوزُ بِهِ المُتَّقُونَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 186 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاحُ الِامْتِحَانِ لَا بُدَّ أَنْ تَهُبَّ عَلَى الخَزَائِنِ وَالأَبْدَانِ وَالآذَانِ؛ فَتُخْتَبَرُ القُلُوبُ بِفَقْدِ المالِ وَأَلَمِ الجَسَدِ وَسَمَاعِ سِهَامِ الأَذَى وَالتَّجْرِيحِ مِنْ أَلْسِنَةِ المعَانِدِينَ وَالمشْرِكِينَ. غَيْرَ أَنَّ الصَّبْرَ الجَمِيلَ المقْرُونَ بِالتَّقْوَى يَجْعَلُ الرُّوحَ كَالطَّوْدِ الأَشَمِّ الَّذِي لَا تُحَرِّكُهُ الأَعَاصِيرُ، وَيَرْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى مَقَامِ أُولِي العَزْمِ وَالإِرَادَةِ الصُّلْبَةِ الَّتِي تَقْهَرُ البَلَاءَ بِالثَّبَاتِ. فَمَنْ تَدَرَّعَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى أَمَامَ الأَذَى وَالِابْتِلَاءِ نَالَ شَرَفَ العَزْمِ وَالتَّوْفِيقِ، بَيْنَمَا يَنْهَارُ الجَزُوعُ السَّرِيعُ الغَضَبِ عِنْدَ أَوَّلِ كَلِمَةٍ جَارِحَةٍ أَوْ نَقْصٍ فِي المالِ.

الصَّدَى

رِيَاحُ الِابْتِلَاءِ وَعَزْمُ الصَّابِرِينَ
صَدَى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾
مِيثَاقُ التَّرْبِيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يُهَيِّئُ القُلُوبَ لِسُنَّةِ الِابْتِلَاءِ فِي المالِ وَالنَّفْسِ وَسَمَاعِ الأَذَى الكَثِيرِ، ثُمَّ يَمْنَحُهَا الدَّوَاءَ الشَّافِيَ فِي الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ تَوَقُّعِ الطَّرِيقِ الخَالِي مِنَ الأَذَى أَوِ الانْهِيَارِ أَمَامَ تَطَاوُلِ السُّفَهَاءِ، وَتَسْتَقِرُّ صَلَابَةُ أَنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى هُمَا قِمَّةُ العَزِيمَةِ وَالِارْتِقَاءِ. وَكَمْ أَزْعَجَتِ الأَلْسِنَةُ الجَارِحَةُ قَدِيماً نُفُوساً سَائِرَةً فِي طَرِيقِ الخَيْرِ، حَتَّى رَفَعَتْ هٰذِهِ الآيَةُ هِمَمَهُمْ إِلَى مَقَامِ عَزْمِ الأُمُورِ! أَتَأَمَّلُ النَّحْلَةَ البَاسِقَةَ المثْمِرَةَ الَّتِي يَرْمِيهَا العَابِثُونَ بِالحِجَارَةِ القَاسِيَةِ وَيَصِيحُونَ حَوْلَهَا بِالأَذَى، كَيْفَ تَصْبِرُ فِي شُمُوخٍ وَتَتَّقِي السُّقُوطَ بِثَبَاتِ جُذُورِهَا فِي

الأَرْضِ، ثُمَّ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْلَاهَا أَطْيَبَ الرُّطَبِ الجَنِيِّ دُونَ أَنْ يَنَالَ الأَذَى مِنْ عُلْوِّهَا أَوْ يَمْنَعَهَا مِنْ عَطَائِهَا. فَمَا أَعْظَمَ تَوْجِيهَ اللهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حِينَ يُعْلِمُهُمْ بِسُنَّةِ الِابْتِلَاءِ وَيُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّ الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مَوَاقِفِي أَمَامَ الأَذَى إِلَى صَبْرٍ عَزِيزٍ وَتَقْوَى تَرْتَفِعُ فَوْقَ الصَّغَائِرِ. فَكُلُّ أَذًى يُقَابَلُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى يَزِيدُ صَاحِبَهُ رِفْعَةً، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُؤَيِّدُ أُولِي العَزْمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 187 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

أَمَانَةُ العِلْمِ مِيثَاقٌ سَمَاوِيٌّ غَلِيظٌ يُوجِبُ عَلَى حَمَلَةِ الكِتَابِ إِشْعَالَ مَصَابِيحِ البَيَانِ لِلنَّاسِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ إِخْفَاءَ الحَقَائِقِ فِي ظُلُمَاتِ الكِتْمَانِ؛ غَيْرَ أَنَّ جَشَعَ الدُّنْيَا وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ دَفَعَا الخَائِنِينَ إِلَى إِلْقَاءِ العَهْدِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَبَيْعِ نُورِ السَّمَاءِ بِحُطَامٍ زَائِلٍ وَثَمَنٍ تَافِهٍ، فَبِئْسَتِ الصَّفْقَةُ الَّتِي تَسْتَبْدِلُ الفَانِيَ بِالبَاقِي وَالتُّرَابَ بِالنُّورِ. فَمَنْ صَدَعَ بِالحَقِّ وَبَيَّنَ العِلْمَ بِأَمَانَةٍ وَفَى بِمِيثَاقِ رَبِّهِ وَنَالَ شَرَفَ البَلَاغِ، بَيْنَمَا يَحْمِلُ كَاتِمُ العِلْمِ عَارَ النَّبْذِ وَسُوءَ الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ.

الصَّدَى

مِيثَاقُ البَيَانِ وَجَرِيمَةُ الكِتْمَانِ

صَدَى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

عَهْدٌ مَهِيبٌ يَرْبِطُ أَهْلَ العِلْمِ بِوَاجِبِ البَيَانِ لِلنَّاسِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الكِتْمَانِ، فَيَفْضَحُ الَّذِينَ أَلْقَوْا مِيثَاقَ السَّمَاءِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَبَاعُوهُ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ السُّكُوتِ عَنِ الحَقِّ طَلَباً لِلسَّلَامَةِ أَوِ المَكْسَبِ الدُّنْيَوِيِّ، وَتَسْتَقِرُّ مَسْؤُولِيَّةُ أَنَّ العِلْمَ أَمَانَةٌ يَجِبُ إِبْلَاغُهَا بِوُضُوحٍ وَنَزَاهَةٍ. وَكَمْ حَبَسَتِ الأَطْمَاعُ قَدِيماً نُورَ الكِتَابِ عَنِ العَطْشَى لِلْهِدَايَةِ

مُقَابِلَ جَاهٍ زَائِلٍ أَوْ مَالٍ قَلِيلٍ، حَتَّى هَتَكَ القُرْآنُ خِيَانَتَهُمْ وَقَبَّحَ صَفْقَتَهُمْ! أَتَأَمَّلُ حَارِسَ المَنَارَةِ الَّذِي أَخَذَ عَهْداً مَوْثُوقاً أَنْ يُشْعِلَ المِصْبَاحَ كُلَّ لَيْلَةٍ لِيَهْدِيَ السُّفُنَ التَّائِهَةَ فِي البَحْرِ المُظْلِمِ، فَبَاعَ زَيْتَ المَنَارَةِ بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَأَطْفَأَ نُورَهَا وَنَبَذَ العَهْدَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَتَحَطَّمَتِ السُّفُنُ عَلَى الصُّخُورِ وَبَاءَ هُوَ بِالخُسْرَانِ وَالعَارِ. فَمَا أَشَدَّ إِنْكَارَ اللهِ عَلَى مَنْ نَبَذُوا مِيثَاقَ البَيَانِ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي فِي المَعْرِفَةِ إِلَى بَيَانٍ صَادِقٍ يَنْشُرُ النُّورَ وَلَا يَبِيعُ الحَقَّ بِأَثْمَانِ الدُّنْيَا. فَكُلُّ كِتْمَانٍ لِلْحَقِّ مَآلُهُ الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَمِيثَاقِهِ الصَّادِقِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 188 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

المَوْعِظَةُ

زَهْوُ المخَادِعِينَ الَّذِينَ يَنْتَشُونَ بِصَنِيعِ التَّضْلِيلِ وَيَطْرَبُونَ لِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَى مَآثِرَ وَهْمِيَّةٍ لَمْ تَصْنَعْهَا أَيْدِيهِمْ لَيْسَ طَرِيقاً لِلنَّجَاةِ وَلَا مَأْمَناً مِنَ الحِسَابِ. فَالْحَمْدُ المسْرُوقُ بِالتَّزْوِيرِ وَالفَرَحُ بِالمعْصِيَةِ وَالكِتْمَانِ يَسُوقَانِ صَاحِبَهُمَا إِلَى أَلِيمِ العَذَابِ يَوْمَ تُسْقِطُ الحَقِيقَةُ كُلَّ الأَقْنِعَةِ الزَّائِفَةِ وَيُفْضَحُ المدَّعُونَ أَمَامَ العَالَمِينَ. فَمَنْ أَخْلَصَ عَمَلَهُ لِرَبِّهِ وَزَهِدَ فِي الثَّنَاءِ الكَاذِبِ نَجَا مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ، بَيْنَمَا يَهْوِي المفْتُونُ بِحَمْدٍ لَمْ يَسْتَحِقَّهُ إِلَى مَصْرَعِ الفَضِيحَةِ وَالعِقَابِ.

الصَّدَى

زَهْوُ التَّزْوِيرِ وَسَرَابُ الحَمْدِ الكَاذِبِ

صَدَى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

بَصِيرَةٌ تَهْتِكُ سِتَارَ الغُرُورِ عَنْ قُلُوبٍ تَفْرَحُ بِتَضْلِيلِ النَّاسِ وَتَعْشَقُ أَنْ تُحْمَدَ عَلَى أَعْمَالٍ لَمْ تَفْعَلْهَا، فَتُقَرِّرُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا فِي مَأْمَنٍ مِنَ العَذَابِ بَلْ يَنْتَظِرُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ السَّعَادَةِ بِثَنَاءِ البَشَرِ عَلَى مَظَاهِرَ زَائِفَةٍ أَوِ انْطِلَاءِ الخِدَاعِ عَلَى العُيُونِ، وَتَسْتَقِرُّ نَزَاهَةُ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَكْرَهُ

أَنْ تُحْمَدَ بِمَا لَمْ تَفْعَلْ. وَكَمْ انْتَفَخَتْ صُدُورٌ قَدِيماً بِأَوْسِمَةٍ مُزَوَّرَةٍ وَثَنَاءٍ كَاذِبٍ وَهِيَ تَسِيرُ نَحْوَ العَذَابِ الأَلِيمِ دُونَ أَنْ تَشْعُرَ! أَتَأَمَّلُ البَنَّاءَ الكَسُولَ الَّذِي يَبْنِي جِدَاراً مَائِلاً مِنَ الطِّينِ الهَشِّ ثُمَّ يَطْلِيهِ بِأَلْوَانٍ بَرَّاقَةٍ وَيَفْرَحُ بِتَصْفِيقِ العَابِرِينَ وَحَمْدِهِمْ لَهُ عَلَى إِتْقَانٍ لَمْ يَصْنَعْهُ، فَمَا إِنْ يَهْطِلَ المطَرُ الأَوَّلُ حَتَّى يَذُوبَ الطِّلَاءُ وَيَنْهَارَ الجِدَارُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَنْقَلِبَ ثَنَاءُ النَّاسِ إِلَى فَضِيحَةٍ وَعَذَابٍ أَلِيمٍ. فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَكْشِفُ زَيْفَ الفَرِحِينَ بِالتَّضْلِيلِ المحِبِّينَ لِلْحَمْدِ الكَاذِبِ وَيُعِدُّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ سَرِيرَتِي إِلَى صِدْقٍ خَالِصٍ يَعْمَلُ لِرَبِّهِ وَيَتَبَرَّأُ مِنَ الِادِّعَاءِ. فَكُلُّ حَمْدٍ يُبْنَى عَلَى الكَذِبِ مَآلُهُ العَذَابُ الأَلِيمُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 189 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

المَوْعِظَةُ

قَبْضَةُ السُّلْطَانِ المطْلَقِ تَمْتَدُّ مِنْ أَعَالِي السَّمَاوَاتِ إِلَى أَعْمَاقِ الأَرَضِينَ، فَلَا يَخْرُجُ عَنْ مَمْلَكَةِ الحَقِّ ذَرَّةٌ وَلَا يَعْجِزُ قُدْرَتَهُ شَيْءٌ فِي العَالَمِينَ. فَأَيْنَ يَفِرُّ الخَائِنُ المغْرُورُ وَأَيْنَ يَخْتَبِئُ المزَوِّرُ الكَاذِبُ وَالأَرْضُ كُلُّهَا دَارُ المِلْكِ وَالسَّمَاءُ سَقْفُهُ وَالقُدْرَةُ القَاهِرَةُ تُحِيطُ بِكُلِّ مَخْلُوقٍ؟! فَمَنْ عَرَفَ سَعَةَ مُلْكِ رَبِّهِ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ خَضَعَ لِجَلَالِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى أَمْرِهِ، بَيْنَمَا يَتِيهُ المسْتَكْبِرُ فِي أَوْهَامِهِ حَتَّى تَأْخُذَهُ قُدْرَةُ القَدِيرِ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

الصَّدَى

سُلْطَانُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِحَاطَةُ القَدِيرِ

صَدَى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

جَلَالٌ يَمْلَأُ الفَضَاءَ وَيُطَمْئِنُ القُلُوبَ؛ فَمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِلْخَالِقِ وَحْدَهُ، وَقُدْرَتُهُ المطْلَقَةُ تَنْفُذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِلَا عَائِقٍ وَلَا مُعِينٍ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الخَوْفِ مِنْ تَسَلُّطِ المخْلُوقِينَ أَوِ الشَّكِّ فِي إِمْكَانِ التَّغْيِيرِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّنِي أَعِيشُ فِي مُلْكِ رَبِّي القَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَكَمْ تَصَاغَرَتْ مَمَالِكُ الأَرْضِ قَدِيماً عِنْدَمَا أَشْرَقَتْ فِي العُقُولِ حَقِيقَةُ المُلْكِ الإِلٰهِيِّ الَّذِي لَا يُحَدُّ بِمَكَانٍ

وَلَا يَزُولُ بِزَمَانٍ! أَتَأَمَّلُ السَّمَاءَ الرَّحْبَةَ الَّتِي تَحْتَضِنُ المجَرَّاتِ وَالكَوَاكِبَ وَالأَرْضَ وَالجِبَالَ وَالبِحَارَ فِي قَبْضَةٍ وَاحِدَةٍ، كَيْفَ يَجْرِي فِيهَا أَمْرُ المَلِكِ القَدِيرِ بِنِظَامٍ مُبْهِرٍ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهِ وَنَفَاذِ مَشِيئَتِهِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنَ الوُجُودِ. فَمَا أَعْظَمَ جَلَالَ اللهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ طُمَأْنِينَتِي إِلَى عُبُودِيَّةٍ خَاشِعَةٍ تَثِقُ بِمَالِكِ المُلْكِ وَقُدْرَتِهِ. فَكُلُّ مُلْكٍ غَيْرُ مُلْكِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ القَدِيرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 190 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

كِتَابُ الكَوْنِ المَفْتُوحُ يَنْطِقُ فِي كُلِّ صَفْحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِهِ بِبَدِيعِ الصُّنْعِ وَجَلَالِ الإِبْدَاعِ؛ فَسَقْفُ السَّمَاءِ المَرْفُوعُ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَبِسَاطُ الأَرْضِ المَمْهُودُ بِالحِكْمَةِ، وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي انْسِجَامٍ لَا يَخْتَلُّ، كُلُّهَا رَسَائِلُ نُورَانِيَّةٌ لَا يَقْرَأُ أَسْرَارَهَا إِلَّا أَصْحَابُ العُقُولِ الصَّافِيَةِ وَالبَصَائِرِ الحَيَّةِ. فَمَنْ أَيْقَظَ لُبَّهُ لِلتَّأَمُّلِ فِي آيَاتِ الآفَاقِ ارْتَقَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الخَالِقِ وَتَعْظِيمِهِ، بَيْنَمَا يَمُرُّ الغَافِلُ تَحْتَ الكَوَاكِبِ وَفَوْقَ التُّرَابِ كَالأَعْمَى الَّذِي لَا يُبْصِرُ شَمْسَ النَّهَارِ وَلَا نُجُومَ اللَّيْلِ.

الصَّدَى

كِتَابُ الكَوْنِ وَيَقَظَةُ أُولِي الأَلْبَابِ

صَدَى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

مَعْرِضٌ كَوْنِيٌّ مُبْهِرٌ يَتَجَلَّى فِي رَفْعِ السَّمَاوَاتِ وَبَسْطِ الأَرْضِ وَتَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَيُوقِظُ العُقُولَ النَّيِّرَةَ لِتَقْرَأَ آيَاتِ الخَالِقِ المَبْثُوثَةَ فِي كُلِّ أُفُقٍ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الإِلْفَةِ البَارِدَةِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى مَشَاهِدِ الكَوْنِ دُونَ تَفَكُّرٍ أَوْ خُشُوعٍ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَرَوْنَ فِي كُلِّ شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ بُرْهَاناً عَلَى عَظَمَةِ البَارِئِ. وَكَمْ غَفَلَتِ الأَبْصَارُ قَدِيماً عَنْ دَلَالَاتِ الكَوْنِ المَشْهُودَةِ حِينَ حَجَبَتْهَا العَادَةُ عَنِ التَّأَمُّلِ، حَتَّى أَيْقَظَتْهَا هٰذِهِ الآيَةُ لِتُعِيدَ لِلْعَقْلِ بَصِيرَتَهُ! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ الكَوْنِيَّ العَظِيمَ وَهُوَ يَتَبَادَلُ الأَدْوَارَ مَعَ سِتَارِ اللَّيْلِ الهَادِئِ فِي دِقَّةٍ لَا تَتَأَخَّرُ ثَانِيَةً وَاحِدَةً مُنْذُ آلافِ

السِّنِينَ، فَيُوقِظُ النَّهَارُ الحَيَاةَ وَالحَرَكَةَ وَيُغْشِي اللَّيْلُ الكَائِنَاتِ بِالسَّكِينَةِ وَالرَّاحَةِ لِتَشْهَدَ كُلُّ لَحْظَةٍ بِحِكْمَةِ المُدَبِّرِ الحَكِيمِ. فَمَا أَعْظَمَ آيَاتِ اللهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الَّتِي تَهْدِي أُولِي الأَلْبَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِلْكَوْنِ إِلَى تَفَكُّرٍ دَائِمٍ يَزِيدُنِي مَعْرِفَةً بِالخَالِقِ وَخَشْيَةً لَهُ. فَكُلُّ غَفْلَةٍ عَنْ آيَاتِ الآفَاقِ عَمًى فِي البَصِيرَةِ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.

مَوَاعِظُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١٩١-٢٠٠)

مَوْعِظَةُ آيَةِ 191 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

المَوْعِظَةُ

نَبْضُ الذِّكْرِ الدَّائِمِ يَسْرِي فِي العُرُوقِ مَعَ كُلِّ نَفَسٍ وَحَرَكَةٍ، فَلَا يَنْقَطِعُ اتِّصَالُ الرُّوحِ بِخَالِقِهَا فِي قِيَامٍ وَلَا قُعُودٍ وَلَا اضْطِجَاعٍ، بَيْنَمَا تَجُولُ البَصِيرَةُ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لِتَقْرَأَ حِكْمَةَ الإِتْقَانِ وَتُنَزِّهَ البَارِئَ عَنِ العَبَثِ وَالبُطْلَانِ. فَحِينَ يَتَعَانَقُ ذِكْرُ اللِّسَانِ مَعَ تَفَكُّرِ الجَنَانِ، تَخِرُّ النَّفْسُ خَاشِعَةً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا تَسْأَلُهُ الوِقَايَةَ مِنْ لَهِيبِ السَّعِيرِ الَّذِي أُعِدَّ لِلْغَافِلِينَ. فَمَنْ عَمَرَ أَوْقَاتَهُ بِالذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَارْتَقَى فِي مَنَازِلِ القُرْبِ، بَيْنَمَا يَعِيشُ الغَافِلُ فِي كَوْنٍ فَارِغٍ مِنَ المَعْنَى حَتَّى يَفْجَأَهُ الحِسَابُ.

الصَّدَى

مِحْرَابُ الذِّكْرِ وَالتَّفَكُّرِ وَوِقَايَةُ النَّارِ

صَدَى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

سِمْفُونِيَّةٌ رُوحِيَّةٌ تَجْمَعُ بَيْنَ دَوَامِ الذِّكْرِ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ وَبَيْنَ التَّفَكُّرِ العَمِيقِ فِي بَدِيعِ الخَلْقِ، فَتُثْمِرُ تَسْبِيحاً يُنَزِّهُ الخَالِقَ عَنِ البَاطِلِ وَيَبْتَهِلُ إِلَيْهِ بِالوِقَايَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ حَصْرِ العِبَادَةِ فِي أَوْقَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ أَوْ نَظَرٍ عَابِرٍ إِلَى الكَوْنِ بِلَا اعْتِبَارٍ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ الحَيَاةَ

كُلَّهَا مِحْرَابٌ لِلذِّكْرِ وَالتَّأَمُّلِ. وَكَمْ مَرَّتِ السَّاعَاتُ قَدِيماً فِي صَمْتٍ غَافِلٍ عَنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ، حَتَّى أَيْقَظَتْنِي سِيرَةُ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَرَوْنَ الغَايَةَ وَالحِكْمَةَ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنَ الوُجُودِ! أَتَأَمَّلُ المِصْبَاحَ الزُّجَاجِيَّ الصَّافِيَ الَّذِي يَظَلُّ مُتَّقِداً بِنُورِهِ سَوَاءٌ وُضِعَ قَائِماً عَلَى المَنَارَةِ أَوْ مَوْضُوعاً عَلَى المَائِدَةِ أَوْ مَائِلاً فِي يَدِ السَّائِرِ، فَهُوَ يَعْكِسُ ضِيَاءَ السَّمَاءِ فِي كُلِّ وَضْعٍ وَيُبَدِّدُ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ حَوْلَهُ دُونَ انْقِطَاعٍ. فَمَا أَعْظَمَ مَقَامَ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِهِ فَيُنَزِّهُونَهُ وَيَسْأَلُونَهُ الوِقَايَةَ مِنَ النَّارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَنْفَاسِي إِلَى ذِكْرٍ مُتَّصِلٍ وَتَفَكُّرٍ يَخْشَى عَذَابَ النَّارِ. فَكُلُّ كَوْنٍ يُرَى بِغَيْرِ عَيْنِ الحِكْمَةِ ضَيَاعٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِالحَقِّ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 192 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

المَوْعِظَةُ

بَوَّابَةُ الجَحِيمِ هِيَ ذُرْوَةُ الهَوَانِ وَالانْكِسَارِ الأَبَدِيِّ الَّذِي يَمْحُو كُلَّ مَظَاهِرِ التَّجَبُّرِ وَالِافْتِخَارِ؛ فَمَنْ أَدْخَلَهُ العَدْلُ الإِلٰهِيُّ أُتُونَ السَّعِيرِ فَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الخِزْيُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَتَقَطَّعَتْ عَنْهُ حِبَالُ النُّصْرَةِ وَالإِغَاثَةِ. فَلَا جَاهَ يَشْفَعُ لِلظَّالِمِينَ يَوْمَ الحِسَابِ وَلَا حَلِيفَ يُنْقِذُهُمْ مِنْ مَصِيرِهِمُ المَشْؤُومِ، مِمَّا يَجْعَلُ التَّضَرُّعَ الخَاشِعَ لِلسَّلَامَةِ مِنَ النَّارِ أَعْظَمَ هَمٍّ يَسْكُنُ صُدُورَ العَارِفِينَ. فَمَنْ خَشِيَ خِزْيَ النَّارِ وَكُفَّ يَدَهُ عَنِ الظُّلْمِ أَكْرَمَهُ مَوْلَاهُ بِالنَّجَاةِ وَالعِزَّةِ، بَيْنَمَا يَقِفُ الظَّالِمُ وَحِيداً فِي عُزْلَةِ الخِذْلَانِ بِلَا نَصِيرٍ وَلَا مُجِيرٍ.

الصَّدَى

خِزْيُ الجَحِيمِ وَعُزْلَةُ الظَّالِمِينَ

صَدَى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

نِدَاءٌ يَرْتَجِفُ لَهُ القَلْبُ رَهْبَةً مِنْ عَارِ النَّارِ، فَيَعْتَرِفُ أَمَامَ المَلِكِ الحَقِّ بِأَنَّ دُخُولَ الجَحِيمِ هُوَ الخِزْيُ الأَكْبَرُ وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ نَصِيراً فِي ذٰلِكَ المَقَامِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الِاسْتِهَانَةِ

بِالفَضِيحَةِ الأُخْرَوِيَّةِ أَوِ الِاعْتِمَادِ عَلَى الأَعْوَانِ فِي الدُّنْيَا، وَتَسْتَقِرُّ مَهَابَةُ أَنَّ النَّجَاةَ مِنَ النَّارِ هِيَ العِزَّةُ الحَقِيقِيَّةُ. وَكَمْ تَطَاوَلَتْ أَعْنَاقُ الظَّالِمِينَ قَدِيماً بِالكِبْرِ وَالأَنْصَارِ فِي الأَرْضِ، غَافِلِينَ عَنْ يَوْمٍ يُسَاقُونَ فِيهِ إِلَى الخِزْيِ الأَبَدِيِّ بِلَا نَاصِرٍ وَلَا مُعِينٍ! أَتَأَمَّلُ المِلِكَ المخْلُوعَ الَّذِي تَجَبَّرَ وَظَلَمَ رَعِيَّتَهُ فَقُيِّدَ بِالسَّلَاسِلِ وَأُدْخِلَ السِّجْنَ المظْلِمَ أَمَامَ أَعْيُنِ الخَلَائِقِ جَمِيعاً، كَيْفَ يَتَلَاشَى كُلُّ جَاهِهِ القَدِيمِ وَيَتَفَرَّقُ عَنْهُ حُرَّاسُهُ وَأَعْوَانُهُ فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ الإِهَانَةَ وَالذُّلَّ الَّذِي أَحَاطَ بِهِ. فَمَا أَشَدَّ رَهْبَةَ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللهِ خَوْفاً مِنْ خِزْيِ النَّارِ وَانْقِطَاعِ النَّاصِرِينَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ مُنَاجَاتِي إِلَى تَضَرُّعٍ صَادِقٍ يَخْشَى الظُّلْمَ وَيَطْلُبُ العِزَّةَ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ. فَكُلُّ ظُلْمٍ مَآلُهُ الخِزْيُ وَالخِذْلَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُعِزُّ المتَّقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 193 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾

المَوْعِظَةُ

صَوْتُ الهِدَايَةِ يَخْتَرِقُ حُجُبَ الغَفْلَةِ فَيَجِدُ فِي القُلُوبِ الحَيَّةِ سَمْعاً مُصْغِياً وَاسْتِجَابَةً فَوْرِيَّةً لَا تَتَلَكَّأُ وَلَا تَتَرَدَّدُ. فَحِينَ يَتَرَدَّدُ نِدَاءُ الإِيمَانِ فِي الآفَاقِ، تُسْرِعُ الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ إِلَى التَّصْدِيقِ وَالتَّسْلِيمِ، ثُمَّ تَتَوَسَّلُ بِهٰذِهِ الِاسْتِجَابَةِ لِتَطْلُبَ مِنْ رَبِّهَا مَغْفِرَةَ الكَبَائِرِ وَتَكْفِيرَ الصَّغَائِرِ وَخِتَامَ الرِّحْلَةِ فِي رِفْقَةِ الأَبْرَارِ الأَطْهَارِ. فَمَنْ لَبَّى نِدَاءَ الإِيمَانِ بِصِدْقٍ وَسَأَلَ مَوْلَاهُ السَّتْرَ وَحُسْنَ الخِتَامِ لَحِقَ بِمَوْكِبِ الأَبْرَارِ، بَيْنَمَا يَظَلُّ الأَصَمُّ المعْرِضُ عَنْ نِدَاءِ السَّمَاءِ مَحْرُوماً مِنَ الغُفْرَانِ وَحُسْنِ المآلِ.

الصَّدَى

اسْتِجَابَةُ السَّمْعِ وَرِفْقَةُ الأَبْرَارِ

صَدَى ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾

لَحْظَةُ إِشْرَاقٍ يَلْتَقِي فِيهَا صَوْتُ المنَادِي لِلْإِيمَانِ مَعَ يَقَظَةِ القَلْبِ المسْتَجِيبِ، فَيُثْمِرُ تَصْدِيقاً

خَالِصاً يَتَوَسَّلُ إِلَى الخَالِقِ بِمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَالوَفَاةِ فِي زُمْرَةِ الأَبْرَارِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ التَّبَاطُؤِ عَنْ نِدَاءِ الوَحْيِ أَوِ الِاتِّكَالِ عَلَى صَلَاحِ العَمَلِ دُونَ طَلَبِ المَغْفِرَةِ وَالتَّكْفِيرِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ التَّوَسُّلِ بِالإِيمَانِ لِنَيْلِ حُسْنِ الخِتَامِ. وَكَمْ مَرَّتِ النِّدَاءَاتُ قَدِيماً عَلَى آذَانٍ غَافِلَةٍ فَلَمْ تُحَرِّكْ سَاكِناً، بَيْنَمَا أَحْيَتِ القُلُوبَ الصَّادِقَةَ فَبَادَرَتْ بِالإِيمَانِ وَالِابْتِهَالِ! أَتَأَمَّلُ المُسَافِرَ التَّائِهَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الَّذِي يَسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتَ دَلِيلٍ أَمِينٍ يُنَادِيهِ نَحْوَ قَافِلَةِ السَّلَامَةِ وَالنُّورِ، كَيْفَ يُلَبِّي النِّدَاءَ بِسُرْعَةٍ وَيَلْتَحِقُ بِالقَافِلَةِ ثُمَّ يَسْأَلُ سَيِّدَ القَافِلَةِ أَنْ يَغْسِلَ عَنْ ثِيَابِهِ غُبَارَ التِّيهِ القَدِيمِ وَأَنْ يُبْقِيَهُ فِي صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ حَتَّى يَبْلُغَ دَارَ السَّلَامِ. فَمَا أَعْظَمَ أَدَبَ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ بِإِيمَانِهِمْ لِيَغْفِرَ ذُنُوبَهُمْ وَيُكَفِّرَ سَيِّئَاتِهِمْ وَيَتَوَفَّاهُمْ مَعَ الأَبْرَارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ دَعَوَاتِي إِلَى تَوَسُّلٍ خَاشِعٍ يَرْجُو المَغْفِرَةَ وَصُحْبَةَ الأَبْرَارِ عِنْدَ الرَّحِيلِ. فَكُلُّ خِتَامٍ يَخْلُو مِنْ رِفْقَةِ الأَبْرَارِ خُسْرَانٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يُكْرِمُ الصَّادِقِينَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 194 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

المَوْعِظَةُ

ثِقَةُ اليَقِينِ بِصِدْقِ الوَعْدِ الإِلٰهِيِّ تَبْعَثُ فِي الرُّوحِ شَوْقاً خَاشِعاً لِإِنْجَازِ البَشَائِرِ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا أَلْسِنَةُ المُرْسَلِينَ، مَعَ تَضَرُّعٍ مُنْكَسِرٍ يَسْأَلُ السَّتْرَ وَالأَمَانَ مِنْ خِزْيِ الفَضِيحَةِ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَعْرِفَةُ العَبْدِ بِأَنَّ الخَالِقَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ لَا تَدْفَعُهُ إِلَى الغُرُورِ، بَلْ تَزِيدُهُ تَذَلُّلاً وَافْتِقَاراً كَيْ يَكُونَ أَهْلاً لِلْوَفَاءِ وَمَشْمُولاً بِالسَّتْرِ فِي المَوْقِفِ العَظِيمِ. فَمَنْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِوَعْدِ رَبِّهِ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ لِلسَّلَامَةِ مِنَ الخِزْيِ نَالَ كَمَالَ الوَفَاءِ وَالتَّكْرِيمِ، بَيْنَمَا يَخِيبُ رَجَاءُ مَنِ اتَّكَلَ عَلَى وُعُودِ البَشَرِ الَّتِي تَتَبَدَّلُ وَتَتَخَلَّفُ.

الصَّدَى

يَقِينُ الوَعْدِ وَالتَّضَرُّعُ لِلسَّتْرِ
صَدَى ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

تَضَرُّعٌ يَجْمَعُ بَيْنَ كَمَالِ الثِّقَةِ بِوَفَاءِ الخَالِقِ لِوَعْدِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَبَيْنَ كَمَالِ الخَوْفِ وَالانْكِسَارِ مِنْ خِزْيِ المَوْقِفِ يَوْمَ القِيَامَةِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الرَّيْبِ فِي مَوَاعِيدِ السَّمَاءِ أَوِ الأَمْنِ مِنَ الفَضِيحَةِ يَوْمَ العَرْضِ الأَكْبَرِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ اليَقِينِ بِأَنَّ الرَّبَّ الكَرِيمَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ. وَكَمْ أَخْلَفَتْ وُعُودُ الدُّنْيَا قَدِيماً آمَالَ المُنْتَظِرِينَ، حَتَّى أَشْرَقَتْ هٰذِهِ الحَقِيقَةُ الَّتِي تَرْبِطُ القَلْبَ بِوَفَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ! أَتَأَمَّلُ العَامِلَ الأَمِينَ الَّذِي أَتَمَّ بِنَاءَ الجِسْرِ بِأَمْرِ سَفِيرِ المَلِكِ الكَرِيمِ، كَيْفَ يَقِفُ عِنْدَ بَوَّابَةِ القَصْرِ يَوْمَ العَرْضِ خَافِضَ الجَنَاحِ يَسْأَلُ المَلِكَ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا وَعَدَهُ بِهِ رُسُلُهُ وَأَنْ يَسْتُرَ تَقْصِيرَهُ عَنِ الخَلَائِقِ، وَهُوَ مُوقِنٌ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِهِ أَنَّ المَلِكَ الحَقَّ لَا يُخْلِفُ وَعْداً قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ. فَمَا أَعْظَمَ رَجَاءَ أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ اللهَ إِنْجَازَ وَعْدِهِ وَالسَّلَامَةَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِ القِيَامَةِ يَقِيناً بِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ ثِقَتِي إِلَى رَجَاءٍ خَاشِعٍ يَنْتَظِرُ وَفَاءَ الخَالِقِ وَيَسْأَلُهُ السَّتْرَ يَوْمَ اللِّقَاءِ. فَكُلُّ مِيعَادٍ بَشَرِيٍّ قَدْ يَتَخَلَّفُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 195 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

غَيْبُ الِاسْتِجَابَةِ الفَوْرِيَّةِ يَهْطِلُ مِنَ المَلَكُوتِ لِيُتَوِّجَ ضَرَاعَةَ أُولِي الأَلْبَابِ بِدُسْتُورِ العَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ الإِيمَانِيَّةِ؛ فَلَا تَفْرِقَةَ فِي مِيزَانِ القَبُولِ بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى مَا دَامَ الجَمِيعُ يَنْبُعُونَ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَيَتَنَافَسُونَ فِي طَاعَةِ الدَّيَّانِ. فَكُلُّ هِجْرَةٍ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، وَكُلُّ إِخْرَاجٍ مِنَ الدِّيَارِ، وَكُلُّ أَذًى وَقِتَالٍ وَاسْتِشْهَادٍ، يَغْسِلُ السَّيِّئَاتِ وَيَفْتَحُ أَبْوَابَ الجِنَانِ الجَارِيَةِ الأَنْهَارِ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ مَنْ يَمْلِكُ حُسْنَ الثَّوَابِ. فَمَنْ بَذَلَ لِرَبِّهِ صَادِقاً وَجَدَ الِاسْتِجَابَةَ حَاضِرَةً وَالأَجْرَ مَوْفُوراً، بَيْنَمَا يَخِيبُ مَنْ أَضَاعَ عُمْرَهُ فِي سَعْيٍ لِغَيْرِ السَّمَاءِ.

الصَّدَى

غَيْثُ الِاسْتِجَابَةِ وَعَدَالَةُ الثَّوَابِ

صَدَى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

فَتْحٌ سَمَاوِيٌّ يَغْمُرُ القُلُوبَ الدَّاعِيَةَ بِسُرْعَةِ الِاسْتِجَابَةِ، فَيُعْلِنُ الخَالِقُ أَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلَ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَيُبَشِّرُ المهَاجِرِينَ وَالمؤْذَيْنَ وَالمجَاهِدِينَ بِتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَجَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَواباً مِنْ عِنْدِهِ حَيْثُ حُسْنُ الثَّوَابِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ أَنَّ التَّضْحِيَاتِ المَنْسِيَّةَ أَوِ الآلَامَ المَكْتُومَةَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ تَذْهَبُ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ وَجُرْحٍ مَرْصُودٌ لِأَجْلِ حُسْنِ الثَّوَابِ. وَكَمْ جَبَرَتْ هٰذِهِ الآيَةُ قَدِيماً خَوَاطِرَ المسْتَضْعَفِينَ وَالنِّسَاءِ وَالمهَاجِرِينَ حِينَ أَكَّدَتْ أَنَّ العَمَلَ الصَّادِقَ مَحْفُوظٌ بِالْعَدْلِ وَالكَرَمِ! أَتَأَمَّلُ النَّهْرَيْنِ العَذْبَيْنِ اللَّذَيْنِ يَنْبُعَانِ مِنْ قِمَّةِ جَبَلٍ وَاحِدٍ وَيَشُقَّانِ الصُّخُورَ وَالسُّهُولَ رَغْمَ العَوَائِقِ وَالسُّدُودِ، كَيْفَ يَصُبَّانِ مَعاً فِي بُحَيْرَةٍ صَافِيَةٍ تَحْتَضِنُهُمَا بِكَرَمٍ وَهَاءٍ فَتُحَوِّلُ تَعَبَ مَسِيرِهِمَا الطَّوِيلِ إِلَى سَكِينَةٍ دَائِمَةٍ وَجَمَالٍ خَالِدٍ. فَمَا أَعْظَمَ كَرَمَ اللهِ الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِعِبَادِهِ وَلَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْهُمْ وَيُكْرِمُهُمْ بِحُسْنِ الثَّوَابِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ تَضْحِيَاتِي فِي سَبِيلِ الحَقِّ إِلَى يَقِينٍ مُبْهِجٍ يَنْتَظِرُ حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّبِّ الكَرِيمِ. فَكُلُّ عَمَلٍ لِغَيْرِ السَّمَاءِ مَآلُهُ الضَّيَاعُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 196 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾

المَوْعِظَةُ

زَخْرَفَةُ المَوَاكِبِ العَابِرَةِ وَتَنَقُّلُ المتْرَفِينَ فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ بِالثَّرَاءِ وَالسُّلْطَانِ لَيْسَ إِلَّا خِدَاعاً بَصَرِيّاً يَغُرُّ العُيُونَ القَاصِرَةَ الَّتِي تَقِفُ عِنْدَ ظَوَاهِرِ الأَشْيَاءِ. فَمَا هٰذَا التَّقَلُّبُ الصَّاخِبُ فِي البِلَادِ إِلَّا حَرَكَةُ الفَرَاشَةِ حَوْلَ اللَّهَبِ قَبْلَ السُّقُوطِ، أَوْ لَمَعَانُ السَّرَابِ فِي البَيْدَاءِ الَّذِي يُوهِمُ العَطْشَانَ بِالمَاءِ وَهُوَ خَاوٍ مِنَ الحَيَاةِ وَالبَقَاءِ. فَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ البَصِيرَةِ إِلَى عَوَاقِبِ الأُمُورِ لَمْ يَغْتَرَّ بِتَقَلُّبِ الجَاحِدِينَ فِي

الدُّنْيَا، بَيْنَمَا يَنْبَهِرُ الغَافِلُ بِبَرِيقِ الطُّغْيَانِ وَيَنْسَى أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي نِهَايَةِ المطَافِ لِأَهْلِ التَّقْوَى وَاليَقِينِ.

الصَّدَى

سَرَابُ التَّقَلُّبِ وَبَصِيرَةُ العَاقِبَةِ

صَدَى ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾

نِدَاءٌ يُوقِظُ العُقُولَ مِنَ الِانْبِهَارِ بِالمظَاهِرِ الخَادِعَةِ، فَيَنْهَى عَنِ الِاغْتِرَارِ بِتَنَقُّلِ الكَافِرِينَ فِي البِلَادِ بِالتِّجَارَةِ وَالقُوَّةِ وَالنَّعِيمِ الزَّائِلِ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ قِيَاسِ الرِّضَا الإِلٰهِيِّ بِالتَّمَكُّنِ المادِّيِّ المؤَقَّتِ لِأَهْلِ البَاطِلِ، وَتَسْتَقِرُّ سَكِينَةُ أَنَّ كُلَّ مَا لَا يَتَّصِلُ بِالسَّمَاءِ هُوَ زَبَدٌ يَذْهَبُ جُفَاءً. وَكَمْ فُتِنَتْ أَبْصَارٌ قَدِيماً بِبَرِيقِ المتْرَفِينَ وَجَوَلَاتِهِمْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى ثَبَّتَ الوَحْيُ قُلُوبَ المؤْمِنِينَ بِهٰذَا النَّهْيِ البَلِيغِ! أَتَأَمَّلُ السَّحَابَةَ الجَهَامَ الفَارِغَةَ مِنَ الماءِ الَّتِي تَتَقَلَّبُ فِي السَّمَاءِ بِسُرْعَةٍ وَتَتَشَكَّلُ فِي صُوَرٍ ضَخْمَةٍ تُغَطِّي الأُفُقَ لِلَحَظَاتٍ، فَيَظُنُّ النَّاظِرُ الجَاهِلُ أَنَّهَا مَلِيئَةٌ بِالخَيْرِ وَالبَقَاءِ، فَمَا إِنْ تَهُبَّ عَلَيْهَا الرِّيحُ حَتَّى تَتَمَزَّقَ وَتَتَلَاشَى فِي الفَضَاءِ دُونَ أَنْ تَتْرُكَ قَطْرَةً وَاحِدَةً تَنْفَعُ الأَرْضَ. فَمَا أَعْظَمَ تَبْصِيرَ اللهِ لِنَبِيِّهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ كَيْ لَا يَغُرَّهُمْ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلَادِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ نَظْرَتِي لِمَظَاهِرِ الدُّنْيَا إِلَى بَصِيرَةٍ نَافِذَةٍ تَرَى المآلَ وَلَا تَنْخَدِعُ بِالبَرِيقِ. فَكُلُّ تَقَلُّبٍ فِي البَاطِلِ مَآلُهُ الزَّوَالُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 197 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

المَوْعِظَةُ

عُمْرُ المتَاعِ الزَّائِلِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نَفَساً عَابِراً فِي مِقْيَاسِ الأَبَدِيَّةِ، ثُمَّ تَنْطَوِي السِّتَارَةُ فَجْأَةً لِيَجِدَ المغْرُورُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي أَحْضَانِ جَهَنَّمَ الَّتِي فُرِشَتْ لَهُمْ بِئْسَ الفِرَاشُ وَالمهَادُ. فَكُلُّ قَصْرٍ شُيِّدَ عَلَى الجُحُودِ وَكُلُّ لَذَّةٍ سُرِقَتْ بِالعِصْيَانِ تَتَحَوَّلُ عِنْدَ المنْتَهَى إِلَى جِمَارٍ تَلْفَحُ الوُجُوهَ وَتُذِيبُ القُلُوبَ فِي

مَقَرٌ لَا رَاحَةَ فِيهِ وَلَا نَفَادَ. فَمَنْ زَهِدَ فِي المَتَاعِ القَلِيلِ وَبَنَى مِهَادَهُ فِي دَارِ السَّلَامِ نَجَا مِنْ سُوءِ المآلِ، بَيْنَمَا يَسْتَبْدِلُ الجَاحِدُ بِرَاحَةِ الأَبَدِ لَذَّةً تَافِهَةً تَنْتَهِي بِهِ إِلَى بِئْسَ المِهَادِ.

الصَّدَى

تَفَاهَةُ المَتَاعِ وَبِئْسَ المِهَادُ

صَدَى ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

مِيزَانٌ صَارِمٌ يُلَخِّصُ قِصَّةَ الطُّغْيَانِ كُلَّهَا فِي كَلِمَاتٍ مَعْدُودَةٍ؛ مَتَاعٌ قَلِيلٌ يَنْقَضِي فِي لَمْحَةِ بَصَرٍ، ثُمَّ يَكُونُ المَأْوَى جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ بِئْسَ الفِرَاشُ وَالمِهَادُ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ طُولِ العُمْرِ الدُّنْيَوِيِّ أَوْ عِظَمِ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ المُعْرِضُونَ، وَتَسْتَقِرُّ يَقَظَةُ أَنَّ كُلَّ مَتَاعٍ يَنْتَهِي إِلَى النَّارِ هُوَ قَلِيلٌ تَافِهٌ وَلَوْ مَلَكَ صَاحِبُهُ الأَرْضَ كُلَّهَا. وَكَمْ انْخَدَعَتْ نُفُوسٌ قَدِيماً بِفِرَاشِ الدُّنْيَا الوَثِيرِ فَنَسِيَتْ مِهَادَ الآخِرَةِ الَّذِي تَصْنَعُهُ بِأَعْمَالِهَا! أَتَأَمَّلُ المُسَافِرَ المُتْرَفَ الَّذِي يَنَامُ لِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى فِرَاشٍ مِنَ الحَرِيرِ فِي عَرَبَةٍ مُنْطَلِقَةٍ بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ نَحْوَ هَاوِيَةٍ سَحِيقَةٍ تَتَأَجَّجُ فِي قَاعِهَا النِّيرَانُ، فَمَا قِيمَةُ تِلْكَ السَّاعَةِ العَابِرَةِ مِنَ المَتَاعِ القَلِيلِ إِذَا كَانَتْ نِهَايَتُهُ السُّقُوطَ فِي بِئْسَ المِهَادِ؟! فَمَا أَشَدَّ عَدْلَ اللهِ الَّذِي يَصِفُ نَعِيمَ الكَافِرِينَ بِأَنَّهُ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ قَنَاعَتِي إِلَى زُهْدٍ وَاعٍ فِي المَتَاعِ القَلِيلِ وَعَمَلٍ دَائِمٍ لِمِهَادِ السَّلَامِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ يَخْلُو مِنَ الإِيمَانِ مَآلُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَنَعِيمِهِ الدَّائِمِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 198 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾

المَوْعِظَةُ

رِيَاضُ الكَرَامَةِ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِأَهْلِ التَّقْوَى الَّذِينَ صَانُوا قُلُوبَهُمْ عَنْ غُرُورِ الدُّنْيَا؛ فَتَسْتَقْبِلُهُمْ جَنَّاتُ الخُلُودِ الجَارِيَةِ الأَنْهَارِ ضِيَافَةً رَبَّانِيَّةً وَنُزُلاً كَرِيماً أَعَدَّهُ المَلِكُ الجَلِيلُ لِأَحِبَّائِهِ. فَمَا ادَّخَرَهُ الرَّحْمٰنُ فِي خَزَائِنِ جُودِهِ أَصْفَى وَأَبْقَى وَأَعْظَمُ لِلْأَبْرَارِ مِنْ كُلِّ مَا تَقَلَّبَ فِيهِ المُتْرَفُونَ مِنْ زِينَةِ الطِّينِ الفَانِيَةِ.

فَمَنْ آثَرَ التَّقْوَى وَالبِرَّ نَزَلَ ضَيْفاً مُكَرَّماً في جَنَّاتِ الخُلُودِ، بَيْنَمَا يَفْنَى مَتَاعُ الجَاحِدِينَ وَيَبْقَى مَا عِنْدَ الخَالِقِ خَيْراً لِلْأَبْرَارِ.

الصَّدَى

ضِيَافَةُ الرَّحْمٰنِ وَخَيْرِيَّةُ البَقَاءِ

صَدَى ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾

لَوْحَةُ البَهْجَةِ الأَبَدِيَّةِ تَرْتَسِمُ في مُقَابِلِ مَتَاعِ الغُرُورِ، فَتُبَشِّرُ المُتَّقِينَ بِجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ضِيَافَةً وَنُزُلاً مِنْ عِنْدِ الخَالِقِ، مُؤَكِّدَةً أَنَّ مَا عِنْدَهُ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ. في أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ الحِرْمَانِ عِنْدَ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ المحرَّمَةِ أَوْ مَجَارَاةِ المُتْرَفِينَ، وَتَسْتَقِرُّ طُمَأْنِينَةُ أَنَّ ضِيَافَةَ السَّمَاءِ أَعْظَمُ وَأَبْقَى لِلْأَبْرَارِ. وَكَمْ صَبَرَتْ أَرْوَاحٌ قَدِيماً عَلَى ضِيقِ العَيْشِ في الدُّنْيَا وَهِيَ تَرَى أَمَامَ عَيْنَيْهَا ذٰلِكَ النُّزُلَ الكَرِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ المَلِكُ لِلْمُتَّقِينَ! أَتَأَمَّلُ الضَّيْفَ العَزِيزَ الَّذِي يَقْطَعُ الطَّرِيقَ الطَّوِيلَ بِتَعَبٍ وَصَبْرٍ دُونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الخِيَامِ البَالِيَةِ عَلَى جَانِبَيِ الدَّرْبِ، كَيْفَ يَصِلُ في نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ إِلَى قَصْرِ المَلِكِ الكَرِيمِ فَيَجِدُ البَسَاتِينَ الوَارِفَةَ وَالأَنْهَارَ العَذْبَةَ وَالضِّيَافَةَ المعَدَّةَ خِصِّيصاً لِقُدُومِهِ في مُقَامٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَنْقَطِعُ. فَمَا أَعْظَمَ جُودَ اللهِ الَّذِي يُعِدُّ لِلْمُتَّقِينَ جَنَّاتِ الخُلُودِ نُزُلاً مِنْ عِنْدِهِ وَيَشْهَدُ بِأَنَّ مَا عِنْدَهُ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَشْوَاقِي إِلَى تَقْوَى وَبِرٍّ يَتَطَلَّعَانِ إِلَى ضِيَافَةِ السَّمَاءِ. فَكُلُّ مَتَاعٍ في الأَرْضِ قَلِيلٌ زَائِلٌ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الخَيْرِ لِلْأَبْرَارِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 199 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

المَوْعِظَةُ

نَمَاذِجُ الصِّدْقِ وَالنَّزَاهَةِ تَتَأَلَّقُ كَالجَوَاهِرِ النَّادِرَةِ في صُفُوفِ أَهْلِ الكِتَابِ، حِينَ تَتَجَرَّدُ القُلُوبُ مِنَ الكِبْرِ وَالأَطْمَاعِ فَتُؤْمِنُ بِالخَالِقِ وَبِجَمِيعِ الكُتُبِ المَنَزَّلَةِ في خُشُوعٍ وَإِخْبَاتٍ. فَهٰؤُلَاءِ الأُمَنَاءُ لَا

يَبِيعُونَ آيَاتِ السَّمَاءِ بِحُطَامِ الدُّنْيَا وَثَمَنِهَا القَلِيلِ، بَلْ يَصْدَعُونَ بِالحَقِّ وَيَتَّبِعُونَ النُّورَ، فَيَحْفَظُ لَهُمُ الدَّيَّانُ أَجْرَهُمْ كَامِلاً عِنْدَهُ وَيُعَجِّلُ لَهُمُ الوَفَاءَ إِنَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ. فَمَنْ تَجَرَّدَ لِلْحَقِّ وَخَشَعَ لِرَبِّهِ وَلَمْ يَبِعْ آيَاتِهِ بِعَرَضٍ زَائِلٍ نَالَ أَجْرَهُ مَوْفُوراً، بَيْنَمَا يَخْسَرُ المُتَاجِرُونَ بِالدِّينِ صَفْقَتَهُمْ أَمَامَ سَرِيعِ الحِسَابِ.

الصَّدَى

خُشُوعُ الأُمَنَاءِ وَعَدَالَةُ سَرِيعِ الحِسَابِ

صَدَى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

شَهَادَةُ إِنْصَافٍ سَمَاوِيَّةٌ تُكَرِّمُ الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالخَالِقِ وَبِكُلِّ مَا أُنْزِلَ خَاشِعِينَ لِرَبِّهِمْ، وَلَمْ يَبِيعُوا آيَاتِ السَّمَاءِ بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، فَحَفِظَ لَهُمْ مَوْلَاهُمْ أَجْرَهُمْ عِنْدَهُ إِنَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ. فِي أَعْمَاقِي يَتَبَدَّدُ وَهْمُ التَّحَزُّبِ الَّذِي يُنْكِرُ الفَضْلَ لِأَهْلِهِ أَوْ يَخْضَعُ لِضُغُوطِ المَصَالِحِ عَلَى حِسَابِ الحَقِّ، وَتَسْتَقِرُّ عِزَّةُ الخُشُوعِ لِلهِ وَنَزَاهَةِ العِلْمِ. وَكَمْ صَمَدَتْ قُلُوبٌ صَافِيَةٌ قَدِيماً أَمَامَ إِغْرَاءَاتِ المَالِ وَالجَاهِ فَلَمْ تَبِعْ آيَاتِ رَبِّهَا بِثَمَنٍ قَلِيلٍ، فَكَرَّمَهَا القُرْآنُ بِهَذَا الثَّنَاءِ الخَالِدِ! أَتَأَمَّلُ الجَوْهَرِيَّ الأَمِينَ الَّذِي يَجِدُ الدُّرَّةَ اليَتِيمَةَ النَّادِرَةَ فَيَحْفَظُهَا بِخُشُوعٍ وَإِجْلَالٍ وَيَرْفُضُ أَنْ يَبِيعَهَا بِدَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ تُغْرِيهِ بِهَا الأَسْوَاقُ الفَانِيَةُ، فَيُكْرِمُهُ المَلِكُ الحَقُّ بِأَجْرٍ عَظِيمٍ فِي خَزَائِنِهِ وَيُعَجِّلُ لَهُ الجَزَاءَ لِأَنَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ. فَمَا أَعْظَمَ إِنْصَافَ اللهِ سَرِيعِ الحِسَابِ الَّذِي يُكْرِمُ الخَاشِعِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِهِ ثَمَناً قَلِيلاً! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ أَمَانَتِي مَعَ الآيَاتِ إِلَى خُشُوعٍ صَادِقٍ يَرْفُضُ مُسَاوَمَاتِ الدُّنْيَا وَيَرْجُو الأَجْرَ عِنْدَ الرَّبِّ. فَكُلُّ مَنْ بَاعَ الآيَاتِ بِالدُّنْيَا خَسِرَ الصَّفْقَةَ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ سَرِيعِ الحِسَابِ.

مَوْعِظَةُ آيَةِ 200 مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

المَوْعِظَةُ

خِتَامُ السُّورَةِ الكَرِيمَةِ يَرْفَعُ رَايَةَ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ فَوْقَ أَرْبَعِ دَعَائِمَ رَاسِخَةٍ تَصْنَعُ مَنَاعَةَ الرُّوحِ وَقُوَّةَ الصَّفِّ فِي مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ الطَّوِيلَةِ؛ صَبْرٌ يَثْبُتُ بِهِ الفَرْدُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالبَلَاءِ، وَمُصَابَرَةٌ تَتَفَوَّقُ عَلَى عِنَادِ الخُصُومِ وَتُطَاوِلُ نَفَسَ البَاطِلِ حَتَّى يَنْكَسِرَ، وَمُرَابَطَةٌ تَلْزَمُ الثُّغُورَ وَتَحْرُسُ القُلُوبَ مِنَ الغَفْلَةِ، ثُمَّ تَقْوَى تَشُدُّ البُنْيَانَ كُلَّهُ بِمَرَاقَبَةِ الدَّيَّانِ لِتُفْتَحَ لِلسَّائِرِينَ أَبْوَابُ الفَلَاحِ المُبِينِ. فَمَنْ أَقَامَ أَرْكَانَ الصَّبْرِ وَالمصَابَرَةِ وَالرِّبَاطِ وَالتَّقْوَى ظَفِرَ بِفَلَاحِ الدَّارَيْنِ، بَيْنَمَا يَنْهَارُ مَنْ أَخَلَّ بِهَذِهِ الحُصُونِ أَمَامَ عَوَاصِفِ الفِتَنِ وَالخُسْرَانِ.

الصَّدَى

حُصُونُ الفَلَاحِ وَخِتَامُ المِيثَاقِ

صَدَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

وِصَايَةٌ خِتَامِيَّةٌ جَامِعَةٌ تَرْسُمُ خَارِطَةَ النَّجَاةِ وَالفَلَاحِ؛ صَبْرٌ عَلَى النَّفْسِ، وَمُصَابَرَةٌ لِلْعَدُوِّ، وَمُرَابَطَةٌ عَلَى الثُّغُورِ، وَتَقْوَى تَحْرُسُ المسِيرَةَ كُلَّهَا لِتَبْلُغَ القُلُوبُ مِينَاءَ الفَلَاحِ الأَبَدِيِّ. فِي أَعْمَاقِي يَنْهَارُ وَهْمُ الِاكْتِفَاءِ بِجُهْدٍ عَابِرٍ أَوْ صَبْرٍ مُؤَقَّتٍ، وَتَسْتَقِرُّ عَزِيمَةُ المثَابَرَةِ وَالرِّبَاطِ الدَّائِمِ فِي طَاعَةِ الخَالِقِ حَتَّى اللِّقَاءِ. وَكَمْ تَاهَتْ خُطًى قَدِيماً عِنْدَمَا ظَنَّتْ أَنَّ الطَّرِيقَ قَصِيرٌ فَتَرَكَتِ الرِّبَاطَ وَالتَّقْوَى، حَتَّى خَتَمَ الوَحْيُ هٰذِهِ السُّورَةَ العَظِيمَةَ بِهٰذَا الدُّسْتُورِ الخَالِدِ لِلْفَلَاحِ! أَتَأَمَّلُ الحِصْنَ المنِيعَ القَائِمَ عَلَى شَاطِئِ البَحْرِ المضْطَرِبِ، كَيْفَ يَصْبِرُ عَلَى ضَرَبَاتِ الأَمْوَاجِ المتَتَالِيَةِ وَيُصَابِرُ عَصْفَ الرِّيَاحِ طِيلَةَ اللَّيْلِ الطَّوِيلِ وَيُرَابِطُ حُرَّاسُهُ عَلَى الأَسْوَارِ بِيَقَظَةٍ وَتَقْوَى لَا تَفْتُرُ، حَتَّى تَنْكَسِرَ الأَمْوَاجُ العَاتِيَةُ وَيُشْرِقَ فَجْرُ السَّلَامِ وَالفَلَاحِ فَوْقَ أَبْرَاجِهِ الشَّامِخَةِ. فَمَا أَعْظَمَ هِدَايَةَ اللهِ الَّذِي يَجْمَعُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَسْبَابَ الفَلَاحِ فِي الصَّبْرِ وَالمصَابَرَةِ وَالرِّبَاطِ وَالتَّقْوَى! هٰكَذَا تَتَحَوَّلُ حَيَاتِي كُلُّهَا إِلَى صَبْرٍ جَمِيلٍ وَرِبَاطٍ يَقِظٍ وَتَقْوَى صَادِقَةٍ تَطْلُبُ فَلَاحَ الدَّارَيْنِ. فَكُلُّ مَسِيرَةٍ تَخْلُو مِنَ الصَّبْرِ وَالرِّبَاطِ وَالتَّقْوَى مَآلُهَا الخُسْرَانُ، وَلَا بَقَاءَ إِلَّا لِلهِ الَّذِي يَهَبُ الفَلَاحَ لِلْمُتَّقِينَ.

